إيزابيل ألليندي

بيت الأرواح

رواية



الأعمال الكاملة
المترجمات ٢

د. سامي الجندي

بيت الأرواح

* بيت الأرواح (رواية)
* إيزابيل الليندي
* الطبعـة الثانية ١٩٩٩
* دار الجندي للنشر والتوزيع: سورية ـ دمشق
هاتف : ٣٣١٧٠١٩ ـ ص. ب : ٣٣٤١٨
فاكس: ٣٣١٧٠٠٨

ايزابيل الليندي

بيت الأرواح

(رواية)

ترجمة د. سامي الجندي

إلى أمي وجدّتي وبقية النساء العظيمات في هذه القصة.

إيزابيل الليندي

كم يعيش الإنسان، في نهاية المطاف؟
أعاش ألفاً من السنين أم سنة واحدة؟
أعاش أسبوعاً أم عدة قرون؟
حتى متى يموت الإنسان؟
بل ما معنى: إلى الأبد؟

بابلو نيرودا

الفصل الأول

روزا الجميلة

كتبت كلارا الصغيرة بخطّها الرهيف أن قد وصل برّاباس إلى العائلة عن طريق البحر. ولقد دأبت منذ ذلك الزمن على تدوين الأشياء الهامة، حتى إذا أصبحت فيما بعد خرساء سجلت التافه منها، دون أن يتبادر لها أني بعد خمسين سنة سوف أعتمد دفاترها لأحرر الذاكرة من الماضي وأعيش بُعد رعبي نفسه. كان يوم وصول بارّاباس هو الخميس المقدّس. لقد نزل إلى اليابسة في حالة يرثى لها، غطّاه برازه وبوله ونظرته نظرة سجين تائه بائس دون دفاع، ولو أنه يمكن التنبؤ ـ من هيئة رأسه الملكي، ومن تناسب هيكله العظمي ـ بالعملاق الخرافي الذي سوف يصبح هو ذاته. كان يوم خدر خريفيّ لايدع أبداً ماينذر بالأحداث التي سجلتها الصغيرة كي تحفظ منها ذكرى ماحصل خلال قدّاس الظهر في كنيسة سان سباستيان الذي حضرته العائلة جميعاً. لقد غُطّي القديسون حداداً بقماش بنفسجي يزيل غباره الأتقياء سنويّاً من خزانة الموهف وكانت الجماعة السماوية تبدو تحت تلك الأكياس الجنائزية كمستودع أثاث على أهبة رحيل دون أن تستطيع الشموع أو البخور أو تأوهات الأرغن التصدي لهذا الانتقال المؤسف. وانتصبت في مكان القديسين ومحلّهم كتل قاتمة مهددة بوجوهها المتشابهة وتعبيرها المزكوم، وشعرها المستعار المتقن كشعر الموتى، ويواقيتها، ولآلئها وزمرّدها البلوري وأزيائها المضحكة كما لو كانوا من نبلاء

فلورنسا. والوحيد الذي حاباه الحداد هو القديس سباستيان بالقدر الذي كان فيه يجنّب، خلال الأسبوع المقدس، المؤمنين رؤية جسده الذي تغضّن في وضع غير محتشم وقد اخترقته نصف دزينة من النبال وسال منه الدم والدمع كلوطّي مكتئب جدّد جراحه بمثل الأعجوبة إمزيل الأب ريزيربو حتى لتجعل كلارا ترتعد من قرف.

كان أسبوع تكفير وصيام طويل فلا من يلعب بالورق ولامن يعزف موسيقى لأنها تدفع إلى الفسق والنسيان وكان الناس يتقيدون ماوسعهم بأكبر حزن وأكثر طهارة ولو أن مهماز الشيطان كان، بخاصة في هذه الأيام يغري في إلحاح لاشبيه له الجسد الكاثوليكي الضعيف. كان الصيام يقوم على المعجّنات الطيبة ويخنة الخضراوات الشهية والعجّات مسيلة اللعاب والجبن العريض الآتي من الريف الذي تحتفي به العائلات بذكرى آلام السيّد وهي تدفع نفسها عن أن تمسّ ولو أدنى قطعة من اللحم أو السمك السمين مخافة الحرمان كما أعلن في إلحاح الأب ريزيربو. فلا أحد يجازف بعصيانه. ولقد كان هذا الكاهن يتمتع باصبع طويلة نمّامة تدلّ علناً على المخطئين، ولسان تعود على إثارة الندم.

كان يصيح قائلاً من فوق المنبر وقد دلّ بـإصبعه على رجل تشاغل بالتظاهر أنه يرمي نتفة خيط بقفا يده كي لايواجهه: أنت أيها اللص، يا من اختلست درهم العبادة! أو يقول: «وأنت أيتها الفاجرة يا من تزنين على الأرصفة». وهو يرمي باتهامه إستيرتروبيا الكسيحة بالتهاب المفاصل، عاشقة عذراء الكرمل، وقد جحظت عيناها من دهشة، دون أن تعرف معنى الكلمة أو أين توجد الأرصفة. توبوا أيها المخطئون، يا جيفة نجسة، فأنتم لستم أهلاً لتضحيات سيّدنا! صوموا! كفّروا عن ذنوبكم!

ولقد كان الكاهن، حين تستبد به حميّا حماسة الكهنوتي يمسك بنفسه كي لايعارض علناً تعليمات رؤسائه الكنائسيين الذين نفّضت الغبار عنهم ريح الحداثة والذين يحظّرون ارتداء المسوح وجلد السياط. فيما كان هو من مؤيدي قهر سقطات الروح بجلد الجسد. كان مشهوراً ببلاغته الجموح. كان المؤمنون

به يلحقون بخطاه من كنيسة إلى كنيسة، وهم ينضحون دماً وعرقاً لسماعه وهو يصف عذاب المخطيئين في الجحيم، والمقاعد التي مزّقتها آلات التعذيب الماهرة، واللهب الخالد، والكلابات التي تخترق أعضاء الذكورة والزواحف المقرفة التي تدخل في فروج النساء، وذلك غيض من فيض التعذيب الذي يحشو به كل خطبة كي يبذر الخوف من الله. الشيطان نفسه كان يصفه حتى في حميم تشوّهاته بلهجة الراهب الغاليسيّة[1] الذي أنيطت به في هذا العالم الدنيء مهمة تحريض وجدان المولّدين البليدين.

كان سيفير وديل فاله ملحداً وماسونياً غير أنه كانت له طموحات سياسية فلا يستطيع أن يسمح لنفسه بالتخلف عن أكثر الصلوات حشداً، أيام الأحد والأعياد كي يقدر الناس جميعاً على رؤيته. أما زوجته نيفيا فكانت تفضل التفاهم مع الله دون وسطاء، وكانت تكنّ سوء الظن اتجاه الجبّة وتتثاءب من وصف السماء، والمطهر والجحيم، لكنها كانت تواكب طموحات زوجها البرلمانية آملة، أنه إذا احتلّ، مقعداً في البرلمان استطاعت الحصول على تصويت المرأة الذي تناضل من أجله منذ أكثر من عشر سنوات دون أن يتمكن حبلها المتّصل من تثبيط همّتها. وفي ذلك الخميس المقدس حمل الأب ريستر يو رعيته إلى أقصى حدود مقاومتها تجاه رؤياه النبويّة وبدأت نيفيا تحسّ بالدوار. وتساءلت إن لم تكن حبلى من جديد. لقد منحت الحياة بالرغم من حقن الخل والكمادات المبللة بالمرّة[2] إلى خمسة عشر طفلاً، مازال منهم أحد عشر على قيد الحياة، ولها بعض الحق أن تفكّر أنها باتت تكاد تستقر. في عمر النضج لأن كلارا، البنت الثانية بلغت الآن عشر سنوات. ويبدو أن فيض خصبها الغريب آخذ بالهمود. وتوصلت إلى أن تنسب ضيقها إلى خطبة الأب ريستر يو فقد دلّ عليها بـإصبعه وهو يذكر الفرّيسين الذين يطالبون بجعل أبناء الزنى شرعيين وبالزواج المدني الذي يخلّع أوصال العائلة والوطن والملكية والكنيسة ويمكّن النساء من وضع الرجال نفسه في خرق علني لشريعة الله التي ليس أوضح منها

---

١ ـ اللهجة الإسبانية القديمة.

٢ ـ مادة طعمها مرّ.

في هذا المجال. ولقد كانت نيفيا وسيفير وأولادهما يحتلون كل مقاعد الصف الثالث. واتخذت كلارا مكاناً إلى جانب أمها وكانت هذه تشدّ على يدها قلقاً كلما أوغلت خطبة الكاهن في إسرافها عن خطايا الجسد لأنها كانت تعرف أن الصغيرة تصل إلى حالة المشاهدة العيانية للزيغ الذي يتجاوز الحقيقة كثيراً، كما تثبت ذلك الأسئلة التي تطرحها ولايستطيع أحد الإجابة عنها. ولقد كانت كلارا مبكّرة النضج موهوبة بفيض خيال ترثه كل نساء العائلة من جهة الأم. وارتفعت حرارة الكنيسة واجتاحتها رائحة الشموع والبخور والحشد الذي تكدّس فزاد في تعب نيفيا. وأخذت تأمل أن ينتهي الاحتفال كيما ترجع إلى بيتها الندي، وتجلس تحت الفيراندا وسرخسها وتتذوق جرة شراب اللوز الذي تحضّره النونو أيام الأعياد. وتفحّصت أولادها: صغارهم كانوا مجهدين، أثقلت عليهم ثياب الأحد، أما كبارهم فقد بدؤوا يلهون. وحطت عيناها على روزا، بكر الأحياء من بناتها، وهيمن عليها، كما في كل مرّة، الإعجاب. كان جمالها الغريب ذا سلطة مثيرة لاتنجو هي نفسها منها، كأنها صنعت من مادة مختلفة عن بقية الجنس الإنساني. كانت تعرف نيفيا عنها أنها ليست من هذا العالم قبل أن تأتي بمدة لأنها رأتها في الحلم ولم تعجب حين صرخت القابلة لما شاهدتها. كانت روزا حين ولادتها، بيضاء من غير عوج، ملساء دون أية جعدة، كأنها عيبة من خزف، شعرها أخضر وعيناها صفراوان، أجمل طفل ظهر على وجه الأرض منذ أيام الخطيئة الأزلية، كما قالت القابلة. ولقد غسلت النونو لها شعرها من أول زينة لها بنقيع البابونج مما خفّف من لونه بأن أعطاه نسق لون البرونز القديم وعرضتها عارية للشمس كي تقوّي جلدها الشفاف في أكثر الأمكنة رقّة من بطنها وإبطيها حيث كانت تتخايل الأوعية الدموية وتركيب العضلات الخفيّ. غير أن بدع الغجر تلك لم تكن كافية، وانتشرت سريعاً شائعة بأنهم ولد لهم ملاك. وأملت نيفيا بأن تمنح ابنتها مراحل بداية الشباب غض الشوائب، لكنّ شيئاً من ذلك لم ير النور، بل على العكس فروزا لم تزدد في الثامنة عشر وزناً ولاظهرت عليها بثور وإنما ازداد حسنها البحري. كان لون جلدها ذي الإنعكاسات الزرق، كسمة شعرها وبطء حركتها وطبعها

الصامت تذكر بساكن الموجة: كان فيها شيء من السمك ولو أنها وهبت ذيلاً ذا حراشف لكانت جنية بحر ولاغرو لكن فخذيها كانا يركنانها على حدود غامضة بين المخلوق الإنساني والكائن الميثولوجي. لكن الفتاة رغم كل ذلك عاشت حياة تقريباً عادّية فقد كان لها خطيب وكانت ستتزوج بين يوم وآخر وتنتقل بعدها مسؤولية جمالها إلى أيدٍ أخرى. وحنت روزا رأسها وانسرب شعاع عبر زجاج الكنيسة الغوطية المعشّق فأحاط عارضها بهالة. والتفت بعض كي يتأملوها وأخذوا يهمسون، غير أن روزا تبدّت وكأنها لاتنتبه لشيء، فقد كانت عصيّة على الغرور وفي ذلك اليوم كانت أكثر غياباً من العادة، تخيّل دويبات جديدة توشّي صفحة جسدها نصف طائرة ونصف لبونة عطاها ريش متقزّح اللون وقد زوّدت بقرون وحوافر، وهي على ضخامة وعلى أجنحة من القصر حتى لتتحدّى قوانين البيولوجيا والديناميكية الهوائية. ونادراً ماكان يخطر ببالها خطيبها إيستبان تروييبا. وليس ذلك عن نقص في حبها له وإنما نتيجة لمزاجها النسّاء ولأن سنتين من الفراق تجعلان الغياب طويلاً. كان يعمل في مناجم الشمال. وكان يكتب لها بانتظام وكانت تجيبه من وقت لآخر بأن ترسل له أبياتاً منقولة أو رسوم أزهار بالحبر الصيني على ورق شبيه بالرق. ولقد علمت من هذه المراسلة، التي كانت تنتهكها نيفيا بصورة منتظمة، ظروف مهنة عامل المنجم الذي تهدده دائماً الانهيارات، تبعاً للسراديب المنزلقة وسحب الكمبياليات بانتظار حسن الحظ، تقديراً بأن الأمر يؤول إلى ظهور عرق ذهب عجائبي يمكنه من جني ثروة سريعاً فيرجع كي يقود روزا من ذراعها إلى المذبح ويتحول إلى أسعد رجل في كل الكون، كما كان لاينقطع عن قوله لها في آخر رسائله. وماكانت روزا أبداً مستعجلة في شأن الزواج كما كادت تنسى القبلة الوحيدة التي تبادلاها لحظة فراقهما، كما وكانت لاتستطيع أن تذكر لون عيني هذا الخطيب العنيد. فلقد كانت تحت تأثير الروايات العاطفية التي تكون كل قراءتها، يطيب لها أن تتخيله في جزمة جلد وقد كوت جلده رياح الصحراء ينكش الأرض بحثاً عن كنوز القراصنة من دنانير إسبانية ومجوهرات أنكيّة وكانت تحاول، ولو أن جهدها يذهب هباء، في أن تقنعها

بأن ثروة المناجم ترقد داخل الحجر، لأن ماكان يبدو لروزا أنه يستحيل على إيستيبان تروبيا أن يجمع أطناناً من الحجارة آملاً إذا أخضعها إلى معالجة ظالمة بالأفران أن تبصق غراماً واحداً من ذهب. وكانت خلال هذا الوقت تنتظره دون ملل، وقد تعلقت رابطة الجأش بالمهمة الكبرى التي حددتها لنفسها: أن تطرز أكبر سماط في العالم. بدأت بالكلاب والقطط والفراشات، غير أن الخيال مالبث أن استبد بعملها فأخذت تظهر فيه جنّة من حيوانات مستحيلة تبدعها إبرتها تحت عيني أبيها القلق من أجلها. كان يقدّر سيفير وبأن الوقت حان كي تخرج ابنته من خدرها وتنزل إلى الأرض وأن تلمّ ببعض الشؤون البيتية وتعدّ نفسها للزواج، لكن نيفيبيا ماكانت تشاركه هذا الهمّ. كانت تفضّل ألّا تعذّب ابنتها بضرورات على هذه التفاهة لأنها كانت تحس أن روزا مخلوق سماوي لم تخلق كي تدوم طويلاً في زحمة هذا العالم الدنيء الثقيلة، ولهذا كانت تدعها وشأنها وخيوط تطريزها فلا تعترض أمراً من أمور حيواناتها الكابوسية.

وانكسرت عارضة في مشدّ نيفيبيا وأخذ رأسها ينغرز بين الأضلاع. أحست أنها تختنق في روبها المخملي الأزرق ذي ياقة الدانتيلا العالية والردفين الضيّقين والخصر الشديد الإحكام حتى إنها لما حلت نطاقها حاق بها نصف ساعة من المغص المعوي قبل أن تسترد أمعاؤها مكانها الطبيعي. ولقد ناقشت في هذا الموضوع صديقاتها المستنخبات وقد توصلن إلى الخلاصة القائلة بأن النساء مالم يقصرّن خرّاطاتهنّ وشعورهنّ ومالم يتخلّصن من تنانيرهن، فلن يعنيهن شيئاً أن يسمح لهن بدراسة الطب أو استعمال حق الانتخاب لأنهن لن تكون لهن أبداً الشجاعة في أن يفعلن مع ذلك لم تكن تحس بأن لديها الجرأة بأن تكون من أوليات من يتخلّين عن المودة. ولقد لاحظت أن لهجة غاليسيا انقطعت عن خبط جمجمتها. وكانت تعني من ذلك إحدى الوقفات الطويلة إبان الخطبة التي كان الخوري يلجأ إليها كثيراً، وهو العليم بآثار الصمت المزعج. كانت عيناه المشتعلتان تستخدمان هذه الهنيهات في استعراض رعيته واحداً بعد آخر. وتركت نيفيبيا يد ابنتها كلارا فأخرجت محرمة من كمها كي

تنشف قطرة سالت على طول عنقها. وتكاثف الصمت، وبدا أن الوقت توقف في الكنيسة، لكن أحداً لم يجازف بالسعال أو تبديل موضعه خوفاً من أن يثير انتباه الأب ريستر يبو. حين كانت أواخر جملة ترتجّ بين الأعمدة.

وفي هذه اللحظة، كما سوف تتذكر نيفيبا خلال سنين فيما بعد، وفي عزّ هذا الحصر وهذا الصمت سمع صوت كلارا واضحاً جدّاً وهي تقول:

ـ بست! يا أبانا ريستر يبو! إذا لم تكن حكاية هذا الجحيم غير كذبة كبيرة فقد شربنا مقلباً صعباً..

وظلت سبابة الجزويتي، وقد ارتفعت في الهواء كي يصف عذابات أخرى، معلقة كمانعة صواعق فوق رأسه. وأمسك الناس بأنفاسهم واستفاق من كان يكبو منهم، أما الزوجان ديل فاله وقد أحسّا أن الرعب يستبد بهما وتبيّنا أن أبناءهما أخذوا يتململون بعصبية فكانا أوّل من ظهر عليه ردّ الفعل. ولقد أدرك سيفير وأنه وجب عليه أن يبدأ بالعمل قبل أن يعم المرح الجمع أو أن تنزل نازلة من السماء. فأخذ زوجته من ذراعها وكلارا من رقبتها وخرج يجرّهما بخطوات واسعة يتبعه بقية أبنائه يستعجلون كإعصار ناحية البوابة. ولقد تمكنوا من الخروج قبل أن يستطيع الكاهن التماس برقٍ ما يحيلهم نصباً من ملح، لكنهم سمعوا حتى الكنة صوته الراعب كصوت ملاك محنق:

ـ يا مسيسة الشيطان! يا مسيسة الشيطان المغرورة!

ولقد بقيت كلمات الأب ريستر يبو هذه محفورة في ذاكرة العائد وعليها وقار التشخيص ولقد عنّت لهم ذكراها في فرص عديدة عبر السنين. والوحيدة التي لم تخطر لها أبداً هي كلارا نفسها التي اكتفت بأن دوّنتها في مفكّرتها ونسيتها حالاً. أما ذووها فلم يستطيعوا اجتنابها ولو أنهما اتفقا على التفكير بأن المس والغرور هما خطيئتان كبيرتان على طفلة صغيرة. كان يخافان اغتياب الناس لهما وتعصّب الأب ريستر يبو. وحتى ذلك اليوم لم يضعا اسماً يصفان به شواذ ابنتهما الثانية ولم يعزواها إلى تأثير شيطاني. كان يقدران أنها من طباع البنت الخاصة بها على نفس مستوى عرج لويس وجمال روزا. ولم تزعج طاقات كلارا أحداً ولم تسبب اضطراباً كبيراً، كانت تتجلّى تقريباً دائماً

تجاه أشياء قليلة الأهمية وفي حميميّة البيت الدقيقة. أحياناً كانت خلال وجبات الطعام، عندما يجتمعون كلهم في قاعة الطعام الكبرى، وقد جلس كل منهم تبعاً لمركزه والاحترام الواجب لكل منهم، تبدأ المملحة تفزّ وتتنزّه في خفّة عبر الطاولة بين الكؤوس والصحاف دون أي تدخل معين أو طاقة معروفة أو حيلة مشعوذ. وكانت نيفيبا تشد كلارا من جدائلها. فتتوصّل بفضل هذه الوسيلة أن تنقطع ابنتها عن هذه التسلية الغريبة وتعيد المملحة إلى حالها الطبيعية فتستردها هذه منذ أن تعود إلى جمودها. ولقد أعدّ إخوتها وأخواتها أنفسهم، في حال وجود زوّار، أن يصفع الأقرب صفعة قوية كل مايمكن أن يتحرك على المائدة قبل أن ينتبه الزوار في رجفة منهم. وكانت العائلة تستمر في طعامها دون تعليق. كما تعودت على نذر البنت الثانية. التي كانت تنبئ عن الهزات الأرضية قبل حدوثها ببعض الوقت، وهو ماثبتت فائدته في منطقة الكوارث هذه، فقد كانت تتاح الفرصة لوضع آنية المائدة في مكان أمين وأن يدعوا الشحاطات قريبة من متناول اليد للخروج سريعاً في الليل. ولقد كانت كلارا في سن السادسة حينما تنبأت بأن الحصان سوف يسقط لويس عنه غير أن هذا لم يشأ أن يسمع فوجد نفسه وقد انخلعت إحدى خاصرتيه. وأخذت فخذه اليسرى تقصر، مع الزمن، واضطر إلى لبس حذاء خاص ذي نعل ضخم صنعه بنفسه. وألم بنيفيبا هذه المرّة بعض القلق، لكن النونو ردّتها إلى صفائها بقولها لها، بأن عدد الأطفال الذين يطيرون كالذباب لايحصى، والذين يقرؤون الأحلام ويتحدثون مع الأرواح، ولكن هذا ينقضي كله في اليوم الذين يفقدون فيه براءتهم.

ولقد وضحت لها قائلة: «إنّ أحداً لايظل على هذا الشأن إذا كبر وانتظري حتى تقوم البنت بالتجربة فسترين أنها فقدت هوس تحريك الأثاث والتنبؤ بالمصائب.

كانت كلارا الآكثر حظوة عند النونو. لقد ساعدتها في الولادة وكانت الوحيدة التي تفهم حقّاً طبيعة البنيّة العجيبة، فلما خرجت كلارا من بطن أمها، هدهدتها النونو، وغسلتها فأحبت منذ تلك اللحظة بشغف هذه الوليدة

الضعيفة ذات الرئتين المليئتين بالبلغم، التي هي دائماً، على حافة انبهار النفس والتحول إلى اللون البنفسجيّ، فكانت تضطر عدة مرّات إلى وضعها كي تنعشها، على حرارة صدرها العريض حين ينقصها الهواء لأنها تعرف أن ذلك هو الدواء الوحيد ضدّ الربو وأكثر نجاعة من كل شرابات الدكتور كويفاس المكحللة.

في ذلك الخميس المقدس كان سيفير يذرع الصالون بخطاه، وقد شغلته الفضيحة التي سببتها ابنته أثناء الصلاة. كان يذهب إلى أن المتعصب فحسب، مثل الأب ريستر يبو يستطيع أن يعتقد بوجود الذي بهم مسّ في أوج القرن العشرين، قرن الأنوار والعلوم والتقن، حيث فقد الشيطان نهائياً كل اعتبار، والخطير في المسألة هو إذا تجاوزت فعال ابنته حيطان البيت وأخذ الخوري يدسّ أنفه فيها، فالناس عندها سوف يعرفون الأمر جميعاً.

قالت نيفيبا: «سوف يبدأ الناس باقتحامنا كي يشاهدوها كأنها أعجوبة».

وأضاف سيفيرو وهو يقوّم الضرر الذي سوف ينتاب حرفته السياسية أنّ في عائلته مفتونة فقال: «سوف يعاني حزب الأحرار مشكلة».

وفيما هما على هذه الأفكار دخلت عليهما نونو وهي تجر نعلها العتيق، في حفيف خراطتها المنشّاة، كي تنبئهما بأن رجالاً في باحة الدار يسلمون لها ميتاً. وكان الأمر صحيحاً. فقد فاجؤوا الدار بعربة موتى ذات خيول أربعة احتلت مقدمة الباحة، وسحقت الكاميليا ولوثت بالروث الدرج اللامع، جاؤوا في زوبعة غبار، وكدف أحصنة وتجديف متطيّرين يكررون إيماءاتهم ضد الحظ السيء. كانوا يحملون الخال ماركوس وكلّ متاعه. كان يدير هذه الضوضاء كلها مسخ مشوه، يرتدي سواداً بسواد من الريدنجوت إلى قبعة كبيرة جدّاً عليه، اندفع في خطاب احتفالي يشرح فيه مداخل ومخارج المسألة، غير أن نيفيبا قطعته بعنف وانقضّت على النعش الأغبر الذي يحوي بقية أخيها العزيز. كانت تزعق نيفيبا كي يفتحوا الغطاء لعلّها تراه بأم عينيها. لقد حدث في الماضي أن دفنوه مرّة ولذلك شكت الآن في أن يكون موته حتميّاً. ولقد

استدعى صياحها كل جماعة خدم البيت والأبناء جاؤوا وقد انهدّوا وهم يسمعون لفظ اسم خالهم في نحيب الحداد.

منذ زوج من السنين لم تر كلارا خالها ماركوس أبداً، ولو أنها تذكره جيّداً. ولو أن تلك هي الصورة الوحيدة الكاملة الوضوح من طفولتها الأولى، وما كانت بحاجة، كي تتمثلها، للرجوع إلى صورة الصالون التي يبدو فيها لابساً زيّ مكتشف، وقد اتكأ على غدارةٍ قديمة من نموذج الطلقتين وقدمه اليمنى على رقبة نمر ماليزي وفي وضع المنتصر نفسه الذي لاحظته لدى عذراء مذبح الكنيسة الرئيس وهي تدعس الشيطان المقهور بين غيوم الجصّ وصغار الملائكة الشاحبة. كان يكفي كلارا أن تغلق عينيها حتى ترى خالها بلحمه وعظمه وقد صبغته قسوة كلّ مناخات الكرة الأرضية، هزيلاً بشاربي قرصان تكتشف في وسطها ابتسامته الغريبة بأسنان قرش. لقد بدا وكأنه يستحيل أن يغدو إلى هذه العلبة السوداء في وسط الباحة.

كان ماركوس في كل زيارة إلى بيت أخته نيفيبيا يقضي عدة شهور مستمرّة يثير فيها حبور أخته وكلارا وزوبعة يختلط فيها نظام الخدم. كان البيت يزدحم بالحقائب، والحيوانات المحنّطة، ورماح الهنود وصرر الأسفار. كان أهل البيت يصطدمون في كل ناحية بمتاعه الغريب وقد ظهرت فيه دويّبات مارؤيت من قبل ارتحلت معه من أقاصي الأرض كي تنسحق تحت مكنسة النونو الظالمة في زاوية ما من الدّار. كان يقول سيفيرو إن عادات الخال ماركوس هي عادات أكلة لحم البشر. كان يقضي ليله في الصالة بالقيام بحركات لاتفهم وعرفوا فيما بعد أنها تمارين القصد منها سيطرة الروح على الجسد وتيسير الهضم. كما كان ينصرف إلى تجارب الكيمياء في المطبخ فيملأ البيت بأدخنة عفنة ويتلف القدور بمواد صلبة لايستطيعون انتزاعها من القعر. وفيما يسعى الآخرون إلى النوم كان يجر حقائبه على طول الممرّات ويتدرب على أنغام شديدة الحدّة على آلات همجيّة ويعلّم ببغاء الكلام بالإسبانية مع أن لغته الأصلية هي من منشأ أمازونيّ. كان ينام أثناء النهار في أرجوحة مدّها بين عمودين على الفيراندا دون غطاء غير وزرة تثير حنق سيفيرو، مع أن نيفيبيا لم تكن ترى فيها أي خبث بعد

أن أكد لها ماركوس أن الناصري كان هكذا يبشّر. كانت كلارا تذكر دون خلل، ولو أنها كانت جدّ صغيرة في ذلك العهد المرّة الأولى التي نزل فيها خالها ماركوس في البيت، بعد رحلة من رحلاته. لقد سكن وكأنه باق أبداً. وحين تعب من تقديم نفسه إلى نوادي النساء الوقحات حيث تعمد سيدة البيت إلى نغمات متسارعة على البيانو ومن لعب الورق تهرّب من إلحاح أقربائه الذين أردوا أن يضعوا وقراً في رأسه كي يعمل موظفاً في مكتب محاماة سيفير وديل فاله، فاشترى أرغناً غجريّاً وراح يذرع الشوارع وفي نيته إغواء بنت عمه أنتونيتيا وأن يدخل بالوقت نفسه، السرور إلى المتسكعين بموسيقاه اليدويّة. وماكانت الآلة غير صندوق صدئ له عجلات غير أنه رسم عليه صوراً بحرية وزرع فيه مدخنة مركب مزيفة، مما أضفى عليه هيئة مطبخ على الفحم. وكان الأرغن يعزف بالتناوب مارشاً عسكرياً ثم فالنساً وبعد كل دورة مقبض كان الببغاء، الذي تعلم الاسبانية ولو أنه احتفظ بلكنته الأجنبية، يدعو الناس بصرخاته الحادة. وكان يخرج بمنقاره من العلبة قطعاً من ورق كي يبيع الحظ للفضوليين. ولقد أعدت هذه الأوراق الوردية والخضراء والزرقاء في مهارة حتى لتمسّ شغاف أقصى الرغبات سرّية عند الزبون. كما كان يبيع بالإضافة إلى وريقات الحظ كرات صغيرة صوتية لتسلية الأطفال وذروراً ضد العنانة يتفاوض في شأنها بصوت خفيض مع العابرين المصابين بهذه العلّة. لقد انبثقت فكرة الأرغن الغجري على أنها آخر علاج ليأسه من قضية اجتذابه ابنة العم أنتونيتيا بعد أن فشلت سبل أخرى أقرب إلى التقاليد في المثابرة. قال في نفسه أن امرأة صحيحة العقل لايمكن لها أن تظل باردة أمام سيرينادا الليمونير[1]. واجتهد في أمره. جاء وعسكر تحت نافذتها في آخر عصر أحد الأيام وأخذ يعزف مارشه العسكري وفالسه فيما كانت تشرب الشاي مع جماعة من صحيباتها. لم تحس أنتونيتيا أنها المعنية حتى أخذ الببغاء يناديها باسم عمادها: انحنت آنئذ على النافذة. لم تكن ردّة فعلها مايرومه عاشقها. وتطوعت صديقاتها بترويج الخبر في صالونات المدينة، فبدأ الناس منذ اليوم التالي، بذراع شوارع المركز آملين أن

---

١ ـ أرغن باسم مخترعه.

يروا بأم أعينهم أخا زوجة سيفير وديل فاله وهو يعزفه على أرغن عجري ويبيع كرات الصوت برفقة ببغاء أكله العثّ. وذلك بكل بساطة من أجل التلذذ بالتأكد أن أحسن العائلات نفسها فيها أسباب وجيهة للاحمرار. واضطر ماركوس أن يضحّي بالأرغن، أمام ذلّ العائلة والتماس وسائل أقل وقاحة يغري بها ابنة عمه أنتونييتا، لكنه لم يقلع مع ذلك عن مقرّه. ولم يحرز أي نجاح في نهاية المطاف لأن الفتاة تزوجت بين يوم وغده من دبلوماسي يكبرها بعشرين سنة اصطحبها كي تعيش معه في بلد مداريّ لايستطيع أحد أن يتذكّر اسمه ولو أنه يستدعي فكرة العبيد والبلح والموز، استطاعت فيه أن تتغلب على كآبة ذكرى ذاك العاشق الذي أنهك سنواتها السبع عشرة بمارشه العسكري وفالسه. وغرق ماركوس في انهيار عصبي مدّة يومين أو ثلاثة أعلن في نهايتها أنه لن يتخذ له امرأة إلى الأبد وأنه سوف يذهب في رحلة حول العالم. وباع الأرغن إلى أعمىً وترك الببغاء إرثاً لكلارا، لكن الغجر سممته سرّاً بكمية كبيرة من زيت السمك، لأنها كانت لاتستطيع احتمال نظرته الشّبقة وبراغيثه وصراخه الهائج الذي يقترح فيه أوراق الحظ الصغيرة وكراته ذات الصوت وذروره ضد العنانة.

كانت تلك أطول رحلات ماركوس. رجع منها بشحنة من الصناديق الضخمة، كدّسها في مؤخرة الباحة بين قنّ الدجاج والمحطبة، حتى أواخر الشتاء. ومنذ تفتّح الربيع، نقلها إلى ساحة العرض وهي فناء متّسع يجتمع فيه السكان كي يشاهدوا سير العسكريين، أيام الأعياد الوطنية في خطوة الوزّة التي نقلوها عن البروسيين. وعند فتح الصناديق وجدوها تخفي أجزاء وقطعاً من خشب ومعدن وقماش مدهون. ولقد قضى ماركوس أسبوعين في جمع تلك العناصر طبقاً لتعليمات كتيب بالانكليزية يحلّ رموزه بعون خياله الذي لايقهر وقاموس صفير، وقد نجم عنه، عندما انتهى العمل فيه، مجنح نسب جسمه مما قبل التاريخ، حبي برأس نسر مغضب لوّن جزؤه الأمامي، وجناحين متحرّكين ومروحة ظهرية. ترك أثراً عظيماً. نست العائلات العلية الليمونير وغدا ماركوس فاتن النساء الجديد. وكان الناس يخرجون للنزهة يوم الأحد كيما يذهبوا لرؤية

الطائر وقد جعل منه باعة الخطمي والمصورون المتجولون مصدر رزقهم. مع ذلك بدأ بعد مدة من الزمن يجفّ اهتمام الناس به. عندها أعلن ماركوس أنه حالما تصحو السماء، ينوي أن يطير مع الطائر كي يقطع سلسلة الجبال. وانتشر الخبر خلال ساعات وبات حدث التعليقات السوي. واضطجعت الآلة وبطنها لصق الأرض اليابسة ثقيلة بلا حراك أقرب بمنظرها إلى بطة عرجاء من الطائرات الحديثة التي بدأوا يصنعونها في أمريكا الشمالية. دون أن يسمح شيء في مظهرها بافتراض أنها قادرة على الحركة فكيف بالارتفاع وعبور القمم الثلجية. ولقد قدم الصحفيون والفضوليون سراعاً. وظل ماركوس رضياً يبتسم تحت وابل الأسئلة، ويقف للمصورين دون أن يعطي أقل شرح تقني أو علمي عن الطريقة التي فكر أن ينجح فيها في مغامرته بعض الناس قاموا بالرحلة من مقاطعتهم النائية بلا هدف غير حضور المشهد. وبعد أربعين سنة من ذلك، يعيد العلاقة ابن أخته نقولا، وهو من لم يتعرف عليه ماركوس، مع شهوة الطيران المفاجئة التي استمرت حيّة دائماً عن الذكور في العائلة. لقد فكر نقولا أن ينطلق فيها لأهداف تجارية على صهوة منطاد عملاق يمتلئ هواء ساخناً ويحمل خبراً إعلانياً مطبوعاً يمتدح شراباً غازيّاً ما. لكن في الوقت الذي أعلن فيه ماركوس عن رحلته في الطائرة لم يتخيل أحد أن هذا الاختراع يمكن أن يستغل في شيء مفيد. وهو لم يقم به إلا بروح المغامرة. وفي اليوم المحدد للطيران، كان الصباح غائماً، لكن انتظار الناس كان من العظمة مما لم يرد معه ماركوس أن يؤجل مأثرته. وصل إلى المكان في الموعد المحدد ولم يلق أية نظرة باتجاه السماء التي غطتها غيوم كبيرة رمادية. واقتحمت العامة المندهشة الشوارع المجاورة وجثمت على سطوح وشرفات أقرب الأبنية وتكدست على الفناء، لم يستطع قطْعاً أي تجمع سياسي أن يضم بشراً هكذا، حتى مابعد نصف قرن عندما طمح أول مرشح ماركسي إلى أن يحتل المقعد الرئاسي بوسائل ديموقراطية خالصة. ولسوف تذكر كلارا طيلة حياتها يوم الاحتفال ذاك. ولقد ارتدى الناس ثياباً ربيعية وجاؤوا قبل البدء الرسمي للموسم، رجالهم في بزات كتان أبيض والسيدات في قبعات قش إيطالية انتشرت تلك السنة.

وعرضت جماعات من الطلاب مع معلميهم وهم يحملون زهوراً إلى البطل. وكان ماركوس يتقبل الباقات ويمزح، قائلاً إنه أفضل لهم أن ينتظروا حتى يتحطم على الأرض ثم يحملوا الزهور في دفنه. الأسقف نفسه جاء شخصياً، دون أن يطلب أحد منه شيئاً، حاملاً مبخرة كي يبارك الطائر، كما أن جوقة الدرك عزفت لحناً مرحاً، متواضعاً، كي يسرّ به الناس جميعاً، أما الشرطة الخيالة فقد عانت كثيراً حتى تمسك بالناس بعيداً عن مركز الساحة حيث يقف ماركوس، لابساً بزة ميكانيكي، ونظارة سائق سيارة ضخمة، وخوذته خوذة مكتشف في المستعمرات. وكان يحمل من أجل هذا الطيران، ماعدا البوصلة، منظاراً وخرائط ملاحة جوّية غريبة رسمها بنفسه معتمداً نظرية ليوناردو دافنتشي ومعارف الأنكا الفلكية. ولقد ارتفع الطائر بسهولة، ضد كل منطق، من المحاولة الثانية، وله بعض الأناقة، بين قرقعة هيكله وحشرجات محرّكه المبحوحة. وصعد يصطفق جناحاه وضاع بين الغيوم، يحييه لحن من الهتافات، والصفير والمحارم والأعلام، وقرع الجوقة ورشّ الماء المقدس. وعلى الأرض لم يبق غير تعليقات الحشد المعجب وبعض المثقّفين الذين جرّبوا أن يعطوا تفسيراً عقليّاً للأعجوبة. واستمرت كلارا على سبر السماء بالرغم من أن خالها بات لايرى. ولقد خالت أنها تميّزه بعد دقائق عشر، لكن ذلك لم يكن سوى دوري عابر. وبعد ثلاثة أيام انقشعت الغبطة التي أثارها طيران أول طيارة من البلاد ثم لم يفكر أحد بهذه الواقعة إلا كلارا التي كانت تسبر بلاوني القبة الزرقاء.

وافترضوا بعد أسبوع دون خبر عن الخال الطائر، أنه ارتفع حتى ضاع في الفضاءات الفلكية، وتأمل الأشدّون جهلاً في فكرة أنه سوف يصل إلى القمر. وقرر سيفيرو في مزيج من الحزن والعزاء أن أخا زوجته تحطّم وآلته في بعض صدع من سلسلة الجبال وأنهم لن يجدوه بعدها. وبكتْ نيفيا حتى لاعزاء ووضعت بعض الشموع في القديس انطوان حامي الأشياء الضائعة، ولقد عارض سيفيرو فكرة تلاوة الصلوات، لأنه كان لايؤمن بهذه الوسيلة للصعود إلى السماء وأقل إيماناً بالعودة منها، وكان يصرّ بأن الصلوات والقرابين، مثلها مثل الغفران وتجارة الصور التقيّة والكتفيّات، ليست سوى تجارة غير شريفة.

وبناء على ذلك جعلت نيفيبا والنونو كل الأطفال يسبّحون على ورديتهم سرّاً تسعة أيام. وبحثت عنه خلال هذا الوقت، فرق الأدلّة والأنديستيون[1] بلا كلل بين قمم وهواء سلسلة الجبال وجابوا واحداً واحداً كل الدروب المطروقة، كي يعودوا أخيراً منتصرين يحملون للعائلة جثة الميت في تابوت أسود متواضع مقفل. ودفن الرحّالة المقدام في جنازة عظيمة. لقد حوّله موته إلى بطل وليث اسمه عدة أيام العنوان الكبير في كل الصحف. كما أن الجمهور كله الذي احتشد لتحيته ساعة ارتفع على جناح الطائر مرّ أمام نعشه. وبكته كل العائلة كما يستحق إلا كلارا التي استمرت في سبر السماء في دأب فلكي. وبعد مضيّ أسبوع من المأتم، وعلى عتبة بيت نيفيبا وسيفير وديل فاله نفسه ظهر بشخصه الخال ماركوس، بلحمه ودمه وبابتسامةٍ مرحة بين شاربيه القرصانيين. لقد بقي حياً، مالكاً لكل ملكاته ومن بينها مزاجه الحلو، بفضل، كما اعترف هو نفسه، ورديات النساء والأطفال السريّة. لقد انقلب الطيران إلى فشل لأن الطائرة، بالرغم من منشأ خرائطه الهوائية الرائع، فقدت، واضطر إلى الرجوع ماشياً، لكنه نجا بنفسه لولا كسر أحد أضلاعه فحافظ على سلامة روحه المغامرة. وخرج أخيراً إجلال العائلة للقديس أنطوان موطّداً لكن المثل لم ينفع الأجيال التالية التي حاولت بدورها أن تطير بوسائل متعددة. لكن ماركوس على كل حال، كان قانونياً جثّة. ولقد استغل سيفيروديل فاله كل معرفته بالقوانين كي يعيد أخا زوجه إلى الحياة وإلى وضع المواطن. وعند فتح التابوت أمام السلطات المختصة، تبينٌ أنهم لم يدفنوا سوى كيس من رمل. ولقد لطخت الواقعة اعتبار الأدلة والأنديستين المتطوعين بعد أن ظل إلى ذلك الحين بلا عيب: أما منذ ذلك اليوم فقد نظر إليهم على أنهم أقل من اللاشيء.

ولقد آل بعث ماركوس الشجاع إلى أن يحدو بكل إنسان إلى نسيان قصة الأرغن الغجري. واستأنف الناس دعواته إلى كل صالونات المدينة وإلى الانتساب إليه لبعض الزمن. ولقد عاش ماركوس عند أخته بضعة من الشهور.

---

١ ـ متسلقوا جبال الأندس Andes.

ثم رحل، ذات ليلة، دون أن يقول وداعاً لأحد تاركاً هناك حقائبه، وكتبه، وأسلحته. وجزماته وكل متاعه. فأرسل سيفيرو ديل ونيفيبيا معه تنهدة ارتياح. ولم تطل زيارته الأخيرة كثيراً. لكن كلارا اكتأبت من ذلك حتى لقد قضت أسبوعاً وهي تمشي كمنوّمة وتمتصّ إصبعها. وتعلمت البنية، وعمرها يومئذ سبعة أعوام، أن تقرأ كتب خالها التاريخية حتى أحست أنها أقرب إليه من أي عضو آخر من العائلة نظراً لمؤهلاتها التنبئية. ولقد أصرّ ماركوس على أن ملكة ابنة أخته الهائلة يمكن أن تكون مصدر دخل وفرصة طيبة لتنمية مواهبها في الرؤية المزدوجة. كانت لديه نظرية تذهب إلى أن هذا الاستعداد موجود عند كل الكائنات البشرية، وبخاصة من كان من أرومته وأنها إذا لم تعط كل نجاعتها فذلك راجع إلى عدم التدريب. فاشترى من السوق الفارسي كرة من الكريستال كانت، كما زعم، تكنّ خصائص سحرية وأنها جاءت من الشرق ولو أنه عرف فيما بعد أنها ليست غير عوامة قارب صيد، ووضعها على مربّع من المخمل الأسود وأعلن أنه قادر على قراءة المستقبل، والشفاه من العين الشرّيرة، وحزر الماضي، وتحسين نوع الأحلام، وكل هذا بخمسة سنتافو. وكان أول زبائنه خادمات الجوار. إحداهن اتهمت بالسرقة، إذ فقدت سيدتها خاتمها. فدلّت الكرة على المكان الذي توجد فيه الحلية: لقد تدحرجت تحـ- نزانة. وفي اليوم التالي، وقف الناس في رتل أمام البيت. جاء الحوذيون والدكانيون وباعة الحليب وحملة الماء، وبعدها بعض مستخدمي البلدية متكتمين ثم سيدات مرموقات يمشين حدّ الحائط خلسة كي لايعرفن. كانت النونو هي التي تستقبل الزبائن فتدخلهم بنظام إلى غرفة الانتظار وتقبض الأجر. وشغلتها هذه المهمة كل النهار تقريباً واستغرقت فيها حتى لقد أهملت عملها كطباخة وأخذت العائلة تعترض لأن عشاءهم آل إلى ألّا يتجاوز الفاصولياء الحامضة ومصقوع السفرجل. ورتّب ماركوس المستودع بستائر رثّة كانت تخصّ فيما مضى الصالون، لكن الإهمال والاهتراء حوّلها إلى خرق للغبار. هناك حيث يستقبل مع ابنة أخته كلارا، وقد كان العرّافان يتباهيان بجلبابين «بلون الكائنات النورانية»، كما كان ماركوس يدلّ على الأصفر. ولقد كانت النونو صبغت

الجلبابين بذرور الزعفران بأن غلتهما به في القدر. وفيما عدا الجلباب كان ماركوس يرتدي عمامة معقودة على رأسه وتميمة مصرية معلقة في عنقه. وترك ذقنه وشعر رأسه ينموان وبات أكثر هزالاً من أي وقت مضى. كان ماركس وكلارا يبدوان جدّ مقتنعين، وماكانت البنية بحاجة لأن تنظر إلى كرة الكريستال كي تتنبأ بما كان يريد كل شخص أن يسمعه. كانت تهمس في أذن خالها ماركوس الذي ينقل الرسالة إلى الزبون ويرتجل النصائح التي تبدو له ملائمة. وهكذا انتشرت شهرتهما، لأن الذين كانوا يردون حزانى ومرهقين إلى العيادة كانوا يصدرون منها وقد امتلؤوا أملاً والعشاق المرفوضون يحصلون على وصايا لإغراء القلب القاسي كما يأخذ الفقراء معهم طريقة للمضاربة في سباقات ميدان الكلاب. وازدهر المشروع حتى غرفة الانتظار كانت تظل مكتظة وبدأت النونو تصاب بالدوار من طول وقوفها. وبالمناسبة، لم يضطر سيفير وللتدخل كي يوقف مشروع إدارة أخي زوجه، لأن المتنبئين اكتشفا بأن مهارتهما لاتتمكن من تحويل قدر الزبائن الذين كانوا يأخذون كلامهما حرفيّاً، فخافا وقررا أن ذاك لم يكن سوى مكتب محتالين. فتركا المعجزة والمستودع واقتسما بالحق الأرباح ولو أنّ المهتمة الوحيدة الحقيقية بالناحية المادية للصفقة كانت النونو.

كانت كلارا بين الأخوة والأخوات من عائلة ديل فاله هي التي تبدو أكثرهم صبراً واهتماماً في الإصغاء إلى حكايات خالها. وكانت تستطيع إعادة أي منها وتعلم بالذاكرة عدة ألفاظ في لهجات هندية غريبة، وتعرف عاداتهم، كما كانت قادرة أن تصف الطريقة التي يثقبون بها الشفاه وشحمات الأذن بقطع صغيرة من الخشب، وكل طقوس المسارّة[1] وأسماء أشدّ الحيايا سمّاً وترياقاتها. كان خالها من البلاغة حتى إنها كانت تحسّ في جسدها لدغة الأفاعي الكاوية، وترى الزاحف كيف يتقلّب على الحصيرة عند أقدام حاجز خشب الباليساندر[2]، وتسمع صيحات ببغاء الكاكاتوديس عبر سجف

١ - الانتساب إلى جمعية سرية أو ماشابه.
٢ - نوع من الخشب البنفسجي الجيد.

الصالون. كانت تتذكر دون تردّد سياحة لوبي دي أجويري في بحثه عن الإيلدورادو ومالايلفظ من أسماء النبات والحيوات التي وجدت أو اخترعها خالها المدهش، كانت تعرف لامات[1] يشربون الشاي المملح بدهن الخشقاء[2] وكانت تستطيع بالتفصيل وصف بنات البلد الموسرات من بولينيزيا، وحقول الرز في الصين، وسهوب البلاد الشمالية البيضاء التي يقتل فيها الصقيع الخالد الحيوان والإنسان إذا لم ينتبها ويحولهما إلى حجر خلاله بضع دقائق. وكان عند ماركوس مذكرات عديدة عن البحر دوّن فيها ذكرياته ومشاعره وسلسلة من الخرائط، وقصص مغامرات، بل وحكايات جنيّات يحفظها داخل حقائبه في غرفة مهملات قديمة في نهاية الباحة الثالثة من البيت. ولقد خرجت منها فسكنت أحلام سلالته حتى اليوم الذي أحرقت فيه خطأً بعد نصف قرن على محرقة دنيئة.

ولقد رجع ماركوس، بعد آخر رحلة له، في نعش. لقد مات جرّاء طاعون أفريقي غامض غضّنه وصفّره كأنه رق.

عندما أحس بمرضه قام برحلة العودة آملاً أن ترجع له عناية أخته وعلم الدكتور كويفاس الفتوة والعافية، لكنه لم يقاوم سفر ستين يوماً في المركب ومات في مواجهة جواياكويل وقد أضنته الحمّى، وهو يهذي بنساء ممسّكات وكنوز مخبأة. ولقد كاد قائد المركب، وهو إنكليزي اسمه لونجفلوو، أن يرميه إلى البحر وقد لفّ بقطعة قماش، غير أن ماركوس صنع له أصدقاء كثيرين وفتن كثيراً من النساء على السفينة عابرة المحيط، بالرغم من مظهره الهندي الجيفاروس وهذيانه، حتى تدخل المسافرون واضطر لونجفلوو أن يودعه مع مؤونة الخضرة الطرية عند الطباخ الصيني كي يحفظه من الحرارة والبعوض المداري، لينجّر نجّار المركب صندوقاً مرتجلاً. وفي كلاوو حصلوا على نعش مناسب بعد أيام، وقد أحنق القائد من المشاكل التي سببها هذا المسافر لشركة

١ ـ رهبان بوذيون.

٢ ـ حيوان يشبه الثور في التيبت.

الملاحة وله شخصيّاً فأنزله على الرصيف من دون مراعاة، وقد عجب أنّ أحداً لم يتقدّم لطلبه ودفع الزيادات. فعرف فيما بعد أن البريد في هذه الأقاليم لايوثق به كما في انكلترا البعيدة وأن برقيّاته تبخرت عبر الطريق. ولحسن حظ لونجفلود انبثق معتمد جمارك يعرف عائلة ديل فاله وعرض أن يأخذ القضية على عاتقه، ووضع ماركوس وعدته المعقدة على عربة شحن وسيره ناحية العاصمة إلى المسكن الوحيد الثابت المعروف له: بيت أخته.

كانت تلك إحدى آلام لحظات حياة كلارا لو لم يأت برّاباس مختلطاً بمتاع خالها. ودون أن تعنى بالضجّة القائمة في الباحة، قادتها غريزتها مباشرة إلى الزاوية التي ترك فيها القفص يسقط. وفي داخله كان باراباس. لم يكن غير كومة عظيمات مغطاة بشعر لونه غير محدود، وانتثرت فيه صفيحات داء الثعلب المنتنة، وعينه مغلقة والثانية غمصاء، وقد تسمّر كجثة بين أقذاره. فلم تلق البنيّة صعوبة في التعرف عليه، بالرغم من مظهره الخارجي وصاحت قائلة: «كلب صغيرا».

وتعهّدت الحيوان. إذ أخرجته من القفص وضمته إليها وهددته، فتوصلت إلى عناية راهبة صغيرة أن تصبّ قليلاً من الماء في خطمه المنتفخ المحترق. إن أحداً لم يهتم بـإطعامه منذ أن أنزله على الرصيف مع المتاع القائد لونجفلوو الذي هو، ككلّ الإنكليز يعنى بالحيوانات أكثر مما يعنى بالبشر. وفي الوقت الذي كان فيه الكلب على المركب مع سيده المحتضر، كان القائد يطعمه بيديه وينزهه على الظهر، ويغدق عليه الرعاية التي بخل بها على ماركوس، لكنه لما صار على الأرض عامله، وكأنه جزء من المتاع، وغدت كلارا أماً للحيوان دون أن ينازعها أحد هذا الامتياز المريب، وتوصلت إلى أن تردّه للحياة. ولم يلحظ سفيرو كرة الشعر التي تحملها ابنته بين ذراعيها إلا بعد يومين، حين هدأت زوبعة وصول جثة ثم جنازة الخال ماركوس.

سألها: ـ ماهذا؟

أجابت كلارا: بارّاباس!

أمرها سيفيرو قائلاً: هيا اعهدي به إلى البستاني كي يتخلّص منه. إنه يوشك أن يعدينا ببعض مرض قذر.

لكن كلارا كانت قدْ تبنته.

ـ إنه لي يا بابا. إذا انتزعته مني، أقسم أن أنقطع عن التنفس وأموت.

وبقي في البيت. وأخذ بعدها يركض في كل مكان فيه شراً بين السجف، والبسط، وأقدم الأثاث. ولقد شفي من نزعه سريعاً وبدأ يقوى. وحين غسلوه، عرفوا أنه أسود، وأن رأسه مربع، وشعره قصير وقوائمه مفرطة الطول. واقترحت النونو أن يبتر ذنبه لكي يجعلوه شبيهاً بكلب معرق، غير أن كلارا أصيبت بنوبة سعال انقلبت إلى أزمة ربو، فلم يعد أحد إلى هذا الأمر. وحافظ بارّاباس على ذنبه سليماً، فوصل مع الزمن إلى حجم نادٍ للجولف، وكان يقوم بحركات فوضوية تمسح الأواني الصينية عن الطاولات وتقلب الأباجورات. لقد كان من جنس مجهول. فلم يكن فيه أي شيء مشتركٍ مع الكلاب الضالة في الشارع، أوْ أقل منها مع نماذج العرق النقيّ التي تربيها بعض العائلات الأرستقراطية. ولم يستطع البيطري أن يقول مامنشؤه، فنشرت كلارا فرضية أنه آت من الصين، قياساً على أن جزءاً كبيراً من محتوى متاع خالها يتكوّن من تذكارات بلاد بعيدة. وقد أقام الدليل على طاقته في النموّ غير المحدود. في الشهر السادس وصل إلى قدّ النعجة، وفي عمر السنة صار بحجم الفلو. وتساءلت العائلة في يأس أين سيتوقف وبدأت تشك بأنّه حقّاً كلب وقدرت أنه ربما كان بعض حيوان غريب اصطاده الخال المكتشف في إقليم قصيّ من العالم، وقد ظهر عليه أنه مفترس في حالة التوحش. وكانت نيفيبا تتفحّص قائمته ذات المخالب كأنها لتمساح أمريكي وأنيابه المشحوذة فيضطرب قلب الأم لفكرة أن هذا الحيوان قمين بأن يَنتزع بضربة سن رأس إنسان بالغ فكيف بأي كان من أبنائها. غير أن باراباس لم تكن تبدو عليه أية ضراوة وإنما العكس. كان يلعب كقط صغير. كان ينام في البدء، على ذراع كلارا، وفي سريرها نفسه، ورأسه على وسادة الريش وقد غطّي حتى الذقن، لأنه كان برّيداً، غير أنه فيما بعد، حين لم يعد لايدخل في السرير، صار يتمدد أرضاً

حدّها ومنخره الحصاني يتكيء على يد البنيّة. ولم يره أحداً أبداً يعوي أو ينخر. كان أسود صامتاً كفهد، يحب لحم الخنزير والفواكه المعقّدة، وفي كل مرّة يستقبلون ضيوفاً وينسون أن يغلقوا عليه كان يدخل خلسة في غرفة الطعام ويدور حول الطاولة فيأخذ برقة من الصحون مقبلاته المفضّلة، دون أن يجرؤ أحد من الضيوف الآكلين على منعه. وكان بارّاباس يوحي بالرعب بالرغم مما هو عليه من نعومة فتاة. وكان المموّنون يفرّون سريعاً إذا ظهر من ناحية الشارع كما أن وجوده زرع مرة الرعب بين رتل النساء الواقفات أمام بائع الحليب، فأخفن حصان الجرّ الذي انطلق كسهم بين قرقعة صفائح الحليب المقلوبة على الطريق واضطر سيفير وإلى دفع تعويض عن الأضرار وأمر بأن يربط الكلب في الباحة، لكن كلارا أصيبت من جديد بـإحدى أزماتها العصبية وأرجئ القرار إلى أجل غير مسمّى. ولقد منح الخيال الشعبيّ وجهل الأصل إلى بارّاباس صفات ميثولوجية. كان يروى عنه أنه ماكان ينقطع عن الكبر ولولا أن وضعت بربرية لحام نهاية لحياته، لآل إلى بلوغ حجم البعير. وكان الناس يعتقدون أنه متحدّر من تصالب كلب وفرس ويظنون أنه يمكن أن يظهر له جناحان، وقرنان ونفس تنّين كبريتيّ، على صورة الحيوانات التي تطرزها روزا على السماط الذي لاينتهي. أما النونو التي أجهدها التقاط الأواني الصينية المكسورة وسماعها الثرثرة فكانت تعتقد بأنه سينقلب إلى ذئب في الليالي التي يكون قمرها بدراً فقد لجأت إلى الطريقة نفسها مع الببغاء، لكن كمية زيت السمك الكبيرة لم تقتله بتاتاً، ولم تفعل غير أنها سبّبت له إسهال بطن مدته أربعة أيام غطى فيها البيت من أعاليه إلى أسفله واضطرت هي لتنظيفه.

كان الزمن عسيراً. وكان عمري في الخامسة والعشرين، لكنْ يخيل لمن يراني أنه بقي لي قليل من الحياة أمامي لأصنع فيها مستقبلاً واحتلّ المركز الذي أتوق إليه. كنت أعمل كثور، والمرات التي كنت أجلس فيها كي أتنفس قليلة، وقد قهرني ملل يوم أحد، كنت أحس أنّي في سبيلي إلى فقدان لحظات ثمينة وأن أية دقيقة بطالة كانت قرناً إضافياً في البعد عن روزا. كنت أقطن في المنجم في كوخ من دف سقفه صفيح صنعته بيدي ومساعدة عاملين. لقد كان قطعة

واحدة شكلها مربّع أركن فيها كلّ أشيائي وقد ثقبت في كل حائط منه كوة للتهوية من هواء النهار الساخن وفي كل منها مزلاج لإغلاقها إذا جاء الليل، وانقض الهواء المتجلّد. وكان أثاثي من أوّله إلى آخره يتكوّن من مقعد صغير وسرير معسكر، وطاولة ريفية، وآلة كاتبة وخزانة حديدية ثقيلة اضطررت إلى تسييرها على ظهر بغلة عبر الصحراء، كنت أحفظ فيها أجر عمال المنجم، وبعض أوراق وجراب من كتان تلمع فيه قطع ذهبية صغيرة تمثل ثمرة كل تلك الجهود. إن شيئاً هنا ليس مريحاً، لكنني تعودت على الخشونة. فأنا لم أغتسل أبداً بماء ساخن ولم أحفظ من طفولتي غير ذكريات البرد والوحدة والمعدة الخالدة الخواء. هناك كنت آكل وأنام، وأكتب خلال عامين، دون أية تسلية غير حفنة من كتب قرأتها وأعدت، وكومة جرائد قديمة، وبعض نصوص إنكليزية استغلّلتها كي أتعلم مبادئ تلك اللغة الجميلة، وعلبة أغلقها بالمفتاح أنسّق فيها ما أتبادل من رسائل مع روزا. وقد جريت على عادة الكتابة لها بالآلة، فأحفظ لنفسي نسخة أرتّبها حسب تاريخ إرسالها مع الرسائل النادرة التي بعثتها إلي.

كنت آكل من القصعة نفسها التي يعدّونها للعمال ومنعت توزيع الكحول في المنجم. ولم يكن عندي منه شيء، لأني فكرت دائماً بأن الوحدة والسوداء تؤول بالرجل إلى أن تصنع منه كحوليّاً مدمناً. ولربما كانت تلك ذكرى أبي وأزرار ياقته المفكوكة وربطته المحلولة والملوثة بالبقع، وعيناه المضطربتان، ونفسه المثقل، وكأس في يده هي التي أدّت بي إلى عدم الشراب. وأنا لا أقاوم الكحول، وأسكر سريعاً، اكتشفت ذاك وأنا ابن ستة عشر عاماً، ولست مستعداً لنسيانه. ذات يوم سألتني حفيدتي كيف استطعت أن أعيش وحيداً كل هذا الوقت، بعيداً عن الحضارة. إني أجهله. والحق أنه كان أسهل علي من الآخرين، لأني لست اجتماعيّاً، وليس عندي أصدقاء كثيرون ولا أحب الحفلات بتاتاً ولا البهرجة، على العكس أحسّ بنفسي أفضل عندما أكون وحيداً في زاويتي. وأجد صعوبة في أن أغدو حميماً مع الناس. في ذاك الزمن ماعشت مع امرأة، وماكان بوسعي أن أشتاق إلى شيء ما عرفته. ولم أكن زيراً، وماصرتُ قطعاً، فأنا من طبيعة وفيّة، مع أنه يكفيني ظل ذراع، أو انحناءة ردف أو انثناءة ركبة

امرأة وإلى اليوم تراودني هذه الأفكار، مع أني صرت شيخاً إذا نظرت في المرآة ماعرفت نفسي. وإن لي هيئة جذع مفتول. لن أبحث عن تبرير آثام شبابي بأن أدعي أني لم أكن قادراً على كبح عنف شهواتي، فأنا بعيد عن هذا. تعودت، في ذاك العمر، على علائق دون غد مع البغايا، لأني لم تكن لديّ الإمكانات مع سواهنّ. ففي زمني كانوا يقارنون بين النساء الشريفات والباقي، وكان يميز الإنسان خلل الشريفات بين امرأته وامرأة سواه. الحب لم يمسسني يوماً قبل أن أرى روزا، فقد كانت تبدو لي الرومانطيقية خطرة ولاطائل تحتها، وحدث أن وجدت هذه أو تلك الحلوة على ذوقي، فلم أغامر بالاقتراب منها خوفاً من الصدّ أو السخرية. فقد كنت مغروراً جدّاً، ولقد تعذّبت أكثر من الآخرين بسبب هذا الغرور.

مضى منذ ذلك الحين أكثر من نصف قرن، لكني حفرت في الذاكرة اللحظة الدقيقة التي دخلت فيها حياتي روزا الجميلة كملاك شارد الذهن سرق روحي وهو يعبر بي. كانت ذاهبة برفقة النونو وطفلة أخرى ربما كانت أختاً لها أصغر منها. أعتقد أنها كانت ترتدي ثوباً بلون ليلكي، ولو أني لست متأكداً، فعيني تغفل عن البهرج، وغير ذلك كانت على جمال لو لبست معه مشمل سمّور لما استطعت أن أنتزع عيني من وجهها. أنا عادة لاتذهلني النساء، لكنْ وجب أن يكون المرء معتوهاً تماماً كي لايتأمل هذا الظهور الذي يثير البلبلة على دربه. ويسبب عرقلة السير بشعره العجيب الأخضر ويبرز وجهه كقبّعة طريفة، هيئتها كجنية وطريقتها بالتحرك كأنها تطير. مرّت أمامي دون أن تراني ودخلت محلّقة إلى مخزن الحلوى في ساحة السلاح، ظللت جامداً منذهلاً في الشارع وهي تشتري ملبّساً باليانسون، تنتقيه حبّة حبّة بضحكة جرس صغير وحَشَت بضعاً منها فمها وقدّمت أخريات لأختها. لم أكن الوحيد الذي انبهر، ففي بضع دقائق تكوّن جمع رجال صغير يترصّد أمام الواجهة. عندها عزمت. ولم يخامرني الشك في أني على بعد مائة ميل من أن أكون الخاطب المثالي لهذا الجمال السماوي الفتيّ: فأنا بلا ثروة، بعيد عن أن أكون الشاب الجميل، وليس أمامي غير مستقبل مشكوك فيه. بله أني لم أكن أعرفها! غير أني كنت

مندهشاً وقررت للتوّ أنها المرأة الوحيدة الأهل لأن تغدو زوجتي، وأني إذا لم أستطع جعلها لي فضلت العزوبة. وتبعتها على كل الطريق الذي يوصلها إلى بيتها. صعدت في نفس الترام وجلست وراءها دون أن أقدر على أن أكف النظر إلى نقرتها الكاملة وإلى تكوّر جيدها وكتفيها الحلوين تداعبهما خصل خضراء انفلتت من تسريحتها. لم أحس باهتزاز الترام، كأني كنت في حلم. وفجأة تغلغلت بين المقاعد، ولما مرّت بقربي، توقّف بؤبؤاها الذهبيان المدهشان لحظة على بؤبؤي. اعتقدتُ أني أسلمت روحي لحظتها. فبتُّ لاأستطيع التنفّس، وتوقف نبضي عن الخفقان. وعندما تماسكت قفزت أثناء السير على الرصيف مغامراً بكسرها وأسرعت إلى الدرب الذي اتخذته واكتشفت أين تسكن لما رأيت كمّاً بلونٍ ليلكي يختفي وراء بوّابة. منذ ذلك اليوم، قمت بالحراسة أمام دارها، أتسكع في الدرب ككلبٍ مهملٍ، أتلصّص، أرشو البستاني، أدخل في حديث مع الخدم، حتى توصلت للكلام مع النونو،ولقد رقّت لحالي تلك المرأة القديسة ووافقت على أن توصل لها رسائل الحب والأزهار وعلب ملبس باليانسون لاتحصى حاولت بها أن أكسب قلبها. وقدّمت لها شعراً مطرّزاً. وماكنت أعرف نظم الأبيات، لكنني تعلمت الكتابة عند شاعر إسباني عبقري القوافي، كنت أعدّ عنده القصائد، والأغاني وكل ماتصل بالحبر والورق. كما ساعدتني أختي فيرولا في الاقتراب من عائلة ديل فاله إذ اكتشفت بعض قرابة بعيدة بين اسمينا وبحثت عن مناسبة نرفع فيها بعضاً لبعضٍ القبعات عند خروجنا من الكنيسة. وهكذا استطعت أن أزور روزا. وفي اليوم الذي دخلت فيه عليها، وباتت قريبة مني، لم أجد ما أقول لها. بقيت جامداً، وقبعتي في يدي وفمي مفتوح، حتى خفّ ذووها الذين يعرفون هذا النوع من الأعراض، لعوني، وأجهل ماذا وجدت فيّ روزا ولاكيف تصورت، مع الزمن، أن تتزوجني. ونجحت في أن أكون رسميّاً خطيبها دون أن أقوم بمأثرة فوق الطبيعة، لأن روزا بالرغم من جمالها فوق الأرضي، وفضائلها التي لاتعدّ، لم يكن لها طامح بالزواج. وقدمت أمها لي الشرح: أسرّت إلي أن أي رجلٍ لايحس بأنه من القوة بحيث يقضي حياته في الدفاع عن روزا ضد

شهوات الرجال الآخرين. كثيرون داروا حولها، وفقدوا من أجلها الصواب، لكن أحداً لم يعزم. حتى برزت في الأفق. كان جمالها يخيف فكانوا يعجبون بها عن بعد، دون الاقتراب منها. والحق أني لم أفكر بهذا يوماً. كانت مشكلتي الوحيدة أن لاأملك بوزد[1] واحد، لكني، بقوة الحب، كنت أحس بأني قادر على أن أصبح غنياً. كنت أنظر حولي بحثاً عن أقصر الطرق، في حدود الاستقامة التي ربيت عليها وتبينت أن النجاح يقتضي حماية أو دراسات متخصصة أو رأس مال. ولايكفي أن نحمل اسماً محترماً. وأقدر أني لو كان لي مال في البدء، لكنتُ لعبت فيه بالقمار أو السبق، ولكن الحالة لم تكن كذلك ففكرت بالعمل بشيء ما، يمكن أن أجني منه الثروة، بالرغم من أخطاره. وكانت مناجم الذهب والفضة حينئذٍ حلم المغامرين. كان بوسعها أن تجعلهم يغرقون في البؤس، أو يقضون بالسلّ، أو تحولهم إلى رجال قادرين على كل شيء. إنها مسألة حظّ. حصلت على امتياز منجميّ في الشمال بفضل الثقة التي يحظى بها اسم أمّي، إذ خدمتني في الحصول على كفالة البنك. وألزمت نفسي ثابتاً بهدف استخراج آخر غرام من المعدن الثمين حتى ولو كلفني ذاك عصر التلة بيدي وطحن الكتل بضرب كعبي. من أجل روزا كنت مستعداً لذاك وأكثر.

في أواخر الخريف وبعد أن أمنت العائلة نيّات الأب ريستريبو الذي اضطر إلى تهدئة احتدامه احتدام محقق التفتيش، بعد أن نبهه الأسقف ذاته لأن يدع الصغيرة كلارا ديل فاله وشأنها، وحين اعتادوا جميعاً على فكرة أن الخال ماركوس مات حقاً، بدأت تتحقق مشاريع سيفيرو السياسية. فلقد عمل سنين لهذه الغاية. ولقد حانت ساعة مجده عندما دعي كي يقدم نفسه مرشحاً للحزب الليبرالي في الانتخابات التشريعية، كي يمثل مقاطعة الجنوب وهي التي لم تطأها قدمه يوماً بل ربما وجد صعوبة في تحديد مكانها على الخريطة. لقد كان الحزب بحاجة ماسة إلى الناس وكانت رغبة سيفيرو كبيرة في احتلا

---

١ ـ عملة نقدية.

مقعد في الكونغرس، حتى أنهم لم يجدوا مشقّة كبرى في إقناع خاملي الذكر الناخبين الكبار كي يجعلوا سيفير وحامل لوائهم. وثبّت التسمية خنزير مشوي أرسله الناخبون الكبار إلى بيت عائلة ديل فاله. ولقد جاءه على طبق متسع لامع عطر، والبقدونس في منخره وجزرة في استه وقد رقد على طبقة من البندورة. وقد خيطت بطنه خياطة خشنة وحشي بالحجال التي حشيت بدورها بالخوخ المجفف. وصل مصحوباً بمقششته التي تحوي نصف غالون من أفضل ماتنتجه البلاد من ماء الحياة. إن فكرة أن يصبح نائباً. وأحسن منها شيخاً. كانت حلماً تعلّل به سيفيرو منذ مدة طويلة. فاحتال ما وسعه لهذا الهدف فعمل بدقة في العلائق والصداقات والتآمر والمظاهر السياسية الرزينة بل الناجعة، وبذل المال والخدمات للأشخاص من أجل تلك الغاية وفي اللحظة التي وجب. وإنّ هذه المقاطعة الجنوبية ولو أنها بعيدة يجهلها الجميع، كانت ترضى انتظاره.

كان الثلاثاء يوم الخنزير. والجمعة يوم لم يبق من الخنزير غير الجلد والعظم يقضمه بارّاباس في البستان، أعلنت كلارا أن آخر سوف يموت في البيت.

وقالت بدقة: «لكنه ميت من أجل آخر».

ويوم السبت قضت ليلة سيئة خرجت منها صائحة. وقدمت لها النونو منقوع الزيزفون، ولم يهتم بأمرها أحد لأنهم كانوا جميعاً مستغرقين في التحضير للرحلة الأبوية إلى الجنوب وبسبب الجميلة روزا التي استفاقت ومعها الحمّى. وأمرت نيفيا بأن تترك روزا في السرير إذْ قال الدكتور كويفاس إن أمرها لم يكن خطراً، وأنه يجب أن تعطى شراب الليمون الفاتر والمحلّى جيّداً مع قليل من شراب هاضم كي تنضح كل حرارتها. وأتى سيفير - فرأى ابنته وقد امتلأت بقعاً حمراء وعيناها لامعتان وقد انغرزت في دانتيلا الأغطية بلون الزبدة الطرية. وقدم لها هدية مجموعات بطاقات حفلات راقصة وسمح للنونو بأن تفتح مقششة ماء الحياة وأن تصب لها منها في ليمونها. وشربت عصير الليمون وتدثرت بشالها الصوفي وغرقت حالاً في النوم إلى جانب كلارا التي كانت تقاسمها الغرفة نفسها.

وفي فجر الأحد المأساوي، استيقظت النونو باكراً على عادتها. وقبل أن

تذهب إلى الصلاة، دخلت المطبخ كي تعدّ فطور الصباح العائلي. كان موقد الخشب والفحم قد بقي معبّأ منذ الليل فأشعلت المدفأة بجمرات الرماد التي مازالت دافئة، وفيما كانت تسخن الماء وتغلي الحليب، أعدت الصحون بطريقة تأخذها بها إلى غرفة الطعام. وبدأت تشوي كبب الشوفان، وتصفّي القهوة وتحمّص الخبز. وأعدّت صينيتين، واحدة لنيفيبيا التي كانت تتناول دائماً فطورها في السرير، والأخرى لروزا التي كانت أيضاً لها الحق في ذلك مادامت مريضة. وغطت صينية روزا بمنشفة كتان طرزتها الأخوات لمنع القهوة من أن تبرد والذباب من أن يحطّ عليها وأطلت برأسها على الباحة كي تتأكد من أن بارّاباس لم يكن في تلك الجهة. كانت يتحرق لأن يقفز عليها كلما مرّت ومعها الفطور. رأته لاهياً باللعب مع دجاجة فاستغلتها فرصة للخروج والقيام بجولة طويلة على طول الباحات والممرات المغطاة، من المطبخ لآخر المسكن حتى غرفة البنات في الطرف الآخر. ترددت أمام غرفة روزا تحت تأثير حدس لايقهر. دخلت الغرفة دون أن تنبّه، على عادتها، ولاحظت حالاً أنها تفوح بعبير الورد، ولو أنه لم يكن فصله. عندها عرفت النونو أن شقاء لايرأب قد حدث. وضعت الصينية في عناية على طاولة السرير واتجهت ببطء ناحية النافذة. فتحت الستائر الثقيلة ودخلت شمس الفجر الشاحبة إلى الغرفة. ورجعت وقد امتلأت جزعاً، لكنها لم تدهش حين اكتشفت روزا ميتة على سريرها، أجمل من أي وقت مضى وشعرها أخضر لايتبدّل، وجلدها عاج أصفر، وعيناها على نفس صفرة العسل مفتوحتان على أشدّهما. وعند قدم السرير قعدت كلارا الصغيرة تتأمل أختها. وركعت النونو قريباً من السرير فأمسكت بيد روزا وأخذت تصلّي. صلّت دون انقطاع حتى اللحظة التي سمع فيها من أول البيت إلى آخره نوح سفينة مشرفة على غرق طويلٍ مضنٍ. كانت المرة الأولى والأخيرة التي يصوّت فيها بارّاباس. لقد عوى الموت كل ذاك النهار المقدس، حتى لقد حطّم أعصاب الأسرة وكل الجوار الذين تنهدوا وقد جذبهم نواح الغرق ذاك.

لم يكن الدكتور كويفاس بحاجة إلا ليلقي نظرة واحدة على جسد روزا كي يحزر أن الموت نجم عن شيء أخطر من حمّى بسيطة. وأخذ ينقّب في كل

الجهات، فتّش المطبخ ومرّ بـإصبعه على الطناجر، وفتح أكياس الطحين، وصرر السكر، وعلب الفواكه المجففة، وقلب الأشياء رأساً على عقب وتركها مبعثرة كما لو بعد مرور عاصفة. قلّب بالمسعر دروج روزا، وسأل الخدم واحداً واحداً، واتهم النونو حتى أخرجها عن طورها وقاده التحقيق أخيراً إلى مقششة ماء الحياة فصادرها بالقوّة. ولم يكشف لأحد ظنونه، لكنه حمل معه الدمجانة إلى مخبره. ورجع بعد ثلاث ساعات بتعبير مرعب أحال وجهه الأحمر من حي إلى قناع شاحب لم يتخلص منه خلال كل هذه القضية الفظيعة. اتجه إلى سيفيرو وقبض على ذراعه وأخذه ناحية فقال له بغتة:

ـ يوجد من السم في هذا الشراب الرديء مايقتل ثوراً. لكن من أجل أن تتأكّد أنه هو الذي قتل ابنتك، أنا بحاجة أن أقوم بالتشريح.

تأوه سيفيرو قائلاً: «تريد أن تقول أنك سوف تفتحها؟».

فبيّن له الدكتور كويفاس قائلاً: «ليس تماماً. لن أمس الرأس، الجهاز الهضمي فقط.

أحسّ سيفيرو أنه يغمى عليه.

تلك الساعة، ماعادت نيفييا تستطيع بكاء، لكنها عندما تبيّنت أنهم ينوون نقل ابنتها إلى المشرحة، استردت دفعة واحدة كل جلدها. ولم تهدأ إلا حين وعدوها أنهم سيأخذون روزا مباشرة من البيت إلى المقبرة الكاثوليكية. عندها وافقت على أخذ اللواودانوم الذي وصفه لها الطبيب فنامت عشرين ساعة متصلة.

لما أقبل المساء، اتخذ سيفيرو كل الاحتياطات اللازمة. أرسل أبناءه إلى السرير وسمح للخدم بالانسحاب باكراً. أما كلارا، وقد انفعلت كثيراً لما حدث، فقد سمح لها بأن تقضي الليلة في غرفة إحدى أخواتها. وعندما انطفأت كل الأضواء، وغرق المسكن في السكون، هبط مساعد الدكتور كويفاس، وهو شاب أبله أحول يفأفئ إذا تكلم. وساعد الاثنان سيفيرو في حمل جسد كلارا إلى المطبخ ووضعوها برقة على المرمر حيث تعجن النونو

الخبز وتقطّع الخضروات. لم يستطع سيفيرو بالرغم من قوة شكيمته أن يحتمل اللحظة التي نزعوا فيها منامة ابنته وتجلّى فيها عريها الرائع كجنية بحر. خرج يترنّح، سكران من ألم، وانهار ينتحب كتيس برّي. والدكتور كويفاس أيضاً الذي رأى ولادة روزا وعرفها كراحة يده، ارتعش هو الآخر لدى رؤيتها هكذا عارية، أما من جهة المساعد الشاب فقد انقطع نفسه وظل ينبهر، طيلة السنين التي تلت، كلما تذكر رؤية روزا العجيبة وهي نائمة على طاولة العمل في المطبخ وشعرها الطويل يسقط كشلال أخضر حتى الأرض.

وفيما هما قائمان على عملهما المخيف نهضت النونو، وقد خبلتها الدموع والصلوات، وحدسها بأن شيئاً مريباً يقترف ساعتئذ في منطقة نفوذها في الباحة الثالثة، وتغطت بالشال ونهدت تجوب البيت. رأت نوراً في المطبخ، لكن الباب والدرفات كانت مغلقة. تابعت عبر الأروقة الصامتة المتجلّدة، فقطعت الأبنية الثلاثة حتى وصلت إلى الصالون. وتبينت عبر انفراج الباب، سيدها وهو يذرع الغرفة بهيئة مرهقة. وقد انطفأت نار المدخنة. دخلت النونو.

سألت: «أين صغيرتنا روزا؟».

قال سيفيرو راجياً: ـ الدكتور كويفاس هو معها يا نونو. ابقي هنا واشربي معي كأساً.

بقيت النونو واقفة وذراعاها متصالبتان تشدان الشال إلى صدرها، وأشار سيفيرو إلى الكنبة فاقتربت خجلى. وجلست إلى جانبه. كانت المرة الأولى، منذ أن عاشت تحت هذا السقف. تجلس هكذا قريباً من سيّدها، صبّ سيفيرو كأساً من الخيريس لكل منهما وشرب كأسه جرعة واحدة. دفن رأسه بين أصابعه، وانتزع من شعره وهو يجمجم بين أسنانه صلاة لاتفهم. وخرجت النونو، وقد جلست مستقيمة على طرف الكنبة، عن تحفّظها لما رأته يبكي. فمدت يدها الخشنة، وبحركة ميكانيكية، مشّطت له شعره بنفس الملاطفة التي تعزّي بها الأطفال منذ عشرين سنة. فرفع رأسه وتأمل هذا الوجه بلا عمر، تينك الوجنتين الهنديتين، وتلك الجديلة السوداء وذاك الحضن الشاسع الذي رأى فيه ذريته تتأوه وتنام، وشعر بأن هذه المرأة الدافئة والكريمة كالأرض تعرف

كيف تعزّيه. وأسند رأسه إلى ركبتيها، وشم رائحة وزرتها المنشاة الزكية وانفجر بالنحيب كطفل، يبكي كل الدموع التي حبسها عبر حياته كلها. وحكّت له النونو ظهره، وضربته ضربات عزاء صغيرة، وكلمته بلغة الرضع التي تستعملها كي تنيم الأطفال، ودندنت له في همس أغانيها القروية حتى هدأ، وبقيا جالسين قريبين من بعضهما يشربان الخيريس، ويبكيان بين فترة وفترة ويتذكران الزمن السعيد الذي كانت تعدو فيه روزا عبر البستان، فتدهش الفراشات بجمالها الذي هو من عمق البحار.

في المطبخ أحضر الدكتور كويفاس ومساعده أدواتهما المشؤومة وقواريرهما الكريهة الرائحة، وعقدا وزرتين من القماش المشمّع وشمّرا عن أكمامهما، وأخذا يعيثان في خفر روزا الجميلة حتى حققا دون ظلّ ممكن للشك أن الصبية ابتلعت كمية إضافية من مبيد الجرذان.

وبتّ الدكتور في المسألة وهو يغسل يديه في المغسلة قائلاً: «الأمر كان موجهاً لسيفيرو».

أما المساعد الذي استبد به جمال الميتة فلم يستطيع أن يسلم بتركها مخيطة ككيس واقترح أن يرتّبها قليلاً. واجتهدا معاً بدهن الجسد بالمروخ وتكحيله بلصقات المحنّطين. اشتغلا حتى الساعة الرابعة صباحاً، الساعة التي أعلن فيها الدكتور كويفاس أنه قهره الحزن والتعب ثم انصرف. وبقيت روزا، في المطبخ، بين يدي المساعد الذي غسلها باسفنجة فخلّصها من بقع الدم، وألبسها قميصها المطرز كي يخفي الخياطة من أعلى البطن حتى الفرج، ثم أعاد إلى الشعر نظامه. وبعدها نظف كل آثار مهمتهما.

وجد الدكتور كويفاس سيفيرو في الصالون برفقة النونو وقد سكرا من دموع ومن خيرس.

قال: «إنها جاهزة. سوف نزينها قليلاً كي تستطيع أمها رؤيتها...».

وعرض لسيفيرو أن ظنونه كان لها مايبرّرها وأنه وجد في معدة الفتاة المادة المميتة نفسها في ماء الحياة التي قدمت لها. عندها تذكر سيفيرو نبوءة

كلارا وضيّع بقية التماسك الذي أبداه، وبات غير قادر على قبول فكرة أن ابنته ماتت بدلاً عنه. وانهار وهو يئن أنه هو المجرم إذ لعب دور الوصوليين والمتبجحين، وأن أحداً لم يطلب إليه أن يعمل بالسياسة، وأنه كان أفضل له مائة مرة لو ظل قاضياً متواضعاً ربّ عائلة. وأنه سيقلع حالاً وللأبد عن ذلك الترشيح الملعون، عن الحزب الليبرالي، عن الأباطيل وعمل البروانة ويتمنى ألا يعمل أحد من ذريته في السياسة. إنها عمل قتلة ونصّابين، حتى لقد أشفق عليه الدكتور وانتهى إلى أن أسكره. كان الخيريس أقوى من الحزن ومن النقد الذاتي.

ورفعته النونو والطبيب حتى غرفته وجرّداه من ملابسه ووضعاه في السرير. ورجعا إلى المطبخ حيث كان المساعد ينهي تحضير روزا.

استفاقت نيفيا وسيفيرو ديل فاله متأخرين في الصباح. كان الجوار قد زينوا الدار تبعاً لطقس الموت فالستائر أغلقت وجللت بالقطيفة السوداء واصطفت على طول الحائط أكاليل الزهور التي ملأ عبيرها الحلو الهواء. وسويت غرفة الطعام فجعلت غرفة ميت. وعلى الطاولة الكبرى التي غطيت بقماش أسود ذي أهداب مذهبة رقد نعش روزا الأبيض ذو الدثار الفضّي. وكانت اثنتا عشرة شمعة صفراء في شمعدانات برونزية تنير الفتاة بضوء مشعشع. ألبسوها ثوب خطبتها وألبسوها تاجاً من زهر البرتقال في شمع النحل الذي كانت تحفظه ليوم عرسها.

عند الظهر بدأ موكب عشراء البيت، من أصدقاء ومعارف يأتون ليقدّموا تعازيهم ويتعاطفون مع حداد آل ديل فاله. حضر إلى البيت حتى الأعداء السياسيون الأشد عنفاً ضد سيفيرو الذي كان يراقبهم واحداً واحداً محدقاً إليهم، علّه يكتشف في أي زوج من العيون التي يسبرها سر القاتل، لكنهم جميعاً بمن فيهم رئيس حزب المحافظين، لم يقرأ إلا الشجن نفسه، والبراءة نفسها.

كان الرجال خلال السهرة يرفدون عبر الصالونات والأروقة وهم

يستفيضون بصوت خفيض في أمور صفقاتهم. وكان يعاودون صمتهم الوقور إذا مر بحذائهم أحد العائلة. وفي لحظة الدخول إلى غرفة الطعام والاقتراب من النعش لنظرة أخيرة على روزا، كانت تنتابهم رجّة لأن جمالها لم يكن إلّا أن ازداد خلال الساعات الأخيرة. وكانت النساء يمْرُرنَ من الصالون حيث صفّت كراسي البيت في دائرة. لقد كان البكاء هنا متاحاً حتى الثمالة والبوح، تحت ذريعة وفاة الغريب، بأحزان أكثر شخصيّة. وكانت الدموع مدرارةً، لكن وقورة وصامتة.

بعضهنّ كنّ يجمجمن بالصلوات بصوت ضعيف. وكان مستخدمو البيت يتجولون في الصالونات والفيراندات يقدمون كؤوس الشاي، وأقداح الكونياك، ومحارم نظيفة للنساء، وحبوباً صنع البيت، وكمادات صغيرة مبللة بالأمونياك للسيدات اللائي أصبن بالغثيان لطول بقائهن مع رائحة الشموع والحزن. كل أخوات ديل فاله، ماعدا كلارا التي مازالت جدّ صغيرة، لبسن سواداً شديداً وجلسن حول أمهن كدائرة زاغات[1]. كانت نيفيا وقد بكت كل دموع جسدها، تجلس مستقيمة على كرسّيها، دون أية تنهدة، دون أية كلمة، بل دون أن تستعين بالأمونياك فقد كانت شديدة الحساسية تجاهه. وكان الزوار، لدى وصولهم، يأتون فيقدمون لها تعازيهم. بعضهم كان يقبّلها على الوجنتين، وبعضهم يضمونها ضمّاً خلال عدّة ثوان. لكنْ كان يبدو عليها أنها لاتعرف أحداً حتى الحميم منهم. لقد شهدت موت العديد من أبنائها عند الولادة، أو خلال الطفولة الأولى، لكن أحداً منهم لم يخلف لها هذا الإحساس بالفقد الذي تعانيه الآن.

وودّع كلّ من الإخوة والأخوات روزا بأن طبع قبلة على جبينها المتجلّد ماعدا كلارا التي لم تشأ أن تقترب من غرفة الطعام. ولم يلح عليها أحد لمعرفتهم بحساسيتها المبالغة ونزوعها إلى الروبصة لما يفقد خيالها صوابه. بقيت

١ - غراب أسود.

في البستان وقد تكوّمت على بارّاباس، ورفضت كل غداء أو المشاركة في ليلة السهر. النونو وحدها اهتمت بها وودت أن تعزّيها لكن كلارا زجرتها.

ولقد تحول موت روزا، بالرغم من الاحتياطات التي اتخذها سيفيرو ليسكت الشائعات، فضيحة عامة. ولقد عمم الدكتور كويفاس لدى كل من شاء الاستماع إليه الشرح المعقول تماماً لموت الفتاة، فقد سبّبه حسب قوله التهاب رئة صاعق. غير أن الضجة انتشرت بأنّها سممت خطأ بدلاً عن أبيها. كانت الاغتيالات السياسية مجهولة في البلاد، في ذلك الوقت وماكان السمّ، على كل حال سوى وسيلة الضعيف، المجرد عن كل اعتبار، فما يلجأ إليه أحد من عهد الاستعمار، لأن الجرائم، حتى العاطفية منها، كانت تتم مواجهة. وثارت جلبة احتجاج ضد الاغتيال وقبل أن يستطيع منعها سيفيرو، نشر الخبر في جريدة معارضة، تتهم بطريقة مواربة الأوليغارشية، وتضيف أن المحافظين أهل لهذا، لأنهم لايستطيعون أن يغفروا لسيفيرو ديل فاله انتقاله، بالرغم من انتسابه الاجتماعي. إلى معسكر الأحرار. وحاول البوليس أن يتتبع أثر مقششة ماء الحياة، لكن النقطة الوحيدة التي وضحت، أنها لم تكن من نفس منشأ الخنزير المطبوخ بالحجل، وأن ناخبي الجنوب الكبار لم تكن لهم صلة بهذه المسألة. ولقد وجدت المقششة الخفية صدفة أمام مدخل الخدمة في بيت ديل فاله في اليوم نفسه والساعة نفسها التي وصل فيها الخنزير المشوي. وقد قدّرت الطباخة أنها جزء من الهدية. ولم يتمكن حماس الشرطة ولا البحث الذي قام به سيفيرو وعلى حسابه بواسطة شرطي سرّي خاص، من اكتشاف القتلة. وظلّ يحوّم شبح ذلك الانتقام، الذي لم يرو، على كل أجيال العائلة التالية. وهكذا كان أول عمل من أعمال العنف التي وسمت قدر العائلة.

أذكره كما لو كان البارحة. ذاك اليوم كان عندي يوماً شاسعاً، لأن عرقاً جديداً انبثق، العرق الضخم العجيب الذي لاحقته طيلة زمن التضحية، والإنتظار والبعد والذي كان قادراً على أن يوطّد لي الثروة التي تقت إليها. كنت موقناً أني في ستة شهور سوف أجمع مايكفي من مال كي أتزوج وأني

في سنة أستطيع أن أبدأ باعتبار نفسي إنساناً غنيّاً. لقد حالفني الحظ، لأن الذين كانوا يفلسون في قضايا الامتياز هذه هم أكثر عدداً من الذين ينجحون، كما قلت لروزا وأنا أكتب إليها هذا المساء وأنا مغتبط لاهفّ أمرّر أصابعي على ملامس الآلة القديمة فتخرج منها الكلمات ملتصقاً بعضها ببعض. وأنا في هذه الحال سمعت طرقاً على الباب قطع إلهامي إلى الأبد. كان بغّالاً ودابتيه يحمل برقية وصلت إلى القرية مرسلة من أختي فيرولا تنبئني بموت روزا.

اضطررت لقراءة قطعة الورق ثلاث مرّات كي أدرك كل اتّساع شقائي. فكرة واحدة لم تتبادر لي أبداً هي أن روزا فانية. تعذبت كثيراً من فكرة أنها، ربما تعبت من انتظاري، فقررت الزواج من آخر، أو لايظهر العرق الذي يضع ثروة بين يدي، أو أن ينهار المنجم فيسحقني كصرصور. نظرت في كل هذه الاحتمالات، وسواها أيضاً، دون موت روزا أبداً، بالرغم من تشاؤم الأمثال الذي يدفعني إلى انتظار الأسوأ. وشعرت أن الحياة، دون روزا، لامعنى لها عندي. ولقد فرّغت من الداخل مثل كرة فزرت، وغادرني كل حماسي. وبقيت على مقعدي أتأمل الصحراء من النافذة، والله يعرف كم من الوقت، حتى استعدت قليلاً قليلاً رشدي. كان أوّل ردّ فعل لي هو الغضب.

وهجمت بقبضتي على أخشاب الكوخ، حتى دميت مفاصلي، ومزقت إلى آلاف المزق رسائل ورسوم روزا والنسخ الثانية من رسائلي التي احتفظت بها، وفي لحظة رميت في الحقيبة أشيائي وأوراقي وكيس القماش الذي يحوي ذهبي ثم خرجت أبحث عن رئيس العمال فأعطيته أجر العمال ومفتاح المخزن. وعرض عليّ البغّال أن يصطحبني حتى القطار كان علينا أن نقطع جزءاً كبيراً من الليل على ظهر البغلة، وليس مايقيني الضباب الكثيف، سوى بونشو[1] مبطن، وتقدّمنا في بطء في تلك العزلات اللانهائية، حيث لايضمن الوصول إلى هدفنا سوى غريزة دليلي وحدها، لأنه لاوجود لأقل علامة مؤشر. كان

---

١ - نوع من المعطف في أمريكا اللاتينية.

الليل مضيئاً ذا نجوم، والبرد يخترقني حتى مخّ العظم، يصلّب أصابعي ويستولي على روحي. كنت أتقدم دون أن أنقطع عن التفكير بروزا، أتمنّى في سورة لاعقلية، بألا حقيقة لموتها، أتضرع بائساً للسماء ألّا يكون ذاك غير خطأ بسيط وأن تبعث قوة حبي روزا فتعود للحياة وتقوم من القبر مثل أليعازر. كنت أسير وأنا أبكي بيني وبين نفسي وقد غرقت في شجني وفي الجليد الليلي. أروي بالشتائم البغلة التي تمشي بكل هذا الكسل، وفيرولا رسولة البؤس، وروزا لأنها ماتت، والله لأنه أذن بذلك، حتى بدأ الأفق ينجلي، وتختفي النجوم، وتنبثق أوائل ألق ألوان الفجر، فتصبغ منظر الشمال بأحمر وبرتقالي، ومع نور الصباح راجعني قليل من الإدراك. وبدأت أقنع بشقائي وأسأل ألّا تبعث، وإنما بأن يؤذن بالوصول فحسب في الوقت المناسب كير أراها قبل أن تدفن. وحثثنا السير وبعد ساعة، استأذن مني البغّال في المحطة الجدّ صغيرة التي يمر فيها قطار الخط الضيّق الذي يصل العالم المتمدن بهذه الصحراء حيث أقمت سنتين.

سافرت ثلاثين ساعة متصلة دون توقف للأكل، ناسياً حتى عطشي، لكن نجحت في الوصول إلى بيت عائلة ديل فاله قبل الجنازة. روي أني فاجأت الدار وقد غطاني الغبار، دون قبعة، قذراً لم أحلق ميتاً من ظمأ وسكران من غضب، طالباً في ضجيج خطيبتي. وخرجت كلارا الصغيرة، التي لم تكن حتى ذلك الحين سوى طفلة ضئيلة كئيبة، للقائي منذ أن وضعت قدمي في الباحة، فأخذتني من يدي وقادتني صامتة إلى غرفة الطعام. كانت روزا ترقد بين طيّات الأطلس الأبيض البقيّة من نعشها الأبيض: بعد ثلاثة أيام من موتها ظلت سليمة وأحلى ألف مرّة مما هي عليه في ذاكرتي، لأن روزا تحوّلت رويداً رويداً في الموت إلى جنية البحر التي كانتها دائماً في الخفاء.

قيل إني قلت: «عليها اللعنة! لقد فرّت مني!» أو أني صحت وسقطت على ركبتي إلى جانبها، مما أثار استنكار ذوي القربى، لأن أحداً ماكان يستطيع أن يفهم حرماني من أني قضيت سنتين بطولهما أنكش الأرض كي أغدو غنياً من أجل غاية وحيدة أن أقود ذات يوم إلى المذبح هذه الفتاة التي حصدها مني الموت.

بعد هنيهة جاءت العربة، عجلة ضخمة وسوداء ولامعة تجرّها ست خيول مزيّنة بالريش كما كانت العادة، يقودها حوذيّان بكسوة رسمية. تركت البيت في قلب العصر وتحت رذاذ خفيف وتلاها موكب عربات تحمل الأهل والأصدقاء والأكاليل. كانت النساء والأطفال، جرياً على العادة، لايحضرون الدفن فهو مخصص للرجال، لكن كلارا نجحت بالاختلاط بالموكب كي ترافق أختها روزا. وأحسست بيدها في الكفّ تتعلق بيدي، وظلت خلال الطريق بجانبي، ظلاً نحيلاً وصامتاً يحرّك في عمق ذاتي حنيناً مجهولاً. في تلك اللحظة، لم أكن قادراً على أن أنتبه إلى أن كلارا لم تنبس بكلمة واحدة منذ يومين، وأنه سوف تمضي ثلاثة أخرى قبل أن تقلق العائلة لخرسها.

ورفع سيفيرو ديل فاله وكبار أولاده نعش روزا الأبيض المبرشم بالفضة وأدخلوه في المشكاة المفتوحة في الضريح. كانوا يلبسون الحداد دون صياح ودون دموع، تبعاً لتقاليد الحزن في بلد تعوّد الوقار العظيم في الألم. وبعد أن اغلقوا مصبعة القبر وانسحب الأقرباء والأصدقاء والحفارون بقيت مزروعاً بين الأزهار التي نجت من شراهة بارّاباس ولحقت بروزا إلى المقبرة. كانت لي هيئة طائر شتوي قاتم وذيلاً معطفي الأسود يتطايران في الهواء، طويلاً نحيلاً على ماكنت قبل أن تتحقق لعنة فيرولا وقبل أن تبدأ بتصغيري. كانت السماء رمادية والمطر يهدد، وافترضتُ أنه كان برداً، لكنني افترضتُ أني لم أحس به، لشدة ماكان يضنيني الغضب. لم أكن أستطيع انتزاع عيني من مستطيل المرمر الذي حفروا في أعلاه بحروف غوطية اسم روزا الجميلة والتواريخ التي تحدد إقامتها القصيرة في هذا العالم. قلت في نفسي إني فقدت سنتين كاملتين أحلم فيهما بروزا، أعمل من أجل روزا، أكتب لروزا، لاأتوق إلا لورزا، وفي النهاية، لن يتاح لي عزاء أن أقبر بجانبها. وتأملت في كل السنوات التي بقيت أمامي وأتيت إلى خلاصة، أني من دونها، لاتستأهل السنوات أن أعيشها، لأني للأبد، وفي كل العالم، لن يتاح لي أن ألتقي بامرأة أخرى لها الشعر نفسه الأخضر والبهاء البحري نفسه. ولو أنه قيل لي أن سوف أعيش أكثر من تسعين سنة، لأطلقت رصاصة على رأسي.

لم أسمع خطو حارس المقبرة الذي اقترب مني من الخلف. وانتفضت لما لمس كتفي.

زمجرت قائلاً له: «وكيف تجرؤ أن تضع يدك عليّ؟».

تراجع المسكين، مرتعباً. فسقطت بعض قطرات مطر حزينة وبللت أزهار الموتى.

ظننت أني سمعته يقول: «ألف عذر، يا سيدي، الساعة الآن السادسة ويجب أن أغلق».

حاول أن يشرح لي أن النظام يمنع الغرباء عن الخدمة من البقاء في حرم المقبرة بعد غياب الشمس، لكنني لم أسمح له بأن يتمّ، ودسست في يده بعض الأوراق النقدية، ثم دفعته كي يبتعد ويدعني في سلام. ورأيته يذهب وهو يحدق حسداً من فوق كتفه. لابد أنه فكر بأني معتوه من أولئك المجانين عشاق القبور الذين يردون أحياناً المقابر.

كانت ليلة طويلة، ربما أطول ليلة في حياتي. قضيتها جالساً قرب روزا، أتحدث معها، أرافقها في الجزء الأول من رحلتها إلى الآخرة، عندما يعاني المرء أشد الألم في الانفصال عن الأرض، ويكون بحاجة إلى حب الذين بقوا في الحياة فيذهبون على الأقل وقد تعزّوا بأنهم بذروا شيئاً في قلب الآخرين وأخذت أتذكر كمال وجهها، وألعن حظي. ولمت روزا على تلك السنوات التي قضيتها في وجر المنجم أحلم بها. وصنت نفسي عن أن أقول لها إني، خلال تلك المدّة، لم أعرف امرأة سوى بعض العاهرات البائسات المعمرات الباليات اللائي يخدمن كل المعسكر بحسن نية دون جدارة. لكنني قلت لها إني عشت بين أناس دون دين ولاخلق، أغتذي بالحمص وأشرب الماء الآسن، بعيداً عن المدينة، أفكر بها ليل نهار، أرفع في ذاتي صورتها كعلم يمنحني القوة كي أستمر باقتحام الجبل بضربات الإزميل، بالرغم من أننا فقدنا أثر العرق، وأنا أتألم من معدتي في أكبر جزء من السنة، يقتلني البرد ليلاً، أهذي من حرارة النهار، وكل هذا من أجل هدف وحيد أن أتزوجها، وهاهي ذي تموت كخائنة قبل أن أستطيع تحقيق أحلامي، وقد تركتني في ضيق لاشفاء منه، قلت لها إنها

سخرت منّي، وحسبت فإذا بنا لم نلتق أية مرة وحدنا، ولم أتمكن من تقبيلها إلا في مناسبة واحدة. لقد وجب علي أن أنسج هذا الحب من الذكريات، والرغبات المضطرمة لكن استحال عليها أن تروي، والرسائل العافية الحائلة ألوانها والتي لاتستطيع أن تعكس النار ولا الألم الذي يسببه غيابها، وليست لدي أية موهبة في فنّ المراسلة، وأقل منها في وصف ما أُحسّ. لقد قلت لها إن سنوات المنجم تلك كانت خسارة لاتعوّض وإني لو كنت أدري أنها ستقيم هكذا قليلاً بيننا، لكنتُ سرقت المال اللازم لزواجنا وبنيت لها قصراً زينته بكنوز أعماق البحار: من مرجان، ولؤلؤ، وصدف، وكنت حبستها فيه، لايصله أحد إلّاي وحدي. لقد أحببتها دون ونيّ وإلى زمن لاحدود له تقريباً، لأني كنت على يقين أنها في جواري ماكانت تتجرع السم المرسل إلى أبيها وأنها كانت تعيش ألف عام. ذكرت لها المداعبات التي خبأتها لها، والهدايا التي كنت أحسب أن أفاجئها بها، والطريقة التي أغريها بها وأجعلها سعيدة. وبالخلاصة، قلت لها كل الجنون الذي ماكنت لأقوله حتى الأبد لو أنها استطاعت سماعي، ومالم أعد قوله حتى اللحظة لأية امرأة أخرى.

تلك الليلة، ظننت أني فقدت نهائياً ملكة الوقوع في الحب وأنني لن أستعيد أبداً مذاق الضحك أو اللحاق بالوهم. لكن أبداً تعني وقتاً طويلاً. ولقد استطعت أن أتحقق من ذلك عبر حياتي الطويلة.

وتصورت هذا الغضب الذي يكبر فيّ مثل سرطان خبيث، يعدي أجمل ساعات وجودي. ويجعلني غير قادر على الحنان أو الرأفة. لكن وراء هذا الغضب واضطرابي، لكن الشعور المسيطر الذي أذكر أني عانيته كان الحرمان: لن أستطيع أبداً تحقيق الشهوة اللاهبة في أن أدع يديّ تطوفان على روزا، تنفذان إلى أسرارها، تجعلان شلال شعرها الأخضر يسيل فيغمرني بأعمق أمواهه. وتذكّرت يائساً آخر صورة احتفظت بها، تبرزها طيات الأطلس في نعشها البكريّ، وزهور البرتقال للعروس الفتاة تكلل رأسها، والمسبحة بين أصابعها. كنت أجهل أيضاً أنه مكتوب لي، أن أراها هكذا بعد سنين طويلة بزهور البرتقال ووردِيتها لحظة قصيرة.

رجع الحارس لدى أشعة الفجر الأولى. يبدو أنه عانى بعض الشفقة لهذا المجنون نصف المتجمد الذي قضى الليلة بين أشباح المقبرة الكالحة. مدّ لي مطرته واقترح:

- شاي ساخن يا سيّد. خذ قليلاً منه.

لكني دفعته بلطمة وابتعدت مجدّفاً، بخطوات واسعة مغضبة، بين سياجات القبور والسرو.

في الليلة التي فتح فيها الدكتور كويفاس ومساعده بطن الجثّة لاكتشاف سبب الموت، اضطجعت كلارا في سريرها وعيناها مفتوحتان، ترتجف في الظلام. لقد داهمها الشك الفظيع بأن أختها ماتت لأنها تنبأت بذلك. لقد حسبت أنها قادرة بالفكر، كما تستطيع تحريك مملحة، أن تكون سبب الموت والزلازل ومصائب كبيرة أخرى. ولقد جهدت أمها عبثاً أن تلقّنها أنها لاتستطيع أن تثير الأحداث نفسها وإنما أن تراها مسبقاً فحسب. أحست بأنها مذنبة، مرهقة، وقالت في نفسها إنها تغدو أفضل إذا كانت إلى جانب روزا. وقامت حافية القدمين، في المنامة. وذهبت إلى الغرفة التي شاركت فيها حتى الآن أختها البكر، لكنها لم تجدها في سريرها حيث رأتها آخر مرّة. وخرجت ثانية تبحث عنها في البيت كله. وماكان كله سوى ظلمات وصمت. أمها كانت نائمة، خدّرها الدكتور كويفاس. وأخواتها والخدم انسحبوا باكراً، كل إلى غرفته. قطعت الصالونات حذو الجدران، مرتعدة ومرعوبة. الأثاث الضخم، وجوخ الستائر الثقيل، واللوحات المعلقة على الحواجز، والنجود ذوات الزهور المرسومة على خلفية من نسيج غامق، والشمعدانات المنطفئة التي تهتز في السقف، وأصص السرخسيّات على قواعد الخزف الصيني تبدّت لها جميعاً حبلى بالتهديد. لاحظت أن بعض النور يلمع في الصالون، ينسرب من تحت الباب، وكادت تدخله، لكنها خافت أن تجد أباها وأن يردّها كي تنام. عندها اتجهت بخطوها ناحية المطبخ حاسبة أن تستمد بعض الأمان على صدر النونو. قطعت الباحة الرئيسة، بين الكاميليا وأشجار البرتقال القزمة، وقطعت غرف

جسم البناء الثاني، واندفعت في الممرات المظلمة المكشوفة حيث قناديل الغاز تنشر كل الليل نوراً شحيحاً، لولا أنّه كافٍ كي تنقض وأسنانها تصطك فتخيف الوطاويط وبقية الدوبّيات الليلية، ثم وصلت الباحة الثالثة التي كانت تطلّ عليها بيوت الخدمة والمطابخ. في هذا المكان، كان البيت يفقد بعضاً من أناقته المرفّهة وتبدأ فوضى المساكن القذرة من أخمام الدجاج إلى غرف الخدمة. وبعدها كان يوجد الإسطبل حيث تحفظ الخيول الهزيلة العجوز التي ظلّت تستخدمها نيفييا، بالرغم من أن سيفيرو ديل فاله كان من أوائل من اقتنوا السيارة. كان باب ودرفات المطبخ وغرفة الخدمة مغلقة. ونبّهت كلارا غريزتها إلى أن شيئاً غير طبيعي يحدث في الداخل وجرّبت أن ترفع نفسها حتى النافذة، لكن أنفها لم يصل إلى مستوى المتّكأ، واضطرت إلى أن تجرّ صندوقاً وتسحبه حتى الحائط وجثمت عليه واستطاعت أن تسترق النظر من فرجة بين درفة الخشب وإطار النافذة التي شوههما الزمن والرطوبة. عندما رأت مايتمّ في الداخل.

كان الدكتور كويفاس، هذا الرجل الطيب المهذّب والسمح ذو الذقن الوسيعة والكرش السمين، الذي ساعدها في الولادة ورعى كل أمراضها الهيّنة في الطفولة ثم أزماتها الربويّة، قد تحول إلى هامة ضخمة مظلمة شبيهة بلوحات التزيين في كتب خالها ماركوس. كان منحنياً على طاولة العمل حيث جرت النونو على تحضير الطعام. وكان يقف إلى جانبه شاب مجهول، شاحب كالقمر، قميصه ملطخ بالدم وعيناه تائهتان من الحبّ. ورأت فخذي أختها النقيّين، وقدميها العاريتين. وأخذت ترتجف كلارا. في تلك اللحظة تنحى الدكتور كويفاس فاستطاعت أن تكتشف منظر روزا الرهيب وهي ممددة على المرمر، مفتوحة من أعلى إلى سفل بحزّ عميق، وأمعاؤها منضّدة إلى جانبها في وعاء السلطة. كان وجه روزا ملتفتاً ناحية النافذة حيث كانت البنية تتلصص، وشعرها الطويل الأخضر يتدلّى كسرخسة من الطاولة إلى البلاط الملطخ بالدم. كانت عيناها مغلقتين غير أن كلارا، بتأثير الظلال، أو المسافة أو خيالها، ظنّت أنها تكتشف تعبيراً ضارعاً ذليلاً.

ولم تستطع كلارا وهي مسمّرة على صندوقها أن تمتنع عن النظر حتى النهاية. بقيت برهة طويلة تتلصّص من الفرجة، وقد تجلّدت في مكانها دون أن تعير انتباهاً، إلى أن انتهى الرجلان من تفريغ روزا وزرق بعض سائل في عروقها وغسلها وجهاً وقفاً بالخل المعطر وماء الخزامى. وبقيت هناك حتى ملأها بلصقات المحنّط وخيطاها بـإبرة منجد منحنية. بقيت حتى ذهب الدكتور كويفاس إلى المغسلة فغسل فيها ونظف دموعه، فيما كان الآخر يخفي آثار الدم والأحشاء. بقيت هناك حتى خرج الطبيب بعد أن ارتدى سترته السوداء وعليه هيئة حزن مميت. بقيت هناك حتى أخذ الشاب المجهول يقبل روزا على فمها، ورقبتها، والشفتين وبين الفخذين، وغسلها بـإسفنجة، وألبسها منامتها المطرزة ومشط لها شعرها وهو مبهور النفس. بقيت هناك حتى وصلت النونو والدكتور كويفاس، وألبسوها ثوبها الأبيض وتوّجوها بأزهار البرتقال التي احتفظت بها في سلة حرير ليوم عرسها، وبقيت هناك حتى أخذها المساعد بين ذراعيه بنفس الحنان الشجيّ الذي كان يمنحه لها لو رفعها كي يعبر بها للمرة الأولى عتبة بيتها وكأنها خطيبته. ولم تستطع أن تتحرك من هناك قبل أشعة النهار الأولى. عندما انسلّت إلى سريرها، وهي تصغي في صميم داخلها إلى صمت العالم العظيم. لقد اقتحمها كاملاً هذا الصمت، ولم تتكلم إلّا بعد تسع سنوات عندما رفعت صوتها وأعلنت أنها نفسها ستتزوج.

الفصل الثاني

الماريات الثلاث

كان إيستيبان ترويبا وأخته فيرولا في غرفة طعامهما بين الأشياء العادية التالفة، التي كونت، في زمن بعيد مضى، أثاثاً فيكتورياً، يتعيشان من الحساء اليومي الشائط نفسه ومن السمكة التافهة كل يوم جمعة. وكانت الأجيرة التي تخدمهما قد جرت على العناية بهما منذ زمن غير معروف، تبعاً لتقاليد العبيد بالرهن في تلك الفترة، ولقد كانت العجوز تروح وتغدو بين المطبخ وغرفة الطعام محنيّة نصف عمياء، لكنها مازالت قادرة أن تأتي وتردّها بالصحون بوقار. ولم تكن الدونيا إيستير ترويبا تجلس إلى المائدة مع ابنيها. كانت تقضي صبحها بلا حراك على كرسّيها تتأمل من النافذة حركة الشارع وتتبيّن تدهور الحي، عبر السنين، الذي عرفته ممتازاً في شبابها وبعد الغذاء، كانت تحمل إلى سريرها، فترتّب بشكل تقدر معه أن تبقى نصف جالسة، في الوضع الوحيد الذي يبيحه لها التهاب المفاصل، وليس من رفيق معها غير القراءة التقية لكراسات السان سيلبيسيين عن حيوات ومعجزات القديسين. وكانت تبقى كذلك حتى الغد حيث تعاود الروتين نفسه وماكانت تخرج أبداً إلّا لحضور صلاة الأحد في كنيسة سان ـ سيباستيان على بعد خطوتين من بيتها، حيث تقودها فيرولا والخادمة في كرسيها المتنقّل.

انتهى إيستيبان توريبا من نكش لحم السمك المبيض من بين تشابك

الحسك ووضع عدّة الأكل في الصحن. كان يجلس جدّ مستقيم، بنفس الطريقة التي يمشي فيها متعالياً، رأسه قليلاً إلى الوراء، مع انحراف قليل، ينظر من جانب عينه بمزيج من الوقاحة، والحذر وقصر النظر، كان هذا الوضع مقيتاً لولا أن عينيه كانتا مدهشتين في حلاوتهما وصفائهما، كانت هيئته على قسوتها تلائم أكثر منه السمين القصير الطامح إلى أن يبدو أكبر مما هو عليه غير أن طوله كان متراً وثمانين ولايمكن لأحد أن يكون على مثل رشاقته. كل خطوط جسمه كانت مستقيمة وصاعدة، من صفيحة أنفه الأقنى وحاجبيه المنتصبين حتى جبينه العالي المكلّل بلبدة أسد يردّها إلى الوراء. كان طويلاً نحيلاً أصابعه تنتهي بملاوق. وكان يسير بخطى واسعة، يتحرك بقوّة ويبدو على قوّة غير عادية دون أن تنقصه الأناقة في الحركة. كان وجهه كامل التناسق بالرغم من هيئته الصارمة المظلمة وكثرة تعبيره عن الضيق. كان النزق والميل إلى الهياج وفقدان الصواب من طبعه، والصفة المميزة له منذ طفولته الأولى، حيث كان يتدحرج أرضاً، والزبد على شفتيه، يختنق من غضب ويعرقص[1] كممسوس. فكانوا يضطرون إلى غطسه ورأسه أوّلاً في الماء المتجلد حتى يستعيد اتزانه. لكنه تعلم فيما بعد كيف يسيطر على نفسه، غير أنه بقي له طيلة حياته ذاك النزوع السريع إلى الغضب دون أن يكون بحاجة إلى كثير من التحريض كي يفيض بثورات فظيعة.

قال: «لن أعود إلى المنجم».

كانت تلك أولى جملة يتبادلها على المائدة مع أخته. قرر ذلك الليلة الفائتة، مقدّراً ألا معنى بتاتاً للاستمرار في حياة الناسك بحثاً عن ثروة سريعة. كان يملك التصرف بامتياز المنْجم سنتين أخريين، وهما أجل كاف لاستثمار العرق العجيب الذي اكتشفه جيّداً، لكنه فكر لو اختلس رئيس المجموعة قليلاً، ولم يعرف كيف يعمل مثله، فما من سبب يدفعه للعودة كي يدفن نفسه في قلب الصحراء. وماكان يتوق إلى جمع ثروة بهكذا تضحيات. فقد كانت

---

١ ـ يضرب الأرض بقدميه ويديه.

الحياة كلها أمامه كي يغتني إذا استطاع وكي يضجر ثم ينتظر الموت، دون روزا.

أجابت فيرولا: «يجب أن تعمل يا ايستيبان في ناحية ما. أنت تعرف أننا نصرف قليلاً هنا، لاشيء بمعنى الكلمة، لكن أدوية أمنا ثمنها غال...».

وتطلع إيستيبان إلى أخته. مازالت امرأة جميلة لها ملامح ثرية ووجه بيضوي كعذراء رومانية، لكنْ عبر جلدها الشفّاف في لمعان مخمل، وفي نظرتها الملأى بالظلال يحدس المرء ببشاعة الخضوع. لقد قبلت فيرولا أن تقوم بدور الممرضة لأمها. كانت تنام في الغرفة المجاورة لغرفة الدونيا، إيستير، وعلى استعداد كل لحظة للمثول إلى جانبها كي تجرعها الدواء، وترتب لها الوسائد. كانت لها روح معذبة. تستمرئ الإهانة وأدنأ الأعمال، تفكر أنها تربح مكانها في السماء عن هذا الطريق المأساوي بأن تحتمل أفدح الظلم، وكان أيضاً يطيب لها أن تطهّر دمامل فخذي أمها المريضين، وأن تغسلها وأن تغوص في روائحها وعجزها، وأن تسبر إناء غرفتها. وبالقدر الذي كانت تكره فيه نفسها للجوئها لهذه المسرات المتعرجة المخزية، وتمقت أمها لأنها تقوم مقام الأداة. كانت تعتني بها دون شكوى، لكن تتدبر أمرها بحذق كي تجعلها تدفع ثمن عجزها. كان بين الاثنتين، دون أن تقولاه علناً، واقعة أن البنت ضحت بحياتها للعناية بأمها وبقيت عانساً لهذا السبب. لقد رفضت فيرولا خاطبين متعللة بعجز أمها. كانت لاتتحدث أبداً في هذا الشأن، لكن كل الناس كانوا على إطلاع. كانت حركاتها نزقة رعناء، ولها طبع أخيها الرديء نفسه لكن الحياة ووضعها كامرأة أكرهها على أن تسيطر على نفسها، وتكظم غيظها. كانت تبدو على قدر من الكمال اكتسبت معه سمعة قديسة. كانت تذكر مثلاً في التفاني الذي تغدقه على دونيا إيستير وعلى الطريقة التي ربت بها أخاها الوحيد لما مرضت أمه ومات أبوه، وخلفهم إلى البؤس. لقد عبدت فيرولا أخاها إيستيبان حين كان طفلاً. كانت تنام معه وتزينه، وتخرج معه إلى النزهة وتكد من مطلع الشمس إلى غروبها في الخياطة كي تدفع له عن الكلية وبكت من غضب عاجز يوم وجب أن يدخل إيستيبان للعمل في المكتب كاتب بالعدل،

لأن ماتجنيه في البيت لم يكن كافياً للطعام. لقد حدبت عليه وخدمته كما تفعل الآن مع أمها وغلفته كما يبدو بشبكة لاترى من عقدة الذنب، ونكران الجميل، والدين الذي لم يدفع. ومنذ أن ارتدى الصبي البنطال الطويل بدأ يبتعد عنها. وكان يوسع ايستيبيان أن يتذكر اللحظة الدقيقة التي أدرك فيها أن أخته تجلب له الشقاء. ذلك حين قبض أول أجر له. قرر أن يوفر له خمسين سنتافو يحقق بها حلماً داعبه منذ الطفولة: أن يتذوق فنجان قهوة فيينّي. لقد رأى عبر زجاد فندق فرنسا النادلين يمرّون بصوان رفعوها فوق رؤوسهم، وهي تحمل من تلك الأعاجيب! أكواباً عالية من الكريستال توجت بدوائر من القشدة المخفوقة وقد زيّنت بوشنة مثلّجة. يوم أجره الأول مرّ قدّام المؤسسة عدة مرات قبل أن يتجرأ على الدخول. أخيراً احتاز عتبتها خجلاً، وقبعته بيده واتجه ناحية المطعم الباذخ بين الثريات ذوات الذوائب، والأثاث الطرازي، وهو يحس أن كل الناس يتطلعون إليه،أن ألف زوج من العيون تبدي رأيها ببزته الضيّقة وحذائه الخلق. جلس على حافة الكرسي، أذناه تشتعلان، وقدّم طلبه للنادل بصوت خفيض. انتظر لاهفاً، يرقب في المرايا رواح الناس وغدوّهم، وهو يتذوّق سلفاً تلك اللذة التي تخيّلها مرّات عديدة. وصلت قهوته الفيينية، فإذا بها أشد إثارة مما تصوّر، مدهشة، لذيذة، ترافقها ثلاثة أقراص معكرون بالعسل. تأملها لحظة طويلة مفتوناً. وتجرأ أخيراً فاستولى على الملعقة الصغيرة ذات الذراع الطويلة وغطسها، في تنهدة ارتياح، في القشدة. وتحلّب فمه ماء، لكنه كان مصمماً على إطالة تلك اللحظة ماوسعه، أن يمدّها إلى الأبد. وأخذ يحرّك كي يرى اختلاط زبد القشدة في السائل القاتم الذي يحويه الكأس. حرّك، حرّك، حرّك... ثم، فجأة ارتطم طرف الملعقة بالكريستال، ففتح فيه ثغرة وانبجست القهوة تحت الضغط. ثم سقطت عليه. ورأى ايستيبيان مرعوباً كل محتوى الكأس يندلق على بزته الوحيدة تحت نظر زبائن الطاولات الأخرى الساخر. ونهض ممتقعاً من غضب، وخرج من فندق فرنسا وقد نقص مابجيبه خمسين سنتافو، تاركاً في إثره - مذنّب قهوة فيينية على البساط الناعم. وصل إلى بيته وهو يقطر، سكران من غضب، متشنّجاً. عندما علمت فيرولا بما حدث، أدلت بهذا التعليق الفظ:

«هذا مايحدث عندما تبذّر دراهم أدوية الماما. لقد جازاك الله». في تلك اللحظة، وصل إيستيبان إلى الكشف البيّن عن الميكانيكية التي تستخدمها أخته كي تهيمن عليه، والطريقة التي تحصل منها على أن يحسّ بأنه مذنب، وفهم أنه وجب عليه أن يرحل، وبالقدر الذي كان يتخلص من وصايتها، كانت فيرولا تكرهه. كانت الحرية التي يتمتع بها تؤلمها كتأنيب، كظلم. ولما وقع في حب روزا، وجدته يائساً، شبيهاً برضيع يدعوها لعونه، محتاجاً إليها، يتعقبها في كل البيت متضرّعاً علّها تتقرب من عائلة ديل فاله، وتتكلم مع روزا، وتلاطف النونو، أحست فيرولا أنها امتلأت أهميّة من جديد في عيني إيستيبان. وبدا أنهما تصالحا إلى أجل. لكن هذه الردّات العابرة لم تدم طويلاً ومالبثت فيرولا أن أدركت أنها استغلّت. ولقد اغتبطت لما رأت أخاها يسافر إلى المنجم. ومنذ أن بدا يشتغل ايستيبان وعمره خمس عشرة سنة حمل مسؤولية البيت وأخذ تعهداً على أن يسهر عليه دائماً، لكنّ هذا لم يكن كافياً عند فيرولا. فما كانت تطيق أن تظل حبيسة هذه الجدران التي تفوح برائحة الصيدلية والعجز، توقظها مذعورة أنات المريضة، لاتفارق عيناها الساعة كي تجرّعها أدويتها وقد سلّمت للملل، والتعب والكآبة، فيما كان يتجاهل أخوها كل هذه المشقات. لقد كان على أهبة استغلال قد رمشعّ، حرّ، يميز معالمه النجاح. كان بوسعه أن يتزوّج، أن يكون له أبناء، أن يعرف الحبّ. وفي اليوم الذي أرسلت إليه البرقية التي تنبئه بموت روزا، أحسّت بدغدغة غريبة، كأنها دغدغة فرح.

أعادت فيرولا: «يجب أن تشتغل في مكان ما».

قال: «لن ينقصكما شيء، ماحييت».

أجابت فيرولا وهي تخرج حسكة سمك من بين أسنانها: «وهذا سهل قوله».

ـ أظن أني سوف أذهب إلى الريف إلى الماريّات الثلاث.

ـ إنها هوّة يا إيستيبان. قلت لك دائماً إنه أفضل أن تبيع تلك الأرض، ولكنك عاندت كبغلة.

ـ يجب ألّا نبيع أبداً الأرض. إنها وحدها الباقية عندما نفقد كل شيء آخر.

أجابت فيرولا قائلة:

ـ لاأتفق معك. ما الأرض إلا فكرة شاعر. إن مايغني البشر هو المهارة بالتجارة. لكنك لم تنقطع عن الأخذ بفكرة الذهاب يوماً فتعيش في الريف.

ـ حلّ هذا اليوم. أكره هذه المدينة.

ـ لماذا لاتقول إنك تمقت هذا البيت؟

أجاب دون مداراة: «أكره أيضاً».

قالت وقد امتلأت مرارة: «اشتهيت لو ولدت رجلاً أنا أيضاً كي أرحل».

اكتفى بأن قال: «وأنا ماكنت أحب أن أولد امرأة».

وألا إلى أن يأكلا صامتين.

منذ الآن بات كل من الأخ والأخت بعيداً عن الآخر مئة ميل، لايجمعهما من الأشياء غير وجود الأم وذكرى عالقة بالنفس حمله كل منهما للآخر وهما طفلان. لقد كبرا في بيت مهدّم، ولقد شهدا سقوط الأب الأخلاقي والاقتصادي، ونمو مرض الأم البطيء. لقد بدأت الدونيا إيستير تعاني منذ شبابها مرض الرثية، وكان تيّبسها يتفاقم حتى ماتستطيع حراكاً إلا بمشقة، كأنها دفنت حية، ولما آلت إلى ألّا تستطيع ثني ركبتيها، استقرت نهائياً في كرسيها المتنقل وترمّلها وقنوطها. وكان إيستيبان يتذكر طفولته ومراهقته، وثيابه الضيّقة، وبند القديس فرانسوا الذي كانوا يجبرونه على حمله عندما ينجز مالايدري من وعود لأمه أو أخته، وقمصانه المرفوّة بعناية، ووحدته. كانت فيرولا، وهي أكبر منه بخمس سنوات تغسل وتنشيء يوماً قمصيه الوحيدين حتى يكون كاملاً حسن المظهر، وهذا ماكان يذكّره أنه عن طريق أمّه، كان له الحق في لقب ليس أنبل منه وأن سلالته عالية ترجع إلى نائب مُلْيك للبيرو. وماكان تروييبا غير حدث مؤسف في حياة الدونيا إيستير، التي كان مقدّراً لها أن تبني بواحد من طبقتها، لكنها تولهت بحبّ هذا المهاجر المتعالي من الجيل

الأول الذي بذّر، خلال بعض السنين، دوطتها، ثم كل ميراثها. لكن حوليّات الدم الأزرق هذه ماكانت تغني عن إستبيان شيئاً مادام لايوجد في البيت مايسدّد به حساب العطار، ومادام يذهب للكلية ماشياً، لأنه لايملك السنتافو الضروري لركوب الترام. تذكّر أنهم كانوا يرسلونه إلى المدرسة وقد فرش صدره وظهره بورق الصحف لأنه كان لايملك ثياباً صوفية، وكان معطفه يتذمّر من فقر، ولكم كان يتألم وهو يتصور أنّ رفاقه بوسعهم أن يسمعوا مثلما يسمع هو، طقطقة الورق وهو يحتكّ بجلده، في الشتاء، كان معين الحرارة الوحيدة مدفأة في غرفة أمه حيث يجتمع ثلاثتهم من أجل اقتصاد الشمع والفحم. كانت طفولة حرمان، وضنك وتقشّف، ووردّيات ليليّة لاتنتهي، وخوف وندم. من كل هذا لم يبق له سوى الغضب، وغرور لاحدّ له.

بعد يومين سافر إيستيبان تروييبا إلى الريف. ورافقته فيرولا إلى المحطّة. وفي لحظة افتراقهما قبلته ببرود على وجنته وانتظرت ريثما يصعد إلى القطار ومعه محفظتان من جلد بقفلين لايخطئان، الاثنتان نفسهما اللتان اشتراهما لما ذهب إلى المنجم واللتان عاشتا معه طيلة حياته، كما وعده البائع. أوصته أن يعنى بنفسه، وأن يحاول المجيء لزيارتهما بين وقت وآخر، وقالت له إنها سوف تفتقده، لكن كلّا منهما كان يعرف أنه مقدر لهما ألّا يرى أحدهما الآخر قبل عدد من السنين، وكانا في أعماقهما يحسّان ببعض الراحة لذلك.

صاح إيستيبان لما تحرّك القطار من الكوّة المزججة: «أخبريني إذا ساءت حال أمّي».

أجابت فيرولا وهي تحرك محرمتها على الرصيف: «لاينشغل بالك».

وانقلب ايستيبان على مقعده الذي غطّاه المخمل الأحمر وأثنى على الإنكليز لأنهم أصحاب المبادرة في صنع عربات الدرجة الأولى لأن بوسع المرء أن يسافر فيها كشخص محترم دون أن يضطر إلى احتمال الدجاج، والسلال، والصناديق المحزمة بوصلات من الخيط وبكاء أطفال الآخرين. وهنأ نفسه لقراره بشراء بطاقة أغلى، أول مرّة في حياته وقرر أن هذا النوع من التفاصيل هو الذي يصنع الفرق بين سيّد كما يجب وبين فلاح سوقيّ. وبالرغم من أن وضعه

الماديّ لم يكن باهراً فهو لن يبخل على صغائر الرفاه التي تجعله يحس بأنه غنيّ.

وقال في نفسه وهو يفكر بعرق الذهب: «لاأظن أبداً أني سوف أرجع فقيراً».

ومن فرجة القطار رأى يمرّ منظر الوادي الأوسط. مسافات شاسعة مزروعة عند قدم السلسلة، أراض خصبة تغطيها الكرمة، والقمح، والبرسيم، وعبّاد الشمس. قارنها مع هضاب الشمال الصحراوية حيث قضى سنتين مطموراً في وجر في وسط طبيعة متوحشة وقمرية ماكان يتعب من تأمل جمالها المخيف، وقد سحره لون الصحراء، ألوان زرق وخبازية ومغرة معادن على وجه الأرض.

تمتم قائلاً: «إنها حياة جديدة تبدأ». وأغمض عينيه وغفا.

نزل من القطار في محطة سان لوكا. كان المكان بائساً. في تلك الساعة ماكان يرى أي كائن حي على الرصيف الخشبي الذي تقوّض غماؤه(١) من تقلّبات ودود الخشب. من هنا كان يرى كل الوادي عبر ضباب لايلمس يصدر عن الأرض التي بللها المطر الليلي. كانت الجبال البعيدة تختفي بين غيوم سماء مكفهرّة فلا يرى في وضوح غير قمة البركان الثلجية، التي تتميز عن المنظر إذ تضيئها شمس شتاء حييّة. تلفّت حواليه. إبان طفولته، الفترة الوحيدة السعيدة التي احتفظ بذكراها، قبل أن ينتهي أبوه إلى الإفلاس والإستسلام إلى الكؤوس الصغيرة وإلى عاره كان يمتطي الخيل برفقة أبيه في تلك المنطقة. كان يتذكر أنه لعب في الماريات الثلاث، لكن مضت سنون كثيرة على ذلك حتى أمحت تقريباً في حافظته، وبات لايستطيع معرفة الأمكنة. بحث بعينيه عن قرية سان لوكاس، لكنه لم يميز سوى ضيعة صغيرة في البعيد، بلّلتها رطوبة الصباح. تجوّل في المحطة. كان باب المكتب الوحيد مغلقاً بالقفل. وكان هنالك إعلان مكتوب بقلم الرصاص، لكنه مخربش حتى لم يستطع حلّ رموزه. وسمع وراءه القطار وقد عاود سيره وبدأ يبتعد تاركاً في إثره عمود دخان أبيض. وجد نفسه وحيداً في هذا المكان الصامت. أمسك بمحفظتيه وأخذ يتقدم في الشوك وحصى

---

١ ـ مايسقف به بيت أو ماشابه.

طريق يؤدي إلى الضيعة. سار زهاء عشر دقائق، شاكراً السماء لأنها جنبته المطر، لأنه كان يشقّ عليه أن يتقدم بمحفظتيه الثقيلتين على تلك الدرب فقد أدرك أنها تتحول، تحت المطر، في بعض ثوانٍ إلى حمأة لاتسلك. قريباً من الضيعة رأى دخاناً في بعض المداخن فأرسل تنهدة اطمئنان، لأنه خالجه للتوّ الإحساس، حين وجدها هكذا وحيدة وبالية، أن الأمر يتعلق بمكان مهمل.

توقف عند أوّل الضيعة دون أن يلاحظ أحداً. في الشارع الوحيد الذي تحيط به أكواخ من اللبن المتواضعة يهيمن صمت مطلق وشعر أنه يتقدّم كما في حلم. واتجه إلى أقرب بيت بلا نافذة غير أنّ بابه نصف مفتوح. وضع محفظتيه على الرصيف ودخل وهو ينادي بصوت قويّ. كان الداخل مظلماً، لانور فيه سوى النافذ من باب الدخول، فقضى بضع ثوان حتى تعوّد على الظلام. تبيّن طفلين يلعبان على الأرض التي كانت من طين جافّ، أخذا يتفحّصانه بعيونهما الواسعة المجفلة، وجاءت امرأة من باحة خلفية وتقدّمت وهي تجفف يديها بطرف وزرتها. عندما رأته قامت بحركة غريزية كي تصفف خصلة شعر سقطت على جبينها. حيّاها فأجابت وقد وضعت يدها أمام فمها كي تخفي لثتها الهتماء. وشرح لها تروييبا بأنه كان بحاجة لاستئجار عربة، لكن بدا عليها أنها لم تفهم واكتفت بأن خبّأت ولديها في طيّات وزرتها، وعيناها دون تعبير. فخرج ولمّ أمتعته وتابع سبيله.

بعدها قطع كل الضيعة أو كاد دون أن يلتقي بأحد وبدأ يفقد الأمل، وإذا به يميز وراءه حافر حصان. كان طنبراً في حال يرثى لها، يقوده حطّاب. وقف أمامه وأكره السائق على التوقف.

صاح قائلاً: «ألا تستطيع أن تأخذني إلى الماريّات الثلاث؟ سأدفع مايلزم!.

استفسر الساذج قائلاً: «ماذا يريد السيد أن يفعل في مثل هذا المكان؟ إنها بور لاينبت فيها غير الحصى.

لكنه قبل أن يوصله ساعده على وضع متاعه بين الحزم. وأخذ تروييبا مكانه إلى جانبه على المقعد. وانبثق أطفال من بعض البيوت يعدون وراء الطنبر. وأحسّ تروييبا أنه وحيد أكثر من أي وقت مضى.

على بعد أحد عشر كيلومتراً من ضيعة سان لوكاس، وفي نهاية طريق محفّر، رجاج اقتحمه العوسج، ظهرت اللافتة التي تحمل اسم الملكيّة. كانت معلقة على طرف قطعة من سنديان والريح تخبطها على العمود بصوت طبل جنائزيّ أصم. واكتفى بنظرة واحدة كي يفهم أنه بحاجة لهرقل كي ينتزع المكان من الدمار. لقد التهم العشب الضار الطريق، فما يرى حيث طاف بنظره غير حجارة وأدغال وشوك. ومامن شيء يوحي بذكرى بعض بريّة، ولابقايا كرم يتذكّره، أو إنسان يستقبله. وتقدمت العربة بطيئة، تتبع أثراً تركه قديماً مرور الدوابّ والإنسان بين العوسج. وبعد لأي اكتشف البيت في الطرف، ومازال واقفاً لكنه يشبه رؤيا كابوس، ملأى بالأنقاض والحطام، وانتشرت على أرضه بقايا سياج خمّ دجاج. نصف القرميد كان مكسّراً وتغلغلت لبلابة وحشية في الفرجات فغطّت كل الجدران. ورأى حول البيت بعض أكواخ اللبن من غير كلسٍ، ولانوافذ، سقوفها من قشّ سوّده الشحّار. وفي الباحة كلبان يتشاجران في غضب.

اجتذبت قعقعة حديد محاور الطنبر وتجديف الحطّاب أهالي الأكواخ إلى خارجها فظهروا قليلاً قليلاً. نظروا إلى القادمين الجديدين بهيئة مدهوش مرتاب. لقد عاشوا خمس عشرة سنة دون أن يروا أي مالك فاستنتجوا من ذلك ألّا مالك عندهم. وماكانوا يستطيعون أن يتعرفوا في هذا الرجل الطويل ذي القيافة المتسلطة، على الطفل ذي الخصل الخرنوبية، الذي كان يلعب في الباحة نفسها. وفحصهم إيستيبان ولكنه لم يقدر أن يتذكر أكثر منهم أي واحد. كانوا يشكّلون عشيرة بائسة. رأى عدة نساء من عمر لايمكن تحديده، جلودهن جافة غطتها الثغرات، بعضهن حبالى حسب الظواهر، كلهن حافيات يتدثرن بخرق بالية، وحسب ذلك توجد دزّينة أطفال من كل الأعمار. أصغرهم كانوا عراة ولاحت وجوه أخرى من فُرج الأبواب، دون أن تغامر بالخروج. وشرع إيستيبان بسلام غير أن أحداً لم يردّ عليه. وركض بعض الأطفال فاختبأوا وراء النساء الطيّبات.

وقفز إيستيبان من الطنبر، فأنزل حقيبتيه ودسّ للحطّاب بعض القطع.

قال له الرجل: «إذا أردت انتظرتك يا سيد».

- لافائدة من ذلك. أنا باقٍ.

اتجه ناحية البيت، ودفع الباب بلطمة من كتفه ودخل. كان النور كافياً. الصباح ينسكب من الدرفات المكسورة ومن ثقوب السقف حيث سقط القرميد. لقد اقتحمه الغبار وخيوط العنكبوت، وكانت هيئته تدل على الإهمال المطلق، وكان واضحاً أنّ أحداً من الفلاحين، خلال كل تلك السنوات لم تواته الجرأة فيترك كوخه ويحتل بيت المالك الكبير الذي صار قفراً. لم يمسّ أحد الأثاث؛ كان هو نفسه في زمن الطفولة، في الأمكنة الدائمة نفسها لكنّه صار أبشع، وأكثر كآبة وأشد تخلّعاً مما في ذاكرته. كل المسكن كان مغطّىً بفراشٍ من عشب، وغبار وأوراق ميتة. كانت تحوم فيه رائحة قبر. ونبح كلب هزيل بشدة في أثره، لكن إيستيبان تروييبا لم يعره انتباهاً، فأقرّ الكلب بعجزه وآل إلى أن ينسحب إلى زاوية وهو يحك براغيثه. وضع حقيبتيه على طاولة ونهد يكتشف البيت يكافح ضدّ الشعور بالضيق الذي بدأ يجتاحه. عبر من حجرة إلى أخرى، فلمس التخريب الذي اقترفه الزمن في كل شيء، والفقر والقذارة، وداهمه الإنطباع بأنه موجودٌ في وجر أسوأ من المنجم. كان المطبخ حجرة واسعة، وسخها منفّر، عالية السقف جدرانها اسوّدت من دخان الحطب والفحم؛ كل مافيه خراب وعفونة؛ وعلى بعض المسامير مازالت معلقة على الجدار بعض الطناجر والمقالي النحاسية والحديدية التي لم يستخدمها أحد خلال خَمْسَ عشرة سنة ولم يمسسها أحد منذئذ. كانت الغرف تؤوي الأُسرة نفسها والخزائن الكبيرة نفسها ذات المرآة التي اشتراها قديماً أبوه، لكن الفرش ما باتت غير رواسب صوف عفنة ودويّبات جعلت فيها أعشاشها عبر الأجيال. أصغى إلى خطى الجرذان الصغيرة الحذرة تحت تلبيسات السقف. لم يستطع التأكد إذا كانت الأرضية من خشب أو بلاط، فهو لايظهر للنظر في أية جهة، لأن طبقة كثيفة من أقذار كانت تغطّيه كلّه. وكان غطاء رمادي من الغبار يموّه حنايا الأثاث. وفيما كان صالون، كان يرى بيانو ألمانيّ، إحدى أرجله مكسورة، وملامسه مصفّرة، يرنّ مثل كلافسان لم يدوزن. وعلى الرفوف توجد بعض

كتب غير مقروءة، التهمت صفحاتها الرطوبة، وعلى الأرض آثار مجلّات جدّ قديمة بعثرها الهواء وكانت نوابض المقاعد عارية، وعشش بطن من الجرذان الصغيرة في المقعد الكبير الذي كانت أمه تستقر فيه كي تحوك، قبل أن ترد العاهة يديها إلى حالة الكلّاب.

وباتت أفكار إيستيبيان، في نهاية استكشافه، أكثر وضوحاً. عرف أن مهمة عملاق تنتظره، لأنه مادام البيت في هذه الحال من الإهمال، فلن يتوقّع أن تكون بقية الملكيّة أفضل. وسوّلت له نفسه، خلال لحظة، أن يحمّل حقيبتيه على الطنبر ويعود من حيث أتى، ولكنه شطب هذه الفكرة بجرّة ريشة وقرّر أنه إذا كان هنالك مايهدئ لاعجه وغضبه لفقدان روزا، فهو أن يقصم ظهره بالعمل في هذه الأرض التي غدت يباباً. خلع معطفه، وأخذ نفساً عميقاً وخرج إلى الباحة حيث مازال يقف الحطّاب، غير بعيد عن مزارعيه الذين اجتمعوا على بعض المسافة بذاك الوجل الخاص بأبناء الريف. تبادلوا معه النظر في فضول. وتقدم تورييبا بعض الخطى باتجاههم فلاحظ حركة تراجع خفيف بين جماعتهم؛ واستعرض هؤلاء الفلاحين بأسمالهم، وحاول أن يرسم ابتسامة صديق تجاه الأطفال الذين غطّاهم الرّغام، والشيوخ العمص[1]، والنساء الحبالى باليأس، لكنه لم يجته غير نوع من التكشيرة.

استفسر قائلاً: «أين الرجال؟».

وتقدّم خطوة الرجل الوحيد الذي بلغ أشدّه، ربما كان من عمر إيستيبيان تروييبا نفسه لكنّه كان يبدو أكبر.

قال: «لقد رحلوا».

ـ ما اسمك؟

أجاب الآخر: «بيدرو كارسيا الصغير يا سيد».

ـ أنا صاحب الأرض منذ الآن. لقد انتهى العيد. سوف نعمل. إذا كان

---

١ ـ جمع أعمص: الذي في طرف عينه وسخ أبيض.

هنالك من لاتعجبه هذه الفكرة، فليذهب حالاً. ومن يبقى سوف يؤتى مايأكله، إنما يجب أن يعمل لذلك. لاأريد كسالى ولارؤوساً قاسية. مفهوم؟

ونظر بعضهم إلى بعض محتارين. لم يفهموا نصف الخطاب، لكنهم من لهجته وحدها تعرّفوا على صوت السيد.

قال بيدرو كارسيا الصغير: فهمنا يا سيد. ليس لدينا أي مكان نذهب إليه. عشنا دائماً هنا. إذن نحن باقون.

وأقعى طفلٌ وأخذ يتغوّط، واقترب منه كلب أجرب كي يشمّه. وتقزز إيستيبان فأعطى الأمر بأن يهتم أحد بالطفل وأن تنظف الباحة ويعدم الكلب. وهكذا دشنت هذه الحياة الجديدة، التي سوف تؤدي، مع الزمن، إلى نسيانه روزا.

لن تنزع مني فكرة أني كنت سيّداً طيّباً. كل من رأى الماريّات الثلاث في زمن الإهمال ويراها الآن وقد صارت نموذجاً للاستثمار، هو مكره على أن يوافق معي. وهكذا لاأستطيع القبول أن تأتي حفيدتي كي تلقي علي حكايات عن كفاح الطبقات تنام لها واقفاً، وإن كنا نتمسّك بالوقائع فإن هؤلاء الفلاحين المساكين أشدّ بؤساً اليوم مما كانوا عليه منذ خمسين عاماً. كنت مثل أب لهم. لقد نسف الإصلاح الزراعي كل شيء.

ولقد كرّست كل رأس المال الذي جمعته من أجل زواجي من روزا، للخروج بالماريات الثلاث من البؤس، وكل ماكان يبعث لي به رئيس العمّال من المنجم، ولكن ليس المال هو الذي أنقذ الأرض وإنما العمل والتنظيم. لقد سرت الشائعة أن جاء سيد جديد للماريات الثلاث وأننا ننتزع الحجارة بواسطة البقر قبل أن نحرث ونبذر المراعي المقبلة. وبعد قليل صار يأتي بعض الرجال يعرضون أذرعتهم، لأني كنت أدفع جيّداً وأعطي الأكل غزيراً. اشتريت بهائم. كانت البهائم مقدسة بعينيّ، وماكنت أضحيّ بأي منها ولو قضينا العام بلا لحم. وهكذا كبر القطيع. وزعت الرجال فرقاً، وبعد العمل بالحقل، كنا نعمد إلى بناء بيت السيّد. لابنائين ولانجارين، وجب علي أن أعلمهم كلّ شيء بفضل موجزات اشتريتها. صنعنا معاً حتى التمديدات الصحية، وأصلحنا معاً

الغماء، ورششنا كل شيء بالكلس، حككنا كل شيء حتى لمع البيت كله. ووزعت الأثاث على المزارعين ماعدا طاولة غرفة الطعام، التي بقيت سليمة بالرغم من الدود الذي فرّخ في كل مكان، وسرير الحديد المطرّق الذي كان لأمي وأبي. وبقيت أعيش في البيت الخالي حتى بعثت لي فيرولا من العاصمة بأثاث جديد طلبته منها، كان مهيباً، ضخماً، فخوراً، صنع كي يقاوم عدة أجيال ويتأقلم مع حياة الريف؛ والدليل أنه وجب حدوث زلزال أرضي كي يقهره. صففته حدّ الجدران، لأني أهتم بالراحة أكثر مما أهتم بالجمال، وعندما صار البيت مريحاً، أحسستُ أنّي في أحسن حال وتعودت على فكرة قضاء سنين طويلة، وربما بقية أيامي في الماريات الثلاث.

وجاءت نساء المزارعين مناوبة كي يخدمن في بيت السيّد ويعتنين بمبقلته. بعد قليل رأيت أولى الزهور تتفتّح في البستان الذي خططته بيدي ولولا بعض التعديلات، لبقي كما كان نفسه حتى اليوم. تلك الأيام كان الناس يكدّون دون تذمّر. وأعتقد أن وجودي كان يحمل لهم الأمان كما استطاعوا هم أن يلمسوا بأنفسهم قليلاً قليلاً أن هذه الأرض تتحوّل إلى مكانٍ خصبٍ. كانوا كائنات بسيطة دون خبث، ليس بينهم رأس خنزير. والحق أنهم كانوا بائسين وجهلة. قبل قدومي كانوا يكتفون بزراعة قطع عائلية صغيرة تكفيهم مؤونة الضرورة الضيقة كي لايموتوا جوعاً، شريطة ألا تنزل بهم كارثة ما كالجفاف أو الجليد أو الوباء أو غزو النمل العملاق أو الحلزون، وعندها تغدو الأمور أدهى ماتكون عليهم. معي، كل هذا تبدل. اكتسحنا المراعي واحداً بعد آخر، وبنينا زريبة الدجاج والاسطبلات وبدأنا نحفر شبكة ري حتى لايتعلق البذار باحتمالات الطقس وإنما بجهاز علمي. لكن الحياة لم تكن توردأ. كانت جدّ قاسية. كنت أذهب أحياناً إلى القرية وأرجع منها ببيطري يراقب البقر والطيور ويلقي وهو عابر نظرة على المرضى. وليس صحيحاً أني كنت أتبع مبدأ يقول بأن علم البيطري إذا كان يكفي البهائم، بوسعه أيضاً أن يخدم في العناية بالفقراء، كما تزعم حفيدتي عندما تريد أن تخرجني عن طوري. والأمر أنه ماكان ممكناً أنه يوجد طبيب في مثل تلك الأصقاع. كان الفلاحون يستشيرون

ساحرة من المنطقة تعرف طاقة الأعشاب والإيحاء وكانوا يثقون بها ثقة كبرى. أكثر من ثقتهم بالبيطري. كانت النساء في المخاض يلدن بمساعدة الجارات والصلوات وعجوز لاتصل أبداً في الوقت المناسب، لأن التنقل كان يتم على ظهر الحمار، وكانت تقدر على المساعدة في ولادة طفل مثلما تستطيع انتزاع عجل من بقرة وضعه غير سوي. أما المرضى الخطرون، من كانت لاتشفيهم تعاويذ الساحرة، ولاجرعات البيطري، فقد كان يأخذهم بيدروجارسيا الصغير أو أنا إلى مشفى الراهبات أو لطبيب يقوم بجولة فيمر كي يساعدهم في موتهم. وكان الموتى يجنحون بعظامهم إلى الحفرة العامة التي تجاور الكنيسة المقامة عند سفح الجبل، حيث تمتد في الحاضر مقبرة حقيقية منذورة للسيّد. كنت أتوصل مرة أو مرتين في العام لأن يأتي راهب كي يبارك الزيجات، والحيوانات والآلات وأن يعمّد الأطفال ويقرأ الصلوات المتأخرة من أجل الموتى. كانت تسلياتنا الوحيدة خصي الخنانيص والعجول، وقتال الديكة، ولعبة حجر الرجل، وحكايات بيدرو جارسيا الكبير العجيبة، تغمده الله بسلامه. وهو أب بيدرو الصغير وكان يروي أن جدّه قاتل في صفّ الوطنيين الذين طردوا الإسبانيين خارج أمريكا. كان يعلم الأطفال أن يدعوا العناكب تقرصهم وأن يشربوا بول حبلى للمناعة. وكان يعرف من الأعشاب مثل الساحرة، لكنه كان يحدث له أن تختلط عليه الوصفات وأن يقع عندها في أخطاء لاتصلح. أما كقلّاع أسنان، فأعترف، مع ذلك، أنه كان له أسلوب لايخطئ جعل له شهرة حقّة في كل المنطقة: كان ذاك مزيجاً من الخمر الأحمر والرقى تغرق المريض في حالة وجد منومّة. لقد خلع لي رحىً دون ألم يذكر ولو كان حيّاً لاحتفظت به كطبيب أسنان.

بدأت أحس سريعاً في الريف أني في بيئتي. وأقرب جرياني كانوا على مسافة منّي لابأس بها على صهوة الجواد، لكن الحياة الاجتماعية لم تكن تعنيني أبداً، وقد أتمتع بالعزلة، وكان عندي فوق ذلك كمية من العمل يجب أن أنجزها. ووقعت قليلاً قليلاً في حالة الهمجية، نسيت كلمات، مجموع كلماتي تقلّص، وصرت طاغية. وبما أني لم أكن بحاجة للتصنّع أمام أحد، فقد تفاقم

طبعي السيء القديم. كل شيء كان يخرجني عن طوري، كنت أنفجر فقط من رؤية الأولاد يطوفون حول المطابخ كي يسرقوا خبزاً، أو الدجاج إذا صاح في الباحة، أو العصافير إذا اقتحمت الذرة، وكنت أذهب إلى الصيد. فأستفيق قبل الفجر وأمشي وبندقيتي على كتفي، وجرابي، وكلب الصيد. كنت أحب كثيراً هذه الجولات في الظلام، والفجر القارس البرد، والكمائن الطويلة في الظلام والصمت، ورائحة البارود والدم، والأحساس بارتداد السلاح على الكتف والانفجار الجاف، ثم رؤية الطريدة وهي تحرك قوائمها؛ كان ذاك يهدئني، حتى إذا رجعت من رحلة صيد، ومعي أربع أرانب في كيسي وبضعة حجال غربلها الرصاص فباتت غير صالحة للطبخ، وأنا نصف ميت من التعب وقد غطاني الوحل، كنت أحسُّ أنّي انعتقت، سعيداً.

عندما أفكّر بذاك الزمن، يلم بي حزن شديد. لقد انقضت حياتي سريعاً. ولو أني أبدأ من جديد، لما ارتكبت ما ارتكبت من بعض الأخطاء، ولو أني من وجهة عامة، لاآسف على شيء. نعم، ودون أي ظل لأي ريب: كنت ملّاكاً طيّباً.

في الشهور الأولى، كان إيستيبان تروييبا مشغولاً بتقنية الماء، وحفر الآبار، وتحرير المراعي، وإصلاح الإصطبلات والزرائب، إلى درجة لم يجد معها وقتاً للتفكير بشيء آخر. كان ينام مرهقاً من التعب، ويستيقظ مع الفجر، ويتناول في المطبخ فطوراً بسيطاً ويذهب على حصانه كي يراقب الأشغال في الحقول. وماكان يرجع إلا مع غروب الشمس. في تلك الساعة كان يتناول وجبته الوحيدة في النهار، وحيداً في غرفة طعام بيت السيد واضطر نفسه في الشهور الأولى لأن يغتسل ويبدل لباسه يومياً في ساعة العشاء، كما سمع أن المعمّرين الإنكليز يفعلون ذلك في أبعد مراكز آسيا وإفريقيا، كي يحافظوا على وقارهم وهيبتهم. كان كل مساء يرتدي أحسن ملابسه ويحلق ويضع على الحاكي الألحان العظيمة نفسها مما يفضّل من أوبرات. لكنه، قليلاً قليلاً، أسلم نفسه

للبساطة تستولي عليه، واعترف بأنه لانزوع لديه إلى الداندية، يزيد في ذلك أن ليس لديه من يقدّر جهده في هذا الشأن. أقلع عن الحلاقة، فلا يقص شعره إلا حين يصل إلى كتفيه، ولايستمر على الاغتسال إلا استجابة لعادة جدّ متأصلة فيه، ثم آل به الأمر إلى ألّا يهتم بقيافته أو لياقته. وتحوّل شيئاً فشيئاً إلى بربري. قبل النوم كان يقرأ نتفة، أو يلعب بالشطرنج، وقد اكتسب بعض المهارة فيتبارى من دون غش مقابل اتفاقية ويخسر في اللعب من دون أن ينفجر مع ذلك لم يكن تعب العمل يكفي لتهدئة طبيعته القادرة والشهوانية. وبدأ يقضي ليالي سوداء، فغطاء السرير كان يبدو له أنه يثقل عليه كحمار ميت، والبياضات كانت أنعم مما يطيق. كان حصانه الخاص يلعب معه لعبات قبيحة ويتحول فجأة إلى أنثى هائلة، أو جبل من لحم قاس ومتوحّش يمتطيه ويخيّل حتى تنقصم عظامه. وكانت تبدو له قاوونات البستان الطرية العطرة مثل نهود امرأة ثرية وكان يفاجأ بنفسه وهو يدفن وجهه في غطاء مطّيته كي يطارد عفونة الوشل المرّة وشبهها بأريج أولى قحباته البعيد المحرّم. في الليل كان يدفأ بكوابيس محارات فاسدة، ومعسكرات بهائم ممزقة، ودم، ومنيّ. كان يستفيق وهو على حنق ليس مثله. كان، كي يخفف عن نفسه، يعدو عارياً فيقذف نفسه في النهر، ويغوص في المياه المتجلّدة حتى يبهر بنفسه، لكنه كان يخيل له أنه يحسّ بأيدٍ لاترى تداعب فخذيه، حتى إذا غلب، ترك نفسه يطفو على هدى إحساسه بأن التيار يضمّه، والأغصان تقبل جسده كله، وقصب الضفة يجلده. وبات بعد قليل واضحاً أن حاجته التي لاتقهر لايمكن لها أن تهدأ بالغطس الليلي في النهر، ولابمنقوع القرفة ولابوضع حجر محمّى تحت الفراش، ولابالحيل المخجلة التي تحيل، في المدارس الداخلية، الأطفال إلى مجانين، أو تدعهم عُمْياً موكلين بالعذاب الأبدي. ولما بدأ ينظر بعينين شبقتين إلى طيور الزريبة،والأطفال الذين يلعبون عراة في البستان، وله عجينة المعجن السميكة، أدرك أن فحولته لاتهدأ ببدائل القندلفت. ودلّه حسه العملي على أنه يجب أن يبحث له عن امرأة، ومنذ أن اتخذ قراره، هدأ القلق الذي كان يستهلكه وبدا أن مزاجه راق. وفي هذا اليوم استيقظ بابتسامة لأول مرة منذ مدة طويلة.

ورآه بيدرو جارسيا الكبير يخرج باتجاه الإسطبل وهو يصفر فهزّ برأسه مضطرب الهيئة.

وقضى السيد يومه وهو يحرث حقلاً أكمل تنظيفه وأعده لزراعة الذرة. ثم بادر، بيدرو جارسيا الصغير، إلى مساعدة بقرة كانت تحاول الوضع لكن عجلها كان في وضع غير صحيح. واضطر أن يدخل ذراعه حتى الكوع كي يدير الصغير ويأتي برأسه إلى الاتجاه الصحيح. وماتت البقرة على كل حال، لكن هذا لم يؤثر في مزاجه الرائق. وأعطى الأمر كي يطعم العجل الصغير بالرضاعة وغسل بالماء في سطل وامتطى جواده. وكانت تلك، عادة، ساعة الطعام، لكنه لم يكن جائعاً. إن شيئاً ما لم يكن يلحّ عليه، مادام قراره قد قرّ.

لقد لاحظ الفتاة مرّات عديدة، وهي تنقل أخاها الأمخط على خاصرتها، أو كيساً على الكتف أو جرة ماء من الجبّ تضعها على رأسها. لقد لاحظها وهي تغسل الغسيل وقد قرفصت على حجارة النهر المسطحة، وجلى الموج فخذيها الأسمرين، وهي تغسل الأسمال الحائلة بيديها يدي الفلاحة الخشنتين. كانت فارعة، آندية[1] الهيئة فطساء الملامح لونها غامق، تعبيرها هادئ حلو؛ فمها عريض كثيف لم تنقص أسنانه، يضيء إذا عنّ له وابتسم، شيء نادراً ماتفعله. كانت على جمال الفتوة الأولى، ولو أنه انتبه إلى أنها سوف تذبل سريعاً، كما يصح على النساء اللائي يولدن كي يبضن قطيعاً من الأطفال ويعملن دون ونئ ويدفنّ موتاهنّ. كانت تدعى بانشا جارسيا وماكان لها غير خمسة عشر عاماً.

عندما خرج إيستيبان تروييبا يبحث عنها كانت الشمس تنحدر وقد برد الجو. جاب على حصانه بخطو سريع المجازات الطويلة التي تفصل بين الحقول وهو يستفهم عنها من الذين يمرّون، حتى رآها على الطريق المؤدية إلى الكوخ. كانت تسير وقد انثنت تحت الحمل الشائك المخصص لموقد المطبخ، وانخفض رأسها، وقدماها دون حذاء. وتأملها من فوق مطيته وأحس للتو بـإلحاح الشهوة

١ ـ من منطقة الأند.

التي ماانفكت تعذّبه منذ كذا وكذا من الشهور. واقترب خبباً حتى حاذاها وسمعته لكنها استمرت في طريقها دون أن توجه له نظرة، تمشياً مع عادة النساء السلفية من طينتها بأن تخفض الرأس قدّام الذكر. انحنى إيستيبان وخلصها من حملها فرفعه لحظة في الهواء قبل أن يرميه بعنف على المجاز الموحش، ثم أخذ البنت بـإحدى ذراعيه من خصرها ورفعها في لهاث بهيمي، ثم أجلسها على النقرة دون أن تواجهه بأية مقاومة، ثم لكز بالمهمازين وانطلقا معاً الهيدبا باتجاه النهر. ووضعا أقدامهما على الأرض دون أن يتبادلا أية كلمة وسبر نظر كل منهما الآخر. وحل إيستيبان نطاقة الجلدي العريض وأخذت تتراجع لكنّه ردّها إليه بيد واحدة. وسقطا متعانقين بين أوراق الأوكاليتوس.

لم يخلع إيستيبان ثيابه. أخذها بعنف فائض، متوحّش وأرغمها واقتحمها دون مقدّمات. وتبيّن فيما بعد من لطخ الدم على روبها، أن البنت كانت عذراء وماكان لطبقة بانتشا المتواضعة ولالإلحاح شهوته العارم أن يبيحا مثل هذا الاحتراس. لم تتخبط بانتشا جارسيا ولم تشك ولم تطبق عينيها. بقيت متمددة على ظهرها وحدّقت إلى السماء بهيئة مرتعبة حتى أحسّت بالرجل ينهار إلى جانبها. وإنّ أمها قبلها، وقبل أمها جدّتها عانتا مصير الكلبات هذا نفسه. وسوّى إيستيبان تروييبا بنطاله، وشبك حزامه وأعانها في الوقوف ثم أردفها وراءه. فكان طريق العودة. وعاود صفيره. وما انقطعت عن البكاء. وقبل أن يتركها السيّد أمام كوخها قبّلها ملء فمها. قال لها:

ـ منذ الغد أريد أن تشتغلي عندي.

ووافقت بانتشا دون أن ترفع بصرها. فإنّ أمّها وجدتها خدمتا أيضاً في بيت السيّد.

تلك الليلة، نام إيستيبان تروييبا كالأبرار، دون أن يحلم بروزا. في الصباح أحس أنه امتلأ طاقة، أعظم وأقوى من أي وقت مضى. وأمّ الحقول وهو يدندن ولما رجع، كانت بانتشا في المطبخ، منهمكة تحرّك السّلاقة في قدر كبير من النحاس. وفي المساء انتظرها فارغ الصبر وعندما انقطعت ضجّة الخدم في البناء

العتيق وبدأت بلبلة الجرذان، أحسّ بوجود الفتاة على عتبة غرفته. قال لها في رنة ضراعة لا كالأمر: تعالي!»

هذه المرة، أخذ إيستيبان وقته كي يصل إلى اللذة. ويمنحها منها. رحل غير عجلٍ إلى اكتشافها، يحفظ عن ظهر قلب رائحة الدخان في جسدها، وفي ثيابها الداخلية المغسولة بالرماد والمكوية بمكواة الفحم، تعلم نسيج شعرها الأسود الصقيل، وجلدها الذي ولاأنعم في أكثر الأماكن ستراً، والخشن القاسي في الأماكن الأخرى، وشفتيها الطريتين ومنهلها الصافي، وبطنها العريض، لقد اشتهاها في هدوء ولقّنها أسرار أقدم علم في العالم. ربما كان سعيداً تلك الليلة وفي بعض الليالي التي تلتها باللهو معها كجروين في السرير الحديدي الكبير المطرّق الذي كان لأوّل تروييبا وغدا نصف أعرج ولو أنّه، استطاع منذئذ أن يهدئ لواعج الغرام.

وتفتّح نهدا بانتشا جارسيا، وتدوّر ردفاها. وجنح، بعض الوقت، مزاج تروييبا إلى الحسن، وصار يولي انتباهاً إلى مزارعيه. فزارهم في أكواخ بؤسهم. في ظليل أحدهم، اكتشف صندوقاً زين بجرائد قديمة، ينام فيه جنباً إلى جنب رضيع وكلبة أطفلت من قريب. وفي كوخ آخر، رأى عجوزاً تنازع منذ أربع سنوات، عظامها تبدو من جروح ظهرها الفاغرة. وفي إحدى الباحات وقع على فتى أبله يريل حول رقبته رسن، شدّ إلى وتد، يتكلم وحده عن أشياء في عوالم أخرى، كامل العري، يعرض عضواً كعضو البغل يفركه على الأرض فلا يتعب. وتبيّن للمرة الأولى أن أفدح إهمال لم يكن إهمال الأرض والبهائم وإنما سكان الماريّات الثلاث الذين ترك وجودهم بوراً من الزمن الذي ضيّع فيه أبوه دوطة أمه بالقمار وميراثها. وقرر أن الوقت حان كي يأتي ببعض الحضارة إلى هذه الناحية الضائعة بين سلسلة الجبال والبحر.

وأخذ نشاط محموم يهزّ خدر الماريّات الثلاث. وأجبر إيستيبان تروييبا الفلاحين على العمل أكثر من أي وقت مضى، كل رجل، كل امرأة، كل عجوز أو طفل يستطيع الوقوف على فخذيه طوّعه السيد، في همّه بالتعويض

خلال شهور عن بطالة كل تلك السنين، أعدّ مخزناً ومستودعات تحفظ فيها الأغذية للشتاء، فملّح لحم الحصان ودخّن لحم الخنزير، واستخدم النساء في صناعة الحلوى والفواكه المحفوظة. وحدّث الملبنة التي ماكانت سوى سقيفة اقتحمها الزبل والذباب وأكره البقر على إنتاج الكفاية من الحليب. ونهد إلى تشييد مدرسة من ستة صفوف لأنه كان يطمح إلى أن يتعلم كل اليافعين في الماريات الثلاث القراءة والحساب، ولو أنه لم يكن من أنصار حقنهم بمعلومات أخرى فلا يحشون جماجمهم بأفكار من أحوالهم وطبقتهم. لكنه لم يجد معلّماً يقبل بالمجيء للعمل في هذا الوجر الضائع، وحين واجهته الصعوبة بقفّازها في أن يمحو الأمية بنفسه بأن يعد الأطفال بالحلوى أو يبادر إلى جلدهم، تخلى عن وهمه وخصص المدرسة لاستعمالات أخرى. وكانت أخته فيرولا ترسل إليه من العاصمة الكتب التي يطلبها. ولقد كانت كتب إرشاد عمليّ. تعلم، بفضلها، حقن الإبر بأن تمرّن بفخذيه وجهّزا مركزاً للغالينة. وكرّس أرباحه الأولى لشراء أقمشة فلاحية، وآلة خياطة، وعلبة حبوب تجانسية مع طريقة استعمالها، وموسوعة وعدد من كتب الهجاء، ودفاتر وأقلام. وتعلل بمشروع إقامة مطعم يستفيد فيه كل الأطفال من وجبة طعام كاملة يوميّاً، حتى يصبحوا أقوياء وصحيحين ويستطيعوا العمل من طفولتهم المبكرة، لكنه تبينّ بأنه جنون أن يحاول إجبار الأطفال على المجيء من أطراف الملكية كلها كي يمسحوا صحناً فبدّل مشروعه بمعمل خياطة. وولجت بانتشا جارسيا بإيضاح أسرار آلة الخياطة. وقد اعتقدت للوهلة الأولى أنها من عمل الشيطان، تتمتع بحياة خاصة، فرفضت أنه تقترب منها، لكن إيستيبان تروييبا أبدى إصراراً، فآلت إلى أن تهيمن عليها. وأقام تروييبا بقالية تباع فيها لوازم الخياطة والأدوية. ولقد كانت دكاناً صغيرة يستطيع المزارعون أن يتزوّدوا منها بالضروري دون الاضطرار إلى السفر لسان لوكا بالطنبر. كان السيد يشتري الأشياء بالجملة ويبيعها بالسعر نفسه إلى مستخدميه. وأسس نظام قسائم سار في البدء على صورة سلف وأدّى به الوقت، إلى أن يحل محلّ العملة الرسمية. كان من الممكن، بهذه النتف من الورق الوردي، أن يشتري أي شيء من الدكان

وكانت بها تدفع الأجور. وكان لكل شغيل الحق، علاوة على نتف الأوراق هذه الشهيرة، بقطعة أرض يزرعها في وقت فراغه، وست دجاجات إذا عمل سنة بعد أخرى، وفي جزء من البذار، وقسم من الموسم مخصص لتغطية نفقاته، وبالخبز والحليب اليوميين وفي خمسين بيروس تقسم بين الرجال بمناسبة عيد الميلاد والأعياد الوطنية. وماكانت النساء يقبضن تلك الزيادة، مع أنهنّ كن يشتغلن مع الرجال، على قدم المساواة، باستثناء الأرامل. وكان الصابون، وصوف الحبك والشراب لتقوية الرئات كلها توزع مجاناً، لأن تروييبا ماكان يريد حوله أناساً قذرين، يتألمون من البرد أو مصابين بالمرض. ولقد قرأ، ذات يوم، في الموسوعة عن فضائل الريجيم المتوازن فأدمن هوس الفيتامينات ولم يتخلص منها مابقي على قيد الحياة. وماكان بوسعه دفع نفسه عن أن يغلي كلما تبين أنّ الفلاحين يعطون الأطفال خبزاً جافاً، ويغذون خنانيصهم بالحليب والبيض المخفوق. وأخذ ينظم لهم اجتماعات إجبارية في المدرسة كي يحدّثهم عن الفيتامينات، وينتهز المناسبة كي يحيطهم بالأخبار التي يصل إلى التقاطها عبر موج مركز الغالينا المتخبّط. وبعد فترة سئم البحث عن طول الموجة وخيطها وطلب من العاصمة مذياعاً عابر محيط جهز ببطاريتين ضخمتين. كان بفضله، يستطيع التقاط بعض الرسائل المترابطة وسط خليط مصمّ من أصداء بحرية، وعرف هكذا أن الحرب تحتدم في أوروبا وتتبع حركة الجيوش على خارطة مثبتة على لوح أسود في المدرسة علّمها بدبابيس مروّسة. وكان الفلّاحون ينظرون إليه إبّان ذلك في إندهاش، دون أن يلحظوا ولو في غموض مامعنى واقعة أن تضع دبوساً في الأزرق ثم، تنقله في الغد إلى الأخضر. ما كان بوسعهم أن يتخيلوا العالم وقد ارتدّ إلى أبعاد كرّاسٍ مطويٍ مثبتٍ على لوحٍ أسودَ، ولا الجيوش وقد ارتدت إلى حجم رأس دبوس. والحق أنهم كانوا يظلون باردين تجاه الحرب، والاكتشافات العلمية، وتقدّم الصناعة، وسعر الذهب، والشطط في المودة. وماكانت تلك لديهم سوى حكايات جنيات لاتؤثر أبداً في وجودهم البليد. ولقد كانت الأخبار عند هذه الجماعة الجسورة من المستمعين تجيء من بعيد وفقدت الآلة سريعاً كل اعتبارها عندما وضح أنها عاجزة عن

التنبؤ بالطقس. والوحيد الذي كان يبدي بعض الاهتمام بالرسائل النازلة من السماء كان بيدرو جارسيا الصغير.

لقد قضى إيستيبان تروييبا برفقته ساعاتٍ طويلة، أولاً إلى جانب محطة الغالينا، ثم محطة البطاريات، في انتظار معجزة الصوت الإنساني الذي لااسم له كي يجعلك في احتكاك مع الحضارة. غير أن هذا كله لم يساهم بتقريبهما بعضاً من بعض. كان تروييبا يعرف أن هذا الفلاح القاسي يفوق الآخرين بالذكاء. كان الوحيد الذي يعرف القراءة، والقادر على أن يلقي خطاباً من أكثر من ثلاث جمل وإلى مئة كيلومتر من جميع الجهات ماكان روييبا يجد فيها شبه صديق، لكن غروره المسخ كان يمنعه من أن يعترف له بصفات، غير ماتعلق بوضعه كعامل زراعي جيّد. ولم يكن على كل حال يميل إلى الألفة مع أتباعه. وكان بيدرو الصغير، من جهته، يمقته ولو أنه لم يصفه باسم ذاك الشعور العاصف الذي يلهب روحه ويملؤه فوضى. كان ذلك مزيجاً من خوفٍ وحقدٍ معجبٍ. كان يحس أنّه لن يجرؤ أبداً على مواجهته، لأنه كان الملّاك. لقد وجب عليه، حتى آخر أيامه، احتمال نزقه، وأوامره الطائشة، وقدرته الكلية. لقد كان عبر السنوات التي تركت فيها الماريات الثلاث للإهمال، هو الذي المتزعم للعشيرة الصغيرة التي عاشت على هذه الأراضي المنسية. ولقد تعوّد أن يحترم، وأن يوجه الأوامر، ويتخذ القرارات، وألّا يقدّم حساباً إلّا إلى الله. ولقد قلب وصول الملّاك وجوده، لكنه كان مضطراً إلى الموافقة على أنهم يعيشون أفضل الآن، أنهم لايموتون جوعاً، وأنهم في حماية أفضل وأحسن أمناً. وكان تروييبا يخال أحياناً أنّه يستشف في نظرته وميضاً قاتلاً، ولكنّه لم يستطع أن يأخذ عليه أية وقاحة. كان بيدرو الأصغر يطيع دون تردد، ويشتغل دون شكوى، وكان مستقيماً ويبدو أميناً. وإذا صدف له ورأى أخته بانتشا تسير، في خطو الأنثى الحبلى الزاحف على طول فيراندا بيت السيد، غض طرفه ووقف جامداً.

كانت بانتشا جارسيا صبيّة وكان السيد قوياً. وبدأت النتيجة المرتقبة لتصالبهما تلاحظ بعد شهور قليلة. وبرزت العروق على طول فخذي الفتاة، كديدان على جلدها الأسمر، وتباطأت حركتها وغدت نظرتها أبعد، وفقدت

اهتمامها باللهو الوقح في سرير الحديد المطرق، وتضخم خصرها سريعاً وخار نهداها بفعل الحياة الجديد التي تنحو فيها. ولقد قضى ايستيبان بعض الوقت حتى انتبه، لأنه لم يكن ينظر إليها تقريباً، وبعد أن انقضى حماس البدايات، انقطع أيضاً عن مداعبتها. واكتفى باللجوء إليها كوسيلة صحيّة تهدئ توتره في النهار وتمنحه ليلاً بلا أحلام. ولكن جاء وقت صار فيه حبل بانتشا واضحاً، حتى وهي عنده، قلاها. وأخذ ينظر إليها على أنها قربة ضخمة تحوي بعض مادة جيلاتينية لاشكل لها ولايقدر على أن يدعوها ذرّيته. وتركت بانتشا بيت السيّد ورجعت إلى كوخ ذويها، حيث لم يسألها أحد شيئاً. واستمرت تأتي وتعمل عند الملّاك في المطبخ فتعجن العجين وتخيط بآلة الخياطة، وهي تزداد تشوهاً يوماً بعد يوم من الأمومة. وانقطعت عن خدمة إيستيبان على المائدة وتحاشت أن تظهر في حضوره، لأنهما باتا وليس بينهما مايشتركان فيه. وبعد اسبوع من مغادرتها سريره، راجعه الحلم بروزا والاستيقاظ وقد تبللت أغطيته. ونظر من النافذة فرأى بنية نحيلة تعلق البياض الذي غسل من قريب على سلك الحديد. ماكان يظهر عليها أنها بلغت أكثر من ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة، لكنها كانت كاملة البنية. في تلك اللحظة الدقيقة التفتت فاكتشفها: كانت لها نظرة امرأة.

ورأى بيدرو غارسيا السيّد يخرج وهو يصفر باتجاه الإسطبل فهز برأسه بهيئة قلقة.

أصبح إيستيبان ترويبا خلال السنين العشر التي تلت، أكثر ملّاك محترم في المنطقة، وبني بيوتاً صغيرة من آجر لمستخدميه، وعثر على معلم للمدرسة ورفع مستوى معيشة كل إنسان على أراضيه. كان دخل الماريات الثلاث جيّداً لايحتاج إلى مساهمة عرق الذهب. بل على العكس من ذلك، صارت ضماناً لاتساع الإمتياز المنجمي. واتخذ طبع ترويبا السيء أبعاداً خرافيّة، وازداد حتى أرهق نفسه. بات لايقبل جواباً من أحد، ولايطيق أية معارضة ويرى في أيّ خلاف بالرأي تحدّياً. وتفاقم شبقه على نفس الوتيرة.

فما تعبر فتاة من المراهقة إلى الرشد إلا ويجعلها تزور الحرش، أو شاطئ النهر، أو سرير الحديد المطرّق. حتى إذا لم يبق من نساء على أهبة في الماريات الثلاث عمد إلى مطاردة نساء الممتلكات والإقطاعات الأخرى، فينتهكهن بطرفة عين أنى وجدهنّ في البرية المكشوفة، وبعامة عند غياب الشمس. وماكان يعنى بأن يفعل فعلته في الخفاء، لأنه كان لايخاف أحداً. ولقد ورد إلى الماريات الثلاث مرّة بعد مرّة، الأخ الفلاني أو الأب الفلاني أو الزوج أو الملاك، جاءوا يسألونه الحساب، لكن زيارات العدل أو الانتقام هذه، غدت أمام فيض عنفه، أقل فأقل. وانتشرت شهرة شراسته في كلّ المنطقة وأثارت إعجاباً يشوبه حسد بين الذكور المنتسبين إلى طبقته. أما الفلاحون فكانوا يخبئون بناتهم ويشدون بلا جدوى على قبضاتهم، لأنهم ماكانوا في مستوى مواجهته. كان إيستيبان تروييبا الأقوى ويتمتع أيضاً بالحصانة. ولقد اكتشف مرتين جثث فلاحين من إقطاعيات أخرى افترسها رصاص البندقية، ولم تأتِ أحداً فكرة وجوب البحث عن المجرم في الماريّات الثلاث، واكتفى الدرك بأن سجلوا الوقائع في سجلاتهم بخط نصف أميّ متكلّف، وأضافوا أن الموما إليهم فوجئوا وهم يقترفون سرقة ما. ولم تتجاوز الأمور أبعد من ذلك. واستمر تروييبا على إكمال اعتباره بخداع الذنوب فهو ينثر في الصقع كله ابناء الزّنى، ويحصد الحقد ويخزن الخطيئة، وهو أمر لايزعجه أبداً، لأنه جعل روحه قاسية وألجأ وجدانه إلى الصمت بالدعوة للتقدم. ولقد حاول بيدرو جارسيا الصغير وخوري مشفى الراهبات العجوز أن يوحيا إليه أن لابيوت الآجر ولا اليترات الحليب تكفي بأن تجعل منه ملّاكاً طيباً، بل مسيحيّاً، لكن منح الناس أجراً حقّاً بدلاً عن نتف الورق الوردي، وساعات عمل لاتكسر ظهورهم وحدّاً أدنى من الاحترام والكرامة. وكان تروييبا يرفض سماع الحديث في هذه الشؤون، لأنها عنده تملأ الأنف برائحة الشيوعية.

كان يتذمّر قائلاً: «أفكار منحلّة، هذا ماتذهبان إليه. أفكار بولشفية لتحريض مزارعيّ. أنتما لاتدركان أن هؤلاء المساكين لاثقافة لهم ولاتعليم، وأنهم لايستطيعون تحمل أدنى مسؤولية، وأنهم أطفال حقيقيون. كيف يعرفون ماهو حسن بالنسبة إليهم؟ إنهم يضيعون من دوني. والدليل: أني حالما أدير

ظهري، يخرب كل شيء، ويبدؤون القيام بحماقاتهم. إن جهلهم لقذارة. إن ناسي هم في حال حسنة كما هم، ماذا تريدان أكثر؟ إنهم لاينقصهم شيء. إذا احتجوا فذاك عقوق. لهم بيوت من آجر، وأهم بخلاص أولادهم من رغامهم، ومن طفيليّاتهم، أحصل لهم على اللقاحات وأعلمهم القراءة. هل في هذه الناحية أرض لها مدرستها الخاصّة؟ لا! وفي كل مرة أتمكن، آتيهم بالخوري كي يتلو بعض الصلوات، وإني لأتساءل لماذا يأتي هذا الخوري فيحدثني عن العدل. ليس له أن يهتم بما لايعنيه ومايجهل عنه كل شيء. أتمنى أنا، لو أراه يدير هذه الملكية! كنا نرى مايفعل فيها بقضّه وقضيضه! مع هؤلاء الشياطين المساكين، ليس سوى القوة، إنها اللغة الوحيدة التي يفهمون. إذا رققت لهم انتهى الاحترام. لاأنكر أني كنت أحياناً قاسياً جدّاً، لكني كنت دائماً عادلاً. لقد وجب علي أن أعلمهم كل شيء، حتى كيف يأكلون، ولو تعلّق بهم الأمر، لاكتفوا بالخبز الحاف. ولولا سهري عليهم لأعطوا الحليب والبيض إلى الخنانيص. إنهم يجهلون كيف يغسلون أذبارهم ويريدون حقّ التصويت! إذا كانوا هم أنفسهم لايعرفون شيئاً عن أمرهم، كيف تريدهم أن يعرفوا شيئاً عن السياسة؟ إنهم أهل لأن يصوّتوا مع الشيوعيين، كعمال مناجم الشمال الذين يخرّبون البلاد، بـإضراباتهم في اللحظات الحاسمة التي ارتفع فيها سعر المعدن إلى أعلاه. كنت أبعث بالجيش إلى الشمال لو أنه أنا، كي يتدبر أمرهم بـإطلاق القنابل لعلّهم يفهمون مرة واحدة. للأسف ليس عندنا مايؤدي إلى نتائج غير المطرقة. نحن لسنا في أوروبا. هنا، مانحن بحاجة إليه هو حكومة قويّة، ورأس حقيقي. إنه لأمر جميل، لو كنا جميعاً متساويين: لكّننا لسنا كذلك. وهو أمر يلفت النظر. هنا الوحيد الذي يعرف كيف يعمل، هو أنا، وأتحداكم أن تثبتوا العكس. أنا أوّل من ينهض وآخر من ينام على هذه الأرض اللعينة. لو أني أصغي لنفسي، لتركت كل شيء، وذهبت فعشت في العاصمة كأمير، لكنْ يجب أن أبقى: متى تغيبت ولو أسبوعاً سقط كل شيء أرضاً وعاد هؤلاء البائسون إلى الموت جوعاً. تذكروا كيف كان الأمر هنا لما وصلت، منذ تسع أو عشر سنين: خراب. عش حجارة لنسور الكوندور. بور حقيقي. كل الحقول مهملة.

لم تأتي أحداً فكرة تقنية الماء. هم يكتفون بزراعة أربع ملفوفات قذرة في باحتهم ويغرق مابقي في البؤس. كان يجب أن آتي حتى يسود هنا النظام والقانون والعمل. كيف لاأستمد من هذا الغرور؟ لقد عملت كثيراً وجيّداً حتى كسبت ملكيتين مجاورتين، وهذه الأرض هي أوسع وأغنى مافي المنطقة، كل الناس ينظرون إليها حاسدين، كمثل، كاستثمار نموذج. والآن، تضاعفت قيمتها، لأن الطريق مرّ من حذائها؛ ولو شئت بيعها، لاستطعت السفر إلى أوروبا والعيش من ريع مالي، لكنني لن أذهب، لا، سوف أبقى هنا فأعاني مايعاني الكلب. وما أفعله أفعله من أجل هؤلاء الناس. لولاي ذهبت ريحهم. ولو قلنا الأشياء صراحة لاعترفنا، أنك لاتستطيع إرسالهم لشراء الحاجيّات؛ وأكرر هذا القول: أطفال حقيقيون. إن أحداً منهم ليس أهلاً لأن يعمل مايجب عليه عمله إلا إذا وقفت وراءه ودفعته من مؤخرته. وبعد ذلك، هنالك من يجيء ليقول لي إننا جميعاً متساوون! لا إن هذا الأمر ينفجر له الطّحال...

كان يرسل إلى أمه وأخته سلال فواكه، وقديداً، وأفخاذ خنازير، وبيضاً طازجاً، وطيوراً حية أو مملحة، وأكياساً كاملة من الأرز، والقمح والطحين، وجبن المزرعة وكل ما تحتاجانه من مال، لأنه كان عنده من هذه الأشياء جميعاً مايفيض عن حاجته. أخذ الماريات الثلاث والمنجم يردّان مايتوجب عليهما للمرة الأولى منذ أن أوجدهما الله على هذا الكوكب، كما كان يحب أن يقول لمن شاء أن يسمع. كان يغدق على دونيا ايستير وفيرولا مالم تطمحا عمرهما إليه، لكنه لم يجد خلال تلك السنين وقتاً كي يذهب لرؤيتهما إلا عابراً إبان إحدى رحلاته إلى الشمال. لقد استأثرت به الأرض، والملكيات الجديدة التي حاز عليها، وأعمال أخرى كان يعد العدة لاقتناصها، فما يستطيع أن يفكر بـإضاعة وقته عند رأس مريض وعدا عن ذلك، كان البريد يمكنه من ألا يفقد الاتصال، والقطار من أن يرسل كلّ مايريد. فما كان يحس بأية حاجة لرؤيتهما. كل شيء كان يمكن قوله في رسالة، كل شيء، ماعدا مالايريد أن تعرفاه كقطيع أبناء السفاح الذين يتكاثرون كما لو بالسحر. كان يكفيه أن يقلب بنتاً في الحقل حتى تحمل حالاً، كان ذاك من عمل الشيطان، لأن مثل

هذا الخصب يبدو غريباً، ولقد كان مقتنعاً أن نصف هؤلاء الأولاد ليسوا منه. وعليه قرر أنه فيما عدا ابن بانتشا جارسيا الذي كان يدعى إيستيبان مثله والذي لايستطيع أن يشك بأن أمه كانت عذراء في اليوم الذي امتلكها، فإن الآخرين يمكن أن يكونوا يقيناً منه، كما يمكن ألّا يكونوا: وفي كل الأحوال، الأفضل له أن يفكر أنهم ليسوا منه. وعندما كانت تهبط عليه هذه أو تلك المرأة وقد أمسكت بطفل بين ذراعيها كي تطلب منه أن يعطيه اسمه أو بعض مساعدة، كان يطردها بعد أن يضع في يدها ورقتي عملة وهو يهددها، أنها إذا رجعت تزعجه، يطردها جلداً بالسوط، كي ينتزع منها أية رغبة بعرض جسدها لأول قادم ثم اتهامه، هو. وهكذا لم يعرف يوماً إحصاء صحيحاً لسلالته. والحق أن هذا الأمر ماكان يعنيه بتاتاً. كان يقول أنه في اليوم الذي يريد فيه أبناء، سوف يبحث له عن زوجة من طبقته، ببركة الكنيسة، لأن الوحيدين الذين يحسبون حقّاً هم أولئك الذين يحملون اسم أبيهم، أما البقية فكأنهم لم يوجدوا. ولايأتي أحد كي يعرض عليه ذاك المسخ القائل أن كل البشر يولدون متساويين في الحقوق ويرثون الشيء نفسه، لأن هذا معناه نهاية كل شيء، وترجع الحضارة إلى عصر الحجر. لقد كان يتذكر نيفييا، أم روزا، التي، بعد أن اعتزل زوجها السياسة بعد أن هدّه ماء الحياة المسموم، اندفعت في معركتها الخاصة. وقيّدت نفسها وبعض البورجوازيات الأخريات بقفص مؤتمر المحكمة العليا، فأثرن مشهداً مخجلاً، وضع أزواجهن موضع السخرية. وكان يعرف أن نيفييا تخرج ليلاً وتلصق بيانات على جدران المدينة، وأنها كانت أهلاً للطواف بالمركز، وفي وضح نهار الأحد ظهراً وبيدها مكنسة، وعلى رأسها القبعة الفريجية[1]، كانت تطالب للنساء بحقوق الرجال نفسها، كي يستطعن التصويت ودخول الجامعة، كما كانت تنادي بأن يستفيد كل الأطفال من حماية القانون، حتى ولو كانوا أبناء سفاح.

كان يقول تروييا: «وقعت هذه المرأة على رأسها! الأمر الذي هي فيه هو ضد الطبيعة. إذا كانت النساء لايعرفن ماجمع اثنين واثنين، لانرى كيف يمكن

---

١ ـ القبعة التي كان يلبسها الثوريون وبخاصة إبان الثورة الفرنسية.

أن يمسكن بالمبضع. إنهن ليس لهن سوى وظيفة وحيدة أن يصبحن أمهات ويقبعن في بيوتهنّ. وإذا سرن على هذا المنوال سوف يُرى أنهن يوماً سيحاولن أن يكنّ نائبات، وقضاة، بل ورئيساً للجمهورية! وبين هذا وذاك سوف يبذرن فتنةً وفوضى توشكان أن تتحولا إلى كارثة. وهؤلاء هنّ ينشرن مَنْ أحاجي سفيهة، ويقدحن في الإذاعة، ويتغلغلن في الأمكنة العامة، ويجب على البوليس أن يأتيهن ببيطار يقصّ الأقفال ويستطيع بعدها أن يأخذهن إلى السجن، حيث مكانهنّ. وكم يؤسفني أن يوجد دائماً زوجٌ ذو نفوذ، أو قاضٍ ضعيفُ الأعصاب أو برلمانيّ متمردٌ الأفكار يعيد لهم الحرية.. القوة، هي الضرورة في مثل هذا الحال!

انتهت الحرب في أوروبا فكانت الحافلات الملأى بالجثث كعويل بعيد. تأخّر صداه بالانطفاء. من هناك جاءت الأفكار الهدامة تحملها رياح الراديو التي لاتضبط، والتلغراف والمراكب التي تحمل مهاجرين ينزلون كقطيعٍ مضطّرب قد نجا من أرض جوعه، بعد أن أهلك أكثره هدير القنابل. وترك موتاه يتفسّخون في خطوط الفلاحة.

كانت سنة انتخابات رئاسية، ووقت الاهتمام بالمنحى التي تأخذه الأحداث. كانت البلاد تخرج من سباتها. وبدأت موجة الاستياء المحدقة بالشعب تهزّ بناء المجتمع الأوليغارشي المتين. وداهمت الريف كل المصائب، الجفاف وجحافل الحلزون، والحمى القلاعية، ووقع الشمال فريسة للبطالة، وعانت العاصمة من آثار الحرب البعيدة. كانت سنة بؤس! وماكان ينقص، كي تتم الكارثة، غير زلزال أرضي.

ولم تنتبه الطبقة الحاكمة، مالكة السلطة والثروة، إلى الخطر الذي يهدد توازن وضعها الواهي. كان الموسرون يتسلون برقص الشارلستون وألحان الجاز الجديدة، والفوكستر وت وجيرك[1] السود الخارق السفه. واستؤنفت الرحلات

---

١ ـ رقصة هزّ عنيفة.

إلى أوربا بعد انقطاع سنوات الحرب الأربع، وغدت المودة رحلات أخرى باتجاه أمريكا الشمالية. ووصل جديد الجولف الذي يجمع الطبقة الراقية كي يضربوا كرة صغيرة بعصا، كما كان يفعل الهنود، منذ مئتي سنة خلت، في الأمكنة نفسها. وتزينت نساء الطبقة العليا حتى الركب بأطواق لآلئ زائفة، وقبعات على صورة إناء الغرفة ينزل حتى العينين، وقصصن شعورهن على طريقة الصبيان وتطرّين[1] كالقوّادات، ونزعن المشدّات ودخنّ جهاراً. وأرخى السادة لنفوسهم عنان الإعجاب بالسيارات الأمريكية الشمالية التي كانت تنزل من السفن في البلاد صباحاً فتباع بعد ظهر اليوم نفسه، بالرغم من أنها تساوي كنزاً صغيراً وماهي سوى ضجة ذات دخان من قطع غيار تجري إلى قبر مفتوح على طرق شقّت من أجل الخيل وبقية الحيوانات الطبيعية، وليس قطعاً من أجل هذه الآلات الخارجة من عقلٍ مضطّرب. على موائد القمار كانت تهدر الثروات الموروثة وثروات مابعد الحرب السهلة. كانوا يعبون الشمبانيا ثم وصلت بعد لأي آخر صرعات الكوكايين، وهي الوقف على الأكثرين رقّة وفساداً. ولقد خال البشر أن هذا الجنون الجماعي لن ينتهي.

أما في الريف، لم تكن السيارات الجديدة غير واقع على بعد الأرواب إلى نصف الفخذ، ومن نجا من جحافل الحلزون والحمى القلاعية علّموا وأرّخوا لهذه السنة بحجر أبيض. ولقد كان ايستيبان تروييبا وبعض ملاكي الأرض الآخرين في المنطقة يجتمعون في نادي القرية كي ينظموا العمل السياسي قبل الانتخابات. أما الفلاحون فكانوا يعيشون الحياة نفسها في زمن الاستعمار ولم يسمعوا يوماً أي كلام عن النقابات، وعطل الآحاد أو الحد الأدنى للأجر، لكن رسل الأحزاب اليسارية الجديدة بدأوا يتسلّلون إلى الإقطاعيات، يدخلونها وقد تنكّروا كمبشرين بالإنجيل، والتوراة تحت ذراع، ونشراتهم الماركسية تحت الذراع الآخر، وهم يبشرون تارة بالصيام وأخرى بالموت من أجل الثورة. كانت دعوات التآمر عند الإقطاعيين تختتم بعربدات رومانية، أو معارك ديكة، فإذا جاء المساء احتلوا القنديل الأحمر حيث كانت قحبات بنات اثني عشر عاماً

---

١ ـ وضعن المساحيق.

وكاميلو اللوطية الوحيدة في بيت الدعارة، الوحيدة أيضاً في القرية، يرقصن على صوت فونوغراف قبلطوفاني تحت عين صوفيا اليقظة التي تجاوزت عمر تلك الخفّة لكنها حافظت على مايكفي من الطاقة كي تتحكم بالمكان بيد من حديد، وتمنع الدرك من أن يجدوا أنفسهم مضطرين للتقطيب، والملاكين من تجاوز حدودهم والمضاجعة مجاناً. وكان ترانسيتو سوتو أفضلهن جميعاً بالرقص وأكثرهن براعة في مقاومة هجمات الزعران، كانت لاتتعب ولاتشكو من شيء، وكأنها وهبت تلك الملكة التيبيتية هيكلها العظمي المراهق البائس بين يدي الزبون وهي تجعل روحه تهاجر إلى كوكب آخر بعيد. كانت تعجب إيستيبان تروييبا كثيراً لأنها لم تكن تتصنع لا في ارتجالاتها ولا احتداماتها الغرامية، وكانت تغني بصوت طائر أبح ولقد قالت له يوماً إنها سوف تشق طريقها في الحياة، شيء وجده بالأحرى مضحكاً.

قالت له: «لن أتعفّن بقية أيامي في القنديل الأحمر، يا سيّد. سوف أذهب إلى العاصمة لأني أريد أن أصبح غنية وشهيرة».

كان إيستيبان يتردد إلى الماخور لأنه مكان اللهو الوحيد في القرية، ولو أنه لم يكن رجل بغايا. وماكان يعجبه أن يدفع ثمن مايستطيع الحصول عليه بوسائل أخرى. غير أنه كان يقدّر تراسيتو ستو. كانت الفتاة تضحكه. وذات يوم أصيب، بعد الحب، بالكرم وهو أمر ماكان يحدث له البتّة. سأل ترانسيتو سوتو إن كان يعجبها أن يقدّم لها هدية.

طلبت منه فجأة: «أعرني خمسين بيزوساً أيها السيّد!».

ـ هذا مال كثير. ماذا تريدين أن تفعلي به؟

ـ كي أدفع ثمن بطاقة القطار وروب أحمر، وحذاء عالي الكعب، وقارورة عطر كي أصبح نظامية. هذا كل ما أنا بحاجة إليه للبدء. سوف أردّها لك يوماً أيها السيد. مع فائدتها.

وأعطاها إيستيبان الخمسين بيزوساً: في ذلك اليوم، باع خمسة عجول وكان يتجوّل وجيوبه ملأى بأوراق النقد، وقد انتابه تعب اللذة الشبعي التي جعلته عاطفياً بعض الشيء.

ـ الشيء الوحيد الذي آسف له، يا ترنسيتو، أني لن أراك بعد ذلك لقد تعودتك.

ـ سوف نلتقي بالتأكيد يا سيد. الحياة طويلة وتمر غالباً في الصحاف نفسها.

ولقد كانت مآدب النادي، ومعارك الديوك وسهرات بيت الهوى خطة ذكية، ولو أنها غير مبتكرة كثيراً كي يجعلوا الفلاحين يصوّتون كما ينبغي. أقاموا لهم حفلة فيها فطائر وخمر حتى الشبع، وضحّوا ببعض البهائم للشواء، وأسمعوا بعض ألحان القيثارة، وألقيت عليهم بعض الخطب الوطنية ووعدوهم إذا نجح مرشح المحافظين، أن يقبضوا علاوة، أما إذا كان الآخر، فإنهم واجدون أنفسهم بلا عمل. وراقبو، من أجل الضبط، صناديق الاقتراع، ورشوا البوليس. وبعد الحفلة، كوّموا الفلاحين في الطنابر، وأخذوهم للتصويت تحت حراسة قوية، بين الضحك والمزاح، لأنها الفرصة الوحيدة التي يتبادلون فيها النكت بين بعضهم بعضاً، وأعطيك من هنا يا صديقي، وياعزيزي من هناك، بوسعك أن تعتمد علي، يا معلمي الصغير، لن أتخلى عنك، كم أحبّ أن أراك بوجدان وطني جميلٍ، تقول إنّ الأحرار والراديكاليين ليس لهم خصىً، وأن الشيوعيين هم أبناء قحبة، كفرة يمزقون الأطفال.

يوم الانتخاب، تم كل شيء حسب الخطّة، في نظام كامل. ولقد صانت القوات المسلحة السياق الديموقراطي في هدوءٍ وسلام، في يوم ربيعي أبهج وأكثر شمساً مما سبقه.

قال تروييبا: «هاكم مثلاً لكل قارة السود والهنود الذين يقضون وقتهم بالثورة كي يضعوا طاغية بدلاً عن آخر. هذا البلد مختلف إن جمهورية حقيقية، الحس المدني موجود فيه، ولسوف يحرز الحزب المحافظ النصر بأمانة ولسنا بحاجة إلى جنرال مامن أجل تأكيد الهدوء في البلاد، إنّه ليس مثل الديكتاتوريات التي في جوارنا حيث يقتتلون فيما الأمير لوكوس يُنزلُ من مراكبهم كل المواد الأولية. أعلن ذلك تروييبا في غرفة طعام النادي، وهو يرفع كأسه على صحة نبأ نتائج الاقتراع.

بعد أيام ثلاثة، حين استأنف الروتين سبله، وصلت إلى الماريّات الثلاث رسالة فيرولا. تلك الليلة حلم إيستيبان تروبيا بروزا. شيء من هذا القبيل لم يحدث له منذ زمنٍ طويلٍ. رآها في حلمه بشعرها الصفصافي الذي كان ينزل حتى خصرها مثل دثار نباتي، وجلدها كان قاسياً متجلّداً، بلون حبة مرمر. كانت عارية تحمل رزمة بين ذراعيها، وكانت تتنقل كما يخطر المرء في الأحلام، مكللة كلها بهالة خضراء متوهجة تطفو حوالي جسدها. ورآها تقترب في بطء لكنه لما أراد أن يمسها، رمت الرزمة أرضاً وحطمتها بقدميها. انحنى، والتقطها فاكتشف طفلة دون عينين كانت تدعوه بابا! استيقظ مذعوراً، هيمن عليه الغم ولم تتركه الكآبة كل الصبيحة. لقد هيمن عليه القلق بسبب حلمه، قبل أن تصله رسالة فيرولا. ودخل يتناول فطوره في المطبخ، ككل يوم، فرأى دجاجة استرسلت بنقر نتف خبز على الأرض. فلطمها برفسةٍ بقرتها وجعلتها تنازع في مايشبه عصيدة ريش وأمعاء، وهي تضرب بجناحيها في وسط المطبخ. ولم يهدأ مع ذلك، بل على العكس تفاقم غضبه وأحسَّ أنه يكاد يختنق. وامتطى حصانه وذهب طراداً كي يراقب الماشية وهي يشمونها. في ذلك الوقت وصل بيدرو جارسيا الأصغر الذي ذهب كي يحمل طلبية من محطة سان لوكاس والذي مرّ بالقرية كي يأخذ البريد، وقد جاء ومعه رسالة.

انتظر الغلاف طيلة الصبيحة على طاولة المدخل. ولما رجع إيستيبان تروييبا عمد مباشرة للاغتسال، لأنه غطاه العرق والغبار، وكان مشبعاً بالرائحة التي نكتشفها عند كل البهائم الخائفة. ثم جلس إلى مكتبه يقوم بالحسابات وأمر بأن يقدم له طعام الظهر على صينية. ولقد وجب انتظار الليل حتى يلاحظ رسالة أخته، في الساعة التي كان يقوم فيها عادة بجولته قبل أن يأوي إلى السرير، كي يرى إن كانت قد أطفئت كل اللمبات وأغلقت الأبواب. كانت رسالة فيرولا شبيهة بكل تلك تلقاها منها، غير أنه منذ أن لمستها يده، وقبل أن يفتحها، عرف أن فحواها سوف يبدّل حياته، أحسّ بالانطباع نفسه لما سلف من سنين، حين أخذ بين أصابعه برقية أخته التي تنبئه بموت روزا.

فتح الرسالة، وهو يشعر بالراحة بأن الدم يخفق في صدغيه بسبب هذا الحدس. كانت تقول باختصار أن الدونيا إيستير تروييبا دخلت في حمى

الموت، وأنه قضى على فيرولا، بعد سنوات وسنوات قضتها في العناية بها وخدمتها كخادمة، أن تحتمل إنكار أمها لها، فيما كانت تطلب نهاراً وليلاً ابنها إيستيبان، لأنها ماكانت تريد أن تموت قبل أن تراه. ولو أن إيستيبان لم يحبّ حقّاً أمه يوماً، لأنه لم يشعر يوماً بوجودها، فإن النبأ أوهن طاقته، فأخذ يرتجف كورقة. وفهم هذه المرّة، أنّ أعذاره التي كان ينتحلها ويجدّدها دون انقطاع كي لايذهب فيراها، لاتغني عنه شيئاً، وأن ساعة العودة إلى العاصمة أزفت، كي يواجه فيها مرة أخيرة تلك المرأة التي كانت ترود كوابيسه برائحتها الزنخة رائحة الصيدلية، وتأوهاتها الدائمة، وصلواتها التي لاتنتهي، هذه المرأة العاجزة التي سكنت طفولته بالممنوعات والرعب وحملت رجولته عبء مالايحصى من مسؤوليات وخطيئات.

نادى بيدرو جارسيا الأصغر وشرح له الوضع، قاده إلى المكتب وأراه دفتر الحسابات، وحسابات الدكّان. وأعطاه حزمة فيها كل المفاتيح، ماعدا مفتاح قبو النبيذ، وأحاطه علماً بأنه منذ تلك اللحظة حتى عودته، مسؤول عن كل ماتكنّه الماريات الثلاث، وأنه سيدفع غالياً ثمن أقل خطأ يرتكبه. وأمسك بدرو جارسيا الأصغر بالمفاتيح، وأخذ دفتر الحسابات تحت إبطه وابتسم دون فرح.

قال وهو يهز بكتفيه: «سأعمل ما أستطيع، ولست ثوراً، يا سيد».

في الغد، عاود إيستيبان تروييبا، لأول مرة منذ سنين طويلة، الرحلة التي انتقلت به من المسكن العائلي إلى الريف. وذهب، ومعه حقيبتاه، في الطنبر حتى محطة سان لوكاس وصعد إلى حافلة الدرجة الأولى في مرحلة شركة سكة الحديد البريطانية وقطع بالاتجاه المعاكس المسافات الريفية الواسعة على سفح السلسلة.

وأغمض عينيه حاول أن ينام، لكن صورة أمه طردت النعاس.

الفصل الثالث

كلارا البصيرة

كان عمر كلارا عشر سنين عندما قررت أنّ الكلام لامعنى له ـ وسجنت نفسها في الخرس. وحاول طبيب العائلة، الضخم والسمح الدكتور كويفاس أن يعالج صمتها ببرشامات من اختراعه، وشرابات فيتامينية، وكمادات للحنجرة بالعسل المبورق، لكن دونْ نتيجة ظاهرة. ولمس وضوح عدم نجاعة أدويته وأن وجوده وحده كان يكفي لرعب البنية. كانت كلارا إذا رأته أُخذت بالبكاء والتجأت إلى أبعد زاوية وتقوقعت كبهيمة مطاردة، حتى أقلع عن مداواتها ونصح سيفيرو ونيفيبا بأن يأخذاها إلى الروماني المسمّى روستيبوف الذي ترك أثراً كبيراً في تلك الفترة. ولقد كان روستيبوف يكسب معيشته بأن كرّس نفسه إلى حيل المشعوذين في مسارح المتنوعات وقد نجح في عمل باهر إذ مدّ سلكاً من الحديد من أقصى رأس في الكاتدرائية إلى قبة الأُخوية الفاليسية في الطرف الآخر من الساحة، وقطعها مشياً في الهواء وليس معه غير سند وحيد هو عصا طويلة. وكان روستيبوف، بالرغم من ناحية غرابته، يثير استنكار الأوساط العلمية لأنه في أوقات فراغه، شفى الهيستيريا بالعصي السحرية والوجد المغناطيسي، وأخذ نيفيبا وسيفيرو كلارا إلى العيادة التي ارتجلها الروماني في فندقه وفحصها روستيبوف بعناية وانتهى إلى الإعلان بأن الحالة لاتدخل ضمن اختصاصه: إذا كانت البنية لاتتكلم، فذلك لأنها لارغبة لها

بالكلام، وليس لأنها غير قادرة عليه. ومهما كان من أمر فقد حضّر، أمام إلحاح الأهل، بعض ملبسات غلفت بلون بنفسجي وصفها لها وبين لهم أن ذاك دواء سيبيري خصّص لشفاء الصمّ ـ البكم. وبالمناسبة، ظل الإيحاء دون أثر وابتلع بارّاباس القارورة الثانية في لحظة سهو، دون أن يحدث عند الحيوان أية ردّة فعل هامة. واجتهد سيفيرو ونيفيبا في حمل ابنتهما على الكلام باللجوء إلى أساليب عادية، بالتهديد مرّة والرجاء مرّةً أخرى، حتى وصل بهما الأمر إلى تركها دون طعام كي يريا إذا كان الجوع لايكرهها على فتح فمها وطلب غذائها؛ غير أن هذا أيضاً ذهب سُدىً.

واعتقدت النونو أن الخوف الشديد وحده يمكن أن يتوصل إلى جعل البنية تتكلّم؛ وقضت تسعَ سنين تبني يائسة أسباب إرعاب كلارا، غير أنّها بفضل ذلك توصّلت إلى مناعتها فحسب ضد تأثير المفاجأة والرعب. وبعد قليل باتت كلارا لاتخاف من شيء، فما يثيرها أبداً ظهور المسوخ الهزيلة الشاحبة أكثر من طرقات هامة أو شيطان على النافذة. كانت النونو تتخفّى بثياب قرصان بلا رأس، أو جلّاد برج لندن، أو غولٍ ذئبي، أو شيطانٍ ذي قرنين، تبعاً لوحي اللحظة والأفكار التي كانت تغترفها في مجلّات الرعب التي تشتريها لهذه الغاية، والتي ماكانت قادرة على قراءتها لكنّها انتحلت صورها وتعوّدت على أن تتغلغل خلسة في الممرات كي تجفل البنيّة في الظلام، وأن تعول عويلاً وراء الأبواب، وأن تدسّ دوبّيات حيّةً في سريرها، لكن شيئاً من هذا لم يتوصل إلى أن ينتزع منها كلمة. وكان صبر كلارا ينفذ أحياناً فتتدحرج أرضاً، وتعرقص وتصيح، لكن دون أن تلفظ أي صوت في لغة معروفة أو أنها تخط، على اللوح الحجري الذي تحمله بصورة دائمة، أحط الحماقات اتجاه المرأة المسكينة، التي لم تفهم رغبتها، فتذهب كي تبكي في المطبخ.

كانت النونو تنتحب وقد تغطت بقماش مدمىً، وسودت وجهها بفلّينة محروقة قائلةً: «هذا لخيرك، يا ملاكي الصغير!».

ومنعتها نيفيبا من الاستمرار بـإخافة ابنتها. فقد أدركت أنّ هذه التدخلات لاتفعل غير أنها تشحذ تلك القدرات السحرية، وتزرع الإضطراب

بين الأرواح التي تطوف حولها. وأكثر من ذلك، فإن تتالي تلك الصور الكاريكاتورية الشنيعة كانت تؤذي أعصاب بارّاباس الذي لم يوهب بتاتاً الفطنة، فكان يجد صعوبة في تمييز النونو في تنكّرها. فما كان من الكلب إلا أنْ صار يبول تحته فيدع في دائرته رامة واسعة كما صار يصرف بأسنانه في غالب الأحيان. غير أن النونو كانت تستغل أدنى لحظة سهو من الأم فتثابر على خطتها في قهر الخرس بالدواء نفسه الذي تزال فيه الحازوقة.

وسحبت كلارا من كلية الراهبات التي تعلّمت فيها كل أخوات ديل فاله وأتي لها بأساتذة إلى البيت. وجاء سيفيرو بمعلمة من إنكلترا، المس أجاثا، طويلة كيوم بلا خبز، لونها عنبري من قدمها حتى رأسها، وأوتيت يدي جصّاص[1] كبيرتين، لكنّها لم تستطع مقاومة تبدّل المناخ، والأكل الحريف، وجولات المملحة المستقلة على طاولة غرفة الطعام، حتى لقد رجعت إلى ليفربول. أما الثانية فكانت سويسرية، لكنّها لم يواتها الحظ أكثر من تلك؛ والفرنسية التي هبطت بفضل سيفيرو بلادها مع العائلة فقد تبدت، وردية، لطيفة، ممتلئة، حتى لقد حبلت بعد شهور قليلة وأظهر البحث في هذه القضية أن الأب لم يكن سوى لويس أخ كلارا البكر. وزوجهما سيفيرو دون أن يسألهما عما عدا ذاك، ولقد أصبحا سعيدين، خلافاً لكل تنبؤات نيفيا وصديقاتها.

ونظراً لهذه التجارب، أقنعت نيفيا زوجها أن التدرج في اللغات الأجنبية ليس ضرورياً لابنةٍ موهوبةٍ بملكات تيليباثية وأفضل من ذلك الاهتمام بدروس البيانو وتلقينها التطريز.

كانت كلارا الصغيرة تقرأ بـإفراط، وكانت قراءاتها دون تمييز فكانت ترمي بثقلها على كتب السحر في صناديق الخال ماركوس المدهشة، مثلها مثل نشرات حزب الأحرار التي كان يخزنها أبوها في غرفة مطالعته. وكانت تملأ مالايحصى من الدفاتر بملاحظات شخصية سجلت فيها أحداث تلك المرحلة: وبفضلها لم تمح شيئاً أشواك النسيان وأنا أرجع إليها اليوم كي أصون الذكرى.

---

١ ـ عامل الجصّ.

كانت كلارا النافذة العقل تعرف تفسير الحلام. وتلك كانت موهبة طبيعية عندها فما تحتاج الرجوع إلى البحوث القبلانية المملة، التي كان يستخدمها الخال ماركوس فيبذل فيها جهداً أكبر من جهدها وينجح أقلّ منها. وأول من انتبه إلى هذا الأمر هو البستاني أونوريو الذي حلم ليلة بأحناش تلتف على قدميه فما استطاع الخلاص منها إلا بضربها بعقبيه حتى توصّل إلى سحق تسعة عشر منها. وروى رؤياه للبنيّة، وهو يقلم الورق، كي يسليها لأنّه كان يكن لها كثيراً من الودّ حزيناً لأنها ظلت خرساء. وأخرجت كلارا لوحها الصغير من جيبها وكتبت تأويل الحلم لأونوريو: سوف يكون لك مال كثير، ولن يطول به الأمر، ولسوف تربحه دون جهد، إلعب إذن الرقم التاسع عشر. وما كان أونوريو يعرف القراءة، غير أن نيفييا فكّت له الرسالة بين الضحك والسخر. وقام البستاني بما قيل له وربح ثمانين بيسوس في مقمرة سرّية أقيمت خلف قبوٍ للفحم. وصرفها في بزّة جديدةٌ، وسكرة تذكر مع كلّ أصحابه وعلبة خزف إلى كلارا. منذ ذلك اليوم، شغلت البنية كثيراً في فك رموز الأحلام خفيةً عن أمّها، لأنّه منذ أن عرفت حكاية أونوريو تدفّق الناس لسؤالها مايعني التحليق فوق برج بجناحي بجعة، وماجنوح زورق وسماع جنيّة بحر في صوت أرملة، أو ولادة توأمين ملتصقين من الكتف ويمسك كل منهما بسيف بيده، وخطت كلارا دون ظلّ من التردد أن البرج لايعني سوى الموت وأن من يحلق فوقه ينجو من حادثٍ مميتٍ، أما الغريق الذي يسمع الجنيّة فيفقد عمله ويعرف العوز لكنه تعينه امرأة يشترك معها في عملية تجارية، والتوأمان هما زوج وامرأة عقدا بالرغم منهما على القدر نفسه ويهجو أحدهما الآخر بضربات نصال.

ولم تكن الأحلام الشيء الوحيد الذي تنفذ إليه كلارا. كانت أيضاً تقرأ المستقبل وتكشف سرائر الناس، وتلك ملكات رعتها طيلة حياتها فانشحذت مع الزمن. ولقد أنبأت بموت عرّابها، الدون سلمون فالديس، سمسار البورصة، الذي اعتقد أنه خسر كل شيء فشنق نفسه في ثريّا مكتبه الأنيق. ولقد أذن إلحاح كلارا باكتشافه، وهو على هيئة خروفٍ كئيبٍ، كما وصفته على لوحها. وتنبّأت عن فتق أبيها، وكل زلازل الأرض وماعداها من

خلل في الطبيعة، وعن سقوط الثلج مرة واحدة ووحيدة على العاصمة وما سبّب من موت الفقراء برداً في ضواحي الصفيح وأشجار الورد في بيوت الأغنياء، وهوية قاتل بنات الكلية قبل أن يكتشف البوليس الجثة الثانية بزمن؛ لكن أحداً لم يصدقها، كما رفض سفيرو أن تعطي ابنته رأيها في أمور إجرامية لاتمس العائلة من قريب أو بعيدٍ ولقد أدركت كلارا من أول نظرة أن جيتيليو أرماندو سوف ينصب على أبيها بتجارته في الأغنام الأوسترالية، وقد اكتشفت ذاك للتو من لون هالته. وكتبته إلى أبيها، لكنّه ركب رأسه، وماذكر تنبؤات ابنته الصغرى، إلا حين فقد نصف ثروته وكان شريكه يمخر البحر بين جزر الكاريبب، وقد تحوّل إلى نباب معه حريم من الزنجيات الأثيثات ويختٌ خاصّ كي يذهّب جسمه في الشمس.

لم تزل مهارة كلارا في تحريك الأشياء دون مسّها مع أولى عادتها الشهريّة، كما تكهنت النونو وإنما اشتدت حتى وصلت درجة عملية تستطيع معها أن تشغّل ملامس البيانو ولو ظلّ الغطاء مغلقاً، ولو أنه اتضح أنها لاتقدر على تجوال الآلة في الغرفة مهما بلغت رغبتها في ذلك. كانت تكرّس أكثر وقتها وطاقتها لهذا الشطط. فتدربت على قراءة ورق اللعب، وكانت تصدّق في نسبة مدهشة من الحالات، واخترعت بعض لعب الخدعة لتسلية إخوتها وأخواتها. ومنعها أبوها من قراءة المستقبل في التاروت واستحضار الأشباح والأرواح الخبيثة التي كانت تضايق بقية العائلة وترعب الخدم، لكنّ نيفيا فهمت أن ابنتها بقدر ماكانت تكابد من تخويف وتضييق، بقدر ماتغدو شاذّة، حتى لقد عزمت أن تدعها وشأنها وبراعتها في مناجاة الأرواح، وألعاب الساحرات الصغيرة، وصمت المغارة وأن تبذل ماوسعها في حبها دون شرط وقبولها كما هي. وكبرت كلارا مثل نبتة برية، بالرغم من نصائح الدكتور كويفاس الذي جلب من أوربا مودة الحمامات الباردة والصدمات الكهربائية لشفاء المجانين.

كان بارّاباس يرافق البنية ليلاً ونهاراً، خارج الدورات الطبيعية التي كان

ينصرف فيها لنشاطه الجنسي. كانماينفكّ يدور حولها كشبح عملاق، صامت مثل كلارا نفسها، وينام عند قدميها منذ أن تجلس وفي الليل ينام إلى جانبها في لهاث قاطرة. وقد وصل إلى التوحّد مع سيدته حتى أنّها عندما كانت تمشي في البيت وهي مروبصة كان الكلب يتبعها بالوضع نفسه. ولقد بات عاديّاً أن يريا، في ليالي البدر، وهما يتجولان على طول الممرات كشبحين يطفوان في النور الشاحب. وكان الكلب كلما كبر ازداد شروده وضوحاً. ولم يستطع يوماً أن يفهم طبيعة البلور الشفافة فكان في لحظات انفعاله، يحدث له حين ينفذ خطة التقاط ذبابة، أن يحطم النوافذ بوثبة واحدة. ثم يسقط مدهوشاً ذاهلاً، في الجهة الأخرى في فرقعة ألواح زجاج مكسورة. في تلك الآونة كان يؤتى بالبلور من فرنسا بالسفينة وغدا هوس الحيوان بالانقضاض عليه مشكلة، حتى اللحظة، التي عنّت فيها لكلارا، كآخر حيلة، فكرة رسم قطط عليه، وعندما بلغ باراباس رشده، انقطع عن الرغبة في جماع قوائم البيانو، كفعله وهو فتى، ولم تتجلّ غريزته في الإنجاب إلّا بشم بعض كلبة في الحي وافاها السفاد. آنذاك ماكانت سلسلة ولاباب يقدر على الإمساك به، كان يثب إلى الشارع بعد أن يحبط كل الحواجز على طريقه وكان يغيب عن النظر يومين أو ثلاثة أيام. وكان يرجع حتماً مع الكلبة البائسة التي التصقت بمؤخرته، وهي ملعقة في الهواء وقد سفّدها بفحولته الضخمة. عندها كان يجب إبعاد الأطفال كي لايروا منظر البستاني الرهيب وهو يرشهما بالماء البارد حتى ينفصل بارّاباس، بعد عدة حمامات، وضربات قدم وفضائح أخرى، عن عشيقته، ويدعها في باحة البيت تحتضر حتى ينهيها سيفيرو بطلقة الرحمة.

اندرجت مراهقة كلارا في لطف في مسكن أهلها الواسع، ذي الباحات الثلاث وبين مداعبات إخوتها وأخواتها الأكبر منها، وسيفيرو فهي المفضلة عنده بين أبنائه. ونيفيا والنونو التي كانت تناوب بين جولاتها البعبعيّة المشؤومة وأرق العناية. ولقد تزوّج إخوتها وأخواتها كلهم، وسافرو بعضهم في رحلة، وآخرون للعمل في الريف، وغدا البيت الذي آوى عائلة بهذا العدد، شبه فارغ، وأغلق كثير من غرفه. وكانت البنية تقضي الوقت الذي يدعه لها معلموها في

القراءة، وتحريك مختلف الأشياء دون مسّها، وفي نزهة بارّاباس، أو الانصراف إلى تمارين التنبؤ وتعلم الحياكة، الفن الوحيد بين الفنون المنزلية الذي استطاعت إتقانه منذ الخميس المقدس الذي اتهمها فيه الأب ريستريبو بأنها مسكونة بالشيطان، يحوم حول رأسها كشبح يحتويه حب ذويها وكتمان إخوتها وخواتها، فيسري، خبر مؤهلاتها الغريبة بصوتٍ خفيضٍ في الأوساط البرجوازية الضيّقة. وانتبهت نيفيا إلى أن لاأحدَ يدعو ابنتها مطلقاً وأنّ أبناء عمها أنفسهم يجتنبونها. فعمدت إلى تعويض غياب الأصدقاء هذا، بتفانيها المطلق وتوصلت إلى غايتها، حتى أنّ كلارا كبرت في الفرح، فغدت بعد سنين عديدة، تذكر طفولتها على أنها فترة مشّعة من وجودها رغماً عن وحدتها وصمتها وظلّت طيلة حياتها ماثلةً في ذاكرتها تلك العصورنيات برفقة أمها، في معمل الخياطة الصغير حيث كانت نيفيا تخيط على الآلة ثياباً للفقراء، وهي تروي لها حكايات وطرفاً عائلية. وتريها الصور المعلّقة على الجدران وتروي لها الماضي!.

ـ أترين هذا السيد الجادّ بذقن قرصان؟ إنه الخال ماتييو الذي سافر إلى البرازيل من أجل صفقة زمرّد، غير أن خلاسيّة بركانية سحرته. بدأ شعره يسقط، وأظافره تنفصل، وتتعرّى أسنانه. واضطر إلى رؤية ساحر، يفسد السحر من الفودو، زنجي ليس أسود منه، أعطاه تعويذة فاشتدّت أسنانه حالاً، وظهرت له أظافر جديدة واستردّ شعره. انظري إليه، يابنتي الصغيرة، شعره كثٌّ أكثر من شعر هنديّ: إنّه الأصلع الوحيد في العالم الذي نبت شعره مرة أخرى.

كانت كلارا تبتسم دون أن تقول أية كلمة بينما تستمر نيفيا في الكلام لأنّها تعوّدت صمت ابنتها. كانت أيضاً تغذي الأمل بأنّها لو وضعت كذا وكذا من الأفكار في رأسها فإنها عاجلاً أم آجلاً يأتيها سؤال ما وتعوّد عندها إلى استعمال الكلام.

قالت: «وهذا هو الخال خوان. كنت أحبّه كثيراً. ذات يوم أخرج ضرطة كانت حكماً عليه بالإعدام، وشقاء عظيماً. حدث ذلك خلال غداء في الحقل. كان هناك أبناء وبنات العم في يوم ربيعٍ معطّرٍ، نحن في أرواب الموسلين وقد ارتدينا قبعاتٍ بزهو وشرائط والشباب يعرضون أجمل بزاتهم ليوم الأحد.

نزع خوان سترته البيضاء - كأني أراه! - وشمّر كمّي قميصه وتعلق في أناقة على غصن شجرة كي يثير بـإقدامه البهلواني إعجاب كونستانتزا أرنادى، التي كانت ملكة قطاف العنب والتي بسببها، منذ أن رآها أوّل مرة مزّقه الحب. وفقد الراحة، وقام خوان بانثناءتين كاملتين، ثم دورة حول نفسه، وفي الحركة التالية أفلت هواء من أشدّها صخباً. لاتضحكي يا كلاريتا! كان شيئاً فظيعاً. وران صمت كلّه ضيق، ثم انفجرت ملكة القطاف بضحكة لاتقهر. وارتدى خوان سترته، كان شاحباً جداً، ثم ابتعد عن الجماعة دون عجل، ولم نره بعدها بتاتاً. وبحثنا عنه حتى في الفرقة الأجنبية، واستعلمنا عنه في كل القنصليات، ولكنْ لم يسمع أحدٌ أي حديث عنه أظن أنه صار مبشراً وذهب يمرّض المجذوبين على جزيرة الفصح وهي أقصى مايمكن الوصول إليه كي ينسى الإنسان وينسى، فهي واقعة خارج الطرق البحريّة ولاوجود لها على الخرائط الهولاندية. ومنذ ذلك الوقت يذكره الناس باسم جان الضرّاط.

كانت نيفيبا تأخذ ابنتها حتى النافذة وتدلّها على جذع شجرة الحور الميت. قائلة: «كانت شجرة ضخمة. أردت قطعها قبل ولادة ابني البكر. قيل إنّها كانت عالية جداً حتى ليستطيع المرء من قمتها أن يكتشف المدينة كلّها، لكن من يتسلّق إلى هذا العلو لاتستطيع عيناه التأمل. كان كل مولود ذكر من عائلة ديل فاله يجب عليه، حين يبلغ العمر الذي يرتدي فيه بنطالاً طويلاً، أن يتسلقها كي يظهر شجاعته. وكأنّ الأمر من طقوس التدريب. وكانت الشجرة مغطاةً بالعلامات. لقد استطعت أن ألمس ذلك بنفسي عندما أسقطوها. بدءاً من الأغصان الأولى الوسيطة. وهي بضخامة المدخنة، كانت تلاحظ فيها العلامات التي تركها الأجداد لما صعدوا في زمانهم. وكان المرء يعرف من الحروف الأولى المحفورة في الجذع من صعد إلى أعلى، من أشجع، مثل الذين أخذهم الخوف فتوقفوا. ويوماً جاء دور جير ينيمو، ابن العم الأعمى. تسلّق دون تردّد وهو يستدّل على الأغصان تلمّساً دون أن يقيس العلو أو يخشى الفراغ. وصل القمة غير أنّه لم يستطع إتمام الحرف الأول من اسمه ورأوه ينفصل كمزراب ويسقط رأسه أولاً عند أقدام أبيه وإخوته. وهو لم يبلغ الخامسة عشرة بعد.

حملوا الجسد إلى أمّه مغطّى بقماش، وبصقت المرأة المسكينة بوجوههم، وأشبعتهم شتائم قاروس، ولعنت سلالة الذكور التي دفعت ابنها إلى صعود الشجرة، حتى أخذتها راهبات الإحسان وقد قمّطنها بقميص المجانين. كنت أعرف أن أبنائي سوف يداومون على هذا التقليد البربريّ. ولهذا عملت على إسقاطها. لم أرد أن يكبر لويس والأولاد الآخرون في ظل هذه المشنقة على نافذتهم.

كانت كلارا ترافق أمّها واثنتين أو ثلاثاً من صويحباتها المنتخبات في زيارتهن للمعامل، حيث يقفن على الصناديق كي يخطبن بالعاملات بينما ينظر إليهن رؤساء العمال وأصحاب المعمل، على مسافة معقولة، في عداء وهزء. ولقد كانت كلارا بالرغم من سنّها المبكر وجهلها بشؤون هذا العالم، قادرةً على إدراك الوضع المنافي للعقل وتصف في دفاترها ما تفعله من تناقض أمّها وصويحباتها في معاطف الفرو وجزمات الوعل. وهن يتحدثن عن الاضطهاد، والمساواة في الحقوق، إلى تجمع صغير كئيب مستسلم من عاملات في وزرات النسيج الخشن، وأيديهنّ محمرّةً من الشرث. بعد المعمل، كانت المنتخبات يذهبن إلى متجر الحلوى في ساحة الأسلحة لتناول الشاي مع بعض الفرنيّات وهنّ يعلّقن على نجاح معركتهن، دون أن تبعدهنّ هذه التسلية الخفيفة أدنى بعد عن مثلهن الملتهبة. وفي أحيان أخرى كانت أمها تأخذها معها إلى بيوت التنك في ظاهر المدينة وإلى الأرباض الفقيرة حيث كانتا تذهبان بالعربة وقد حمّلت قوتاً وثياباً تخيطها نيفيا وصويحباتها من أجل الفقراء. وهنا أيضاً كانت البنية تثبت نفاذ بصيرة مدهش حين تكتب أن الإحسان لايصلح ظلماً هائلاً. وكانت علاقتها مع أمها حميمة وسعيدة، وكانت نيفيا بالرغم من أن لها خمسة عشر إبناً تعاملها وكأنها ابنتها الوحيدة وتقيم معها رباطاً قوياً حتى أنه يخلد عند الأجيال اللاحقة تقليداً عائلياً.

وغدت النونو امرأة بلا عمر حافظت على عنفوان شباب لايمسّ، تقدر أن تبرز وتقفز من زاوية إلى أخرى كي تخيف فتطرد الخرس، كما تقدر على قضاء النهار بطوله وهي تحرك بِعَصا دست النحاس، على نار من جهنم وسط الباحة

الثالثة، حيث تقرقر عجينة السفرجل، السائل السميك بلون الزبرجد، الذي إذا برد تحوّل إلى سبائك من كل القياسات توزعها نيفيبيا على معوزيها. وقد تعوّدت النونو على أن تعيش ويحيط بها الأطفال، حتى إذا كبر الآخرون ومضى كلٌّ في سبيله، نقلت حنانها إلى كلارا. كانت، بالرغم من أن البنية قطعت ذاك العمر، تزيّنها كرضيع، فتغطسها في المغطس المطلي بالميناء وقد ملأته بالماء المعطر بالريحان والياسمين، وتدلكها بـإسفنجة وتصوبنها من أصابع قدمها إلى أذنيها دون أن تنسى أصغر زاوية ثم تدلكها بماء الكولونيا ثم ترش البودرة برشاشة من زغب البجع وتمشط شعرها بصبرٍ لاحدّ له حتى تجعلها رخصة لامعة كنبتة بحرّية. ثم تلبسها، وتفتح لها سريرها، وتقدم لها فطورها على صينية، وتجبرها على شرب منقوع الزيزفون من أجل الأعصاب، والبابونج للمعدة، وقشر الليمون لشفافية الجلد، والفيجن للصفراء والنعنع لطراوة النفس. حتى تحوّل البنية إلى ملاك جمال يخطر في الباحات والأروقة، تحيط بها هالة من عطور الأزهار، وخفق خرّاطات منشّاة ودارة من خصل شعرٍ وشرائط.

ولقد قضت كلارا طفولتها الأولى بين جدران البيت، في عالم حكايات عجيبة، وصمتٍ هادئ حيث لايحسب الزمن خطأً في حساب ميناء الساعات أو التقاويم، والأشياء لها حياتها الخاصة، والعائدون من العالم الآخر يأخذون أمكنتهم على المائدة ويتحدثون مع الأحياء، حيث الماضي والحاضر هما من النسيج نفسه، والواقع الحاضر هو مشكال مرايا بعضها فوق بعض، حيث كل شيء يمكن أن يحدث. كانت القراءة عندي متعة في دفاتر تلك الحقبة حيث يوصف فيها عالم سحري انقضى منذئذ. وكانت كلارا تسكن عالماً رسم من أجلها، يقيها شدائد الحياة، وتختلط فيه دون انفصام حقيقة الأشياء المبتذلة الملموسة، وحقيقة الأحلام المتمردة التي لاتصحّ فيها دائماً قوانين الفيزياء والمنطق. ولقد عاشت كلارا تلك الحقبة منقطعة كلها إلى أضغاث أحلامها، برفقة الأرواح الهوائية والمائية والأرضية سعيدة إلى درجة لم تعان معها في تسع سنين الحاجة إلى الكلام. ولقد فقد الجميع أمل سماع رنّة صوتها من جديد وإذا بها، في يوم عيد ميلادها، وبعد أن نفخت التسع عشرة شمعة عن قالب جاتو

الشكولاتة، فنفحت صوتاً مؤجلاً كل ذاك الزمن فدوّى كآلة لم تدوزن قالت: «سوف أتزوّج قريباً».

وسألها سيفيرو قائلاً: «من؟».

فأجابت: «خطيب روزا».

عند هذه اللحظة فقط أدركوا أنها تكلمت للمرة الأولى بعد عديد من السنوات؛ وحركت المعجزة البيت من أركانه وجعلت العائلة تبكي جميعاً كجوقة. كل استفهم من جاره، وانتشر الخبر عبر المدينة، واستفسروا من الدكتور كويفاس الذي كاد لايصدق، وفي الجلبة التي سببها خبر عودة كلارا إلى الكلام، نسي الناس جميعاً ماقالت: ولم يذكروه إلا بعد شهرين عندما عاد للظهور إيستيبان تروييبا، الذي لم ير منذ دفن روزا، كي يطلب يد كلارا.

نزل إيستيبان تروييبا في المحطة وحمل نفسه حقيبتيه. شبه القبة المعدنية التي بناها الإنكليز تقليداً لمحطة فيكتوريا، إبان الفترة التي امتلكوا فيها امتياز الخطوط الحديدية الوطنية. لم يتغير فيها شيء منذ المرّة الأخيرة التي وجد نفسه فيها ههنا، قبل كثير من السنين: الزجاج القذر، نفسه وماسحو الأحذية الصغار، وبائعو عجّة البيض الباردة، وحلوى المستعمرات، والحمالون لابسو الكاسكيت السوداء التي تحمل شارة التاج البريطاني والتي مافكر أحد بأن يبدلها بأخرى بألوان العلم. أخذ عربة، وأعطى عنوان مسكن أمّه. لقد أنكر المدينة، فقد هيمن عليها تبدّل عظيم ناحية الحداثة، وعرض نساء رائع يعرضن ربلات سيقانهنّ، ورجال يلبسون الصدريّة والبنطال المطوي، وجلبة عمال يثقبون ويحطمون الطريق، ينتزعون الأشجار ليزرعوا العمد، وينتزعون العمد ليشيدوا الأبنية، ويهدمون الأبنية كي يزرعوا ثانية الشجر، وحشد من باعة متجولين يمتدحون فيبيعون بالمزاد صفات ومعجزات حجر سنّ السكاكين، والفستق المشوي والرجل الدمية الذي يستطيع الرقص وحده دون خيط ولاشريط، تحقّقوا بأنفسكم، لن تحتاجوا أكثر من اللمس بأيديكم، وريح مستودعات أقذار عظيمة، ومقليّات ومصانع، وسيارات تصادم العربات وتراموايات الجرّ، كما

كانت تسمّى بسبب العجز من الخيل التي كانت تجرّ وسائل النقل العام، وجمهور اجتمع، وضوضاء سباق سريع، ورواح وغدو على عجل، وقلق، وحياة مواعيدها محدّدة، فأحسّ إيستيبان أنّه في ضيق. وكره تلك المدينة أكثر مما هي عليه في ذاكرته وأخذ يفكّر بالطرق البريّة، والزمن الذي يعيّره المطره، وعزلة الحقول الفسيحة وطمأنينة النهر الطريّة، وبيته الصامت.

قال: «هذه المدينة ليست سوى مرحاض».

أقلته العربة خبباً إلى البيت الذي كبر فيه. ارتجف لما لاحظ كم ذلّ الحيّ عبر السنين، منذ أن افتتن الأغنياء بالعيش أعلى من الآخرين وامتدت المدينة حتى خاصرة سلسلة الجبال. الساحة التي كان يلعب فيها طفلاً لم يبق منها شيء، باتت وليست سوى أرض مبهمة مزدحمة بعربات السوق ذات الذراع المركونة بين الأقذار التي تبعثرها الكلاب التائهة. كان بيته في حال يرثى لها. تبينّ فيها كل معالم مرور الزمن. على الباب الشفّاف ذي المربّعات التي حفرت عليها رسوم طيور غريبة، وقد غدا قديماً مفكّكاً، كانت هنالك دقاقة برونزية تمثّل يد امرأة تمسك بكرة. طرق وانتظر لحظة بدت له لاتنتهي، حتى فتح الباب: شُدَّ على السلك الذي يربط المقبض بأعلى الدرج. كانت الأم تشغل الطابق وتؤجر الطابق الأرضي لصانع أزرار. بدأ إيستيبان يرتقي الدرجات التي تصرّ ولم تورنش من زمن طويل. كانت تنتظره في الأعلى خادمة عجوز مهدّمة، نسي تماماً وجودها، استقبلته بمظاهر حنان دامعة، وبالطريقة نفسها التي كانت تتلقّاه فيها لما كان ابن خمس عشرة سنة أيام كان يرجع من دراسة كتابة العدل حيث كان يربح لقمته من نسخ نقل الملكية ووكالات المجهولين. لم يتغير شيء، حتى مكان الأثاث، لكن كل شيء بدا على الأقل مختلفاً لإيستيبان: خشب الدرج الذي بليت صفيحاته، المربعات المكسورة سدّ ثغراتها بقطع الكرتون، والسرخس الأغبر يعاني النزع في الأحواض الصدئة، وحاملات الأصص الخزفية المثلومة، وعفن يخنة وبول يغثى لها القلب: قال إيستيبان في نفسه «ياله بؤس!» وهو غير قادر على أن يشرح لنفسه أين ذهب كل المال الذي كان يرسله لأخته كي يمكنها من عيش لائق.

خرجت فيرولا لاستقباله بتكشيرة ترحيب وعبوس. لقد تغيرت كثيراً، لم يبق فيها شيء من تلك المرأة السمينة التي تركها قبل سنوات سلفت، لقد خسرت كل شيء وتبدّى أنفها ضخماً في وجهها المقرّن وكانت على هيئة كئيبة مصدومة، ورائحة خزامى، وثياب بالية. قبل بعضهما بعضاً في صمت.

سألها إيستيبان: «كيف حال الماما؟».

قالت له: «تعال انظر إليها، إنّها تنتظرك».

ومرّ بصف من غرف متّصلة، متشابه بعضها ببعض، مظلمة جدرانها جنائزية، سقوفها عالية ونوافذها ضيقة، غطيت بورق ذي أزهار ذابلة، ونبات فاتر، اتّسخ بسخّام المدافئ وزنجار الزمن والفاقة وكان يصل من بعيد صوت مقدم برامج في الإذاعة يمتدح حبوب الدكتور روس، الصغيرة جدّاً لكن تأثيرها ضخم، في مكافحة الأكتام، والليالي البيضاء، والنفس السيء. وقفا أمام باب غرفة نوم الدونيا إيستير تروييبا المغلق. قالت فيرولا: «هنا».

فتح إيستيبان الباب فإذا به بحاجة إلى بضع ثوان قبل أن يرى في الظلمة. واقتحمته بقسوة رائحة الأدوية والفن، ورائحة عرق لطيفة، ورطوبة وحبيس، وشيء آخر لم يستطع تحديده في البدء غير أنّه سريعاً ما التصق بجلده كوباء: رائحة جسد بلغ الإهتراء. وكانت شبكة نور تدخل من النافذة نصف المفتوحة، فتبين السرير العريض الذي مات عليه أبوه، ونامت عليه أمه منذ يوم عرسها، سرير من خشب منقوش لونه أسود وعليه حامل كلّة ذو ملائكة صغار على دائرته كلها وقصاصات بروكار قرمزية أبلاها التلف. كانت أمه نصف جالسة. كانت كتلة لحم كثيفة، هرماً مخيفاً من شحم وأسمال يعلوها رأس صغير أصلع عيناه زرقاوان عجيبتا الحيوية موسومتان بالرّقة والبراءة. لقد حولتها الرثية إلى كائن من كتلة واحدة، فما كانت تستطيع طيّ مفاصلها ولا الإلتفات برأسها، وأصابعها كانت كلابية مثل قدم حيوان متحجّر وكانت بحاجة، كي تبقى جالسة في السرير، إلى سند يدعمها من ظهرها بصندوق مقوّى بدعامة خشب وهو نفسه مثبت إلى الحائط. كان المرء يلحظ مرور السنين من الآثار التي تركها في الحائط ذاك السند، وجرّة الألم، وخط العذاب.

ـ أمّاه...، تمتم إيستيبان وانكسر صوته في صدره بعبرة مخنوقة، وقد شطب بجرّة الذكريات الحزينة، وشبابه الفقير، وروائح الزنخ، واليدين الصغيرتين الراجفتين، وحساء طفولته الشائط، والأم المريضة والأب الغائب، وذاك الغضب الذي مزّق أحشاءه يوم بات في سن التفكير، ونسي كل شيء منذ تلك الساعة، ماعدا اللحظات المضيئة وحدها التي هدهدته فيها بين ذراعيها تلك المرأة المجهولة الراقدة في السرير، ووضعت يدها على جبينه كي تكشف الحمّى، وغنّت له تهويدة، وانحنت معه على صفحات كتاب، وانتحبت من الأسى لرؤيته وهو ينهض منذ الفجر كي يذهب فيعمل وهو مايزال طفلاً، وانتحبت من فرح إذ رأته يرجع مع هبوط الليل، لقد انتحبت أمي، لقد بكت من أجلي.

مدّت يدها الدونيا إيستير، وماكانت تلك تحية، بل حركة توقفه فيها.

ـ لاتقترب يا بنيّ ـ لقد احتفظت بصوتها الذي لم يمسّ، كما كان في ذاكرته الرخيم السليم كصوت مراهقة.

شرحت فيرولا بجفاف قائلة: «هذا بسبب الرائحة. إنها تنتبه لنفسها».

ورفع إيستيبان غطاء السرير من النسيج الدمشقي الممزق فاكتشف ساقي أمّه. كانا عمودين ضاربين إلى البنفسجي، مصابين بداء الفيل، غطتهما القروح التي عششت فيها الديدان ويرقات الذباب وحفرت أروقة، ساقان انتنتا وهما حيّتان وقدماها ضخمتان عى زرقة شاحبة، حرمتا من أظافر الأصابع، وحقنتا حتى لتنفجرا صديداً، ودماً مسودّاً. من تلك الحيوانات الدنيئة التي تغتذي من لحمك، من لحمك أنت أمّاه، يا إلهي، من لحمي نفسه.

قالت دونيا إيستير بصوت الصبية الهادئ: «يريد الدكتور أن يقطعهما لي يا بنيّ، لكنّي صرت عجوزاً على هذا، وأنا متعبة جدّاً من الألم، وأفضل لي أن أموت. لكني لم أرد أن أموت قبل أن أراك، لأني بعد كل تلك السنين، وصلت إلى الاعتقاد أنه أنت الذي مت، وأن أختك هي التي كانت تكتب رسائلك كي لاأتألم. قف في النور، يا بني، كي أراك جيّداً. يا إلهي! كأنّك متوحّشٌ حقيقيّ!

قال متمتماً: «إنها الحياة في الريف يا أمي.

ـ أخيراً! مازلت قويّاً. كم بات عمرك؟

ـ خمسة وثلاثين عاماً.

ـ أحسن عمر للزواج والاستقرار، كي أستطيع الموت بسلام.

اعترض إيستيبان قائلاً: «لن تموتي يا ماما!».

ـ أريد أن أتأكد من أني سيكون لي أحفاد، أحد ما يستمر فيه جريان دمنا، يحمل اسمنا. لقد فقدت فيرولا كل أمل بالزواج، أما أنت فيجب أن تبحث لك عن امرأة. زوجة تلائمك ومسيحية. وبالانتظار سوف تقصّ هذا الشعر وهذه الذقن، أتسمعني؟

وافق إيستيبان. وركع قرب سرير أمّه ودفن وجهه في يدها المتورمة، لكن الرائحة أكرهته على التراجع. فأمسكت بذراعه فيرولا وقادته خارج غرفة الأسى. فلما خرج، تنفّس عميقاً، ومازال منخراه مليئين بالرائحة، وأحس بالغيظ، ذاك الغيظ المألوف عنده يصعد فيه كموجةٍ حارقةٍ، فتحتقن منه عيناه، وتولج تجديف قرصان في فمه، الغيظ من كل هذا الوقت الذي مضى دون أن أفكر فيك، يا أمّ، الغيظ من أني تركتك، من أني لم أحبّك مايكفي، لم أدلّلك كما ينبغي، الغيظ من أني لم أكن سوى ابن قحبة بائس، لا، أطلب عفوك يا أمي، ليس لأنّي أردت أن أقول، ثم طزّ، وأنت تموتين، عجوزاً، ولاأستطيع عمل شيء، حتى ولاتهدئة أوجاعك، ولا أن أجنبك هذا النتن، ولاأن أخلّصك من هذه الرائحة التي يفرّ منها لواء، ولا أن أخرجك من طبخة هذا الموت وأنت تنضجين على نار هادئة، يا ماما.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة أسلمت الدونيا إيستير تروييبا آخر أنفاسها على سرير العذاب، حيث قاست آخر سنوات حياتها. كانت وحيدة، فقد ذهبت ابنتها فيرولا، كما في كل جمعة، إلى مدينة الهوى في حي الإحسان تسبّح بمسبحتها تحت أنف الفقراء، والكفرة، والمحترفات. والأيتام الذين يرمونها بالفضلات، ويفرغون عليها النونيات أو يبصقون عليها وهي راكعة في نهج

المدينة تزعق أبانا الذي وآفة ماريا في صلاة لاتنتهي، وهي تقطر من قذارات المغوضب عليهم، وبصاق الكفرة ونفايات القحبات وأقذار اليتامى، وهي تنشج آهات الذل، وتجأر بالمغفرة للذين يجهلون مايفعلون، ولو أنها تحسّ بعظامها تتراخى ونيَ مميتٍ يجعل ساقيها كقطنٍ، وبحرارة من أوج الصيف تنفث الخطيئة بين فخذيها، أبعد عني هذه الكأس أيها السيد، ويكوي بطنها بلهب الجحيم، آخٍ، نار القديسين، النار في أثري، أبانا لاتدعني أسقط في التجربة، يا يسوع.

لم يكن إيستيبان أيضاً إلى جانب الدونيا إيستير لما ماتت في صمت على سرير ألمها. كان في زيارة لآل ديل فاله كي يرى إن بقيت عندهم فتاة للزواج، لأنّه بعد غياب تلك السنين والحياة المتوحشة، ماكان يعرف من أين يبدأ كي يحترم وعده لأمّه بأن يمنحها أحفاداً شرعيين وأدى به التفكير إلى أنّه مادام سيفيرو ونيفيبيا قبلا به صهراً أيام روزا الجميلة، فليس من سبب يمنع قبوله من جديد، وبخاصة الآن وقد صار رجلاً غنيّاً لايحتاج إلى حفر الأرض كي ينتزع منها ذهبه، وإنما يملك كلّ مايحتاجه في حسابه بالمصرف.

ذاك المساء، وجد إيستيبان وفيرولا أمهما ميتة في سريرها. كانت تبتسم ابتسامة هادئة، كما لو أن المرض، في آخر لحظة من حياتها، أراد أن يجنبها تعذيبه اليومي.

في اليوم الذي طلب فيه إيستيبان تروييبا الموافقة عليه، تذكر سيفيرو ونيفيبيا الكلمات التي قطعت بها كلارا صمتها الطويل، حتى إنهما لم يدهشا حين سأل الزائر إذا كانت عندهم ابنة في عمر الزواج والاستعداد له. فحسبا حساباتهما وأعلنا له أن آنا ترهّبت وتيريزا مريضة مرضاً خطراً، وتزوجت الأخريات جمعهن، ماعدا أصغرهن كلارا، فهي في سن الزواج، لكنّها كائن غريب قليلاً، قليلة الأهلية للمسؤوليات الزوجية والحياة البيتيّة. وسردا له، بكلّ أمانة، شواذ ابنتهما الصغرى، وتجنّبا السكوت عن بقائها دون لفظ كلمة خلال نصف وجودها، وليس نتيجة لمانع ما، وإنما لأنّها عنّت لها هذه النزوة، وهو

ماكشفه جيّداً الروماني روستيبوف وأيّده الدكتور كويفاس بعد فحوص لاحصر لها. لكن إيستيبان تروييبا لم يكن بالرجل الذي يستسلم فينفر من حكايات الأرواح التي تتجوّل في الأبهاء، والأشياء التي تتحرّك بقوّة الروح وحدها، والطيرة، وأقلّ منه الصمت الطويل الذي ارتأى بأنّه فضيلة. وأعلن أن شيئاً من هذا لايكوّن تحذيراً من إنجاب أطفال شرعيين صحتهم جيّدة وطلب أن يتعرّف على كلارا. وقامت نيفيا لتأتي بابنتها، وبقي الرجلان في الصالون فانتهز تروييبا هذه الفرصة، في مثل عادته في الصراحة، وعرض فجأة وضعه الاقتصادي.

لكن سيفيرو قاطعه قائلاً: «لاتسرع هكذا يا إيستيبان أرجوك! انظر الفتاة أوّلاً، وتعرّف عليها جيّداً، ومن الواجب أن نحسب حساب رغبات كلارا، ألا ترى ذلك؟

ورجعت نيفيا ومعها كلارا، ودخلت الفتاة الصالون وأظافرها سوداء ووجنتاها حمراوان؛ كانت تعين البستاني في زرع درنات الدهلية ولقد أخطأتها بالمناسبة قوة حدسها كي تنتظر خاطبها في الوضع المنشود. لما رآها إيستيبان وقف منذهلاً. لقد بقيت له منها ذكرى الطفلة الهزيلة الربويّة، العاطلة عن كل كياسة، فإذا الفتاة الواقفة أمامه رصينة رهيفة من عاج، ملامحها في غاية الرقّة، جللتها كرة كستنائية من خصل ثائرة نفرت من المشط في ذؤابات صغيرة مجنونة، ولها عينان تتحوّل كآبتهما إلى بريق ساخر لما تضحك ضحكة صريحة، دون تحفّظ، ورأسها قليلاً إلى الخلف. حيته بقبضتها، دون أن تتظاهر بأيّ خجل. قالت ببساطة: «كنت أنتظرك».

قضوا ساعتين في شؤون المجتمع فتحدثوا عن الموسم الفنيّ وعن الرحلات إلى أوروبا والوضع السياسي، والزكام الشتوي، وشربوا خمراً ناضجاً، وتذوّقوا الرقاقات. بينما كان إيستيبان يسترق النظر إلى كلارا بكل ماهو أهل له من رصانة وهو يشعر أن الفتاة تغريه شيئاً فشيئاً. فلا يتذكر أنه اهتم يوماً هذا الاهتمام بأي كائن، منذ يوم المجد الذي رأى فيه روزا الجميلة وهي تشتري سكاكر باليانسون في متجر الحلوى في ساحة السلاح. وقارن بين الأختين

فوصل إلى الإستنتاج بأن كلارا تفوق في ميدان الكياسة، ولو أن روزا. دون أدنى شك كانت أجمل بما لايقاس. وهبط المساء فجاء خادمان فأوقدا الشموع وحرّكا الستائر؛ وأدرك إيستيبان أن زيارته طالت أكثر مما ينبغي. كان تصرفه لائقاً حتى ليشتاق المرء إليه. حيّي سريعاً سيفيرو ونيفيا ورجاهما السماح له بالعودة كي يرى كلارا.

وقال وقد احمرّ وجهه: «آمل ألّا أزعجك يا كلارا. أنا رجل صعب، فلاح، أكبر منك بما لايقلّ عن خمسة عشر عاماً. ولا أعرف كيف أتصرّف جيّداً مع فتاة مثلك».

سألت كلارا: «تريد أن تتزوّج بي؟» ولحظ لمعة سخر في بؤبؤيها البندقيّين.

صاحت أمها مروّعة: «يا إلهي، يا كلارا!. سامحها يا إيستيبان لقد كانت دائماً وقحة هذه البنت.

قالت كلارا: «أريد أن أعرف يا أمي فلا فائدة من ضياع الوقت».

ابتسم إيستيبان سعيداً قائلاً: «أنا أيضاً أحب الأشياء السافرة. نعم يا كلارا جئت من أجل هذا».

وأخذته كلارا من ذراعه فرافقته حتى العتبة. وعرف إيستيبان من آخر نظرة تبادلاها أنها قبلت به، فبات لايحس بنفسه من الفرح. وعندما اتخذ مكانه في العربة، ابتسم أيضاً، وهو يكاد لايصدق أنّه على مثل هذا الحظ، أو يفهم لماذا قالت له فتاة شهيّة لهذا الحد نعم دون أن تعرفه. كان يجهل أنّها قرأت قدره وأنّها استدعته بفكرها لهذه الغاية، وهي مستعدة للزواج دون حب.

أما بالنسبة لحداد إيستيبان ترويبا فقد تركا بعض الشهور تمرّ غازلها خلالها على الطريقة القديمة· عينها التي غازل بها روزا فيما مضى دون أن يعرف أن كلارا تكره الملبس باليانسون وأنّها تنفجر ضاحكة من تصنيع الشعر. وفي نهاية السنة، لدى اقتراب عيد الميلاد، أعلنا رسميّاً خطوبتهما في الجريدة

وتبادلا خاتم الإصبع بحضور بعض الأقرباء وحميم الأصدقاء، أي حوالى مئة في أقصى حد في وليمة تليق بيانتا جروبيل[1]. تلاحقت فيها صواني الدجاج الحبشي المحشو، والخنازير الرضع المحلاة، وثعابين البحار الباردة، وجراثان الكركند، والمحار الحي، وفطائر البرتقال والليمون الكرمليّة، أو باللوز والجوز الدوينيكية، أو بالشوكلاته والميرنغ الكلاريسية، وصناديق الشمبانيا الواردة من فرنسا بواسطة القنصل الذي كان يمارس التهريب بحماية حصانته الدبلوماسية، وكل ذلك خدم به وقدمته بكلّ بساطة خادمات البيت العجائز بوزراتهن السوداء التي كنّ يلبسنها في الأيام العادية حتى يُضْفينَ على الدعوة مظاهر اجتماع عائلي متواضع، لأنّ أقل إضافة تدّل على نقص في أدب السلوك، ينكره مثل خطيئة غرور اجتماعي ودلالة على ذوق فاسد، الميراث المتزمّت والكئيب نوعاً ما لذاك المجتمع الذي تسلسل من أشجع المهاجرين الباسكيين والكاستيلانيين. كانت كلارا تجلّياً أبيض من دانتيلا شانيتيّي ومن الكاميليا الطبيعية، والمشعّة، وكانت تعوّض كنعامة سنين الصمت التسع، ترقص مع خطيبها تحت الخيم، المرفوعة والفوانيس الملوّنة، وقد ابتعدت ألف ميل عن تحذير الأرواح وما توجّهه لها من إشارات يائسة من بين السجف، التي لاتراها في زحمة ذاك الجمهور. ولقد ظلّت حفلة تبادل الخواتم دون تبديل فيها منذ عهد الاستعمار. ففي الساعة العاشرة مرّ خادم بين الحضور وهو يرنّ جرساً صغيراً من كريستال فصمتت الموسيقى وتوقّف الرقص واجتمع المدعوون في الصالون الرئيسي. وألقى خوري ساذج، لبس زينة القداس الاحتفالي، خطبة مختلطة أعدّها فحضّ فيها على فضائل غامضة، مستحيلة. ولم تصغ إليه كلارا، لأنّها منذ اللحظة التي توقفت فيها ضجة الأوركسترا، والتحام أجساد الراقصين، استطاعت الإنصات إلى همس الأرواح بين الستائر وتبيّنت أنّها منذ ساعات لم تر بارّاباس. وبحثت عنه بنظرها، وقد استنفرت كل حواسها، غير أن ضربة مرفق لمرفق من أمها ذكّرتها بواجبات الحفلة. وانتهى الراهب من خطبته، وبارك الخاتمين، فوضع إيستيبان حالاً في إصبع خطيبته، ثم الآخر في إصبعه.

---

١ ـ رواية رايلي المشهور وبطلها الذين ذهب مثلاً بغرابة الأطوار.

في تمام تلك اللحظة، صدرت صرخة رعب ارتجفت لها الجماعة. وتراجع الناس، كي يفسحوا ممرّاً تقدّم فيه بارّاباس، في ضخامة وسواد لم يكن مطلقاً على مثلهما، وسكين لحام انغرزت حتى المقبض بين أضلاعه، وهو ينزف كثور، وقد طافت رجفة بقوائمه العالية كقوائم مهر، وخيط دم يسيل من حنكه، ونظرته غائمة من النزع، خطوة خطوة تقدّم يجرّ قائمة بعد أخرى، في سيردينوزور جريح متعرّج. وانهارت كلارا على أريكة الحرير الفرنسي. واقترب منها المولوسي[1]، فأراح رأسه الكبير رأس وحش عمره قرون، على ركبتيها وظلّ هكذا ينظر إليها بعينيه العاشقتين حتى أظلمتا لأياً فلأياً، حتى عميتا، فيما كانت دانتلا الشانيتي البيضاء، وحرير الأريكة الفرنسي والسجادة الفارسية حتى خشب الأرضية، تتبلّل دماً. فمات باراباس في بطء، وعيناه مسمّرتان على كلارا التي كانت تداعب له أذنيه وتتمتم له كلمات العزاء، حتى انتهى إلى أن انهار، وتصلّب في حشرجة عظيمة. وبدا على الجميع وكأنّهم استفاقوا من كابوسٍ صعب. وسرت في الصالون ضوضاء خائفة، وهمّ المدعوون بالاستئذان، ثم انسحبوا وهم يتجنبون رامات الدم، يأخذون خطفاً، لفحات الفرو، وقبعات الجوخ، وعصيّهم، ومظلاتهم، وحقائبهم المزينة بالزجاجيّات، ولم يبق في صالون الحفلة غير كلارا مع الحيوان في حرجها، وذووها يضمونها، وقد شلهم الفأل السيء، والخطيب الذي لم يفهم شيئاً من الإرتباك لأن كلباً مات، غير أنّه انتبه فجأة أنّ كلارا انقلبت رأساً على عقب فحملها بين ذراعيه وإلى غرفتهما حيث حالت عناية النونو وأملاح الدكتور كويفاس بينها وبين أن تنتكس في البلادة والخرس. وطلب إيستيبان تروييبا من البستاني أن يعينه فرفعا معاً إلى العربة جثّة باراباس الذي، إثر الموت، ازداد وزنه حتى أصبح رفعه شبه مستحيل.

وانقضى العام في إعداد العرس. واهتمت نيفيبا بجهاز كلارا، التي لم تبد

---

١ ـ كلب حراسة من بلاد المولوس.

أدنى اهتمام بمحتوى صناديق الصندل وثابرت على التدريب على المنضدة وأوراق لعب التنبؤ. ولقد كان من الأقمشة التي طرّزتها بالأبرة قبل عشر سنوات الراهبات من أجل روزا والتي وسمت وتداخلت فيها الحروف الأولى من ترويبيا وديل فاله، فاستخدمت في جهاز كلارا. وطلبت نيفيا من بوينوس آيرس وباريس ولندن، مجموعات ثياب للسفر، وبزات خاصة بالذهاب للريف، وزينات للأعياد، وقبعات آخر مودة، وأحذية وجزادين عظاية ووعل وغيرها من التوابع التي وضعت في رزم ورق حريري وحفظت بالكافور والخزامى دون أن تلقي عليها الخطيبة غير نظرة شاردة.

وضع إيستيبان ترويبيا نفسه على رأس فرقة من العمال، والنجارين والممدّدين الصحيين، كي يشيد أقوى بيت يمكن تصوّره، وأكثرها اتساعاً وأحسنها إطلالة، يقدّر له أن يدوم ألف عام ويؤوي عدة أجيال وسلالة عديدة من آل ترويبيا الشرعيين. طلب المخطط من معماريّ فرنسي وأتى بجزء من المواد من الخارج فكان بيته الوحيد الذي جهز بزجاج ألماني، وكسوة منقوشة في النمسا، وحنفيات برونزية بريطانية، وأرضية من مرمر إيطالي واشترى الأقفال من مصانعها في الولايات المتحدة، وقد وصلت مع طرق الاستعمال مقلوبة ودون مفاتيح. وجهدت فيرولا، وقد أرعبتها هذه المصاريف، أن تمنعه من متابعة جنونه في شراء أثاث فرنسي، وثريات بذوائب، وبسط تركية، متعللة أنهم يعدون إلى الخراب وأنّهم سوف يعيدون حكاية ترويبيا الغريب الأطوار الذي ولدهم، لكن إيستيبان بين لها بأنّهم، على ثروة تكفي للسماح بهذه النزوات وأنها إذا استمرت على مضايقته، فسوف يضع في كل مكان أبواباً ملبسة بالفضّة عندها زعمت أنّ مثل هذا الإسراف ليس سوى خطيئة مميتة، وأنّ الله الكريم سوف يعاقبهم بأن يحيل سقط أغنياء الحرب الذي ينبغي أن يتسخدم في رفد الفقراء مزيفاً لماعاً.

وبالرغم من أن إيستيبان ترويبيا لم يكن من أنصار الجديد المتحمسين، وإنما على العكس، كان يكنّ ميلاً عظيماً إلى تبديل الحديث، فقد قرّر أن يقام

مسكنه على مثال تلك القصور الصغيرة ذات الطراز الحديث في أوروبا وأمريكا الشمالية: يحوي كلّ الرفاه، مع المحافظة على الطراز الكلاسيكي. كان يتمنّى أن يكون أبعد مايمكن عن العمارة المحليّة. كان لايريد من تلك الباحات الداخلية وممرّاتها، وينابيعها الصدئة، وتلك الغرف المظلمة وجدران اللبن التي بيّضها الكلس، ولاتلك السطوح بقرميدها المتفتّت، وإنما طابقان أو ثلاثة جسور. ذات صفوف من أعمدة بيضاء، ودرج أميري يدور نصف دورة حول نفسه وينفذ إلى قاعة من مرمر أبيض، وفرج عريضة منيرة، وبوجه عام، هذا النظام المتحضّر، هذا التميّز، هذا المظهر المتمدن الذي هو طابع الأمم الأجنبية، تلائم منذئذ مع شكل حياته الجديد. بيته يجب أن يكون ظله نفسه، وسلالته، والنفوذ الذي ينوي أن يمنحه لاسم الأسرة الذي مرّغه أبوه في الطين. وكان يرجو أن يلاحظ ذاك البريق من الشارع ولهذه الغاية طلب رستم بستان على نموذج فرساي فيه عريشة كرمة عملاقة، وروضات زهور، ومرجة مقصوصة لاعيب فيها، ونوافير ماء وبعض تماثيل قصور آلهة الأولمب وربّما بعض هندي رائع تسلسل من التاريخ الأمريكي، عار العري كله ومتوج بالريش تعبيراً عن الوطنية. وماكان يتنبأ أنّ هذا السكن الجليل المربّع، المركز والوقح، الرّصين كقبعة التشريفات في محيطه الهندسي المخضرّ، سوف يؤول به الأمر إلى أن تغطيه الإلتصاقات والنواشذ، واقتحام أدراج متعرّجة تتّصل بأماكن خالية، وأبراج وبريجات، وكوى مستحيل فتحها، وأبواب تطل على الفراغ، وممرّات كالمتاهة، ومناور اتصال بين الغرف للثرثرة من غرفة لأخرى وقت القيلولة على هوى وحي كلارا، التي كلما احتاجت إلى إيواء ضيف جديد أمرت بـإعداد غرفة جديدة في المكان كذا أو كذا، أو، حين تنبئها الأرواح بوجود كنز مخبّأ، أو جثة مدفونة في الأساسات، تجعلهم يهدمون حائطاً، حتى لو حوّلت المسكن إلى متاهةٍ مسحورة، حتى لتستحيل العناية به، فيغدو مخالفاً لعديدٍ من قوانين تنظيم المدن والأنظمة البلديّة. غير أنّ الناس، في الحقبة التي بنى فيها تروييبا، كانوا يسمّونه «بيت الزاوية الكبير» وكان يصدر عنه ذاك الجلال الذي جهد في أن يطبع به كل مايحيط به، تعويضاً لذكرى حرمان طفولته. ولم تذهب كلارا

أبداً كي ترى البيت، طيلة زمن البناء. فقد كان يبدو عليها أن اهتمامها به قليل شأنه شأن جهازها واعتمدت في اتخاذ القرارات على خطيبها وأخت زوجها المقبلة.

وجدت فيرولا نفسها، بعد موت أمها، وحيدة، دون أمر مفيد تنذر له وجودها، وفي عمر لاتعلل النفس فيه بالزواج يوماً. ولقد دأبت، خلال بعض الوقت، يوميّاً على زيارة بيوت الهوى، في جنون إلى الإحسان جنت منه التهاب قصبات مُزْمِناً، دون أن يحمل أدنى سلام إلى روحها المعذّبة. وأراد إيستيبان أن تسافر، وأن تشتري ثياباً، وأن تتسلّى لأول مرة في حياتها الكئيبة، لكنّها تعوّدت التقشّف واحتملت طويلاً حياة العزلة بين جدرانها. كانت تخاف كل شيء. وكان يلقيها زواج أخيها في هوّة من القلق، لأنّها كانت تقول في نفسها إنّ ذاك سبب إضافي للنأي عند إيستيبان، الذي يظلّ سندها الوحيد. كانت تخشى أن تكره، على أن تنتهي أيامها وهي تغرز الصوف في ملجأ ما للعاجزات من بنات العائلات العلية، واكتشفت في فرح أن كلارا غير مؤهلة في كل مجالات الحياة العائلية وأنّها، في كل مرة يجب أن تتخذ فيها قراراً، تتكلف هيئة شاردة ومراوغة. واستخلصت فيرولا متهللة «إنها بهلاء قليلاً». وماكان إيستيبان ليشكّ بأن كلارا غير قادرة على إدراة السكن الذي يشيده وأنها بحاجة لعون جدّي. وتدّبرت فيرولا الأمر عبر تلميحات بارعة كي تعرّف أخاها بأنّ زوجته المقبلة ليست أهلاً لشيء وأنها نفسها بروح التضحية التي أثبتتها عن سعة تستطيع أن تعينها وأنّها مستعدة لذاك. وكان إيستيبان يحوّل مجرى الحديث منذ أن يأخذ هذا النوع من المنحى. وكانت فيرولا تستسلم لليأس بالقدر الذي يقترب فيه موعد الزواج وتجد نفسه مضطّرة لأن تقرّر مصيرها بنفسها وحين اقتنعت بأنها تصل إلى شيء من جهة أخيها، حاولت الحديث مع كلارا وحدهما: وحانت الفرصة يوم سبت بعد الظهر، حوالى الساعة الخامسة، إذ رأتها تتنزّه في الشارع. ودعتها لتناول الشاي في فندق فرانسا. وجلست المرأتان تحيط بهما الحلوى بالقشدة والخزف البافاري، فيما تعزف في آخر القاعة جوقة من الشابات كواتيور وتريّا حزيناً. وأخذت فيرولا تراقب خلسةً عروس أخيها المقبلة التي تبدو كأن لها خمسة عشر عاماً

وما استقر بعد صوتها، من أثر سنيّ الصمت؛ وماكانت تعرف كيف تأتي إلى الواقعة. وبعد وقفة لاحدود لها التهمتا فيها صينية من البتي فور ورشفت كل منهما فنجانين من الشاي مع الياسمين، أصلحت كلارا وضع خصلة شعر سقطت على عينيها وابتسمت وهي تربّت بضربة صغيرة محبّة على يد فيرولا. ثم قالت لها تلك المراهقة:

- لاعليك. سوف تعيشين معنا. وسوف نغدو نحن الاثنتين كأختين.

وانتفضت فيرولا، وهي تتساءل إذا لم يكن هنالك بعض من حقيقة في كل الأقاويل عن طاقات كلارا بالقراءة في أفكار الآخرين. وصدر أول رد فعل لها عن الغرور حتى لقد ودّت لو ترفض العرض، من أجل جمال البادرة ليس غير، لكن كلارا لم تدع لها الوقت. وانحنت عليها وقبّلتها في كثير من البساطة حتى أنّ فيرولا لم تستطع أن تمسك عن النحيب. ولقد انقضت سنون كثيرة لم تذرف فيها دمعةً واحدةً واندهشت حين لمست كم كانت بحاجة إلى مثل بادرة الحنان تلك. باتت لاتستطيع تذكر آخر مرة صدرت فيها عن أحدهم حركة عفوية نحوها. وبكت فترة طويلة. ارتاحت فيها من عبء الحزن والوحدة السالفين، بفضل يد كلارا تلك كانت تعينها في التمخّط وتلقمها بين نحيبين لقمات حلوى بالقشدة وجرعات شاي. وبقيتا تبكيان وتتكلّمان حتى الساعة الثامنة مساء، وفي نهاية ذلك اليوم، في فندق فرنسا، مهرتا ميثاق صداقة دام سنين عديدة.

حالما انتهى الحداد التالي لموت الدونيا إيستير، وبناء بيت الزاوية الكبير، تزوّج إيستيبان ترويبا وكلارا ديل فاله في إثر احتفال محتشم. وأهدى إيستيبان إلى خطيبته حلية ألماس وجدتها جميلة جداً ووضعتها في علبة حذاء، ونسيت حالاً أين خبّأتها. وسافرا في رحلة باتّجاه إيطاليا وبعد أربع وعشرين ساعة من الإبحار، أحسّ إيستيبان أنّه أكثر عشقاً من فتىً بكر؛ بالرغم من أنّ حركة الباخرة نقلت إلى كلارا دوار بحر يستحيل دفعه وأدّى الحبس إلى أزمات ربو. ولقد جلس عند سريرها في الحجرة الضيقة، يضع لها الكمادات الرطبة على

الجبين، ويسندها عندما تقيء، ويشعر أنّه سعيد في أعماقه ويشتهيها بحدّة في غير مكانها مادامت في حالتها الأليمة. وفي اليوم الرابع وجدت نفسها أفضل لما استفاقت وصعدا إلى ظهر السفينة كي يتأملا البحر. فلما رآها إيستيبان وقد احمرّ أنفها من الريح، وهي تضحك من كلّ شيء ومن أيّ شيء، أقسم أنّه سوف يصل عاجلاً أم آجلاً إلى حبّها لأنّه هو أيضاً بحاجة إلى أن يحبّ، ولو استخدم للوصول إلى ذلك أبعد الأساليب. كان يدرك أنّه لايمتلك كلارا حقّاً، وأنّها إذا استمرت على العيش بين الأشباح والمناضد التي تتحرّك وحدها وورق النفاذ إلى المستقبل فإنّ أقرب احتمال أنها لن تكون ملكه أبداً. كما أنّ شبقها الفاجر اللامبالي لم يكن كافياً له. كان يشتهي أكثر من جسده ويتوق إلى أن يغدو سيّد تلك الماهية الغامضة المنيرة التي خلقت منها في داخلها والتي كانت تفلت منه حتى في اللحظات التي تبدو أنّها تنازع من لذّة. كان يشعر أنّ يديْه أسمج، وقدميه أضخم، وصوته أقسى، وذقنه أخشن، وعاداته في الاغتصاب وبيوت الهوى أمكن في ذاته مما ينبغي، لكنه مصمّمٌ على أن يغويها، حتى ولو انقلب في داخله كما تنقلب كفّ اليد.

ورجعا من شهر عسلهما بعد شهور ثلاثة، كانت فيرولا تنتظرهما، هي والبيت الجديد الذي مازال يفوح برائحة الدهان والإسمنت الرطب، وقد امتلأ زهوراً وأكواباً ملأى بالفواكه كما أمرا إيستيبان. وفي لحظة المرور من العتبة للمرّة الأولى، أخذ إيستيبان زوجته بين ذراعيه. وعجبت أخته أنّها لم تكابد أية غيرة ولاحظت أن إيستيبان بدا وكأنه عاوده الشباب.

قالت لها: «لقد نجحت في الزواج».

وقادت كلارا كي تقوم بجولة المالكة. وخطرت هذه بنظرها حولها، وبالوتيرة المهذبة نفسها التي حيت فيها عند غروب شمس في أعالي البحر، وساحة سان مارك وحلية الألماس، لقد وجدت كلّ شيء جميلاً. ورجاها إيستيبان، أمام باب الغرفة المخصّصة لها، أن تغمض عينيها وقادها من يدها إلى منتصف الحجرة. وقال لها بلهجة مفتتن: «بوسعك أن تفتحي عينيك».

نظرت كلارا حولها. كانت حجرةً واسعةً، فرشت جدرانها بحرير

أزرق، أثاثها إنكليزي، ولها فرجات ذوات شرفات تطلّ على البستان، وسرير له حاجب وستائر يشبه فرقاطة تطفو على بحر هادئ من حرير أزرق.

قالت كلارا: «جميل جداً».

عندها، جعلها إيستيبان تلاحظ المكان عينه الذي وضعت فيه قدميها. كانت المفاجأة المدهشة التي خبّأها لها. فخفضت كلارا بصرها وأرسلت زعيقاً مخيفاً، كانت منتصبة على فقرات ظهر بارّاباس السوداء الذي اضطّجع وقوائمه ممدودة، بعد أن تحوّل إلى بساط، ورأسه سليم زيّنته عينان من بلور تتأمّلانها بهيئة الضياع الذي يؤدي إليه التحنيط، واستطاع زوج كلارا أن يمسك بها قبل أن تسقط أرضاً مغميً عليها.

قالت فيرولا: «قلت لك إنّ هذا لن يعجبها».

وأخرج جلد بارّاباس المدبوغ سريعاً من الغرفة ورمي في زاوية ما من القبو بين الكتب السحريّة في حقائب الخال ماركوس المسحورة وبين كنوز أخرى، حيث استطاع أن يدافع عن نفسه ضد العثّ، والإهمال في عناد جديد بالقضايا الكبرى، حتى جاءت أجيال أخرى وسحبته من هناك.

وبسرعة توضّح أن كلارا كانت حبلى. وتحوّل الحنان الذي تكنّه فيرولا لزوجة أخيها إلى شغفٍ حقيقيٍّ في تدليعها، وتفانٍ خالصٍ في خدمتها وتسامحٍ لاحدّ له أمام شرودها وشذوذها. وكان في عيني فيرولا، التي كرست وجودها للعناية بعجوز في حالة تدهور لا ردّ لها، كانت العناية بكلارا تحقيق مجد. كانت تجعلها تتحمّم حماماتٍ معطّرةً بالريحان والياسمين، وتمسدها بـإسفنجة، وتصوبنها، وتدلكها بماء الكولونيا، وتذرو عليها البودرة من شرابة من زغبر البجع، وتمشّط شعرها حتى تجعله ناعماً لامعاً مثل نبتةٍ بحرّيةٍ، كما كانت تفعل النونو من قبل.

قبل أن تهدأ غلّة العروس الجديدة، اضطّر إيستيبان ترويبا إلى العودة للماريات الثلاث حيث لم يضع قَدَماً منذ أكثر من عام، وقد كانت تتطلّب حضور الملاّك، بالرغم من عناية بيدرو جارسيا الصغير. وتبدّت له الآن الملكيّة،

التي كانت فيما خلا جنة عدنه وفخره، مملّة حتى الموت. وتأمل العبارات التي كانت بلا تعبير وهي تجتر في الحقول، وشغل الفلّاحين البطيء وهم يكرّرون كلّ يوم عبر حياتهم بطولها الحركات نفسها، ومشهد السلسلة المكللة بالثلج الذي لايتّبدل، وعمود الدخان الهزيل فوق البركان، وأحسّ بنفسه كأنّه سجينٌ.

وبينما هو في الريف، كانت الحياة في بيت الزاوية الكبير تتطوّر فتتكيّف حسب روتينٍ حلوٍ بلا رجالٍ. كانت فيرولا تستيقظ أوّلاً؛ فقد حافظت، منذ الفترة التي كانت تعنى فيها بأمّها المريضة، على عادة الاستيقاظ باكراً، لكنّها كانت تدع زوجة أخيها تنام إلى وقتٍ متأخّرٍ. كانت في قلب الصبيحة، تقدّم لها بنفسها الفطور في السرير، وتفتح سجف الحرير الأزرق على مداها كي تفسح للشمس فتدخل من الفرجات الزجاجيّة، وتملأ مغطس الخزف الفرنسي المزين برسم النيوفر، فتمنح هكذا الوقت لكلارا كي تنهض من النوم وهي تحيي بالترتيب كلّ الأرواح الحاضرة، قبل أن تسحب إليها الصينية وتبلّ خبزها المحمص بالشوكولا بالقشدة. وكانت فيرولا تخرجها من السرير فتحيطها ببعض عناية الأم، بينما تعلق لها على أخبار الجريدة الطيّبة، التي ماتفتأ تقلّ يوماً بعد يومٍ، حتى لقد اضطّرت إلى ردم تلك الثغرة بقالٍ وقيلٍ عن الجيران، وبعض الأحداث البيتية الهيّنة، ومختلف الطرف من اختراعها مما كانت تجده كلارا جميلاً جدّاً إلّا أنّها تنساه بعد دقائق خمسٍ، حتى لقد ساغ أن تروى لها الملحة نفسها مرات عديدة، وكانت تسرّ بها وكأنّها المرّة الأولى.

كانت فيرولا تأخذها للنزهة كي تتشمّس، فذلك حسن من أجل الصغير، وتقوم بالمشتريات حتى إذا ولد الصغير لم ينقصه شيء، ويلبس أنعم مايوجد؛ وكي تتغذّى في نادي الجولف حتى يرى كلّ الناس كم أصبحت جميلة. منذ تزوجها أخوها؛ وتزور أهلها كي لايذهب بهم الظن أنها نسيتهم؟ وإلى المسرح كي لاتظل طيلة النهار سجينة البيت، وكانت كلارا تسلم أمرها في تراخ ليس هو ضعف عقل، وإنما ذهولٌ، لأنّها تستخدم كلّ ملكاتها في التركيز في محاولات اتصال تليباثية مع إيستيبان دون طائل، لأنّ هذا لم يكن يستقبل الرسائل الموما إليها، وفي تحسين مواهبها فوق الحدسيّة.

مهما استقصت فيرولا بذاكرتها، فإنّ تلك هي المرة الأولى التي تحسّ فيها أنّها سعيدة. كانت أقرب إلى كلارا مما كانت من أيّ شخص آخر، حتى من أمها. ولو أنّ كائناً أقل طرافةً من كلارا لآل إلى أن يتعب من مداعبات أخت زوجها المبالغة ومودتها الدائمة، أو أن يستسلم لمزاجها الشمّام المسيطر. لكنّ كلارا كانت تعيش في عالمٍ آخر. وكانت فيرولا تكره اللحظة التي يرجع فيها أخوها من الريف فيقتحم حضوره البيت ويحطّم الإنسجام الذي تمكّن في غيابه. لأنّها، حين يكون في البيت، يجب عليها أن تبقى في الظلّ، وأن تبدو أكثر تحفظاً في خطابها للخدم، وكما في الاهتمام الذي تغدقه على كلارا. كانت كلّ مساء، في اللحظة التي ينسحب فيها الزوجان إلى جناحهما، تحسّ أنّها يقتحمها نوعٌ من الحقد المجهول الذي لاتستطيع تفسيره لنفسها والذي كان يملؤها بحوافز مشؤومةٍ. فكانت، حتى تسلو، تستأنف عادة كرّ سبحتها في بيوت الهوى والاعتراف عند الأب أنطونيو.

ـ أحبيك يا مريم الممتلئة نعمةً..

ـ مريم البرّة الخالدة العذريّة.

ـ أنا أصغي إليك يا ابنتي.

ـ لاأعرف يا أبتِ من أين أبدأ. أعتقد أني ارتكبت خطيئة..

ـ خطيئة جسد، يا ابنتي؟

ـ ياللأسف! الجسد دون مسبّة، يا أبتِ، أمّا الروح، فلا. إنّ الشيطان يعذّبني.

ـ إنّ المغفرة الإلهية لانهائية.

ـ إنّك لاتعرف الأفكار التي يمكن أن تسكن عقل امرأة وحيدة، يا أبتِ، عذراء لم تعرف الرجل يوماً، وليس لأنّ الفرص أخطأتها، وإنّما لأنّ الله أنزل بأمي مرضاً طويلاً فوجب علي أن أعنى بها.

ـ هذه التضحية مسجّلة في السماء، في سفر كبير يا ابنتي.

ـ حتى ولو كانت هنالك خطيئة في الفكر يا أبي؟

ـ يعني أنّ كلّ شيء متعلقٌ بالفكر.

ـ في الليل، لاأستطيع أن أجد النوم، أختنق. أنهض، كي أهدّئ نفسي وأمشي في البستان، أضلّ عبر البيت، أصعد حتى غرفة زوجة أخي، ألصق أذني بالباب، أدخل أحياناً على أصابع قدميّ كي أراها نائمة، كأنّها ملاك، ويأتيني إغراء بأن أنزلق في سريرها كي أحسّ حرارة جسدها ونفسها.

ـ صلّي يا ابنتي. إن النجدة في الصلاة.

ـ أنتظر، لم أقل لك كلّ شيء! إني أخجل..

ـ يجب ألّا تخجلي أمامي، فما أنا سوى أداة عند السيّد.

ـ وعندما يعود أخي من الريف يغدو الأمر أسوأ، يا أبتِ. الصلاة لاتنفعني في شيء، لاأقدر أن أطبق عيني. أتعرّق. أرتجف. وفي النهاية أنهض وأجوب البيت كلّه في السواد، أنساب على طول الممرّات بألف احتياط كي أتجنّب صريف خشب الأرضية. أسمعها عبر باب الغرفة، مرة واحدة استطعت أن أراهما لأن باب الغرفة بقي مشقوقاً. وليس هذا خطأ كلارا، فهي بريئة كطفلٍ صغير. أخي هو الذي يدفعها. إنّه يقيناً إلى الجحيم.

ـ الله وحده هو الذي يمتلك القضاء والحكم يا ابنتي. ماكانا يفعلان؟

كان بوسع فيرولا ساعتها أن تطيل نصف ساعة في التفاصيل. كانت راوية باهرة، تعرف كيف تتدّبر الوقوف، وتوّجه الأداء، وتشرح دون حركات، وتركّز لوحةً فيها من الحيوية حتى ليشعر سامعها أنّه منها، لقد استطاعت حتى لايصدق المرء أن تميّز من الباب المشقوق نوع الاهتزازات التي صدرت، وغزارة النسغ، والكلمات التي تمتمت في الأذن، وأشدّ الروائح سريّة ـ معجزة، في الحقيقة. وما أن تتحرّر من حالات النفس المضطربة تلك، حتى تعود إلى البيت وقد وضع قناع الوثن الجامد القاسي، واستأنفت بكلّ قوتها إعطاء الأوامر، وعدّ الصحاف، وتحضير الوجبات، وتقفل على كلّ شيء، وتأمر ضعوا لي هذا هنا، فيوضع، وجددوا لي زهور المزهريّات، فتتبدل، واغسلوا لي الزجاج، وسمّروا لي مناقير طيور الجحيم تلك لأنّ ضجيجها يمنع السنيورا كلارا من النوم ولأنّ

عقعقتها تخيف الطفل حتى ليمكن أن يولد مذعوراً. ماكان يفلت شيء من عينيها اليقظتين، وماكانت تنقطع عن ضجيجها، على عكس كلارا التي كانت تجد كلّ شيء جميلاً والتي كان يتساوى لديها عشاء كمأة محشوة وشوربة طبخت مع البقايا، والنوم على فراشٍ من ريش أو وهي جالسة على كرسي، أن تغتسل بالمياه المعطرة، أو ألّا تغتسل أبداً. وكانت بالقدر الذي ينضج حملها، يبدو عليها أنها تنفصل دون اختيار عن الواقع الخارجي وتلتفت إلى داخلها في حوارٍ سريٍّ ودائم مع الطفل.

كان إيستيبان يريد إبناً يحمل اسمه وينقل إلى سلالته كنية آل تروييبا.

ـ إنها ابنة وتدعى بيانكا، قالت كلارا في اليوم الأول حين أعلنت أنها حبلى.

وهذا ماتمّ.

قدر الدكتور كويفاس، الذي آلت كلارا إلى ألّا تخاف منه، أنّ الوضع سوف يحدث حوالى نصف تشرين الأول، لكنّ كلارا استمرت في أول تشرين الثاني ترجّح بطناً ضخماً وهي في حال نصف منوّمة، وتزداد يوماً بعد يوم غياباً وإجهاداً، وربواً، ودون اهتمام بكل مايحيط بها، ومنه زوجها فقد كان يحدث لها ألا تعرفه، وكانت تسأله حين تراه إلى جانبها: «ماذا يقدّمون لك؟» ومنذ الوقت الذي أقصى فيه الطبيب كل إمكانات الخطأ في حساباته وبات واضحاً أنّه لم تكن لدى كلارا أيّة نية في الولادة بالطريق الطبيعي، عمد الممارس إلى فتح بطن الأم كي يخرج منه بيانكا التي تبين أنّها طفلة أكثر شعراً وبشاعة من الوسط وبرد ظهر إيستيبان لما رآها، واقتنع أن القدر لعب به وأنّه بدلها وفي مكان التروييبا الشرعي الذي وعد به أمّه على فراش الموت، أنجب مسخاً، وزيادة على ذلك، من جنس النساء! وفحص بنفسه الصغيرة وتحقّق من أنّها لديها كلّ مايلزم، وأنّ كل شيء في المكان المناسب، أو على الأقل، مايمكن أن تراه العين المجرّدة. وعزّاه الدكتور كويفاس بأن شرح له أنّ منظر الوليدة المنفّر راجع إلى واقعة أنّها أقامت زمناً أطول من الطبيعة داخل أمّها، وإلى صدمة القيصريّة وإلى بنيتها الهزيلة، النحيلة وأنّها سمراء وشعراء قليلاً. أما كلارا، فعلى

العكس، كانت فرحة بابنتها. وبدا عليها أنّها تستيقظ من غفوٍ طويل، وتكتشف في فرح أن تكون حيّة. أخذت البنيّة بين ذراعيها ولم تدعها بعد بتاتاً، بخطر والطفلة معلّقة على ثديها، تُعطيها كي ترضع في أية لحظة، دون ساعة محدّدة، ودون مراعاة للتهذيب أو الخفر البسيط، وكأنّها بلديّة. ورفضت تقميطها، أو قص شعرها، أو فتح ثقبين في أذنيها، أو أن تستأجر مرضعة تربيّها، وأكثر من ذلك أن تلجأ إلى حليب مختبر ما، كما كانت تفعل كلّ البورجوازيات اللائي كن يستطعن أن يدفعن ثمن هذا الترف. وردّت وصفة النونو التي تقضي بـإعطائها حليب بقرة مرقق بماء الأرز وأفتت بأنّ الطبيعة لو أرادت أن تربّي الكائنات البشريّة هكذا لتدبّرت أمرها بأن تفرز أثداء النساء هذا النوع من المزيج. وماكانت كلارا تتوقّف عن الكلام مع البنيّة دون أن تعمد إلى خلط الكلام أو التصفير أو إلى إسبانية شوهاء، وإنّما كما تحاور بالغاً، الطريقة الحكيمة المتزّنة نفسها التي تحدث بها البهائم والنباتات، ولقد كانت قانعةً بما أنّها لم تشكُ من النتيجة مع الحيوان والنبات، أنّه لامانع من التفكير بأنّها لن تكون أقلّ أثراً عند ابنتها. ولقد كان للتنسيق بين حليب الأم والحديث فضل تحويل بيانكا إلى طفلةٍ سليمةٍ وتقريباً جميلة ليس بينها أيّة علاقةٍ وبين التاتو[1] الذي كانت ذاته لما جاءت العالم.

استطاع إيستيبان أن يلاحظ بعد ميلاد بيانكا بعدة أسابيع، إبان لهوهما على ظهر فرقاطتهما فوق بحر الحرير الأزرق الهادئ، أنّ الأمومة لم تفقد زوجته اللذّة والاستعداد الجيّد لممارسة الحبّ، وإنّما على العكس. أمّا من جهة فيرولا، التي انغمست بتربية الطفلة ـ التي كانت طاقتها الرئوية هائلةً، ومزاجها عصبياً وشهيتها نهمةً ـ فباتت لاوقت لديها للذهاب إلى بيوت الهوى، والاعتراف إلى الأب أنتونيو وأقلّ من ذلك التجسّس عبر شقّ الباب.

---

١ ـ حيوان مدرع من آكلات النمل.

الفصل الرابع

زمن الأرواح

في الوقت الذي يلبس أكثر الرضع الحفاظات ويتحركون على أربع قوائم، ويثغثغون ببراءتهم ويريلون ما استطاعوا، كانت بيانكا لها هيئة قزمة موهوبة بعقل، تمشي بين بين لكن على ساقيها، وتعبّر تعبيراً صحيحاً. وتأكل وحدها، نتيجة للطريقة التي عاملتها أمّها بها على مستوى الكبار. ولقد ظهرت كل أسنانها وبدأت تفتح الخزائن لتشعّث مافيها، ولما قرّرت العائلة أن تقضي الصيف في الماريّات الثلاث التي لاتعرفها كلارا إلّا عن قال وقيل. وفي تلك المرحلة من حياة بيانكا كان حب الإطلاع أقوى من غريزةٍ حفظ النوع وماكانت تعرف فيرولا كيف تفعل، كانت تركض وراءها كي تجنبها السقوط من الطابق الأول أو أن تغور في الفرن أو أن تبتلع الصابون. وكانت تبدو لها فكرة السفر إلى الريف مع الطفلة خطرة، مقلقلة، وغير ضروريّة، مادام إيستيبان يستطيع أن يتدبّر أمره وحده في الماريات الثلاث، فيما يستمتعن بحياةٍ متمدنةٍ في العاصمة. غير أن كلارا كانت تهتاج حماساً. ويبدو الريف لها شيئاً رومانتيكياً، والسبب أنّها لما تضع قدماً في إسطبل كما تقول فيرولا. وشغلت استعدادات السفر العائلة أكثر من أسبوعين وازدحم المسكن بالصناديق والحقائب والقفف. ولقد وجب أن يستأجروا حافلة خاصّة من القطار لنقل هذا المتاع الذي لايصدق، مع الخدم الذين قدّرت فيرولا أنّهم لايستغنى عن أخذهم

إضافة إلى أقفاص الطيور التي لم تشأ كلارا أن تهرجها وصناديق ألعاب بيانكا التي امتلأت، بمهرّجين ميكانيكيين، وتماثيل خزفيةٍ، وحيواناتٍ عليها مخملٌ، وراقصاتٍ على حبلٍ، وعيياتٍ بشعر حقيقيٍ ومفاصل بشريةٍ تسافر ومعها حجر ثيابها، وسياراتها وأوانيها الشخصية. وأحسّ إيستيبان أنّه لأول مرة في حياته تسبقه الأحداث، حين تأمّل تلك الكتيبة الضالّة وقد توتّرت أعصابها وضجيج كل هذا الطاقم، وبخاصة لما اكتشف بين المتاع القديس أنطوان بالحجم الطبيعي وعينين حولاوين وصندلين من جلدٍ مضغوطٍ. وتفحّص تلك الفوضى التي تحدق به، فأسف بمرارة لقراره بالسفر مع المرأة والولد، وتساءل كيف يستطيع وحده دون أن يحتاج غير حقيبتين كي يتفرّغ للعالم بينما هما الاثنتان وجب أن تأتيا بكلّ هذه العدّة من الأسمال وذاك الموكب من الخدم الذي لاعلاقة له في غاية هذه الرحلة.

في سان لوكاس أخذوا ثلاث عرباتٍ سارت بهم إلى الماريات الثلاث وكأنّهم غجر تغطيهم غيمة غبار. وفي ساحة الملكية كان ينتظرهم كلّ الفلاحين وعلى رأسهم الوكيل بيدرو جارسيا الصغير، كي يرحّبوا بمجيئهم. ولدى رؤيتهم هذا السرك المتنقل ينزل فغروا أفواههم. وأخذوا، تنفيذاً لأوامر فيرولا يفرغون العربات، ويدخلون الأشياء إلى البيت. ولم يعر أحد انتباهه إلى طفل يكاد يكون في عمر بيانكا نفسه، عار كدودة، قذر، انتفخت بطنه من الطفيليات، وقد وُهِبَ عينين سوداوين رائعتين لهما نظرة شيخ. كان ابن الوكيل الذي كانوا يسمّونه، تمييزاً له عن أبيه وجدّه، بيدرو الثالث جارسيا. وفي زحمة الاستقرار العامة، وجولة في البيت والتنقيب في بستان البقول، وقولة مرحباً للسكان وإقامة هيكلٍ للقديس أنطوان، وطرد الدجاج من الأسرّة والجرذان من الخزائن، تخلصت بيانكا من ثيابها ونهدت تطفر مع بيدرو الثالث في أبسط زينة. ولهواً بين الرزم، وانزلقا تحت الأثاث، وبلل كلٌّ منهما الآخر بالقبل اللعابية، ومضغا الرغيف نفسه، ونخرا المخاط نفسه، وتدهنا بالبراز نفسه، وناما أخيراً وكلٌّ منهما بين ذراعي الآخر تحت طاولة غرفة الطعام. وهناك اكتشفتهما كلارا عند الساعة العاشرة مساء. لقد بحثوا عنهما ساعات على ضوء المشاعل،

ووزع الفلاحون زمراً فجابوا حوافي النهر، والأهراء، والحقول والإسطبلات، وتضّرعت فيرولا على ركبتيها للقديس أنطوان، وناداهما إيستيبان بقدر مايستطيع، وحشدت كلارا عبثاً مواهبا في التنبؤ. ولما وجدوهما، كان الصبي مستلقياً على قفاه على الأرض وبيانكا متكورة قربه، واضعة رأسها على بطن صديقها الجديد البارز. بهذا الوضع سوف يفاجآ أن بعد عديد من السنين، لبؤسهما معاً ولن يعيشا بقيّة حياتهما مايكفي لدفع الثمن.

فهمت كلارا من اليوم الأول، أنّ هنالك متّسعاً لها في الماريّات الثلاث، وأحسّت، كما سجلّته في دفاترها عن الحياة، أنّها آلت إلى اكتشاف رسالتها في هذا العالم الدنيء. لم تدع نفسها تتأثر ببيوت القرميد، ولا بالمدرسة أو غزارة الغذاء، لأنّ قابليتها في استكناه اللّامرئي كشفت لها حالاً عن الحذر، والخوف، وضغينة العمال وتلك الهمهمة الخفيّة التي تسكت عندما تدير رأسها، ومكّنتها من أن تخرج عدداً من الأشياء من مخبئها، لها علاقة بطبع وماضي زوجها. لقد تغيّر الملاك على كلّ حالٍ. وقد لمس كل امرئ أنّه انقطع عن الذهاب إلى القنديل الأحمر، وانتهت سهرات المجون، ومعارك الديكة، والرهان بالمال، وسورات غضبه العنيفة، وبخاصة، عادته المؤسفة في قلب البنات في حقول القمح. وعزي الفضل إلى كلارا. ومن جهتها هي أيضاً تغيّرت. لقد أقلعت بين يوم وغده، عن فتورها، وتوقفت عن رؤية كل شيء جميل، وبدت كأنّها شفيت من هوس الكلام مع كائنات لاتُرى وتحريك الأثاث بوسائل فوق طبيعية. كانت تفيق فجرا مع زوجها، فيلبس كلاهما، ويشتركان بفطورهما، ثم يذهب إيستيبان لمراقبة أعمال الحقول، بينما تهتّم فيرولا بالبيت، وبخدم العاصمة الذين لم يتأقلموا على ضيق العيش وعلى ذباب البراز البرّي، وكذلك، بالطبع، بيانكا. وكانت كلارا تقسم وقتها بين معمل الخياطة. والدكان، والمدرسة التي جعلت منها مركز قيادتها كي تدهن مراهم ضد الجرب، والبرافين ضد القمل، وكي تنتزع من كتاب الهجاء أسراره، وتعلّم الأطفال الغناء عند بقرة حلوب، وليس عند بقرة لاتغني ولاتسمن، والنساء كيف يغلين الحليب، والعناية بالزحار وغسل الغسيل. وعند العصر، قبل أن يعود الرجال من الحقول، كانت فيرولا تجمع الفلاحات وأبناءهن كي يسبّحوا. وكانوا يأتون عن ود أكثر

منه عن إيمان، فيعطون للعانس فرصة تذكرها بالعصر الذهبي في بيوت الهوى. وكانت كلارا تنتظر ريثما تنتهي أخت زوجها من صلواتها الصوفية (كآبانا الذي في السموات وآفة ماريا) وتستفيد من هذا الاجتماع كي تكرر الشعارات التي سمعتها من فم أمها عندما كانت هذه تقيّد نفسها بوجودها إلى مصبغة المؤتمر. وكانت النساء يصغين إليها مبتسمات، منزعجات قليلاً للسبب نفسه الذي كن يصلين لأجله مع فيرولا: كي لايخالفن السيدة. لكن كل هذه الجمل اللّاهبة كانت تبدو لهن قصص مجانين. واحتججن قائلات «لم نشاهد يوماً في الحياة رجلاً لايستطيع ضرب امرأته، إذ لم يضربها فإنه لايحبها، أو أنه ليس حقيقة رجلاً؛ أين رؤي أنّ ما يجنيه الرجل، أو ماتعطيه الأرض أو ماتبيضه الدجاجات يذهب إلى الاثنين، إذا كان هو الذي يأمر؛ وأين رؤيت امرأة قادرة على أن تفعل الأشياء نفسها مثل الرجل إذا كانت ولدت على غير ما ولد الرجل من أعضاء أليس كذلك يا دونيا كلارا؟» ويئست كلارا. وكن يلكزن بعضهن بعضاً بالمرافق مبتسمات، خجلات، وأفواههن سقطت أسنانها وعيونهن تجعدت وقد سفعتهن الشمس، وحياة الكلب هذه، وهن يعرفن مقدّماً أن لو أتتهن الفكرة السخيفة بتنفيذ نصائح السيدة عمليّاً، لضربهن أزواجهن ضرباً. وهو مايستحققنه مؤكّداً، كما تذهب إليه فيرولا نفسها.

وبعد بعض الوقت وصل لإيستيبان نبأ الجزء الثاني من اجتماعات الصلاة وغضب. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يغتاظ فيها من كلارا والمرّة الأولى أيضاً التي تراه في سورة الغضب. كان إيستيبان يجعر كمجنون، يقطع قاعة الجلوس في خطوات واسعة ويخبط بقبضته على الأثاث، معلناً أنّ كلارا إذا كانت لديها فكرة السير على خطى أمّها، فإنّها واجدة في طريقها فتوة ينزل لها سروالها ويضربها علقة ينتزع بها تلك الرغبات الشيطانية بالخطابة بالناس، وأنه سيمنع قطعاً اجتماعات الصلاة أو أيّ هدف آخر وأنّه هو إيستيبان ليس من البلهاء الذين تستطيع نساؤهم أن تجعلهم هزأة. فتركته كلارا يصيح ويجلد بضرباته الأثاث حتى تعب، ثم سألته وهي شاردة على عادتها دائماً، إن كان يعرف كيف يحرّك أذنيه.

طالت العطلة وتتالت الاجتماعات. وانتهى الصيف، وغطّى الخريف

الحقول بالنار والذهب فحوّل المنظر. وحلّت أوائل أيام البرد، المطر والوحل، دون أن تبدر عن كلارا إشارة في الرغبة بالعودة إلى العاصمة بالرغم من ضغوط فيرولا الملحة التي كانت تمقت الريف. وهي التي كانت تشتكي أيام الصيف بعد الظهريات القائظة وطرد الذباب، وأعاصير الغبار في الساحة التي تقتحم البيت الذي يعيشون فيه كما في بئر منجم، وماء المغطس الآسنة حيث تتحوّل الأملاح المعطّرة إلى حساء صينيّ، وبنات وردان الطائرة التي تندسّ بين الأغطية، وقوافل الجرذان والنمل، والعناكب التي تتخبّط في كأس الماء على خزانة السرير، والدجاجات الصفيقة التي تبيض في الأحذية وتزرق على غسيل الخزانة الناصع. ولما تغيّر المناخ نزلت بها كوارث أخرى تشكو منها، وحلّ الساحة، وقصر النهار، فقد كانت تسودّ الدنيا في الساعة الخامسة ولايبقى من عمل إلّا الاستعداد لمواجهة ليلة طويلة في الوحدة، والريح والزكام الذي تكافحه بكمادات الأوكاليبتوس دون أن تقدر على دفعه من أن يخلّف أحدها الآخر في سلسلة عدوى لاتنتهي. باتت لاتطيق الكفاح ضد العناصر، دون أية سلوى غير رؤية بيانكا تكبر ولها هيئة آكلة لحم البشر، كما كانت تقول عنها، وهي تلعب مع ذاك الأزعر القذر بيدرو الثالث، وتلك حقّاً ثالثة الأثافي ألّا تجد البنت أحداً من طبقتها تختلط به، ولقد كانت تتعوّد عاداتٍ سيئة، إذْ كانت تمضي بوجنتين ملوّثتين بالوحل وعلى ركبتيها قشرتان «انظروا كيف تتكلّم، كأنها هنديّة، لقد تعتبت من التفتيش عن القمل في رأسها وأن أضع لها زرقة الميتيلين على جربها». ولقد حافظت، بالرغم من احتجاجاتها، على وقارها القاسي، وجديلتها التي لاتتغيّر، وحزمة المفاتيح المعلّقة على خصرها، وكانت لاتتعرّق ولاتحكّ أبداً، بلْ تتعطّر دائماً بعطرٍ خفيفٍ من الخزامى والليمونيّة. ولم يذهب بأحد الظن يوماً إلى أن شيئاً ما يمكن أن يفسد سيطرتها على نفسها، حتى اليوم المشهور الذي أحسّت فيه بمثل لدغة على ظهرها. كان الأكلان شديداً حتى أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الحكّ علناً، دون أن يخفّف عنها مع ذلك. وانتهت إلى أن ذهبت إلى الحمّام، ونزعت مشدّها الذي تبقيه عليها حتى في أيام العمل الضخم. وفي اللحظة التي حلّت فيها الشرائط سقط أرضاً

جرذ أحمق بقي هناك كلّ الصباح، يحاول عبثاً أن يزحف نحو المخرج، وهو محصور بين قوائم المشدّ القاسية ولحم صاحبته المضغوط. وعانت فيرولا أوّل أزمة عصبية في حياتها. وأسرع الجميع على صراخها، فوجدوها في المغطس، شاحبة من الرعب، ومازالت نصف عارية، تصيح صياح مجنونة، وتدل بسبّابةٍ راجفةٍ على القاضم الصغير الذي يجتهد للوقوف على قوائمه ويبحث عن مكان أمين يلجأ إليه. عندها قال إيستيبان إنّها سنّ اليأس ولاضرورة للاهتمام بها. كان يومئذ ميلاد إيستيبان. ولقد بزغت الشمس منذ فجر ذاك الأحد، وسادت في البيت حركة كبيرة، لأنها المرّة الأولى التي يحتفل فيها في المارّيات الثلاث منذ الأيام المنسية التي كانت فيها ماتزال الدونيا إيستير فتاةً صغيرةً. ولقد دُعي عدة أقرباء وأصدقاء قاموا بالرحلة في القطار من العاصمة، وكل ملاكي المنطقة، دون نسيان وجهاء القرية. وأعدت الوليمة قبل أسبوع، نصف خنزير مشوي على السفود في الباحة، وبرنيّة كلي، وطيور مقليّة، وذرة بالصاصة، وفطائر بالمهلبيّة والزعرور، مسقية بأحسن نبيذ من آخر قطاف. وعند الظهر بدأ المدعوون بالوصول في عربات أو على ظهور الخيل، وامتلأ بيت الآجر بالأحاديث والضحك. واختفت فيرولا قليلاً لتندفع في الحمام، وهو مرحاض واسع ينتصف المقعد في وسطه وقد أحيط بمنطقة حرام من الخزف الأبيض. كانت جالسة على هذا المقعد المنعزل كأنه عرش عندما فتح الباب واندفع أحد المدعويين، وماكان غير قاضي المدينة وقد حلّ أزرار بنطاله، وهو ثملٌ قليلاً من فاتحات الشهيّة. حتّى إذا اكتشفت العانس، ظلّ مدهوشاً من المفاجأة والإرتباك، وحين صار قادراً على الاستجابة، كان الشيء الوحيد الذي ورد في ذهنه أن يتقدم بابتسامة مقلوبة، فيقطع الحجرة، ويمدّ يده ويحييها بانحناءة رأسٍ خفيفة.

قال يقدّم نفسه: «زورو بابل بيانكو خماسميّة، في خدمتك».

«يا إلهي، كيف يمكن العيش بين أناسٍ غلاظٍ إلى هذا الحد؟ إذا كنتما تتمسكان بالبقاء في مظهر المتوحشين هذا، فإنّي سوف أعود أنا إلى المدينة، لأنّي أود العيش كمسيحيّة كما عشت دائماً!»، جأرت فيرولا لما استطاعت رواية القصة دون أن تبدأ حالاً بالبكاء. لكنّها لم تسافر مطلقاً. كانت تأبى أن

تفترق عن كلارا، لقد وصل بها الأمر إلى تبجيل الهواء الذي تنفثه، وبالرغم من أنّها لم تواتها الفرصة لغسلها أو النوم إلى جانبها، فقد كانت تتدّبر أمرها كي تعبّر لها عن تعلقها بها بألف ملاطفة صغيرة تكرّس حياتها لها. هذه المرأة الفظّة قليلة المجاملة اتجاه الآخرين واتجاه نفسها كانت تتوّصل إلى أن تبدي لطفاً باسماً مع كلارا، وأحياناً يمتد إلى بيانكا. معها وحدها كانت تسمح لنفسها بالتّسليم لرغبتها الجارفة بالخدمة وبأن تغدو محبوبة، ومعها وحدها كانت تستطيع التعبير جهراً أو تلميحاً عن ميول روحها السريّة والجنونية. إنّها ماتوقفت عبر كذا وكذا من سنيّ الوحدة والنّكد، عن تنقية انفعالاتها، وتهذيب عواطفها حتى جعلتها قبضة من الأهواء المخيفة الرائعة تسكنها كلّها. ولم تكن مؤهلة يوماً للهزّات الضئيلة، والضغائن الدنيئة، ولا الحسد المكتوم، وأعمال البرّ البسيطة، أو المحبّة المطهّرة، والرقّة المهذّبة، أو الإحترام اليوميّ. كانت من تلك المخلوقات التي تولد من أجل عظمة حبّ وحيد، للحقد الجموح، والانتقام الرؤيوي[1]، وأسمى البطولة، لكنها لم تستطع أن تواكب بين قدرها ونزعتها الحالمة حتى الجنون، حتى انقضى هذا إلى كئيبٍ مسحوقٍ، بين حيطان غرفة مريضة، بين بؤس بيوت الهوى والاعترافات الملتوية حيث هلكت قليلاً قليلاً هذه المرأة العظيمة الغنيّة ذات الدم الحار التي خلقت للأمومة، والجزالة والحرارة والعمل. كان لها، في تلك الحقبة، حوالى خمسة وأربعين عاماً من العمر، وكانت بنيتها الرائعة، وأجدادها البعيدون العرب يمنحونها الهيئة المشعّة نفسها، وكانت بشعرها الحريري ومازال أسودَ، ولولا خصلة بيضاء على جبينها، وقامتها المتينة النحيلة، ومشيتها الحازمة الدالة على الصحة، غير أن صحراء حياتها كانت تجعلها تبدو أكبر من سنّها. عندي صورة لفيرولا أخذت لها في تلك السنين في أحد أعياد ميلاد بيانكا بلون سبيسيا غيرها الزمن غير أننا نتميزها بوضوح. إنها سيّدة مهيبة، لكنّ ابتسامة سخر واحدة على وجهها تفضح مأساتها الداخلية. ومن المحتمل أن تلك السنوات التي قضتها قرب كلارا كانت الوحيدة التي عرفت فيها السعادة، لأنّها ماستطاعت أن تفتح قلبها إلّا لكلارا. كانت هذه وعاء

---

١ ـ نسبة إلى رؤيا يوحنا.

أكثر انفعالاتها رقّة وكانت تستطيع أن تنقل إليها أضخم طاقاتها في التضحية والاحترام. ولقد تجرأت يوماً أن تفتح سريرتها لها ولقد كتبت كلارا في دفترها عن الحياة أنّ فيرولا تحبها أكثر مما تستحق، أكثر مما تستطيع أن ترد لها. وبسبب هذا الحب الطاغي لم تقرّر فيرولا أن تترك الثلاث ماريّات، حتى عندما ناء بها رزء النمل العملاق الذي بدت تباشيره في هرير عبر الحقول، كشبح مسود يسير سريعاً يلتهم كلّ شيء في طريقه، ذرة كان أم قمحاً، أم برسيماً، أم عبّاد شمس. رشوه بالنفط وأحرقوه، لكن عبثاً فقد ظهر على السطح ثانية بقوة جديدة. وطلوا جذوع الأشجار بالكلس الحيّ، لكن هذا لم يمنعه من تسلّقها والهجوم على الاجاص، والتفّاح والبرتقال، وكان يلج بساتين الخضرة ويلتقم الشمّام، ويقتحم الملبنة فيجدون الحليب في الصباح وقد حمض، وامتلأ جثثاً صغيرةً، ويتدخل في خمّ الدجاج فيلتهم الطيور حيّة، مخلّفاً وراءه أكوامَ ريشٍ وعظيمات يرثى لها. كان ينطلق في البيت، فيدخل الأنابيب، ويحتل النمليّة، فوجب استهلاك الأطعمة التي أعدت للتوّ، لأنّها ما أن تبقى بعض دقائق على الطاولة حتى يحضر في موكب وتطوي كلّ شيء.

ولقد كافحه بيدرو جارسيا الصغير بالماء والنار، فوزع اسفنجات بلّلها بعسل النحل حتى يجتذبه السُكّر جماعات، ويستطيع قتله دون أن تندّ عنه حركة، لكنّ هذا كله كان عبثاً. وذهب إيستيبان ترويبا إلى القرية ورجع محمّلاً بكلّ ماركات مبيدات الحشرات من سائلة وبودرة وحبوب وصبّها عن يمين وعن شمال كميّات وبدقة حتّى لايستطاع أكل الخضراوات التي باتت تسبّب قولنجات يتلوّى منها المرء. غير أنّ النمل استمر يصبّ ويتكاثر، ويزداد وقاحةً وحزماً. فذهب إيستيبان من جديد إلى القرية وأرسل برقية إلى العاصمة. وبعد أيام ثلاثة نزل في المحطة المستر براون وهو يانكي أخرق مزوّدٌ بحقيبةٍ سرّيةٍ فقدّمه إيستيبان على أنّه مهندسٌ زراعي مختصّ بمبيدات الحشرات. وبعد أن ابترد بـإبريق من نبيذ مع الفواكه المقطعة، فتح حقيبته على الطاولة، وأفرغ منها ترسانة أدوات ماروُيت من قبل، وأمسك بنملة وقام بفحصها بالمجهر زمناً طويلاً.

قال بيدرو جارسيا الصغير: «لماذا تضني عينيك فوقها، يا ميستر، لأنّها كلّها متشابهة».

لم يجب الأمير لوكي. ولما عيّن نوعها وجنسها، وطريقة حياتها، وحدّد مكان أعشاشها، وعاداتها وأعرافها، بل وأكثر نيّاتها سرّية، وقد انصرم أسبوع في هذا الشأن وبات النمل ينزلق في سرير الأولاد ويلتهم احتياطي المؤونة الشتوية إلى أن بدأ يهاجم الخيل والبقر. عندها عرض المستر براون أنّه من المناسب تبخيره بنتاج من اختراعه يجعل الذكر عقيماً، فينقطع عن التكاثر، وعندها يرش بسم آخر، أيضاً من عنده يسبب مرضاً مميتاً لدى الإناث، من نتيجته، كما أكدّ تسوية المسألة.

استفهم إيستيبان ترويبا وقد انتقل من نفاذ الصبر إلى الغضب: «في كم من الوقت»؟

قال المستر براون: «شهر».

قال بيدرو جارسيا الصغير: «حتى ذلك الحين، يا ميستر، يكون قد أكل الكائنات البشرية نفسهاز إذا سمحت يا سيد، سوف أتي بأبي. منذ ثلاثة أسابيع وهو يلقنني دواء ضد النازلة. وأظن أنه من وسائل قديم الزمان، لكنّنا لن نخسر شيئاً إذا جرّبنا.

وأوتوا ببيدرو جارسيا العجوز الذي وصل يجرّ قدميه، عابساً، ضامراً، أهتم حتى لقد ارتجف إيستيبان حين لاحظ تلف الزمن. وأصغى العجوز، وقبعته في يده، يتأمّل الأرض والهواء يمضغ لثته العارية. ثم طلب محرمة بيضاء، قامت فيرولا فأتت بها من خزانة إيستيبان؛ فخرج إلى ظاهر البيت، وقطع الباحة، ثم اتجه رأساً إلى بستان الخضار، يتبعه كلّ سكان البيت والسخيف الشمال أمريكي الذي ابتسم متعجرفاً: أيّ برابرة، يا إلهي! وقرفص العجوز في صعوبةٍ وأخذ يكنّس النّمل. فلما جمع منه قبضة، وضعه في المحرمة التي ربطها من زواياها الأربع وترك الرزمة تسقط في قبعته.

قال: «سوف أريك الطريق، أيها النمل، كي تغادر الأرضية وتأخذ معك البقيّة».

ورفع نفسه العجوز على حصان وسار وهو يتمتم بنصائح ووصايا للنمل، وأمثلة حكيم وتعاويذ سحر. ورأوه يبتعد حتى تخوم الملكية. وجلس الغريب أرضاً، وقد استبدّ به ضحك مجنون، حتى أن بيدرو جارسيا الصغير جاء فهزّه فأنذره:

ـ إضحك من جدّتك إذا عنّ لك، يا ميستر، لكن انتبه إلى أنّ العجوز هو أبي.

ورجع بيدرو جارسيا عند الغروب. فوضع قدمه على الأرض بطيئاً، وقال للسيّد أنّه وضع النمل على الطريق، وعاد إلى بيته. كان متعباً. وفي صباح الغد، وجدوا ألّا نمل في المطبخ ولافي المستودع؛ وعبثاً فتّشوا في الأهراء، وفي خمّ الدجاج، وذهبوا حتى الحقول والنهر، ومرّوا بالمشط الناعم، فلم يستطيعوا أن يجدوا واحدةٍ حتى ولانموذجاً. غضب المهندس غضباً جنونياً.

قال مطالباً: أنت.. قل لي كيف فعلت ذلك؟

فشرح له بيدرو جارسيا الكبير: «يا ميستر، يجب أن تكلمه. أن تقول له أن يذهب لأنه يزعجنا وهو يفهم».

كانت كلارا الوحيدة التي وجدت الطريقة طبيعية. لكن فيرولا اقتنصت المناسبة كي تعلن أنّها جنحت إلى هذا الوجر الضائع إلى منطقة لاإنسانية حيث لاأثر لقوانين الله ولا لتقدّم العلم، وأنّهم يوماً سوف يمتطون جميعاً مكانساً في الهواء، لكنّ إيستيبان ترويبيا أسكتها: كان لايريد أن يضع أحدٌ أفكاراً جديدة في رأس امرأته. وخلال الأيام الأخيرة عادت كلارا إلى اهتماماتها الغريبة، والتحدّث مع الأشباح وقضاء ساعاتٍ في الخربشة في دفاترها عن الحياة. وعندما فقدت كلّ اهتمام بالمدرسة وبمشغل الخياطة والاجتماعات النسائية، وراجعتها رؤية كلّ شيء جميلاً، فهم كلٌّ امرئٍ أنّها باتت حُبلى من جديدٍ.

صاحت فيرولا مخاطبة أخاها: «إنها غلطتك!»

فأجاب هذا: «آمل ذلك».

ووضح بعد قليل أن حالة كلارا لم تكن تمكنّها من قضاء حملها في

الريف ولا الولادة في القرية، ولقد وجب ترتيب العودة إلى العاصمة. ووجدت فيرولا في ذلك بعضاً من عزاء، لأنّها أحسّت وكأنّ حالة كلارا إهانة شخصية لها. وسبقت الباقين بأن أخذت معها القسم الأكبر من المتاع والخدم لكي تفتح بيت الزاوية الكبير وتعدّ فيه وصول كلارا. وبعد بضعة أيام رافق إيستيبان امرأته وابنته في عودتهما للمدينة ووضع من جديد الماريّات الثلاث بين يدي بيدرو جارسيا الصغير، الذي رقّع إلى رتبة وكيل: ولو أنّه لم يجنِ من ذلك امتيازات أكثر، وإنما ببساطة عملاً أكثر.

أدت الرحلة من الماريات الثلاث للعاصمة إلى أن أجهدت كلارا. كنت أراها تشحب شيئاً فشيئاً، وقد هيمن عليها الربو، وقد حوّقت عيناها. كانت تفقد، من تمايل عربة الحصان وبعدها القطار، ومن غبار الطريق، وقابليتها الطبيعية لدوار البحر، آخر قواها سريعاً وماكان بوسعي أن أصنع كثيراً لمساعدتها، لأنّها، كانت إذا أحسّت بالتعب، تفضل ألا يكلمها أحد. ولقد اضطررت إلى أن أسندها كي تنزل إلى المحطّات لأن ساقيها كانتا تترنحان.

ـ أظن أنّي سوف أعلو قليلاً.

قلت لها: «من هنا» وقد أرعبتني فكرة أنها سوف تطير فوق رؤوس المسافرين الذين نزلوا على الرصيف.

والحق أنّها ماكانت تلمّح بدقة للاسترفاع[1]، وإنّما لمصطبة ماترتفع عليها كي تخلص من انزعاجها، ومن ثقل حملها ومن عمق التعب الذي اقتحمها حتى مخّ العظم. ودخلت عندها في مرحلةٍ طويلةٍ من مراحل الصمت ـ أظنّها دامت عدة شهور ـ لجأت خلالها إلى لوحها الحجريّ، كما في الفترة التي ظلت فيها خرساء. وبالمناسبة، لم أقلق لذلك بتاتاً، لأنّي تخيّلت أنّها سوف تعود إلى حالتها الطبيعية، تماماً كما بعد ولادة بيانكا، ووصلت، ماعدا ذلك، إلى الإدراك أن الصمت هو آخر وأمنع ملجأ لدى زوجتي، وليس خللاً عقلياً، كما أصر الدكتور كويفاس. وقد كانت فيرولا تسهر عليها بطريقة الوسواس

---

١ ـ الارتفاع بقوة الإرادة.

نفسها التي عنيت بها من قبل بأمّها، وتتعامل مع كلارا كما لو كانت عاجزة، وترفض أن تدعها لحظة وحدها ولقد انقطعت عن الاهتمام بيبانكا التي كانت تبكي طول النهار وأمنيتها العودة إلى الماريات الثلاث. وكانت كلارا تخطو في البيت كشبح سمينٍ وصامتٍ، معبّرة عن لامبالاة بوذيّة بكلّ مايحيط بها. كانت لاتنظر إليّ دائماً، تمرّ من قربي وكأنّني قطعةُ أثاث فإذا وجّهت لها الكلام، ظلّت شاردة الذهن، وكأنّها لاتسمعني ولاتعرف من أنا. وانقطعنا عن الشراكة في سرير واحدٍ. وكانت أيام البطالة في المدينة والجو غير المعقول الذي نتنفسه في البيت يرهقان أعصابي. وحاولت أن أجد لي عملاً، لكنّ هذا لم يكن كافياً: كان مزاجي دائماً مزاج كلبٍ. كنت أنصرف كلّ يوم إلى أعمالي. وخلال هذه الفترة بدأت أضارب في البورصة؛ وأقضي ساعاتٍ أدرس تقلبات الأسعار العالمية، وأكرّس وقتي في توظيف المال، وإقامة شركات، والاهتمام بالاستيراد والتصدير. وكنت أقضي ساعات عديدة في النادي. وبدأت أهتم أيضاً بالسياسة كما أخذت أتردّد على معهد رياضي أجبرني فيه مدرّب عملاق على تمرين عضلات لم أظنّ بتاتاً أنها موجودة في جسدي. ونصحت بالمسّاجات، لكنّي ما أحببتُ دائماً هذا النوع من الأشياء: إني أكره أن تمسّني أيد مأجورة. غير أن أيّاً من هذا لم يتوصل إلى ملء أيامي، كنت في ضيق ميتاً من السأم، لاأتوق إلّا إلى العودة للريف، لكني لم أكن أجرؤ على ترك ذاك البيت، وإنّها لواضحة، ضرورة حضور رجلٍ عاقلٍ، بين تلك النساء الهيستيريّات. وزيادة في الأمر كانت كلارا تسمن فوق الحد. كانت تلوح ببطن ضخم لاتطيق بنيتها الضعيفة حمله. كانت تخجل من أن أراها عارية، لكنّها امرأتي وماكنت لأسمح لها أن تلعب دور المحتشمة معي. كنت أساعدها في الاغتسال واللباس إذا لم تسبقني فيرولا، وكنت أشعر بألم لانهائي من أجلها، وهي الضعيفة الصغيرة بذاك البطن المخيف، الذي صار خطراً حين اقترب يوم الوضع. ومرات عديدة كانت تعذبني فكرة أنّها يمكن أن تموت وهي تلد، وكنت أختلي مع الدكتور كويفاس أناقشه في أحسن خطة نساعدها بها. واتفقنا على أنه، إذا لم تسر الأشياء سيراً حسناً، فالأفضل أن نقوم لها بقيصرية

ثانية، غير أني كنت أعترض على أخذها لمصحّة ما، أما الطبيب نفسه فكان يرفض أن يقوم بعملية جديدة، شبيهة بالأولى، في غرفة طعام الدار. وكان يقول أن التسهيلات غير ممكنة، ولو أنّ المصحات، في ذاك الزمن، كانت بؤر إنتان وكان الخروج منها ميتاً أكثر منه معافى.

ونزلت كلارا، قبل الموعد المرتقب لولادتها، ودون إنذار من ملجئها البراهمي وأخذت تتكلم. رغبت بفنجان من الشوكولا وطلبت مني أن آخذها في نزهة. وقفز قلبي. وامتلأ البيت فرحاً، وشربنا الشمبانيا، ومُلئتْ المزهريات زهوراً طريّة وأمرت لها بالكاميليا، زهورها المفضّلة، فغطيت لأجلها الغرفة لكنّها أصيبت منها ببداية ربو، واضطررنا إلى إخراجها سريعاً. وركضت إلى سوق الصاغة اليهود فاشتريت لها مشبك ألماس. وشكرتني كلارا بقلبٍ منشرح، فقد وجدته جدّ جميلٍ، لكنّي لم أرها تتحلّى به يوماً. وافترضت أنّه آل إلى مكان طارئ ما وضعته فيه كلارا ثم نسيته حالاً كما هي حال كلّ المجوهرات التي اشتريتها لها عبر حياتنا المشتركة. واستدعيت الدكتور كويفاس الذي حضر بحجة تناول الشاي، مع أنه جاء في الواقع لفحص كلارا. ورافقها إلى غرفتها وقال لنا بعد ذلك، لفيرولا ولي، بأنه إذا ظهر عليها الشفاء من اضطراباتها العقلية، وجب علينا أن ننتظر بالمقابل ولادة عسيرة، لأنّ الطفل قويّ للغاية. في هذه اللحظة تماماً، انطلقت كلارا في الصالون وسمعت ولابدّ الجملة الأخيرة.

قالت: «لاتهتموا بالأمر، سوف يجري كلُّ شيء حسناً».

قلت مازحاً: «آمل هذه المرّة أن يكون صبيّاً يستطيع حمل اسمي».

أجابت كلارا: «ليس واحداً وإنما اثنان». ثم أضافت للتو: «سوف يحمل التوأمان اسمي جيم ونيكولاس».

كان ذاك كثيراً علي. وأفترض أنّي كنت أتفجّر من الضغط المتراكم خلال الشهور الأخيرة. كنت أزبد، وزعمت لها أنّها أسماء بائعين متجولين، وأنّ لا أحد في عائلتي أو عائلتها لم يسمّي هكذا وأنّ واحداً منهما على الأقل كان يجب أن يُدعى إيستيبان، مثلي ومثل أبي. ولكنّ كلارا عرضت بأن التسميات المتكرّرة تبذر الفوضى في الدفاتر عن الحياة وظلّت لاتتزعزع عن

قرارها. وحطّمت، من أجل أن أؤثر عليها، بلطمة مزهريّة خزف، هي الأثر الوحيد، كما يبدو لي، من عهد أبهة أب جدّي، لكنّها مع هذا لم تنفعل، وابتسم الدكتور كويفاس من وراء فنجان الشاي، مما أدى أكثر من أيّ شيء آخر إلى إغضابي. فخرجت صافقاً الباب وذهبت إلى النادي.

ذلك المساء سكرت. بعضاً عن حاجة، وبعضاً عن انتقام. ويممت شطر أشهر بيوت الهوى في المدينة، وقد كان يحمل اسماً تاريخيّاً، وأتمسّك بالقول أني لست رجل بنات هوىً وأنّي لم ألجأ إليهنّ إلّا في الفترات التي اضطررت فيها إلى العيش طويلاً وحدي. ولاأدري ماحدث لي ذلك اليوم، فقد أثارت أعصابي كلارا، وحقدت عليها، وفاضت طاقتي، واستسلمت للتجربة. في تلك السنوات، كانت أحوال الكريستوفر كولومبوس مزدهرة، ولو أنّه لما يصل إلى الشهرة العالمية التي نجح في الخطو لها حين ظهر على خرائط ملاحة الشركات الانكليزية وفي الدلل السياحية، ولما صوروه للتلفزيون. دخلت صالوناً زين بأثاث فرنسي، من تلك التي أرجلها ملتفّة، وهناك استقبلتني قوادة من بلدنا بالتأكيد، تقلّد حتى الكمال اللهجة الباريسية، وقد بدأت بأن جعلتني أعرف قائمة الأسعار، ثم عمدت حالاً إلى سؤالي أن كنت أقصد أحداً خاصّاً. قلت لها إن تجربتي في حدود القنديل الأحمر وبعض علب بائسة لعمال المناجم في شمال البلاد، حتى أنّ أيّة امرأة فتيّة نظيفة تقضي الحاجة.

قالت لي: «إنّي أستلطفك يا موسيو. سوف آتيك بأحسن مافي البيت».

وأسرعت على ندائها امرأة بمشدّ وروب أطلس أسود. شديد الضيق يكاد لايستطيع احتواء فيض أنوثتها. أمالت بشعرها إلى جهة واحدة من رأسها، طرازاً في التسريحة لم يعجبني، وعندما مرّت فاحت منها رائحة مسك فظيعة تطفو عنيدة في الجوّ، أقوى من التأوه.

ـ مسرورة من رؤيتك، يا سيد،قالت بدل «مرحباً» وعندها عرفتها، لأنّ الصوت هو الشيء الوحيد الذي لم يتغير عند ترانسيتو سوتو.

وقادتني من يدي إلى غرفة مغلقة كقبر، نوافذها مموّهة بسجف عمياء، لم ينفذ منها شعاع نور منذ أمَدٍ، لكنّها مع ذلك تبدو كقصر، إذا قارنتها

بـإنشاءات القنديل الأحمر القذرة. فنزعت يديّ عن ترانسيتو روب الأطلس الأسود، وحللت شعرها البشع واستطعت أن ألاحظ أنّها في هذه البضع السنين كبرت، وقويت، وحلت.

قلت لها: «أرى أنّك صنعت طريقك».

أجابتني قائلة: «بفضل الخمسين بيزوس، أيُّها السيد، لقد خدمتني في البداية، والآن أستطيع أن أردُّها لك، لكن مع بعض الزيادة، لأنّها مع التضخم باتت تساوي أقلّ مما كانت عليه.

قلت لها ضاحكاً: «أفضل أن تكوني مدينةً لي بخدمةٍ صغيرةٍ، يا ترانسيتو!».

وأتممت نزع ثيابها عنها، واستطعت أن أتحقق من أنّه لم يبق تقريباً شيء من البنت الهزيلة ذات المرفقين والركبتين المدبّبة التي كانت تعمل في القنديل الأحمر، ماعدا قابلية لاتتعب من لذة الحواس وصوت هو صوت طائر أبحّ. كان جسدها منتوف الشعر وقد دلك جلدها بالليمون وعسل الترنجان، كما شرحت لي، حتى يظل بضاً أبيض مثل جلد الوليد. كانت أصابعها مصبوغة بالأحمر، وثعبان موشوم حول سرّتها، تستطيع أن تحرّك حلقاته فيما يظل جسدها دون حراك مطلق. وروت لي حياتها في الوقت نفسه الذي كانت تريني فيه مهاراتها بجعل الزاحف يتموّج.

ـ لو بقيت في القنديل الأحمر، يا سيد، ماكان يحدث لي؟ كنت فقدت أسناني، كنت صرت عجوزاً. في هذه المهنة، تتآكل سريعاً، يجب أن نعنى بأنفسنا! ومن حسن حظي أنّي لم أعمل على الرصيف! لم أحبّ هذا العمل، أخطاره كثيرة. على الزفت، لا بذلك من قواد، أو تكون المجازفة كبيرة. لا أحد يحترمك. ولماذا نعطي لزنخ مايكلفنا ربحه كثيراً؟ النساء مغفّلات من هذه الناحية. إنهنّ ضائعات. إنهن بحاجةٍ إلى (فتوة) كي يحسسن بالحماية ولاينتبهن أن أكثر ما يجب أن يخفن منه، هو فتوتهنّ نفسه. إنهن لايعرفن كيف يدرن بأنفسهن مصالحهن، يجب أن يضحين بأنفسهن من أجل آخر.

صدقني، يا سيد، أن البغايا هن أجدر الناس بالشفقة، إنهنّ يتلفن حياتهنّ بالعمل من أجل قوّاد، يفرحن إذا ضربهنّ، يحسسن بغاية الفخر لما يرينه حسن الثياب، وله أسنان من ذهب، وخواتم، وإذا خانهن من أجل أخرى أصغر، يصفحن عنه لأن «الرجال هم كذلك». لا، يا سيد، أنا لا آكل من هذا الخبز. أنا لم ينفق عليّ أحد يوماً، ولن أغدو في الغد مجنونة فأعمد إلى الإنفاق على أحد ما. أنا أعمل عند نفسي، ما أربحه، أصرفه كما يطيب لي. لقد تطلبّ مني ذاك كثيراً، لاتتصوّر أنه كان سهلاً، لأن الرئيسات ذوات القرنين لايحببن التعامل مع النساء، إنهنّ يفضّلن التفاهم مع الأوباش، فلا أحد يعينك، ولايقيم لك أي اعتبار.

ـ لكن الظاهر أنّهم يقدرونك هنا، يا ترانسيتو. قيل لي إنك أفضل من في البيت.

قالت: «وهذا صحيح. كادت الدار تسقط لو لم أكن هنا أعمل فيها كحمارة. الأخريات يبدوْنَ كخرق. لايأتي إلى هنا غير العجائز، الأمر ليس كما كان في السابق. يجب أن يحدّثوا كلّ هذا لاجتذاب أهل المكاتب الذين لاعمل لديهم بين الظهر وساعة استئناف العمل، والشباب أيضاً، والطلاب. فبعد تكبير البناء، وجعل المحلّ أكثر فرحاً، وتنظيفه، تنظيفه جيّداً! يأتي الزبائن واثقين دون التفكير، أنّنا سننقل إليهم الجدري، أليس صحيحاً؟ هنا زريبة خنازير، لاأحد ينظف البيت. هاك، إرفع الوسادة، أراهن أنّ بقة سوف تقفز عليك. قلت ذلك للمدام، لكنّها لاتصغي. إنّها لاتملك حسّ التجارة.

ـ وأنت، هل تملكينه؟

ـ بالتأكيد، يا سيّد! إن ملايين الأفكار تمرّ برأسي، من أجل أن يمشي الكريستوفر كولومبوس في هذه المهنة، بوسعنا أن نقول إنّي أضع من ذاتي. أنا لست من اللواتي ينتحبن ويتّهمن الحظّ العاثر عندما تسوء الحال. يكفي أن ترى أين أنا: أنا أفضلهنّ. إذا قاومت، أقسم لك أنه سيكون لي البيت الأول في البلاد.

لقد سلّتني كثيراً. واستطعت أن أقدّرها حقّ قدرها، لأنّي، لطول ماقابلت الطموح في المرآة صباحاً عندما أحلق ذقني، انتهيت إلى أن أحسن التعرّف عليه لما أقابله عند الآخرين.

ـ تلك تبدو لي فكرة ممتازة، يا ترانسيتو. لماذا لاتؤسّسين بيتك الخاص؟ أنا أضع رأس مال البدء ـ عرضت ذلك عليها وقد سحرتني، وأنا على السكر الذي كنت فيه، فكرة توسيع أرباحي التجارية في هذا السبيل!.

أجابت ترانسيتو وهي تداعب حيتها بأحد أظافرها المدهونة بالبرنيق الصيني: «لا، شكراً، يا سيد. أنا لايلائمني الخروج من يدي رأسمالي كي أضع نفسي بين يدي آخر. إن مايجب عمله، هو تعاونية، وطرد المدام. ألم تسمع يوماً بهذا؟ هاك، إنتبه: لو أنّ مزارعيك أنفسهم يجتمعون في تعاونية في الريف فإنهم سوف يخوزقونك. إنّ ما سوف أؤسسه هو تعاونية قحبات. وربما قحبات وقحاب، كي نعطي المؤسسة فخامة أكبر. نحن نأتي بكلّ شيء، برأس المال والعمل. لماذا نبحث عن سيّد؟

وقمنا بالحب بذاك العنف المتوّحش الذي نسيته عمليّاً لطول ما أبحرت على ظهر فرقاطة بحر الحرير الأزرق الهادئ. وفي فوضى الملاحف والوسائد، وقد تشابكت في عقدة الشهوة الحيّة، وقد تصالبنا كبرغيّ حتى الإنهيار، وأحسستني من جديد في العشرين، وقد أغدق على إمساكي بين ذراعي. بهذه الأنثى الشجاعة السمراء التي لاتسقط مزقاً إذا اعتليتها، فرس قوية تمتطيها دون حالات نفسيّة، دون أن ترى أن يدك سمجة، وصوتك قاس وقدميك كبيرتان، وذقنك خشنة، كائن من معدنك نفسه يثبت عندما تتلو في مسمعه سبحة البذاءات، وليس بحاجة إلى أن تهدهده بكلمات حلوة أو محيّرة بلطفها. وبعد ذلك، ارتحت سعيداً منحلاً، قليلاً إلى جانبها أتأمل تكور ردفها القاسي وخفقان حيّتها.

قلت لها: «سوف يرى بعضنا بعضاً يا ترانسيتو». ونفحتها حلواناً.

وأجابتني قائلة في رجفة من ثعبانها: «قلت لك ذات يوم يا سيد، ألا تذكر؟

والحق أنّي لم تكن لدي أيّة نية في رؤيتها. كنت أفضل كثيراً نسيانها.

ماكنت لأذكر هذه الحادثة لولا أن ترانسيتو سوتو، لعبت، بعد زمنٍ طويلٍ، دوراً هاماً في حياتي، ولقد قلت: إنّي لست رجل قحبات. لكنّ هذه الحكاية نفسها ماكانت تكتب لولا أنّها تدخلت لإنقاذنا، وبالتالي إنقاذ ذكرياتنا.

بعد أيام من ذلك، فيما كان الدكتور كويفاس يعدّ كل امرئ إلى احتمال فتح بطن كلارا، لقي سيفيرو ونيفيا ديل فاله حتفهما، وقد تركا عدداً لابأس به من البناء وسبعة وأربعين حفيداً على قيد الحياة. وقد أنبئت كلارا عن ذلك في الحلم، لكنّها لم تتكلّم عن ذلك إلّا لفيرولا التي جهدت في تهدئتها، وشرحت لها بأنّ الحبل يثير حالة من الرعب تتكرّر فيها الأحلام السيئة. وضاعفت عنايتها، فدلكت بطنها بزيت اللوز الحلو لتجنبها التفزّرات، وتطلي نهديها بعسل النحل كي تقيها الانصداع، وتطعمها قشر البيض المطحون كي يكون حليبها غنياً وتعصم أسنانها من النخر وتتلو عليها صلوات بيت لحم كي تلد دون مشاكل. بعد يومين من هذا الحلم وصل إيستيبان إلى البيت قبل العادة، شاحباً متشنجاً وأخذ أخته من يدها واختلى بها بالمكتبة.

قال لها دون مقدمات: «حمواي ماتا في صدام. لاأريد أن تعرف كلارا قبل ولادتها. يجب أن نقيم جداراً من المراقبة حولها: لاصحف، ولاراديو، ولازيارات، لاشيء! راقبي الخدم فلا يقولن لها أحد شيئاً.

غير أن نياتي الطيبة تحطّمت على قوة تنبؤ كلارا. تلك الليلة حلمت من جديد بأنّ أباها وأمّها يمشيان في حقل كرّاث وأن نيفيا تسير دون رأس، ولقد علمت جيداً بالأمر من دون صحافة أو سماع الراديو. ولقد استفاقت مضطّربة ورجت فيرولا أن تساعدها في ارتداء ثيابها، لأنّها تريد أن تذهب للبحث، عن رأس أمها. وركضت فيرولا كي تخبر إيستيبان الذي دعا الدكتور كويفاس، الذي وصف لها، مغامراً بالأضرار بالتوأمين، شراباً للمجانين كفيلا بأن ينوّمها يومين كاملين، غير أنه لم يؤثر فيها أدنى تأثير.

لقد مات الزوجان ديل فاله بالطريقة التي حلمت بها كلارا، والتي كثيراً ما تتنبّأ نيفيا، مازحةً، بأنّهما سيموتان عليها.

كانت تقول وهي تدلّ على سيارة زوجها العتيقة: «ذات يوم سوف نقضي في هذه الآلة الجهنمية».

كان سيفيرو ديل فاله منذ شبابه ضعيفاً تجاه الاختراعات الحديثة. ولم تشذّ السيارة عن القاعدة. وفي العهد الذي كان الناس جميعاً ينتقلون فيه على الأقدام، أو في العربة أو على الدراجة. اقتنى أول سيّارة نزلت في البلاد ثم عرضت كشيء يثير الإطلاع في واجهة بالمركز. كانت أعجوبة ميكانيكية تندفع بسرعة انتحارية من خمسة عشر، بل قل عشرين كيلومتراً في السّاعة، بين المشاة المذعورين، ولعنات الذين ترشّهم، في طريقها بالوحل أو تغطيهم بالغبار. وقد وصمت في البدء بأنّها خطرٌ عامٌ. وعرض علماء فحول عن طريق الصحافة أن بنية الإنسان ليست أهلاً لمقاومة التنقل بسرعة عشرين كيلومتراً في الساعة وأنّ هذه المادة الجديدة التي تحمل اسم خلاصة البترول معرضة للاحتراق وإحداث ردّ فعلٍ متتابعٍ قمينٍ بأن يهدّم المدينة. وأدلت الكنيسة نفسها بدلوها في هذا الأمر. حتى أنّ الأب ريستر يبو، الذي وضع عائلة ديل فاله في نطاق مراقبته منذ حادثة كلارا المزعجة إبّان قداس الخميس المقدّس، نصّب نفسه حارساً للتقاليد الخيّرة المقدّسة وجأر بصوته الفاليسي ضدّ الناس المولعين بالجديد، من مثل الآلات الشيطانيّة التي شبّهها بعربة النار التي اختفى عليها النبي إيليا حين صعد إلى السماء. غير أن سيفيرو تجاهل الضجة، وحذا حذوه بعد قليلٍ سادة آخرون، إلى أن انقطعت رؤية السيّارة عن أن تظهر كجديد واستخدمها حوالي عشر سنوات، ورفض أن يبدّل الموديل مع أن المدينة امتلأت بسيّارات حديثة أكثر مرونة وأمناً، ولهذا السبب كانت زوجته نفسها ترفض أن تتخلّص من خيول الجرّ، فتنتظرها حتى تموت بهدوء موتاً طبيعيّاً. وكانت السنبيم تظهر ستائر من الدانتيلا ومزهريّة كريستال من كلّ جانب، تسهر نيفيا على تجديد زهورها وقد لُبِّس الدّاخل كلّه بخشبٍ مبرنقٍ وجلدٍ روسيٍّ ولمع نحاسه مثل ذهب. وبالرغم من منشئها الإنكليزيّ فقد عمّدت باسم بلدي، كوفادونجا. والحق، أنها كانت تسير سيراً رائعاً، ماعدا الكوابح فقد كان في عملها عيب. وكان سيفيرو يمتدح نفسه بأنّه موهوبٌ في الميكانيك. وقد فكّها

عدّة مرّاتٍ رغبةً بـإصلاحها واضطر لأنْ يعهد بها كلّ مرةٍ إلى ذي القرنين الرائع، وهو ميكانيكي إيطالي أفضل من في البلاد. وقد جاءه اللقب من فاجعة أظلمت منها حياته: فقد روي أنّ امرأته صارت لاتطيق منه أنّه كلّما حمّلته قروناً خال أنّه معنيّ بذلك، فتركته ذات مساء بعد أن انفجرت فيه العاصفة بينهما، وقبل أن تذهب علّقت على طرفي مصبّعة المشغل الميكانيكي قرني كبشٍ كبيرين حصلت عليهما من المكرشة[1]. وفي اليوم التالي، عندما وصل الإيطالي إلى العمل، لقي تجمّعاً من الأطفال والجيران يهزؤون منه. مع ذلك، لم تؤثّر المأساة بتاتاً على سمعته المهنية، ولو أنّه هو أيضاً لم يتوصّل إلى إصلاح كابح اليد في كادافونجا. وعلى هذا قرّر سيفيرو أن يضع حجراً كبيراً في السيّارة، حتى إذا توقّفت جانباً، ضغط راكب على دوّاسة الكابح فيما ينزل الآخر سريعاً فيدسّ الحجر على عجلٍ تحت إحدى العجلات. وكان هذا الأسلوب يعطي عامّة نتائج جيّدة، أمّا في ذلك الأحد المشؤوم الذي وسمه القدر بأنّه آخر أيام حياتهما، فلم تسر الأمور على هذا النحو. خرج الزوجان ديل فاله يتنزّهان في أرباض المدينة، كما جريا عليه في أيام الشمس. وفجأة توقفت الكوابح تماماً عن العمل وقبل أن يتّسع الوقت لنيفييا للقفز من السيّارة كي تضع الحجر، ولسيفيرو كي يقوم بأدنى مناورة، نزلت السيّارة على منحدر القبر المفتوح. وقد حاول سيفيرو عبثاً أن يحول أو يوقف جريها، فقد استولى الشيطان على الآلة التي، حين فقدت السيطرة عليها، انقضّت على قاطرة محمّلة قدداً معدنية، اخترقت إحداها واقية الريح فقطعت بدقّة رأس نيفييا.

وطار رأسها كقذيفة، وتبيّن بعد يومين أنّه يستحيل وضع اليد عليه، بالرغم من نقيب البوليس، وحرس الغابات والجوار الذين نهدوا للبحث مع الكلاب. وفي اليوم الثالث أخذت الجثتان تنتنان واضطروا إلى دفنهما، ولو أنّ فيهما نقصاً، بجنازة عظيمة حضرتها عشيرة ديل فاله وحشدٌ لايصدق من الأصدقاء والمعارف، دون أن نحسب وفود النساء التي أتت تقول وداعاً لجثة

---

١ - محل بيع الكروش.

نيفيبا الميتة، التي كانت تعدّ آنئذ أنّها النسوانية[1] الأولى في البلاد، والتي قال عنها خصومها الإيديولوجيون، مادامت كانت بلا رأس في حياتها فليس من داعٍ لأن تحتفظ به في الموت، وانزوت كلارا في بيتها، يحيط بها خدم الخدمات الصغيرة، ومعهم فيرولا تقوم على حراستها، حيث كان الدكتور كويفاس ينشطها، فلم تحضر الدفن. واحتراماً لكل أولئك الذين جهدوا في أن يجنبوها ذاك الألم الأخير، لم تبد أية ملاحظة بأنّها على علمٍ بمسألة الرأس المفقود المخيفة، لكن لمّا انتهى المأتم، وبدا أنّ الحياة عاودت سمتها الطبيعية، حاولت كلارا أن تقنع فيرولا بالمجيء كي تبحث عنه معها، وعبثاً جرّعتها أخت زوجها زيادة من الحبوب والشّراب، لأنّها لم تشأ أن تثني عن قصدها. وفهمت بعد أن غلبت فيرولا أنّه من الخطل الزعم طويلاً بأن قصّة الرأس ما كانت غير حلمٍ خبيثٍ، وأن مساعدتها في مشروعها أفضل من أن يؤول هيجانها إلى ضعضعة مخّها. وانتظرتا خروج إيستيبان تروييبا. وساعدت فيرولا كلارا في ارتداء ثيابها وجاءت بسيّارة أجرة. كانت التعليمات التي أعطتها كلارا إلى السائق على شيء من قلّة الدقة: قالت له وغريزتها تقودها في النفاذ إلى مالايرى: «سر مستقيماً قدّامك وسوف أدلّك على الطريق».

تركوا المدينة، ودخلوا تللك الأرض المفتوحة، حيث تتباعد البيوت، ويبدأ تموّج التلال الخفيف والوديان، ثم اتخذو بـإشارة من كلارا طريقاً معترضة، واستمروا بين المغث[2] وحقول الكراث الأندلسي، حتى أمرت السائق بأن يتوقف قريباً من دغلٍ كثيف.

قالت: «هنا».

قالت فيرولا، مرتابة: «هذا غير ممكنٍ! نحن على ألف ميلٍ من مكان الحادث».

- أقول لك إنّه هنا. ألحت كلارا وهي تنزل من السيّارة بصعوبة، وترجّح

---

١ - مدافعة عن حقوق النساء.
٢ - نبات ينمو على حواف الأنهار.

بطنها الضخم، تتبعها أخت زوجها وهي تتمتم بالصلوات، والرجل الذي لم تكن لديه أدنى فكرة عن الحملة.

وحاولت أن تنفّذ بين العيص، لكنّ حجم التوأمين منعها.

قالت للسّائق: «يا سيّد، تلّطف بالدخول حتى هناك. اجلب لي رأس المرأة الذي سوف تجده.

وزحف الرجل تحت العوسج واكتشف رأس نيفيبيا الذي كان يشبه شمامة نبتت هناك وحيدةً. أمسكه من الشعر ورجع به، وهو يمشي على أربع قوائم. وفيما كان الرجل يقيء أمعاءه ومصارينه، وقد اتكأ على شجرة قريبة، كانت فيرولا وكلارا تخلصان نيفيبيا مما انزلق في أذنيها وأنفها وفمها من تراب وحصى، وسرّحا شعرها الذي كان مشعّثاً، ولكنّهما لم تستطيعا أن تطبقا العينين. ولفتّاها بشالٍ ورجعتا إلى السّيارة.

قالت كلارا للسائق: «أسرع، يا سيّد، أظنّ أنّي كدت أضع».

ولقد وصلوا في الوقت المناسب كي تقيم الأمّ في سريرها. وتتفرّغ فيرولا للتحضير، بينما ذهب خادم كي يستدعي الدكتور كويفاس والقابلة. ولقد صرّت كلارا بأسنانها التي حضرتها ارتجاجات تلك الرحلة وانفعالات الأيام الأخيرة وجرعات الدكتور كويفاس إلى وضع أسهل من حالة المولودة الأولى، وتشبثّت بصاريي مؤخرة وميزان الفرقاطة حتى ولدت بحر الحرير الأزرق الهادىء جيم ونيكولاس، فأخرجتهما سريعاً تحت نظرة جدّتهما اليقظة التي ظلّت عيناها مفتوحتين تتأمّلانهما من الصندوق. والتقطتهما فيرولا واحداً بعد الآخر من طاقة الشعر الكبيرة البليلة التي كانت تتوّج النقرة وساعدتهما في الخروج وهي تشدّهما شدّات غير منتظمة، معتمدة على التجربة التي اكتسبتها مما رأت من ولادة مهارى وعجول في الماريّات الثلاث. وقبل أن يصل الطبيب والقابلة، أخفت تحت السرير رأس نيفيبيا، كي تتجنّب التفسيرات المربكة. فلا يبقى عليهما، لما وصلا إلّا عمل جدّ قليل، لأنّ الأم كانت ترتاح هادئةً مع الطفلين، وهما أصغر من خديجين، لكنّ حالتهما كاملة، لاينقصهما شيء، ينامان بين ذراعي عمتهما المجهدة.

بقي رأس نيفيبيا مشكلة، لأنّهم لم يعرفوا أين يضعوه كي لايتعثّر به أحد. وأخيراً نسقته فيرولا، بعد أن لفّته ببعض الخرق في علبة قبعةٍ جلديّةٍ. وناقشوا احتمال دفنه كما ينبغي، لكن ذلك يقتضي معاملات لاتنتهي قبل الحصول على فتح القبر ودمج ما نقص منه فيه، ومن جهة ثانية كانوا يخشون الفضيحة لو عرفت الطريقة التي اكتشفت فيها كلارا مافشلت فيه كلاب العدو.

وبيّن إيستيبان تروييبا، خوفاً من الهزء الذي سكنه عمره، أنّه يفضّل حلّالاً يغذي بالحجج ألسنة السوء، لأنّه ماكان يجهل أن سلوك زوجته الغريب مدعاة للأقاويل. وطفت على السطح من جديد قدرة كلارا في تحريك الأشياء دون مسّها وكشف المستحيل. ولوّح أحدهم بحكاية خرسها في الطفولة واتهامات الأب ريستريبو، هذا الرجل القديس الذي تصبو الكنيسة إلى أن يكون أول من يطوّب في البلاد. ولقد ساهمت السنتان اللتان انقضتا في الماريات الثلاث إلى إسكات الإشاعات، ونسي الناس، لكن تروييبا كان يعرف أنّه تكفي ترهة مثل قضيّة رأس حماته حتى تستأنف النميمة سيرتها. ولهذا السبب، وليس إهمالاً، كما زعم بعضهم بعد سنين، بقيت علبة القبعة محفوظة في القبو، بانتظار فرصة مناسبة لمنحها قبراً مسيحياً.

نهضت سريعاً كلارا من وضعها المزدوج. وألقت عبء العناية بالوليدين على أخت زوجها والنونو، التي وجدت لها، بعد موت سيديّها القديمين، عملاً عند آل تروييبا كي تستمر بخدمة الدم نفسه، كما كانت تقول. لقد خلقت من أجل أن تهدهد أبناء الآخرين، وتستهلك ثيابهم القديمة، وتأكل بقاياهم، وتعيش على عواطف وأحزان مستعارة، وأن تشيخ تحت سقفٍ غريبٍ، وتموت يوماً في غرفتها الحقيرة في الباحة الخلفية، في سرير ليس سريرها وأن تقبر في حفرةٍ عامّةٍ. لقد بلغت السبعين من عمرها، لكنّها بقيت رابطة الجأش أمام الجهد، لايتعبها الغدوّ والرواح، ولايغيّرها الزمن، وهي بالحيوية نفسها في التخفّي كغول كي تجعل كلارا تقفز في الزوايا منذ أن يعاودها هوس الخرس، واللوح الحجري الصغير، والهمة نفسها في الشجار مع التوأمين والحنان نفسه في إفساد بيانكا، تماماً كما فعلت من قبل بأمها وجدّتها. وجاءتها عادة تمتمة

الصلوات بصورة دائمة، لأنها حين وجدت ألّا أحد يؤمن في هذا البيت، أخذت على نفسها أن تصلّي لكلّ الأعضاء الموجودين من العائلة، وفي الحق أيضاً من أجل موتاها، ومن أجل أن تطول الخدمات التي قدمتها لهم في حياتهم. وفي أواخر شيخوختها وصل بها الأمر إلى نسيان من كانت تصلّي من أجله، لكنها حافظت على العادة، موقنة بأنّها تنفع أحداً ما، كان التقى هو لقاؤها الوحيد مع فيرولا. أما فيما بقي فقد كانتا ندّتين.

يوم جمعة عصراً قرع جرس باب بيت الزاوية الكبير ثلاث سيدات شاحبات، نظراتهنّ غائمة يلبسن قبعات صغيرة ذات باقات تجاوزتها المودة وقد تبلّلن بعطر بنفسج حقل قويّ انسرب إلى الغرف وترك البيت يفوح بتلك الزهرة خلال عدة أيام. كنّ الأخوات مورا. وكان يبدو على كلارا أنها انتظرتهن فترة بعد الظهر كلها، واستقبلتهن وعلى كلّ نهد صبيّ وبيانكا تلهو عند قدميها. نظرن، فتعرفن، فابتسمن بعض إلى بعض. وكان ذاك بدء علاقة روحيّة كثيفة دامت طول حياتهن والتي، إذا ما تجلت صحة تنبؤاتهن، فتستمر أيضاً في الحياة الأخرى.

لقد عكفت الأخوات مورا الثلاث على دراسة استحضار الأرواح والظواهر فوق الطبيعيّة، وكنّ الوحيدات اللائي يملكن دليلاً لايدحض على أن الأرواح يمكن أن تغدو مادة، وذاك بفضل صورة تريهن حول طاولة، تحلّق هيولى مجنّحة غامضة فوق رؤوسهن، رأى فيها بعض الجاحدين أثر بقعة حين تطهير الكليشة، وبعض حيلةٍ بسيطةٍ من المصوّر. ولقد علمن بوجود كلارا بواسطة القنوات السرّية التي يفوز بها أصحاب المعرفة وحدهم، فاتصلن بها تيليبائياً، وفهمن مباشرة أنهنّ أخوات بالنجوم. وبعد بحوثٍ رزينةٍ وجدن عنوانها الأرضي وقدّمن أنفسهن، ومعهن تاروتهن الخاضع المشبع بسوائل مواتية، وألعاب مزينة بأشكال هندسية وأرقام قباليّة من اختراعهن لكشف الماورانفسيين، وصينية بوتيفور من نوعٍ مألوفٍ وعاديٍّ هديّة لكلارا. وبتن صديقاتٍ حميماتٍ، ومنذ ذلك اليوم، جرين على الاجتماع كلّ جمعة

لاستحضار الأرواح وتبادل الوصفات السحريّة والمطبخيّة. واكتشفن طريقة التراسل بالطاقة العقليّة من بيت الزاوية الكبير حتى طرف المدينة، حيث تسكن المورا في طاحون قديمةٍ جعلا منها مسكنهن العجيب، وأيضاً بالاتجاه المعاكس، وبفضل ذلك استطعن أن يساعد بعضهن بعضاً في مناسبات الحياة اليوميّة الصعبة. كانت المورا يعرفن خلقاً كثيراً، وكلّهم تقريباً من المهتمين بهذا النوع من الأشياء وقد أخذوا يتوافدون على اجتماعات الجمعة، وهم يحملون معرفتهم وسوائلهم المغناطيسية. ولما رآهم ايستيبان تروييبا يتقاطرون تحت سقفه وضع شرطاً وحيداً وهو أن يحترموا مكتبته، وأن يمتنعوا عن استخدام الأطفال في تجاربهم النفسيّة، وأن يكونوا كتومين لأنّه لايريد فضيحة على الساحة العامّة. ولم تؤيد فيرولا فعاليات كلارا التي كانت لاتأتلف مع الدين والعادات الطيّبة. كانت تشاهد الجلسات من مسافة محترمة دون أن تشارك، لكنها ترصدها بعين سوداء وهي تحوك، وهي على استعداد للتدخل إذا تجاوزت كلارا، في حالة الوجد، حدودها وقد لمست أن زوج أخيها ظلّت منهكة بعد بعض الجلسات التي قامت فيها بدور الوسيط، وأنّها كانت تقول مصطلحات وثنيّة بصوت ليس صوتها. وكانت النونو أيضاً تمارس مراقبتها، بحجة تقديم فناجين قهوة، فتطرد الأرواح بضربات من خرّاطتها المنشّاة وثرثرتها الهتماء وصلوات قدّاس خفيضٍ، وماكان ذلك منها كي تحمي كلارا من إفراطها، وإنما كي تتحقّق من أنه لم يأخذ أحد منافض السجائر. وكانت تحاول كلارا عبثاً أن تشرح لها أن زوّارها لايهتمون بتاتاً بالمنافض لسبب أساسي أن لاأحد منهم يدخن: ماعدا الآنسات الثلاث الساحرات، وقد وصفت النونو كلّ الباقين بلمامة قوّادين منبوذين.

كانت النونو وفيرولا تكره كلّ منهما الأخرى، كانتا تتنازعان حب الأطفال وتتشاحنان من أجل العناية بكلارا في شططها وتيهها، في معركة خرساء دائمةٍ تجري في المطابخ والباحات والممّرات، دون أن تجري يوماً قريباً من كلارا لأنّ كلاً منهما كانت متّفقة مع الأخرى لتجنيبها هذا الهمّ. وقد وصل الأمر بفيرولا إلى أن تحب كلارا هوى ريّاباً يمتّ إلى حب الزوج الملحاح

لأخت الزوج. وتخلّت، على مرّ الزمن، عن حكمتها وتركت افتتانها يتجلّى في عددٍ من التفاصيل ماكانت لتخفى على إيستيبان عندما كان يعود من الريف، لقد كانت فيرولا تتدبر أمرها كي تقنعه بأن كلارا تعاني ماكانت تدعوه «أحد أوقاتها الصعبة»، فلا يشاركها سريرها ولايبقى معها غير عدد محدود من المرّات، وفي وقت محسوبٍ. كانت تتذرع بتوصيات من الدكتور كويفاس، ولدى التحقّق منها فيما بعد عند المعالج، تبين أنها مخترعة، كانت تحشر نفسها بألف طريقة وطريقة بين الزوجين، فإذا لم تنجح، حرضت الأطفال الثلاثة لطلب الخروج في نزهة مع الأب، أو القراءة مع الأم، أو أن يلازمهم أحد لارتفاع حرارتهم، أو أن يلعب أحد معهم كانت تقول: «المساكين الصغار الذين هم بأمس الحاجة لأبيهم وأمهم، الذين يقضون النهار كلّه بين قوائم هذه العجوز الجاهلة التي تضع في رؤوسهم أفكاراً متخلّفة، إنّها هي في سبيلها إلى أن تجعلهم بلهاء بخرافاتها، وبالنسبة للنونو لاسبيل إلى صنع شيء أفضل من حبسها، يقال إنّ خادمات الله عندهن ملجأ لخادمات البيوت العجائز، معجزة حقيقيةٌ، يعاملن فيها كسيّدات، لايطلب منهن فيها عمل، والأكل فاخر، وهذا ما يكون الأكثر إنسانيةً تجاه النونو المسكينة، إنها لاتساوي مسماراً. وأخذ إيستيبان، دون أن يستطيع كشف السبب يحسّ أنّه متطفّل في بيته. كان يجد أن زوجته قليلاً قليلاً بعيدةً، غريبةً، متعذرةً علية، لايتوصّل إلى بلوغها من جديد لابهداياه، ولا بالتعبير الحيّي عن حنانه، ولا بالهوى الجارف الذي يهيمن عليه في وجودها. خلال تلك الحقبة كلّها نما حبه حتى تحوّل إلى هوس. كان يرنو إلى ألّا تفكّر كلارا إلّا به، ألّا تكون لها غير الحياة التي تستطيع مشاركته بها، أن تروي له كلّ شيء ألّا تمتلك شيئاً لم يأتها من يديْه، أن تتعلّق به في كلّ شيء.

غير أن الواقع كان مختلفاً، فقد كان يظهر على كلارا أنّها تحلّق مثل خالها ماركوس، وأنّها منفصلةٌ عن الأرض الثابتة، تبحث عن الله في الطريق التيبيتية، وتستشير الأرواح عن طريق مناضد تصدر عنها ضربات صغيرة، اثنتان عن نعم، وثلاث عن لا، وتحلّ رموز الرسائل من عوالم أخرى لها القدرة على

الدلالة حتى على خرائط المطر. ولقد أنبأتها يوماً عن وجود كنز مخبّأ تحت المدخنة وبدأت بهدم الحاجز، لكن لم ير أيّ أثر، ثم الدرج، ولاشيء، وعلى الأثر نصف الصالون الرئيسي! لاشيء. وفي آخر الحساب، ظهر أنّ الروح، وقد خدعته التبدلات المعماريّة التي عانى منها المسكن، لم يلاحظ أن مخبأ الدنانير الذهبيّة لايقع في منزل آل تروييبا، وإنّما في الجهة الأخرى من الشارع عند آل أوجارتي، الذين لم يؤمنوا بحكاية الشبح الإسبانيّ فرفضوا هدم غرفة طعامهم. ولم تكن كلارا أهلاً لأن تضفر جدائل بيانكا لما كانت هذه تذهب إلى المدرسة، فكانت فيرولا أو النونو تتعهدانها، غير أنّها كانت لها مع ابنتها علائق مدهشة، مبنيّة على المبادئ نفسها التي كانت لها مع ·نيفيبا: كانتا تتراويان القصص، وتقرأان كتب الصناديق السحريّة الفاتنة، تسألان عن صور العائلة، تتناقلان من الأم إلى البنت طرف الأخوال الذين يفلتون هواء والعميان الذين يسقطون مثل مزاريب من أعلى شجرة الحور، كانتا تخرجان كي تتأمّلا السلسلة وتعدّا الغيوم، كانتا تتصلان ببعضهما بلغة من اختراعهما تحذف (التاء) من الإسبانية وتحلان محلّها «النون» و«الراء» بـ «اللام». حتى تتوصّلا إلى التعبير مثل صينيّ المصبغة. وبينما كان جيم ونيكولاس يكبران، منفصلين عن الثنائي النسوي، تمشيا مع مبدأ ذاك الزمن: «يجب أن نصنع منهما رجلين». أما النساء فكن يولدن وصفتهن الوراثية مثبتة على الجسد، وماكن بحاجة لانتظار ذلك من صروف الحياة. وكان التوأمان يكتسبان الهمّة والقسوة في العاب عمرهما، أولاً بصيد العظايات لقصّ أذنابها، والجرذان من أجل جعلها تتسابق، والفراشات لنزع الغبار عن أجنحتها، ثم، فيما بعد، بتبادل ضرب القبضات وضرب الأقدام حسب تعليمات صيني المصبغة نفسه، المتقدم على عصره والذي كان أول من استورد للبلاد علم فنون الحرب الألفي، غير أن أحداً لم ينتبه إليه لما أثبت أنّ بوسعه أن يكسر القرميد باليد وأراد أن ينشئ أكاديميته الخاصّة، حتى انتهى به الأمر إلى تنظيف ثياب الآخرين. وبعد سنوات صار التوأمان شابين حقيقيين، يهربان من الكليّة كي يندسّا في الأرض المبهمة للمزبلة العامّة حيث كانا يبدّلان فضيّات أمهما ببضع دقائق حب محرّم مع شمطاء

ضخمة بوسعهما أن تهدهدهما معاً على ثدييها ثديي بقرةٍ هولانديّةٍ، وأن تخنقهما معاً في رطوبة أبطيها الشحمية، وأن تسحقَهما معاً بين فخذيها فخذيْ فيلة وأن تحملهما معاً إلى النشوة القائمة والحارة. وهذا مالم يحصل إلّا متأخّراً، وهو مالم تعلمه كلارا بتاتاً، كي تستطيع تسجيله في دفاترها فأقرأه يوماً بدوري. ولم يصلني علمه إلا عبر قنوات أخرى.

كانت كلارا لاتهتم بمشاكل الخدمة. كانت تضلّ من غرفة إلى أخرى فلا تدهش إذا كان كلّ شيء نظيفاً وفي نظام كامل. كانت تجلس إلى المائدة فلا تتساءل من أعدّ الطعام أو اشترى المؤونة؛ وقليلاً ما اهتمت بمن يخدمها، فكانت تنسى أسماء الخدم وأحياناً أسماء أبنائها أنفسهم؛ لكن لم يبدُ عليها إلا أنّها دائماً حاضرة، مثل روح خيّرة ومبتهجة، تعاود سيرها الساعات إذا مرّت. كانت تلبس بياضاً، لأنّها أعلنت أنّه اللون الوحيد الذي لايفسد هالتها، بثيابٍ بسيطةٍ تصنعها فيرولا لها على آلة الخياطة وقد كانت تفضّلها على تلك التفاهات ذوات الدواير والزجاجيات التي كان يغدقها عليها زوجها قاصداً إدهاشها وأن يراها على المودة.

وكان إيستيبان يستسلم إلى سورات اليأس فتهيمن عليه، لأنّها كانت تعامله بالرقة نفسها التي تهبها للجميع، وكانت تكلّمه بلهجة المداعبة نفسها التي تدلّل بها القطط، وكانت غير مؤهلة لأن تعرف إذا كان متعباً، أو مجهداً أو مرحاً أو راغباً في ممارسة الحبّ، لكنّها بالمقابل كانت تكتشف من لون إشعاعاته إن كان يعدّ لبعض حيلةٍ بل وكانت قادرة على أنّ تهدّئ غضبة من غضباته بجملتين ساخرتين. والذي كان يحنقه. أن كلارا لم يبدُ عليها يوماً أنّها تعترف حقّاً بأي جميل، وأنّها ليست بحاجةٍ لأيّ شيء يستطيع أن يقدمه لها. وفي السرير كانت كما في كلّ شيء شاردة مبتسمة، دون تكلف، منشرحة، لكن غائبة. كان يعرف كيف يتصرّف بجسده فينفذ كلّ الحركات الرياضية التي تعلمها في الكتب التي أخفاها في درج المكتبة، لكن مع كلارا، كانت أشنع الخطايا تبدو دعابات وليد، لأنّه كان يستحيل تتبيلها بملح فكرة سيئة، أو فليفلة الخضوع. واستبد الغضب بتروييبا فراجعته في بعض المناسبات ضلالاته

القديمة، وعاود قلب فلاحة قوية بين الخلنج، إبان انفصالاتهما الاضطراريّة، حين كانت تبقى كلارا في العاصمة مع الأطفال ويضطر إلى إدارة الملكيّة، غير أنّ الفعل، وقد كان بعيداً عن أن يهدئه، كان يدع له طعماً بشعاً في الفم، دون أن يأتيه بلذة تدوم، والسبب أنّه لو حدث فيه امرأته، لاستنكرت قسوة معاملته للأخرى، وليس دائماً خيانته. ولم تكن الغيرة، مثل كثير من العواطف الأخرى الخاصة بالجنس البشري، من شأن كلارا. وذهب إيستيبان مرّة أو مرّتين إلى القنديل الأحمر، لكنّه أقلع عن ذاك، لأنّه كان يفقد قواه مع المحترفات ويبتلع خزيه وهو يجمجم بالأعذار من أن الخمرة أثرت فيه كثيراً، أو أنّه لم يستطع هضم الغداء، أو أنّه كان مصاباً بالرشح منذ عدّة أيام. مع ذلك لم يرجع لرؤية ترانسيتوسوتو، لأنّه حدس أنّها تخفي في ذاتها كلّ أخطار التعوّد. كان يحسّ سعاراً لم يرض يفور في أحشائه، جمراً يستحيل إطفاؤه، ظمأ إلى كلارا لم يصل في أيّة لحظة، بل خلال أطول لياليه وأدفئها، أن يطفئه، كان ينام مضنئ، وقلبه يكاد ينفطر في صدره، لكنّه، حتى في أحلامه، كان يشعر أنّ المرأة التي ترقد جانبه لم تكن حقّاً هنا، وإنّما في بعض عالم مجهول لن يلجه أبداً. كان أحياناً يعزّ صبره ويهزّ كلارا مغضباً، ويصيح إليها بأبشع الشتائم وينتهي إلى أن يبكي في حرجها ويتضرّع مغفرتها عن قسوته. وكانت كلارا تفهم فلا تستطيع شيئاً. كان حبُّ إيستيبان المفرط لكلارا ولاشك أقوى إحساس في حياته، بل أعتى من غضبه وغروره نفسهما، ولقد ظلّ بعد نصف قرن، يطلبها بالرعشة نفسها والحرارة نفسها. وعلى فراش شيخوخته، بقي يناديها حتى آخر أنفاسه.

وزادت تدخلات فيرولا في حالة السخط التي كان يتخبّط فيه إيستيبان. كان كلّ مانع تضعه أخته بين كلارا وبينه يخرجه عن طوره. فوصل به الأمر إلى كره أبنائه، لأنهم شغلوا اهتمام أمّهم، وخطف كلارا إلى شهر عسل جديد على الموقع الأول نفسه، ولدرجة أنهما كان يفران إلى الفنادق في عطلة الأسبوع، لكن ظهر أن كلّ شيء لافائدة منه. وأقنع نفسه أنّ فيرولا سبب كلّ شيء وأنها لقحت زوجته بجرثومة ضارّةٍ تدفعها عن حبّه، وأنّها امتلكت أيضاً بالمداعبات المحرّمة مايعود إليه كزوجٍ. كان يكفهّر حين يفاجئ فيرولا وهي

تغسل كلارا، فيأخذ من يديها الاسفنجة، ويطردها دون تحفّظ، ثم يخرج كلارا من الماء إذ يرفعها كقشّة، ويلذعها نقداً، ويمنعها من أن تدع أحداً يغسلها، فذاك في عمرها عيب، ويخلص إلى أن يجفّفها، ويدثرها بمئزرها ويحملها حتى سريرها بـإحساس عميق بالتفاهة، وإذا قدّمت فيرولا إلى زوجته فنجان شوكولاته، انتزعه من يديْها بحجّة أنّها تعاملها كعاجزةٍ؛ وإذا قبلتها متمنية لها ليلة سعيدة دفعها دفعةً وهو يقول أن ليس حسن التقبيل هكذا؛ وإذا انتقت لها أحسن القطع من طبخة ما، نهض عن المائدة غاضباً. أمّا عن الأخوين فقد وصل بهما الأمر إلى أن يغدوا ندّين علناً، ويحدّق كلٌّ منهما بالآخر بنظرات الحقد، وأن يخترعا آلاف المماحكات كي يقلّل كلّ منهما من شأن الآخر في عيني كلارا، وماكان يتوقف أحدهما عن التلصّص على الآخر. وأهمل إيستيبان العودة إلى الريف وكلّف بيدرو جارسيا الصغير بـإدارة كلّ شيء، بما فيه بقر التصدير، وعزف عن الخروج مع أصدقائه، والذّهاب للعب الجولف، والعمل نفسه، كي يتعلّق ليلاً ونهاراً بخطا أخته فينزرع معترضاً طريقها منذ أن تقترب من كلارا. وغدا جوّ البيت خانقاً، ثقيلاً وكئيباً، وبدا على النونو نفسها أنّها آلت إلى حالة مناجي أرواح. والوحيدة التي كانت غريبة على كلّ مايجري هي كلارا، فما كانت براءتها وشرودها، ينتبهان إلى شيء.

قضى الحقد بين إيستيبان وفيرولا زمناً طويلاً قبل أن ينفجر. كان في البدء شبيهاً بتمزّق أصمّ، بـإرادة أن يهين كلٌّ منهما الآخر في تفاصيل صغيرةٍ، لكنّه كبر قليلاً قليلاً إلى أن احتلّ البيت كلّه. ذلك الصيف، اضطر إيستيبان إلى الذهاب للماريات الثلاث، ففي وقت الحصاد، سقط بيدرو جارسيا الصغير عن الجواد وآل أمره إلى مشفى الأخوات مشدوخ الرأس. وما أن وقف الوكيل على قدميه حتى رجع إيستيبان بغتة إلى العاصمة. وأسلم نفسه، وهو في القطار إلى تنبؤاتٍ بشعةٍ، ورغبةٍ غير معلنةٍ في أن تحدث مأساة ما، من دون أن يعرف أنّ المأساة قد بدأت، في الوقت عينه الذي كانت تدعوها فيه رغباته. نزل في المدينة قبل العصر، وذهب رأساً إلى النادي فلعب عدة دورات بالورق وتناول عشاءه أن يتوصّل إلى تهدئة قلقه أو ضيق صبره، وهو يجهل ماينتظر بالضبط،

وخلال العشاء، حدثت هزّةٌ أرضيّةٌ خفيفةٌ واهتزّت الثريّات ذوات الذوائب في طنطنة عاديّة في الكريستال، غير أنّ أحداً لم يرفع رأسه، واستمر الآكلون بأكلهم، والموسيقيون بالعزف دون أن تفوتهم نوطةٌ واحدةٌ ماعدا إيستيبان ترويبيا الذي اهتز وكأنه رأى في ذلك إنذاراً. انتهى من العشاء سريعاً، فطلب الحساب وخرج.

لم تستطع فيرولا، التي كانت بصورةٍ عامّةٍ تسيطر على أعصابها، أن تتعود على الهزّات الأرضيّة. لقد توصّلت إلى ألّا تخشى الأشباح التي تستدعيها كلارا، ولاجرذان الريف، أما تلك الهزّات فقد كانت تقيمها وتقعدها، وكانت تظلّ ترتجف مدّة طويلةً بعد أن تنقطع. ذاك المساء، كانت لم تنم بعد فاندفعت في غرفة كلارا التي شربت فنجان الزيزفون ونامت بهدوء. وتمدّدت إلى جانبها، في بحثها عن رفقةٍ وحرارةٍ، واجتهدت ألّا توقظها وتمتمت بصلواتٍ صامتةٍ كي لاتتحوّل الهزّات إلى زلزال. وهناك وجدها إيستيبان ترويبيا. دخل البيت خلسة كلصّ وصعد دون أن يشعل الضوء حتى غرفة كلارا واندفع كإعصار أمام المرأتين الغافيتين اللّتين كانتا تظنّنان أنّه في الماريات الثلاث وانقض على أخته بالغيظ عينه كما لو كانت عشيق امرأته وسحبها خارج السرير، وجرّها على طول الممر، وجعلها تنزل الدرج أربعاً أربعاً، وأدخلها بالقوّة في المكتبة، بينما كانت تصيح كلارا، على عتبة غرفتها، دون أن تفهم شيئاً ممّا حصل. وحين أصبح إيستيبان وحده مع فيرولا فتح قلبه عن غضب الزوج المحروم وقذف أخته بكلّ الكلمات التي ماكان ينبغي أن ينطق بها تجاهها، واتّهمها بأنها تفسد زوجته وتضّللها بمداعبات العانس، وتجعلها شاذّةً ساهيةً، وتدفعها إلى الخرس واستحضار الأرواح باحتيالات سحاقيّة وتقضي معها أحسن الوقت عندما لايكون هنا، وتلوث اسم الطفلين، بل شرف المسكن، وذكرى أمهّما القدّيسة، صائحاً أنّ هذا السواد كثير، وأنّه يطردها من عنده، وأنّها يجب أن تذهب حالاً، وأنّه لايريد أبداً أن يراها وأنّه يمنعها جهاراً عن الاقتراب من امرأته وأولاده، وأنّها لن ينقصها المال كي تعيش عيشة لائقة بقية عمرها، كما وعدها من قبل، أمّا إذا رآها تدور حول أهله، فسوف يقتلها. أقسم لك بأمّنا أنّي قاتلك!

زمجرتْ فيرولا قائلةً: «عليك اللعنة، يا إيستيبان! سوف تعيش عمرك في العزلة، وروحك وجسدك سوف يضويان وتموت ككلب!».

وتركت إلى الأبد بيت الزاوية الكبير بقميص النوم ودون أن تأخذ معها شيئاً.

وفي اليوم التالي، ذهب إيستيبان كي يرى الأب أنتونيو وروى له ماحدث، دون أن يدخل في التفاصيل. أصغى إليه الراهب بأذن؛ ومن نظرته الهادئة، كان يرى أنّه لايسمع تلك الحكاية للمرّة الأولى.

سأل إيستيبان لما انتهى هذا من كلامه: «ماتنتظر مني يا بني؟».

ـ أن توصل إلى أختي كل شهر مظروفاً أسلمه لك. لاأريد أن تعاني هموماً مادّية. وأتمسّك بأن أبين أنّي لاأفعل ذلك عن طيب خاطرٍ، وإنّما تنفيذاً لوعد.

وأخذ الأب أنتونيو الغلاف الأول وهو يتنهد وقد رسم حركة تبريك، لكن إيستيبان كان قد دار على عقبيه وابتعد. ولم يقدّم لكلارا أيّ إيضاح عمّا حصل بينه وبين أخته. أخبرها أنّه طردها من البيت، وأنّه يمنعها هي من ذكر اسمها في حضوره وجعلها تفهم أنّها إذا بقي لها شيء من الحشمة ما أشارت إليه أيضاً عندما يدير ظهره. وأفرغ خزانته من كلّ الأشياء القمينة بأن تعيد ذكراها، وأدخل في نفسه فكرة أنّها ماتت.

وأدركت كلارا ألّا طائل من إلقاء الأسئلة عليه. فاتجهت إلى حقيبة خياطتها، حيث أخذت النواس الذي كانت تستخدمه في الاتصال مع الأشباح وتستعمله كجهاز تركيز، وفرشت على الأرض خارطة المدينة، وأمسكت بالنواس معلّقاً على بعد خمسين سنتيمتراً فوقها، وانتظرت حتى تدلّها الاهتزازات على الاتجاه الذي اتخذته أخت زوجها، لكنها بعد أن جهدت فترة بعد الظهور كلها، فهمت أن الجهاز لن يتوصّل إلى شيء، إذا لم يكن ليفرولا مسكن ثابت، ولما تبيّنت أنّ النواس قد فشل في تحديد مكانها، ذهبت في عربة دون هدفٍ معيّن، آملة أن تهديها غريزتها، لكن النتيجة كانت نفسها.

واستشارت المائدة فلم تعلن عن نفسها أيّة روح مرشدة فتأخذها إلى فيرولا عبر متاهة المدينة، ونادتها بالفكر فلم تحصل على أدنى جواب، والتاروت نفسه لم يوضح شيئاً. عندها عزمت على اللجوء إلى الوسائل التقليدية وأخذت تبحث بين أصدقائهما، سألت المموّنين وكلّ الذين كانت تتعامل معهم، لكنّ أحداً لم يرها. وأدّى بها البحث إلى أن تصل إلى الأب ريستريبو، قال لها الراهب:

ـ لاتبحثي عنها يا سيّدتي. إنّها لاترغب برؤيتك.

وفهمت كلارا أنّ هذا هو السبب الذي أفشل أجهزة تنبؤها التي لاتخطئ.

قالت في نفسها: «صدقت الأخوات مورا. إنّنا لانجد أحداً إذا لم يرد هو».

ومرّ إيستيبان تروييبا بفترة ازدهار عظيم. وبدت أشغاله وكأنّها مستها عصاً سحريّة. ومنحته الحياة تمام الرضى. صار غنيّاً، كما وعد نفسه من قبل. امتلك امتياز مناجم أخرى، وصدر الثمار إلى الخارج، وأنشأ مؤسّسة بناء، وغدت الماريّات الثلاث، التي ربحت كثيراً من المساحة، أحسن ملكية في المنطقة. ولم تؤثّر عليه الأزمة الاقتصادية التي هزّت بقية البلاد. ففي مقاطعات الشمال أغرقت إفلاسات معامل الآزوت، آلاف العمال في البؤس. وأخذت ترود الطرق جحافل العمال الجائعة وهي تجرّ نساءها وأطفالها وعجائزها، باحثةً عن عمل، وانتهت إلى أن اقتربت من المدينة وكوّنت تدريجيّاً إكليل إملاق في أرباضها، وأقامت حيث خذ عليك[1] بين دفّتين وقطعتي كرتون، وتركت لمصيرها، بين حقولِ الأقذار. فقد كانوا يضلّون بين الشوارع يستجدون أيّ عمل، ماكان من عمل لهم جميعاً وقليلاً قليلاً انقطع هؤلاء العمال الذين هزلوا من جوع وتقلّصوا من برد، الرثّو الثياب والمرهقون عن طلب الشغل واقتصروا على طلب الصدقة. وصاروا شحاذين ليس غير. ثم لصوصاً. ولم يعرف يوماً من قبل صقيعاً فظيعاً كما في تلك السنة. أثلجت على العاصمة، وهو مشهد

---

١ ـ من العامية «خود عليك» عند الزحام.

لم تتعوّده إلى حين خبر الصحف الأول الذي أشادت به لأنّه خبرٌ مفرحٌ، فيما كان يتكشّف الفجر في مدينة الصقيع في الأرباض عن أطفال ازرقّوا وتصلّبوا من الصقيع، أيضاً لم تكف الصدقة، أمام كلّ تلك النفايات.

كانت تلك سنة الحمّى النمشية. بدأت ككارثةٍ جديدةٍ نزلت بالفقراء، لكنّها اتخذت سريعاً صورة عقاب إلهي. ظهرت في الأحياء البائسة، بسبب الشتاء، وسوء التغذية، وماء السواقي الآسنة. وانضافت إلى البطالة، وتفرقت في كلّ مكان. المشافي فاضت. المرضى كانوا يخطرون في الشوارع زائغةً عيونهم، ويتفلّون ويقذفون طفيلياتهم على الأصحّاء. وانتشر الوباء، إذْ دخل إلى كل البيوت، أعدى الكليّات والمصانع، وبات لاأحد يحس أنّه في منجاة منه. عاش الناس جميعاً في الخوف، ونقّبوا عن الأمائر المنذرة بالمرض المخيف. فالذين يصابون يأخذون بالارتجاف، وقد تجلّدوا حتى العظم من برد حجر القبر، ثم يغرقون بعد قليلٍ في البلادة وكانوا يقبعون كمخبولين، أتلفتهم الحمّى، غطتهم البقع، يبصقون دماً، امتلأوا من دوار نار وغرق، ينهارون، سيقانهم من قطن وعظامهم كخرقٍ رخوةٍ، وطعم صفراء في الفم، والجسد منتهك، وحصة[1] حمراء تجاور أخرى زرقاء، وأخرى صفراء، وغيرها سوداء، يقيئون المصارين والأمعاء، يتضرّعون إلى الله أن يحيطهم برحمته، أن يدعهم يهلكون مرّة واحدة، لأنّهم حقّاً لايستطيعون أكثر من ذلك، فالرأس ينفجر أما روحهم فكانت تغادرهم إسهالاً وخوفاً.

عرض إيستيبان أن يأخذ العائلة جميعاً إلى الريف لعله يحفظها من العقاب، لكنّ كلارا لم تشأ أن تسمع. كانت جدّ منشغلة بـإغاثة الفقراء، مهمة لابدء لها ولانهاية. كانت تخرج صباحاً ولاتعود أحياناً مساءً إلّا حوالى منتصف الليل. فرّغت خزائن البيت، وجرّدت الأطفال من ثيابهم، والأسرّة من أغطيتها، وزوجها من ستره. كانت تنهب المؤونة من دولاب الأكل فأقامت نظام تموين مع بيدرو جارسيا الصغير، الذي كان يرسل من الماريات الثلاث،

---

١ ـ بشرة تعلو النسج الحيوانية والنباتية.

الجبن، والبيض، والفواكه والمقدّدات، والطيور، فتوزّعها بين معوزيها. ونحلت حتى تبدّت هزيلةً. وعاودتها جولات الروبصة خلال الليل.

كان لرحيل فيرولا أثر يشبه الكارثة الأرضية، حتى أنّ النونو نفسها، التي كانت تتمنّى تلك اللحظة، انقلبت رأساً على عقب. وفي بدء الربيع، لما استطاعت كلارا أن ترتاح قليلاً، ماكان من ميلها، إلى الخروج على الواقع والضياع في الأحلام إلّا أن ازداد. وبالرغم من أنّها باتت لاتستطيع الاعتماد على تنظيم أخت زوجها المطلق في معالجة فوضى بيت الزاوية الكبير، فقد استمرت على عدم الاهتمام بمشاكل الخدمة. أوكلت النونو بالعناية كلّها هي وبقية الخدم وغرقت في عالم الأرواح وماوراء النفس. واختلطت دفاترها عن الحياة، وفقد خطها رونقه الذي تعلمته عند الراهبات وتحوّل إلى خربشة غامضة، يصغر أحياناً فيكاد لايكشف، ويكبر أحياناً فتمتلئ الصفحة بكلماتٍ ثلاث.

في السنوات التالية دبقتْ حول كلارا والأخوات مورا الثلاث جماعة صغيرة من تلاميذ جورد جيف، ومن الصليب الوردة، ومن أشياع استحضار الأرواح، ومن غجر مروبصين يتناولون وجباتهم الثلاث في البيت ويمضون وقتهم في استشارات أرواح المائدة التي لاريب فيها وقراءة أبيات آخر شاعر ملهم قدم إلى عند كلارا. وماوافق إيستيبان على غزو هؤلاء الزوار إلّا لأنّه أدرك منذ زمنٍ طويلٍ أنّ التدخل في حياة زوجته عبث. لكنّه أمر بأن الولدين الذكرين يجب أن يبقيا بعيدين عن ذاك السحر حتى أن جيم ونيكولاس أصبحا داخليين في كلية فيكتورية أقل سبب فيها يستحق إنزال البنطال والضرب بالمقرعة وبخاصة جيم الذي كان يسخر من العائلة المالكة البريطانية ويهتم بقراءة ماركس، اليهودي الذي يفجر الثورات على الكوكب كلّه. أما نيكولاس فقد ورث روح المغامرة من جدّه ماركوس، ومن أمّه، مؤهلاتها في صنع خرائط البروج واكتشاف المستقبل، لكن هذا لم يكن جريمة كبيرة بنظر تربية الكليّة القاسية، وإنّما شذوذاً بسيطاً حتى أنّ هذا الصبي لم يكن يعاقب بقدر أخيه.

كان الحال مختلفاً مع بيانكا التي لم يتدخل الأدب في تربيتها. كان يعتبر

أن قدرها أن تبحث عن الزواج وأن تلمع في المجتمع وفيه موهبة الاتصال بالموتى، ولو أنها توصم بوصمة الخفة، التي يمكن أن تكون سبب بَلَهٍ. كان يذهب إلى أنّ السحر، مثله مثل المطبخ والدين، هو مجال خاص بالمرأة وربما كان يشعر من أجل هذا السبب يبعض المودة تجاه الأخوات الثلاث مورا، لكنّه كان يكره بالمقابل مستحضري الأرواح من الجنس الذكر مثل كرهه تقريباً للخوارنة. وكانت كلارا، من جهتها، لاتقدر أن تخطو خطوة دون أن تكون ابنتها معها، كانت تدعوها إلى جلسات الجمعة، وتربيها على الألفة الوثيقة مع الأرواح، وأعضاء الجمعيات السريّة والفنانين المساكين الذين كانت تقوم بدور الحامي لهم. وكما كانت ترافق أمّها في فترة صمتها، كانت تأخذ معها بيانكا في زياراتها للفقراء محمّلة بهدايا المواساة.

شرحت لبيانكا قائلة: «هذا يعيننا لإراحة ضميرنا. لكنّه لايعين الفقراء في شيء. إنّهم ليسوا بحاجة للإحسان وإنما للعدل».

حول هذه النقطة كانت تقوم بينها وبين إيستيبان أبشع المشادّات فقد كان من رأي آخر تماماً.

ـ العدل! أمن العدل أن يملك كلّ الناس الشيء نفسه؟ للخامل ما للذين يكدحون نفسه؟ والبلهاء لهم ما للأذكياء نفسه؟ إن هذا لاوجود له حتى عند الحيوانات! إنّها ليست مسألة أغنياء وفقراء، بل أقوياء وضعفاء. أنا موافقٌ تماماً على أن يمنح كلٌّ نفس الفرص، لكنّ هؤلاء الناس لايبذلون أيّ جهد. ليس أسهل من مدّ اليد وسؤال الصدقة! أعتقد أنّ الجهد ينال دوماً جزاءه. أنا بهذه الفلسفة وصلت إلى أن يكون لي كل ماأملك. أنا لم ألتمس يوماً فضل أحد، ولم أرتكب أدنى عوج، وهذا مايثبت أن أيّ أحدٍ بوسعه أن يعمل الشيء ذاته. كنت مهيّأً لئلا أكون سوى مخربش ورق بائس في دراسة كتابة العدل. لهذا السبب أنا لست مستعداً للتسامح في بيتي بالأفكار البولشفية. إذا سرّك أن تذهبي فتتصدقي في بيوت الهوى إذهبي! لامجال للأخذ والرد! ذلك أحسن مانصنع لتربية البنات. لكن لاتقدموا لي حماقات بيدرو الثالث جارسيا نفسها: هذا، مالاأستطيع له احتمالاً!

والواقع أن بيدرو الثالث جارسيا كان لاينفك يتكلّم عن العدل في الماريات الثلاث. كان الوحيد الذي يجرؤ على تحدي المالك بالرغم من الخبطات التي خبطها إياها أبوه بيدرو جارسيا الصغير كلّ مرة أمسك به في الجرم المشهود. كان الصبيّ منذ الصغر، يذهب دون تفويض إلى القرية كي يستعير كتباً ويقرأ صحفاً ويناقش معلم المدرسة، المغالي في الشيوعية، والذي سقط، بعد عدة سنين، برصاصة بين عينيه الاثنتين. كان أيضاً يفرّ ليلاً حتى مشرب سان لوكاس حيث كان يجتمع مع بعض النقابيين الذين أصابهم هوس إعادة بناء العالم بين جرعتي بيرة أو أيضاً مع الأب العملاق الرائع خوسيه دوليش ماريا، وهو راهب إسباني طبخ رأسه بالأفكار الثورية مما سبب نفيه من قبل شركة المسيح إلى هذا الوجر الضائع، وهو أمر لم يدفعه عن الاستمرار بتحويل الأمثال التوراتية إلى شعارات اشتراكية. وفي اليوم الذي اكتشف فيه إيستيبان تروييبا أنّ خلف وكيله يدخل الأدب الهدام بين مزارعيه، استدعاه إلى مكتبه، بوجود أبيه وأوجعه ضرباً بسوطه المصنوع من جلد الحنش.

قاله له دون أن يرفع لهجته وهو ينظر إليه بعينين مشتعلتين: «هذا أوّل إنذار أيّها الخامل القذر الصغير! في المرّة المقبلة التي أضع فيها يدي عليك وأنت تزعج ناسي، سوف أرميك في السجن. على ملكيتي، لاأريد رؤوساً قويّة، هنا أنا الذي آمر ولي الحق في أن أحيط نفسي بأناسٍ يعجبونني. أنت لاتعجبني! ليكن معلوماً لديك. احتملك من أجل أبيك الذي خدمني بأمانةٍ خلال سنين عديدةٍ، أخطئ ثانيةً، وعندها تسوء أمورك كثيراً. أغرب عن وجهي.

كان بيدرو الثالث جارسيا يشبه أباه كثيراً: أسمر، ملامحه قاسية منحوته في الحجر، وعينان كبيرتان حزينتان وشعر كثّ أسود خشن مقصوص كفرشاة. قلبه كان لايخفق إلّا لكائنين اثنين، أبيه وابنة المالك التي وقع في حبّها منذ طفولته الأولى حين ناما عاريين تحت الطاولة في غرفة الطعام. وبيانكا لم تنج أيضاً من هذا القدر. كانت كلّما جاءت في العطلة إلى الريف ونزلت في الماريات الثلاث خلال زوبعة من الغبار الذي تثيره العربات التي تنقل طاقمها الكثير الجلبة، كانت تحسّ بضرب من ضيق وحصر كأنّه طبلٌ أفريقي. وكانت

أول من يقفز إلى الأرض ويندفع إلى البيت، فكانت ترى حتماً بيدرو الثالث جارسيا في المكان عينه الذي لاحظ كلّ منهما الآخر للمرّة الأولى، واقفاً على العتبة، نصف مختف في ظل المدخل، حييّاً ومقطّباً، قدماه عاريتان، بنطاله مهترئ حتى السدوة، يسبر الطريق بعينيه عيني الشيخ كي يرى وصولها. كانا يمزجان ضحكهما، ويتبادلان اللطمات المحبة، ويتدحرجان أرضاً ويتماسكان بالشعر وهما يزعقان فرحاً.

كانت النونو تصيح وهي تحاول تفريقهما: «ألا تريدين أن تتوقفي! ألا تريدين أن تتركي هذا المقمّل القذر!».

وكانت كلارا تقول التي تعرف كثيراً عنهما: «دعيهما يا نونو، إنهما طفلان يحبّان بعضهما».

وكان الطفلان يفرّان راكضين ويختبئان فيقصّ بعضهما لبعض كلّ ماجمعا خلال شهور الفراق. كان بيدرو يقدم لها وهو يحمّر حيوانات صغيرة محفورة صنعها لها من أطراف الخشب وتعطيه بيانكا بالمقابل الهدايا التي جمعتها من أجله: موسى تفتح كتويج، ومغناطيس صغير يجذب بالسحر المسامير الصغيرة الملقاة أرضاً. وفي الصيف الذي نزلت فيه ومعها جزء من محتوى حقيبة كتب الخال ماركوس السحرية، كان عمرها حوالى عشرة وكان بيدرو الثالث يقرأ الحروف بصعوبة، غير أن حبّ الإطلاع والنهم إلى المعرفة نجحا حيث فشلت المعلمة بضرب القرعة. وقضيا الصيف بالقراءة مضطجعين بين القصب على شاطئ النهر، وبين صنوبر الغابة وسنابل القمح يستفيضان في شرح فضائل ساندوكان وروبين الأحراش، وحظ القرصان الأسود العاثر، وحكايات كنز الشباب الحقيقيّة الدافعة للتقوى، والتعاريف الخبيثة للكلمات المحرّمة في قاموس الأكاديمية الملكية للغة الإسبانية، والطريقة القلبية الوعائية على لوحات يستطيعان فيها رؤية نموذج مسلوخ بقيت عروقه وقلبه معروضة لنظر الجميع، لكن بالسروال. وتعلم الصبيّ في خلال بعض أسابيع القراءة بضراوة. لقد وصلا إلى عالم القصص الشاسع العميق الذي تنام فيه واقفاً، المليء بالجنيات والأشباح، بالغرقى الذين يأكل بعضهم بعضاً بعد الاقتراع، والنمور

التي تستسلم للتدجين من عشقها، والاختراعات الساحرة، والغرابات الجغرافية والحيوانية، والبلدان الشرقيةالتي توجد فيها الجنيات في القناني والتنانين في المغائر، والأميرات السجينات في أعلى الأبراج وكثيراً أما كانا يذهبان لزيارة بيدروجارسيا الكبير الذي يرى الزمان ملكاته. وصار قليلاً قليلاً أعمى، غطّت بؤبؤيه غشاوة سماوية. كان يقول: «إنها الغيوم تدخل في عيني». كان يلم به سرور عارم من زيارة بيانيكا وبيدور الثالث الذي نسي هو نفسه أنّه حفيده. كان يصغي إلى الحكايات التي ينتقيها من الكتب السحريّة ويجأربها بأذنه، لأنه كان يقول أنّ الهواء يدخل منها، فكان من شأن ذلك أن أصبح أطرش. وبالمقابل كان يعلمهما كيف يتحصنان من عضّ البهائم الضارّة ويريهما نجاعة ترياقه بأن يضع عقرباً حيّاً على ذراعه. علمهما كيف يجد المرء الماء. يجب الإمساك بغصن باليدين غصناً شديد اليبس والتقدّم على زجه الأرض، بصمت. والمرء يفكر بالماء والعطش الذي يعانيه الغصن، حتى إذا أحسّ هذا الغصن بالرطوبة بدا يرتعش. ويبقى عندها الحفر في ذاك المكان، يقول لهما العجوز، ويدقّق بأن هذه لم تكن الطريقة التي استخدمها لتحديد مكان الآبار في ملكية الثلاث ماريات، لأنّه لم يكن بحاجة إلى عصاً. كانت عظامه شديدة الظمأ، حتى إذا مرّ فوق طبقة ماء تحت الأرض، مهما كانت عميقة، ينبئه بها هيكله العظمي. كان يدلهما على أعشاب الحقول، ويجعلهما يتنشقانها، ويذوقانها، ويداعبانها حتّى يحسّا بالعطر الطبيعي، والمذاق والنسيج، وتحديد هوّية كلّ منها تبعاً لفضائله الشافية: من أجل تهدئة الروح، طرد السوائل العصبيّة الشيطانية، ومن أجل جعل العينين لامعتين ، وتقوية البطن، وتنشيط الدم. وفي هذا المجال، كانت معرفته واسعة حتى أن طبيب مشفى الراهبات كان يأتي لزيارته من أجل أن يسأله النصح. لكن كلّ هذه المعرفة لم تستطع أن تتغلّب على حمى ابنته بانشا المحتدمة، التي أرسلتها إلى العالم الآخر. جعلها تبتلع روث البقر، فما حصل على نتيجة، وقدّم لها براز الجياد، ولفّها بالأغطية، وجعلها تنضح مرضها حتى لم يبق لها غير الجلد على العظم، ودلك كلّ جسدها بالبودرة المحلولة بماء الحياة، لكنّ ذلك كان خسارة نظيفة، كانت بانشا تفرغ بـإسهال لا نهاية له

يستنزف كلّ داخلها ويجعلها تعاني ظمأ لا يروى. فلما غلب بيدور جارسيا طلب إلى السيد الإذن بأن يأخذها إلى القرية. ورافقها الطفلان. وفحص طبيب مشفى الراهبات بانشا بعناية وقال للشيخ بأنها ضاعت، ولو أنّه لم يتأخر بجلبها ولم يجعلها تتعرق إلى هذا الحد، لكان بوسعه أن يحاول من أجلها شيئاً ما، لكن جسمها بات لايستطيع أن يمسك بأيّ سائل وأنّها صارت مثل نبتة جفّت جذورها. صدم بيدرو جارسيا وعاند في إنكار فشله، فرجع مع جثة ابنته الملفوفة بغطاء يرافقه ابناها المرعوبان والتي أنزلها في ساحة الماريات الثلاث وهو يبرطم ويتذمّر من جهالة الطبيب. ودفنت في مكان متميّز من المقبرة الصغيرة، المجاورة للكنيسة الواقعة عند سفح البركان، لأنّها كانت بطريقة ما امرأة السيّد، فقد أعطته الإبن الوحيد الذي يحمل اسمه، دون أن يحمل كنيته وحفيداً، هو ذاك الشاذ إيستيبان جارسيا، المقدر له أن يلعب دوراً فظيعاً في حوليات العائلة.

ذات يوم، روى العجوز بيدرو جارسيا لبيانكا وبيدرو الثالث حكاية الدجاجات التي اتفقت على أن تواجه الثعلب الخبيث الذي كان يدخل كلّ ليلة إلى القنّ حتى يسرق البيض ويلتهم الصيصان الصغيرة، وأعلنت الدجاجات أنّها باتت لاتطيق قانون الثعلب ونظمت نفسها لانتظاره، فلما، دخل القن، سدّت الطريق عليه وأحاطت به ثم رمت نفسها عليه بكلّ قوّة مناقيرها، حتّى تركته بين الموت والحياة.

وخلص العجوز إلى القول: «وشوهد الثعلب يفرّ وذنبه إلى أسفل، تلاحقه كلُّ الدجاجات».

وقهقهت بيانكا من هذه الحكاية وأعلنت أنّه مستحيل، لأنّ الدجاج يولد غبيّاً ودون دفاع، والثعالب محتالة وقويّة، لكن بيدرو الثالث لم يضحك. ظلّ يحلم طيلة فترة الظهر، ويجترّ حكاية الدجاجات والثعلب، وربما بدأ الطفل تلك اللحظة يصبح رجلاً.

الفصل الخامس

العاشقان

انقضت طفولة بيانكا دون هزّات كبيرةٍ، تتناوب فيها الصيفيّات الحارّة في الماريّات الثلاث، حيث كانت تكتشف قوّة عاطفة تكبر معها بقدر ما تكبر هي، ورتابة العاصمة، الشبيهة بتلك التي تعرفها البنات من عمرها ووسطها، ولو أنّ حضور كلارا أدخل في حياتها لمسة غرابة. كانت النونو تظهر كلّ صباح ومعها الفطور وتأتي إليها فتهزّها، وتتحقق من قيافتها، وترفع لها جواربها، وتلبسها قبعتها وكفيها وشالها، وترتب لها كتبها في كيسها، وهي تحشر صلوات تتمتمها من أجل راحة نفس المرحومين، مع التوصيات بصوت عال، تخص فيها بيانكا بألّا تدع الراهبات يخدعنها. كانت تنذرها قائلة:

ـ كلّ هؤلاء النساء مفسدات، ينتقين أحلى التلميذات، وأذكاهنّ، سليلات العائلات الكبيرة حتى يسجنهن في الدّير، وهناك يحلقن رؤوس المستجدات، المسكينات، ويحكمن عليهن بـإفساد حياتهن بصناعة التورتات للبيع والعناية بالشيوخ الذين لايعنون شيئاً عندهنّ.

كان السائق يأخذ البنيّة إلى الكلية حيث كانت أولى نشاطات النهار تقوم على صلاة وتناول إجباريين. وكانت بيانكا وهي راكعة على مقعدها تشم رائحة البخور الكثيفة وزنابق مريم البيضاء، وتتذوق عذابات الغثيان، والخطيئة والملل مجتمعة ذلك كان الشيء الوحيد الذي لايعجبها في الكليّة. كانت تحب

أروقة الحجر الكبيرة ونظافة الأرض المرمريّة النقيّة، وعري الحيطان الأبيض ومسيح الحديد المطرّق الذي يحرس المدخل. كانت كائناً عاطفيّاً ورومانطيقيّاً؛ كانت ميّالة للوحدة، تعدّ قليلاً من الصديقات، قمينة بالتأثر حتى الدموع عندما تتفتّح الورود في البستان أو تتنشّق رائحة البياض والصابون الزاهدة لدى الراهبات المكبّات على وظائفهن أو تبقى متأخّرة كي تتذوق صمت الصفوف المقفرة الكئيب. كانت توصف بالخجل والحزن. في الريف وحده، وقد ذهبت الشمس جلدها، وامتلأت بطنها بالفواكه الطازجة، وهي تعدو عبر الحقول مع بيدرو الثالث، كانت فقط باسمة وفرحة. كانت أمها تقول هنا بيانكا الحقيقية، أما الأخرى، في المدينة، فما هي إلا بيانكا في السبات الشتوي.

لم ينتبه أحد ماعدا النونو، نتيجة للحركة الدائمة التي تسود باستمرار بيت الزاوية الكبير، إلى أنّ بيانكا في الطريق إلى أن تصبح امرأة. دخلت البلوغ دون أن تصيح انتبهوا. من آل ترويبيا ورثت الدم الإسباني والعربي، والمهابة الأميرية، والبرطمة الوقحة، واللون الزيتوني والنظرة المعتمة لجيناتها المتوسطيّة، لكنّها دبّجها ميراث أمها التي أتاها منها ذلك التكاسل الحلو الذي ماكان قطّ من نصيب آل ترويبيا، كانت طفلة هادئة تتسلّى وحدها، تنصرف إلى دراستها، وتدلّل لعبياتها ولاتبدي أدنى ميلٍ طبيعي لاستحضار الأرواح، كأمّها، ولا للغضب، كأبيها. كان يقال في عائلتها، مزاحاً، أنّها الكائن الوحيد الطبيعي منذ أجيال، والواقع، أنّها يمكن أن تؤخذ على أنّها معجزة توازن وصفاء. وفي حوالي الثالثة عشرة، بدأ نهداها يتكوّران، وقامتها ترقّ ونحلت ومشقت كنبات مطيّب. وجمعت لها النونو شعرها في كعيكة ورافقتها كي تتسوّق أولى قمصانها، وأول زوج جوارب حريرية وأوّل روب صبيّة وعلبة مناشف صغيرة لما كانت تسميه مشاهرتها. في تلك الأثناء كانت تستمر أمها في ترقيص الكراسي عبر البيت كلّه، وتعزف شوبان على البيانو المغلق وتلقي أبياتاً رائعة من الشعر دون غرض ولاقافية ولامعنى لشاعر فتى استقبلته، وبدأ الناس يتكلّمون عنه قليلاً في كلّ مكان، دون أن تنتبه للتبدلات التي حصلت عند ابنتها ودون أن ترى أنّها جعلت خياطة بزتها للكلية تتفتّق، أو تلاحظ أن عصيدة الفواكه

الصغيرة تحوّلت قليلاً قليلاً إلى وجه امرأةٍ حقيقي، لأنّ كلارا كانت تعير انتباهها إلى السائل العصبي والإشعاع أكثر من السنتميترات والكيلووات. ويوماً رأتها تدخل مشغل الخياطة بروب خروجها ولم تصدق أن هذه الآنسة الطويلة السمراء هي صغيرتها بيانكا. أخذتها بين ذراعيها وأوسعتها قبلاً وأنذرتها بأنّ عادتها لن تتأخر.

قالت لها كلارا: «اجلسي، كي أشرح لك ما أعني».

وأجابتها بيانكا ضاحكة: «لاتتعبي نفسك يا ماما، بعد قليل سوف ينقضي عام على مجيئها كلّ شهر».

لم يبدّل تكوين الفتاة تبديلاً كبيراً في العلائق بينهما لأنّ هذه كانت تعتمد على مبادئ الوفاء لقبول متبادل، كامل ونهائي، وعلى قابليّة للسخر معاً من كلّ أمور الحياة تقريباً.

تلك السنة، بدت تباشير الصيف مبكّرة، ونزلت بالمدينة حرارة جافة وخانقة مشفوعة بأصداء حلم بشع، وعليه قدّموا الرحلة إلى الماريّات الثلاث خمسة عشر يوماً. واستعجلت بيانكا، كما في كلّ سنة لحظة اللقاء التي ترى فيها بيدرو الثالث، وكما في كلّ سنة كان أول شيء تفعله، حين تنزل من العربة، أن تبحث بالنظر في المكان الدائم عينه. لكنها اكتشفت خياله الذي اختفى في إطار الباب، فاندفعت إلى لقياه، بقلق كذا من الشهور التي انقضت بالحلم به، لكن كي ترى مستغربة الصبي يدور ويفرّ.

وقضت بيانكا كلّ فترة بعد الظهر وهي تنقّب في الأمكنة التي اعتادا أن يلتقيا بها، سألت عن أخباره، نادته بصيحات قويّة، بحثت عنه حتى في بيت بيدرو جارسيا الكبير، ولما هبط الليل انتهت، مقهورة، إلى أن تنام دون أن تأكل. وفي سريرها النحاسي الضخم، وقد شعثها الأسى، دفنت وجهها في الوسادة وبكت كلّ دموع جسدها. وأتت لها النونو بكأس حليب بالعسل واكتشفت للتو مصدر حزنها.

قالت لها وقد تغضنت ابتسامتها: «أنا مسرورة. لأنّ عمرك لايسمح لك بالتسلّي مع هذا المقمّل الذي امتلأ مخاطاً».

وبعد نصف ساعة، دخلت أمّها كي تقبلها فوجدتها تهزّها أواخر نحيب يأس ميلودرامي. وفي مسافة لحظة، انقطعت كلارا عن أن تكون ملاكاً شروداً وهبطت إلى مستوى الفانين البسطاء الذين يعرفون في الرابعة عشرة أوّل لاعج حبّ. وأرادت أن تستعلم، لكنّ بيانكا كانت جدّ أنوفة أو أنّها صارت امرأة كاملة ولم تقدّم لها أيّ تفسير، حتى أنّ كلارا اكتفت بالجلوس لحظة على السرير وهدهدتها إلى أن استعادت هدوءها.

تلك الليلة نامت بيانكا نوماً سيئاً واستفاقت عند منبلج الفجر، وقد حاصرتها أشباح الغرفة الفسيحة. بقيت تتأمّل زخارف السقف حتى سمعت الديك يغنّي، فقامت عندئذ، وفتحت السجف وسمحت لأشعة الفجر العذبة بالدخول، وأول ضّجة العالم، اقتربت من مرآة الخزانة ونظرت طويلاً. نزعت قميصها وفحصت للمرّة الأولى جسدها بالتفصّيل، وفهمت أنّ كلّ هذه التحولات هي سبب فرار رفيقها. وابتسمت ابتسامة امرأة جديدة ورقيقة. ارتدت ثياب الصيف الماضي القديمة التي لاتستطيع تقريباً أن تزرّرها، ولفت نفسها بغطاء وخرجت على رؤوس أصابعها كي لاتوقظ بقية العائلة. كانت البرّيّة، في الخارج تهزّ خدرها الليليّ، وقد تصالبت أوائل أشعّة الشمس كسيوف قمم السلسلة فتدفئ الأرض وتبدّد الندّى في زبدٍ رقيقٍ أبيض يمحو حنايا الأشياء ويبدّل المنظر إلى رؤيا حلم. ووجهت بيانكا خطاها إلى النهر. كان مايزال كلّ شيء هادئاً، وقدماها تدعسان الأوراق الميّتة، والزغف الجافة، فتصدر طقطقة رقيقة، النغم الوحيد في هذا المدى الشاسع النعسان. بادرها شعور أن مغارس الحور الغامضة، والقمح الذهبي، وخواصر الجبال البعيدة البنفسجيّة التي تتلاشى في السماء الشفانية[1] لهذه الصبيحة لم تكن جميعاً غير ذكرى راجعة إلى ذاكرتها، شيء رأته قديماً تماماً كما هو الآن، لحظة

---

١ ـ نصف شفافة.

عاشتها من قبل. كان رذاذ الليل قد رطّب الأرض والشجر، وأحست أن ثيابها تبلّلت بللاً خفيفاً، وبردت قدماها. واستنشقت رائحة الأرض الرطبة، والأوراق البالية، والدّبال، التي توقظ لذة حسيّة يجهلها ذووها.

ووصلت بيانكا إلى النهر ورأت رفيق طفولتها جالساً حيث تواعدا على اللقاء مرّات كثيرة. ولم ينضج بيدرو مثلها، خلال السنة الفائتة، فما زال الطفل الأسمر الهزيل نفسه، ذا البطن المنتفخ، وفي عينيه السوداوين لمحة الشيوخ الذين يعرفون مالايعرف سواهم. عند رؤيتها وقف فلاحظت أنّه أقصر منها بنصف رأس. ونظر كلّ منهما للآخر مستغرباً، وهما يشعران للمرّة الأولى أنهما غريبان بعضاً عن بعضٍ. وخلال لحظة بدت أنّها يجب ألّا تنتهي، ظلا جامدين، وتعودا على تلك التبدّلات، وتلك المسافات الجديدة، وفجأة زغرد دوري وعاد كلّ شيء إلى ماكان الصيف الماضي. وصارا من جديد كطفلين يعدوان، يضمّان بعضهما بعضاً وينفجران ضاحكين، يقعان أرضاً ويتدحرجان تخدشهما الحصى وهما ينغمان اسميهما حتى ينبهر النفس، سعيدان أنّهما معاً مرة أخرى. ثم آبا إلى الهدوء، غدا شعرهما مبذوراً أوراقاً جافة نزعها لها واحدة بعد أخرى.

قال لها بيدرو الثالث: «تعالي، أحبّ أن أريك شيئاً».

أخذها من يدها، يتذوّقان أول صباحات العالم، يجرّان أقدامهما في الوحل، يقطفان سوقاً طريّة كي يمصّا نسغها، يتبادلان نظرات وابتسامات، دون قول كلمة، حتى أرض بعيدة. وبرزت الشمس فوق البركان. غير أن النهار كان ما استقرّ بعد تماماً والأرض تتثاءب. أشار لها بيدرو بأن تتمدد أرضاً وتصمت. زحفا ناحية بعض الأدغال وانعطفا قليلاً، وعندها فحسب رأتها بيانكا. كانت فرساً كميتاً جميلة، وحيدة على التلة، وهي تضع مولوداً. وبقي الولدان جامدين، يجتهدان في ألّا يسمع تنفسهما، ورأياها تلهث، وتدفع حتى ظهر رأس المهر، ثم وبعد وقتٍ طويلٍ، بقية الجسم. وسقط الحيوان الصغير أرضاً وأخذت الأم تلحسه، وجعلته نظيفاً لامعاً مثل خشب ملمّع، وشجعته بخطمها على محاولة الوقوف على قوائمه. وحاول المهر أن ينهض، لكنّ قوائم الوليد

الضعيفة اصطكت وظلّ نائماً، وهو ينظر إلى أمّه بهيئة الضائع، بينما كانت تلك تحيي الفجر بصهيلها. وأحست بيانكا بالسعادة تنفجر في صدرها وتنبجس دموعاً من عينيها. قالت بصوت خفيض:

«عندما أكبر سوف أتزوج منك ونعيش هنا في الماريّات الثلاث».

وبقي بيدرو ينظر إليها بتعبير عجوز حزين وأشار برأسه أن لا. كان مايزال أكثر طفولة منها، لكنّه كان يعرف أين مكانه في هذا العالم. كان يعرف أيضاً أنّه سيحب هذه البنت حتى آخر أيامه، وأنّ هذا الفجر سوف يبقى أبداً في ذاكرته وأنّه سيكون آخر شيء يراه في لحظة موته.

وقضيا ذاك الصيف وهما يتردّدان بين الطفولة التي تمسك بهما ويقظة الرجل والمرأة. كانا أحياناً يعدوان كطفلين فيهيجان الدجاج ويثيران البقر ويلتهمان الحليب الطازج المحلوب للتو فيترك لهما شوارب من قشدة، ويسرقان الرغيف الخارج من الفرن، ويتسلقان الأشجار كي يبنيا فيها أكواخاً من أغصان. وأحياناً كانا يختبئان في أكثر زوايا الحرش سريّة وكثافة فيلعبان لعبة الزوج والمرأة، ويداعب بعضهما بعضاً حتى مايستطيعان، وهما لم يفقدا بعد البراءة التي، منذ القدم، تجعلهما يخلعان ثيابهما دون خبث ويستحمان عاريين في النهر، يغطسان في الماء البارد ويدعان المجرى يجرهما إلى حجارة العمق الناعمة. لكن كانت هنالك أشياء لايشتركان فيها كما من قبل. تعلما كيف يستحييان. كفّا عن التسابق بينهما من يصنع رامة أكبر من البول وامتنعت بيانكا عن أن تحدّثه عن المادّة المسمرّة التي تلطخ سروالها مرّة كلّ شهر. واكتشفا، دون أن يقول لهما أحد أنّهما لايستطيعان كلّ الإلفة في حضور الآخرين. وبينما كانت بيانكا ترتدي ثياب الآنسة وتتخذ مكانها بعد الظهر على الشرفة كي تشرب الليمونادة برفقة أهلها، كان بيدرو الثالث يتأملها من بعيد، دون أن يقترب، بدآ ينصرفان إلى ألعابهما في السرّ. انقطعا عن السير يداً بيد ولم يستطع الكبار رؤيتهما وآخذا يتجاهل أحدهما الآخر كي لايثيرا انتباههم. وتنفست النونو، الصعداء، لكنّ كلارا بدأت تراقبهما أدقّ من ذي قبل.

اقتربت العطلة من نهايتها ورجع آل تروييبا إلى العاصمة، محمّلين بأواني المربيات والفواكه المحلاة، وقفف الفواكه، والجبن، والطيور، والأرانب المنقوعة بالملاح وسلال ملأى بالبيض. وبينما كانوا يرتّبون كل شيء في العربات التي تقلهم إلى القطار اختفت بيانكا وبيدرو الثالث في المستودع ليودع بعضهما بعضاً. لقد وصل بهما الأمر خلال تلك الشهور الثلاثة، إلى أن يتحابّا في هوى عارم سوف يفقدهما الصواب حتى آخر أيامهما. لقد غدا هذا الحب، مع الزمن منيعاً وثابتاً، ولو أن له آنئذ العمق نفسه وقوة القناعة نفسها اللذان ميّزاه فيما تلا. فوق كومة من الحبّ، وهما يتنشقان رائحة غبار المستودع في أشعة الصباح المذهبة المشعشعة المنسربة من بين ألواح الخشب قبل كلّ منهما الآخر قليلاً في كلّ مكان، وتلحوسا، وتعاضّا، وتماصا، وبكيا وشربا دموع بعضهما بعضاً وتعاهدا عهداً إلى الأبد واتفقا على رمز سرّي يستخدمانه في الاتصال خلال شهور الفراق.

كلّ الذين عاشوا تلك اللحظة متفقون على أنّ الساعة كانت الثامنة مساء عندما ظهرت فيرولا دون أن ينبئ عن ذلك. كلّ رآها بصدارها المنشّا، وحزمة مفاتيحها بزنّارها، وكعيكة شعر العانس، كما تعودوا أن يروها دائماً في البيت. دخلت من باب غرفة الطعام في اللحظة التي بدأ فيها إيستيبان يقطع فيها الفخذ المشوي، فعرفوها حالاً، بالرغم من أنهم لم يروها منذ ست سنين ومن أنها جدّ شاحبة وقد غيرها العمر. كان سبتاً وقد ترك جيم ونيكولاس، التوأمان المدرسة الداخلية كي يقضيا آخر الأسبوع بين العائلة، وهكذا كانا هما أيضاً هناك. وليس أهم من شهادتهما، لأنّهما الوحيدان في البيت اللذان كانا يعيشان بعيداً عن المائدة، صانتهما من السحر واستحضار الأرواح قسوة كليتهما الانكليزية. أحسّوا أوّلاً كما لو برد مفاجئ في الغرفة وأمرت كلارا وقد خالت أنه تيار هوائي، أن تغلق النوافذ. ثم سمعوا صلصلة مفاتيح وفي الحال انفتح الباب عن فيرولا، وهي صامتة وبهيئة بعيدة، في اللحظة نفسها التي دخلت فهيا النونو من باب المطبخ ومعها صحن السلطة. وظل إيستيبان تروييبا، وقد أذهلته الدهشة والشوكة وسكين التقطيع في الهواء، بينما كان الأولاد الثلاثة يصيحون

جماعة: «عمتنا فيرولا!» ووجدت بيانكا القوة كي تنهض وتتجه للقائها، لكنّ كلارا الجالسة بجانبها، مدّت يدها وأوقفتها بأحد ذراعيها. والواقع أن كلارا لطول أمد عشرتها مع المسائل فوق الطبيعية، كانت الوحيدة التي انتبهت من النظرة الأولى لما يجري، بالرغم من أن شيئاً في مظهر أُخت زوجها لم يدع مجالاً لكشف حالتها الحقيقية. وتوقفت فيرولا على بعد متر من الطاولة وتأملتهم جميعاً بعينين فارغتين لامباليتين، وتقدمت من كلارا التي وقفت دون أن تقوم بأية حركة تقدم نحوها، لكنها أغلقت جفنيها وأخذت تتنفّس أنفاساً متقطّعة، كما لو أنّها تحضن إحدى أزمات ربوها. وتقدمت نحوها فيرولا، ووضعت يداً على كلّ من كتفيها، وطبعت على جبينها قبلة سريعة. وماكان يسمع في غرفة الطعام غير لهاث كلارا ورنين المفاتيح الضئيل في زنار فيرولا. وبعد أن قبلت هذه زوجة أخيها دارت حولها وخرجت من حيث أتت، وأغلقت الباب وراءها برقّة. وبقيت العائلة بين جدران غرفة الطعام وقد أصابها شلل، كما لو أنّها في كابوس. وأخذت فجأة النونو ترتعش بقوة حتى أن أطباق السلطة سقطت، وجعلهم صوت الأواني الفضية التي ارتطمت بالأرضية يرتجفون. وفتحت كلارا عينيها. ظلت تتنفس بصعوبة ودموع صامتة تسيل على خديها، حتى العنق وتلطخ صدارها.

أنبأتهم قائلة: «ماتت فيرولا!».

ترك إيستيبان أطباق تقطيع المشوي على الغطاء وغادر سريعاً من غرفة الطعام. خرج حتى الشارع، ينادي أخته، لكنّه لم يكتشف أيّ أثر لها. في ذلك الوقت، أمرت كلارا خادماً أن يأتيها بالمعاطف وعندما رجع زوجها كانت تلبس معطفها وتمسك بمفاتيح السيارة:

قالت: «لنذهب إلى عند الأب أنتونيو».

قطعوا المسافة دون قول كلمة كان إيستيبان يقود السيارة منقبض القلب، باحثاً عن خورنية الأب أنطونيو القديمة في تلك الأحياء الفقيرة التي لم تطأها قدمه منذ عدد من السنين. لما نزلوا ومعهم خبر أن فيرولا أسلمت الروح، كان الراهب يخيط زراً في جبته الرثّة.

عجب قائلاً: «هذا غير ممكن. كنت معها منذ يومين وكانت صحيحة الجسم، سليمة العقل».

تضرعت كلارا قائلة: «خذنا إليها يا أبي، أرجوك. عندي أسبابي كي أقول لك: لقد ماتت يقيناً».

أما إلحاح كلارا، رافقهم الأب أنتونيو. دلّ إيستيبان عبر الدروب الضيقة حتى مسكن فيرولا في سنوات عزلتها كلّها، عاشت في أحد بيوت الهوى حيث، كانت تذهب في شبابها كي تتلو مسبحتها ضد رغبة الذين توجّه لهم برّها. واضطروا أن يتركوا السيّارة قبل عدة أبنيّة منه، لأنّ الدروب أخذت تزداد ضيقاً، وأدركوا أنّها لاتسلك إلا على القدم أو الدراجة. ودلفوا إليها في رتلٍ هندي، يجتنبون رامات المياه القذرة الفائضة عن السواقي، ويدورون حول الأقذار التي تكدّست أكواماً حيث تنبشها أشباح قطط خفيّة. كانت مدينة الهوى موكب مغارات مهدّمة متشابهة بعضاً ببعض، بيوت كلاب إسمنتية متواضعة وحقيرة لها بابٌ واحدٌ وشباكان، مدهونة بلونٍ مسمرٍّ، مخلعة، أكلتها الرطوبة، وأسلاك حديد ممدودة عبر الممر، يعلّق عليها الغسيل في النهار أمام الشمس، لكنها عارية في تلك الساعة من الليل تتأريجح تأرجحاً خفيّاً. في منتصف الطريق لم يكن هناك غير خزّانٍ واحدٍ لتزويد كلّ العائلات التي تعيش فيه بالماء، وقنديلي غاز كي ينيرا الممر الضيّق بين البيوت. وحيّا الأب أنتونيو عجوزاً كانت تقف إلى جانب الخزّان، تنتظر أن يمتلئ دلوها من الخويط البائس السائل من الصنبور.

سألها قائلاً: «ألم تريْ الآنسة فيرولا؟».

أجابت العجوز: «يجب أن تكون في بيتها يا أبي، لم أرها في هذه الأيام».

ودلّ الأب أنتونيو على إحدى المغائر الشبيهة بالأخريات، على مثل حزنها وقذارتها ومقشّرة كلّها، لكنّها الوحيدة التي تعرض إناءي زهر معلّقين على جهتي الباب، تنمو فيهما بعض سوق حقيرة من إبرة الراعي، زهرة الفقير. دقّ الراهب على الباب.

صاحت العجوز من عند الخزّان: «ماعليك إلّا الدخول. الآنسة لاتغلق أبداً بالمفتاح. يجب أن يقال ليس عندها مايسرق!

فتح إيستيبان ينادي أخته، دون أن يجرؤ على خطوة أخرى، كانت كلارا أول من تجاوز العتبة. كان الداخل غارقاً في السواد، وصعدت نحوهم رائحة خزامى وليمون، معروفة بين كلّ الروائح. وشحط الأب أنتونيو عود ثقاب. ورسمت الشعلة الضئيلة دائرة نور في الظلام، لكنّهم قبل أن يتقدّموا أو يتعرفوا إلى مايحيط بهم انطفأت.

قال الخوري: «انتظروا هنا. أنا أعرف المكان».

وتقدّم تلمّساً، وبعد لحظة أشعل شمعة. وارتسم خياله غليظاً، ورأوا وجهه وقد شوّهه النور الذي يضيئه من أسفل، وهو يتذبذب على نصف ارتفاعه، فيما كان ظلّه العملاق يرقص على الحيطان. ولقد وصفت كلارا، في دفترها، هذا المشهد بدّقة، مفصّلة بعناية الحجرتين المظلمتين بالجدران المغطاة ببقع الرطوبة والمرحاض الضيّق والقذر، دون ماء جارٍ، والمطبخ الذي لايوجد فيه غير كسر خبز قديمة وإناء يحوي قليلاً من الشاي. وبدا لعيني كلارا، أنّ بقية مأوى فيرولا مطابقة للكابوس الذي بدأ لمّا برزت أخت زوجها في غرفة الطعام في بيت الزاوية الكبير كي تودّعهم، لقد انتابها شعورٌ أنها في ملحقٍ دكان رثاث[1] مّا أو في كواليس فرقة مسرحية بائسة تقوم بجولة. كانت تتدلى من المسامير المزروعة في الجدران زينات من زمان قصي، وأصليّات[2] من ريش، ومزق فرو هزيلة، وأطواق مجوهرات زائفة، وقبّعات باتت لاتلبس منذ نصف قرن. وخرّاطات اصفرّت واهترأت دانتيلّتها، وأرواب كانت باذخة فيما مضى ومابقي من بريقها غير ذكرى، ومالايفسّر من ستر الأميرالات وحلل أسقف للقدّاس، وكلّه مختلط كجمعية كرنفالية عشّش فيها غبار السنين. وعلى الأرض رقد ركام أحذية من أطلس، وحقائب بالية لمبتدئات، وزنانير بريقها زائف

١ ـ بائع الأشياء الرثة.
٢ ـ مايشبه نوعاً من الحيايا (البووا).

وشيالات، حتى سيف طالب عسكري جديد. ورأت برّوكات حزينة، وآنية تجميل صغيرة، وقوارير فارغة وفيضاً من أدوات لاتوصف مبعثرة في كلّ الزوايا.

كان يصل الحجرتين الوحيدتين بابٌ ضيّقٌ. في الثانية كانت فيرولا متمدّدة على سريرها. وقد ازّينت كملكة نمساوية وارتدت زيّاً غريباً من بزّة مخمل قرضها العثّ، وخرّاطة تافتا صفراء، وانغرزت على جمجمتها بقوة فالتمعت برّوكة مغنيّة أوبرا لاتصدّق. لم يكن إلى جانبها أحد، لم يعرف بنزعها أحد، وحسبوا فتبيّنوا أنّها ماتت منذ زمن لابأس به لأنّ الجرذان بدأت تقضم قدميها وتأكل أصابعهما. كانت رائعة في عزلتها كملكة سقطت عن عرشها ووجهها يفترّ عن تعبير حلوٍ وصافٍ لم يكن لها عبر كلّ حياتها الشاقّة.

شرح الأب أنتونيو قائلاً: «كانت تحب كثيراً لبس الثياب المهترئة التي كانت تتدبّرها مستعملة أو تجمعها من مستودعات الأشياء القديمة؛ وكانت تتزيّن وتلبس هذه البرّوكات، لكنّها ماكانت تؤذي ذبابة، على العكس لقد تلت حتى آخر أيّامها مسبحتها من أجل خلاص المخطئين.

قالت كلارا بلهجة لاردّ لها: «دعوني وحدي معها».

وخرج الرجلان إلى الزقاق، حيث بدأ الجيران يتجمهرون. ونزعت كلارا عنها معطف الصوف الأبيض وشمّرت كميها واقتربت من أخت زوجها، فخلّصتها برقّة من برّوكتها وتبيّنت أنّها تقريباً صلعاء، ونحيلة، وهرمة. طبعت قبلة على جبينها مثلما جاءت فيرولا إلى بيتها فقبلتها، قبل ساعات في غرفة الطعام، ثم عمدت بكلّ وقار إلى ارتجال زينة المتوفّاة. عرّتها وغسلتها وصوبنتها بعناية حتى في أدق الثنيّات وفركتها بماء الكولونيا، وبودرتها، ومشطت لها بكلّ حبّ الشعر الباقي وألبستها أغرب وأغنى ما استطاعت إيجاده من سقط الثياب وأعادت لها بروكة المطربة الأولى، وردّت لها في الموت مالايحصى من الرعايات التي أحاطتها بها فيرولا في حياتها. كانت وهي منصرفة إلى مهمتها، تكافح الربو، وتروي لها أخبار بيانكا التي صارت صبيّة والتوأمين وبيت الزاوية الكبير والريف، «لو رأيت كم يثقل علينا غيابك، يا أخت زوجي العزيزة، كم أفتقدك عندما يجب أن أهتّم بكلّ هذه القبيلة، وأنت تعرفين أني لاأساوي شيئاً

في رعاية البيت، والصبيان لايطاقون، أما بيانكا ففاتنة بالمقابل وقد أصبحت الأورطانسيات التي زرعْتها أنت في الماريات الثلاث رائعةً، بل إنّ بعضها لأزرق بسبب قطع النحاس التي وضعتها أنا في السماد من أجل أن تزهر بهذا اللّون، وهو سرٌّ من الطبيعة، وكلّ مرّة أضعها في الآنية أفكّر بك، يا فيرولا، لكنّي أيضاً أفكر بك عندما لاتزهر الأورطانسية، أفكر بك دائماً، في الحقيقة، لأنّك منذ أن بنت عني، لم يمنحني أحد مثل حبّك».

انتهت من إعدادها، وبقيت لحظة تكلّمها وتداعبها، ثم نادت زوجها والأب ريستريبو كي يهتّما بالجنازة، ووجدوا في علبة بسكويت المظاريف التي تحوي الشهريّة التي كان إيستيبان يرسلها إلى أخته لم تمس على مدى كلّ تلك السنين. فأعطتها كلارا للراهب من أجل أعمال البرّ، لأنّها كانت مقتنعةً بأنّه الهدف الذي كانت تضمره على كلّ حال فيرولا.

وبقي الخوري عند الميتة كي يدفع الجرذان عن المساس باحترامها. كان نصف الليل قد آذن لما ترك الزوجان البيت. وأمام الباب دبّق الجيران في مدينة الهوى، يعلّقون على الخبر. حتى اضطرا إلى شق طريق بـإبعادهما المتطفلين وطردهما الكلاب التي تنشق بين سيقانهم. ابتعد إيستيبان بخطى واسعة، وهو يشدّ كلارا من يدها، يجرّها تقريباً، دون أن ينتبه للماء القذر وهو يلطّخ بنطاله الرمادي ذا التفصيلة الإنكليزية من دون عيب، كان حنقاً، لأنّ أخته توصّلت، في موتها، إلى أن تجعله يحسّ بالذنب، مثلما حين كان صبيّاً. وتذكّر طفولته، لما كانت تحيطه بعنايتها، وتلفّه بديون العرفان الثقيلة التي لايستطيع دائماً دفعها فيما بقي له من أيّام. وعاوده مايكابد من إحساس بالدناءة يرهقه غالباً في حضورها ومايكرهه من روح التضحية، وقسوتها، ونذورها للفقر، وطهارتها التي لاتتزعزع، وكلّ مايشعر أنّه توبيخ لطبيعته الأنانيّة، الشهوانيّة، الشرهة للسلطة. ليأخذك الشيطان، أيتها الرديئة العجوزا تمتم وهو يرفض الموافقة، حتى في حميم ذاته، على أنّ زوجته لم تصبح ملكه أكثر بعد أن طرد فيرولا من البيت.

صاح إيستيبان: «لماذا كانت هكذا تعيش، مع أنّ عندها وفراً من المال».

وأجابته كلارا بصوتٍ متساو: «لأنها كان ينقصها كلّ الباقي».

كانت بيانكا وبيدرو الثالث، خلال شهور افتراقهما، يتبادلان الرسائل المشتعلة التي يوقعها الصبي باسم امرأة وتخفيها بيانكا حالما تصلها. وتوصّلت النونو إلى أن تحتجز واحدة أو اثنتين، لكنّها كانت تجهل القراءة، ولو أنّها عرفتها، لمنعها الرمز السري من فهم المحتوى، وذلك لحسن حظها في النهاية، لأنّ قلبها ماكان ليقاوم. في الكليّة، في درس الأعمال البيتيّة، قضت بيانكا الشتاء تحوك كنزة صوف أيكوسي وهي تفكّر بقياسات الصبي. في الليل كانت تنام ممسكةً بالسترة بين ذراعيها، تشم رائحة الصوف وتحلم بأنّه هو الذي ينام في سريرها. وقضى بيدرو الثالث، من جهته، الشتاء في تأليف ألحان للقيثارة كي يغنّيها لبيانكا ويحفر رسمها متى وقعت بيده قطعة خشب، دون أن يستطيع فصل ذكرى الفتاة الملائكيّة عن الاضطرابات التي تجعل دمه في حالة الغليان وتلين عظامه وتغيّر صوته وتنبت الشعر في وجهه. كان يتخبّط مضطرباً بين حاجات جسده، وهو في سبيله لأن يصير جسد رجلٍ، وحلاوة شعور مازال مطبوعاً بألعاب الطفولة البريئة. كلاهما كان ينتظر جيئة الصيف في نفاد صبرٍ مؤلمٍ ولما انتهى إلى أن وصل من أجل لقائهما الجديد، لم يستطع بيدرو الثالث أنّ يلبس من رأسه الكنزة التي حاكتها له بيانكا، خلال هذه الشهور أسقط الطفولة ووصل إلى نسب الرجل الكامل، وما ألف من أغنيات لبيانكا موضوعها غزل وصباحات بدت له باهتة، لأنّها منذ الآن تمتلك من المرأة الحقيقية الطلعة والانتظار.

ظل بيدرو الثالث نحيفاً كما كان، شعره قاسٍ ونظرته حزينة، غير أنّ صوته عندما تحوّل اتخذ نبرة جشّاء مشبوبة العاطفة عرف بها فيما بعد، عندما غدا مطرب الثورة. كان بخيلاً بكلماته، ثقيلاً مقطّباً، لكنّ يديه كانتا مليئتين بالحلاوة والرقّة أصابعهما أصابع فنّان طويلة بفضلهما كان ينحت، وينتزع أنيناً من أوتار قيثارته ويرسم باليسر نفسه الذي يقبض به على عنان حصان، أو يرفع فزاعة يغلق بها الخشب أو يسير به المحراث في خط مستقيم. كان الوحيد في الماريّات الثلاث الذي لايحني رأسه أمام السيّد. ولقد كرّر عليه أبوه، بيدرو

الصغير، مائة مرّة، ألّا يحدّق إلى عيني السيّد، ألّا يجيبه، ألا يبحث عن الشجار معه، ولقد حدث له، رغبة منه في حمايته، أن ضربه علقةً قويّةً كي يسكته. غير أن الابن كان متمرداً. في العاشرة كان يعرف أشياء بقدر معلمة مدرسة الماريات الثلاث، وفي الثانية عشرة تمسّك بالذّهاب إلى كليّة القصبة، على حصانٍ أو ماشياً. يترك كوخه القرميدي منذ الخامسة صباحاً، هبت الرّياح أم نزل المطر. قرأ وأعاد ألف مرّة ومرّة الكتب السحرية في صناديق الخال ماركوس الفاتنة واستمر يقتات من تلك التي يعيرها إياه النقابيون في المشرب، أو الأب خوسه دولسه ماريا الذي علمه فوق ذلك أن ينمّي موهبته الطبيعيّة في النظم ووضع أفكاره في أغان.

كان يقول له بهيئة لغزيّة[1] بين جرعتي خمر من خمرة الصلاة يخرجها احتفالاً بزيارات بيدرو الثالث: «إن أمنا الكنيسة هي إلى اليمين، يا بنيّ، لكن المسيح كان دائماً إلى اليسار».

وهكذا سمعه إيستيبان ترويبا يوماً فيما كان يرتاح على التراس بعد الغداء، وهو يغني لحناً يحكي عن دجاجات تأطّرت في نقابة كي تقاوم الثعلب وقهرته. قال له أن يأتي.

أمره قائلاً: «أحبّ أن أسمعك. غنّ لي هذا مرّة ثانية!».

وأمسك بيدرو الثالث بحبّ بقيثارته، واعتمد كرسياً ووقّع بعض أنغام. أبقى عينيه مصوّبتين إلى السيّد فيما كان يرتفع صوته المخمليّ، مثقلاً بالهوى، في خدر ساعة القيلولة. وماكان إيستيبان ترويبا بالأبلة وفهم التحدّي.

جمجم قائلاً: «هذا ما توقّعت! أعرف جيّداً أن أتفه الأشياء يمكن أن توضع في أغنية! أفضل لك أن تتعلّم كيف تضحك بالغناء».

ـ أنا يعجبني هذا يا سيّد. الإتحاد يصنع القوّة كما يقول الأب خوسه دولسه ماريا. إذا استطاعت الدجاجات أن تقاوم الثعلب، فلماذا لاتستطيع الكائنات البشرية؟

---

١ ـ نسبة إلى لغز.

وذهب يحمل قيثارته ويجرّ قدميه، دون أن يجد الآخر مايجيب، ولو أنّ الغضب بات على طرف شفتيه وأخذ ضغطه يصعد. منذ ذلك اليوم انتبه إليه إيستيبان تروييبا وما انقطع عن مراقبته وهو في ريبة منه. جرّب أن يمنعه من الذهاب إلى الكليّة فاخترع له مهمّات من عمل الكبار، لكن الصبيّ كان يستيقظ باكراً وينام متأخّراً كي ينجزها. في السنة هذه نفسها جلده إيستيبان بحضور أبيه لأنّه جلب بين المزارعين ذلك الجديد الذي يدور بين النقابيين في القصبة، كلّ أفكار عطلة الأحد، وحدّ الأجر الأدنى، والتقاعد، والمعونة الطبيّة، وعطلة الأمومة للنساء الحبالى، والتصويت الحرّ من كلّ ضغط، وأخطر من ذلك أيضاً التنظيم الفلاحي القمين بمجابهة السادة.

عندما وصلت بيانكا هذا الصيف إلى الماريات الثلاث كي تقضي فيها العطلة كادت لاتعرفه: كان أطول بخمسة عشر سنتميتراً وصار وليس فيه شيء من الطفل ذي البطن المكوّر الذي قاسمته فصول طفولتها الجميلة. نزلت من العربة، وشدّ على خرّاطتها، وللمرّة الأولى، لم تسرع كي تقفز على عنقه، لكنّها أومأت إليه بـإشارة رأس صغيرة أن مرحباً، وهي تقول له بالنظر مالايجب أن يسمعه الآخرون وماقالته له وكررّته في رسائلها الرمزيّة الفاجرة. ولاحظت النونو المشهد من زاوية عينها وابتسمت، ساخرةً، فلما التقت بيدرو الثالث كشّرت بوجهه، وسخرت منه قائلة: «تعلّمْ أن تبقى مع أهل طبقتك، يا قذر وألّا تتمسّح بالآنسات».

ذلك المساء أكلت بيانكا، مع العائلة كلّها التي اجتمعت في غرفة الطعام، دجاجاً بالقدر الذي يقدمونه لهم دائماً حين وصولهم إلى الماريات الثلاث، دون أن يقرأ أحد فيها أدنى فراغ صبر خلال فترة بعد العشاء التي لاتنتهي وأبوها يرتشف الكونياك ويتّحدث عن بقر الاستيراد ومناجم الذهب. وانتظرت حتى أعطت أمّها الإشارة فانسحبت، بأن وقفت غير عجلى، وتمنّت ليلة سعيدة للجميع ثم خرجت إلى غرفتها. وللمرّة الأولى في حياتها، أغلقت بابها بالمفتاح، وجلست على سريرها دون أن تخلع ثيابها وانتظرت في السواد حتى تسكت أصوات التوأمين الضاجة في الغرفة المجاورة، وخطى الخدم وأصوات

الأبواب والمزاليج، فأوى المسكن إلى النوم. عندها فتحت النافذة وقفزت فسقطت بين الأورطانسيا التي زرعتها، منذ زمن بعيدٍ، عمّتها فيرولا. كان الليل مضيئاً، تسمع فيه الجداجد والضفادع. تنفّست بعمق فحمل لها الهواء عطر الفواكه الحلو التي وضعت في الباحة كي تجفّ ثم تعلّب. وانتظرت حتى تعودت عيناها الظلمة، ثم خطت بعض الخطى، لكنها تخلّت عن الذهاب أبعد فقد سمعت عواء كلاب الحراسة الهائج التي يفلتونها ليلاً. كانت أربعة مولوسات كبرت وهي مربوطة بالسلاسل بقيت محبوسة طيلة النهار؛ لم ترها من قريب مطلقاً وتعلم أنّها لاتعرفها. وشعرت، برهة قصيرة، برعب أفقدها رشدها حتى كادت تصيح، لكنّها تذكّرت أنّ بيدرو جارسيا الكبير قال لها يوماً أنّ اللصوص يسيرون عراة خشية أن تدركهم الكلاب. ودون ظلّ للتردّد، وبالسرعة التي سمحت بها لها أعصابها خلعت ثيابها ولفتها تحت ذراعها، استأنفت سيرها بخطوٍ هادئ، داعية ألّا تشمّ البهائم خوفها فحسب. ورأتها تصل إليها وهي تعوي فاستمرت بالتقدّم دون أن تُبطئ في إيقاع مشيتها. واقتربت الكلاب مزمجرةً، متحيّرة، لكنها لم تتوقف. وأتى أحدها وهو أجرؤها إليها فشمّها. وأحست نفسه الرطب في ظهرها، لكنها ظلّت لاتنثني. وأصرّت الكلاب على الدمدمة والعواء لحظة ورافقتها بعض الطريق، ثمّ دارت نصف دورة. وأطلقت بيانكا تنهدة راحة وتبيّنت أنّها ترتجف كورقة؛ وغطّاها العرق، واضطرت إلى الإتكاء على شجرة والإنتظار ريثما ينجلي التعب الذي جعل ساقيها من قطن. ثم لبست سريعاً وركضت باتجاه النهر.

كان بيدرو الثالث ينتظرها في المكان عينه الذي التقيا فيه الصيف الماضي وحيث استولى إيستيبان ترويبا، منذ سنين عديدة، على بكارة بانشا جارسيا المتواضعة. لما رأت بيانكا الفتى احمرّت بعنف. لقد عانى كثيراً، خلال شهور فراقهما، من مهمة الصيرورة رجلاً، فيما عاشت هي حبيسة جدران بيتها وكليّة الراهبات، وفي وقاية من صعوبات الحياة، تملأ أحلامها الخيالية بـإبر حياكة الصوف الإيكوسي، لكن صورة أحلامها لم تطابق في شيء هذا الطويل الجسور الذي اقترب منها وهو يتمتم باسمها. ورفع بيدرو الثالث يده ولمس

رقبتها على مستوى العنق. وأحسّت بيانكا بشيء حارٍ يجول في جسدها كله واصطكت ساقاها وأغلقت عينيها واستسلمت، شدّها بلطف وغمرها بذراعيه، فدفنت أنفها في صدر ذاك الرجل الذي لاتعرفه، ويختلف عن الأزعر الحقير الذي، كانت منذ شهور خلت، تبادله المداعبة حتى لاتطيق. تنفسّت رائحته الجديدة. وحكّت نفسها على جلده الخشن، وجسّت هذا الجسد القويّ المفتول، وأحسّت بسلامٍ باذخٍ وكاملٍ لاصلة بينه وبين الهياج الذي استولى عليها. وباللسان نقّب كلٌّ منهما بالآخر مثلما في الماضي، لكنها كانت كمداعبة اخترعاها الآن، وسقطا على ركبهما يقبلان بعضهما بعضاً في جنون ثم تدحرجا على فراش الأرض الحلو الرطب. كلٌّ منهما كان يكتشف الآخر للمرّة الأولى وماكان عند أحدهما مايقول للثاني. وجاب القمر كلّ الأفق دون أن ينتبها له، كانا عنه لاهيين باكتشاف أكثر حميميّتهما سريّةً، بانزلاق بعضهما في جلد البعض الآخر دون شبعٍ.

منذ تلك الليلة، التقت بيانكا وبيدرو الثالث بانتظامٍ في الساعة نفسها والمكان نفسه. كانت في النهار، تطرّز، أو تقرأ أو ترسم مائيات تافهة حول البيت، تحت عين النونو المطمئنة، التي كان بوسعها أن تنام على أذنيها. أما كلارا فكانت، على العكس، تتنبّأ بحدوث شيء غريب، لأنّها كانت تلاحظ مثل تلوين جديدٍ في الهالة التي تحيط بابنتها، وكانت تعتقد أنها تكشف السبب. وكان بيدرو الثالث يكمل مهماته العاديّة في الحقول ولم ينقطع عن الذهاب إلى القرية لرؤية أصدقائه. حتى إذا جاء الليل، كان يهلك تعباً، لكن فكرة لقاء بيانكا كانت تنعشه. وماكان عمره خمسة عشر عاماً عبثاً. وهكذا انقضى عندهما هذا الصيف، ولسوف يذكر كلاهما، بعد سنوات عديدة تلك الليالي المضطرّمة على أنّها أحسن فترة في حياتهما.

خلال ذلك الوقت كان جيم ونيكولاس يستغّلان عطلتهما ليعملا كلّ الأشياء الممنوعة في المدرسة الداخلّية البريطانيّة. يزعقان ملء صوتيهما، يتشاجران لأيّ سبب، يتحوّلان إلى قذرين صغيرين تقرف من مسّهما، تغطيهما الأسمال، ركبهما متوّجة، رأساهما امتلآ قملاً، حشياً فواكه طريّة

لدى قطفها مباشرةً، وشمساً وحريةً. كانا يخرجان مع الفجر ولا يرجعان إلاّ مساءً للبيت، يقضيان وقتهما بصيد الأرنب بالمقلاع، والعدو حتى انبهار النفس والتلصّص على النساء اللائي يصوبنّ غسيلهن على شاطئ النهر.

وهكذا انقضت ثلاث سنوات، إلى أن جاءت الهزّة الأرضية فحوّلت مجرى الأشياء. في نهاية العطلة الأخيرة، رجع التوأمان إلى العاصمة قبل بقيّة العائلة، بصحبة النونو، والخدم الذين جاءوا من المدينة، وجزء طيّب من المتاع. والتحق الصبيان مباشرة بالكليّة، فيما أخذت النونو وبقيّة أهل البيت يعدّون بيت الزاوية الكبير لوصول السّادة.

وبقيت بيانكا بعض الأيّام زيادة في الريف مع ذويها، آنئذ بدأت كلارا ترى كوابيس، وتجول في الممّرات مروبصة، وتستفيق صائحة، في النهار كانت تظل كبلهاء، تقرأ علامات النذر في سلوك البهائم: في واقعة عدم بيض الدجاج البيضة اليومية، وأنّ البقرات كانت تبدو خائفة، والكلاب تعوي بالموت، والجرذان والعناكب وديدان الأرض تخرج من أوجارها، والطيور غادرت أعشاشها وابتعدت زرافاتٍ، تاركةً صغارها تصيح من جوع بين الأغصان. كانت تلاحظ في هوس عمود دخان البركان الأبيض الدقيق، وتسبر اختلاف لون السماء. وأعدت لها بيانكا نقوعات مهدئة وحمامات دافئة، ولجأ إيستيبان كي يهدّئها إلى علبة الحبوب التجانسية[1] الصغيرة القديمة؛ غير أنّ الأحلام المزعجة، استمرت على كثرتها:

ـ سوف تهتز الأرض! كانت تقول وهي تزداد شحوباً واضطراباً يوماً بعد يوم. وكان يجيبها إيستيبان: «يا إلهي، لكنّها لاتتوقّف أبداً عن الاهتزاز حقّاً يا كلارا!».

ـ سوف يكون الأمر مختلفاً، هذه المرّة. سوف يموت عشرة آلاف إنسان!

وكان يهزأ قائلاً: «لايوجد هذا العدد في كلّ البلاد!».

وانطلقت الكارثة في السّاعة الرابعة صباحاً. وأيقظ كلارا قبل ذاك بقليل

---

١ ـ تداوى الداء بالداء.

كابوس رؤيوي أنّ كثيراً من خيلٍ مبقورة البطون، وأبقارٍ أخذها البحر، وبشر يزحفون تحت الأنقاض، وهوى تنفتح في الأرض وتهوي فيها البيوت. نهضت ممتقعة من رعب، وركضت حتى غرفة بيانكا، غير أنّ بيانكا، كما في كلّ الليالي، أغلقت بابها بالمفتاح وانزلقت من النافذة لتوّجه خُطاها ناحية النهر. وفي الأيّام الأخيرة قبل الرجوع إلى المدينة، أخذ هوى ليالي الصيف أبعاداً فظيعة، لأن الشابين، أمام اقتراب فراق جديد كانا يستغلّان كلّ اللحظات الممكنة كي يحبّ بعضهما بعضاً دون كابح. كانا يقضيان الليل عند النهر، لايشعران بالبرد ولا التعب، يرتعان بآخر طاقتهما، ولاتعود بيانكا إلى البيت إلا في اللحظة التي تتراءى لها أوائل أشّعة النهار، فتدخل من نافذة غرفتها، في الوقت المناسب كي تسمع صياح الديك. وصلت إذن كلارا أمام باب ابنتها وحاولت فتحه، لكنّه كان مغلقاً، قرعت وبما أنّ أحداً لم يجب، خرجت راكضةً ودارت حول البيت فرأت الفرجة مفتوحةً على مصراعيها وقد ديست الأورتانسيات التي زرعتها فيرولا. وفهمت في أقلّ من قليل الزمن سبب ذلك التلوّن الجديد في هالة بيانكا، والدارات حول العين، وفتورها وصمتها، وغفوها الصباحي ولوحاتها المائية عند نهاية فترة بعد الظهر. وفي تلك اللحظة الدقيقة ثارت الهزّة الأرضية.

أحست كلارا بأن الأرض ترتجّ ولم تستطع البقاء واقفة. سقطت على ركبتيها وانفصلت قطع القرميد عن السطح وأخذت تهمي حولها في فرقعةٍ مصمّة. ورأت جدار آجرّ البيت ينفتح كما لو ضربته فرّاعة هصرته بكلّ قوّتها، والأرض انفغرت، كما رأتها في أحلامها، وارتسم تحت عينيها صدع ضخم التهم بطريقة أخمام الدجاج، وأحواض المغسل وجزءاً من الإسطبل. ومال صهريج الماء ثم انهار أرضاً، فأطلق ألف ليتر من الماء على الطيور التي ظلّت حية وكانت تضرب بائسة بأجنحتها. وفي البعيد، كان البركان يبصق ناراً ودخاناً كثيّين خنِق. وقطعت الكلاب سلاسلها، وأخذت، وقد غدت مجنونة، تركض في كلّ اتجاه، والخيل التي حرّرها سقوط الإسطبل استنشقت الهواء وصهلت من خوف قبل أن تحتدم وتعدو في الفلاة، والحور ترنّح كسكارى وبعضه سقط

وجذوره في الهواء وهشم أعشاش الدوري، لكنّ الأرعب من كلّ هذا ك
الهدير الخارج من أحشاء الأرض، وعصف العملاق القاسي الذي سمع طويلا
وهو يبذر الرعب في كلّ مكان. وجرّبت كلارا أن تجرّ نفسها وهي تناد
بيانكا لكنّ زمجرة الأرض غطّت على صوتها. ورأت الفلاحين مذعور
يخرجون من أكواخهم، يتضرعون إلى السماء، يتجمّعون كيفما اتفق، يجرّو
الأطفال من أذرعتهم، يرشقون الكلاب بضربة قدم، يدفعون الشيوخ دو
دراية، يجتهدون في إنقاذ أرزاقهم الضئيلة من وابل الأجر والقرميد الذي ي
وكأنّه ينبثق من باطن الأرض كهدير نهاية العالم الذي لاينتهي.

وظهر إيستيبان تروييبا في إطار الباب في اللحظة التي انخسف في
المسكن كقشرة بيض وانهار في غيمة غبار، سحقته تحت جبل من الأنقاض
وزحفت كلارا حتى هناك، وهي تناديه بصياحٍ عظيم، لكنْ لم يرد أحد.

دامت أول هزّة من الزلزال حوالى دقيقة فكانت أقوى ما سجّل حتى ذا
التاريخ في منطقة الكوارث تلك. رمت أرضاً كلّ ماكان واقفاً وانتهى الباق
إلى أن انهار في سبحة الهزّات الصغيرة التي ظلّت تهزّ العالم حتى الفجر
وانتظروا في الماريّات الثلاث بزوغ الشمس كي يعدوا الموتى، كي ينبشوا الذي
دفنوا ومازالوا يئنّون تحت الركام وبينهم إيستيبان تروييبا الذي كان يعرف ك
الناس أين يبحثون عنه لكن ماكان أحداً يأمل أن يجده حيّاً. ولقد لزم أرب
رجالٍ، حسب أوامر بيدرو الصغير، كي يكنسوا تلة الغبار والآجر والقرميد الت
كانت تغطّيه. ولقد غادرت كلارا شرودها الملائكيّ وساعدت برفع الحجار
همّة الرجال نفسها. وكانت تؤكّد قائلةً: «يجب أن تخرجه من هنا! إنّه ح
وهو يسمعنا!». فتعيد إليهم الشجاعة للاستمرار.

مع أوّل الأشعة ظهر بيانكا وبيدرو الثالث سالمين. فسارت كلارا إل
ابنتها ولطمتها لطمتين، ثم قبلتها حالاً وهي تبكي، فقد عزّتها معرفتها بأنّ
ناجية وأنّها إلى جانبها.

دلّتها كلارا قائلةً: «أبوك هناك تحت!».

وأكبّ الشباب على مهمّتهم في رفقة الآخرين وبعد ساعة، والشمس ة

برزت فوق عالم البؤس هذا، أخرجوا السيّد من قبره. كانت كسوره عدداً لايُستطاع حسابه، لكنّه كان حيّاً، وعيناه مفتوحتان.

قال بيدرو الصغير: «يجب أن نأخذه إلى القرية كي نريه للطبيب».

وبينما كانوا يتناقشون بأحسن طريقة لنقله فلا تضيع عظامه في الطريق كما من كيس مثقوب، وصل بيدرو جارسيا الكبير، الذي احتمل، بفضل عماه وقدم شيخوخته، الزلزال دون تذمّر. قرفص حدّ الجريح وفحص جسمه بعناية، وهو يطوف به بيديه، ويجسه بأصابعه العجوزة، دون أن يترك أيّة طيّة خارج تقديره، أيّ كسر دون حساب.

أعلن قائلاً: «إذا حركتموه من هنا، مات».

لم يكن إيستيبان تروييبا غائباً عن الوعي، ولقد سمعه بوضوحٍ قوّيٍ، وذكر رزء النمل وقرّر أنّ العجوز هو خشبة الخلاص الوحيدة.

وغمغم قائلاً: «دعوه. إنه يعرف مايفعل».

وجعلهم بيدرو جارسيا يأتونه بغطاء، وتوصّل ابنه وحفيده إلى دسّ السيّد فيما فيه، ورفعه بعناية، ووضعه على طاولة مرتجلة ركّبوها في وسط الباحة ولم يبق غير فرجة صغيرة في كابوس الرّكام وجثث البهائم، والأطفال الباكين، والكلاب التي تئنّ، والنساء اللائي يصلّين. واستخلصوا من الخراب، قربة خمر قسمها بيدرو جارسيا إلى ثلاثة أقسام، الأول لغسل جسد الجريح، والثاني كي يشربه، والثالث له هو، عبّه ببطء قبل أن يقوم بتسوية عظامه واحداً واحداً، بوقارٍ وصبر، شادّاً هنا، واصلاً هناك، واضعاً كلّ عظم في مكانه، مجبّراً، لافّاً إياها بضمادات قطّعها من القماش كي يثّبتها. وهو يجمجم بأدعية قدّيسي المطّببين، مستجيراً بالحظ والعذراء مريم، محتملاً شكوى وتجديف إيستيبان تروييبا دون أن تتأثّر هيئة الأعمى المطمئّنة. وأعاد تكوين الجسم جيداً، بالتحسّس، إلى درجة لم يستطع معها الأطباء الذين فحصوه فيما بعد أن يصدّقوا أنّ مثل هذا الشيء ممكن.

ولما أحيط بالأمر كويفاس اعترف قائلاً: «من جهتي، ماكنت لأحاول».

أغرق خراب الزلزال البلاد في حدادٍ طويلٍ الأمد. وماكان كافياً أن تهتزّ الأرض فتطرح كلّ شيء على وجهها، ذلك أنّ البحر تراجع عدة أميال كي يرجع في موجة واحدة عملاقة، ألقت بالمراكب على قمم التلال وعلى مسافةٍ بعيدةٍ عن الشاطئ، وأخذت قرى كاملةً، وطرقاً، وقطعاناً وغاصت عدة جزر من الجنوب حتى أصبحت على متر تحت سطح البحر. وشوهدت أبنية تنهار كديناصورات جريحة، وأخرى تتفكّك كقصور من ورق وعدّ الموتى بالآلاف، ومامن عائلةٍ إلا ونكبت بأحد أفرادها. وأهلك المواسم ماء البحر المالح، ومحت الحرائق أحياء كاملةً في المدن والقرى، وليتم تمجيد العقاب الإلهيّ، أخذت الحمم تسيل، ويهمي الرماد على الدساكر القريبة من البركان وأقلع الناس عن قضاء الليل في البيوت، خوفاً من أن يتجدّد الزلزال، فكانوا يرفعون خياماً مرتجلة في أرضٍ مكشوفةٍ، ينامون في الساحات أو في الشارع. واضطر الجيش للتدخّل كي يتفادى الفوضى التي عمّت، وأطلق النار فوراً على كلّ الذين فاجأهم وهم ينهبون، لأنّه بينما كان الأكثرون مسيحية يتكدسون في الكنائس كي يتضرعوا لمغفرة خطاياهم ويدعوا الله أن يهدئ غضبه، كان اللصوص يجولون بين الخرائب وأينما ظهرت اذن محلّاة بحلق، أو إصبع بخاتم استولوا عليه بضربة سكين دون التأكّد من أن الضحيّة ماتت أم سجينة الركام فحسب وانهالت على البلاد مواكب جراثيم أثارت مختلف الأوبئة. وما أن عرفت بقية العالم، ولو أنّها جدّ مشغولة بحربٍ جديدةٍ، أنّ الطبيعة جنّت في هذه الزاوية الضائعة من الكوكب حتى وصلت، رغم كلّ شيء شحنات من الأدوية والأغطية، والمؤن، ومواد البناء التي تاهت في حنايا الإدارة العامّة السريّة، إلى درجة أنه كان بوسع المرء بعد سنوات أن يشتري علب لحم البقر الأمريكية الشماليّة وعلب بودرة الحليب القادمة من أوربا بسعر السلع النادرة في البقاليات الراقية.

قضى إيستيبان تروييبا أربعة شهور ملفوفاً بالضمادات، تمسك به الجبائر، والجبس والكلابات خاضعاً لتعذيب تنمّل الجمود الفظيع، يقضمه فراغ الصبر. وتفاقمت نزواته ولم يستطع أحد احتماله. وبقيت كلارا في الريف كي تعنى به، ولمّا رممت المواصلات، وعاد النظام، أرسلت بيانكا داخلية إلى كليّتها، لأنّ أمّها باتت لاتستطيع الاهتمام بها.

في العاصمة فاجأ الزلزال النونو في سريرها، وبالرغم من أنّ شعور الناس به كان أقل من الجنوب، فقد ماتت هي منه رعباً. لقد انقصف منه بيت الزاوية الكبير كجوزة، وتصدّعت الجدران وانهارت ثرّيا الكريستال الكبيرة ذات الذوائب في غرفة الطعام وذهبت نتفاً في رنين ألف جلجل جنائزي. وعدا عن هذا كانت المصيبة الوحيدة هي موت النونو. فلما تبدّد رعب اللحظات الأولى، انتبه الخدم إلى أنّ المرأة العجوز لم تنزل إلى الشارع كي تفرّ مع الناس. ورجعوا كي يبحثوا عنها فوجدوها على فراشها الحقير، جاحظة العينين، وقد وقف شعرها القليل الباقي خوفاً. ولم يستطيعوا في فوضى تلك الأيّام أن يعدّوا لها جنازة محترمة، بل دفنوها على عجل دون دموع ولاخطابٍ. ولم يحضر مأتمها أحد من عديد الأولاد الذين لم يكونوا أبناءها لكنّها آثرت تربيتهم بكثير من الحبّ.

لقد وسم الزلزال الأرضي آل ترويبيا بتّبدلٍ هامٍّ في حياتهم حتى أنّهم أخذوا يقسمون الأحداث منذ وقوعه بتأريخها قبله أو بعده. وعاود بيدرو جارسيا الصغير، في الماريات الثلاث، القيام بوظيفة الوكيل لاستحالة حركة السيّد في سريره. عادت إليه مهمّة تنظيم عمل المزارعين، واستئناف الإنضباط وترميم الخراب الذي رجعت إله الملكيّة. بدؤوا بدفن الموتى في المقبرة الصغيرة على سفح البركان التي وفّرها بأعجوبة سيل الحمم التي انحدرت عن جوانب الجبل الملعون. ولقد منحت القبور الجديدة الجبانة المتواضعة مظهراً عيدياً وزرعت فيها صفوفٌ من شجر البتولة كي تغدق الظلّ على من يجيئون لزيارة موتاهم. وأعيد بناء بيوت القرميد واحداً بعد الآخر، على الطراز نفسه الذي كان لها، والإسطبلات والملبنة والأهراء، وأخذوا يحضّرون الأرض للبذار، شاكرين السماء أنّ الطفح والرماد نزلا من الجهة الأخرى وتركا الملكيّة سليمة. وتوقّف بيدرو الثالث عن زياراته للقرّية، لأنّ أباه كان يطلبه إلى جانبه. وكان يعين أباه عن سيّء خاطرٍ، يلاحظ له أنّهم يحطّمون كلاهم ليرمّموا رخاء السيّد فيما يستمرون هم على فقرهم السالف.

كان أبوه يجيبه قائلاً: «كان الأمر كذلك دائماً، يابنيّ. أنت لاتستطيع تغيير قانون الله».

- بلى، يا أبي، نستطيع تبديله. يوجد الآن أناس في سبيلهم إلى فعل ذلك، لكن هنا لايعرفون حتى الأبناء. في كلّ ناحيةٍ من العالم تحدث أشياء هامّة.. هكذا كان يناقش بيدرو الثالث فيتلو عليه دفعة واحدة خطاب المعلّم الشيوعيّ أو خطاب الأب خوسه دولسه ماريا.

لم يجب بيدرو الصغير واستمر يكدّ دون أن يتزعزع. كان يجحظ بعينيه عندما يستغل ابنه ضعف السيّد ووهن الكبت، فيكسر طوق المراقبة ويدخل إلى الماريّات الثلاث نشرات النقابات الممنوعة، وصحف المعلّم السياسيّة وتفاسير الخوري الإسباني الغريبة للتوراة.

وبدأ الوكيل، حسب أوامر إيستيبان تروييبا، إعادة بناء بيت السيّد حسب مخطّطات البناء الأصليّ نفسها. لم يبدلوا حتى آجر القشّ والصلصال المشوّي بالقوالب الحديثة ولم يعدّلوا قياسات النوافذ الضيّقة جدّاً. ولقد انحصرت التحسينات الوحيدة في جلب الماء الحارّ إلى الحمّام وتبديل المطبخ الخشبيّ القديم بآلةٍ على البارافين لم تتعوّد عليها أيّة طبّاخة فقضت آخر أيّامها منفية في الباحة يستعملها الدجاج دون تمييز. ولقد أعدّ، ريثما يعاد بناء البيت، ملجأ من ألواح خشب سقفه من التوتياء وضع فيه إيستيبان على سرير عجزه؛ وكان يستطيع من هناك، عبر كوّةٍ ملاحظة تقدّم العمل والزعيق بتوجيهاته، وهو يغلي غضباً بسبب جموده القسري.

تغيّرت كلارا كثيراً خلال بعض الشهور تلك. أخذت على عاتقها مع بيدرو جارسيا الصغير مهمة إنقاذ مايمكن إنقاذه. لقد اضطّرت لأن تضطّلع بالمسائل المادّية، للمرّة الأولى من حياتها دون أيّة مساعدة، فليس لها أن تعتمد لا على زوجها ولافيرولا ولا النونو. وقد استيقظت أخيراً من نهاية طفولة امتدت وكانت فيها دائماً محميّة، مشمولة بالعناية، وكلّ الرفاه، دون أيّ التزام. ولقد عانى إيستيبان تروييبا هوس الظنّ بأن كلّ ما يأكله يحرف مزاجه مالم تطبخه هي، حتى أنّها كانت تقضي جزءاً طيباً من يومها حبيسة المطبخ تنتف الدجاج كي تحضّر شوربات المريض وتشوي عجين الخبز. ولعبت دور الممرضة، فكانت تغسله باسفنجة، وتغير له ضماداته، وتضع له الحوض وترفعه،

كان يغدو كلّ يوم أكثر استبداداً وشراسةً من اليوم الآخر، ويطلب أن توضع له وسادة هنا، لا، أعلى، وإيتيني بخمر، لا، قلت لك أريده أبيض، إفتحي النافذة، أغلقيها، أتألّم هنا. أنا جائع، أحسّ بالحرّ، حكّي ظهري، تحت. ووصل الأمر بكلارا إلى أن تخشاه أكثر من الزمن الذي كان فيه الرجل الصحيح القويّ الذي كان يندفع في هدوء حياتها برائحة الذكر النهمة، وصوته العاصفيّ الضخم، وهجماته التي كانت دون رحمة، وهيمنة السيّد العظيم، وهو يملي إرادته، ويقذف اندفاعاته ضدّ التوازن الهشّ الذي تداريه بين أرواح العالم الآخر ونفوس المحتاجين في الدنيا. ووصل بها الأمر إلى كرهه. وما أن التحمت عظامه واستطاع الحركة قليلاً حتى برّح به عذاب الشهوة بأن يضمّها إليه، فكان كلّما مرّت قريباً منه لطمها على عجيزتها وقد اختلطت في تشوّشه المرضيّ مع الفلاحات القويّات اللّائي كنّ، في سنوات عزوبته، يخدمنه في المطبخ وفي السرير. وكانت تحس كلارا أنّها صارت في غير عمر هذه الأشياء. لقد باتت أثيريّة من العذاب، وجعلتها سنوات غياب حبّها لزوجها تعتقد أنّ الجنس ملهاة عنيفة بعض العنف تؤلم أوصالها وتجعل الغرفة عاليها سافلها. لقد أدّى بها الزلزال خلال بعض الساعات، أن تضع قدمها على الأرض في العنف، والسوقيّة والموت، ووضعها في تماس مع حاجات الحياة البدائية وقد كانت تجهلها حتى الآن. ولم تنجدها المائدة ولاقراءة المستقبل في أوراق الشاي في مواجهة الضرورة لوقاية الفلّاحين من الوباء والزحار، ولا الأرض من الجفاف أو جحافل الحلزون، والبقر ضد الحمّى القلاعية، والدجاج ضدّ الورم اللسانّي، والخزانة ضدّ العثّ، وأبناؤها أنفسهم ضدّ التهاون، وزوجها ضدّ الموت وضدّ نزوعه الذي لايقهر إلى الغضب. وأرهقت كلارا. كانت تحسّ أنّها وحيدة وحائرة، وفي لحظة اتخاذ قرار، لم تكن تستطيع الاعتماد على أحد سوى بيدرو جارسيا الصغير. هذا الرجل الأمين الصامت كان دائماً في مرمى صوتها، يضع عنصر الإستقرار في ارتجاج الزوبعة التي اقتحمت حياتها. كانت كلارا غالباً ماتبحث عنه في آخر النهار كي تقدّم له فنجاناً من الشاي. كانا يجلسان تحت طنف على مقعدي خيزران ينتظران قدوم الليل كي يهدئ توتّر النهار. كانا

ينظران إلى الظلام وهو ينزل بلطف، وأوائل النجوم تلمع في السماء، ويصغيان إلى نقيق الضفادع وهما صامتان. كانت الأشياء التي يجب أن يناقشاها كثيرة، ومعضلات عديدة يجب أن تحلّ وقرارات تتخذ، لكنّهما كانا يدركان معاً أن نصف ساعة الصمت هذه، هو جائزة استحقاها. فقد شربا شايهما دون عجل، كي يطول بهما الوقت أكثر، وكلّ منهما يفكّر بحياة الآخر. كان كلّ منهما يعرف الآخر منذ أكثر من خمس عشرة سنة، وكان يلتقي أحدهما بالآخر عن قرب كل صيف، لكنّهما لم يتبادلا خلال ذلك إلا جملاً قليلة. كان بيدرو الصغير يحسب أن السيّدة كظهور صيفي مشعّ، غريب على العذاب وخشونة الحياة، من نوع مختلف عن النساء اللواتي عرفهن. أما الآن، ويداها تدحوان العجين أو وزرتها دامية من فراخ الغداء، فقد كانت تبدو له سراباً في انعكاس أنوار النهار. وما كان إلّا في آخر النهار، وسلام تلك اللحظات التي يشتركان فيها أمام فنجان الشاي، ليستطيع تأمّلها في أبعادها الإنسانية. لقد أقسم لها، في سرّه، على الأمانة، ويدع لنفسه، مثل مراهق، أن تهدهده فكرة التضحية بحياته من أجلها. لم يكن يعدل الإحترام الذي يضمره لها غير الحقد الذي يكنه لإيستيبان تروييبا.

كان مايزال لديهم الكثير حتى يصبح البيت قابلاً للسكن حين جاءوا فأدخلوا لهم الهاتف. وكانت انقضت أربع سنين يكافح فيها إيستيبان حتى يكون له وقد أتوا يركبونه تماماً في الوقت الذي لم يكن له فيه سقف يحميه من تقلّبات الجو. ولم يكن الهاتف ناجحاً كثيراً، لكنّه سمح بطلب التوأمين وسماع صوتهما كأنّه قادمٌ من مجرّة أخرى، في وسط هدير مصمّ وانقطاعات من عند عاملة مقسم القرية التي كانت تتدّخل في الحديث. ولقد عرفوا من الهاتف أن بيانكا مرضت وأنّ الراهبات يرفضن الإحتفاظ بها. فقد أصيبت الفتاة بسعالٍ دائم، وحرارة ترفض أن تنخفض. وكان الخوف من السلّ يوسوس كلّ البيوت، فلا توجد عائلة وإلّا وتأسى من وجود حالة سلّ فيها، حتى أنّ كلارا عزمت على الذهاب والإتيان بها. وفي يوم سفر كلارا نفسه، خلّع إيستيبان تروييبا

الهاتف بضربات عصاه: فقد أخذ هذا يرنّ وإيستيبان يصرخ له بأن يسكت، وأنّه آت، لكن الآلة ظلت ترنّ بكلّ قوّتها، فما كان من السيّد، في حميّا غضبه، إلّا أن انهال عليه ضرباً كالمطر، وخلع بالمناسبة الترقوة نفسها التي بذل بيدرو جارسيا الكبير جهداً كبيراً في رتقها.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي تسافر فيها كلارا وحدها. لقد قطعت الرحلة نفسها عبر السنين، وهي دائماً شاردة، لأنّها كانت تستطيع الاعتماد على من يهتم بالتفاصيل الماديّة بينما تحلم وهي تتأمل المنظر من الكوة. وقد أخذها بيدرو جارسيا الصغير حتى المحطة وأجلسها في القطار. وفي لحظة السفر انحنت من البوّابة، ومسّت خدّه بقبلة وابتسمت له. فوضع يده على وجهه كي يحمي هذه القبلة العابرة من الهواء ولم يبادلها الابتسامة، لأنّ حزناً عميقاً اقتحمه فجأة.

وقاد كلارا الحدس أكثر من معرفة الأشياء أو المنطق، فوجدت السبيل، إلى الوصول دون حوادث إلى كليّة ابنتها. واستقبلتها الأم الرئيسة في مكتبها الصارم الذي زيّنه مسيح ضخم دام وطاولة جمّلتها باقة ورد حمراء غريبة.

قالت لها: «أتينا بالطبيب، يا مدام تروييبا. الفتاة لاتشكو من شيء في رئتيها، لكن الأفضل لها أن تأخذيها للريف فهو ينفعها. وأنت تدركين أننا لانستطيع أخذ هذه المسؤولية على عاتقنا».

وحرّكت الراهبة جرساً فدخلت بيانكا. وبدت أكثر شحوباً ونحولاً، وظلال بنفسجية تحت العينين تؤثّر في كلّ أم، لكن كلارا فهمت حالاً أنّ جسد ابنتها لم يصب بمرض، وإنّما الروح. كان يبديها زي الكليّة البشع الرمادي أصغر ممّا هي عليه، بالرغم من تقاطيع المرأة التي تنزل الخياطة. ظلت بيانكا ذاهلةً من مرأى أمّها فقد كانت تذكرها كملاك لابس أبيض، عابثة ومرحة، وإذا بها تحوّلت في بعض الشهور إلى امرأة كاملةٍ يداها خشنتان، تحيط بفمها جعدتان عميقتا الغضون.

ذهبتا كي تريا التوأمين في الكليّة. كانت أوّل مرّة يلتقون فيها منذ زلزال الأرض ولقد فوجئتا لما عرفتا أنّ المكان الوحيد في أرض الوطن الذي وفّرته

النازلة هو هذه المؤسّسة العتيقة التي لم يتحدّث عنها أحد. لقد ذهب عشرة آلاف ميت بخيرهم وشرهم بينما استمر كل واحد يغني بالإنكليزية ويلعب الكريكيت، ويتحسس لأخبار بريطانيا العظمى وحدها التي كانت تصل متأخّرة ثلاثة أسابيع. لقد اكتشفنا مستغربتين أنّ هذين الصبيّين اللذيْن ولدا في أقصى الريف الضائع من القارة الأمريكية واللذين يجري في عروقهما دم إسباني عربي يتكلّمان الكاستيلانية بلهجة أوكسفورد والإنفعال الوحيد الذي يستطيعان التعبير عنه هو الإندهاش برفع الحاجب الأيسر. لم يكن فيهما أيّ شيء مشترك مع هذين الأزعرين الصغيرين القذرين النشيطين اللذين يقضيان صيفهما في الريف. تمتمت كلارا وهي تودع ابنيها قائلةً: «آمل أنّ كلّ هذا البرد الأنكلوساكسوني لن يجعلهما لي أبلهين».

كانت النونو، بالرغم من عمرها الطويل، تؤمن مسؤولية بيت الزاوية الكبير فزرع موتها الفوضى بين الخدم. فلقد انصرفوا، لما صاروا دون مراقبة، عن مهمّاتهم لقضاء النهار بطوله في مباذل القيلولة والأكل، بينما كانت النباتات تجف دون سقاية، وتلهو العناكب في الزوايا. كان الإهمال واضحاً حتى أنّ كلارا صممت على إغلاق البيت وصرفهم. ثم عمدت مع بيانكا إلى تغطية الأثاث بالملاحف وبث النفتالين قليلاً في كلّ مكانٍ. وفتحتا أقفاص الطيور واحداً بعد آخر فامتلأت السماء بالببغاوات، والكنار، والحساسين، وطيور الفردوس التي رفرفت ثم دارت حول نفسها، وقد أعمتها الحرّية قبل أن تندفع أخيراً إلى أركان العالم الأربعة. وسجّلت بيانكا أنّه خلال كلّ هذه التغيّرات، لم يوجد أيّ شبحٍ ينبثق من خلف الستائر ولامتّنبئ يجيء، وقد أنذرته حاسته السادسة، ولاشاعرٍ خاوي البطن تجذبه الحاجة. بدت أمّها وكأنّها تحوّلت إلى امرأة عاديّة، إلى ريفيّة.

لاحظت لها بيانكا قائلة: «أراك تغيّرت يا ماما».

فأجابتها كلارا: «لست أنا الذي تغيرت إنّه العالم».

وذهبتا قبل أن تسافرا إلى غرفة النونو، في باحة الخدم الخلفية. وفتحت كلارا دروجها، وفتحت حقيبة من الكرتون المغلي استعملتها المرأة الطيبة خلال

نصف قرن، وفتّشت ثيابها. لم يكن هنالك غير بعض الملابس، والخفّافات القديمة، وعلب من كلّ القياسات معلّقة بخيوط كاوشوك أو أربطة، كانت تحفظ فيها صور المناولة الأولى أو العماد، وخصل شعر، وقلامات أظافر، وصوراً حائلة، وأحذية أطفال صغيرة خلقة. كانت ذكريات كلّ سلالة عائلة ديل فاله، ثم آل تروييبا، الذين مرّوا بين يديها وهدهدتهم على صدرها. واكتشفت، تحت السرير، في صرّة الأقنعة التي كانت تتكّل عليها النونو قديماً كي تطرد خرسها. وجلست كلارا على الفراش البائس وعلى ركبتيها تلك الكنوز، وبكت طويلاً تلك المرأة التي قضت حياتها في تسهيل حياة الآخرين وماتت في العزلة.

ولاحظت كلارا قائلة: «بعد كلّ ماتعذّبته كي تخيفني، ماتت هي من الخوف».

ونقلت الجدث إلى ضريح آل ديل فاله في المقبرة الكاثوليكية، لأنّها قالت لنفسها أن النونو ماكانت لتحبّ أن تدفن بين اليهود والإنجيليين، بل تفضّل أن تجد نفسها في الموت إلى جانب الذين خدمتهم في حياتها. ووضعت باقة زهر على حجر القبر وذهبت وبيانكا إلى المحطة كي تعودا إلى الماريّات الثلاث.

خلال الرحلة في القطار، أنبأت كلارا ابنتها بآخر أخبار العائلة وصحة أبيها، آملة أن تلقي عليها بيانكا السؤال الوحيد الذي تعرف أنّها تتطلّع، إلى إلقائه، لكن بيانكا لم تلمّح لأدنى تلميح لبيدرو الثالث جارسيا ولم تجرؤ كلارا أن تتكلّم أيضاً عنه. كانت تظنّ بأنّها عندما تعطي إسماً للمعضلة تغدو واقعاً لايمكن تغافله، أمّا إذا تركتها في دائرة الصمت، جاز أن تختفي من نفسها مع الزمن. في المحطّة كانت ينتظرهما بيدرو الصغير مع العربة، ولم تعجب بيانكا أن سمعته يصوفر طول الطريق الموصل إلى الماريّات الثلاث، لأنّ الوكيل كانت له سمعةُ رجلٍ صامتٍ.

وجدتا إيستيبان تروييبا جالساً في مقعدٍ مغطّى بالقطيفة الزرقاء وقد ركبوا له دولابي درّاجة، بانتظار مجيء الكرسيّ النقّال من العاصمة الذي طلبه وأتت به كلارا مع المتاع. كان يدبر أعمال بناء البيت بشتائم كثيرةٍ وضرباتٍ عصاً

قوّية، ولقد كان مستغرقاً حتّى أنّه استقبلهما بقبلة شاردة وأهمل سؤال ابنته عن صحّتها.

تناولوا عشاءهم ذلك المساء على طاولة ريفية صنعت من ألواح خشب وعلى ضوء قنديلٍ بترولي. ورأت بيانكا أمّها تقدّم الطعام في صحون من تراب مشويٍّ من صنعٍ يدويٍّ، على طريقة صنع الآجر، لأنّ الأواني قضت جميعاً في الزلزال، وليستِ النونو موجودةً كي تعنى بمسائل المطبخ، ولو أنّها اختصرت حتى البساطة، وماتقاسموا غير شوربة العدس، والخبز والجبن ومربّى السفرجل، أو بالأحرى أقلّ ممّا كانت تـأكل في الداخلية أيام صيام الجمعة. كان ايستيبان يقول إنّه حالما يستطيع الوقوف على ساقيه، سوف يذهب بنفسه إلى العاصمة كي يشتري أثمن الأشياء وأغلاها فيجمّل بها بيته، لأنّه ضاق ذرعاً بالعيش كفلّاح بسبب هذه الطبيعة الشيطانيّة الهيستيرية في ديار الحثالات الملعونة هذه. غير أنّ بيانكا لم تحفظ من كلّ ماقيل على المائدة غير شيء واحدٍ. إنّ إيستيبان طرد بيدرو الثالث جارسيا مع الأمر بألّا يضع أبداً قدمه في الملكيّة، لأنّه فاجأه ينشر أفكاراً شيوعيّة بين الفلّاحين. عند هذه الكلمات، شحبت الفتاة وسقط محتوى المغرفة على الغطاء. لاحظت كلارا وحدها اضطرابها، لأنّ إيستيبان كان مندفعاً في مناجاة نفسه السرمدية عن هؤلاء الأدنى من اللاشيء الذين يعضّون اليد التي تعطيهم زادهم «وكلّ ذلك بفضل ساسة الشيطان! مثل المرشح الاشتراكي الجديد، الدمية الذي يدسّ أنفه فيطوف البلاد من الشمال إلى الجنوب في قطار شحنه المجانيّ، كي يثير الناس الطيّبين بحذلقاته البولشفيّة، وإن الأفضل لحياته ألّا ينزل هنا، لأنّه لو نزل لصنعنا منه عصيدة، نحن مستعدون، لايوجد ملّاك في كلّ المنطقة إلّا وهو متفقٌ معنا، أنّنا لن نسمح لوعظهم ضدّ العمل المستقيم، ضدّ السعر العادل للجهد، ومكافأة الذين يعرفون كيف يسبقون، إنّ أحداً لن يجعلنا نبتلع أن يربح أولئك التنابل مثل مانربح نحن الذين نعمل من مطلع الشمس حتى غيابها ونعرف كيف نوظّف رأس مالنا، ونغامر، ونحمل المسؤوليات، لأنّنا لو تعمّقنا بالأشياء، كحكاياتهم بأنّ الأرض لمن يعمل بها سوف تعود عليهم، لأنّ الوحيد الذي يعرف كيف يعمل هنا، هو

أنا، والمسيح نفسه لم يقل إنّه يجب أن نقتسم ثمر أتعابنا مع الكسالى، وهذا القذر الصغير بيدرو الثالث الذي يجرؤ على المجيء إلى هنا كي يروي هذه الأشياء على أرضي، إن لم أطلق رصاصةً على رأسه فلأنني أجلّ أباه كثيراً وأنا، مدينٌ بشكلٍ ما، بحياتي لجدّه، لكني أنذرته أيّ إذا رأيته يتسكّع في ناحيتنا فسأصنع منه هريسةً بطلقات الخردق».

لم تشارك كلارا بالحديث، كانت مشغولة بتقديم الصحون وأخذها ومراقبة ابنتها من طرف عينيها، لكنّها حين حملت طبق الحساء مع بقيّة العدس، سمعت آخر أنغام أغنية زوجها. قالت:

«أنت لاتستطيع أن تمنع العالم من التبدّل يا إيستيبان. إذا لم يكن بيدرو الثالث جارسيا فسيأتي آخر يدخل الأفكار الجديدة إلى الماريات الثلاث».

عندها ضرب إيستيبان ترويبيا طبق الحساء التي تمسك بها زوجته بيديها ضربة عصاً فحطّمها وأراق محتواها على الأرض. فقامت بيانكا مذعورةً. كانت المرة الأولى التي تشاهد فيها غضب أبيها ينصبُّ على كلارا وخالت أنّ هذه سوف تدخل في إحدى رعدات الوجد المعتوهة، أو تطير من النافذة، غير أنّ شيئاً من هذا لم يحدث. وجمعت كلارا قطع طبق الحساء المكسورة بهدوئها العادي، دون أن يظهر عليها الشعور بأنّها تسمع كلمة واحدة من مسبحة سفاهات المغامر التي ينفثها إيستيبان. وانتظرت حتى انتهى سبابه، فتمنّت له ليلةً طيّبةً بقبلةٍ رقيقةٍ على خدّه وخرجت تجرّ بيانكا من يدها.

لم يقلق غياب بيدرو الثالث بيانكا. كانت تذهب كلّ يوم إلى النهر وتنتظر. كانت تعرف أنّ خبر عودتها إلى الريف سوف يصل الفتى عاجلاً أم آجلاً وأنّ نداء الحبّ سوف يوافيه أنّى وجد وهكذا كان. في اليوم الخامس رأت شخصاً في أسمال، تلفّع بونشو شتائياً، وغطى رأسه بقبّعةٍ عريضةِ الحواف، يتقدّم نحوها، جارّاً وراءه حماراً يحمل أواني مطبخية، وقدور صفيح، وأباريق شاي من قصدير، وقدوراً كبيرة مطلّية بالميناء، ومغارف مختلفة السعة، في نغم علب محفوظات تنبئ عن مروره قبل عشر دقائق. لم تعرفه. كأنّه شيخ بائس من أولئك الباعة المتجولين الذين يجوبون المقاطعة ببضاعتهم من باب إلى

باب. وقف أمامها ورفع قبعته وعندها رأت عينيه الرائعتين السوداوين تلمعان وسط لبدة أسد وذقن شعثاء. واستمر الجحش يرعى العشب بجملة من مجموعات الطناجر، بينما كانت بيانكا وبيدرو الثالث يرويان جوعهما وظمأهما اللذين تراكما منذ كذا من شهور الصمت والفراق، يتدحرجان بين الحجارة والعليق ويتأوّهان كيائسين. ثم بقيا متعانقين بين قصب الضفّة. بين أزيز اليعاسيب، ونقيق الضفادع روت له أنّها حشت حذاءها بقشور الموز وأوراق النشاف كي ترتفع حرارتها وأنّها ابتلعت غبار الطبشور كي تسعل كثيراً، لعلّها تقنع الراهبات بأنّ شحوبها وفقدان الشهيّة لم يكونا غير أعراض السل.

قالت له وهي تقبله من عنقه: «أردت أن أكون قريبة منك».

حدّثها بيدرو الثالث عما يجري في العالم وفي البلاد نفسها، عن تلك الحرب البعيدة التي حكمت على نصف البشريّة بنزع أمعائها بالرّشاش والنزاع في معسكرات الاعتقال وإلى مدٍّ لانهاية له من الأرامل والأيتام، حدّثها عن عمال أوربا وأمريكا الشمالية الذين اعترف لهم بحقوقهم، وتضحية النقابات والاشتراكيين في عشرات السنين السالفة التي أوجدت قوانين أعدل، وجمهوريات كما يجب أن تكون، لايهرّب قادتها بودرة حليب المنكوبين.

ـ إنّ آخر من يعلم، هم دائماً نحن الفلاحين، من لانعرف شيئاً عمّا يجري في الخارج. كلّ البشر، هنا، يكرهون أباك. غير أنّ الناس يخافونه حتى لايجرؤون على التنظيم لمقاومته. هل تسمعينني يا بيانكا.

كانت تصغي إليه، غير أنها تلك الساعة لم تكن مشغولة إلا بشمّ رائحته رائحة القمح المحصود حديثاً، وأن تلحس أذنيه وتدفن أصابعها في تلك الذقن الكثيفة، وأن تسمع تأوّهاته العاشقة. كانت أيضاً تخافه، كانت لاتعرف أنّ أباها فحسب يطلق على رأسه رصاصة كما وعد، بل أن أيّ ملاك في المنطقة يسره أن يفعل الفعلة نفسها. وذكرت بيانكا بيدرو الثالث بقصة الزعيم الاشتراكي، الذي كان منذ سنة أو سنتين خلتا يجوب المنطقة على الدرّاجة، ويوزع منشورات عن الأرض وينظم المزارعين، حتى اليوم الذي أمسك به الأخوة سانشيز، وقتلوه ضرباً بالعصار وشنقوه على عمود تلغرافي على مفترق

طريقين، كي يستطيع كلّ الناس رؤيته. وبقي هناك يوماً وليلة يتأرجح عالياً تحت السماء، حتى وصول الماريشالية[1] فأنزلته. وعزيت القضية، لإخفائها، إلى هنود الإحتياط، مع أنّ الناس جميعاً يعرفون أنّهم مسالمون، يخشون قتل دجاجة، فكيف لايخشون قتل رجل. عندها ذهب الأخوة سانتشيز فأخرجوه من القبر كي يعرضوا جثته من جديد، وبات من غير المستطاع اتهام الهنود هذه المرة. وحتى بعد ذلك لم يجرؤ القضاء على التدخّل ونسي سريعاً، موت الاشتراكي.

تضرّعت إليه بيانكا وهي تضمّه: «إنهم قمينون بقتلك».

قال بيدرو الثالث كي يهدئها: «سوف أنتبه. لن أبقى طويلاً في المكان نفسه أبداً. ولن أستطيع رؤيتك كل يوم. انتظريني هنا. سوف آتي كلّ مرة أستطيع فيها».

قالت باكية: «أحبك».

ـ أحبّك أيضاً.

وتعانقا من جديد باحتدام عمرهما الذي لايروى، فيما كان الجحش مثابراً على مضغ العشب.

وتدبّرت بيانكا أمرها كي لاتعود إلى الكليّة بأن تجعل نفسها تقيء من الماء المملّح الساخن، وتصيب نفسها بالسهال من أكل الخوخ الأخضر، والإحساس بالإختناق من شدّ خصرها بسير حصان، حتى اعترف لها بأنّ صحتها ضعيفة، وهذا بالدقّة هو الهدف الذي كانت تتحرّاه. كانت تقلّد أعراض مختلف الأمراض جيّداً حتى لتخدع مجمعاً من الأطبّاء، وآل بها الأمر إلى أن تقتنع هي بأنّ صحتها ليست على مايرام. كانت لمّا تستيقظ كلّ صباح، تقوم عقليّاً باستعراض مفصّل لبنيتها حتى تعرف من أين تتألم وأية إصابة جديدة نزلت بها. لقد تعلّمت كيف تستفيد من أدنى مناسبة، حتى تمرض أشد مرض، من تبدلات الحرارة إلى غبار طلع الأزهار، وتحويل الالتهاب الهيّن إلى نزع.

---

١ ـ الشرطة الخيالة.

وكانت كلارا تذهب إلى أنّ أحسن مايحفظ الصحة هو إشغال اليدين وهكذا أبدت اهتماماً بأمراض ابنتها بأن أعطتها عملاً. كان على الفتاة أن تفيق باكراً كل صباح، مثل أيّ إنسان آخر، وأن تغتسل بالماء البارد وأن تقوم بما وجب عليها عمله، أو بالأحرى التعليم بالمدرسة، والخياطة بمخزن البياضات، وأن تقوم بمهمّة الممرضة، من غسل للجراح وخياطتها بخيط وإبرة من علبة الخياطة، دون أن يؤثّر عليها الإغماء لرؤية الدم أو العرق البارد حين تغسل القيء. أمّا بيدرو جارسيا الكبير الذي بلغ الآن التسعين وبات يجد صعوبة في جرّ هيكله العظمي، فقد كان يشارك كلارا بأنّ اليدين جعلتا كي نستخدمهما. وهكذا، يوم كانت بيانكا تشكو دون ونىً من صداع فظيع، دعاها وفجأة، رمى في حرجها كرة من صلصال. وقضى بعض الظهر وهو يعلمها كيف تقولب الغضار كي تصنع منه أواني، دون أن يبدو على الفتاة أنّها تحفظ أدنى ذكرى لآلامها. كان العجوز يجهل أنّه يعطي بيانكا وقتئذ ماسوف يصبح فيما بعد وسيلتها الوحيدة في العيش وعزاءها في ساعات الحزن العظيم. علّمها كيف تدحوا الدائرة بقدمها بينّما تربّت يداها على الصلصال اللين كي تصنع منه قدوراً وجراراً. لكنّ بيانكا اكتشفت مبكّرة أنّها تملّ النافع وأن مايسلّيها أكثر هو صناعة أشكال حيوانية وإنسانية. ولقد توصلت، مع الزمن، إلى صنع عالم مصغّر من البهائم الداجنة وشخصيّات تنتسب إلى كلّ المهن من نجارين، وغسّالات، وطبّاخات ومع كلٍّ منها أدواته من أثاث مصغرّ.

قال إيستيبان ترويبيا حين اكتشف عمل ابنته: «لكن هذا لايفيد في شيء!».

واقترحت كلارا قائلة: «أفضل أن نبحث عمّا يمكن أن يفيد فيه».

وهكذا انبثقت فكرة احتفالات الميلاد. وأخذت بيانكا تصنع دمىً لمغارة الميلاد ولم تكتف بالملوك المجوس والرعاة بل جمهور أزلام من مختلف الرعاع وكلّ أنواع الحيوانات، من جمالٍ وحمرٍ وحشيّةٍ إفريقيةٍ، وتماسيح أمريكيّةٍ وغورٍ آسيويّةٍ، دون النظر إلى حيوانات بيت لحم الخاصّة. ثم أضافت إليها حييونيات من اختراعها، بأن تلصق نصف فيل بنصف تمساح، دون أن تدري أنّها كانت

تعيد بالصلصال ماكانت خالتها روزا، التي لم تعرفها، تصنعه بخيط التطريز على سماطها الكبير، بينما استنتجت كلارا إذا كان هذا النوع من الجنون يتكرّر في قلب العائلة، فإنّما توجد ذاكرة وراثية تمنع أن تختفي في النسيان. وباتت ميلادات بيانكا، المحتشدة بالأزلام مطمح الأنظار. واضطرت لتدريب فتاتين تساعدانها كي تنجز كلّ الطلبات، فقد أراد كلّ من الناس تلك السنة مغارته من أجل سهرة الميلاد بخاصّة لأنّها لاتكلّف شيئاً. فقد قرر إيستيبان تروييبا أن صنع الصلصال مناسب لتسلية الأوانس، أما إذا أريد لها أن تكون تجارة ، فإنّ اسم آل تروييبا يغدو مرتبطاً بأسماء تجار المسامير في البازار وباعة السمك المقليّ في الأسواق.

غدت لقاءات بيانكا وبيدرو الثالث غير منتظمة ومتباعدة لكنّها على قدر ذلك زيدتْ كثافة. ولقد تعوّدت خلال تلك السنوات على الذعر والإنتظار وقنعت بفكرة أنّهما يجب أن يتحابّا دائماً في السر وأقلعت عن تعليل النفس بحلم الزواج والعيش في أحد الأكواخ ذات القرميد التي يمتلكها أبوها. غالباً كانت تمضي أسابيعاً دون أن تعرف عنه شيئاً، لكن ينطلق فجأة في الملكيّة موزع بريد على دراجة، أو مبشر أنجيلي وتوراته تحت ذراعه، أو بعض غجري يتكلّم صبيراً[1] غير كاثوليكي، وكلُّهم مسالمون يمرّون، فلا يوقظون الظنون، أمام عين السيّد الساهرة. كانت تتعرّف إليه من بؤبؤي عينيه السوداوين. ولم تكن في ذلك وحيدة: كلّ فلاحي الماريّات الثلاث وكثير من فلاحي الملكيات الأخرى كانوا ينتظرونه أيضاً. منذ أن دأب الملاكون على مطاردته، اكتسب سمعة بطل. كان يجده من يبحث عنه ليلاً، النساء كنّ يحكن له البونشو والجرابات للشتاء، والرجال يحفظون له أفضل ماء الحياة، وأحسن مملّحات العضل. أبوه بيدرو جارسيا الصغير، كان يخمّن أنّ ابنه ينتهك منع تروييبا ويكشف الآثار التي يتركها عند مروره. كان مقسّماً بين حبّ يكنّه لابنه ودوره كحارس للملكيّة. لكنّه كان يخشى أكثر من ذلك أن يتعرّف عليه وأن يقرأ

---

١ ـ لغة مزيج من العربية والفرنسية والإسبانية.

ذلك إيستيبان تروييبا على وجهه، لكنّه كان يحسّ بفرح خفيّ عندما يعزو إليه بعض الفعال الغريبة التي تحدث في الريف. والشيء الوحيد الذي لم يدر في خياله، أن تكون زيارات ابنه على علاقة بنزهات بيانكا تروييبا عند النهر، لأنّ هذا الاحتمال لايمت للنظام العالمي الطبيعي. لم يكن يتحدّث يوماً عن ابنه، إلا في قلب العائلة، لكنّه كان يشعر أنّه فخورٌ به ويفضّل أن يراه تحوّل إلى فارّ من أن يتضاءل فلا يغدو غير واحد من أولئك الذين يقضون حياتهم بزراعة البطاطا وقطاف الزعرور. عندما كان يصغي إلى دندنة هذه أو تلك الأغنية التي تحكي عن دجاجات وثعالب، كان يبتسم لفكرة أنّ ابنه صنع أنصاراً بأغانيه الهدّامة أكثر من منشورات الحزب الاشتراكي التي كان يوزّعها دون أن يتعب.

الفصل السادس

الانتقام

بعد سنة ونصف من الزلزال رجعت الماريّات الثلاث فغدت الإستثمار النموذجي كما سلفت الحال. ووقفت من جديد دار السيّد، مساوية للأصلية، لكنّها أقوى، والماء الساخن يجري في الحمّام. ذلك الماء كان مثل الشوكلاتة المذابة يرى فيه أحياناً بعض الشراغيف[1]، لكنّ انبثاقه قويّ وفرح. والرشّاش الألماني كان أعجوبة حقيقيّة. كنت أتسكّع يميناً ويساراً دون سند غير عصا غليظة من فضّة، عصا اليوم نفسها، التي تقول عنها حفيدتي إنها لاتفيدني في عرجي، وإنما كي تضفي قوّة أكثر على حديثي وأنا ألوّح بها كحجة مفحمة. لقد أوهن بنيتي عجزي الطويل، وتفاقم أيضاً طبعي. وأعترف أن كلارا نفسها، في النهاية، باتت لاتقدر على إيقاف غضبي. إنّ أيّ إنسان آخر كان يخرج من الحادث عاجزاً عمره، لكنّي وجدت العون في طاقة اليأس. كنت أفكّر بأمّي في كرسيّها السيار، وكيف تتآكل وهي حيّة، وأستخلص من ذلك صلابة أكثر كي أقف وأندفع في السير، وأكبر معينٍ لي اللعنات. أظنّ أنّ الناس كانوا يخافونني، كلارا نفسها، التي لم تكن تجفل يوماً من طبعي الكلبيّ، والسبب إلى حدّ ما أنّي كنت أجتهد في ألّا تكون عرضة لذاك الطبع، باتت يبدو عليها الرعب. وكانت رؤيتها وهي ترتجف مني، تقيمني وتقعدني.

---

١ - ابن الضفدع.

تغيّرت كلارا قليلاً قليلاً. كان يظهر عليها التعب ولاحظت أنّها تبتعد عنّي. باتت لاتعطف عليّ، آلامي كانت تتعبها أكثر ممّا تثير حنوّها، وتبيّنت أنّها تجتنبني. وأجرؤ على القول أنّها في تلك الفترة تجد اللّذة في حلب البقر مع بيدرو الصغير أكثر من صحبتي في الصالون. وكلّما ابتعدت عنّي هكذا كلارا، ازدادت الحاجة التي أكابدها لحبّها. والشهوة التي كنت عليها عندما تزوّجتها لمّا تفتر، كنت مزمعاً على امتلاكها امتلاكاً كليّاً، حتى آخر فكرةٍ لديْها، لكن هذه المرأة الشفّافة كانت تمرّ قريباً مني كنسمة، فما يغني عني إذا أمسكتها باليدْين، أو ضممتها بعنف، إذ لم أكن قادراً على أن أجعلها أسيرتي. لم تكن يوماً معي بروحها. عندما خافت منّي غدت الحياة مطهراً. في النهار كان كلّ منا ينصرف إلى مشاغله. كان علينا أنا وهي أن نعمل كثيراً. وكنا لانلتقي إلّا في ساعات الطعام فكنت أتحدّث وحدي، أمّا هي فتبدو دائماً في الغيوم. ماكانت تفتح فمها إلّا قليلاً، وفقدت تلك الضحكة الملأى بالنضارة والوقاحة التي كانت أوّل شيء أغراني بها، فما كانت ترجع برأسها إلى خلف، وتضحك من كلّ أسنانها. كانت تبتسم فحسب أو تكاد. كنت أقول في نفسي إنّ العمر وحادثتي هما في سبيلهما إلى تفريقنا، إنّها تعبت من الحياة الزوجيّة، وأن هذه الأشياء تحدث مع كلّ الأزواج، وأنا لم أكن عاشقاً رقيقاً، من أولئك الذين يقدّمون الباقات في كلّ آن، ويعرفون كيف يغازلون. لكنّني كنت أجتهد في التقرّب منها. كم كنت أبذل جهداً، يا إلهي! كنت أفاجئها في غرفتها وهي مشغولة بدفاتر ملاحظاتها عن الحياة أو بمائدتها. بل جربت أن أشاطر في هذه النواحي من وجودها، لكنّها ماكانت تحبّ أن يتدّخل أحد في دفاترها، وكان وجودي يقطع عليها الإلهام لما تتحدّث مع الأرواح، حتى لقد اضطررت إلى الإقلاع عن هذا. وكذلك أقلعت عن خطّتي بعقد علاقات طيّبة مع بيانكا. منذ أن كانت صغيرةً وهي طفلة غريبة، لم تُبدِ مطلقاً تلك المحبّة الدلعة التي كنت أتوقّعها منها. والواقع أنّ لها طبع التاتو[1]. و أبعد ما أذكر عنها، أنّها ظهرت شرسة معي، ولأنّي لم أعان من ذلك دائماً، ولم تصب وتضطر للتغلّب على

---

١ ـ حيوان أدرع يأكل النمل.

عقدة أوديب. لكنّها حين صارت شابّة، تبدّت ذكيّة وناضجةً بالنسبة لعمرها وصارت وأمّها ككائنٍ واحدٍ. ففكّرت أنّها يمكن أن تعينني وحاولت أن أجعلها حليفتي فقدّمت لها الهدايا، وجرّبت أن أمازحها، لكنّها هي أيضاً تجنبتني. اليوم وفي عمري الكبير أستطيع التحدّث دون أن يفقدني الغضب رأسي، أظنّ أنّ كلّ شيء راجع لحبّها بيدرو الثالث جارسيا. ماكان من شيء يستطيع أن يثني بيانكا. لم تكن بتاتاً تطلب شيئاً وكانت تتكلّم أقلّ من أمّها وكنت أجبرها على أن تقبّلني بمثابة صباح أو مساء الخير لأنّها كانت تأتمر عن سوء خاطر حتى أن قبلتها كانت تؤثر بي كصفعةٍ. كنت أقول في نفسي آنئذ: «كلّ شيء سوف يتغيّر بعد أن نعود إلى العاصمة ونعيش حياة متمدّنة». لكنّ كلارا وبيانكا ماكانتا تظهران أدنى رغبة بترك الماريّات الثلاث، على العكس، كلّما لمّحت إلى ذلك، أعلنت بيانكا أنّ الحياة في الريف أعادت إليها صحتها وأنّها لمّا تسترد تماماً قواها، وكانت كلارا تذكّرني بأنّه توجد أشياء كثيرة يجب أن تنجز في الملكية، وأنّ هنالك أشياء لايمكن تركها نصف منجزة، وماكانت زوجتي لتأسف دائماً على الترف الذي تعوّدته وفي اليوم الذي وصلت فيه إلى الماريات الثلاث حمولة الأثاث والأدوات البيتيّة التي طلبتها كي أفاجئها بها، اكتفت بأن وجدت كلّ شيء جميلاً. واضطررت أن أعينّ بنفسي مكان وضعها، لأنّ المسألة بدت لاتعنيها مطلقاً. وتزيّنت الدار الجديدة ببذخ لم تعرفه من قبل، حتى قبل أبي، أي في عصر الأبّهة الذي سبق الخراب. ثم وصل الأثاث الضخم الإستعماري المصنوع من سنديان أشقر وجوز فنيّ الحفر، وسجادات ثقيلة من صوفٍ، وثريّات حديدٍ محدّدٍ ونحاس مطرّق. وطلبت من العاصمة طقماً صينيّاً إنكليزيّاً ملوّناً باليد، جديراً بسفارة، وكريستالاً، وأربعة صناديق ملأى بالغسيل والبياضات وسمط خيطها نقي ومجموعة من أسطوانات الموسيقى الكلاسيكيّة والفنانتازيا وحاكياً آخر طراز. إنّ أية امرأة كانت تطير فرحاً وتجد مايشغلها شهوراً متتالية في تنظيم بيتها، ماعدا كلارا التي كانت مغلقة على هذه الأشياء. لقد اكتفت بتعليم طباختين وتدريب بعض بنات المزارعين على الخدمة، وما أن تحررت من الطناجر والمكنسة حتى رجعت، في أوقات فراغها، إلى دفاتر

ملاحظاتها عن الحياة وأوراق التاروت. كانت تقضي جلّ وقتها نهاراً بالعمل في معمل الخياطة، والتمريض والمدرسة. كنت أتركها وشأنها، لأنّ هذه الاهتمامات كانت تبرّر وجودها. كانت امرأة محسنة، ملأى بالكرم حريصة على أن تجعل كلّ من حولها سعيداً، باستثنائي. بعد الإنهيار، أعدنا بناء الدكان كي ندخل عليها السرور فحسب، وألغيت طريقة مزق الورق الصغيرة الورديّة ودفعت لناسي أوراقاً نقديّة، لما قررت كلارا أن بوسعهم أن يشتروا من القرية ويوفّروا. جهداً ضائعاً. النتيجة كانت أنّ الرجال كانوا يذهبون إلى حانة سان لوكاس كي يسكروا ويجد النساء والأطفال أنفسهم في البؤس. كنّا نتشاجر كثيراً من أجل هذا النوع من الأشياء. وكان المزارعون في صلب كلّ مناقشاتنا. طبعاً، ليس كلّها: كان يحدث لنا أن نتناقش في الحرب العالميّة. كنت أتتبع تقدّم الجيوش النازيّة على خارطة علقتها بالدبابيس على حائط الصالون، فيما كانت كلارا تحوك جرابات لجنود الحلفاء. وكانت بيانكا تمسك رأسها بيديها، وهي غير قادرة على فهم سبب اهتمامنا بحرب لاشأن لنا فيها تندرج في الناحية الثانيّة من المحيط. فافترضتُ أنّ عدم تفاهمنا يمكن أن يكون له أسباب أخرى. والواقع أنّ المرات التي كنّا فيها على وفاقٍ حول شيء ماكانت نادرة. ولاأعتقد أنّ سوء طبعي هو الذي كان مسؤولاً عن كلّ شيء، لأنّي كنت زوجاً طيّباً، ومابقي لي شيء من الزير الذي كنته قبل الزواج. كانت عندي، هي المرأة الوحيدة في اعتباري. ومازالت دائماً كذلك.

ويوماً، وضعت كلارا ترساً وراء باب غرفتها، ولم تقبلني بعد دائماً في سريرها، إلّا في المرّات التي أمليت نفسي كثيراً وبشدّة حتى بات يعني الرفض قطيعة نهائية. قلت في نفسي أولاً لعلّه من انحرافات المزاج الخفية التي تنتاب النساء من وقت لآخر، أو ربّما كانت مرحلة اليأس، لكن لما استمرت الحال عدة أسابيع متتالية، قرّرت أن أتحدّث معها في الأمر. شرحت لي برزانة أن علاقاتنا الزوجية تدهورت وأنّها فقدت معها كلّ استعداد جيدٍ لمرح الحبّ، ومادمنا ليس لدينا مايقوله أحدنا للآخر، فهي تستنتج أنّه من الطبيعي ألا نقتسمْ السرير نفسه، واتخذت هيئة من يعجب من أنني أقضي النهار بطوله أرغي وأزبد ضدّها، حتى

إذا جاء الليل رغبت في مداعبتها. وأردت أن أريها من هذه الناحية أنّنا نحن الرجال مختلفون عن النساء، وأنّي رغم انحرافاتي، لست أقلّ عشقاً لها، لكنّ عبثاً. في ذلك الوقت بالرغم من حادثي ومن أنّها أصغر مني كنت في وضع أفضل وأقوى من كلارا. ولقد هزلت، مع العمر، فبت وليس في كلّ جسمي غرام من الشحم وبقيت مقاومتي وهمّتي كما كانت في عهد شبابي. كنت أستطيع قضاء النهار على السرج، وأن أجنح إلى أيّ مكان فأنام فيه، وأن أبتلع أيّ شيء دون أن أوقظ حويصلتي، أو كبدي أو أيّاً من تلك الأعضاء التي لاينفكّ الناس عن التحدّث في شأنها كيفما اتفق. مع ذلك. نعم، كانت العظام تؤلمني. في الأمسيات الطرية، والليالي الرطبة، كانت آلام العظام التي هشّمها زلزال الأرض تغدو حادّةٍ حتى لأعضّ الوسادة كي لايسمع أحد تأوهاتي. وإذا ضاق صبري حقاً، رميت كأساً دِهاقاً من ماء الحياة وحبتي إسبرين وراء ربطة العنق، لكنّ شيئاً من هذا لم يكن ليروّح عنّي. والغريب أن شهوانيتي التي صارت اصطفائية مع العمر بقيت على مثل اشتعالها أيام الشباب. كنت أنظر بعين الحسد إلى النساء كما أفعل الآن. إنها لذّةٌ جماليّةٌ، تقريباً روحيّة. لكن كلارا كانت الوحيدة التي توقظ فيّ شهوة واقعيّة، فوريّة، لأنّنا ولاشك عبر عشرتنا الطويلة تعلّمنا أن نعرف جيداً بعضنا بعضاً وأن يعلم أحدنا على رؤوس الأصابع خارطة الآخر. كانت تحدّد هي أكثر النقاط إحساساً فيّ، وتقول لي بالضبط ماكنت بحاجةٍ لسماعه. في العمر الذي تقرف فيه أكثريّة الرجال من رفيقاتهم ويلتمسون التنشيط عند الأخريات كي يستردّوا شرارة الشهوة، كنت أقنع نفسي أنّ كلارا هي الوحيدة التي أتمكن من ممارسة الحبّ معها كما في فترة شهر عسلنا، دون تعب. ولم يكن ليغريني البحث عن مكان آخر.

أذكر، أنني كنت أبدأ حصارها مع هبوط الليل. في نهاية النهار كانت تجلس كي تكتب وكنت أتظاهر أنّي أتمتع بغليوني وأنا أتلصّص عليها من زاوية عيني. وحين أقدّر أنّها على أهبة الإنسحاب ـ لأنّها كانت تأخذ بتنظيف ريشتها وإغلاق دفاترها ـ كنت أثب، أتجه وأنا عارج إلى الحمّام. فأجمّل نفسي،

وأمرّر مشط المخمل الأسقفي الذي اقتنيته كي أغويها لكنّ يبدو أنّها لم تلاحظ دائماً وجوده، ثم ألصق أذني على الباب وأنتظر. ومنذ أن أسمعها آتية في الممر، أهجم. كنت أجرب كلّ شيء، أحياناً بأغداقي المداعبة عليها والهدايا، وأحياناً بتهديدها بتحطيم الباب ثم أوسعها ضرباً بالعصا لكنّ كلا الأمرين ماكان يضيّق الهوّة التي تفصلنا. يجب أن أعتقد أنّ إرادتي، في جعلها تنسى، في تلطفي العاشق ليلاً، سوء مزاجي الذي أرهقتها به كلّ النهار، كانت دون جدوى. كانت كلارا تتجنبني بهيئتها الشاردة حتى انتهيت إلى كرهها. لاأصل إلى فهم مايجذبني إلى هذا الحد إليها. كانت امرأةً ناضجةً مجرّدةً من كلّ أناقةٍ، تجرّ قدميها قليلاً وقد فقدت ذلك الفرح الذي من دون مبرّر والذي كان يجعلها ساحرة في شبابها. لقد كانت لاتبدي نحوي أيّ إغراء أو أيّ حنانٍ. أنا موقنٌ أنّها لم تكن تحبّني. وماكان لدي حقّاً أدنى سبب للرغبة فيها بهذا الشكل الفظّ العنيف الذي يجعلني أدلج في اليأس والسخف. لكنّي لم أكن أستطيع شيئاً. حركاتها الأنيقة، رائحة غسيلها النظيف والصابون اللطيفة، بريق عينيها، دقّة نقرتها المتوّجة بخصل ثائرة، كلّ مافيها كان يعجبني، حتى ضعفها كان يوقّظ فيّ حناناً لايطاق. كنت أشتهي أن أحميها، أن أضمّها، أن أضحكها كما في قديم الزمان، أن أنام من جديد وهي إلى جانبي، رأسها على كتفي، وساقاها ضمّمتهما تحت ساقيّ، هزيلة وصردة[1]، ويدها موضوعة على صدري، فاخرة وعطوبة[2]. أحياناً كنت أعدُ نفسي بعقابها باصطناع بعض اللامبالاة، لكنّي بعد أيام قليلةٍ أعترف بأنّي غلبت، لأنّها كانت تبدو أكثر هدوءاً وسعيدة لما أتجاهلها. ثقبت ثقباً في جدار الحمام كي أراها عارية، لكنّ هذا كان يجعلني في حالةٍ فضّلت معها أن أسدّه بالإسمنت. وذهبت جهاراً إلى القنديل الأحمر كي أجرحها، لكن تعليقها الوحيد كان قولها ذلك أفضل من اغتصاب الفلّاحات، وهو مافاجأني لأنّي لم أتصوّر أنّها على علم بذلك. وتقديراً لتعليقها

---

١ ـ تتأثر بالبرد.

٢ ـ قابلة للعطب.

أردت أن أرجع إلى هتك الأعراض، لإزعاجها فحسب. لكنني اضطررت إلى أن ألمس أنّ الزمن والزلزال سببّا عطلاً في فحولتي وأنّي بت وليست لي القوّة على حزم إحدى تلك البنات القويّات ورفعها على كفل حصاني وأقلّ من ذلك أن أنتزع أسمالها ثم من أقتحمها رغماً عن إرادتها. لقد صرت في العمر الذي يحتاج فيه الإنسان إلى المساعدة والحنان كي يضاجع. هه أصبحت مغفّلاً عجوزاً.

كان الوحيد الذي انتبه إلى أنّه يصغر. لاحظت ذلك من ثيابه. لم يكن يطفو فيها فحسب، وإنّما كانت أكمام القمصان والبناطيل طويلة جدّاً عليه. ورجا بيانكا كي تسوّيها له على آلة الخياطة زاعماً أنّه نحل، لكنّه كان يتساءل قلقاً إن كان بيدرو جارسيا العجوز قد ردّ له العظام بالمقلوب وأنّ هذا هو الذي جعله يقصر. لكنّه لم يفتح قلبه لأحد بتاتاً في هذا الشأن، عن غرورٍ، كما لم يحدث أحداً عن أوجاعه.

كان الناس يستعدّون آنئذ للإنتخابات الرئاسية. ولقد تعرّف إيستيبان تروييبا خلال عشاء أقيم في القرية لوجهاء المحافظين على الكونت دوساتينيي.. كان يحتذي موكاسان الجديّ، وسترة كتّان خام، ولايتعرق مثل عامة البشر وإنّما يضوع بالخزامى الإنكليزية، وجرى على عادة دفع كرة بمطرق تحت قوسٍ صغيرٍ في رابعة الظهر، ويتكلّم وهو يجر مقاطع الكلمات الأخيرة ويبلع «الراء». كان بين الرجال الذين يعرفهم إيستيبان الوحيد الذي يدهن أظافره بالبرنيق وعينيه بقطرة زرقاء. كانت عنده بطاقات زيارة طبع عليها شعار عائلته، وكان يحافظ على كلّ قواعد التهذيب السائدة، دون أن نعدّ بعض ما اخترعه، مثل أكل الخرشوف بملاقط من سكّر، أمام دهشة الجميع. كانت بقيّة الرجال تضحك منه في غيابه، لكن سريعاً ما لوحظ أنّهم يجتهدون في تقليد تصنّعه، وأحذية الجدي، وعدم اهتمامه وهيئته المتحذلقة. كان لقب الكونت يضعه في موقع خصٍّ بين بقيّة المهاجرين القادمين من أوروبا الوسطى، فراراً من أرزاء القرن الماضي، ومن إسبانيا للخلاص من الحرب، ومن الشرق الأوسط وتجاراتهم التركيّة، وأرمن من آسيا الصغرى يبحثون عن ترويج مآكلهم النموذجيّة ورديء

بضاعتهم. لم يكن الكونت دوساتييني بأدنى حاجة لكسب حياته كما أعلن للإدارة. وما تجارة الشنشيلة[1] عنده غير هواية.

رأى إيستيبان تروييبا الشنشيلات تحوم في أراضيه. وكان يتّصيدها بطلقات البندقيّة كي يمنعها من التهام البذار، لكن لم تواته يوماً فكرة أن تلك القواضم التافهة يمكن أن تتحوّل إلى فراء للسيّدات. وكان جان دوساتييني يبحث عن شريكٍ يضع في الصفقة رأس المال، والعمل، وأماكن التربية وأن يغامر بكلّ المجازفات، ويقتسم معه الأرباح مناصفةً. وماكان يظهر أنّ إيستيبان تروييبا مغامرٌ في كل نواحي حياته، لكن الكونت الفرنسي كان لديه من اليسر الهوائي والمهارة القادرين على إغوائه، حتى لقد قضى عدداً من الليالي البيضاء يدرس عرض تربية الشنشيلات ويحسب حساباته. وخلال هذا الوقت كان السيّد دوساتينيي يقضي إقامات طويلة في الماريات الثلاث بصفته مدعوّ شرفٍ. كان يلعب بكرته تحت الشمس، ويمتص كميّات مدهشة من عصير الشمّام دون سكر، ويدور حول أواني السيراميك لبيانكا. ووصل به الأمر أن عرض على الفتاة التصدير منها لبلاد أخرى حيث يوجد سوقٌ مضمونٌ للصناعة الحرفيّة المحليّة. وجربت بيانكا أن تبدّد خطأه، فشرحت له أن ليس فيها أيّ شيء هندي، مثلها مثل أعمالها، لكنّ الحائل اللغويّ منعه من أن يفهم وجهة نظرها. وساهم الكونت في ترقية عائلة تروييبا اجتماعياً: منذ اليوم الذي قطن فيه الملكية انهمرت الدعوات إلى الملكيات المجاورة، والاجتماعات مع وجوه القرية، وكلّ الأحداث الاجتماعية الثقافيّة في المنطقة. كل امرئ كان يبغي أن يتواجد الكونت على أمل أن يكتسب قليلاً من امتيازه، كانت الأبكار تتنهدن لمرآه والأمهات يشتهينه صهراً، ويتنازعن شرف دعوته. أمّا السادة فكانوا يحسدون حظ إيستيبان تروييبا الذي انتقي من بين الجميع من أجل صفقة الشنشيلات. الوحيدة التي لم يبهرها سحر الفرنسي، ولم تدهشها طريقته في تقشير برتقالةٍ بالشوكة والسكّين، دون أن يمسّها بالأصابع، ويدع القشر يمثّل زهرة، ولامهارته

١ ـ حيوان ثمين الفراء.

برواية الشعراء والفلاسفة الفرنسيين بلغته الأمّ، كانت كلارا التي، كانت كلّ مرّة تلتقي به، تحسّ بحاجة سؤاله عن اسمه، وتصاب بالدوار لما تصادفه يسلك الطريق إلى غرفة حمامها. أما عند بيانكا فقد كانت، بالمقابل، مناسبة تسلية تستغلها لعرض أحلى أروابها، وتتزيّن بأناقةٍ وتضع على الطاولة مجموعة الصحون الإنكليزيّة وشمعدانات الفضّة.

كانت تقول: «هو ذا شخص يخرجنا من البربرية على الأقل».

أما إيستيبان تروييبا فكان أقل تأثراً بتصنّع الأرستقراطيّة منه بالشنشيلات. كان يتساءل كيف يا شيطان لم تواته الفكرة بأن يدبغ جلدها بدلاً من إضاعة كل تلك السنين بتربية الدجاج الشيطانيّ الذي كان يهلك ممّا لايدري ومن أيّ إسهال يصاب به وكيف كانت الحال وتلك الأبقار التي من أجل ليتر حليب يحلب منها تستهلك هيكتاراً من الكلأ وعلبة فيتامينات، وتنشر زيادة على ذلك في كلّ مكان ذبابها وزبلها. أمّا كلارا وبيدرو جارسيا الصغير، فكانا لايشاركان حماسه من أجل القاضمات الصغيرة، هي من أجل أسباب إنسانية، لأنّها كانت تجد في تربيتها من أجل انتزاع جلودها عملاً شنيعاً، وهو لأنه لم يسمع يوماً من يتحدث عن تربية الجرذان.

وفي ليلةٍ، وقد خرج الكونت يدخن إحدى سكائره اللبنانيّة المستوردة خصيصاً من لبنان ـ كان يقول تروييبا هيا اعرفوا لي أين يقع هذا ـ ويتنشق رائحة الأزهار التي تصعد هبّات كبيرة من البستان وتقتحم الغرف. تنزّه بعض اللحظات على الشرفة وجال نظره بكلّ امتداد الزرع حول بيت السيّد، وتنهّد فقد أسرته تلك الطبيعة المغداقة، التي تستطيع أن تجمع في أكثر زوايا الأرض بعداً ما أبدعته من مناخات، الجبال والبحر، والوديان كأعلى القمم، ومجاري ماء شفّافة، وحيوانات مسالمة تبيح لك التنزّه بكلّ ثقة، ويقين أن لن ترى حيّة سامة تنطلق أو بهائم جائعة، وزيادة في الكمال لاتجد فيها هنوداً متوحشين ولاسوداً حاقدين. لقد تعب من جرّ جزمته في أقاليم غريبة وهو يعدو وراء أسواق زعانف القرش المخصّصة لصناعة مثيرات الشهوة، والجنسنغ الذي يشفي كلّ شيء، وتماثيل من نقشِ الإسكيمو، وأسماك البر المعطّرة من أمازونيا

والشنشيلات لمعاطف تلك السيّدات عندما كان عمره ثمانية وثلاثين عاماً، وهذا مايعترف به على الأقلّ، وقد شعر أخيراً أنّه وجد الجنة على الأرض، حيث يستطيع أن يقيم مشاريع وهو مرتاحٌ مع شركاء سذّج. جلس تحت شجرة كي يدخّن في الظلام. عندها رأى شبحاً يتحرّك، ومرّت به فكرة أنّه ربما كان لصاً، لكنّه أبعدها حالاً عنه، لأنّ حضور قطّاع الطرق في هذه الأراضي هو في غير محلّه مثل حضور البهائم الخطرة. اقترب بحذر فرأى عندها بيانكا تمرّر ساقيها من النافذة وتنزلق على طول الحائط كهرّ، فتسقط بين الأورتانسيا، دون أدنى صوت. لبست كرجلٍ، لأنّ الكلاب صارت تعرفها فما من حاجة لأن تذهب عارية. ورآها جان دوساتيني وهي تبتعد، وتبحث عن ظلّ الطنف ثم ظل الأشجار، وفكّر بأن يتبعها لكنّه خاف المولوسيين، وقال في نفسه ألا حاجة لمعرفة أين تذهب فتاة تقفز في قلب الليل من أعلى نافذتها. وشعر أنّه قلقٌ، فما رآه يهدد خططه بالخطر.

في اليوم التالي طلب الكونت بيانكا تروييبا للزواج. ولقد قدّر إيستيبان، الذي لم يتح له الوقت لمعرفة ابنته، أنّ لطفها الوديع واهتمامها بوضع الشمعدانات الفضيّة على المائدة هما الحبّ. ولقد وجد نفسه في غاية الرضى من أنّ ابنته الفظة، الضعيفة الصحة سيطرت على الغزل الذي هو أكثر من تطمح به النساء في المنطقة. وساءل نفسه مستغرباً: «ماذا وجد فيها؟». وشرح للطالب أنّ عليه أن يأخذ رأي بيانكا، ولو أنّه متأكدٌ أنّه لن يصادف أي اعتراض؛ وفيما يتعلّق به، فقد أخذ زمام المبادرة ورحّب بقدومه إلى حضن العائلة. واستدعى ابنته التي كانت، في تلك اللحظة، في المدرسة تعلّم الجغرافيا، واجتمع بها في مكتبه. وبعد خمس دقائق، فتح الباب في فرقعة عظيمة ورأى الكونت الفتاة تخرج، ووجنتاها ملتهبتان. وعندما مرّت من جانبه ألقت عليه نظرة قاتلٍ وأدارت رأسها. إنّ أيّ إنسان غيره، أقلّ صلابة، كان يأخذ حقائبه ويذهب إلى فندق القرية الوحيد، لكن الكونت أعلن لإيستيبان أنّه واثقٌ من الحصول على موافقة بيانكا، شريطة أن يترك له الوقت. وعرض عليه إيستيبان تروييبا أن يبقى ضيف الماريّات الثلاث طيلة الوقت الذي يراه ضروريّاً. ولم تقل

بيانكا شيئاً لكن، منذ ذلك اليوم انقطعت عن تناول الطعام معهم ولم تضيع مناسبة لتجعل الفرنسي يحسّ فيها كم هو غير مرغوبٍ فيه. ونسّقت أروابها المخصّصة للحفلات ورفعت شمعدانات الفضة وتحاشته بعدها بدقة. وأخبرت أباها أنّها إذا عاود التلميح عن هذا الزواج، فإنها سترجع إلى العاصمة في أوّل قطارٍ يقف في المحطّة وتتطوع راهبة مستجدّة في كليّتها.

وزأر إيستيبان تروييا: «سوف تبدلّين رأيك!».

أجابت: «أستغرب لو حصل ذلك».

أراح الجوّ كثيراً هذه السنة وصول التوأمين إلى الماريات الثلاث. كان مثل زوبعة منعشة في مناخ البيت الثقيل. لم يبد على أيّ من الأخوين أنه انجذب إلى سحر الأرستقراطي الفرنسي، بالرغم من أنّ هذا قام بجهود خفيّة لاجتذاب محبّة الصبيين. كان جيم ونيكولاس يسخران من لياقته، ومن موكاسانه المحذلق ولقبه الأجنبي، لكن جان دوساتينيي لم يقلق من ذلك قطعاً. وفت في عضدهما مزاجه الطيّب فقضوا بقيّة الصيف في تعايشٍ مع صديق وصل إلى درجة التحالف لإخراج بيانكا من العناد الذي تحصنّت فيه.

كانا يقولان لها: «عمرك أكثر من أربع وعشرين سنة يا أخيّة. تريدين أن تصبحي ضفدعة في جرن الماء المقدّس».

واجتهدا في إقناعها لقصّ شعرها، ونقل موديلات الثياب التي ذاعت كثيراً في المجلّات، لكنّها لم تكن تظهر أيّ اهتمام بهذه المودة الغريبة التي ليس لها أدنى حظ في الإزدهار في غبار البراري.

كان التوأمان يختلفان بين بعضهما إلى درجة لايقال معها أبداً إنهما أخوان. كان جيم قويّاً وطويلاً، محتشماً ومجتهداً. لقد أكرهته طريقة التعليم في الداخلية على تنمية عضلاته كمصارع، بفضل الرياضة، لكنّه كان في الواقع يرى فيها نشاطاً متعباً ودون طائلٍ. ولم يكن يستطيع فهم حماس جان دوساتينيي في قضاء الصبيحة ركضاً وراء كرة بعصا كي يضعها في وجر، مع أنّه كان أسهل عليه وضعها باليد. كان فيه أكثر من هوسٍ غريب بدأ يولد في

ذاك الزمن وآلت إلى أن تقوى على امتداد حياته. كان لايحبّ أن يتنفس أحدٌ قريباً من وجهه، وأن تمد له اليد للتحية، أو أن تلقى عليه أسئلة شخصيّة، أو أن يستعير أحدٌ منه كتباً، أو أن تكتب له الرسائل. ولقد تعقدت من هذا الشأن علائقه مع الناس، لكنّه ماكان في منجى منها فما أن تعرفه منذ دقائق خمس، حتى يبرز للعيان، رغم سلوكه الكيفيّ، أنّه كريمٌ على قدر ما هو ساذجٌ، قادرٌ على كثير من الحنان، وهو ما كان يخجل منه، يجتهد عبثاً في أن يخفيه. كان يبدي اهتماماً بالناس أكثر مما يريد أن يعترف به، وكان القليل من الأمر يحرّك شعوره. كان الفلاحون في الماريّات الثلاث يدعونه «الملاك الصغير» ويقابلونه كلّما احتاجوا شيئاً. وكان جيم يصغي إليهم دون أن ينبس بتعليقٍ، يجيب بمقاطع صغيرة وينتهي إلى أن يدير لهم ظهره، لكنّه لايهدأ حتى يأتي بحل لمشكلتهم. كان كائناً متوحشّاً تروي أمّه أنّه، حتى في صغره، لم يكن يدع أحداً يداعبه. كانت له وهو طفلٌ حركات شاذّة، وكان أهلاً لأن ينتزع الثياب التي يرتديها كي يعطيها إلى الآخرين، كما اتفق له أن يفعل في مناسبات كثيرة. وكلّ أثر للعاطفة أو الانفعال كان يبدو له دليل انحطاط وماكان يحطّم حواجز احتشامه المبالغ فيه إلّا مع الحيوانات، لقد كان يتدحرج معها على الأرض، ويداعبها، ويزقّها من فمه، وينام مع الكلاب وهو معانقها. كان بوسعه أيضاً أن يسلك السلوك نفسه مع الأطفال في عمر صغير، شريطة ألّا يراه أحد يفعل، لأنّه في عين الناس يفضل دور الرجل القاسي والمنعزل. ولم تصبه اثنتا عشرة سنة من التأهيل البريطاني في الكليّة بالكآبة البريطانية، المعدودة أنّها أكثر صفات الذكور امتيازاً. كان بالأحرى عاطفياً لايمكن إصلاحه. ولقد اهتم بالسياسة وقرّر أنّه لن يكون محامياً، كما يطلب أبوه، بل طبيباً يعين الفقراء كما كانت توحي أمّه التي كانت تعرفه معرفةً أفضل. لقد لعب جيم خلال كلّ طفولته مع بيدرو جارسيا الثالث، لكنّه السنة هذه أخذه الإعجاب به، لقد ضحّت بيانكا بموعد أو اثنين قرب النهر كي تتيح للشابّين أن يلتقيا. كانا يتحدّثان في العدل والمساواة، والحركة الفلاحية، والإشتراكية، بينما تصغي بيانكا ولكن ليس دون ملل، وهي تتمنّى لو ينتهيان سريعاً كي تبقى وحدها مع

حبيبها. هذه الصداقة بين الفتيين جمعتهما حتى الموت، دون أن يشكّ بأمرها إيستيبان تروبيا أدنى شكّ.

كان نيكولاس على ملاحة فتاة. ورث رقة ملامح وشفافية جلد أمّه، وكان أميل إلى القصر، رهيفاً، سريعاً وماكراً كثعلب. ذكاؤه لامعٌ، يبزّ أخاه من دون جهد، في كلّ مايعالجانه معاً. لقد صمّم له لعبة هدفها الوحيد أن يزعجه: كان يناقضه في أيّ موضوع ويقدّم الحجج بمهارةٍ وثقةٍ حتى ينتهي إلى إقناع جيم بأنّه كان على طريق خطأ ويكرهه على أن يعترف بخطئه.

وكان يسأل نيكولاس أخيراً أخاه: «أمتأكّد أنت أني على حقّ؟».

ـ نعم، أنت الذي على حق، كان يجمجم جيم الذي تمنعه استقامته من أن يناقش عن سوء قصدٍ.

فيصيح نيكولاس قائلاً: «أهنّيء نفسي! مع ذلك سوف أبرهن لك أنّك أنت الذي على حقٌ، وأنّي أنا الذي أخطأت. سوف أقدّم لك الحجج التي كان يجب عليك استخدامها ضدّي لو كنت على أدنى جزء من الذكاء.

كان يخرج جيم آنئذٍ عن طوره ويهاجمه بكلّ قواه، لكنه كان يندم حالاً لأنّه أقوى من أخيه بكثير وكان تفوقه الجسدّي يجعله يشعر بأنّه مذنب. في الكليّة كان نيكولاس يستخدم مواهبه، كي ينكّد الآخرين، حتى إذا وجد نفسه يواجه موقفاً عنيفاً، دعى أخاه للدفاع عنه، فيشجعه عن بعد. وتعوّد جيم على العراك من أجل نيكولاس وانتهى إلى أن يجد طبيعيّاً أن يعاقب في مكانه، وأن يعمل عمله ويغطّي على أكاذيبه. في تلك الفترة من شباب نيكولاس، انصب مركز اهتمامه الرئيسي، فيما عدا البنات، على تنمية طاقات كلارا بالتنبؤ عن المستقبل. كان يشتري كتباً عن الجمعيات السريّة، وخرائط البروج، وكلّ ماطبع. بمميّزات فوطبيعية[1]. تلك السنة حاول أن يحلّل آلية المعجزات، فاشترى طبعة شعبية من «حياة القديسين» وقضى الصيف كلّه يفتّش عن

---

١ ـ فوق الطبيعية.

تفسيرات عملية لأروع المآثر التي حقّقت في المجال الروحي. كانت أمّه تهزأ منه فتقول له:

ـ إذا كنت لاتقدر أن تفهم كيف يعمل الهاتف، كيف تريد أن تفهم شيئاً عن المعجزات؟

ولقد بدأ اهتمام نيكولاس بالمسائل الفوطبيعية يتجلّى قبل عام أو عامين. في أواخر الأسبوع عندما يستطيع الخروج من الداخلية، كان يذهب لزيارة الأخوات مورا في الطاحونة القديمة كي يلمّ بعلوم السحر. لكن وجب عليه أن يلمس بعد قليل أنّه دون أيّة موهبة فطريّة للتنبؤ أو التحرّك الذاتي، حتى لقد اضطر إلى أن يرتدّ إلى استخدام الخرائط الفلكيّة، والتاروت والعيدان الصينيّة. ومن موضوع لآخر، تعرّف عند آل مورا على فتاةٍ جميلةٍ تدعى آماندا، أكبر منه قليلاً بالعمر، غرست فيه أوّليات تأمل اليوغا والمعالجة بالأبر، علمان توصّل بفضلهما نيكولاس إلى معالجة الروماتيزم وآلام صغيرة أخرى، نتيجة لايصل لها أخوه أبداً بالطب التقليدي وبعد سبع سنين من الدراسة. في ذاك الصيف بلغ الحادية والعشرين وكان يملّ كثيراً في الريف. وكان أخوه، الذي أعلن نفسه مدافعاً عن فضيلة العذراوات في الماريّات الثلاث، يراقبه بدقّة كي يمنعه من إزعاج البنات، لكنّ نيكولاس كان لايقلُّ تدبيره لأمره في إغواء كلّ البالغات في زاويتهم بالتقرّب بغزل مجهول في تلك الأنحاء. وكان يقضي بقيّة وقته في البحث عن المعجزات، وتجربة تعلّم مهارات أمّه بتحريك المملحة بقوّة الروح وحدها وكتابة أشعار مشبوبة إلى آماندا التي كانت ترجعها له مع عودة البريد مقروءة ومصحّحة دون أن يثبّط ذلك أدنى قدر من الفتى.

مات بيدرو جارسيا الكبير قبل الانتخابات الرئاسية بقليل. كانت البلاد في أوج التوتر من المعارك السياسيّة، وقطارات النصر تقطعها من الشمال إلى الجنوب وهي تحمل المرشّحين الذين ينحنون في مؤخّرة آخر حافلة وهم في حاشيةٍ من مروّجات المبادئ، يحيّون بالطريقة نفسها، يعدون بالأشياء نفسها، تزوّدوا بالقبّعات، في خليطٍ من أبواق ومكبّرات صوت تحطّم هدوء المشهد وترعب الماشية. عاش العجوز طويلاً فبات وليس سوى كومة عظامٍ صغيرةٍ من

زجاج غطاها جلد شبيهٌ بالرقّ. وكان وجهه دانتيلّا من التجاعيد. كان إذا مشى نقنق كطقطقة الصّناجات، وكان بلا أسنان لايستطيع أن يتغذّى إلّا من عصائد الأطفال، وعدا عن أنّه أعمى صار أطرش، لكنّه لم يفقد في أيّة لحظةٍ حسّه بالأشياء، وذاكرة الزمان القديم واللحظة التي عبرت. مات جالساً على كرسيه الخيزران في نهاية فترة بعد الظهر. كان يحبّ أن يقبع على عتبة كوخه كي يحسّ حلول المساء الذي يكتشفه من تبدّل الحرارة الدقيق، ومن ضجّة الباحة، ومن تجديد النشاط في المطابخ، وصمت الدجاج المفاجئ. آنئذ باغته الموت. عند قدميه كان يوجد حفيد ابنه إيستيبان جارسيا الذي بدأ سنته العاشرة، وكان مشغولاً بفقأ عينيّ فرّوج بمسمارٍ. كان ابن إيستيبان جارسيا لقيط السيّد الوحيد الذي يحمل اسمه دون كنيته. إنّ أحداً لم يكن يذكر منشأه، ولا لماذا يحمل مثل هذا الاسم ماعداه هو: لقد توّصلت جدّته بانشا جارسيا، قبل موتها إلى أن تسمّم طفولته وهي تهجو قائلة لو أنّ أباه ولد في مكان ومحلّ بيانكا أو جيم أو نيكولاس، لورث من الماريّات الثلاث، ولو أنّه أراد، لاستطاع أن يصبح رئيساً للجمهوريّة. كان في تلك المنطقة المزروعة أبناء لاشرعيّين وآخرين، شرعيّين لايعرفون آباءهم، الوحيد الذي شبّ في الحقد على اسم عائلته. عاش والضغينة تبرحه للسيد، ولجدته المخدوعة، ولأبيه ابن الزنا ولقدره نفسه المحتوم قدر الفلّاح. كان إيستيبان ترويبا لايلحظه بين بقية أولاد الملكيّة، فما هو غير واحد بين آخرين من جحفل الأطفال الذين يغنّون النشيد الوطنيّ في المدرسة ويقفون رتلاً كي يأخذوا هديّتهم يوم الميلاد. هو نفسه لم يكن يحفظ آية ذكرى لبانشا جارسيا، أو أنّه جاءه منها ولدٌ أو يحفظ أقلّ من ذلك عن هذا الحفيد الأشرّ الذي يكرهه ويرقبه من بعيدٍ بعين الحسد كي ينقل حركاته ويقلّد صوته. كان الطفل يستيقظ في أوج الليل، وقد تخيّل أحداثاً مخيفةً أو أمراضاً قمينةً بأن تضع حدّاً نهائياً لوجود السيّد وكلّ نسله، بطريقة يرث فيها من الملكيّة. كان يجعل من الماريات الثلاث آنئذ مملكته الخاصّة. ولقد داعب طيلة حياته شبه هذه الأحلام، بل طويلاً بعد أن تحقّق أنّه لن يحصل على شيء إرثاً. ولم ينقطع لحظةً عن كره ترويبا من أجل هذا القدر المظلم الذي صنعه له ويحسّ به وكأنّه

عقابٌ، حتى الفترة التي رفع فيها إلى قمّة السلطة وأمسك بهم جميعاً في قبضته.

انتبه الولد إلى أن شيئاً ماتغيّر عند العجوز. اقترب منه ولمسه بـإصبعه فترنّح الجسد. سقط بيتر وجارسيا أرضاً مثل كيس عظام. كانت تغشّي بؤبؤي عينيه تلك السحاة[1] اللبنيّة التي حرمتهما النور منذ ربع قرن كامل. وأمسك إيستيبان جارسيا بالمسمار واستعدّ كي يثقب العينين لمّا برزت بيانكا؛ فدفعته دون أن تظنّ أن هذا الطفل المتوحش المنحرف ماكان غير ابن أخيها وأنّه نفسه سيغدو بعد بضع سنين أداة مأساة تنزل بعائلتها نفسها.

- يا إلهي مات العجوز الصغير، قالت فأجهشت وهي تنحني على جثّة العجوز المحدّبة، العجوز الذي سكن طفولتها بحكاياته وحمى عشقها السريّ.

دفن بيدرو جارسيا الكبير في نهاية سهرة أيّام ثلاثة أمر خلالها إيستيبان تروييبا ألا ينظر في المصاريف. وضع جسده في صندوق صنوبر برّي، لابساً بزّته للأحد، البزّة نفسها التي كان يرتديها في زواجه ويتزيّن بها حين يذهب للتصويت أو ليأخذ الخمسين بيزوس في عيد الميلاد. وألبسوه قميصه الأبيض الوحيد الذي ليس له سواه، ولو أنّه عريض عليه عند العنق، فقد ضمر من العمر، وربطة حداده وقرنفلة حمراء في العروة، كما كان يوم يتزين على الوحدة والنصف[2]. وثبتوا له الفكّين بوشاح ووضعوا له قبعته السوداء، كما أوصى مرات عديدة، لأنّه كان يشتهي أن يرفعها عن رأسه أمام الله. كان لايملك حذاء، لكن كلارا أخذت له زوجاً من عند إيستيبان تروييبا كي لايستطيع أحد أن يقول أنّه ذهب حافي القدمين إلى الجنّة.

وأخرج جان دوساتيني، الذي تحمّس للجنازة، من متاعه جهاز التصوير ذا المنصب وأخذ عدداً كبيراً من الصور للميّت حتى أنّ ذوي قرباه، ظنّوا بأنّه يمكن أن يسرق له روحه، فخرّبوا احتياطاً الصفائح. ولقد بادر الفلاحون بالمجيء

---

١ - غشاء على عيون الشيوخ.

٢ - لم نجد لها ترجمة غير المستعارة من العامية المصرية.

من كل المنطقة، لأنّ بيدرو جارسيا الكبير، على مدى قرنٍ من العمر، وجد نفسه على قربى مع حشدٍ من سكان المنطقة. وجاءت المكسيكية التي كانت أكبر منه عمراً، يصحبها عددٌ من الهنود من قبيلتها الذين، بناء على أمرٍ منها، أخذوا يبكون المرحوم وماتوقّفوا إلّا حين انتهت المأدبة، بعد أيّام ثلاثة. اجتمع الناس فيها حول كوخ العجوز يشربون خمراً ويعزفون على قيثارةٍ، ويراقبون الشواء. ونزل بهم أيضاً خوريّان على دراجتين، كي يباركا حدث موت بيدرو جارسيا ويوجّهان الطقس الجنازي. أحدهما كان أحمر الوجه عملاقاً لهجته إسبانيّةٌ واضحةٌ، الأب خوسه دولسه ماريا، الذي كان يعرفه إيستيبيان تروييبا إسماً فحسب. ولقد كاد يمنعه من دخول ملكيته، لكنّ كلارا أقنعته أنّ الوقت غير مناسب لتقديم الاتجاهات السياسيّة على ورع الفلاحين المسيحيّ. قالت له: «فكّر بنفس الميت، علّه يضع قليلاً من الترتيب في أشيائه». حتى أنّ الأمر وصل بـإيستيبيان تروييبا إلى الترحيب به ودعوته لأن يقيم عنده مع الأخ المساعد الذي لم يفتح فمه وكان ينظر دون انقطاع إلى أرض قدميه ورأسه منحرف ويداه مضمومتان. كان السيّد متأثراً من موت العجوز الذي أنقذ له بذوره من كارثة النمل قبل أن ينقذ حياته زيادة في المعروف، وكان يودّ لو يحفظ الجميع ذكرى هذا المأتم على أنّه يومٌ عظيم.

وجمع الخوريان المزارعين والزوّار في المدرسة كي يراجعا الأناجيل المنسيّة ويقولا موعظة من أجل راحة نفس بيدرو جارسيا ثم انسحبا إلى الغرفة التي وضعت تحت تصرّفهما في بيت السيّد بينما استأنف الآخرون قصفهم الذي انقطع بوصولهما. تلك الليلة انتظرت بيانكا حتى صمتت القيثارات ونحيب الهنود ونام الناس جميعاً كي تقفز من نافذة الغرفة، وتنصرف، في حماية الظلال إلى اتجاهها المعتاد. وفعلت الشيء نفسه خلال الليالي الثلاث التالية، حتى رحل الخوريّان. وعرف الناس جميعاً أنّ بيانكا، ماعدا ذويها، تلتقي بأحدهما عند النهر. ولم يكن هذا غير بيدرو جارسيا الثالث الذي لم يشأ أن يغيب عن مأتم جدّه واستغلّ الجبّة المستعارة كي يعظ المزارعين، بيتاً بعد آخر، شارحاً لهم أنّ الإنتخابات المقبلة هي فرصتهم لهزّ النير الذي عاشوا دائماً تحته. كانوا يصغون بدهشة وارتباك. زمنهم هم كان يقاس بالفصول، وطريقهم

بالتفكير بالأجيال، كانوا بطيئين وحذرين. الشباب وحدهم، الذين عندهم راديو ويصغون إلى الأنباء، الذين كانوا أحياناً يذهبون إلى القرية ويتناقشون مع النقابيين، كانوا يستطيعون تتبّع سياق أفكاره. الآخرون كانوا يعيرون الفتى أذناً، لأنّه البطل الذي يطارده السادة، لكنّهم كانوا مقتنعين في أعماقهم، أنّ حديثه لغوٌ.

قالوا له: «إذا عرف السيّد أننا سنصوّت للاشتراكيين، هلكنا».

وكان الخوري المزيف يزعم قائلاً: «لايستطيع أن يعرف! التصويت سرّي».

أجاب بيدرو الصغير أبوه: «وتعتقد بصدق ذلك يا بنيّ. يقولون إنها سريّة، لكن منذ الأزل يعرفون لمن نصوّت. وأكثر من ذلك، إذا ربحت جماعة حزبك، فإنّ الآخرين سوف يطردوننا ولن يكون لدينا عملٌ. أنا قضيت كلّ حياتي هنا. ماذا أفعل؟».

أقام بيدرو الثالث حجة أخرى: «لن يستطيعوا طردكم جميعاً. إذا رحلتم، سيخسر السيّد أكثر منكم».

- ليس مهمّاً كيف نصوّت، هم دائماً الذين يربحون.

قالت بيانكا التي كانت تحضر الاجتماع جالسةً بين الفلّاحين، ويغيّرون الأوراق».

أجاب بيدرو الثالث: «هذه المرّة لن يستطيعوا. سوف نرسل حزبيين كي يراقبوا مكاتب التصويت ويتأكّدوا أنّ الصناديق مختومة».

غير أنّ الفلاحين لم تكن دائماً لديهم الثقة. لقد علمتهم التجربة أنّ الثعلب ينتهي دائماً إلى قضم الدجاجات، بالرغم من الأغاني الهدّامة، التي وهي تنتقل من فم إلى أذن تغنّي العكس. أيضاً، عندما مرّ بالقطار مرشح الحزب الاشتراكي الجديد، وهو دكتور حسير النظر، شارزمي[1] يثير الجماهير بخطبه

---

١ - موهوب بالتأثير بالبشر.

الناريّة، راقبوه من المحطّة، تحت أعين السادة الذين اصطفوا في دائرة، حولهم، وقد تسلّحوا بالبنادق والهراوات. وأصغوا باحترام إلى كلمات المرشّح، لكن دون أن يجرؤوا على توجيه حركةٍ سلام له، ماعدا مجموعة من الصحفيين أسرعت في جماعة صغيرة، ومعهم معاول وعصي وأصواتهم قد بحّت وهم يحيّونه، لأنّ هؤلاء ليس عندهم مايفقدونه: إنّهم رحّالون في الرّيف، يظلون عبر المنطقة، دون عملٍ ثابتٍ، دون مأوى، دون سيّد، بل دون خوفٍ.

بعد موت وجنازة بيدرو جارسيا الكبير المشهودة بقليل، بدأت بيانكا تنفقد لونها التفّاحي الجميل ويستبد بها تعبٌ طبيعيّ، لاعلاقة له مع واقعة منع نفسها من التنفس، والإقياءات الصباحية، وليس سببه نقيع الملح الساخن. قالت في نفسها إنّ سببه الإفراط في الطعام، وكان آنئذ موسم المشمش والذرة الطريّة المطبوخة في القدر والمعطرة بالريحان، كانت تلك فترة الحلوى والمحفوظات من أجل الشتاء. لكنّ الصيام، والبابونج والمسهلات والراحة لم تشفها. حتى فقدت كلّ حماسها للمدرسة، والتمريض بل وأزلام الميلاد بالصلصال، وصارت مكتئبة نعسى، تقضي ساعات في الظلّ تتثاءب ملء شدقيها ولاتهتّم بشيء. ماعدا نشاطها الذي لاتتهاون فيه: هروبها الليلي من النافذة عندما يكون لها موعد قرب النهر مع بيدرو الثالث.

وكان جان دوساتينيي يلاحظها وهو الذي لم يعترف بهزيمته في مثابرته الرومانتيكية. وكان تأدباً ينزل بين فترة وفترة في فندق القرية، ويقوم برحلات قصيرة إلى العاصمة يرجع منها محمّلاً بأدب كاملٍ عن الشنشيلات، وأقفاصها، وغذائها، وأمراضها، وطريقة توالدها، وكيفيّة التعامل مع جلودها، وبصفة عامة، كلّ مايتعلّق بهذه الحييوينات الصغيرة التي أصبح قدرها أن تتحوّل إلى فراء للكتفين. وبقي الكونت ضيف الماريّات الثلاث خلال الجزء الأكبر من الصيف. كان ضيفاً ساحراً، مهذّباً، مرحاً ومريحاً. على شفتيه دائماً جملة لطيفة، يحيل وجبات الطعام إلى احتفالات، ويسلّيهم بعد الظهر بالعزف على البيانو في الصالون، فيباري كلارا في ليالي شوبان، وينجلي عن نبع لايجف من الحكايات. يستيقظ متأخراً، ويقضي بين الساعة والساعتين في

طقسه الشخصي، فيقوم بالرياضة ويكردح[1] حول البيت دون أن يأبه لسخر أولئك الفلاّحين الغلاظ، ثم يبتلّ في المغطس المملوء ماء حارّاً ثم يتردّد طويلاً قبل أن يعزم على اللباس الذي يتمشى مع كلّ مناسبة. لكنّ جهده كان ضائعاً، لأنّه لايجد أحداً يقدّر أناقته والشيء الوحيد الذي كان يحصل عليه أحياناً وهو يعرض ثياب ركوب الخيل الإنكليزية، وسترته المخملية، وقبعاته البيترولية ذات ريشة التدرج[2]، هو أنّ كلارا وقد دفعتها أحسن النيّات في الدنيا، اقترحت عليه ثياباً أكثر تلاؤماً مع حياة الريف. وماكان جان ليقلع عن مزاجه الحلو، بل ظلّ يقبل ابتسامات سيّد الدار الساخرة، وهيئة بيانكا الحانقة، وشرود كلارا الخالد التي ظلّت، بعد سنة، تسأله ما اسمه. كان يعرف طبخ بعض الوصفات الفرنسيّة، يتّبلها بحذق، ويرتبها بشكلٍ رائعٍ، فيقدّم مساهمته عندما يكون في البيت ضيوف. كان المرّة الأولى التي يُرى فيها رجلٌ يهتم بالمطبخ، لكنهم افترضوا أنّ تلك عادات أوربية، ولم يجرؤوا على السخر منها، كي لايعدّوا من الجهلة. وزيادة على ماله من علاقة بالشنشيلات كان يحمل معه أثناء رحلاته إلى العاصمة مجلّات مودة، ومسلسلات عن الحرب عمّمت كي تخلق أسطورة الجندي البطوليّ، وروايات حبّ لأجل بيانكا. وكان، خلال حديث بعد الغداء، يلمّح بلهجة مللٍ قاتلٍ إلى صيفياته بين النبالة الأوربية في قصور ليشتنشتاين أو على الشاطئ اللازوردي. وماكان ينقطع عن التكرار كم هو سعيدٌ لتركه كلّ هذا من أجل سحر أمريكا. وكانت بيانكا تسأله لماذا لم ينتق الكاريبب، أو على الأقل بلاداً فيها خلاسياتٌ، وجوز هند وتام تام، إذا كان مايبحث عنه هو الإغرابية[3]، لكنّه كان يعترض بأنّه لايوجد مكان على الأرض أحلى من هذه المنطقة المنسيّة في طرف العالم. وماكان الفرنسيّ بتاتاً يذكر حياته الخاصّة، إلا إذا أراد أن ينفذ بعض الأمائر التي تمكن المخاطب الأريب أن يكوّن لديْه فكرة عن أبهّته الماضية، وثروته التي لاتقدر، وأصوله الأرستقراطيّة.

١ ـ يعدو عدواً قصيراً.

٢ ـ طائر.

٣ ـ الرغبة في الأشياء الغريبة.

وماكان هنالك أيّ يقين عن وضعه المدنيّ، لاعن عمره أو عائلته أو المنطقة الفرنسيّة التي جاء منها. وكانت كلارا ترى أن كلّ هذه الأسرار ليست دون خطر واجتهدت بتبديد ذلك عن طريق التاروت، لكن جان لم يسمح بأن تسحب له الأوراق ولا أن تقرأ خطوط يده. كما كانوا يجهلون من أيّ برجٍ هو.

أما عند إيستيبان تروييبا فقد كان ذاك أقل همومه شأناً. كان يكفي بعينه أن يكون الكونت مستعدّاً لتسليته بلعبة شطرنج أو دومنة، وأن يظهر لامعاً ولطيفاً وألّا يستدين منه أبداً دراهم. ومنذ أن استقبل جان دوساتيني في البيت، غدا السأم محتملاً أكثر في الريف، حيث لايجد مايفعله عندما تدّق الساعة الخامسة. وماكان يزعجه، ماعدا ذلك، أن يحسده كلّ الجوار لاستضافته في الماريّات الثلاث ضيفاً على هذا الامتياز.

وسرت الإشاعة أن جان يطمح ببيانكا تروييبا، لكنّه ما انقطع عن أن يكون الخاطب المفضل لدى الأمّهات اللائي عندهن من يزوّجن. كانت كلارا تحترمه أيضاً دون أن يكون عندها أيّ مقصد زواجي خفيّ. أما بيانكا فقد آل بها الأمر إلى أن تتعوّد على وجوده. فلقد كان لينّ الجانب حلواً، ورزيناً حتى لقد نسيت قليلاً قليلاً طلبه بالزواج. ووصلت إلى أن قالت في نفسها إنّها ربما كانت شيئاً يشبه المزاح من قبل الكونت. واستأنفت إخراج الشمعدانات الفضيّة من الخزانة، ووضع الصحاف الإنكليزيّة على المائدة ولبس أرواب المدينة من أجل لقاءات آخر النهار. وغالباً ماكان يدعوها جان للذهاب إلى القرية أو يرجوها لمرافقته إلى دعواته العديد لمرافقته إلى دعواته العديدة في المجتمع. وكانت كلارا، في هذه المناسبات، مضطّرة لأن تذهب معهما، لأنّ إيستيبان تروييبا كان صارماً من هذه الناحية: كان لايريد أن ترى ابنته وحدها مع الفرنسي. وبالمقابل كان يسمح لهما بالنزهة في الملكية دون وصيف، شريطة ألّا يبتعدا كثيراً وأن يرجعا قبل حلول الليل. وكانت كلارا تقول، إذا كان الأمر يتعلق بحفظ بكارة الفتاة فإنّ هذا أخطر من تناول الشاي في ملكية آل أوز كاتيجوي، لكن إيستيبان كان على يقين أن ليس لديه مايخشاه من جان لأنّ

نياته كانت نبيلة، لكن ما وجب أن يحذر قالة السوء الذين يمكن أن ينالوا من شرف ابنته. وقد أدت النزهات الحقليّة بجان وبيانكا إلى أن يصبحا صديقين حسنين. كانا يتفاهمان جيداً. وكان يعجب كلاً منهما الركوب على الحصان في منتصف الصباح، والفطور في سلّة وعدّة جان في عدة حقائب من جلد ومن قماش مشمّع. وكان الكونت ينتهز كلّ الوقفات كي يضع بيانكا في المستوى الأوّل من المنظر ويصوّرها، بالرغم من أنها كانت تمانع قليلاً لأنّها تحس إحساساً غامضاً بالسخف. ولقد وجد في هذا الشعور تعليله ساعة النظر بالصور لما ظهّرت، فقد كانت تظهر بابتسامة ليست لها، ووضعٍ مستعارٍ، وهيئة كلب مضروب سببها حسب رأي جان عدم قدرتها على اتخاذ الوضع بصورٍ طبيعيّةٍ، وحسب رأيها هي، واقعة أنّه يضطرها للوقوف متشنّجة ممسكة عن التنفّس خلال ثوانٍ طويلةٍ، ريثما تتأثّر الصفيحة. كانا يختاران، بوجه عام، بعض مكان ظليل، في كنف الأشجار، فيفرشان غطاء على العشب ويجلسان هناك عدة ساعات. يتكلّمان عن أوروبا، والكتب، والطرف العائلية من ناحية بيانكا، ورحلات جان. وقدّمت كتاباً للشاعر فافتتن بها حتى لقد حفظ عن ظهر قلب مختارات طويلة يستطيع تلاوة أبياتها دون تردّد. كان يزعم أنّه خير ماكتب في الشعر، وأنّه حتى في الفرنسية، لغة الفنون المختارة، لايوجد من يصمد للمقارنة. ماكانا يقولان شيئاً عن عواطفهما. كان جان يبدي أنّه يستعجل أمره، لكن لاراجياً ولاملحاحاً، بل أخويّاً وهازئاً. وإذا قبّل يدها مغادراً، فبنظرة تلميذ أخطأ ينتزع الرومانتيكية من حركته. وإذا أعلن عن إعجابه بثوب، أو تحضير أكلة أو بدمية من مغارة، فإنّه يستعير نبرته من لهجة السخر التي تمكّنه من تأويل جملته بعدة أشكال. وإذا قطف لها زهراً أو أعانها في النزول عن الحصان فإنّما بمرحٍ يحوّل الغزل إلى لطف صداقة. على كلّ حال، واحترازاً، كانت بيانكا كلّما حانت فرصة أفهمته أنّها، حتى لو ماتت، لن تتزوّجه أبداً. ويبتسم جان دوساتينيي ابتسامةَ الفاتن الصاخبة، دون أن يقول شيئاً، ولاتستطيع بيانكا أن تفعل شيئاً سوى أن تسجّل كم كان أكثر ملاءمة لها من بيدرو الثالث.

كانت بيانكا تجهل أن جان يتجسّس عليها. رآها تقفز من النافذة، بثياب رجل، عدّة مرّات. كان يتبعها بعض الطريق، ثم يرجع عن هذا الشأن، خشية أن تأتي الكلاب فتفاجئه في الظلام. لكنّه استنتج من السمت الذي تتخذه أنّها تذهب دائماً ناحية النهر.

وفي تلك الأثناء، كان تروييبا لاينتهي إلى قرار بمسألة الشنشيلات. ووافق، بمثابة التجربة على إقامة قفص لبعض تلك القاضمات منقول على مستوى صغير عن المشروع الكبير النموذجي. وكانت تلك هي المرّة الوحيدة التي رُؤي فيها جان دوساتييني يشمّر كميّه ويندفع في العمل. غير أن الشنشيلات أصيبت بمرضٍ خاصٍّ بالجرذان وهلكت في أقلّ من خمسة عشر يوماً. لم يستطيعوا حتى دبغ جلودها، لأنّ فروها غدا كابياً يسقط عن الجلد مثل ريش الطيور المبلولة بالماء المغلي. وتأمّل جان في رعب الجثث التي اقشعّر وبرها، وتصلّبت قوائمها وانقلبت عيونها، ورمت أرضاً كلّ آماله بـإقناع إيستيبان تروييبا الذي هوى حماسه للفراوة[1] لمّا رأى تلك المذبحة.

واستخلص تروييبا قائلاً: «إذا كانت التربيّة النموذج قد ضربها الوباء، فإنّي أتحطّم تماماً لوفعلت».

بين مرض الشنشيلات ومغامرات بيانكا قضى الكونت عدة شهور يضيع فيها وقته. وبدأ يتعب من النسيء وقال في نفسه إن بيانكا لن تعير أبداً انتباهاً إلى سحره. ولقد لمس أن تربية القواضم لاحظّ لها بأنّ تتحقّق وقرّر أنّ الأفضل استعجال الأمور قبل أن يأتي من أحذق منه فيستولي على الوارثة. وفوق ذلك بدأت بيانكا تعجبه كثيراً، بعد أن استردّت الآن صحتها وبفضل ذلك الفتور الذي لطّف أسلوبها الريفيّ. كان يفضّل النساء الوديعات الثريّات ومنظر بيانكا، وقد استرخت بين الوسائد تتأمّل السماء ساعة القيلولة، ماكانت إلا لتذكّره بأمّه. بل كانت أحياناً تنجح بالتأثير عليه. لقد عرف جان كيف يكتشف من تفاصيل لايلمحها الآخرون متى تخطّط بيانكا لمغامرة ليليّة عند النهر. في تلك

---

١ ـ صناعة الفراء.

المرّات، كانت الفتاة تمتنع عن العشاء، متذرعة بصداع، وتنسحب باكراً، وفي نظرتها بصيصٌ غريبٌ، وفي حركاتها نفاذُ صبرٍ واحتدام يشخّصه حالاً. وفي ليلةٍ قرر أن يتبعها حتى غايتها، كي ينتهي من هذا الوضع الذي يهدّد بالاستمرار إلى مالانهاية. كان موقناً أنّ بيانكا لها عاشقٌ، لكنّه ماكان يعتقد أن هذا يمكن أن يكون شيئاً جدّيّاً. وماكان جان دوساتيني، ليتوقف شخصيّاً عند البكارة، ولاتبادرت المسألة لذهنه عندما قرر أن يطلب بيانكا للزواج، والذي كان يعنيه منها أشياء أخرى لاتفسدها لحظة لذّة إلى جانب النهر.

بعد أن انسحبت بيانكا إلى غرفتها، وفعلت بقيّة العائلة الشيء نفسه، بقي جان دوساتييني جالساً في الصالون في السواد، يصغي إلى أصوات البيت حتى الساعة التي قدّر فيها أنّها سوف تقفز من النافذة. خرج عندها إلى الباحة ووقف ينتظرها بين الأشجار. وظلّ متربّصاً في الظلّ أكثر من نصف ساعة دون أن يزعج هدوء الليل شيء غير عادي. ولما أعياه الإنتظار وكاد يرجع لاحظ أنّ نافذة بيانكا مفتوحة. فاستنتج أنّها قفزت قبل أن ينزل فيقبع كامناً في البستان.

- merde جمجم بالفرنسية.

واتجه إلى النهر واعياً ألّا تنذر الكلاب البيت بعوائها وتقفز عليه، واتخذ الطريق التي رأى بيانكا تسلكها في المرّات السابقة. لم يتعوّد أن يمشي بحذائه الناعم في الأرض المفلوحة، وأن يتخطّى الحجارة، أو يتجنّب الرامات، لكنّ الليل كان مضيئاً تماماً بقمر بدر ينير السماء بلمعانٍ خارقٍ، وحين تبدّد خوفه من رؤية الكلاب وهي تنطلق، استطاع أن يقدّر كلّ جمال اللحظة. ومشى ربع ساعة بطيبٍ قبل أن يرى أوائل قصب الضفة، عندها ضاعف حذره واقترب بخطى حذرةٍ، حريصاً على ألّا يسحق الزّغف التي قد يفضحه انقصافها. كان القمر ينعكس في الموجة بضياء من كريستال. والنسيم يهدهد بلطف أغصان وقمم الشجر. كان الصمت الكامل يهيمن وتبادر إليه لحظةُ الشعور بأنّه يعيش حلم مروبصٍ يسير فيه ويسير بلا توقّف ودون تقدّم أبداً، وكلّ مرة يريد فيها الوصول إلى الأشجار التي تبدو في متناول يده، ماكان يلتقي بغير الفراغ. واضطر إلى القيام بجهد كي يستردّ حالة عقله العادّية، الواقعيّة والبراغماتية.

وفي عطفة من الطريق، بين حجرين رماديين يضيئهما القمر، رآهما، قريبين حتى كاد أن يخاف من لمسهما. كانا عاريين. كان الرجل متمدّداً على ظهره، وجهه إلى السماء، وعيناه مغمضتان، لكنّه لم يجد صعوبة في معرفة الجزويتي الذي خدم في صلاة دفن بيدرو جارسيا الكبير. أذهله ما رأى. كانت بيانكا نائمة ورأسها يرتاح على بطن عاشقها الأسمر الأملس. وكان النور القمريّ الحلو يودع على جسديْهما انعكاسات معدنية وارتجف جان دوساتينيي لما اكتشف انسجام بيانكا، الذي ظهر له في تلك اللحظة على كمال ليس مثله.

لقد لزم الكونت الفرنسي المرموق حوالى دقيقة كي ينطلق من حالة النعمة التي غمره بها منظر العاشقين، والليل الهادئ، والقمر، وصمت البريّة، وكي يتحقق من أن الوضع أدهى مما تصوّر. لقد تعرّف في وضع الحبيبين إلى ذاك التراخي الخاص بالذين يعاشرون بعضهم منذ زمنٍ طويلٍ. فما من شيء يشبه هوى عابراً في صيف واحد، كما افترض من قبل، وإنما يقيناً، وحدة جسد وروح. وماكان جان دوساتينيي يستطيع أن يعرف أنّ بيانكا وبيدرو الثالث ناما هكذا منذ اليوم الأول الذي تعارفا فيه وأنّهما ماانفكّا عبر السنين يفعلان الشيء نفسه كلّما سنحت لهما الفرصة، لكنّه أحس به بغريزته.

وبعد أن احتاط كي يتجنّب إحداث أدنى صوت فينفران، دار على عقبيه وراجع دربه، وهو يفكّر بالطريقة التي يجابه فيها الوضع. عندما وصل إلى البيت، قرّر أن يروى كلّ شيء لأب بيانكا، فقد بدا له أنّ غضب إيستيبان ترويبا السريع هو أحسن وسيلة لحلّ المعضلة وقال في نفسه «ليغسلوا غسيلهم القذر عائلياً».

ولم ينتظر جان دوساتيني الصباح. طرق باب غرفة مضيفه وقبل أن يتوصّل هذا إلى استرداد عقله، تلا عليه دفعة واحدة حكايته. قصّ عليه أنّه لم يتوصّل إلى النوم بسبب الحرارة وأنّه مشى، كي يشمّ الهواء قليلاً، كيفما اتفق باتجاه النهر وإذا به يقع هناك على منظر خطيبته المقبلة المزعج نائمة بين ذراعي الجزويتي الملتحي، وهما عاريان في أشعة القمر. بقي إيستيبان ترويبا لحظة فاقد التوازن، فلم يكن يستطيع التصوّر أن ابنته تضاجع الأب خوسيه دولسيه ماريا،

لكنّه سريعاً أدرك الذي حدث، والمهزلة التي كان أداتها خلال جنازة العجوز وأن الفاتن لايمكن أن يكون غير بيدرو الثالث جارسيا، هذا ابن الكلبة اللعين الذي سوف يدفع له حياته، ارتدى بنطاله بالسرعة الرابعة ولبس حذاءه، وأخذ بندقية صيده على كتفه وأنزل من الحائط سوط فروسيّته.

- أنت، يا عزيزي، انتظرني هنا، أمر الفرنسي، الذي لم يكن في نيته، على كلّ حال، أن يرافقه.

وركض إيستيبان ترويبا إلى الإسطبل وامتطى حصانه دون سرج. كان يتجشّأ غيظاً، واصطكّت عظامه الملحومة من جهد، وجنّ خفقان قلبه. كان يجمجم «سوف أذبحهما معاً». ويكرّر ويعيد. وأطلق حصانه عدواً في الإتجاه الذي حدّده الفرنسيّ، لكنّه لم يحتج للذهاب مطلقاً حتى النهر، لأنّه وقع على بيانكا في منتصف الطريق وهي راجعة إلى البيت تترنّم، شعرها فوضى، وروبها اتّسخ، وهيئتها سابغة كمن ليس لديّه مايطلبه من الحياة. عندما رأى إيستيبان ترويبا ابنته لم يستطع أن يكبح نفسه فخيّل حتى وصل إليها، وسوطه مرفوع، وضربها من دون شفقة، ضربات تهمي عليها واحدة بعد أخرى حتى انهارت، وتمدّدت بلا حراك في الوحل. ونزل إلى الأرض، فهزّها كي تصحو وزعق بكلّ الشتائم المعروفة، واخترع غيرها في نار يأسه.

شدّد قائلاً: «من هو؟ قولي اسمه أو قتلتك!».

بكت قائلةً: «لن أقول لك أبداً».

وفهم إيستيبان ترويبا أن تلك ليست الطريقة الجيدة كي يحصل على أيّ شيء من هذه البنت التي له والتي ورثت طبعه العنيد. لقد ظهر مفرطاً، مثله دائماً، بعقابها هكذا. وأركبها على الحصان ورجعا معاً إلى البيت. الغريزة وهياج الكلاب أنذرا كلارا والخدم الذين كانوا ينتظرون أمام الباب، والأنوار مشتعلة. الوحيد الذي لم يظهر في أيّ مكان كان الكونت الذي استغلّ الضجة فأعدّ حقائبه، وكدن الخيل إلى العربة وهاجر سرّاً إلى فندق القرية.

هتفت كلارا لما رأت ابنتها وقد غطاها الوحل والدم: «يا إلهي، ماذا أصابك يا إيستيبان!».

حملت كلارا وبيدرو جارسيا الصغير بيانكا حتى سريرها. ولقد شحب الوكيل شحوب الموت، لكنّه لم ينبس بكلمةٍ واحدةٍ. وغسلت كلارا ابنتها ووضعت لها الكمادات الباردة على رضوضها وهدهدتها حتى استعادت هدوءها. وبعد أن تركتها نصف نائمة، ذهبت تواجه زوجها الذي سجن نفسه في مكتبه وأخذ يمشي طولاً وعرضاً، سكران من غضب وهو يسوط الجدار بضربات سوطه، ويجدّف ويوسع الأثاث بضربات قدمه. لما رآها إيستيبان، وجّه كلّ غضبه إليها، واتّهمها بأنّها ربت بيانكا خارج كلّ أخلاق، وكلّ دين، وكلّ مبادئ، كملحدةٍ وفاجرةٍ بل أكثر، دون أيّ إحساس بطبقتها، ولقد كان بوسعه أن يفهم لو فعلت هذه الأشياء مع ابن أصلٍ، لكن مع فلاح، مهجّنٍ، مغامرٍ، محرّضٍ لاشأن له.

ـ كان علي أن أقتله حالاً بدلاً من تهديده! يضاجع ابنتي أنا! أقسم أن أجده، وحالما أمسك به، سوف أخصيه، ولو كان آخر شيء مقدر لي أن أفعله في حياتي، أقسم بأمّي أنّه سوف يندم لأنّه ولد!.

قالت كلارا لما استطاعت أن تقاطعه: «لم يفعل بيدرو الثالث غير مافعلته أنت نفسك. أنت أيضاً ضاجعت بنات لم يكنّ من طبقتك. الفرق أنّه فعله عن حبّ وبيانكا أيضاً».

ونظر إليها تروييبا وقد ذهل من دهشة. وفي مدى لحظة، بدا أنّ غضبه هدأ، وشعر ببعض الخيبة، لكن صعدت إلى رأسه حالاً موجة دم. وفقد كلّ مراقبة لنفسه وأرسل إلى وجه زوجته لكمة قذفتها إلى الحائط. وانهارت كلارا دون صرخة. ولاح كأنّ إيستيبان يخرج من حالة وجد، وركع إلى جانبها باكياً، يتلعثم بالأعذار والشرح، ويناديها بكلّ أسماء التصغير الرقيقة التي ماكان يستعملها إلّا في الساعات الحميمة، دون أن يستطيع فهم كيف وصل به الأمر إلى رفع يده عليها فهي الكائن الوحيد الذي يهمّه حقاً، الوحيد الذي في أسوأ لحظات حياتهما المشتركة، لم ينقطع عن احترامه. أخذها بين ذراعيه ووضعها بحب في مقعد، وبلّل محرمة وضعها على جبينها وحاول أن يجعلها تشرب قليلاً من الماء. وأخيراً حرّكت كلارا عينيها. وانبثق الدم من منخريها. ولما

فتحت فمها بصقت عدة أسنانٍ سقطت على الأرض وسال خيط من اللّعاب الدامي من ذقنها حتى رقبتها.

وماكانت كلارا تستطيع النهوض حتى دفعت عنها دون مسايرة إيستيبان وقامت بصعوبةٍ وخرجت من المكتب جاهدةً بأن تمشي رافعة الرأس. في الجهة الثانية من الباب كان يقف بيدرو جارسيا الصغير الذي استطاع أن يسندها في لحظة الخطر التي أحست فيها أن الأرض تنسحب من تحتها. وأسلمته قيادها حين اكتشفت كلارا أنّه قريبٍ منها. وأسندت وجهها المتورم إلى صدر ذلك الرجل الذي وجد دائماً قربها في أصعب ساعات حياتها وأخذت تبكي. واصطبغ قميص بيدرو جارسيا الصغير بلون الدم.

لم توجه كلارا بعدها الكلام إلى زوجها في بقية حياتها. وانقطعت عن استعمال اسمها كامرأةٍ متزوّجةٍ وانتزعت من إصبعها خاتم الزواج الذهبيّ الذي وضعه لها لعشرين سنة خلت، خلال السهرة الشهيرة التي مات فيها بارّاباس مذبوحاً بسكينة قصاب.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من ذلك، تركت كلارا وبيانكا الماريّات الثلاث ورجعتا إلى العاصمة. وبقي إيستيبان في مكانه، غاضباً ضجراً، وهو يشعر بأنّ شيئاً انحطم في حياته وإلى الأبد.

وذهب بيدرو الصغير فقاد السيّدة وابنتها إلى المحطّة. ظلّ متوّحشاً صامتاً. ولم يرهما بتاتاً بعد تلك الليلة الشهيرة. أجلسهما في القطار وبقي هناك وقبّعته في يده، وقد خفض عينيه، لايدري كيف ينسحب. قبّلته كلارا. وقف في البدء متيّبساً مضطّرباً، لكن عواطفه الخاصّة انتصرت بعد قليلٍ وتجرأ فاحتواها خجلاً بذراعيه وطبع قبلة ماتكاد ترى على شعرها. وتبادلا نظرة أخيرة من كوة القطار وعيناهما امتلأتا بالدموع. ولما عاد الوكيل الأمين إلى كوخه القرميدي وجعل من القليل الذي يمتلكه صرّة، وغلّف بمنديل قليل المال الذي اقتصده عبر كلّ سنيّ الخدمة المستقيمة والطيبة تلك، ورحل. ورآه ترويبيا يودّع بقية الفلاحين ويركب حصانه. أراد أن يمسك به، أن يشرح له ألّا علاقة له بكلّ

ماحدث، وأنّه ليس عدلاً أن يفقد من خطأ ابنه عمله وأصدقاءه، وبيته، والأمان.

ـ لاأريد أن أكون هنا عندما تجد ابني يا سيّد ـ تلك كانت آخر كلمات بيدرو جارسيا الصغير قبل أن يبتعد خببا باتجاه الطريق الكبرى.

كم أحسست بالوحدة آنئذ! كنت أجهل أنّ العزلة لن تدعني أبداً وأنّ الكائن الوحيد الذي سوف يوجد يوماً إلى جانبي حتى آخر حياتي هو حفيدة بوهيمية، غريبة، شعرها أخضر مثل روزا. لكن هذا لم يصحل إلّا بعد سنين عديدة.

بعد رحيل كلارا، تطلعت حولي فاكتشفت عدداً من الوجوه الجديدة في الماريّات الثلاث. قدامى رفاق الطريق ماتوا أو رحلوا. لم يكن عندي هنا لا امرأتي ولا بنتي. وتقلّصت اتصالاتي بابنيّ إلى أدنى حد. واختفت أمّي، وأختي. والنونو الطيّبة وبيدرو جارسيا الكبير. وروزا التي كانت تعود إليّ في الذاكرة كألم مستحيلٍ أن ينسى. بت لاأستطيع الاعتماد على بيدرو جارسيا الصغير الذي بقي خمساً وثلاثين سنة إلى جانبي وأخذت أبكي. كانت الدموع تجري وحدها، وحاولت عبثاً بقفا كفيّ، كانت غيرها تجري بدورها. كنت أشكو من أوّل البيت إلى آخره قائلاً: «إذهبوا جميعاً إلى الشيطان!» طفت في الحجرات المقفرة، دخلت إلى غرفة نوم كلارا، بحثت في خزانتها وصندوقها عن شيء استخدمته حتى أقرّبه من منخري فأستعيد، ولو بطريقة عابرة، رائحة بياضاتها النظيفة الرهيفة. تمدّدت على سريرها، ودفنت وجهي في وسادتها وداعبت الأشياء التي تركتها على طاولة الزينة وأحسستني أغرق في شقاء عميقٍ.

كان بيدرو جارسيا الثالث هو المذنب في كلّ ماحدث. بسببه ابتعدت عني بيانكا، بسببه تشاجرت أنا وكلارا، بسببه ترك بيدرو الصغير الملكيّة، بسببه كان المزارعون ينظرون إلي شذراً ويتمتمون من وراء ظهري. متمرّداً، هذا

ماكان منذ أن كان، وأفضل ماكان بوسعي عمله منذ أول يوم، هو أن أطرده ضرباً بقدمي في قفاه. منحته تأجيلاً، احتراماً لأبيه وجدّه، وكانت النتيجة أنّ هذا النفاية الوسخ الصغير حرمني من أكثر ماأحبّ في هذا العالم. ذهبت إلى ثكنة القرية ورشوت الجنود علهم يعينونني في إيجاده. طلبت إليهم ألا يسجنوه بل أن يسلموني إياه دون أن يصيحوا بالأمر فوق السطوح. في المطعم، عند الحلّاق، في النادي، في القنديل الأحمر أطلقت الخبر بأنّه يربح كثيراً من يسلمني الولد.

ـ إنتبه يا سيّد. لاتعرّض نفسك للعدالة، لاحظ أنّ الأمور تغيّرت كثيراً منذ أيّام الأخوة شانشيز.

عبثاً كانوا يحذرونني، فلم أكن أريد أن أسمع شيئاً. ومابوسع العدالة أن تفعل في مثل هذه الحالة؟ لاشيء.

وانقضت خمسة عشر يوماً لم تحمل شيئاً جديداً. كنت أقطع كلّ الملكيّة، وأدخل الأراضي المجاورة، وأراقب الفلاحين. كنت متأكّداً أنّهم يهرّبون الولد من ملاحقتي. زدت المكافأة وهدّدت الجنود بالتسريح بعدم الكفاءة، لكن عبثاً. كلّ ساعة تمرّ كانت تصعّد غضبي. أخذت أشرب، كما لم أفعل قطعاً حتى قبل زواجي. صار نومي سيئاً وعاودتني أحلامي بروزا. وفي ليلة حلمت بأنّي أضربها علقة مثل كلارا وأنّ أسنانها تتدحرج مثلها أرضاً، فاستفقت أصيح، لكنني كنت وحيداً، وليس هناك من يسمعني. كنت على حزن أقلعت معه عن الحلاقة وتبديل ثيابي وأظن أنّي انقطعت حتى عن الغسيل. كل طعام كان يبدو لي حامضاً، وفي فمي طعوم صفراء. كنت أحطّم مفاصل أصابعي من ضربي الحيطان وأرهقت جواداً تحتي وهو يعدو كي أطرد ذلك الغضب الذي يضني أحشائي. خلال تلك الفترة ماكان يجرؤ أحد على الاقتراب منّي، الخدم كانوا يقدّمون لي الطعام على المائدة وأسنانهم تصطك وهو ماكان يزيد في غضبي.

ويوماً كنت تحت الشرفة، أدخن سيكارة قبل القيلولة، اقترب مني طفل أسمر الجلد ووقف أمامي صامتاً. كان اسمه إيستيبان جارسيا. إنّه حفيدي،

لكني كنت أجهل ذلك، واليوم فحسب، وبعد الأحداث الفظيعة التي حصلت بسببه علمت بواقع القرابة التي تجمعنا. إنّه أيضاً حفيد بانتشا جارسيا، أخت بيدرو الصغير، التي لاأحفظ عنها، حقاً، أيّة ذكرى.

سألت الطفل: «ماذا تريد أيّها القذر؟».

أجابني: «أعرف أين يوجد بيدرو جارسيا الثالث».

قفزت قفزةً على عنف قلبت معه مقعد الخيزران الذي كنت جالساً فيه، وأمسكت الأزعر بكتفيه وهززته كشجرة خوخ.

ـ أين؟ أين هذا اللعين؟

تمتم الطفل خائفاً: «هل سوف تعطيني الجائزة أيّها السيد؟».

ـ سوف تكون لك! لكن أريد أوّلاً أن أتأكّد أنّك لم تكذبني هيّا قدني إلى هذا البائس!

وذهبت فأتيت ببندقية صيدي وسرنا. وأعلمني الطفل أنّه يجب أن نذهب على حصان لأنّ بيدرو الثالث كان يختبئ في منشرة آل ليبوس، على بعد عدة أميال من الماريات الثلاث. كيف لم تأتني الفكرة بالبحث عنه هناك؟ إنّه مخبأ مثالي. كانت منشرة الألمان تغلق في تلك الفترة من السنة وهي بعيدة عن كلّ الطرق.

ـ كيف علمت أن بيدرو الثالث هناك؟

أجابني: «كل الناس يعرفون، يا سيّد، ماعداك».

ذهبنا خبباً، لأنّ الأرض كانت تمنع الإسراع في الحركة. لقد ركبت المنشرة في خاصرة الجبل وماكان بوسعنا الشدّ على البهائم. كانت الخيل في جهدها للتسلّق، تنتزع شرارات من الصخور بسنابكها. وأعتقد. أعتقد أنّ الدعس كان الصوت الوحيد الذي يسمع في فترة بعد الظهر ذاك الوقت الهادئ الخانق. لما دخلنا في المنطقة الحراجية، تغيّر المنظر. وبات الجود أبرد، لأنّ الأشجار كانت تنتصب صفوفاً متراصّة، تحجب مرور الشمس. كانت الأرض بساطاً أشقر وناعماً تغوص فيه سنابك الخيل برخاوة. منذئذ كان يغلّفنا

الصمت. كان الصبي يتقدّمني، جاثماً بلا سرج على مطيته، ملتصقاً بها، كأنّه والحيوان جسد واحد، وكنت أتبع وراءه، صامتاً، أجترّ غضبي. بين الحين والحين كان الحزن هو الذي يغمرني، أقوى من الغضب الذي قضيت طويل الزمن أحضنه، أقوى حتى من الحقد الذي أكنّ تجاه بيدرو الثالث جارسيا. لقد انقضت ساعتان قبل أن نتميز مرائب المنشرة المكدّسة وقد صفت نصف دائرة في فرجة من الغابة. في ذلك المكان، رائحة الحطب والتنوّب قويّة حتى لقد شردت لحظة قصيرة عن هدف الحملة. لكن لحظة الضعف هذه لم تدم أكثر من ثانية.

- انتظرني وراقب الخيل. لاتتحرّك من هنا!.

وضعت قدمي على الأرض. وأمسك الولد بعنان مطيتي، وابتعدت مكشوفاً، والبندقية محشوّة بين يدي. بت لاأحسّ بالستين عاماً، ولاباُوجاع عظامي العجوزة المكسورة. فكرة الانتقام وحدها كانت تحرّكني. كان يعصد من أحد المرائب عمود دخان نحيل، ورأيت حصاناً مربوطاً أمام المدخل، استنتجت أن بيدرو الثالث موجود هنا واقتربت من البناء ملتفاً حوله. واصطكت أسناني من فراغ الصبر، وأنا أقول في نفسي يجب ألّا أقتله من الطلقة الأولى، لأنّ هذا سريع جداً، فيتبدد سروره في دقيقة، ولقد انتظرت طويلاً فلابدّ لي من أن أتذوّق لحظة تقطيعه إرباً، لكنّي لاأستطيع أن أدع له أدنى حظ بالخلاص. إنّه أصغر مني بكثير وإذا لم أتوصّل إلى أخذه فجأة، خدعت. كان العرق يبلّل قميصي الذي التصق بجلدي، وسقطت غشاوة على عيني، لكنّي أحسستني كما في العشرين، بقوّة ثور. واندسست بصمت في داخل المرآب، وقلبي يخفق في صدري كتام تام. وجدتني في مستودع غطّت النشارة أرضه. كانت توجد هناك أكوام كبيرة من خشب وبعض آلات مغطاة بقطع من غطاء أخضر كي يحميها من الغبار. تقدّمت متستّراً بين أكوام الخشب حتى اللحظة التي رأيته فيها فجأة. كان بيدرو الثالث مستلقياً أرضاً ورأسه على غطاء مطويّ؛ كان نائماً. وليس بعيداً عنه موقد أحمر صغير بين أربعة أحجار وعلبة محفوظات يغلي بها ماء. وقفت متربّصاً فوقه، واستطعت

أن أفحصه على هواي، بكلّ حقد العالم، وأنا أجرّب أن أثبّت إلى الأبد في ذاكرتي هذا الوجه الأسمر ذا الملامح الطفولية تقريباً والذقن لها هيئة شعر مستعار، دون أن أتوصّل إلى فهم أيّ شيطان استطاعت أن تجد ابنتي في هذا المسحة. قدّرت عمره بالخامسة والعشرين، لكني إذ رأيته نائماً، تصوّرته كطفل. أظنني قمت بجهد على نفسي، كي أمنع يديّ من أن ترتجفا وأسناني من أن تصطك. رفعت سبطانة بندقيتي وتقدّمت خطوة أو خطوتين. كنت قريباً منه حتى لأستطيع أن أنسف دماغه دون أن أصوّب، لكنّي قرّرت أن أنتظر أيضاً بضع ثوان يهدأ فيها نبضي. فترة التردّد القصيرة هذه هي التي ضيّعتني. وأعتقد أن عادة الإختباء شحذت سمع بيدرو الثالث جارسيا وأنّ غريزته أنذرته بالخطر. وفي جزيء من الثانية، أظنّه رجع فيه إلى نفسه، لكنّه أبقى عينيه مغلقتين، وشدّ كلّ عضلاته، ووتّر أوتاره، وركّز كُلّ طاقته في قفزة هائلة قذفته دفعة واحدةً متراً من المكان الذي انسحقت فيه رصاصتي. ولم أستطع أن أصوّب عليه لأنّه انحنى، وأمسك بقطعة خشبٍ ورماها، ضارباً عرض البندقية التي طارت بعيداً. وأذكر الرعب الغامض الذي اجتاحني لما رأيتني هكذا أعزل، لكنّي أدركت حالاً أنّه أكثر خوفاً منّي. كان كلانا يلاحظ الآخر في صمت، لاهثاً، ينتظر الثاني كي يقوم بالحركة الأولى حتى يقفز. في تلك اللحظة رأيت الفراعة، كانت قريبة يكفيني أن أمدّ ذراعي حتى أستولي عليها، وهذا مافعلت دون أن أنظر إليها مرتين. قبضت على الفراعة، وبصرخة متوحشة خرجت من أعمق أحشائي، هجمت عليه، على أهبة أن أشطره بضربة إلى نصفين من الرأس إلى القدمين. ولمعت الفرّاعة في الهواء وسقطت على بيدرو الثالث جارسيا. وانبثقت نافورة دم على وجهي.

في آخر لحظة رفع ذراعه كي يتفادى الضربة فبتر له حدّ الأداة بتراً كاملاً ثلاثة أصابع من اليد اليمنى. وفي اندفاعي وجدتني انقذفت أماماً وسقطت على ركبتي. وضغط هو يده على صدره، وذهب راكضاً، يقفز فوق أكوام الخشب والجذور التي تغطي الأرض، واستطاع أن يصل إلى حصانه، فامتطاه بقفزة واختفى بصرخة فظيعة في ظلّ التنوب، تاركاً وراءه ذيلاً من دم.

ظللت على أربع، وقد انبهر نفسي. بقيت عدة دقائق حتى استعدت حواسي وفهمت أنّي لم أقتله. ردّ فعلي الأول كان العزاء، لأنّ إحساسي بالدّم الحار ينبثق على وجهي، جعل حقدي يهدأ فجأة، واضطررت إلى أن أبذل جهداً حتى أذكر ماكان يدفعني للرغبة في ذبحه، وأبرّر هذا العنف الذي ماينفكّ يضيّق أنفاسي، ويحرق صدري، ويدوّي في أذنيّ، ويشوّش نظري. فتحت فمي مثل يائسٍ، أحاول أن أغيّب بعض الهواء في رئتي، ونجحت في أن أنهض، لكن كي يراجعني الارتجاف، وقمت بعدة خطوات وتركتني أسقط على كومة ألواح خشب، وأخذني الوجد، وبت لاأقدر على استعادة تنفّسي، خلت أنّي سوف يغمى علي، وانتفض قلبي في صدري كآلة غدت مجنونة. وأخال أنه انقضى على ذلك زمن لابأس به، ولاأعرف كم هو. وانتهيت بأن فتحت عيني، ووقفت، وبحثت بالنظر عن بندقيّة صيدي.

كان الصغير إيستيبان جارسيا يقف إلى جانبي، ويتفحّصني صامتاً. جمع الأصابع المقطوعة ورفعها كباقة هليون دامية. أردت أن أمسك نفسي عن الغثيان، وامتلأ فمي لعاباً وتقيّأت فلطّخت جزمتي، فيما كان الطفل يبتسم رابط الجأش.

صرخت وضربته على يده قائلاً: «دع هذا أيُّها القذر المبهدل!»

وسقطت الأصابع في النشارة وبللتها بالأحمر.

التقطت البندقيّة واتجهت ناحية المخرج وأنا أترنّح. واقتحمني هواء المساء الطريّ وعبير التنوب الثقيل، فأعاد لي الإحساس بالوقائع. تنفّست بنهم نفحاتٍ شاسعة. ومشيت بصعوبة حتى مطيّتي، كان جسدي يؤلمني جميعاً، وتقلّصت قبضتاي. وتأثّر الطفل خطوي.

ورجعنا إلى الماريّات الثلاث ونحن نبحث مسرعين عن طريقنا في الظلام الذي هبط بعد غياب الشمس. كانت الأشجار تعيق سيرنا، ويتعثّر الحصانان على الحصى والعوسج، والأغصان الواطئة تصدمنا لدى مرورنا. كأنّي كنت في عالم آخر مخزيّاً ذاهلاً من عنفي نفسه، شاكراً السماء أن استطاع بيدرو الثالث النجاة، لأنّي كنت متأكداً أنّه لو سقط، لاستمريت بتسديد الضربات له

بالفراعة حتى أحطمه، أقطّعه، أجزئه نتفاً صغيرة بالحزم نفسه الذي صممت عليه كي أقرّ طلقة في رأسه.

أعرف ماقيل عني، روي فيما روي. أنّي قتلت رجلاً أو عدّة رجال في حياتي. وألصق بي موت عدد ما من الفلاحين. إنّ شيئاً من هذا ليس صحيحاً. ولو كان حقّاً، لما رأيت ما الذي يمنعني من الاعتراف به لأنّ هذا الشيء، بوسعي أن أقول عنه في عمري دون أن أعاقب. ومابقي لي سوى القليل حتى أدفن بدوري. لم أقتل أيّ رجل مطلقاً، والمرّة الوحيدة التي كنت قريباً فيها من القتل، هي في ذلك اليوم، لما أمسكت بالفرّاعة واندفعت على بيدرو الثالث جارسيا.

وصلنا ليلاً إلى البيت. وضعت قدمي على الأرض بعناء واتجهت إلى التراس. كنت قد نسيت تماماً الطفل الذي رافقني، لأنّه لم يفتح فمه طوال الطريق وارتجفت لما أحسست به يشد لي كميّ.

قال: «أسوف تعطيني جائزتي أيّها السيّد؟».

دفعته بلطمة.

قلت بلهجة التهديد: «لاجائزة للخونة والوشاة، آه لكن! أمنعك من أن تروي ماحصل. هل سمعتني؟».

ودخلت البيت وذهبت مباشرة فشربت جرعة من الزجاجة ذاتها. أحرق لي الكونياك حلقي ودفّأني قليلاً. ثم تمددت على الصوفا وأن أنفخ مثل الفقمة. وظلّ قلبي يخفق بطريقة مضطربة ولم يزايلني الغثيان. وأخذت أجفّف بقفا كفي الدموع التي كانت تسيل على وجنتي.

وبقي، إيستيبان جارسيا، في الخارج واقفاً أمام الباب المغلق مثلي، كان يبكي من غضب.

الفصل السابع

الأخوان

وصلت كلارا وبيانكا العاصمة وعليهما مظهر منكوبتين بائس. كلتاهما انتفخ وجهها، واحمّرت عيناها من الدموع، ودعكت أشياؤهما من طول الرحلة في القطار. كانت بيانكا، وهي أقل مقاومة من أمّها، ولو أنّها تبزّها قامة، ووزناً وشباباً، تتنهّد مستيقظة، وتنتحب نائمة في تأوّهٍ لاينقطع دام منذ يوم علقتها. لكن كلارا ماكانت تعرف كيف تواجه الألم بالصبر، وماوصلت إلى بيت الزاوية الكبير الفارغ الكئيب كضريح، حتى أمرت بأن كفى شكوى وبكاء وبأنّ الوقت جاء كي تدخل المرح إلى الحياة. وأجبرت ابنتها على مساعدتها في انتقاء خدم جدد، وفتح الدرفات، ونزع الملاحف التي كانت تغطّي الأثاث وواقيات اللامباديرات وأرتجة الأبواب، ونفض الغبار وترك الهواء والنور يدخلان. وبينما هما تكبّان على عملهما اقتحمت الدار رائحة تعرفانها بين كلّ بنفسجات الحقول وعرفتا أنّ الأخوات مورا الثلاث، وقد أنبئن تيليباثياً، أو ببساطة بحسّ الصداقة، جئن للزيارة. ولقد أثّرت ثرثراتهن الحلوة، وكمادات الماء البارد وعونهن الروحي وسحرهنّ الطبيعي أثراً بعيداً وطيّباً حتى لقد شفيت الأم والبنت من كدمات الجسد ورضوض الروح.

ـ يجب أن نشتري طيوراً جديدة، قالت كلارا وهي تتأمّل من النافذة

الأقفاص الفارغة والبستان المتشابك حيث تنتصب تماثيل الأولمب في عريها وقد بال عليها الحمام.

لاأستطيع أن أفهم يا أمّي كيف تستطيعين التفكير بالطيور وقد بت بلا أسنان، اعترضت بيانكا فما كانت تستطيع أن تتعوّد على وجه أمّها الجديد الأدرد.

أخذت كلارا واقتربت في عمل كلّ شيء. بعد خمسة عشر يوماً امتلأت الأقفاص بطيور جديدة وجعلتهم يصنعون لها جهازاً بديلاً من الخزف ركّز في مكانه بيمكانيكية ماهرة ثبّتته في الأضراس الباقية، لكنْ ظهر أن هذا الجهاز مزعج حتى فضّلت حمل أسنانها في رباط كعقد. وماكانت تضعه إلّا للأكل، وفي المناسبات الاجتماعية. وأعادت كلارا الحياة إلى البيت. أمرت الطبّاخة بأن تدع الأفران مشتعلةً بصورة دائمة وقالت لها يجب أن نبقى مستعدّين لإطعام عدد لايمكن التنبؤ به من الضيوف. وكانت تعرف جيّداً ما تقول. بعد بضعة أيام أخذ يفد أصدقاء وردة الصليب، ومستحضرو الأرواح، والتيوصوفيون[1]، والمعالجون بوخز الإبر، والتيليباثيون، وصانعو المطر، والمشّاؤون، وسبتيو اليوم السابع، والفنانون في وقت الألم والحاجة، وبالإختصار، كلّ الذين يؤلّفون عادة حاشيتها. كانت كلارا تسودهم كملكة صغيرة متفتّحةٍ ودرداء. في تلك الفترة بدأت أولى محاولاتها الجدّية بالاتصال فيما فوق الأرض وتم لها، كما سجلته، أولى الشكوك عن منشأ الرسائل التي افترضت أنّها تلقّتها من الأرواح بالنواس أو المائدة. لقد سمعت تدلي مرّات عديدة أن تلك ربّما لم تكن أرواح الموتى الضالّة في عالمٍ متوازٍ، لكنّها ببساطة كائنات من كواكب أخرى تحاول الإتصال مع الأرضيينّ والذين، ماداموا من هيولى لاتلمس، يستطيعون أن يعدّوا بيسر أرواحاً. هذا التفسير العلمي تحمّس له نيكولاس، لكنه لم يحظ بتأييد الأخوات مورا، اللائي كنّ محافظات جدّاً.

وكانت بيانكا على مائة ميل من هذه الحذلقات. إنّ سكان الكواكب

---

١ ـ المؤمنون بالاتحاد بالله.

الأخرى عينها يدخلون فصيلة الأرواح نفسها، وكان بوسعها أن تفهم الإنفعال الذي يشد أمّها والآخرين إلى الرغبة في معرفة هوّيتهم. لقد استأثرت بها الدار، لأن كلارا كانت لاتبالي بالمشاكل البيتيّة بحجة أنّها عمرها لم تكن مَوهوبةً لهذا الأمر. وكان بيت الزاوية الكبير بحاجة إلى جيش من الخدم حتى يظلّ نظيفاً وعدد مماثل. كان يفرض تنظيم مناوبة في المطبخ. كان يجب تحضير الحبوب والأعشاب الدقيقة لبعضهم، والسمك النيءّ مع الخضراوات لبعض آخر، والفواكه واللبن الرائب للأخوات مورا الثلاث وصحون من اللحم الأحمر، وحلوى وسموم لذيذة لجيم ونيكولاس اللذين كانت لهما شهية عفريت وكانا بعدما أدمنا هوسهما الخاصّ بهما. وحين حان الوقت، عرف كلاهما الجوع: جيم عن تعاون مع الفقراء، ونيكولاس من أجل أن ينقّي روحه. أمّا، في تلك الحقبة، فما كانا غير شابين قوّيين نهمين لاستغلال ملّذات الحياة.

دخل جيم إلى الجامعة، وتساءل نيكولاس مايكون قدره. كانا يمتلكان سيارة اشترياها من نتاج بيع صواني الفضة التي سرقاها من عند أهلهما. وعمّداها باسم كافودانجا تيمناً بأجدادهما ديل فاله. ولقد فكّت كافادونجا مرات عديدة وركبت بقطع تبديل فما تنطلق إلّا نادراً. كانت تنطنط وهي ترتجف بكلّ محركها الصدئ وتبصق الدّخان والنفاية من أسطوانة الانفلات. كان الأخوان يقتسمانها على طريقة سليمان: يستخدمها جيم في الأيام المزدوجة ونيكولاس في الأيام المفردة.

كانت كلارا سعيدة جدّاً في العيش مع ابنيها وتعد نفسها بأن تعقد معهما عرى الصداقة. كان الاحتكاك قليلاً خلال طفولتهما فقد كانت راغبة أن «تصنع منهما رجلين»، يبتعدان عن كلّ عطف، فمرّت مروراً إلى جانب أفضل ساعات إبنيها. والآن وقد وصلا إلى قامة البلوغ، وصارا فعلاً رجلين كاملين، بات بوسعها أن تجيز لنفسها لذّة هدهدتهما كما كان عليها أن تفعل يوم كانا صغيرين، لكنّها تأخّرت، فقد كبر التوأمان دون مداعبات إلى الاستغناء عنها، وأدركت كلارا أنّهما لايخصّانها. فلم تفقد مع ذلك رشدها ولارائق

مزجها. وقبلت الشابّين كما هما. وأعدّت نفسها كي تستفيد من وجودهما دون أن تطلب جزاء.

كانت بيانكا أثناء ذلك، تتذمّر لأنّ أخويها لاينقطعان عن تحويل البيت إلى مزبلة عموميّة. لايتركان حيث يمرّان غير الفوضى، والتكسير، والجلبة. وكانت الفتاة تتضخّم على مرّ البصر وتبدو يوماً بعد يوم فاترة وعابسة، ولاحظ جيم بطن أخته فركض إلى أمّه وقال لها دون مواربة: «أعتقد أن بيانكا حبلى». فتنهدّت كلارا قائلة: «كنت أقول ذلك لنفسي يا بني».

ولم تنكر بيانكا، وحين تأكّد النبأ، سجلته كلارا بخطها المدور في دفتر ملاحظاتها عن الحياة. ورفع نيكولاس عينيه عن أشغاله العملية في خارطة البروج الصينيّة وارتأى أنه يجب إعلام الأب: خلال خمسة عشر يوماً، لايمكن أن تختفي المسألة وكلّ سوف يعرف.

صاحت بيانكا برباطة جأش: «لن أقول أبداً من هو الأب!».

وضّح أخوها قائلاً: «لاأعني أب الولد، وإنّما أبونا، إنّ له الحق أن يعرف منا لامن آخر يروي له».

اقترحت كلارا حزينة: «أرسلوا برقيّة إلى الريف». لقد تخيّلت أنّه منذ اللحظة التي يعلم فيها إيستيبان تروييبا، سيغدو حبل بيانكا مأساة.

وسطر نيكولاس الرسالة بالقريحة الرمزيّة للأشعار نفسها التي كان ينظمها لأماندا كي لاتفهم عاملة البرق في القرية البرقية وتنشر الإشاعة: «رجاء دهن حائط السور أبيض مكسر. وقف»[1]. لم يستطع إيستيبان تروييبا أن يفكّ الرمز مثله مثل الموظفة واضطر لأن يهتف إلى العاصمة كي يعرف المشكلة. ووجب على جيم أن يعرض الأمر له وأضاف أنّ الحمل متقدّم فلا يمكن التفكير أبداً بالوسائل الصعبة. وران صمت فظيع على طرف السلك الآخر، ثم قطع الأب

١ ـ الترجمة لم تؤد الغرض هنا. كلمة سور هي نفس كلمة حبلى. وبيضاء نفس كلمة بيانكا.

المخابرة. في الماريّات الثلاث، قبض إيستيبان تروييبا، وهو شاحب من دهشة ومن غضب، على عصاه وحطّم الهاتف للمرة الثانية. لم يخطر بباله مطلقاً أنّ ابنة هي ابنته تستطيع أن ترتكب خطأً شنيعاً هكذا. وبما أنّه كان يعرف الأب، ندم حالاً لأنّه لم يلهب دماغه لما وواتته الفرصة. أن تلد ابن زنىً أو أن تتزوّج ابن فلّاح، الفضيحة سيّان في كبرها، هو موقن بذلك: في هذه الحال أو تلك سوف تسقط من حقوقها المدنية.

قضى إيستيبان تروييبا عدة ساعات يطوف يميناً ويساراً في بيت السيّد وهو يطرق الأثاث والجدران ضرباً بالعصا، يجمجم بالشتائم بين أسنانه ويبني خططاً مبعثرة مثل إرسال بيانكا إلى دير الإيكستر يمادورا أو ضربها حتى الموت. ولما انتهى إلى استعادة بعض رباطة جأشه، أتته فكرة خلاص. أسرج حصانه وذهب في ثلاثة أضعاف سرعته حتى القرية.

التقى فيها بجان دوساتيبيني الذين لم يره منذ تلك الليلة المنكودة التي أخرجه فيها من سريره كي يروي له غراميات بيانكا، وكان يشرب عصير الشمام من غير سكّر في دكّان الحلوى الوحيد بالقرية برفقة ابن إندالبّيا أجويزّ ازابال، كسيح ملمّع كفلس صغير، يتلو عليك من روبن داريو. ودفع تروييبا الكونت الفرنسي، دون أيّ احترام من ثنيتي سترته الإيكوسية التي لاعيب فيها وأخرجه من دكان الحلوى، بكلّ قوة ذراعه، تحت أنظار الزبائن الآخرين الذاهلة، وزرعه في منتصف الرصيف.

ـ سببت لي هكذا مايكفي من مشاكل، يا بنيّ. أولاً شنشيناتك الشيطانيّة، والآن مع ابنتي. لقد ضقت بها ذرعاً. هيا وأت بأسمالك، سوف تذهب معي إلى العاصمة. سوف تتزوج بيانكا.

لم يدع له الوقت كي يخرج من دهشته. ورافقه إلى فندق القرية حيث انتظره، والسوط في يد، والعصا في الأخرى، بينما كان جان دوساتيبيني يقفل حقائبه. وقاده مباشرة إلى المحطة حيث أصعده إلى القطار بالقوّة. واجتهد الكونت، خلال الرحلة، أن يبيّن له ألّا شأن له في الموضوع، وأنّه لم يضع يوماً إصبعه الصغيرة على بيانكا تروييبا وأن المسؤول عمّا حدث ليس على الأرجح

سوى ذاك الراهب الملتحي الذي كانت تذهب بيانكا كي تلتقي به ليلاً على ضفاف النهر. وصعقه إيستيبان تروبيبا بنظرته الأشد توحشاً. قال له: «إنّي لأعرف عمّ تتكلم يا بنيّ».

وأخذ تروبيبا يعرض عليه بنود اتفاق الزواج، وهو ما هدّأ قدر المستطاع الفرنسي. دوطة بيانكا، إيرادها السنوي، والأمل بوراثة ثروة، وكلّ ذاك صفقة رابحة.

ـ أنت ترى أنها تجارة أفضل من الشنشيلات، قال حموه المقبل دون أن يعير انتباهاً إلى تباكي الآخر العصبيّ.

وهكذا نزل إيستيبان تروبيبا يوم السبت في بيت الزاوية الكبير ومعه زوجٌ لابنته الزائلة البكارة وأبٌ لابن الزنا الصغير. كان غضبه يذيب الحديد. ورمى بضربة إناء الأقحوان الذي في المدخل، وصفع نيكولاس صفعة وهو يحاول أن يتدّخل كي يشرح الوضع وأعلن وهو يزعق أنّه لايريد أن يرى بيانكا، وأنّها يجب أن تبقى حبيسة حتى يوم عرسها. ولم تظهر بيانكا لاستقباله. ظلّت في غرفتها وعاندت بأنها لن تفتح له، حتى حين حطم عصاه الفضية وهو يخبط بها الباب خبطات عظيمة.

ودخل البيت في زوبعة غدو ورواح وخصام. صار الهواء نتناً. والطيور نفسها جمدت في أعشاشها. والخدم يركضون في كلّ اتجاه استجابة لأوامر سيّد ملحاحٍ عنيفٍ لايطيق أيّ تأخر في إنجاز رغباته. واستمرت كلارا تعيش حياتها، متجاهلة زوجها، رافضةً أن توجه له الكلام. وأسكن الخطيب، سجين عمه المقبل عمليّاً في إحدى غرف الضيوف العديدة فكان يقضي أيّامه فيها وهو يدور في الفراغ دون أن يعمل شيئاً، دون أن يرى بيانكا ولا أن يفهم كيف انتهى إلى أن يظهر في هذا المسلسل. وماكان يعلم إذا كان يجب أن ينتحب لوقوعه ضحيّة هؤلاء البلديين البربريين أو أن يفرح لتحقيقه حلمه بالزواج من وارثة أمريكّية جنوبية، وزيادة عن ذلك شابّة وجميلة. وبما أنّه من مزاجٍ متفائلٍ موهوب بحس عمليٍّ خاصٍّ بأبناء جلدته، فقد آثر الحلّ الثاني، وعلى مر الأسبوع، آل به الأمر إلى أن عادت إليه تماماً بشاشته.

وحدّد إيستيبان تروييبا تاريخ الزواج بعد خمسة عشر يوماً من تاريخه. وقرّر أن خير وسيلة لتجنب الفضيحة بأن يسبق الأمور ويمنعها بعرس ليس مثله. وتمنّى أن يزوّج ابنته الأسقف بروب أبيض ذيله من ستة أمتار يرفعه صبيان وبنات شرف، وأن تظهر صورتها في كراس الجريدة الاجتماعي، وأن تقام حفلة كاليجولية[1] تكون مجال الفخر بما يكفي ومكلّفة حتى لايتاح لأحد النظر إلى بطن العروس. والوحيد الذي كان يدعم خططه هو جان دوساتييني.

ذلك اليوم دعاها كي يرسلها إلى الخياطة لتجرّب روب الزواج ورأى ايستيبان تروييبا ابنته للمرّة الأولى منذ ليلة العلقة الشهيرة. ولقد أرعبته رؤيتها هكذا ضخمة، ووجهها مرمري.

قالت له: «أبي، لن أتزوّج».

فزأر قائلاً: «إخرسي. سوف تتزوّجين لأنّي لاأريد أبناء زنى في العائلة. فهمت؟».

أجابت بيانكا: «ظننت أن لدينا منهم الكثير».

- لاتجيبيني! أريد أن تعلمي أن بيدرو الثالث جارسيا مات. قتلته بيدي. فانسي وجربي أن تظهر زوجة أهلاً للرجل الذي سوف يقودك إلى المذبح.

بكت بيانكا مثل نبع ولم تجف دموعها كلّ الأيام التالية.

واحتفل بهذا الزواج الذي لم ترده بيانكا في الكاتدرائية ببركة الأسقف في روب ملكة صنعه أهم خياطي البلاد، الذي اجترح المعجزات كي يخفي بطن الموعودة البارز بين الزهور في شلال والطيّات اليونانيّة الرومانية. وبلغ العرس الأوج في حفلةٍ عظيمةٍ عدد مدعويها خمسمئة بثياب السهرة اقتحموا بيت الزاوية الكبير، وأحيتها جوقة موسيقيين بأجر، في إفراط لحوم بالأعشاب العطريّة، وأصداف من أوّل طراوة، وكافيار بلطيقي وسومون نروجي، وطيور بالكمأة، وسيل من المشروبات الغريبة، وأمواج من الشمبانيا دهاقاً وملء البطون

---

١ - امبراطور روماني نصف معتوه.

من الحلوى والسكريات، وقهوة مخا، وحلوى الألف وريقة، والأصبعيات، وأكواب كبرى من الفواكه المبرّدة، وفريز أرجنتيني، وأناناس كوبي، وغيرها من الحلوى التي يستحيل حفظ أسمائها، وطاولة عظيمة على قدر دائرة البستان، تنتهي بقطعةٍ هائلةٍ مركّبةٍ من طوابق ثلاثة صنعها فنان إيطالي منشؤه نابولي، وصديق جان دوساتييني، الذي حول البيض والطحين والسكر، وهي المواد الأولية المتواضعة، إلى نسخة عن الأكروبول متموّجة بغيمة من المرنغ[1] يرتاح عليها عاشقان ميثولوجيا هما، فينوس وأدونيس، مطبوخان من عجينة اللوز الملوّن تقليداً لورد الجسد، وشقرة الشعر، وزرقة النظر الكوبالتية، برفقة كوبيد ممتلئ، وهو أيضاً يؤكل، وقد قطع ذاك الكاتو العريس الفخور كطاووس بسكين من فضة والعروس التي هبطت إلى الدرك الأسفل.

كانت كلارا منذ البدء معارضة لزواج بيانكا ضدّ رغبتها، ولذلك قرّرت بألّا تحضر العرس. وحبست نفسها في المغسلة تبني تنبؤات حزينة عن الزوجين الجديدين، وقد تحقّقت حرفاً بحرف، مثلما تبيّن كل امرئ فيما بعد، حتى أنّ زوجها جاء يرجوها بأن تبدل ثوبها وتظهر في البستان، ولو عشر دقائق، حتى تسكت شوشرات المدعوّين. ونفذّت كلارا وهي غير راضية، لكن. من أجل ابنتها، ووضعت أسنانها الصناعية وقسرت نفسها على أن تبتسم تكلّفاً.

ولم يصل جيم إلّا في نهاية الحفلة، لأنّه اضطر للبقاء في مشفى الفقراء حيث بدأ يتدرب كتلميذ في الطب. وجاء نيكولاس برفقة الجميلة أماندا التي اكتشفت منذ زمن قريب سارتر وتبنّت هيئة الوجوديين الأوروبيين المشؤومة، لابسة سواداً كلّها، شاحبة، وعيناها العربيّتان مكحلتان كحلاً، والشعر الداكن ينزل حتى خصرها، في خصلٍ طالعةٍ نازلةٍ، وأساور وعقود يجفل منها من تمرّ به. أما نيكولاس فكان لابساً أبيض، كممرّض، وعلق في عنقه التمائم. وجاء إليه أبوه، فأخذه من يده، وأدخله بالقوّة إلى حمام فانتزع له من دون مسايرة طلاسمة.

---

١ ـ مزيج حلو تغطى به الحلوى.

وأمر إيستيبان ابنه قائلاً: «إذهب إلى غرفتك وضع لك ربطة عنق لائقة، ثم ارجع إلى الحفلة وتصرف كما ينبغي! ولاتنهد للدعوة لما لاأدري من دين كفرة بين مدعوّينا، وقل لهذه الساحرة أن تغلق هذا الروب المقوّر!.

وأذعن نيكولاس وهو كارهٌ. كان مبدئياً لايشرب، لكن الغضب جعله يفرغ بعض الأكواب، ويفقد رشده ويندفع بثيابه في نافورة البستان حتى أخرج بوقاره المبلول.

وقضت بيانكا السهرة جالسة على كرسي تتأمّل المسرحية المصطنعة بهيئة من أصابه البله، وهي تبكي فيما زوجها يلتهب جديداً يرفرف بين المدعوين، مفسّراً غياب حماته بأزمة ربو ودموع نصفها بانفعالات الزواج. غير أنّ أحداً لم يصدّقه. وكان جان دوساتييني يطبع قبلاً صغيرة في عنق بيانكا، ويمسك بيدها ويجتهد في تعزيتها بجرعات من الشمبانيا، ولنجوستين ينتقيه بحب ويقدمه بنفسه. لكن دون طائلٍ؛ فقد استمرّت رغم كلّ شيء بالبكاء. على كلّ حال، كانت الحفلة حدثاً على مستوى ما خطّطه إيستيبان تروييبا. لقد بذخوا بأكلهم والشراب، وحضروا مطلع الشمس وهم يرقصون على أنغام الجوقة، بينما كانت جماعات العاطلين عن العمل في مركز المدينة يتدفأون على لهب الجرائد العتيقة القصير الأمد، وعصابات شباب بالقمصان السمراء يعرضون وقد رفعوا أذرعتهم كما رأوا ما يجري في الأفلام عن الألمانيا، وفي مكاتب الأحزاب السياسية كانت توضع أخيراً اللمسة الأخيرة على المعركة الإنتخابية.

قال جيم: «سوف ينتصر الاشتراكيون».

لقد صار لطول مايعيش بين العمال في مشفى الفقراء، يصاب بالهلوسات.

ـ لا يابني، سوف ينجح الأشخاص أنفسهم، أجابته كلارا بعد أن قرأت ذلك في الورق، وتركت حسّها السليم يؤكّده لها.

بعد الحفلة، أخذ إيستيبان تروييبا صهره إلى المكتبة ومدّ إليه شيكاً. كانت تلك هديّة الزواج. واتخذ كلّ استعداداته حتى يسافر الزوجان إلى الشمال

حيث يتمنى أن يقيم جان دوساتييني في سعة ويعيش على مداخيل زوجته، بعيداً عن نميمة الناس الذين لم تكن عيونهم في جيوبهم وماكان ليفوتهم اكتشاف الحمل المبكر. وكان يدبّر على مهل تجارة المرامد الجنائزية وموميات سكان البلاد الأصليين من هنود الدياجوتاس. وقبل أن يبارح الحفلة الزوجان الشابان، ذهبا فقالا وداعاً لكلارا، فأخذت هذه بيانكا ناحية، ولما تتوّقف عن البكاء، فكلّمتها في أذنها قائلة لها: «توقفي، يا ابنتي الصغيرة، سوف يضير، كلّ هذا البكاء، بالطفل، وهذا لن يساعدك، ولاشكّ، كي تكوني أكثر سعادة».

وأجابتها بيانكا بانتحاب أشدّ مايكون. فأضافت كلارا: «إن بيدرو الثالث جارسيا، هو حي يا ابنتي».

ابتلعت بيانكا حزقتها وتمخطت وسألتها: «كيف تعرفين».

أجابت كلارا: «أعرف ذلك لأنّي حلمت به».

كان ذلك كافياً لتهدأ بيانكا كلّ الهدوء. رفعت رأسها، ومسحت دموعها ولم تدعها تسحّ حتى اليوم الذي ماتت فيه أمّها، بعد سبع سنوات، بالرغم من أنّها لم تنقصها الآلام ولا الوحدة، بين أسباب أخرى تدفع للبكاء:

لما افترقت كلارا عن ابنتها التي كانت دائماً متّحدة معها، عرفت فترة أخرى من الإضطراب والوهن. واستمرت تعيش الحياة السابقة نفسها، تاركة البيت الكبير دائماً مفتوحاً لجمهور من الناس، لاجتماعات استحضار الأرواح والسهرات الأدبيّة، لكنّها فقدت الاستعداد للضحك العفويّ، وكانت غالباً ما ترى قابعة تنظر قدّامها، ضائعة في أفكارها. وجرّبت أن تقيم مع بيانكا نظام اتصال مباشر يسمح ويلطّف تأخّر البريد، لكن التيليباثيا لم تكن تمشي دائماً، وماكان بالإمكان التأكّد من حسن استقبال الرسالة. ووصل بها الأمر إلى أن تلمس أنّ اتصالاتها كانت مشوّشة من تدخلات لايسيطر عليها فكانت تسمع كلّ شيء ما عدا الذي تريد أن تنقله. إضافة لذلك، لم تكن بيانكا ميّالة إلى التجارب النفسيّة وبالرغم من أنّها كانت دائماً تحس أنّها قريبة جدّاً من أمّها فهي لم تظهر يوماً أدنى فضول للظواهر العقليّة. كانت امرأة عمليّة، حسيّية

ريّابة وكان مزاجها الحديث البراغماتي حاجزاً كبيراً ضد التيليباثيا. واضطرت كلارا أن ترضخ للّجوء إلى الطرائق التقليدية. وكانت الأم والبنت تتكاتبان تقريباً كل يوم فحلّت مراسلتهما المتصلة عدة شهور محلّ دفاتر الملاحظات عن الحياة. وكانت هكذا بيانكا تخبر عن كلّ مايحدث في بيت الزاوية الكبير، فتدع الوهم يهدهدها بأنّها مازالت تعيش إلى جانب ذويها وأنّ زواجها ليس سوى حلم بشع.

في تلك السنة ابتعدت طرق جيم ونيكولاس نهائياً بعضهما عن بعض، فقد ظهر أن الفروق بين الأخوين لاتلتقي. تعلق نيكولاس بالفلامنكو وزعم أنّه تعلّم الرقص عند الغجر في أحياء البؤس في غرناطة، بالرغم من أنّه لم يضع قدمه في الحقيقية بتاتا خارج البلاد، لكنّ قدرته في الإقناع زينت حتى في قلب عائلته للشكّ بالأمر. كان عند أقلّ تحريضٍ يقدّم البرهان. يقفز على مائدة غرفة الطعام، طاولة السنديان الكبيرة التي استخدمت للسهر على روزا، قبل عدة سنوات، والتي ورثتها كلارا فيأخذ يصفق باليدين بسرعة عظيمة ويضرب بقدمه متّشجناً، ويقوم بقفزات ويطلق صرخات حادّة حتى يتوصّل إلى شدّ سكّان البيت جميعاً وبعض الجيران وفي مناسبة ما جاء حملة البنادق الجنود أنفسهم وقد رفعوا مقارعهم، ولطّخوا البسط بوحل جزماتهم لكنّهم انتهوا مثل الآخرين إلى التصفيق صائحين «أولي». وقاومت الطاولة بشجاعة، ولو أنّها بات لها بعد أسبوع مظهر طاولة ملحمة استهلكها تقسيم العجول. ولم تكن للفلامنكو أية فائدة عمليّة في مجتمع العاصمة المغلق في تلك الفترة، لكن نيكولاس مرّر إعلاناً رزيناً في الجريدة يعرض خدماته كمعلّم رقص لتلك الخطوة الجموح. في اليوم التالي، كان عنده تلميذ؛ وفي أسبوع انتشرت إشاعة أنّ عنده كثيراً من السحر. وأتت البنات زرافات، محمّرات في البدء ووجلات، فما يلبث أن يرفرف حولهن، ويضرب بالقدم وهو يمسك بهن من الخصر ويبتسم لهن في أنقى أسلوب جذاب وفي صفر من الوقت كنّ ينجرفن. كانت دروسه تلقى نجاحاً كاملاً. وكادت مائدة غرفة الطعام تسقط قطعاً، وبدأت كلارا تشكو من أوجاع الرأس ويتحصّن جيم في غرفته، جاهداً في أن يدرس

وقد وضع قطعتي شمع في أذنيه. ولما أعلم إيستيبان تروييبا بما يجري عنده في غيابه أسلم نفسه لغضب حنق وفظيع ومنع ابنه من اعتبار البيت أكاديمية فلامنكو. ورأى نيكولاس نفسه مكرهاً على الإقلاع عن تشنجاته، لكنّ المشهد الذي جعله أكثر فتى مرغوب فيه ذلك الفصل، ساد الحفلات وكلّ قلوب النساء، هو بينما كان الآخرون يلعبون دور المجتهد ويلبسون ثياباً متقاطعة ضاربة إلى الرمادي ويرسلون الشارب إلى إيقاع البوليرو، كان يدعو هو إلى الحبّ الحرّ، ويروي عن فرويد، ويشرب البيرنو ويرقص الفلامنكو. هذا النجاح الاجتماعي لم يتوصّل إلى أن يمسّ اهتمامه بمواهب أمّه النفسيّة. وحاول عبثاً أن يقلّدها. كان يدرس بحماس، ويتدرّب حتى عرّض صحته للخطر ويحضر اجتمعات الجمعة مع الأخوات مورا الثلاث، رغماً عن منع أبيه القطعي الذي أصرّ على التفكير بأنّ تلك ليست من مشاغل الرجال. وكانت كلارا تجتهد في تعزيته عن فشله:

ـ هذا لايُتعلّم ولايورّث، يا بني، كانت تقول له لمّا تراه يركّز حتى الحول، في جهد مفرطٍ كي يحرّك المملحة من دون أن يمسّها بيده.

كانت الأخوات مورا الثلاث يحببن هذا الفتى كثيراً. وكنّ يعرنه كتباً سرية ويساعدنه في فك معنى الطوالع وأوراق التنبؤ. كنّ يجلسن حوله وهنّ ممسكات بيده كي يخترقنه بسيّالةٍ مفيدةٍ، لكن شيئاً من هذا لم يتوصّل لمنح نيكولاس قدرات عقلية. ورعين عشقه لأماندا. في البدء كانت الفتاة تبدو مسحورة بالمائدة والفنانين طويلي الشعر الذين تلتقي بهم عند نيكولاس، لكنّها تعبت سريعاً من استدعاء الأشباح وإلقاء شعر الشاعر الذي تدور أبياته من شفةٍ إلى شفةٍ، ودخلت جريدة تعمل فيها مخبرة صحفيّة.

حين علم إيستيبان تروييبا أعلن قائلاً: «هذه مهنة محتالين».

وماكان يحسّ تروييبا تجاهها بأيّ ودّ. وماكان يحب أن يجدها في بيته. كان يظن أنها تمارس تأثيراً سيئاً في ابنه؛ وبرأيه، أنّ شعرها الطويل، وعينيها المموهتينّ وكل زجاجها دلائل نقصٍ خبيء، واندفاعها لخلع حذائها والجلوس متربّعة على الأرض كبلدية أصليّة، ليست إلّا من سلوك الصبيان.

كانت رؤية أماندا للعالم أشدّ ماتكون تشاؤماً، وكانت من أجل أن تحتمل أزمات الإنهيار العصبي، تدخّن الحشيش. وكان نيكولاس يرافقها. واكتشفت كلارا أن ابنها يدوّم في ممرّات فارغة، لكنّ حدسها الهائل نفسه لم يسمح لها بأن تدرك القرب بين الغلايين الشرقية التي يدخّنها نيكولاس ولحظات تيهه ودواره، وخدره الموقّت، وفرط فرحه الذي لامبرر له، لأنها لم تسمع يوماً أيّ كلام عن هذا المخدّر، ولاعن سواه، «في عمره، لابد أن تمرّ هذه الأشياء». كانت تقول وهي تراه يسلك كمن به لوثة، دون أن تذكر أنّ جيم ولد في اليوم نفسه ولايبدو عليه أيّ شيء من هذا الضلال.

كانت هوايات جيم من نوع مختلف. كان ينزع إلى التقشف والتضحيّة. خزانة ثيابه كانت لاتحوي غير ثلاثة قمصان وبنطالين. وكانت كلارا تقضي الشتاء وهي دائبة تحوك له سترات من الصوف الثخين كي يلبس، لكنّه ماكان يرتديها إلّا ليلتقي في الطريق بمن هو أحوج منه. كلّ المال الذي كان يعيطه إياه أبوه، كان يؤول إلى جيوب المحتاجين الذين يعالجهم في المشفى. كان كلّما يتبعه في الطريق كلبٌ جائع. يؤويه في البيت فإذا علم بوجود طفلٍ لا أهل له أو فتاةٍ أمّ أو عجوزٍ عاجزةٍ تلتمس حمايته، نزل البيت معهم حتّى تهتم أمّه بالمشكلة. وغدت كلارا خبيرة في الضمان الاجتماعي، صارت تعرف كلّ الدوائر العامّة والكنسيّة حيث يمكن وضع أولئك المعدمين، حتى إذا فشل كلّ سعيٍّ، تنتهي إلى قبولهم في بيتها. صديقاتها بتن يخفنها، لأنّها كلّما برزت تقوم لهن بالزيارة، كانت لديها ما تطلبه منهنّ. وهكذا امتدت شبكة محميي جيم وكلارا اللّذين لم يكونا يحسبان حساب من يساعدان من الناس، حتى أنّهما كانا يعجبان إذ يريان فجأةً من يظهر منهم كي يشكرهما لخدمة باتا لايتذكّران أنّهما قاما به. لقد تصوّر جيم دراساته للطب نوعاً من الكهنوت. كان يبدو له أنّ أي تحوّل قمين بأن يبعده عن كتبه أو أيّ تطاولٍ على وقته هو خيانة تجاه تلك الإنسانية التي أقسم على خدمتها. كانت كلارا تقول: «كان على هذا الولد أن يجعل نفسه خوريّاً». وفي عيني جيم الذي لاتزعجه كلّ نذر التواضع والفقر وطهارة الرّهبان، كانت الديانة سبب نصف آلام العالم، حتّى

أنّه كان يخرج عن طوره لمّا تعبّر أمّه هكذا. وكانت المسيحية عنده، مثل كلّ الخرافات، تجعل الإنسان أشدّ ضعفاً وخضوعاً، وأنّه لايجب انتظار أيّ ثواب من السماء، وإنّما أن يكافح على الأرض من أجل حقوقه. وماكان ليعرّض لهذه الأشياء إلّا في الحديث بينه وبين أمّه، لأنّه كان مستحيلاً مع إيستيبان ترويبا الذي كان يفرغ سريعاً صبره ويأخذ بالصراخ وضرب الأبواب، من أجل سبب صحيح وهام، كما كان يقول، أنّه بات لايطيق العيش في وسط مجانين وأنّ الشيء الوحيد الذي يطلبه، هو قليل من التوازن، لكن حظّه العاثر جعله يتزوج غريبة أطوار أنجبت له ثلاثة مهابيل لاينفعون لشيء، ويسمّمون حياته. كان جيم لايناقش أباه. يقطع البيت كظلّ، يقبل أمّه قبلةً شاردة إذا رآها ويتجه مباشرة إلى المطبخ، فيأكل واقفاً البقايا التي تركها الآخرون ويذهب فيسجن نفسه في غرفته كي يقرأ أو يدرس. كانت غرفته وجر كتب، كلّ الجدران تغطيها من الأرض إلى السقف مجموعة رفوف خشب محشوّة مجلّدات لايزيل غبارها أحد لأنّه يقفل بابه بالمفتاح. كانت أعشاشاً يحلم بها العنكبوت والفئران. وفي وسط الغرفة كان فراشه، سرير معسكر تجنيد تضيئه لمبة عارية إلى السطح على مستوى رأس السرير. إبّان هزة أرضية نسيت كلارا أن تتنبأ عنها، سمع قصف خروج قطارٍ عن خطّه وعندما استطاعوا فتح الباب وجدوا سرير المعسكر وقد دفن تحت جبل من الكتب. وخلعت الرفوف من الجدار وبقي جيم تحتها. وأخرج من هناك دون أن يخدش. وتذكّرت كلارا وهي تنظّف الكتب الزلزال العظيم وقالت في نفسها إنّها عاشت تلك اللحظة. ولقد استغلت المناسبة لكنس الغبار من الخلوة وطرد الديدان وغيرها من الحييونات القذرة بضربات المكنسة.

والمرات الوحيدة التي كان يتنازل فيها جيم ويلقي نظرة حقيقيّة على مايجري عنده كانت تلك التي يرى فيها أماندا تدخل، ويدها في يد نيكولاس. ماكان يريد أن يخدع بمظهرها الغريب وكان مقتنعاً بأنّها لو تزيّنت، مثل بقية الناس، ونزعت الصباغ عن عينيها، لشابهت فأرة خضراء ضامرة. مع ذلك كان لايستطيع إلّا أن ينظر إليها. كانت قعقعة الأساور التي ترافق الفتاة تلهيه عن

دراساته وتقتضيه أن يشدّ على نفسه كي لايتبعها في البيت مثل دجاجة منوّمة. كان وهو وحيد في سريره، لايستطيع أن يركّز قراءته، ويتخيّل أماندا عارية، يغطيها شعرها الأسود، وكلّ ضجيج زينتها، مثل صنم. كان جيم معتزلاً. والطفل المتوحّش الذي عاشه غدّا فيما بعد رجلاً حيّياً. كان لايحبّ نفسه، وربّما كان يفكّر، من أجل ذلك، أنّه لايستحق حبّ الآخرين. كانت أدنى إشارة إلى الاهتمام به أو عرفان جميله، تثير خجله، وتوجعه، كانت أماندا تمثّل ماهية المرأة نفسها، وكلّ ماهو محرمٌ عليه، مادامت رفيقة نيكولاس. كان مزاج الفتاة الحر، الصدوق والمغامر يسحره، وتوقظ فيه هيئة الفأرة المتعبة رغبة صاحبة بحمايتها. كان يشتهيها بألم، دون أن يقبل بذلك، حتى في أقصى أفكاره سريّة.

في تلك الفترة كانت أماندا تتردّد كثيراً إلى بيت آل تروييبا كانت تحظى في الجريدة بدوامٍ مرنٍ، وكلّما قدرت، كانت تنزل ببيت الزاوية الكبير مع أخيها ميجيل، دون أن يجذب وجودهما معاً الاهتمام في ذلك المسكن المزدحم الذي كان في حالة فوران دائمة. كان ميجيل حينذاك في الخامسة من عمره، نظيفاً ورزيناً، لايسبب أي فوضى، ولايحسّ أحد بوجوده يمتزج بالأثاث وصور ورق الجدران، يلهو وحده في البستان ويتبع كلارا أينما حلّت، يدعوها بماما. وبناء على ذلك وبما أنّه كان يدعو جيم بابا، افترض أنّ أماندا وميجيل يتيمان، كانت أماندا دائماً مع أخيها، تأخذه معها للعمل، وعودته أنّ يأكل من أيّ طعامٍ، وفي أيّة ساعةٍ، وأن ينام مضطجعاً في أقل الأماكن راحة. كانت تربية بحب عنيف انفعالي، تحكّه كجرو، وتصرخ عليه إن زعلت منه ثم تركض حالاً إليه كي تقبّله. وماكانت تسمح لأحد أن يؤدّب أخاها أو أن يعطيه أمراً، لاتقبل أيّة ملاحظة عن الحياة الغريبة التي تجعله يعيشها، وتدافع عنه كلبوة، بالرغم من أنّ أحداً لايخطر له أن يهاجمه. الوحيدة التي كانت تدعها تعطي فكرة عن تربية ميجيل هي كلارا التي توّصلت لإقناعها بإرساله إلى المدرسة إلّا إذا كانت تريد أن تصنع منه ناسكاً أميّاً. وماكانت كلارا، بشكل خاص، ممّن يؤيّدان التعليم الإجباريّ، لكنّها تقدّر في حالة ميجيل ضرورة تكريس بعض ساعات

يومياً للنظام والحياة المشتركة مع الأطفال من عمره. وتعهّدت هي نفسها بتسجيله وشراء حاجاته ولباسه الموحّد، ورافقت أماندا من أجل الفراق في اليوم الأول من المدرسة. على باب الحضانة، تعانق ميجيل وأماندا وهما يبكيان دون أن تتوّصل المعلمة إلى فصل الطفل عن خراطة أخته التي تعلّق بها بأظافره وأسنانه، وهو يصيح ويرسل رفسات يائسة إلى كلّ من يجرّب أن يدنو منه. وأخيراً استطاعت المعلمة بمساعدة كلارا أن تجرّ الطفل إلى الداخل وأغلق وراءه باب المدرسة. وبقيت أماندا طيلة الصبيحة جالسة على الرصيف وبقيت كلارا بجانبها، لأنّها أحست بالذنب لأنّها جعلتهما هكذا يتعذّبان، وبدأت تشك بحكمة مبادرتها. في الساعة الثانية عشرة دق الجرس وفتحت البوابة. رأتا قطيع من الطلاب يخرج وبينهم ميجيل الصغير، لطيفاً، ساكتاً، دون دموع، وقد ظهر عليه أثر الدرس والجوارب دخلت إلى النصف في الحذاء وقد تعلّم في مدى عدة ساعات أن يتقدّم في الحياة دون أن يمسك بيد أخته. وضمته أماندا بشدّة إلى صدرها وقالت متأثّرة بإلهام اللحظة: «أعطي حياتي لك يا ميجيليتو». وماكانت تدري أنّها يوماً، سوف تضطر إلى فعل ذلك.

أخذ إيستيبان ترويبا مع الزمن يحسّ نفسه أكثر فأكثر وحيداً وغضوباً. وسلّم بألّا تكلّمه زوجته أبداً وحين أعيته ملاحقتها في الزوايا، واستعطافها بالنظر وحفر الثقوب في حواجز غرفة الحمّام، قرّر أن ينصرف إلى السياسة. وكما شخّصت كلارا نجح في الانتخابات أولئك أنفسهم دائماً، لولا هامش ضيّق هو أنّ البلاد انتبهت فجأةً جميعاً. وقدّر ترويبا أنّ ساعته جاءت كي يدافع عن مصالح الوطن ومصالح الحزب المحافظ، لأنّ أحداً لايجسد مثله السياسيّ المستقيم الذي لم يتلوّث، كما كان يقول هو نفسه، ويضيف أنّه ارتفع بقبضته، ومنح العمل شروط حياة لائقةٍ إلى مستخدميه، وهو سيّد الملكيّة الوحيد الذي يقدّم بيوتاً شخصية صغيرةً من قرميد. وهو يحترم القانون، والوطن والتقليد وليس من أحد يمكنه أن ينعى عليه جنحة أكبر من التهرّب نتفة من

الضريبة. استأجر وكيلاً يحلّ محلّ بيدرو جارسيا الصغير، وأولاه في الماريات الثلاث مهمّة العناية بدجاجاته البيّاضة وبقر الاستيراد، وسكن نهائياً في العاصمة. وكرّس نفسه عدّة شهور لمعركته بدعم الحزب المحافظة الذي كان بحاجة لأناس يقدّمهم في الانتخابات التشريعيّة المقبلة، بحاجة لثروته الخاصة وقد وضعها في خدمة القضيّة. وامتلأ البيت بأدوات الدعاية والمؤيّدين الذين احتلوه عمليّاً، واختلطوا بالأرواح في الممرّات، والنجمة الصليب، والأخوات مورا الثلاث. وقليلاً قليلاً دفع بلاط كلارا إلى الغرف البعيدة في المسكن ونشأت حدود لاترى بين القطاع الذي احتله إيستيبان تروييبا وقطّاع زوجته وأخذت العمارة النبيلة الأميريّة، على هوى وحي كلارا، واستجابة لضرورات الساعة، تبرعم وينبت عليها لحيقات[1]، وأدراج، وبريجات وتراسات. وفي كلّ مرّة وجبت استضافة نزيل جديد، كان يأتي البناؤون أنفسهم كي يضيفوا غرفة جديدة. وهكذا وصل الأمر ببيت الزاوية الكبير إلى أن يشبه المتاهة.

كان نيكولاس يقول: «ذات يوم، سوف نجعل منه فندقاً».

ـ إلّا إذا كان مشفى صغيراً، كان يضيف جيم فقد بدأ يداعب فكرة نقل فقرائه إلى الأحياء الراقية.

بقيت واجهة البيت سليمة من التشويه. كان لايرى من الأمام غير الأعمدة الملحميّة والبستان الفرساوي[2]، أمّا، من الوراء فلا تجد أثراً لطراز. وكان البستان الآخر الخلفيّ غابة في التشابك تتكاثر فيه كلّ أنواع النبات والزهور وترتع فيه طيور كلارا برفقة عدة أجيال من الكلاب والقطط. بين هذه الحيوانات الأهليّة، الوحيد الذي بقي في ذاكرة العائلة هو أرنب جاء به ميجيل، أرينب صغير لايتميّز عن سواه بشيء كانت تلحسه الكلاب كثيراً وبعناية حتى سقط فروه وصار النموذج الأجرد الوحيد من نوعه، يغطّيه جلد متقرّح يضفي عليه هيئة زاحف طويل الأذنين.

---

١ ـ اللحيقة بناء صغير يلحق بآخر كبير.

٢ ـ نسبة إلى فرساي.

كلما اقترب موعد الانتخابات، ظهرت العصبية أكثر على إيستيبان ترويبيا. لقد جازف بكل مايملك في مغامرته السياسية. وذات مساء، فرغ صبره، وذهب فقرع باب غرفة كلارا. فتحت له. كانت في قميص النوم، وقد وضعت أسنانها الصناعية لأنها كانت تحبّ قضم الجاتو الجاف وهي تسوّد دفتر الملاحظات على الحياة. وظهرت في عيني إيستيبان فتية وجميلة كما في اليوم الأول لما قادها من يدها حتى هذه الغرفة المفروشة بالحرير الأزرق وجعلها تتجمّد فوق جلد بارّاباس. عند هذه الذكرى ابتسم.

قال وقد احمر كتلميذ مدرسة: «اعذريني يا كلارا. أحسّني وحيداً ومعي الغمّ. أحبّ أن أبقى لحظة صغيرة هنا، إن كان هذا لايزعجك.

وابتسمت كلارا أيضاً، لكنها لم تقل شيئاً. أشارت له إلى مقعد، وجلس إيستيبان. بقيا برهة صامتين يتشاركان في صحن البتي فور وينظر أحدهما للآخر كغريبين، لأنهما منذ زمن طويل وهما يعيشان تحت السقف نفسه دون أن يريا بعضهما.

وانتهى ايستيبان ترويبيا إلى القول: «أعتقد أنك تعرفين ما يزعجني».

أومأت كلارا برأسها إيجاباً.

ـ هل تعتقدين أني سوف أنتخب؟

ووافقت من جديد كلارا فأحس ترويبيا بنفسه وقد تعزّى تماماً، كما لو أنها أعطته ضمانة مكتوبة. وانفجر بضحكة فرحة رنانة، ونهض، فأخذها من ذراعيها، وطبع قبلة على جبينها.

وهتف: «أنت رائعة، يا كلارا! مادمت أنت تقولين فسوف أصبح شيخاً».

منذ ذلك المساء خفّ العداء بينهما. وظلت كلارا لاتوجه أبداً إليه الكلام، لكنه لم يكن يقيم وزناً لصمتها ويكلمها بشكل طبيعي، مفسّراً أقلّ إشاراتها كأجوبة. وكانت كلارا، عند الحاجة، تستخدم وسيلة الخدم أو ابنيها كي ترسل له رسالة. كانت تسهر على راحة زوجها، وتعينه في عمله، وترافقه لما يطلب إليها. بل كانت تبتسم إليه أحياناً.

بعد عشرة أيام من ذلك، انتخب إيستيبان تروييبا شيخاً عن الجمهورية كما تنبأت كلارا. فاحتفل بالحدث بأن أقام حفلة لأصدقائه وأبناء دينه. وقدّم منحة نقوداً عينية إلى خدمه وإلى فلاحي الماريّات الثلاث، وعقد زمرّد لكلارا وضعه على سريرها إلى جانب باقة بنفسج. وأخذت كلارا تحضر اللقاءات الاجتماعية والاحتفالات العامة حيث كان حضورها مطلوباً كي يعطي زوجها فكرة عنه أنه أب طيب يحبه الرأي العام والحزب المحافظ. في هذه المناسبات كانت كلارا تضع أسنانها الصناعية وبعض المجوهرات التي أهدها إياها إيستيبان. كانت تعتبر بين من تعاشرهم أنها الأنق والأرزن والأكثر سحراً وماكان ليخطر ببال أحد أن يظن أن هذين الزوجين المتميزين لايكلم بعضهما بعضاً.

ولقد زاد وضع إيستيبان تروييبا الجديد في عدد الزوار الذين كانوا يجيئون إلى بيت الزاوية الكبير. وماكانت كلارا لتحسب حساب الأفواه التي تطعمها ولانفقات الخدمة كانت الفواتير تذهب مباشرة إلى مكتب الشيخ تروييبا في الكونغرس، الذي كان يدفع دون أن يلقي سؤالاً، لأنه اكتشف أنه كلما صرف أكثر ازدادت ثروته على مايبدو، واستخلص من هذا أن كلارا، ومؤسساتها الإحسانية وضيافتها التي لاتحسن فيها الانتقاء، لن تتوصل إلى خرابه. في البدء استقبل السلطة السياسية كلعبة جديدة. لقد حوّله النضج إلى ذاك الرجل الغني المحترم الذي أقسم أن يكون ذات يوم، حين لم يكن غير يافع في إملاق، دون توصية، أو أي رأسمال سوى غروره وطموحه. مع ذلك، اكتشف سريعاً أنه كان دائماً وحيداً. ابناه الاثنان كانا يتحاشيانه، وليس بينه وبين بيانكا أي اتصال. كانت تصله أخبارها مما يرويه له أخواها ويكتفي بأن يرسل شهرياً شيكاً، أمانة للإلتزام الذي عقده مع جان دوسافييني. كان بعيداً عن ابنيه فما يستطيع متابعة حوار معهما إلا وينتهي بصراخه. وماكان يعرف شيئاً عن تصرفات نيكولاس إلا متأخراً جدّاً، أو بتعبير آخر عندما يكون الناس جميعاً يتحدثون عنها. وماكان يعرف أكثر عن حياة جيم. ولو أنه شك أدنى شكّ بأن

هذا يلتقي ببيدرو الثالث جارسيا، وأنهما باتا يحبّان بعضهما بعضاً كأخوين لأصيب أكيداً بالسكتة، لكن جيم كان يعزف عن الحديث في مثل هذه الأمور مع أبيه.

ترك بيدرو الثالث جارسيا الريف. بعد لقائه الفظيع مع السيد، استقبله الأب خوسيه دولسه ماريا في بيت الكاهن وضمد له يده. لكن الفتى غرق في الانهيار العصبي، وهو يكرر دون ونىً أن الحياة لامعنى لها عنده لأنه فقد بيانكا، وهو، من جهة ثانية، لايقدر على عزف القيثارة، عزائه الوحيد. وانتظر الأب خوسيه دولسه ماريا، حتى اندملت أصابع الصبي، فقد ساعدته بنيته القوية، ثم أصعده في عربة مغطّاة وأخذه إلى مفردة[1] المحليين واراه هناك عمياء بلغت المائة يداها انفتلتا من الرثية، ومازالت لديها الإرادة لأن تعمل في السلالة[2] بأصابع قدميها قال له: «إذا كانت تستطيع صنع سلال بالأقدام، فبوسعك أن تعزف من دون أصابع». ثم حدّثه الجزويتي عن سيرته الذاتية.

ـ في مثل سنّك، أنا كنت أيضاً عاشقاً يا بني. وكانت خطيبتي أجمل بنت في القرية. كنا على أهبة الزواج، وأخذت تطرّز جهازها، وأنا أقتصد حتى نبني لنا بيتاً، حين أخذوني للخدمة العسكرية. وعند عودتي، كانت تزوجت اللحام وتحولت إلى امرأة سمينة طيبة. بت على وشك رمي نفسي في النهر وحجر في عنقي، لكني غيرت رأيي وقررت أن أصير راهباً. بعد سنة لبست الجبّة، وأصبحت هي أرملة وصارت تجيء إلى الكنيسة كي تغازلني (وردّت فرقعة ضحكة الجزويتي الضخم الصافية، الشجاعة إلى بيدرو الثالث جارسيا وجعلته يبتسم لأول مرّة منذ ثلاثة أسابيع) وترى يا بني، استنتج قائلاً، الأب خوسه دولسه ماريا، أنه يجب ألّا نيأس أبداً، سوف تراها، بيانكاتك في يوم لا تنتظرها فيه إلا قليلاً.

وشفي بيدرو الثالث جارسيا، جسداً وروحاً وذهب إلى العاصمة وأشياءه

---

١ ـ أرض صغيرة تحفظها الدولة للسكان المحليين.

٢ ـ صناعة السلال.

في صرّة وبعض نقود وفّرها الخوري من صدقات الأحد. وأعطاه أيضاً عنوان قائد اشتراكي في العاصمة استضافه عنده في الأيام الأولى، ثم وجد له عملاً كمغن في فرقة غجرية. وذهب الفتى يعيش في وسط مدينة عمالية، في كوخ من خشب بدا له قصراً، وليس فيه من أثاث غير مفرش مرفوع على قوائم، وفراش، وكرسي، وصندوقين يحلّان محل الطاولة. هناك كان يكافح من أجل الاشتراكية ويجتر مرارته من عرفانه أن بيانكا تزوجت من آخر، لافظاً تفسيرات وتعازي جيم. ولقد استرد في زمن هيّن استخدام يده اليمنى وخفف مهارة الاصبعين الذين بقيا له، وعاود تأليف الأغاني التي تطارد فيها الدجاجات والثعالب بعضهما بعضاً. وذات يوم دعي إلى برنامج في الإذاعة وكان هذا بداية لشعبيّة تبعث على الدوار، هو نفسه ماكان ينتظرها. أخذ الناس يسمعونه غالباً في الإذاعة وصار اسمه شهيراً. غير أن الشيخ تروييبا لم يسمع يوماً بذكره، لأنه كان يرفض وجود أجهزة الراديو عنده. كان يعدّها أدوات وجدت للجهلة، تنقل التأثيرات الضارة والأفكار الدنيئة. بل لايوجد أقل قبولاً منه للموسيقى الشعبية فعنده الألحان الوحيدة التي تطاق هي ألحان الأوبرا في الفصل الغنائي وفرقة الأوبريت التي تأتي من إسبانيا كل شتاء.

في اليوم الذي أتى فيه جيم إلى البيت ومعه خبر أنه راغب في تبديل كنتيه، لأنه منذ أصبح أبوه شيخاً محافظاً أخذ رفاقه في الجامعة يجافونه، وسكان حي الإحسان يرتابون منه، ففقد إيستيبيان تروييبا صبره وكاد يصفعه، لكنه أمسك بنفسه في الوقت المناسب، حين قرأ في نظرة جيم، أن هذا لن يحتمله هذه المرّة. فأفلت قائلاً له، وهو شاحب من غضب:

ـ تزوجت كي أرزق أولاداً شرعيين يحملون اسمي، لا أبناء زنى يحملون اسم أمهم.

وبعد أسبوع، سمع في أروقة الكونغرس وصالونات النادي أن ابنه جيم خلع بنطاله في ساحة البرازيل وأعطاه لفقير ورجع بالسروال على قدميه عبر

خمسة عشر شارعاً حتى بيته يتبعه جمهور يزداد شيئاً فشيئاً من أطفال ومتسكعين يحيونه. وحين أجهده الدفاع عن شرفه من السخف والأقاويل، فوّض ابنه الكنية التي تعجبه، مادامت لن تكون كنيته هو. في ذلك اليوم، سجن نفسه في مكتبه، وبكى من غضب ومن قهر. وجرّب أن يعترض على نفسه أن مثل هذه الانحرافات ستزول حين ينضج العمر وأن جيم سوف يصبح عاجلاً أم آجلاً الرجل الرزين الذي بوسعه أن يخلفه في أعماله ويصير عصا شيخوخته. أما عن ابنه الثاني، فقد فقد كل أمل. فما كان نيكولاس يقلع عن مشروع خيالي إلّا إلى آخر. في ذاك الزمن، شغلته نزوة الرغبة في عبور السلسلة، كما شغلت منذ سنين خلت خاله الجدّ ماركوس ، مستخدماً أداة نقل غير متداولة. واختار أن يرتفع بالمنطاد، قانعاً بأن منظر كرة هائلة معلقة بين الغيوم تكوّن عنصر دعاية لايقاوم كما يمكن أن تعوّض نفقاته أوّل شركة مياه غازية قادمة. وبذلك نقل نموذج منطاد ألماني مما قبل الحرب، كان يندفع إلى الجو بفضل جهاز هواء حار، وهو يحمل في حضنه المسافر أو المسافرين ذوي المزاج المقدام. لقد استغرقت رغبته مدة من الزمن، مهما كان الثمن، في صنع منطاد طويل ضخم قابل للإلتهاب وجعلته يدرس النوابض الخفيّة، والمجاري الهوائية، وتنبؤات الورق وقوانين الديناميكا الهوائية. وأغفل خلال أسابيع جلسات الجمعة لاستحضار الأرواح مع أمه والأخوات مورا الثلاث، بل لم ينتبه إلى أن أماندا انقطعت عن المجيء إلى البيت. وحينما انتهى مركبه الطائر، لاقى مانعاً لم يحسب حسابه: إن مدير الشرابات الغازية، وهو أمير لوكي من أركانساس، رفض أن يموّل المشروع، متذرعاً بأنه إذا قتل نيكولاس وهو راكب آلته، فإن مبيعات شرابه سوف تسقط أيضاً. وحاول نيكولاس أن يجد مموّلين آخرين، لكن أحداً لم يظهر اهتماماً. لكن كان لابد من أكثر من هذا حتى يتراجع عن خطته، وقرر أن يطير على كل حال، ولو مجاناً. وفي اليوم الموعود، ظلت كلارا الرابطة الجأش، تحوك دون توقف ودون أن تعير أي اهتمام باستعدادات ابنها، مع أن بقية العائلة، والجيران والأصدقاء أرعبهم هذا المشروع الأخرق بقطع الجبال على آلة سخيفة كهذه.

قالت كلارا دون أن تقطع حياكتها: «عندي شعور أنه لن يقلع».

وهذا ماحصل. في آخر لحظة برزت شاحنة صغيرة ملأى بالشرطة في الحديقة العامة التي انتقاها نيكولاس لإقلاعه. وطلبوا منه إذناً من البلدية، ولم يكن معه طبعاً. ولم يستطع الحصول عليه. وقضى أياماً أربعة يركض من مكتب إلى آخر في مساعي يائسة تحطمت على جدار من اللافهم البيروقراطي. ولم يعلم بتاتاً أن شاحنة الشرطة والأوراق التي لانهاية لها راجعة إلى تأثير أبيه الذي لم يكن مهيأً للسماح بمثل تلك المغامرة. وحين أعياه الكفاح ضد جبن الصودا، وبيروقراطية الجو أقنع نفسه بأنه لايستطيع الطيران إلّا إذا فعل ذلك سراً، وهو أمر مستحيل، نظراً لضخامة منطاده. وعانى من هذا الشأن أزمة، لكنّ أمه أخرجته منها بأن أوحت له، كي لايضيع كل من وظف من مال، بأن يستخدم مواد المنطاد في مسائل عملية. عندها أتت لنيكولاس فكرة مصنع الساندويتش. وتكونت خطته من صنع سندويش بالدجاج بحيث يعبئه بغلاف المنطاد بعد تقطيعه إلى مربّعات صغيرة ويبيعها هكذا لموظفي المكاتب. وقدّر أن المكان المثالي لمشروعه هو المطبخ الواسع في داره. وامتلأ البستان الذي في الطرف بالطيور الموثقة من قوائمها التي تنتظر دورها كي يقطع رؤوسها في مجموعات خادمان لحامان استأجرهما لهذا الغرض. وفاضت الباحة ريشاً، ودماً لوث التماثيل الأولمبية وأثارت رائحته الغثيان في كل إنسان وأخذ تنظيف المصارين يغطّي بالذباب كل الحي في حين وضعت كلارا حدّاً لهذه المذبحة بأزمة أعصاب كادت ترجعها إلى فترة صمتها. ولم يؤثر هذا الفشل التجاري الجديد مطلقاً بنيكولاس فقد قلبت معدته ووجدانه تلك المجزرة. وعوّل على أن يفقد كل ما اختزن عبر هذه الفعاليات ويغلق على نفسه غرفته كي يبني خططاً جديدة يربح فيها المال وهو يلهو.

قال جيم حين نفذت قدرته على كبح فرغ صبر قلبه: «منذ زمن طويل لم أر أماندا».

عندها تذكر نيكولاس وجود أماندا وحسب أنه لم يرها تسير منذ أسابيع ثلاثة طيبة في البيت، وأنها لم تحضر فشل خطته في الإقلاع بالمنطاد ولا في تدشين مصنع سندويش الإفطار بالفروج البيتي. وذهب يسأل أمه، لكن أمه

أيضاً ماكانت تعرف شيئاً عن الفتاة بل لقد بدأت تنساها، لأن ذاكرتها، بتأثير الأحوال، بدأت تتأقلم من تحول الدار إلى قاعة خطى ضائعة، وكما كانت تقول، إنها ليست لها نفس عظيمة إلى الدرجة التي تبكي معها كل الغائبين. عندها قرر نيكولاس الذهاب للبحث عن أماندا، لأنه بدأ يتحقق كم كان ينقصه وجودها وهي الفراشة القلقة وعناقها الصامت الخانق في غرف بيت الزاوية الكبير الفارغة حيث كانا يعبثان كجروين صغيرن كلما خففت كلارا مراقبتهما واستغرق ميجيل في ألعابه أو نام في زاوية ما.

لم يكن الفندق العائلي الذي تقطن فيه أماندا مع أخيها غير بناء عتيق بال .لقد كانت له، قبل نصف قرن مضى، على مايبـ ـلعة مزهوّة، لكنه فقدها بقدر ما امتدت المدينة على خاصرة السلسلة. لقد سكنها أول الأمر تجار عرب حشوها بتلبيسات جص وردي مصطنعة، ولما حلّت تجارة العرب في الحيّ التركي، حوّلها المالك إلى فندق عائلي، وقسّمها غرفاً سيئة الإنارة، حزينة، غير مريحة مزخرفة، لمستأجرين ضئيل دخلهم. وكانت تسود في جغرافية الممرات الضيقة المستحيلة الرطبة بصورة دائمة رائحة شوربة الملفوف والقدير[1]. جاءت مديرة النزل نفسها ففتحت الباب، وهي عجوز ضخمة وهبت ذقناً محترمة مثلثة وعينين شرقيتين مدفونتين بين طيات الشحم المجمّد، وخواتم في كل أصابعها ,رياء قديسة كاذبة.

قالت لنيكولاس: «إننا لانقبل الزوار من الجنس الآخر».

غير أن نيكولاس عرض ابتسامة الفاتن التي لاتقاوم، وقبل يدها دون تراجع أمام قرمز أظافرها الحدادية المقشّر، وانبهر من خواتمها وجعل نفسه ابن عمّ أماندا لحاً، وأطنب وزاد، حتى غلبت وهي تتلوى بضحكات صغيرة أنيقة وتشنجات مجذوم، وقادته عبر أدراج غبراء حتى الطابق الثالث ودلّته على باب أماندا، وجد نيكولاس الفتاة في سريرها وقد تدثّرت بشال كاب، تلعب بالدامة مع أخيها ميجيل. لقد نحلت وازرق لونها حتى لقد وجد صعوبة في أن

---

١ ـ يخنة كثيرة التوابل.

يجلسها. نظرت إليه أماندا دون ابتسام ولم توجه له أية كلمة ترحيب. أما ميجيل على العكس، جاء فانزرع أمامه ويداه على خاصرتيه:

ـ ها أنت ذا أخيراً! قال الجدي.

اقترب نيكولاس من السرير وجرّب أن يتذكر أماندا الراعشة السمراء، أماندا المتموجة، الثمرية الطعم ولقاءاتهما في ظلام الغرف المغلقة، لكن بين طيات الشال الصوفيّ الثقيل والأغطية الجانحة إلى الرمادي، كانت عيناها الكبيرتان الضالتان تتأملانه بقسوة لاتفسّر. «أماندا». تمتم وهو يمسك بيدها. تلك اليد التي تبدو من دون خواتمها وأساور الفضة عاريّة كقائمة طير منازع.

نادت أماندا أخاها. أتى ميجيل إلى جانب السرير فهمست شيئاً في أذنه. واتجه الولد بخطى بطيئة ناحية الباب، ومن العتبة، رمى نيكولاس بنظرة أخيرة مغضبة ثم خرج، وأغلق الباب وراءه دون صوت.

وتلجلج نيكولاس قائلاً: «أماندا، سامحيني، كنت مشغولاً جداً لماذا لم تخبريني أنك كنت مريضة؟».

أجابت: «أنا لست مريضة. أنا حبلى».

كان أثر الكلمة في نيكولاس أثر صفعة. وتراجع حتى أحسّ بلور النافذة في ظهره. منذ اليوم الأوّل الذي عرّى فيه أماندا، وهو يتلمّس في الظلام، وهو يتعثر في أطمار تنكره الوجودي، ويرتجف سلفاً من فكرة النتوءات والتجاويف التي تصورها مرّات ومرّات دون أن يتوصل إلى معرفتها في عريهما الرائع، ولقد افترض أن عندها من التجربة ما يجنبه أن يصبح أباً في الحادية والعشرين، ويجنبها أن تغدأ أمّاً وهي بنتٌ في الخامسة والعشرين. لقد عرفت أماندا الحب قبله وكانت أول من يحدّثه عن الحبّ الحرّ. كانت تؤيد بحزم لارجعة عنه أنهما يجب ألا يبقيا معاً إلا إذا كانا متفاهمين، دون ارتباطات ولا أيمان من أجل المستقبل، مثل سارتر دوبوفوار. هذا العهد، الذي خاله نيكولاس في البدء دليل برود وتحرراً مزعجاً من الإلتزام، ظهر فيما بعد أنه مريح جدّاً. ولم يواجه يوماً، وهو المرح الخليّ البال، علائقهما العاشقة من زاوية نتائجها.

هتف قائلاً: «ماذا سنفعل الآن؟».

أجابت: «إجهاض، هذا هو الشيء الطبيعي».

وغمرت نيكولاس موجة عزاء كبرى. مرة أخرى تحاشى الهوّة. كما في كل مرة يلعب على شفا الكارثة، فيبرز من أقوى منه، إلى جانبه، كي يمسك بالأشياء في يده، على طريقة الكلية نفسها فيما مضى، لما كان يثير الأولاد الآخرين في الفرصة حتى ينقضّوا عليه وفي اللحظة الأخيرة، لما يشلّه الخوف، يصل جيم ويتدخل، فيحيل رعبه إلى تهليل، ويمكّنه من الوقوف وراء أحد أعمدة السقيفة ويزعق بالشتائم من ملجئه، بينما يكون أخوه دامي الأنف يلعب بقبضتيه في عناد آلة أخرس، والآن أماندا تحمل المسؤوليات عنه.

ـ بوسعنا أن نتزوج، يا أماندا... إذا شئت، تمتم كي ينقذ ماء الوجه.

ـ لا، أجابت دون أي ظلّ للتردد. أنا لاأحبك ما يكفي لهذا الأمر، يا نيكولاس.

واتخذت حالاً، عواطفه منعرجاً مفاجئاً، لأن هذا الاحتمال لم يدر مطلقاً في خياله حتى تلك الساعة لم يجد نفسه بتاتاً وقد رفض أو أهمل بل كان في كل حبّ، هو الذي يلجأ إلى رقّته كي يتوارى دون أن يجرح البنت التي جاء دورها. وفكر بوضع أماندا الصعب وهي الفقيرة، الوحيدة، التي تنتظر طفلاً. قال في نفسه إن كلمة واحدة منه يمكن أن تغيّر قدر الفتاة بأن يجعل منها زوجة أحد آل تروييبا المحترمين. هذه الصور مرّت بذهنه عبر جزء من الثانية، لكنه احمر حالاً من الخجل إذ اكتشف أنه استغرق في مثل هذه الأفكار. وبدت له أماندا فجأة رائعة. وعادت إلى ذاكرته كل تلك اللحظات الطيبة التي تقاسماها، تلك المرّات، تلك المرّات التي كانا يجعلان فيها نفسيهما يسقطان أرضاً كي يدخّنا الغليون نفسه، ويأخذ الدوار رأسيهما معاً، ويتسليا بتلك العشبة التي لها طعم جلّة[1] جافة وبعض التأثير المهلوس، لكنها تدفع قدرة الإلهام لأن تلعب دورها، وتمارين اليوغا تلك، والتأمل الزوجيّ، وهما جالسان قدّام بعضهما بعضاً، وقد استرخيا تماماً، والعينان في العينين، يتمتم كل منهما

١ ـ روث البقر المجفف.

للآخر صيغاً سنسكريتية قمينة بأن تحملهما إلى النرفانا، لكن كان لها بصفة عامة تأثيراً معاكساً، وبالرغم من أنهما كانا ينتهيان إلى التسلّل، دون علم الآخرين وإلى الاختفاء بين أجمات البستان حيث يحبّان بعضهما كمجنونين؛ وتلك الكتب التي التهماها على نور شمعة، وكلاهما يختنق من حمّى ومن دخان، وتلك الاجتماعات التي لاتنتهي ويتناقشان فيها مفكري مابعد الحرب المتشائمين، والتي يركزان فيها كي يحرّكوا المائدة، ضربتان تعنيان نعم، ثلاث ضربات تعني لا، بينما كانت كلارا تهزأ منهم. بعدها سقط على ركبتيه عند رأس أماندا وتضرع لها ألّا تتركه، أن تعفو عنه، أن تقبل أن يستمرّا بالعيش معاً وكأن شيئاً لم يكن، وأن ماحدث ليس سوى عارض مكدّر لايستطيع أن ينال من جوهر علاقتهما الذي لايرقى. لكن ظهر عليه أنها لاتصغي. كانت تداعب رأسه بحركة أمومية وبعيدة.

قالت له: «لافائدة، يا نيكولاس. ألا ترى أنّ لي قلباً عجوزاً بينما لست أنت سوى طفل؟ سوف تبقى طفلاً».

وظلّا يداعب بعضهما بعضاً دون رغبة ويعذب أحدهما الآخر بالرجاء والذكريات. كانا يتذوّقان مرارة الفراق الذي يحسّانه ولو أنهما مازالا يقدران على صهره في الاتفاق. تركت السرير كي تعدّ فنجاناً من الشاي لهما الاثنين ولاحظ نيكولاس أنها ترتدي خراطة قديمة بمثابة قميص نوم. لقد نحلت وبدت له ربلتاها أخّاذتين. كانت تمشي حافية في الغرفة، والشال على كتفيها، وشعرها مشوش، وهي مشغولة حول موقد البارافين الموضوع على طاولة، تحل عندها محل المكتب، وطبقية[1] ومطبخاً. لاحظ الفوضى التي تعيش فيها، وتأكد أنه حتى الآن لم يعرف أحداً سواها. قال في نفسه إنها لاعائلة لها غير أخيها، وأنها تتعيش بأجر ضئيل، لكنه لم يكن قادراً على تقدير وضعها الحقيقي. الفقر كان عنده مفهوماً مجرّداً وبعيداً، يمكن تطبيقه على مزارعي الماريّات الثلاث والمعوزين الذين يساعدهم أخوه جيم، والذين لم يكن له معهم هو أي احتكاك.

---

١ ـ مايوضع عليه الأكل الفائض.

أماندا، أمانداه القريبة المألوفة باتت فجأة غريبة عنه. أخذ يتأمل ثيابها التي حين ترتديها تغدو وكأنها متنكرة بزي ملكة، وليست الآن وهي معلقة بالمسامير غير أسمال متسولة حزينة. أخذ يتمعّن بفرشاة أسنانها في كأس المغسلة المتأكسدة وحذاء المدرسة لميجيل وقد صبغ وأعيد صبغه من المرّات مافقد معه لونه الأصلي والآلة الكاتبة العتيقة عند حدّ الموقد، والكتب بين الصحون وبلّور الشباك المكسور المعزّز بقصاصة مجلّة. كان ذاك عالماً آخر. عالماً ماكان يظن حتى بوجوده. فحتى الآن يوجد من جهة خطّ التماس الفقراء الحقيقيون الذين يجري الحديث عنهم، ومن الجهة الأخرى البشر الذين هم مثله، وقد وضع أماندا بينهم. كان يجهل كل شيء عن هذه الطبقة الوسيطة الصامتة التي تتخبط بين الفقر الواضح وبين الرغبة المستحيلة في التشبه بأولئك السوقة الذهبيين الذين ينتسب إليهم. أحسّ أنه مرتبك ومخزي وهو يفكر بالزيارات العديدة التي قامت بها لآل ترويبيا حيث يقدّر أنها سحرتهم جميعاً كي تتحاشى أن يلاحظوا فقرها، وكان هو فاقد الشعور بالأمر تماماً، فلم يساعدها في أي شأن. وتذكر حكايات أبيه، لما كان هذا يتحدث عن طفولته البائسة، قائلاً أنه في مثل عمره كان يعمل كي يعيل أمّه وأخته، وأنه استطاع للمرّة الأولى أن يؤطّر تلك الحكايات الإرشادية في إطار الواقع. قال في نفسه تلك كانت حياة أماندا.

تشاركا في فنجان الشاي وهما جالسان على السرير، لأنه لم يكن هناك غير كرسي واحد. وروت له أماندا ماضيها، وعائلتها والأب الكحولي الذي كان أستاذاً في مقاطعة من الشمال، وأم حزينة محدودبة تعمل كي تسد حاجات ستة أولاد وكيف تركت هي البيت، منذ أن صارت تعرف كيف تتدبّر شؤونها. وصلت إلى العاصمة وهي في حوالى الخامسة عشرة إلى عند شبينة تفيض طيباً فساعدتها زمناً ما. ثم لما ماتت أمها، ذهبت كي تدفنها وأتت معها بميجيل الذي لم يكن إلا رضيعاً. ومنذئذ اتخذت لديه مكانة الأم. أما عن الأم وبقية الإخوة والأخوات فإنها لم تعرف شيئاً. وأحس نيكولاس أن الرغبة في حمايتها تكبر فيه، وعليه أن يسهر عليها، ويعوض لها كل ما كان ينقصها. لم يحبّها يوماً بهذا القدر.

ولقد هبط المساء لمّا رأيا ميجيل راجعاً، ووجنتاه مشتعلتان، وهو يتلوى بشطارة خبيث ويتكتم كي لا يرى الهدية التي حملها، وخبأها وراء ظهره. كانت ربطة لب الخبز لأخته. ووضعها على سرير أماندا، وقبلها بحبّ، ومسّد لها شعرها بيده الصغيرة وسوّى لها وسادتها. وارتعش نيكولاس لأن حركات الطفل هذه كانت تخفي من الاهتمام والحنان أكثر من المداعبات التي أغدقها في حياته على أية امرأة كانت. تمتم قائلاً: «هنالك كثير ما تعلمته بعد» وأسند جبينه على بلور الشباك القذر وتساءل إذا كان بوسعه أن يكون قادراً على العطاء قدر ما يود أن يأخذ.

ـ كيف نستطيع؟ سأل دون أن يجرؤ على لفظ الكلمة الفظيعة.

ـ أطلب عون أخيك جيم، اقترحت أماندا.

استقبل جيم أخاه في وجر كتبه. وهو متمدد على سرير معسكر المجندين، الذي تضيئه لمبة وحيدة معلقة إلى السقف. كان مستغرقاً في قراءات قصائد العشق للشاعر، الذي اكتسب شهرة عالمية، كما شخصت كلارا من اليوم الأول الذي سمعته فيه يلقي بصوته العميق في إحدى سهراتها الأدبية. وعند التفكير قال جيم في نفسه أن القصائد ألهمها حضور أماندا في بستان آل ترويبا حيث كان الشاعر يجلس أحياناً في ساعة الشاي، يتحدث عن الأغاني اليائسة، في الفترة التي كان فيها ضيفاً مستمراً في بيت الزاوية الكبير. أدهشته زيارة أخيه، لأنهما منذ أن غادرا الكلية كان كل يوم يريا بعضهما يبتعد أحدهما عن الآخر أكثر. وفي الوقت الأخير لم يكن لدى أحدهما مايقول لأخيه، فكان يسلم كل منهما على الآخر بهزة رأس في المرات النادرة التي يصطدمان بها عندما يتجاوزان عتبة البيت. ولقد عزف جيم عن فكرته في ضمّ نيكولاس إلى مظاهر الوجود المتسامية.

بل لقد وصل به الأمر إلى أن يجد في اهتماماته العابثة إهانة شخصية،

لأنه ماكان يستطيع أن يدرك كيف يصرف وقته وطاقته في رحلات البالون ومذابح الدجاج مع أن مقتضيات العمل كثيرة في حي الإحسان. لكنه ماكان يحث عن جرّه إلى المشفى كي يرى الآلام من قريب، آملاً أن يهزّ بؤس الآخرين قلبه قلب الطير المهاجر، تماماً كما انقطع عن دعوته إلى الاجتماعات مع الاشتراكيين عند بيدرو الثالث جارسيا في أقصى شارع في المدينة العمالية حيث كانوا يلتقون كل خميس، والبوليس يراقبهم. كان نيكولاس يهزأ من مشاغله الاجتماعية مدّعياً أنه يجب أن يكون حقّاً أحد أولئك البلهاء ذوي رسالة القديسين حتى يخطر بين الناس ومعه نتفة شمعة كي يبحث عن كل ماهو ثقيل الدم وبائس. والآن وقف أمام جيم أخيه وهو ينظر إليه بهيئة المذنب ضارعاً وهو الذي لجأ إليه مرّات كثيرة كي يهزّ عاطفته.

قال نيكولاس مباغتة: «أماندا حبلى».

لقد اضطر إلى أن يكرر. لأن جيم بقي من مرمر، في ذلك الوضع المتوحش الذي لاينفك عنه أبداً، دون أية بادرة تنبئ أنه سمع. لكنه في داخله، جعله الحرمان يختنق. كان يهجئ في الصمت اسم أماندا، يتعلق في نغمه الحلو كي لايفقد سيطرته على نفسه. كبيرة كانت حاجته لأن يمنح الحياة لأوهامه حتى لقد وصل به الأمر إلى أن يقتنع أن أماندا لاتقيم مع نيكولاس غير حب طفولي، وعلاقة في حدود النزهات البريئة يداً بيدٍ، ومناقشات حول قنينة أبسنت، وبعض قبل عابرة نادرة فاجأهما هو نفسه بها.

لقد رفض تلك الحقيقة المؤلمة التي عليه أن يواجهها الآن.

ـ لاتضف شيئاً. أنا لاعلاقة لي في هذا الشأن، أجاب منذ أن استطاع الكلام.

وترك نيكولاس نفسه يسقط عند آخر السرير ودفن وجهه بين يديه.

ـ يجب أن تساعدها، أرجوك! قال بلهجة ضارعة.

أغلق جيم عينيه وتنفس بصعوبة، جاهداً أن يكبح اندفاعاته المجنونة التي كان يمكن أن تحمله على قتل أخيه، وأن يركض فيتزوج هو نفسه أماندا، وأن

يبكي من عجز ومن قهر. كانت حاضرة في ذاكرته صورة الفتاة كما كانت تظهر كل مرّة تصدعه فيها لواعج الحبّ. كان يراها تدخل البيت وتخرج منه كهبّة هواء نقيّ، وهي تمسك بأخيها من يده، كان يسمع صوتها على التراس، يستنشق عبير جسدها الحلو الخفيّ وشعرها وهي تمرّ بقربه في رابعة الظهر. كان يراها كما يتخيّلها آنئذ في ساعات الفراغ حيث يحلم بها. كان يذكر، أكثر من أي شيء آخر، تلك المناسبة الوحيدة والدقيقة التي اندفعت فيها أماندا إلى غرفته والتقيا وحيدين في حميم حرمه. دخلت دون أن تطرق وهو متمدد يقرأ على سرير المعسكر، فملأت مدى وجره برفرفة شعرها الطويل وذراعيها المتوجين، ولمست كتبه دون أدنى احترام واندفعت بالجرأة والوقاحة إلى أن تخرجها من رفوفها المقدسة، وأن تنفخ فوقها كي تزيل عنها الغبار، ثم ترميها على السرير، وتثرثر بلا تعب بينما يرتجف هو من الرغبة ومن المفاجأة، دون أن يجد في كل سخاء قاموسه الموسوعي كلمة واحدة يمسك بها حتى انتهى الأمر بها إلى ان تستأذنه بطبع قبلة على وجنتيه، قبلة دأبت تضنيه كحرق، قبلة وحيدة وفظيعة مكنته من أن يبني تيه أحلام حيث يلتقيان وكلاهما أمير عشق الآخر.

استعطفه نيكولاس قائلاً: «أنت تعرف بالطب يا جيم. إعمل شيئاً».

قال جيم: «لست إلا تلميذاً، يلزمني الكثير حتى أصير طبيباً. أنا لاأعرف شيئاً عن هذه الأشياء. لكني رأيت كثيراً من النساء يمتن من تدخل أناس جهلة».

أجاب نيكولاس: «إنها تثق بك. تقول لك أنت وحدك قادر على انتشالها».

وقبض جيم على أخيه من ثيابه ورفعه ثم هزّه كماثل[1]، وهو يصيح به بكل الشتائم التي تمرّ في ذهنه، حتى اضطره نحيبه نفسه على أن يتركه. وتباكى نيكولاس متعزّياً. كان يعرف جيّداً جيم وكشف على عادته، أنه سوف يتخذ دور الحامي.

ـ شكراً يا أخيّ!

---

١ ـ تمثال لعرض الأزياء.

وصفعه جيم صفعة رخوة ودفعه خارج غرفته. أغلق الباب بالمفتاح ونام على بطنه على سرير معسكره، يهزّه نحيب قاس ومخيف ينتحبه الرجال عندما يبكون أوجاع القلب.

انتظرا حتى الأحد. أعطاهما جيم موعداً في مستوصف حي الإحسان حيث كان يعمل من أجل تكوينه عمليّاً. كان المفتاح لديه، لأنه كان آخر من يخرج، وهكذا استطاع بيسر الدخول إليه، لكنه أخذ يشعر وكأنه في جلد لصّ، وماكان بوسعه أن يفسّر لأحد وجوده في المكان في تلك الساعة المتأخّرة. منذ أيام ثلاثة، وهو يدرس كل مرحلة من التدخل الجراحي الذي يريد القيام به. كان بوسعه أن يعيد بالترتيب كل كلمة في الموجز، لكن هذا لم يكن ليطمئنه مع ذلك. كان يرتجف، يجتهد في ألّا يفكّر في تلك النساء اللائي رآهنّ يصلن بين الحياة والموت إلى قاعة الطوارئ في المشفى، وأولئك اللائي ساهم في إنقاذهن في هذه المصحة نفسها، وهن شاحبات، في تلك الأسرة نفسها، وجدول من الدم يفرّ من بين أفخاذهن دون أن يستطيع العلم عمل أي شيء لدفع الحياة عن أن تفرّ من تلك البالوعة المفتوحة. كان يعرف هذا النوع من المأساة عن قرب. لكنه. حتى هذا النهار لم يواجه بتاتاً حرجاً أخلاقياً من أجل مساعدة امرأة يائسة. وبالأحرى الأمر الذي يتعلق بأماندا. أضاء ولبس القميص الأبيض المهني. وأعدّ الأدوات، وهو يراجع بصوت عال كل تفصيل تعلمه عن ظهر قلب. كان يتمنى لو يطرأ بعض شقاء هائل، زلزال يهزّ الكوكب من قواعده يخلصه من أن يعمل مايجب أن يعمل. لكن لم يحدث شيء من هذا، حتى الساعة المتفق عليها.

خلال ذلك الوقت، ذهب نيكولاس كي يأتي بأماندا في سيارة كوفادونجا القديمة التي تسير ظالعة وهي تقذف مساميرها في غيمة زيت محترق مسوّدة، لكن مازالوا يستخدمونها في الحالات الطارئة. كانت تنتظره، جالسة على الكرسي الوحيد في غرفتها، تمسك بميجيل من يده، وكلاهما انغلق مع الآخر في تواطؤ متبادل، على عادتهما، فأحسّ نيكولاس أنّه مقصيّ. كانت ملامح الفتاة شاحبة كابية بسبب أعصابها، وبما كابدته في الأسابيع الأخيرة من

ضيق وقلق، لكنها كانت تبدو أهدأ من نيكولاس الذي كان يتكلم سريعاً، ولايستطيع البقاء في مكانه، وتكلف، كي يشجّعها بفرح مصطنع ومزاح لامعنى له. ولقد جلب لها هدية خاتماً قديماً أحجاره ألماس وبجادي، سرقه من غرفة أمّه، يقيناً منه أنها لن تنتبه إليه، ولو رأته في إصبع أماندا لن تكون قادرة على التعرّف إليه. لكن أماندا ردّته إليه بلطف وهي تقول له دون أن تبتسم:

ـ أنت ترى يا نيكولاس أنك لست سوى طفل.

ساعة الذهاب، لبس ميجيل الصغير بونشو وتعلّق بيد أخته.

واضطر نيكولاس في البدء أن يستخدم سحره، وبعده القوة الخشنة كي يتركه بين يدي مديرة النزل، التي سحرها نهائياً ابن عمّ النزيلة في الأيام الأخيرة، فخالفت قواعدها الخاصة، وقبلت أن ترعى الطفل تلك الليلة.

قطعا الطريق دون أية كلمة، كل منهما كان غارقاً في مخاوفه. كان نيكولاس يشعر بعداء أماندا كنوع من الغنغرينا استقرت في علائقهما ولقد توصلت في الأيام الأخيرة على أن تتعوّد على فكرة موتها وكانت تخافها أقلّ من الوجع ومن الإذلال الذي سوف تعانيه ذاك المساء نفسه. كان نيكولاس يقود الكوفادونجا عبر حي مجهول من المدينة يتكوّن من دروب ضيقة ومظلمة حيث تتكوّم الأقذار على جدران المعامل العالية، وغابة من المداخن تقطع الطريق على لون السماء، والكلاب الضالة كانت تشم النفايات والمتسولون ينامون في أبواب العربات، وقد غطوا أنفسهم بالجرائد. لم يصدق أن هذا هو مسرح عمليّات أخيه اليومي.

كان جيم ينتظرهما على عتبة المصحة. القميص الأبيض والكرب الذي يكابده جعلاه يبدو أكبر من عمره. قادهما عبر متاهة من الممرات الباردة حتى الغرفة التي أعدّها، وهو يجهد في أن يلهي أماندا عن بشاعة المكان كي لاترى المناشف الصفر في السطول، بانتظار الغسل يوم الاثنين، ولا الرسوم البذيئة على

الجدران، ولا البلاط المقلوع أو الأنابيب الصدئة التي تقطر إلى مالانهاية. عند مدخل جناح العمليات تسمّرت بتعبير مرعوب: لقد رأت مجموعة الأدوات، والطاولة النسائية، وماكان حتى الآن فكرة مجرّدة، وغزلاً مع احتمال الموت البسيط، تجسّد في هذه اللحظة. كان نيكولاس شاحباً، غير أن جيم أخذهما من ذراعيهما وأجبرهما على الدخول.

قال لها: «انقطعي عن النظر، يا أماندا، سوف أخدّرك حتى لاتحسّي بشيء».

قبل هذا لم يقم بالتخدير قطعاً ولم يتدخل بأية جراحة. كان يقتصر، كتلميذ، على المهمات الإدارية، ويعدّ الإحصاءات، ويملأ البطاقات، ويساعد في العناية، والخياطة، والأعمال الصغيرة. كان خائفاً بقدر أماندا، لكنه تبنّى ذلك الوضع المهيمن الخليّ البال الذي لاحظه لدى المحترفين، جاعلاً إياها تعتقد أن المسألة لاتخرج عن الروتين البسيط. كان يودّ لو يجنبها مشقة خلع الثياب وأن يجنب نفسه عذاب النظر إليها، حتى أنه ساعدها في الإستلقاء بثيابها على الطاولة. كان وهو يعقم يديه ويرى نيكولاس كيف يتصرّف هو بدوره، محاولاً أن يسلّيها وهو يقصّ عليها حكاية الشبح الإسباني الذي ظهر لكلارا في إحدى جلسات الجمعة وروى لها أنه يوجد كنز مخبأ في أساسات البيت، وحدثها عن عائلته: كومة معتوهين عبر عدة أجيال، قادرون على أسوأ الشذوذ، والأرواح التي تعود من بينهم تسخر منهم. غير أن أماندا لم تكن تصغي له، كانت صفراء مثل كفنٍ وأسنانها تلعب بالصنّاجات.

قالت له راجفة: «لماذا هذه السيور؟ لا أريد أن تحزمني!».

قال جيم: «لن أثبّتك. سوف يعطيك نيكولاس الأثير. تنفّسي بهدوء، لا تخافي، عندما تستفيقين نكون انتهينا». وكانت عيناه تبتسمان لها من فوق كمّامته.

قرّب نيكولاس من الفتاة منشّق التخدير وآخر شيء رأته قبل أن تغرق في السواد كان نظرة الحبّ من جيم، لكنها قالت في نفسها أنها كانت تحلم. ونزع نيكولاس ثيابها وربطها إلى الطاولة فأدرك أنّ ذاك كان أدهى من

الاغتصاب، بينما كان أخوه ينتظر، ويداه بالكفّين، يجتهد ألاّ يرى فيها المرأة التي تشغل كل أفكاره بل جسداً فحسب مثل كل تلك الأجساد التي تمرّ على هذه الطاولة بصرخة الألم نفسها. بدأ العمل مجتهداً وبطيئاً، وهو يعيد بينه وبين نفسه كل ما يجب أن يفعل، وهو يتمتم بنصّ الموجز الذي حفظه عن ظهر قلب، رغم العرق الذي كان يجري في عينيه، منتبهاً إلى تنفّس البنت، إلى بنية جلدها، إلى إيقاع قلبها، طالباً من أخيه أن يضع لها قليلاًمن الأثير كل مرّة تتأوة، داعياً، ألا يحدث أي اختلاط، بينما يعيث في أعمق حميميتها دون أن ينقطع، طول المدّة، من لعن نيكولاس بعقله، لأن الطفل لو كان ابنه لا ابن أخيه، لولد في أحس حال بدلاً من أن يذهب قطعاً إلى مجرور المصحة التعيس، ولكان هدهده وحضنه بدلاً من أن ينتزعه من عشه بالمكحته. وبعد خمس وعشرين دقيقة، انتهى وأمر نيكولاس بأن يعينه بإصلاح وضعها، ريثما ينقطع تأثير الأثير، لكنه لاحظ أن أخاه يترنّح، مستنداً إلى الحائط، يهزّه غثيان شديد.

زأر جيم قائلاً: «يا أبله! إذهب إلى المرحاض وبعد أن تقيء مايثقل على ضميرك، تريث في قاعة الإنتظار، فما زال أمامنا عمل بعض الوقت!».

خرج نيكولاس يتأرجح، ونزع جيم قفّازيه وكمامته، وهمّ بحلّ سيور أماندا، وألبسها برقة ثيابها، وأخفى الآثار الدامية من عمله، ورفع من نظرها أدوات تعذيبها. ثم أخذها بين ذراعيه، وتمتع بتلك اللحظة التي استطاع فيها أن يضمها إلى صدره، ثم حملها لى سرير وضع عليه أغطية نظيفة، وهو ترف لايتاح للنساء اللاتي يأتين مستنجدات إلى المصحة. غلّفها بالغطاء وجلس عند رأسها. للمرة الأولى في حياته، كان بوسعه أن يتأملها على هواه. كانت أصغر، وأحلى، مما يظهر عليها وهي رائحة غادية في زيها زيّ الساحرة المضحك، وزينتها البازارية، وفي جسدها النحيل، كما كان يحسه دائماً، والعظام لاتلوح إلّا لماماً بين هضاب أنوثتها الصغيرة ووديانها الملساء. كان يقدر عمرها بالخامسة عشرة لولا لبدتها المثيرة وعيناها عينا السفنكس. وتبدّى ضعفها أكثر مما يشتهي جيم بين كل ماسحره فيها من قبل. كان يحسّ أنه أطول وأثقل منها مرتين،

وأقوى ألف مرّة. لكنه يعرف من البدء أنه المغلوب من حنين الحاجة إلى حمايتها. ولعن حساسيته التي لاينقيها شيء وجهد في ألّا يرى فيها غير عشيقة أخيه، التي أجرى لها عملية إجهاض، لكنه فهم حالاً بأن هذا جهد ضائع واستسلم إلى لذة وعذاب حبّها. وداعب يديها الشفافتين، وأصابعها الناعمة، ومحار أذنيها، وجاب عنقها، وهو يصغي إلى ضجة الحياة الخفيّة في عروقها. وقرّب فمه من شفتي أماندا ونشق بنهم رائحة التخدير، دون أن يجرؤ أن يحطّ عليهما.

وأفاقت أماندا ببطء من نومها. أحسّت أولاً ببرد عظيم، ثم استبد بها الغثيان. وشدّ من عزيمتها جيم وهو يحدثها بذاك الكلام السرّي الذي ادّخره للحيوانات، وصغار أطفال مشفى الفقراء، إلى أن استعادت هدوءها. أخذت تبكي وظل يلاطفها. بقيا هكذا دون قول كلمة، كانت هي تترنّح بين السبات، والغثيان والقلق والألم الذي بدأ يوجع بطنها وهو لايرغب إلا في أمر واحد: ألا يصل هذا الليل أبداً إلى نهايته.

وانتهت إلى أن سألته: «أتعتقد أني أستطيع بعدها إنجاب الأطفال؟».

أجابها: «أفترض أن نعم. لكن جدي لهم أباً مسؤولاً».

وابتسما معاً، مرتاحين. وبحثت أماندا على وجه جيم الأسمر، وقد انحنى قريباً من وجهها، عن شبه بوجه نيكولاس، لكنها لم تجد أثراً. لأول مرّة في حياتها الرحّالة أحست أنها محميّة، في أمن، وتنهدت من الراحة، وقد نسيت هذا الجوّ الخسيس، والجدران المقشرة، والأدوات المخيفة، ورائحة المعقّم، وحتى ذاك الألم اللاذع الذي أقام في أحشائها.

قالت له: «تمدد إلى جانبي، إذا سمحت، وخذني بين ذراعيك».

تمدّد خجلاً على السرير الضيق، وأحاطها بذراعيه. وجرّب أن يبقى بلا حراك كي لايزعجها أو يتعرض للسقوط. كان على حنان غبيّ لمن لم يُعشق مطلقاً ووجب عليه أن يرتجل. وأغلقت أماندا عينيها وابتسمت. وبقيا هكذا، وانسجم تنفسهما في هدوء كامل، كأخ وأخت، حتى أخذ المكان ينجلي

ودخلت أشعة الصباح من النافذة وحلت محل ضياء اللمبة. أعانها عندئذ جيم على النهوض، فألبسها معطفها وقادها من ذراعها إلى غرفة الانتظار حيث كان نيكولاس غافلاً على كرسي.

قال جيم: «استيقظ! سوف نأخذها إلى البيت كي تسهر عليها الماما. أفضل ألّا ندعها وحيدة خلال عدة أيام».

ـ كنت أعرف أنه يمكن الاعتماد عليك، يا أخيّ، قالها نيكولاس شاكراً بصوت منفعل.

وجمجم جيم وهو يدير ظهره له قائلاً: «لم أعمل ذلك من أجلك، أيها البائس، من أجلها هي فحسب».

واستقبلتهم كلارا في بيت الزاوية الكبير دون أن تلقي عليهم أسئلة، ولو أنها ألقتها مباشرة على الورق والأرواح. يبدو أنهم أيقظوها لأن نور الشمس كان في بداية بزوغه وماكان أحد بعد مستيقظاً.

قال جيم لأمه بالثقة التي منحه إياها تعاونهما المشترك في مثل هذه الشؤون: «يجب أن تساعدي أماندا يا ماما. إنها مريضة وسوف تبقى أيّاماً».

وسألت أماندا: «ميجيلي الصغير؟».

ـ سوف آتي به، قال نيكولاس وخرج.

وأعدوا غرفة ضيف، وقبعت أماندا في السرير. أخذ لها جيم حرارتها وقال يجب أن ترتاح. وتظاهر بالانسحاب، لكنه بقي واقفاً على عتبة الغرفة، متردداً. وعند هذا رجعت كلارا تحمل صينية قهوة للثلاثة.

تمتم جيم قائلاً: «إخال يا ماما، أننا ملزمون نحوك ببعض التفسير».

قالت كلارا بلهجة مرحة: «لا، يا بني. إن كانت هنالك خطيئة، أفضل ألا ترووا لي. سوف نستغل الفرصة كي نهدهد قليلاً أماندا، التي بحاجة لذلك».

وخرجت، يتبعها ابنها. نظر جيم إلى أمه تمشي حافية القدمين على طول الرواق، وشعرها يتطاير على ظهرها، وهي لابسة مئزرها الأبيض، ولاحظ أنها

ليست كبيرة ولاقوية بالقدر الذي كان يراها فيه زمن طفولته. رفع يده وأوقفها من كتفها. دارت برأسها وابتسمت، وحبسها جيم بين ذراعيه، وضمّها إلى صدره، وحكّ جبينها بذقنه التي كان شعرها القاسي بحاجة لحلاقة أخرى. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يداعبها فيها عفويّاً منذ الفترة التي لم يكن فيها غير طفل يتعلق عن حاجة بثديها، وذهلت كلارا من رؤيتها كم كان ابنها كبيراً، بصدر ربّاع أثقال وذراعين ككتلتين كانتا تطحنانها بضمتها الخائفة. تساءلت وهي سعيدة ومنفعلة كيف حدث أن هذا العملاق الأشعر، القوي كدبّ وعلى براءة راهب مبتدئ استطاع أن يبقى في بطنها، وزيادة على ذلك برفقة آخر.

في الأيام التالية ارتفعت حرارة أماندا. وأصيب جيم بالرعب، فأخذ يسهر عليها باستمرار ويعطيها السلفاميدات. ولم تستطع كلارا، وكانت أيضاً تعنى بها، إلّا أن تلاحظ أن نيكولاس كان يسأل متحفّظاً عن أخبارها دون أن تند عنه أية رغبة في زيارتها، بينما كان جيم يحبس نفسه معها، ويعيرها من كتبه المفضّلة، وكان على هيئة ملهم، يقول أشياء مختلطة، وكان يدوّم في البيت، كما لم يفعل بتاتاً من قبل، حتى وصل به الأمر إلى نسيان اجتماع الاشتراكيين يوم الخميس.

وهكذا حالت أماندا جزءاً من العائلة بعض الوقت وحضر ميجوليتو، في ظروف خاصة جداً، وقد اختبأ في الخزانة، وشهد ميلاد آلبا عند آل ترويبا، ولم ينسى يوماً فيما بعد مشهد الوليد العظيم والفظيع وهو يأتي العالم في نخامته الدامية، بين صراخ أمه وضجّة النساء المنهمكات حولها.

في ذلك الوقت، سافر إيستيبان ترويبا في رحلة إلى أمريكا الشمالية. حين بات لايطيق آلام عظامه، وهذا الوجع الخفيّ الذي كان وحده يحس به، اتخذ قراراً بأن يذهب كي يفحصه أطبّاء أجانب، لأنه وصل إلى إستنتاج متسرع بأن الممارسين اللاتينيين الأمريكيين ليسوا سوى دجّالين، أقرب إلى الساحر البلديّ منهم إلى العالم الحقيقي. كان تقاصره دقيقاً، وبطيئاً، وماكراً

حتى أن أحداً لم ينتبه إليه. لقد اضطر إلى أن يشتري أحذية قياسها أقلّ، وأن يقصّر بناطيله وأن يستصنع طيّات لأكمام قمصانه. ويوماً، ارتدى قبّعته التي لم يلبسها طوال الصيف فلمس أنها تغطّي تماماً أذنيه، واستخلص من ذلك مرعوباً، أن نسب دماغه صغرت، وأن أفكاره نفسها ربما تقلّصت على قدر ذلك. وأخذ له الأطباء اليانيكون قياساته، وزانوه بالجملة والتفصيل، وسألوه بالإنكليزية، وزرقوه بسوائل بإبرة، وبزلوه بأخرى، وصوّروه، وقلّبوه مثل قفّاز، بل وأدخلوا له لمبة في شرجه. ووصل بهم الأمر إلى أن يستنتجوا أنه يتخيّل، وأنّه يجب أن ينتزع من رأسه أنه يتقاصر، وأنه كانت له دائماً القامة نفسها وماحدث له التأكيد أنه حلم يوماً بأن طوله متر وثمانون وأن قياس قدمه اثنتان وأربعون. وانتهى الأمر بإيستيبان تروييبا إلى أن عيل صبره ورجع إلى بلاده، وقد صمم على ألّا يعلق أهميّة على مسألة القوام، مادام عظماء التاريخ، من نابوليون إلى هتلر، كانوا قصاراً. لما وصل إلى بيته، وجد ميجيل يلعب في البستان وأماندا أكثر هزالاً، وماحول عينيها أشدّ زرقة، وقد تخلّصت من أساورها وعقودها، وجلست برفقة جيم على التراس. لم يلق أسئلة، لأنه تعوّد كثيراً على رؤية الغرباء عن العائلة يعيشون تحت سقف بيته.

الفصل الثامن

الكونت

لولا الرسائل التي تبادلتها كلارا وبيانكا لظلت هذه الفترة مطوية في ركام الذكريات القديمة التي عفا عليها الزمان. ولقد مكنت هذه المراسلة الكثيفة، الأحداث من أن تصمد وتنجو من سديم الوقائع الغامضة. ولقد استطاعت كلارا منذ الرسالة الأولى التي تلقتها من ابنتها بعد الزواج، أن تكتشف أن فراقها مع بيانكا لن يطول أمده. ومن دون أن تقول كلمة لأحد، أعدّت، بانتظارها، إحدى أفسح غرف البيت وأكثرها شمساً، ووضعت فيها السرير الملائم لكل الأنواء الذي ربّت فيه أبناءها الثلاثة.

لم تستطع بيانكا مطلقاً أن تفسّر لأمّها الأسباب التي حدت بها إلى قبول الزواج، لأنها نفسها كانت تجهلها، وحين حللت الماضي، وقد غدت امرأة ناضجة وصلت إلى نتيجة هي أن السبب الرئيسي كان الخوف الذي يمليه أبوها عليها. كانت قبل الفطام تعرف قوة غضبه اللاعقلانية، وتعودت أن تطيعه. ولقد دفعها الحمل وخبر موت بيدرو الثالث إلى القرار؛ ومنذ اللحظة التي وافقت فيها على ربط مصيرها بمصير جان دوساتييني صممت على أن الزواج لن يكتمل. همّت بأن تخترع كل أنواع الحجج كي تؤخر هذا الاقتران، متعلّلة أولاً بانحرافات المزاج الملازمة لحالتها، ثم تبحث عن سواها، وهي مقتنعة بأن أسهل عليها خداع زوج كالكونت، يلبس أحذية من جلد الجدي ويضع البرنيق

على أظافره وكان قادراً على الزواج من امرأة حبلى من سواه لاعلى معارضة فحل مثل إيستيبان تروبيبا. لقد اختارت أحد شرين بدا لها هو الأخفّ. لقد اكتشفت عقد بعض صفقة تجارية بين أبيها والكونت الفرنسي لم تقل هي فيها كلمتها. لقد أهدى تروبيبا إلى جان دوساتييني، مقابل اسم لحفيده، دوطة سائغة وأكملها بوعد الحصول على ميراث ذات يوم. وأسلمت بيانكا نفسها للمفاوضة، لكنها لم تكن مستعدة لمنح زوجها لاحبّها ولاحميميتها، لأنها ظلّت على حبها لبيدرو الثالث لاتأثراً بالعادة وإنما بأمل اللقاء به.

قضت بيانكا وزوجها وهما يتوهجان أوّل ليالي العروسين في ملحق عرسي من أحسن فندق في العاصمة ملأه تروبيبا زهراً لعله يحفز ابنته على الغفران له عن سلسلة العنف التي أرهقها بها خلال الشهور الأخيرة. ودهشت بيانكا، أنها لم تكن بحاجة لاصطناع الصداع، لأن جان دو ساتييني كان يدع دور العروس الجديد الذي يدسّ لها قبلاً في العنق وينتقي أفضل اللانغوستين كي يحشو فمها به، وينسى نسياناً أساسياً طرق مداعبات فاتن السينما الصامتة كي يصبح الأخ الذي كان لها إبّان نزهاتهما الحقلية. عندما كانا يذهبان لتناول العصرونية على العشب ومعهما آلة التصوير والكتب الفرنسية. وذهب جان إلى غرفة الحمّام حيث بقي طويلاً، حتى أنه لما رجع وجد بيانكا نصف نائمة. وظنّت أنها تحلم لما رأت زوجها أبدل بزة الاحتفال بمنامة من حرير أسود ومئزر مخمل من بومبيي ووضع شبكة شعر كي يحافظَ على تموّج شعره الذي لاعيب فيه وفاحت منه رائحة خزامى إنكليزية قوية. وماكان يبدو عليه أنه يحفزه قلق عاشق. وجلس في السرير إلى جانبها فداعب لها وجنتيها بالحركة الساخرة قليلاً نفسها التي عرفتها عنه في مناسبات أخرى، ثم همّ بأن يشرح لها، بإسبانيته المصطنعة الخالية من الراء المشدّدة، بأنه ليس على ميل خاصّ للزواج، وأنه رجل يحبّ الفنون فحسب، والآداب والطرف العلمية، وبالتالي ليست لديه أية نية في إزعاجها بمتطلبات زواجية، بمعنى أنهما يستطيعان أن يعيشا أحدهما إلى جانب الآخر لابعيداً ولالحاًّ، في انسجام طيّب، كأناس مهذبين. وعزّى هذا بيانكا فوضعت ذراعيها حول عنقه وقبلته على الوجنتين.

وهتفت قائلة: «شكراً، يا جان!».

وأجاب بتهذيب: «لاشكر على ذلك».

وحلّ كل منهما على مزاجه في السرير الكبير على طراز الإمبراطورية المزيّف، وتذكر سياق الحفلة الدقيق وخططا مشاريع لحياتهما المقبلة.

سألته بيانكا: «ألا يعنيك أن تعرف من أب ابني؟».

ـ هو أنا، أجابها جان وطبع قبلة على جبينها.

ونام كل من جهته وقد أدار ظهره. واستفاقت بيانكا، في الساعة الخامسة صباحاً، وقد اضطربت معدتها من رائحة الأزهار الحلوة التي زين بها إيستيبان تروييبا غرفة العرس. ورافقها جان دوساتيبيني إلى حمام، وسند لها جبينها فيما كانت تنحني إلى نصفين فوق المغسلة، ثم ساعدها في الإضطجاع، وأخرج الباقات إلى قرص الدرج. وبقي مستيقظاً بقية الليل يقرأ فلسفة من تأليف الماركيز دوساد في الصالون، بينما كانت بيانكا، وهي نصف نائمة، تتمتم أن الزواج من مفكر، ليس آخر المفاجآت.

في اليوم التالي، ذهبت جان إلى البنك كي يصرف شيكاً من عمه وقضى النهار كله يعدو بين مخازن المركز كي يشتري جهاز عرس له يتناسب مع مكانته الجديدة. في ذلك الوقت قررت بيانكا، وقد أعياها انتظاره في قاعة الفندق، أن تزور أمها. فلبست أحلى قبعة صباح لديها وأخذت سيارة أجرة كي تذهب إلى بيت الزاوية الكبير حيث كانت بقية العائلة تتناول غذاءها صامتة، وقد أرهقهم تأثير مخاوف العرس وسكر آخر الشجارات. وندت عن أبيها صرخة مروّع إذ رآها في غرفة الطعام.

زأر قائلاً: «ماتعملين هنا يا ابنتي؟».

تمتمت بيانكا ذاهلة: «لاشيء... جئت لأراكم».

ـ لكنها مجنونة! لاتدركين أنّ أوّل من يراك، سوف يقول أنّ زوجك ردّك في أوج شهر العسل؟ سيقولون أنه لم يجدك عذراء!

ـ كذلك كنت، يا أبي.

وكاد إيستيبان يضربها صفعة ملء وجهها، لكن جيم تدخّل في حزم

جعله يكتفي بشتمها لغبائها. لكن كلارا التي لاتتبدّل، قادت بيانكا إلى كرسي وصبت لها صحناً من السمك البارد مع صاصة زهرة الكبر. بينما استمرّ إيستيبان في شتائمه وذهب نيكولاس كي يأتي بالسيارة كي يعيدها لزوجها، كانت الاثنتان تثرثران كما في الماضي الحلو.

بعد الظهر نفسه، استقلت بيانكا وجان القطار الذي أوصلهما إلى المرفأ. وهناك ركبا عابر اتلانتيكي. كان يلبس بنطال كتان أبيض وبليزاً أزرق ذا تفصيل بحري، يتناسب تناسباً كاملاً مع خراطة زوجته الزرقاء وسترة التايّور البيضاء. وبعد أربعة أيّام، أنزلهما المركب في أقصى مقاطعة في الشمال، حيث لم يعر أحد انتباهاً إلى ثياب سفرهما الأنيقة ومتاعهما من جلد التمساح، في جو ساعة القيلولة الخانق القائظ الجافّ. وجعل جان دوساتيبيني زوجته تقيم مؤقتاً في الفندق وأخذ يبحث عن سكن يليق بدخله الجديد. وخلال أربع وعشرين ساعة علم المجتمع الريفي الصغير أنه يضم في عداده كونتاً حقيقياً. وهذا ما يسر الأشياء تيسيراً عظيماً لجان واستطاع أن يستأجر بيتاً قديماً جداً كان يملكه أحد كبار الأثرياء في أيام البارود الأبيض يوم ماكانوا قد اخترعوا ذلك المركّب البديل الذي أنهك المنطقة بأسرها. كان البيت كئيباً، يكاد يكون متروكاً للإهمال، ككل شيء في تلك الزاوية، وكان بحاجة لبعض إصلاح، لكنه مازال محافظاً على وقار الماضي الذي لم يمسّ وسحر آخر القرن. وزيّنه الكونت حسب ذوقه فأسرف في ترفٍ ملتبسٍ متخلّف أدهش بيانكا، التي تعودت الحياة الريفية وبساطة أبيها الكلاسيكية. ورتّب جان فازات خزف صينية مزعومة لاتحوي زهوراً، وإنما ريش نعام مصبوغ، وسجف دمشقية مزيّنة بالجوخ والشرابات، وأرائك ذات هدب وخمائل، وأثاث من كل الطرز، ومصبّعات مذهّبة، وحواجز، ولمبات لاتصدق على قوائم تعلو تماثيل سيراميك تمثّل عبيداً حبشيين بالطول الطبيعي، أنصاف عراة يلبسون البابوج والعمّة. وكان البيت يحتفظ دائماً بالستائر مشدودة على ظلام ضعيف يتوصل إلى ردّ أشعة الصحراء المحرقة، وأقام جان في الزوايا مجامر شرقية تحترق فيها أعشاب عطرية وعيدان بخور كانت في البدء تقلب معدة بيانكا، لكنها تعوّدت عليها

أخيراً. واستأجر بعض الهنود خدماً، وامرأة عملاقة عيّنها للمطبخ، علّمها إعداد الصاصات الحريفة على مزاجه، وخادمة مغناجاً عرجاء وأمية. كي تهتم ببيانكا. وجعلهم يلبسون جميعاً ثياب أو بيريت فاقعة، لكنه لم يستطع أن يملي عليهم احتذاء الأحذية، لأنهم تعودوا المشي حفاة فما يطيقونها. وكانت بيانكا تحسّ بالإنزعاج في هذا البيت، ولاتثق أبداً بأولئك الهنود الهادئين الذين يخدمونها بهيئة متعجرفة ويبدو أنهم يسخرون منها من وراء ظهرها. كانوا يدورون حولها كالأشباح ويندسون دون صوت من غرفة إلى أخرى، وهم دائماً دون عمل، يرزحون تحت الملل. كانت إذا كلمتهم لايجيبون، كأنهم لم يفهموا الإسبانية، ويتصلون بعض ببعض تمتمة، أو بلهجات الهضاب العليا. وكلما ذكرت بيانكا مع زوجها هذه الغرابات التي تلاحظها عند الخدم، كان يقول لها أن تلك ليست سوى عادات هنود وأنها يجب ألّا تهتم بها. وأجابتها كلارا بالشيء نفسه برسالة حين روت لها أنها شاهدت يوماً أحد الهنود يحاول أن يحافظ على توازنه على كوثرن[1] غريب، كعبه ثنائي، مربوط بالمخمل، وكان رسغا الرجل الجاثئين منطويين: فكتبت لها كلارا كي تمازحها قائلة: «إن حرارة الصحراء، الحبل ورغبتك المكتومة بأن تعيشي مثل كونتيسة، في سلالة زوجك، تجعلك تشاهدين رؤى، يا ابنتي الصغيرة». وأضافت أن أفضل علاج ضد أحذية لويس الخامس عشر هو حمام بارد يتممه منقوع البابونج. وفي مرّة أخرى اكتشفت بيانكا في صحنها عظاية صغيرة ميتة كادت تضعها في فمها. وما أن تماسكت من خوفها، واستعادت القدرة على الكلام حتى استدعت الطباخة بصياح عظيم وأرتها الصحن باصبع راجفة. واقتربت الخادمة، وهي تتأرجح بكومة شحمها وضفائرها السود، ورفعت الصحن. لكن بيانكا، خالت في اللحظة التي التفتت فيها، أنها تلمح غمزة تواطؤ بين زوجها والهندية. تلك الليلة بقيت ساهرة حتى ساعة متأخرة، تفكّر بما لاحظت، لكنها، عند الفجر، توصلت إلى نتيجة، أنّها تخيلت كل شيء. كانت أمها على حق: الحرارة والحمل جعلاها تفقد التوازن.

---

١ ـ خف للمسرح.

خصصت أبعد غرفة البيت لهواية التصوير التي يتابعها جان. وأقام فيها لمباته، والمناصب، والآلات. ورجا بيانكا ألا تدخل أبداً دون إذن فيما عمده «مخبراً» لأن اللوحات، كما فسّر، يمكن أن يغشّيها ضوء الشمس. وأغلق الباب بمفتاح يحمله معه، معلقاً بسليسلة ذهب، وهذا احتياط زائد عن اللزوم، لأن زوجته لم تكن تعير عملياً أي اهتمام لما يحيط بها وأقلّ منه لفنّ التصوير.

وبالقدر الذي كانت تتكوّر فيه بيانكا، كانت تكتسب هدوءاً شرقيّاً تتحطم عليه كل محاولات زوجها لدمجها بالمجتمع، من أخذها إلى الحفلات، والنزهة بالسيارة أو أن يجعلها تنشغل بتزيين بيتها الجديد. كانت بيانكا ثقيلة وخرقاء، وحيدة، ومتعبة بصورة دائمة فلجأت إلى التطريز والحياكة. كانت تقضي جزءاً كبيراً من النهار نائمة، وخلال ساعات يقظتها، كانت تصنع قطعاً صغيرة من صرّة ثياب ورديّة، وهي مقتنعة بأنها سوف تلد بنتاً. وفعلت كما كانت تفعل أمّها من قبل فأنشأت طريقة اتصال مع الطفل الذي تحمل وانكفأت على نفسها في حوار أخرس يدوم كل لحظاتها. كانت تصف في رسائلها حياتها الكئيبة المنعزلة وتلمّح إلى زوجها بمودة غير مختلطة، على أنه رجل مجامل، رزين، ممتلئ لياقة. وهكذا وثقت، دون إرادة منها، بالرواية القائلة إن جان دوساتييني هو أمير، دون أن تذكر واقعة أنه يتنشق الكوكايين من أنفه ويدخّن الأفيون بعد كل ظهر، لأنها واثقة أن أهلها لايفهمون عن ذلك شيئاً. وكانت تتصرّف وحدها بجناح من المسكن. أدخلت إليه أشياءها وكدّست كل ماكانت منصرفة إلى إعداده لقدوم بنتها إلى العالم. وكان جان يقول إن خمسين طفلاً لايستطيعون لبس كل هذه الثياب ولا أن يلهوا بمثل هذه الكمية من الألعاب، لكن سلوى بيانكا الوحيدة كانت الخروج كي تقوم بدورة على تجار المدينة النادرين فتختطف من عندهم كل ما استطاعت إيجاده من أشياء طفلية ذات لونٍ وردي. كانت أيامها تنقضي في كفّ الأقمطة، وحياكة أحذية صغيرة من الصوف، وتزيين السلال، وتنضيد أكداس الصديريات، والفرش، كيّ الأقمشة الموشّاة. بعد القيلولة، كانت تكتب لأمها، وأحياناً لأخيها جيم، حتى إذا غربت الشمس، وبرد الجوّ قليلاً، راحت تتنزه في الجوار لتنشط ساقيها.

وعند المساء، تلتقي بزوجها في قاعة الطعام الكبرى في البيت، حيث عبيد السيراميك، الواقفون في الزاوية، يضيئون المشهد بنورهم نور بيت سرّي. كان يأخذ كل منهما مكانه على طرف مائدة مفروشة بسماط نازل وأواني كريستال، ومجموعة صحاف تامة ومزينة بأزهار اصطناعية، لأن الطبيعة لاتعيش في هذه المنطقة القاحلة. كان الهندي الهادئ الصامت نفسه يخدمهما، وهو يدور وفي فمه بكرة أوراق الكوكا الخضراء لم يكن خادماً عاديّاً ولايقوم بأي عمل نوعي في خطة العمل في البيت. وماكانت الخدمة على المائدة من اختصاصه فما كان يعرف جيداً كيف يتعامل مع الصحاف والصحون وينتهي إلى أن يرمي لهما الزاد كيف جاء يجيء. ولقد رأت بيانكا نفسها يوماً، مجبرة أن تريه إذا كان يحب ألا يمسك البطاطا بيديه كي يضعها بالصحن. لكن جان دوساتيبيني، لسبب خفيّ، كان يقدّره ويجتهد في تعليمه حتى يصبح مساعده في المخبر.

ولما علمت بيانكا بالأمر لاحظت قائلة: «مادام غير قادر على التعبير كمسيحي طيب، لأرى كيف يعرف سحب الصور».

هذا الهندي كان هو نفسه الذي خالت بيانكا أنها رأته يحتذي كعباً عالياً طراز لويس الخامس عشر.

ومرت الشهور الأولى من حياتها الزوجية في سلام وملل. وتفاقم ميل بيانكا الطبيعي إلى الانطواء والعزلة. وانكفأت عن الحياة الاجتماعية حتى أن الأمر آل بجان دوساتيبيني إلى الذهاب وحده للدعوات التي يتلقّاها. حتى إذا رجع إلى البيت، تهكّم أمام بيانكا من سخافات هذه العائلات القديمة، البالية، التي يخرج آنساتها برفقة وصيفة ويلبس السادة الكتفية[1]. واستطاعت بيانكا أن تعيش حياة الكسل تلك التي كانت ميّالة لها، بينما كرس زوجها نفسه إلى المسرّات الصغيرة التي يستطيع المال وحده أن يحبوه بها والتي حرم منها زمناً طويلاً على مايبدو. كان يخرج كل مساء كي يقامر في الكازينو وحسبت

١ - رداء يلبس فوق الكتفين وينزل إلى الظهر والصدر.

زوجته أنه يخسر كميات هامة، لأن رتلاً لايتغير من الدائنين كان ينتظر في الباب آخر كل شهر. وكان لدى جان مفهومٌ خاصٌ جدّاً عن الاقتصاد البيتي. واشترى سيّارة آخر نموذج، مقاعدها مبطنة بجلد الفهد وقطع غيارها مصفحة بالذهب أهل بأمير عربي، أكبر وأغلى ممّا شوهد في الأنحاء. ونمّى شبكة اتصالات خفيّة مكنته من أن يصبح مالك آثار، وبخاصة الخزف الفرنسي من الطراز الباروقي، الذي كان يحسّ بضعف نحوه. واهتم أيضاً بإدخال صناديق من المشروبات الجيّدة، كان يجعلها تتخطى الحدود دون مشكلة. كان إنتاج تهريبه يدخل إلى بيته من باب الخدمة ويخرج وهو لم يمسّ من الباب الرئيس، إلى أماكن أخرى يشربها فيها جان في حفلات مجون سريّة، إذا لم يصرفها بأسعار باهظة. وفي البيت كانوا لايقبلون الزيارات، فاعرضت نساء المنطقة، بعد عدة أسابيع، عن الاتصال ببيانكا. وسرت الإشاعة أنها مغرورة، متعجرفة، سيئة الصحة، وهذا مازاد بالودّ عامّة تجاه الكونت الفرنسي وأصبحت له سمعة زوج لامبال وصبور.

وكانت بيانكا متفاهمة جيّداً مع زوجها. ولاتقوم بينهما مناقشات إلا إذا أرادت أن تشارك في دراسة مالية العائلة. فما كانت تستطيع أن تفسّر كيف يجيز لنفسه ترف شراء الخزف وركب تلك المركبة النمرية دون أن يكون معه من المال مايسدد فاتورة العطار الصيني وأجور الخدم العديدين. وكان جان يرفض الحديث متذرعاً بأن تلك مسؤوليات الرجال البحتة وأنها ليست بحاجة لإرباك رأسها الصغير الطائش بمشاكل لاتستطيع فهمها. وافترضت بيانكا أن هامش الحساب المفتوح لجان دوساتييني لدى إيستيبان تروييبا هو غير محدود وحين رأت استحالة التفاهم معه حول ذلك آل بها الأمر إلى عدم الاهتمام بهذه القضايا. كانت تحيا كزهرة في غير مناخها، حبيسة ذلك البيت الذي طوقته الرمال، يحيط بها هنود غريبون، كأنهم يعيشون على كوكب آخر، تفاجئهم غالباً بعض التفاصيل الدقيقة، فيتبادر لهم الشك برجاحة حسها. كان الواقع يبدو لها مختلطاً، كأن هذه الشمس القاسية التي تمحو الألوان، شوهت حولها الأشياء، وحوّلتها الكائنات إلى أشباح كلها ألغاز.

ولقد نسيت بيانكا مدى مصيبتها في حذر تلك الشهور القليلة وفي حماية الطفل الذي ينمو في أحشائها. وانقطعت عن التفكير في بيدرو الثالث جارسيا بهوس الماضي الذي لايقهر وانطوت على ذكريات حلوة شاحبة تستطيع استحضارها في أية لحظة. كانت شهوتها نائمة، وفي المرّات النادرة التي أحسّت فيها أنها تتأمل مصيرها التاعس، كان يغريها أن تتخيل نفسها تطفو مثل سديم، بلا فرح ولاشقاء، بعيداً عن قسوة الحياة، منسيّة وابنتها رفيقتها الوحيدة. لقد وصلت إلى أن تعتقد بأنها فقدت دائماً طاقة الحب وأن اضطرام جسدها انطفأ نهائياً. كانت تقضي ساعات لاحدّ لها تتأمل المنظر الباهت الذي يمتد أمام نافذتها. كان البيت مبنياً على حافة المدينة، تحيط به بعض الأشجار الكسيحة، التي تقاوم هجمات الصحراء التي لاترحم. من ناحية الشمال، كان الهواء يخرّب كل أشكال الزراعة وكان بوسع المرء أن يعانق نظره امتداداً هائلاً من الكثبان والآكام البعيدة المرتجفة في انعكاس نور الشمس. في النهار كان جوّ هذا الكوكب الرصاصي الخانق يرهقها، وفي الليل كانت ترتجف برداً بين الأغطية، وتتقي الصقيع بسخّانات وشالات صوفية. كانت تسبر السماء الصافية والعارية بحثاً عن شكٍّ في غيمة أملاً في أن يأتي يومٌ تسقط فيه قطرة مطر ترطب قسوة ذلك الوادي القمري الخانقة. كانت الشهور تنقضي، دون تبدّل، دون تسلية غير رسائل أمّها التي تصف هذه فيها معركة أبيها الانتخابية، ونزوات نيكولاس، وغرابات جيم الذي يعيش كخوري بعيني سمكة غير مشوية عاشقة. واقترحت عليها كلارا في أحد خطاباتها أن تصنع الدمى، كي تشغل يديها. وجربت. واستحضرت من ذلك الصلصال الذي تعودت استخدامه في الماريات الثلاث، وأعدت مشغلاً في مؤخرة المطبخ وكلفت هنديين بأن يبنيا لها فرناً كي تطبخ فيه تماثيل الخزف. لكنّ جان دوساتييني كان يسخر من احترافها الفنّي، قائلاً، إذا كان الأمر يتعلّق بإشغال اليدين فأفضل لها أن تحوك جوارباً وأن تتعلم صنع الحلوى بعجينة مورّقة. وأخيراً أهملت عملها، وأقل سبب سخر زوجها وأكثره أنه اتضح لها أنها غير قادرة على أن تباري خزافة الهنود القديمة.

ولقد سخّر جان في تنظيم مشروعه الهمة نفسها إبّان عملية الشنشيلات، لكن بنجاح أكبر هذه المرّة. وما اهتم بتلك الآثار سواه، غير راهب ألماني كان يجوب المنطقة منذ ثلاثين عاماً كي ينبش ماضي الأنكا، لأنها كانت تقدّر على أنها عطل عن كل قيمة تجارية. ولقد منعت الحكومة تجارة العاديات البلدية ومنحت امتيازاً عامّاً للخوري، الذي فوّض بالإستيلاء عليها وحملها إلى المتحف. واكتشفها جان للمرّة الأولى في واجهات ذلك المتحف الغبراء. وقضى يومين بصحبة الألماني، الذي أسعده أن يلتقي بعد كل تلك السنين بمن يهتم بعمله، وأسرع بعرض معلوماته الواسعة. وهكذا تعلّم الكونت الطريقة التي يمكن فيها قياس الزمن الذي بقيت فيه مطمورة، وعرف كيف يفرّق الحقب والطراز، واكتشاف طريقة تحديد مكان المقابر في الصحراء بفضل إشارات لاتراها العين المتحضّرة، واستنتج في النهاية أن قطع هذه الفخّاريات إذا لم يكن لها بريق القبور المصرية الثمين، فإنها لاتقلّ قيمة تاريخية. وما أن تمّ له الحصول على المعلومات التي كان بحاجة إليها، حتى أعدّ زمره الهنديّة للذهاب ونبش كل مافات حماس الخوري الآثاري.

ومالبث أن توافد الخزف الذي خضّره زنجار الزمن، وقد أخفوه في الصرر الهندية وقفف اللامات[1]، كي تملأ سريعاً المخابئ السريّة المعدة لاستقبالها. وكانت بيانكا تراها تتكدّس في الغرف، فيسحرها الإعجاب بأشكالها. كانت تأخذها بيديها، فتداعبها، وكأنها منوّمة بها، حتى إذا جاء موعد لفّها بالقش والورق لإرسالها إلى أهداف بعيدة ومجهولة، كابدت حزناً عميقاً. كانت تبدو لها هذه الخزفيّات على جمال لايضارع. وشعرت أن سقفاً واحداً لايمكن له، إذا كان لبقاً، أن يؤوي مسوخ مغاراتها الصغار، وكان هذا، قبل أي شيء آخر، هو السبب الذي من أجله تركت مشغلها.

كانت تجارة الخزفيات الأهلية سرّية، تهتمّ بالميراث التاريخي للأمّة، وكانت تعمل لحساب جان عدة زمر من الهنود وصلت مندسّة خفية عبر متاهة

---

١ - رجل دين بوذي.

الممرّات الحدودية. كانوا دون أوراق تشهد أنهم كائنات بشرية، صامتين، متوحشين، عصيّين على الفهم. وكل مرّة تحرّت فيها بيانكا كي تعلم من أين تخرج هذه الكائنات التي تنبثق فجأة في الباحة، كانت تجاب بأنهم من أبناء عم الذي يخدم على المائدة، والحق، أنهم يتشابهون جميعاً، كانوا، في غالب الوقت، في الصحراء، دون أية عدة، غير رفش لحفر الرمل، وكرة كوكا في الفم، كي يظلّوا أحياء. كان الحظ يسعفهم أحياناً بالوقوع على خرائب قرية أنكا نصف منطمرة فيملؤون بوقت زهيد أقبية البيت بغنيمة حفريّاتهم. كان التنقيب، وتسيير، وعرض هذه البضاعة التجاري، يتم في حذر أنيق حتى أن بيانكا لم تشك بوجود أي احتيال في نشاطات زوجها. وشرح لها جان أن الحكومة حسّاسة جدّاً في شأن تلك الجرار القذرة وهذه العقود البائسة من حصا الصحراء الصغيرة، وأنه تجنباً لمعاملات البيروقراطية الأبدية الرسمية، يفضل الإتجار على طريقته. كان يخرجها من البلاد في صناديق مختومة تحمل سمة «تفاح»، معتمداً على مشاركة بعض مفوضي الجمارك النفعيّة.

لم تهتم بيانكا بأي أمر من كل هذا. فالشيء الوحيد الذي كان يشغلها من كل هذه المسائل هو الموميات. لأنها ألفت الموتى، فقد قضت حياتها باتصال متين معهم عن طريق المائدة التي كانت أمها تستحضرهم من حولها. تعوّدت على رؤية أشكالهم الشفافة تتسكع على طول ممرات بيت أهلها، وهُمْ يثيرون الضجة في خزائن الثياب ويظهرون في الأحلام كي يتنبؤوا بالمصائب وجوائز اليانصيب الكبرى. لكن الموميات مختلفة جدّاً. تلك الكائنات المتغضّنة، المقمّطة بخرق تنحلّ في نسالات تتفتّت، برؤوسها الناحلة المصفرّة، وأيديها المتجعدّة. وجفونها المخيطة، وشعورها المبعثرة على النقرة، وابتساماتها الخالدة المرعبة دون شفاه، ورائحتها النتنة، وهيئة الأوباش الكئيبة للجثث القديمة، كانت تثيرها من أعماقها. وكانت لاتشاهد كل يوم. كان يأتي بإحداها الهنود بين فترات متباعدة. ويأتون البيت، بطيئين ثقالاً، وهم يحملون فازاً من طين مشوي محكم الإغلاق. كان يفتحها جان بعناية في غرفة أغلقت كلّ أبوابها ونوافذها، حتى لاتحيلها رماداً أول هبّة هواء. وكانت تظهر في

داخل الفاز المومياء مثل بذرة فاكهة غريبة، تجمّعت في وضع جنينيّ، وتدثرت بأسمالها، برفقة كنوز بائسة من عقود أسنان وعيبات من خرق. كانت تلاقي تقديراً أكثر، بما لايقاس من الأشياء الأخرى التي تستخرج من القبور، لأن هواة المجموعات الخواص وبعض المتاحف الأجنبية تدفع من أجلها غالياً. وكانت بيانكا تتساءل أي نوع من الناس أولئك الذين يهوون جمع الموتى، وأين بوسعهم أن يدسّوها. كانت لاتستطيع أن تتخيل المومياء عنصر تزيين في صالون ما، لكن جان دوساتييني كان يعرض لها بأنها حين توضع كما ينبغي في جرّة من بلّور، تغدو في عين صاحب الملايين الأوربي أغلى سعراً من أي عمل فنيّ آخر. ولم تكن الموميات سهلة التصريف، أو النقل أو المرور من الجمارك، حتى أنها كانت تبقى عدة أسابيع في أقبية البيت، تنتظر دورها للقيام برحلة طويلة إلى الإغتراب. كانت بيانكا تحلم بها، وتنتابها الهلوسات، وتظن أنها تراها تخطو على رؤوس أصابعها على طول الممرات وقد تقوقعت كعفريت خفيّ وماكر. كانت تمترس باب غرفتها، وتدفن رأسها تحت الأغطية وتقضي ساعات ترتجف، وتصلّي، وتدعو أمها بكل قواها في فكرها. وأعلمت بذلك كلارا في رسائلها وكانت هذه تجيبها بأنها يجب ألّا تخشى الموتى، بل الأحياء، لأنهم بالرغم من سمعتهم المؤسفة، لم تر يوماً موميات تسيء إلى أحد ما؛ وهي، على العكس، من طبيعة خجول. وأخذت بيانكا، وقد شجعتها نصائح أمّها تتلصّص عليها. كانت تنتظرها صامتة تترصّدها من باب غرفتها المشقوق. وبعد لأي أيقنت أنّها تتنزه عبر البيت، تجر سيقانها الطفولية على البسط تثرثر كالتلميذات، يدفع بعضها بعضاً، تقضي كل الليالي مجموعات صغيرة من اثنتين أو ثلاثة، دائماً في اتجاه مخبر تصوير جان دوساتييني. كانت تعتقد أحياناً أنها تسمع تنهدات بعيدة مما وراء القبر فتستولي عليها ثورات رعب لاتقهر، وكانت تدعو زوجها بصيحات عظيمة، لكن أحداً ما كان يهرع إليها وكان خوفها أكبر من أن تقطع كل البيت كي تجده. وكانت بيانكا مع ظهور أوّل أشعة الشمس تستعيد إدراكها وسيادتها على أعصابها المتعبة، وتتبيّن أن قلقها الليلي ليس سوى ثمرة خيالها المحموم الذي ورثته عن أمّها وتهدّئ نفسها حتى حلول

أشباح الليل ويعاود الرعب سيرته. وذات يوم، لم تستطع احتمال الغمّ الذي تكابده عند اقتراب اليل وصممت على أن تكلم جان في أمر المومياءات. كانا آنئذ يتناولان العشاء. وعندما روت له عن الرواح والغدوّ، والتمتمات، والصياح المخنوق، أصيب جان دوساتييني بالذهول، وشوكته في يده، وفمه فاغر. وتعثّر الهندي، الذي كان داخلاً إلى قاعة الطعام، حاملاً صينية، وتدحرج الفروج المشوي تحت كرسيّ. وعرض جان كل سحره، وسلطته ومنطق إقناعه بأن أعصابها تلعب بها، وأن شيئاً من هذا لايحدث في الواقع، وأن الأمر لايعدو هذيان روحها السريعة الانفعال. وأظهرت بيانكا أنها تؤيد تعليلاته، لكنها لم تجد بتاتاً من قبل شيئاً يدعو للشك مثل صورة زوجها الذي لم يكن يعبر عادة عن أي اهتمام بمشاكلها، وسيماء الخادم الذي ضيّع، مرّة واحدة تعبير الصنم الثابت ولو أن عينيه جحظتا قليلاً. تلك اللحظة قرّرت في نفسها أن الساعة حانت للتحقيق بعمق بمسألة المومياءات الراحلات. ذلك المساء انسحبت باكراً، بعد أن قالت لزوجها أنها سوف تأخذ مهدئاً كي تنام. وعلى العكس، شربت فنجان قهوة سوداء كبيراً، وتمركزت جيداً وراء الباب، وهي على استعداد لأن تبقى إذا اقتضى الأمر ساعات تتربّص.

عند منتصف الليل لاحظت الخطى الصغيرة الأولى. شقت الباب بحيطة شديدة وأخرجت رأسها في اللحظة الدقيقة التي كانت تختفي فيها صورة دقيقة، متقوقعة على نفسها في طرف الرواق. هذه المرّة، كانت على يقين أنها لاتحلم، لكنها، لثقل بطنها، لم تصل إلى الفيراندا إلّا بعد مضيّ أكثر من دقيقة. كان الليل نديّاً ومن الصحراء يهبّ نسيم قويّ، يجعل زخارف البيت القديمة تطقطق وينفخ السجف وكأنها أشرعة سوداء في بحر عالٍ. كانت منذ طفولتها، في الزمن الذي كانت تستمع فيه في المطبخ إلى حكايات النونو عن العفريت، وهي تخاف الكلام، لكنها لم تجرؤ على إشعال النور خشية أن تخيف المومياءات الصغيرة في تجوالها الضال.

وفجأة حطّم صمت الليل الكثيف صرخة جشّاء، صمّاء، كأنها آتية من قلب تابوت، أو على الأقلّ هو ماتصورته بيانكا. وبدأت ترزح تحت سحر أشياء

مابعد القبر المرضيّ. وتسمّرت، والقلب يضرب حتى يكاد ينفطر، لكن تأوّهاً ثانياً جعلها تنزل إلى الأرض، ومنحها قوة التقدم حتّى باب مخبر جان دوساتييني. وحاولت أن تفتحه، لكن الغرفة كانت مغلقة بالمفتاح. ألصقت أذنها بالباب وتبينت الهمس واضحاً، وصراخاً مخنوقاً وضحكاً، وانقشعت كل ظنونها: كان شيء ما يحدث مع الموميات. ورجعت إلى غرفتها، وقد أراحها اعتقادها أن أعصابها لم تكن تلعب بها، وإنما أحداث شنيعة كانت تتم في عرين زوجها السرّي.

في اليوم الثاني، انتظرت بيانكا حتى انتهى جان دوساتييني من زينته الحميمية الدقيقة، وأفطر ببساطته العادية، وقرأ جريدته حتى آخر صفحة وخرج أخيراً في نزهته الصباحية اليومية، دون أن يدع برود الأم المقبلة الهادئ ما ينمّ عن قرارها المتوحش. عندما خرج جان، نادت الهندي ذا الكعب العالي، وأعطته أمراً للمرّة الأولى. طلبت إليه بجفاء قائلة:

- إذهب إلى المدينة واشتري لي عنباً هنديّاً محفوظاً.

وخرج الهندي وهو يكردح ببطء عرقه وبقيت هي في البيت مع بقية الخدم الذين كان خوفها منهم أقل من ذلك البلديّ الغريب ذي الانحناءات البلاطية. قالت في نفسها إن أمامها ساعتين قبل أن يعود، حتى لقد اختارت ألّا تسرع وأن تعمل باتّزان. كانت عازمة على أن تكشف سرّ الموميات الجوّالات. اتجهت إلى المخبر، موقنة أن الموميات لن تجرؤ في نور الصباح أن تلعب دور المهرّجين، وقدّرت أن الباب لن يكون مغلقاً، غير أنها وجدته، ملغياً، كما هو دائما. وجرّبت حزمة مفاتيحها، لكن عبثاً. عندها أخذت من المطبخ أكبر سكين، وأدخلت النصل تحت مفصلة الباب واجتهدت في أن تكسرها، فانتزعت من الإطار شظايا الخشب الجاف وتوصلت إلى تحرير الحديد وفتح الباب. كان التلف الذي أصاب الباب لايمكن إخفاؤه؛ وعليها إذن أن تقدم، عندما يكتشفه زوجها، بعض التفسير المعقول، لكنها هدأت وهي تقول في نفسها أنها على كل حال سيدة البيت، ولها الحق في أن تعرف مايحاك تحت سقفه. وبالرغم من عقلها البسيط الذي عرف، خلال عشرين سنة كيف يقاوم

دون انفعال رقص المائدة ومنظر أمّها وهي تتنبأ بما لايتوقّع، فقد اصطكّت أسنانها وهي تتجاوز عتبة الباب.

وبحثت باللمس عن قاطع التيار وأنارت. وجدت نفسها في غرفة واسعة جدرانها مطلية بالأسود ونوافذها مموهة بسجف ضخمة باللون نفسه، لاينفذ منها أدنى شعاع نور. وقد غطيت الأرض بسجاجيد سميكة غامقة واكتشفت في كل الجهات، منيرات[1] ومسلاطات[2]، وعاكسات كانت قد رأت جان يستخدمها للمرّة الأولى في جنازة بيدرو جارسيا الكبير، لما أخذ يسحب صوراً للأحياء وللموتى، جاعلاً كل الناس على جمر، إلى درجة حدت بالفلاّحين إلى دعس مسوّداته. ونظرت حولها حائرة: كانت وسط زينة مسرحية خرافيّة. وتقدّمت، فدارت حول الصناديق الفاغرة التي تخفي ثياباً مزينة بالريش من كل العصور، وبروكات جعداء، وقبّعات شاذّة، ووقفت أمام أرجوحة بهلوان مذهّبة مثبتة بالسقف، وقد علّق عليها دمية مفككة الأوصال بنسب جسم الإنسان، ورأت في زاوية لاما معطّراً، وعلى الطاولات شرابات عنبريّة، وانتشرت على الأرض جلود حيوانات غريبة. لكن الذي أدهشها، هي الصور. لدى رؤيتها تسمّرت، ذاهلة. كانت جدران مكتب جان دوساتييني مزينة بمشاهد إباحية مؤلمة تكشف عن طبيعة زوجها الخبيثة.

كان ردّ الفعل بطيئاً عند بيانكا وقد احتاجت إلى فترة طويلة حتى تدرك ما رأته، لأنها كانت تنقصها التجربة في هذا النوع من المسائل. كانت تعرف أن المتعة هل المرحلة الأخيرة والثمينة من سفر طويل قطعته مع بيدرو الثالث، مرحلة تجاوزتها دون استعجال، وهي رائقة المزاج، في مسرح غابة وقمح قرب النهر، تحت رحب السماء، وفي صمت البريّة. لم تدع نفسها تصيبها الهموم الملازمة للبلوغ. وفيما كانت رفيقاتها في الكلية يقرأن سرياً الروايات الممنوعة المطعمة بعشاق خياليين هائمين وأبكار نهمات إلى ألّا يكنّ كذلك، كانت

---

١ ـ البروجيكتور.

٢ ـ السبوط.

تجلس في ظل أشجار الخوخ في بستان الراهبات، فتغلق عينيها، وتذكر في دقة لاخطأ فيها تلك الحقيقة الرائعة، لما كان يحبسها بيدرو الثالث بين ذراعيه، ويكتشفها بمداعباته وينتزع من أعمق أعماقها ألحاناً شبيهة لتلك التي يصل إلى بثها من قيثارته. لقد رأت غرائزها نفسها، منذ أن استفاقت، راضية، لم يداخلها يوماً أن الهوى يستطيع أن يتلفّح بصور أخرى. إن مشاهد الخسّة الفادحة هي كشف يحيّر أكثر ألف مرّة من المومياءات الصاخبة التي توقّعت أن تكتشفها.

لقد حدّدت هيئة خدم البيت. كان هناك كل بلاط الأنكا، عراة كما خلقهم الله في العالم، أو حزّموا في ثياب مسرح. اكتشفت الهوة التي لاتسبر بين ساقي الطبّاخة، واللاما المعطّر وهو يركب الخادمة العرجاء، والهندي الرصين وهو يخدمها على الطاولة عارياً كوليد، وهو أمرد قصير على أربع، بسيماء حجر هادئ وعضوه الضخم منتصب.

وخلال فترة من الزمن لاتنتهي، ترددت بيانكا أمام شكّها نفسه، حتى غمرها الرعب. حاولت آنئذ أن تفكّر بوضوح. فهمت ما أراد قوله جان دوساتييني خلال ليلة عرسهما، عندما شرح لها بأنه لايحس بنفسه أي ميل للحياة الزوجية. ولمحت أيضاً من أين تجيء سلطة الهندي المشؤومة، وسخريات الخدم الماكرة، وأحست فجأة أنها سجينة في غرفة انتظار الجحيم. في تلك اللحظة الدقيقة أخذت ابنتها الصغيرة تتحرك في أحشائها وارتجفت كما لو أن ناقوس الخطر أخذ يدق.

وصاحت قائلة وهي تمسك ببطنها باليدين: «ابنتي! يجب أن أخرجها من هنا!».

وتركت المخبر راكضة، وقطعت البيت مثل هبوب الريح وخرجت إلى الشارع حيث الحرارة الرصاصية وأشعة النهار التي لاترحم ردّا لها الإحساس بالوقائع. وفهمت أنها لن تسير أبعد على قدمها وبطنها في الشهر التاسع. فرجعت إلى غرفتها، وأخذت ماوجدته من دراهم، وجعلت بعض قطع جهاز ابنتها الباذخ الذي أعدّته في رزمة وخرجت إلى المحطّة.

جلست بيانكا على مقعد خشب خشن على الرصيف وانتظرت بضع

ساعات وصول القطار، وهي تصلّي بين أسنانها ألا يعود الكونت إلى البيت فيجد أن باب المخبر كسر، فيبحث عنها، ويأتي فيجدها ويجبرها على العودة إلى مملكة الأنكا الشّريرة، تصلّي كي يسرع القطار، أن يحترم ولو مرّة واحدة التوقيت حتى تستطيع الوصول إلى أهلها قبل أن يضغط الطفل أحشاءها ويضربها بقدمه على أضلاعها معلناً مجيئه إلى العالم، تصلي كي تبقي على مايكفي من القوّة لرحلة هذين اليومين دون انقطاع ولاراحة وأن تبقى قابليتها للحياة أقوى من هذا الضيق الفظيع الذي بدأ يستولي عليها. شدّت على أسنانها وانتظرت.

الفصل التاسع

ألبا الصغيرة

ولدت ألبا على قدميها، أو بتعبير آخر حسنة الحظّ. وفحصت جدّتها مابين عظمي الكتف فوجدت بقعة على صورة نجمة وذلك طابع الكائنات التي تأتي العالم وقد قدّرت لها السعادة. قالت كلارا في يومَ الولادة ختاماً للحديث عنها: «لاضرورة للقلق من أجل هذه البنية. سوف يكون حظها جميلاً وتعيش سعيدة. وفوق ذلك سيكون جلدها رائعاً، لأن هذا يورّث، وأنا في عمري، ليس فيّ جعدة ولم أصب يوماً بدمّل». ولهذا لم يهتم أحد بإعدادها للحياة، مادامت النجوم اتفقت على منحها كل حسن. كانت من برج الأسد. ودرست الجدّة طالعها وسجّلت قدرها بالحبر الأبيض في مجموعة من ورق أسود ولصقت عليه فضلاً عن ذلك بعض خصل خضراء من أوائل شعرها وبعض قلامات الأظافر التي قصّتها لها قليلاً بعد ميلادها، وبعض الكليشيهات التي تمكّن من تصوّرها كما كانت آنئذ: مخلوقاً في هزال عجيب، أصلع تقريباً، شاحبة متقلّصة، عارية عن كل دليل على الذكاء البشري ماعدا عينيها السوداوين اللتين يلمع فيهما منذ أيام السرير تعبير العجائز الذين يدركون كل شيء. عينا أبيها الحقيقي نفسهما. وودت أمّها لو تسميها كلارا، لكن جدّتها لم تتحمس لتكرار الأسماء في العائلة: ذلك يزرع الفوضى في دفاتر ملاحظاتها عن الحياة. وبحثوا عن اسم في قاموس المترادفات ووقعوا على اسمها، وهو آخر

سلسلة الألفاظ اللامعة التي تعني جميعاً الشيء نفسه. وبعد سنين كثيرة، أزعجت ألبا فكرة، أنها في اليوم الذي يكون لها فيه بنت، لن تبقى كلمة أخرى بالمعنى نفسه تأخذ مكان اسمها، غير أن بيانكا أعطتها الرأي بأن تلجأ للغات الأجنبية، التي لاتدع مجالاً للإرتباك في الانتقاء.

كادت ألبا تولد في قطار يتعرّج على خطّ ضيّق، الساعة الثالثة بعد الظهر، في وسط الصحراء. كان ذلك مشؤوماً بالنسبة لطالعها. لكنها، لسعادتها، استطاعت التشبّث بضع ساعات زيادة داخل أمّها ونجحت في المجيء إلى العالم في بيت جدّيها، في اليوم، والساعة، وأكثر الأمكنة ملاءمة ودقيقة لبرجها. فقد وصلت أمها دون إشعار إلى بيت الزاوية الكبير شعثاء الشعر، غطّاها الغبار، عيناها مطوقتان بالزرقة، وقد انحنت إلى نصفين تحت تأثير التقلّصات التي كانت تفتح بها ألبا طريق خروجها، وطرقت الباب كيائسة ومافتح لها الباب حتى اندفعت ومرت كإعصار حتى المغسلة حيث كانت كلارا تنهي آخر روب صغير أعدّته لحفيدتها المقبلة. هناك، وفي نهاية رحلتها، انهارت بيانكا دون أن تستطيع إعطاء أي تفسير، لأن بطنها ترك تنهّدة سائلة عميقة تند عنها، وأحست أن ماء العالم كله ينزل كشلال بين فخذيها في فوران عارم. واجتمع الخدم جميعهم على صياح كلارا، وكذلك جيم الذي يقضي تلك الأيام في البيت وهو يدور حول أماندا. وما أن وضعوها في السرير، وهم يشدون بحا ودي[1] على ثيابها كي يخلصوها منها، حتى أخذت ألبا تبدي إنسانيتها الصغيرة. وساعدها خالها جيم في المجيء إلى هذا العالم، فقد حضر في المشفى عدة ولادات، بأن أمسك بقوة بفخذيها باليد اليمنى وبحث بأصابع اليسرى على العمياء وبالتحسس، عن عنق الطفلة كي يخلّصها من الرباط السرّي الذي كان يخنقها. في الوقت نفسه، كانت أماندا وقد جاءت سريعاً، إذ اجتذبتها الضجة، وأخذت تضغط بكل وزنها على بطن بيانكا بينما انحنت كلارا على وجه ابنتها الموجع وهي تقرب من منخريها مصفاة شاي غطتها بقطعة من خرقة سكبت عليها بعض نقط الايتير. وولدت ألبا ولادة سهلة. ونزع عنها جيم

---

١ ـ كلمات تقال للتشجيع.

الرباط الذي كان يحيط بالعنق، ورفعها في الهواء، ورأسها إلى أسفل وبلطمتين رنانتين أطلعها على آلام الدنيا وميكانيكية التنفس، غير أن أماندا التي ألمت ببعض القراءات عن العادات الإفريقية، وكانت تدعو إلى العودة للطبيعة، أخذت الوليدة من يديها ووضعتها بحب على بطن أمها الرطب حيث وجدت العزاء عن حزن الولادة. وبقيت الأم وابنتها هكذا ترتاحان، عاريتين التصقت كل منهما بالأخرى، بينما كان الباقون ينظفون آثار الولادة وينهمكون بتحضير الأغطية النظيفة والحفاظات الأولى. لم يعر أحد انتباهه، في انفعال اللحظة، إلى باب خزانة الثياب المشقوق التي كان فيها ميجيل الصغير يتأمل المشهد، وقد شلّه الرعب، وحفر إلى الأبد في ذاكرته منظر الكرة الضخمة التي تجوبها العروق الصغيرة. ويتوجها الرباط البارز، الذي خرج منه ذلك الكائن الضارب إلى البنفسجي، المغطى بأحشاء مخيفة زرقتها جميلة.

وسجّلت ألبا بالسجل المدني وفي كتب الخورنية بكنية أبيها الفرنسي، لكنها نفسها لم تستطع يوماً أن تحمله، فكنية أمّها أسهل تهجئة عليها. ولم يوافق جدّها مطلقاً على هذه العادة المؤسفة: كما كان يقول كل مرة تواتيه الفرصة، فقد كابد عناء كبيراً كي يمنح البنية أباً حسن السمعة، له كنية محترمة، ومن أجل أن يجنبها استعمال كنية أمها، كما لو أنّ هذه كانت ابنة العار والخطيئة. ولم يسمح أيضاً بمحاولة الشكّ بشرعية أبوّة الكونت، كما ظلّ يأمل، خلافاً لكل منطق بأن يلاحظ الناس عاجلاً أم آجلاً أناقة العادات وسحر الفرنسي البارع عند هذه الطفلة الغليظة العابسة التي تخطر تحت سقفه. وامتنعت كلارا أيضاً عن أي تلميح عن المشكلة حتى اليوم الذي رأت فيه، بعد زمن طويل، هذه البنيّة تلعب بين التماثيل البتراء، وتحققت فجأة أنها لاتشبه أحداً من العائلة، وأقلّ منهم أيضاً جان دوساتييني.

سألت الجدة قائلة: «من أين لها عينا العجوز هاتان؟».

أجابت الأم شاردة: «لها عينا أبيها».

قالت كلارا: «أعتقد من بيدرو الثالث جارسيا».

وأكدت بيانكا قائلة: «بالواقع».

كانت تلك هي المرّة الوحيدة التي جرى فيها الحديث في العائلة عن نسب ألبا، لأن المسألة، كما لاحظت كلارا، مجرّدة تماماً عن الأهمية مادام، جان دوساتييني، قد اختفى على كل حال من حياتهم. فلم يعرف أحد عنه شيأً، ولا اهتم أحد بالبحث عن مصيره، حتى ولو بهدف تسوية وضع بيانكا، التي حرمت من حريّات العزوبية ولجأت إلى قيود المرأة المتزوجة، في حين كانت بلا زوج. ولم تستطع دائماً ألبا أن تتأمل الكونت في الصورة، لأن أمّها مسحت كل زوايا البيت حتى أصغرها إلى أنْ أتلفتها جميعاً، حتى تلك التي تظهرها وقد أخذت بذراعه يوم العرس. لقد قررت أن تنسى الرجل الذي تزوّجت به، وتعتبر أنه لم يوجد مطلقاً. ولم تأت في أية لحظة على ذكره، بل لم تقدّم أي تفسير عن رحيلها عن بيت الزوجيّة. أما كلارا، التي بقيت تسع سنين خرساء، فقد كانت تعرف فضائل الصمت، فلم تلق أي سؤال على ابنتها، وساهمت هي أيضاً بمحو جان دوساتييني من الذكرى. ورووا لألبا، أن أباها كان رجلاً نبيلاً ومتميزاً، نزلت به كارثة الموت بحميات صحراء الشمال. وكانت تلك من إحدى الكذبات الوحيدة التي واجهتها في طفولتها، أما فيما عدا ذلك، فقد وجدت نفسها في تماس ضيّق مع حقائق الوجود العادية. وتكفّل خالها جيم بتحطيم أسطورة الأطفال الذين يخرجون من الملفوف أو الذين جاءت بهم اللقالق من باريس وخالها نيكولا أسطورة الملوك البوذيين، والجنيات والعفاريت. وكانت ألبا تحلم بكوابيس يتمثل لها فيها موت أبيها. كانت ترى في المنام رجلاً فتياً وجميلاً، لابساً أبيض يحمل إيلنطس[1] ويلبس قبعة من قش، يسير عبر الصحراء تحت الشمس. في حلمها، كان الرجل يبطئ خطوه، يترنّح، يتقدّم وسرعته تقلّ رويداً رويداً، ويتعثر ثم يسقط، وينهض كي يقع من جديد. تضنيه الحرارة، والحمّى والظمأ. يتقدّم أيضاً وهو يجرّ نفسه على ركبتيه فوق الرمال الحارقة، لكنه ينتهي إلى البقاء ممدّداً بين رحب تلك الكثبان الشاحبة، ومع دوائر الكواسر الطائرة فوق جسده الهامد. لقد حلمت به مرّات ومرّات حتى لقد عجبت، بعد سنوات عديدة، حين وجب عليها أن تذهب

---

١ ـ شجرة للتزيين.

كي تتعرّف على جثة الذي كانت تظن أنه أبوها في مستودع البلدية للجثث بلا هوية. كانت إلبا يومئذ فتاة باسلة شجاعة الطبع، تعودت المحن، حتى لقد ذهبت إلى هناك وحدها. واستقبلها مساعد برداء أبيض أخذها عبر ممرات البناء القديمة الطويلة، حتى القاعة الفسيحة المتجلّدة ذات الجدران المطلية بالرماديّ. وفتح الرجل بالرداء الأبيض باب براد ضخم وأخرج منه خشبة عليها وضع جسد منتفخ، عجوز، مزرق اللون. وتملّته ألبا بعناية دون أن تجد أقلّ شبه مع الصورة التي حلمت بها غالباً. بدت لها صورة نموذج عاديّ، مألوف، فيه شيء من مستخدمي البريد؛ وفحصت يديه: لم تكونا يدي سيّد نبيل، ذكي أو أنيق، بلْ يدي امرئ عادي ليس عنده شيء هام يتحدث عنه. مع ذلك، كانت أوراقه تشهد بما لايقبل الردّ أن الجثة المزرقة الحزينة إلى أبعد حدّ لم تكن إلا جثّة جان دوساتييني، الذي لم يمت من الحميّات بين الكثبان المذّهبة كما قضى كابوس طفولي، وإنما وهو يعبر الشارع في عمر متقدم. في الفترة التي كانت فيها كلارا ماتزال على قيد الحياة، وألبا طفلة فحسب، كان بيت الزاوية الكبير، عالماً مغلقاً، كبرت فيه الأخيرة في كنف يحيمها من كوابيسها نفسها.

قبل أن ينقضي أسبوعان على ميلاد ألبا غادرت أماندا بيت الزاوية الكبير. فقد استردت قواها ولم تجد أية صعوبة في اكتشاف الرغبة الحارة في قلب جيم. أخذت أخاها الصغير من يده وذهبت كما أتت، دون ضجّة، ودون وعد بالرجوع. وغابت عن العين، ورفض الكائن الوحيد القادر على إيجادها أن يفعل، كي لايجرح أخاه. ولم يرها جيم إلّا صدفة بعد سنين عديدة، لكن الوقت تأخر بالنسبة لكل منهما. بعد رحيلها، أغرق جيم يأسه في الدراسة والعمل. وراجعته عادات الناسك القديمة ولم تطأ بعدها قدمه البيت بتاتاً. وانقطع عن ذكر اسم الفتاة وابتعد نهائياً عن أخيه.

ولطّف طبع إيستيبان تروييبا وجود حفيدته في البيت. كان التغيّر يكاد لايلمح، غير أنه لم يخف على كلارا. بعض العلامات الصغيرة كانت تفضحه: بريق نظراته لما يشاهد البنية، والهدايا الغالية التي كان يحملها لها، وضيقه عندما يسمعها تبكي. لكن كل هذا لم يقرّبه من بيانكا. فصلاته بابنته لم تكن

دائماً طيبة، لكنها، منذ زواجها المشؤوم، تدنّت إلى درجة التهذيب الاضطراري الذي أملته كلارا وحده كان يسمح بأن يعيشا تحت السقف نفسه.

في تلك الفترة كانت كل غرف بيت آل تروييبا مشغولة تقريباً وكان الأكل يوضع على المائدة كل يوم للعائلة جميعاً، وللضيوف، وطبق إضافي لمن يمكن أن يأتي دون أن ينبئ عن ذلك. وكان الباب الرئيسي مفتوحاً بصورة دائمة كي يستطيع الروّاد والزوّار الدخول والخروج. وبينما كان الشيخ تروييبا يجهد نفسه في تحسين قدر بلاده، كانت زوجته تعوم بحذق في مياه الحياة الاجتماعية المضطربة وبين تلك، المحيّرات، من مزاجها الروحي نفسه. وقد شحذ العمر والتمرين مؤهلات كلارا لكشف الخفيّ وتحريك الأشياء من مسافة، وساهمت حالاتها النفسية المتوتّرة في حملها باكراً إلى وجدٍ تستطيع خلاله، وهي جالسة على كرسيّها أن تتحرّك عبر كل الغرفة، كما لو أن محرّكاً خبئ تحت مقعدها. في ذلك الزمن، استقبلوا في البيت عن إحسان، فناناً شابّاً جائعاً، دفع ثمن ضيافته بأن رسم اللوحة الوحيدة الموجودة لكلارا. وبعد زمن طويل وضح أن الفنان البائس صار معلّماً واللوحة توجد اليوم في متحف لندني، مثل كثير من الأعمار الأخرى التي غادرت البلاد في الحقبة التي وجب فيها بيع الأثاث من أجل إطعام المضطهدين. نستطيع أن نرى، على اللوحة امرأة ناضجة، لابسة أبيض شعرها فضيّ وعلى وجهها ابتسامة بهلوانة حلوة، وقد استرخت في مقعد قلّاب معلق فوق مستوى الأرض، يطفو بين الستائر ذات الأزهار وفاز مقلوب يحلّق في الهواء وقط أسود ضخم في حرجها يتأمل الجميع بهيئة هامّة. تأثير الجميع، يقول كرّاس المتحف، لكن لاشيء أقلّ صدقاً من ذلك. إن اللوحة تتفق تماماً مع الواقع الذي عرفه الفنان في بيت كلارا. في ذلك الوقت كانت تتجلّى دون عقاب طاقات النفس الإنسانية الخفيّة والنزوات الإلهية الفرحة، فتبدع حالة تأهب واستثناء بين قوانين الفيزياء والمنطق. ولقد كانت كلارا تجري اتصالاتها مع الأرواح الشاردة وفوق الأرضية بالتيليباسيا، وبالأحلام وواسطة نواس تستخدمه لهذا الغرض، تمسك به معلقاً فوق ألفباء ترتبه منهجيّاً على المنضدة. كانت حركة النواس المستقلة تدلّ على الحروف

وتؤلف الرسالة بالإسبانية والإيسبرانتو، شاهدة بذلك على أنهما اللسانان الوحيدان اللذان تستعملهما الكائنات التي تتحرك خارج أبعادنا الثلاثة، وليس الإنكليزية، كما كانت تشدد عليه كلارا في رسائلها إلى سفراء الدول العظمى الناطقة بالإنكليزية، دون أن يجيبها هؤلاء أبداً، مثلهم مثل وزراء التربية المتتالين الذين كتبت إليهم تعرض نظريتها التي تقول بدلاً من تعليم الفرنسية والإنكليزية في المدارس، لغتي النصابين والمضاربين والبخلاء، ينبغي إجبار الأطفال على دراسة الإيسبرانتو.

توزعت طفولة ألبا بين الأنظمة النباتية، والفنون الحربية اليابانية، ورقص التيبت، واليوغا التنفسيّة، والإسترخاء والتركيز مع الأستاذ هوسر، بين عديد من التدريبات الهامة، دون أن نعدّ ما أضافه لثقافتها خالاها والآنسات الفاتنات الثلاث مورا. وكانت جدّتها تهتم بأن تمسك في حالة الحركة تلك الآلة الضخمة الملأى بالمهووسين التي تحوّل إليها بيتها، بالرغم من أنها ليست لها أية موهبة بيتيّة. وكانت تحتقر العمليات الأربع لدرجة إهمال المجموع، حتى أن نظام البيت وحساباته آلا إلى بيانكا التي كانت تقسم وقتها بين وظيفتي مدير أعلى لهذه المملكة المصغّرة ومشغل الخزف في آخر الباحة، ملجأها الأخير من أحزانها، حيث كانت تعطي دروساً للأطفال المنغوليين والآنسات الرفيعات المقام، وحيث كانت تصنع مغارات دمىً عجيبة بشعة، لكنها تباع، ضدّ كل منطق، مثل أرغفة صغيرة خارجة من الفرن.

تحملت ألبا منذ طفولتها، تبديل أزهار الفازات. كانت تفتح النوافذ كي يدخل الهواء والنور أمواجاً، لكن الأزهار لم تكن تستطيع المقاومة حتى حلول الليل، لأن صوت إستيبان تروبيا الضخم الراعد وضربات عصاه كانا مموجين بأرعاب الطبيعة. كانت الحيوانات الأهلية تفرّ لدى مروره، وتتقلّص النباتات. ولقد كانت بيانكا تربي شجرة سنط[1] وردت من البرازيل، وهي شجرة ضئيلة

---

١ ـ شجرة تخرج الصمغ

وفزعة، جمالها الوحيد في سعرها: كانت تباع بالورقة. عندما يسمع وصول الجدّ، كان الذي يوجد قريباً من الشجرة يركض كي يضعها في مأمن على التّراس، لأنه منذ أن يدخل العجوز إلى الغرفة، كانت تتدلّى أوراق الشجيرة وتأخذ تنضح من ساقها دمعة مائلة للبياض كدموع من حليب. ولم تذهب ألبا يوماً إلى الكلية، لأنّ جدّتها كانت تقول بأن الكائن الذي يتمتع بمثل حظوتها عند الكواكب لاحاجة له لأن يتعلّم أكثر من القراءة والكتابة، وهما ماتستطيع اكتسابه في البيت. ولقد عمدت باكراً إلى محو أميتها حتى أن البنية، في الخامسة من عمرها، كانت تقرأ الجريدة ساعة الإفطار كي تعلّق على الأخبار مع جدّها، وفي السادسة اكتشفت كتب السحر في الصناديق الفاتنة لجدّ أمّها الخال ماركوس، الخرافي، فدخلت بقدم ثابتة إلى مملكة الخياليّ دون رجعة. ولم يهتم أحد أكثر من ذلك بصحتها، لأنهم ماكانوا يثقون بفضائل الفيتامين وكانوا يقدّرون أن اللقاحات لاتفيد إلا الطيور. وإضافة لذلك، درست جدّتها خطوط يدها وأكّدت أن حياتها طويلة وصحّتها من حديد. والعناية الوحيدة العابثة التي أغدقوها عليها أنهم صبغوا شعرها بصبغة الجوز كي تخفّ خضرة شعرها الزجاجية لدى ولادتها، وذلك عكس رأي الشيخ ترويبا، الذي كان يرى أن تترك على ماهي عليه، لأنها الوحيدة التي ورثت شيئاً من روزا الجميلة، ولو أنه، لسوء الحظ، لم يكن سوى لون شعرها البحري، غير أن إلبا تركت منذ أن يفعت، كي ترضيه، حيل صبغة الجوز وغسلت شعرها بنقيع البقدونس، وهو مامكّن الأخضر من الظهور بكل غزارته. وكل مابقي من شخصها كان ضئيلاً وهيّناً، مختلفاً عن أكثرية نساء العائلة، اللائي كن، دون استثناء، متألقات.

كانت بيانكا في لحظات الراحة النادرة التي تسمح لنفسها بها تفكر بنفسها وبابنتها، وتشكو من أن هذه كانت طفلة منعزلة ومغلقة، دون رفاق لعب من عمرها. والحق، أن إلبا لم تكن تحسّ أنها وحيدة، بل على العكس، فقد كانت في بعض الأحيان سعيدة جدّاً إذ تستطيع الإفلات من نفاذ عقل جدّتها، ومن حدس أمها نفسها، ومن ضجة أولئك الناس الشاذين الذين يختفون كي يظهروا دون انقطاع في بيت الزاوية الكبير. كان يشغل بيانكا

أيضاً أن ابنتها لم تلعب بالعيبة، لكن كلارا كانت تلتزم بالدفاع عن حفيدتها، متذرعة بأن جثث الخزف الصغيرة ذات العيون التي تفتح وتغلق، والأفواه بطياتها اللئيمة، لم تكن إلا مقرفة. هي نفسها كانت تصنع شخوصاً شوهاء ببقايا كبب الصوف التي تستعملها للحياكة من أجل الفقراء. كانت كائنات ليس فيها شيء إنساني، ولهذا، كانت أسهل كثيراً، هدهدتها، وغسلها، وتجميلها ثم رميها بعد ذلك حالاً في سلة القمامة. لكن القبو كان مكان اللهو المفضل عند البنية. ولقد أمر إيستيبان ترويبا بأن يرتج الباب، بسبب الجرذان، لكن ألبا استطاعت أن تدخل رأسها من منفذ وتنزل دون ضجّة إلى جنّة الأشياء المنسية هذه. كان المكان دائماً غارقاً في الظلام، محمياً من عوادي الزمن، مثل هرم ألغيت مداخله. هناك كان يتكدّس الأثاث الذي أهمل، والأدوات التي لايدرك استعمالها، وآلات مخلّعة، وقطع وأجزاء الكوفادونجا، سيارة ماقبل التاريخ التي فكّها خالاها كي يحوّلاها إلى سيّارة سبق، والتي كانت تنهي أيامها، بعد أن ارتدّت إلى كومة جديد. لم تدع شيئاً ألبا إلا واستخدمته في بناء بيوت صغيرة في الزوايا. كانت توجد صناديق وحقائب ملأى بحلى قديمة غرفت منها كي تبني مشاهد مسرحية منعزلة، وحصير هيئته بائسة، سوداء متآكلة، له رأس كلب، يجعلك تفكّر، وهو موضوع أرضاً، بحيوان مسكين مقطّع. كان ذلك، ياللخجل، آخر بقايا الأمين بارّاباس.

في إحدى أمسيات عيد الميلاد، قدمت كلارا إلى حفيدتها هدية خرافية حلّت أحياناً محلّ قوة جذب القبو المدهشة: علبة حقاق تلوين، وريش، وسلم صغير، وتفويضاً بأن تستخدم على هواها أكبر حائط في غرفتها.

ـ هذا سوف يساعدها على التصعيد، قالت كلارا وهي تنظر إلى ألبا وقد انبطحت على السلم ترسم في تماس السقف قطاراً مليئاً بالحيوانات.

واجتهدت ألبا، عبر السنين، في ملء كل الجدار، وفواصل الغرفة الأخرى بلوحة جدارية شاسعة وفيها، من النباتات الفينوسية، وحيوانات مستحيلة من أنواع اخترعتها، شبيهة بتلك التي كانت توشّيها قديماً روزا على سماطها

وتطبخها بيانكا في فرن السيراميك، تراءت فيها رغبات، وذكريات وهموم وأفراح طفولتها الأولى.

كان خالاها قريبين جدّاً منها. وأفضلهما عندها كان جيم. كان عملاقاً طويلاً شعره قاس، مضطراً للحلاقة مرتين يوميّاً، بل في هذه الحال، كانت هيئته تنمّ على أن ذقنه من الأسبوع الماضي؛ وكان له حاجبان فحميان عدوانيان يصبغهما كقوس كي يوهم ابنة أخته أنه قريب الشيطان، وشعره صلب كطمار مدفع مدهون عبثاً، مبلل دائماً. كان يدخل ويخرج وكتبه تحت ذراعه، وفي يده عدل عامل تمديدات. ولقد روى لإلبا أنه يعمل لصّ مجوهرات، وأنّه يحمل في عدله البشع، مفاتيح عمومية وقفازين. وكانت البنية تتصنّع الخوف، فهي لم تجهل أنّه طبيب، وأن الرزمة لم تكن تحوي غير أدواته الحرفية. كانا كي يتسليا أيام بعد الظهر الممطرة، يخترعان لعب التظاهر:

كان الخال جيم يأمرها قائلاً: «هات الفيل!».

وتخرج ألبا، ثم تعود وهي تجرّ بخيط لايرى جسئياً[1] خيالياً. وتقضي نصف ساعة كاملة وهي تطعمه أعشاباً طوّرت حسب نوعه، وتلطخه بالتراب كي تحمي جلده من قسوة الطقس، وتلمّع عاج نابيه، وهي تناقش بحماس في منافع ومضار الحياة في الغابة.

ـ هذه البنية سوف تنتهي مجنونة تماماً! كان الشيخ تروييبا يجأر عندما يرى الصغيرة إلبا، جالسة تحت الفيراندا، تقرأ كتب الطب التي يعيرها إياها خالها جيم.

كانت الوحيدة في البيت التي تتصرف بمفتاح يؤدّي إلى حجر كتب خالها، والتي هي مفوّضة بالأخذ منها وقراءتها. وكانت بيانكا تصر على وجوب تقنين هذه القراءات، لأن فيها أشياء ليست لعمرها، لكن الخال جيم كان يقدّر أن أحداً لايقرأ غير مايهتمّ به. وكانت نظرياته لاتختلف فيما تعلّق بالنظافة والطعام. كان يقول أن البنية إذا لم ترغب في تنظيف نفسها، فذلك

---

١ ـ صفيق الجلد.

يعني أنها لاتشعر بالحاجة لذلك، وأنه من الملائم أن تعطى الطعام الذي تريد في الساعات التي تجوع فيها، فالبنية هي أفضل من يعرف حاجاتها. من هذه الناحية، كانت بيانكا عنيدة، أملت على ابنتها احترام قواعد الصحة والتوقيت الصارم. والنتيجة أن ألبا كانت خارج الوجبات التقليدية والنظافة، تتخم بالشراهات التي يقدّمها لها خالها وترش الماء على نفسها من أنبوب السقاية منذ أن تحسّ بالحرّ الزائد، دون أن يضرّ ذلك ببنيتها السليمة. كان يعجب ألبا لو أن خالها تزوّج أمّها، لأنه أفضل لها أن يكون أباها، من أن يكون خالها، لكنهم شرحوا لها أن هذا النوع من الزواج بالمحرم يولد منه أطفال منغوليون. عندها وضعت في رأسها فكرة أن طلاب الخميس، في مشغل أمها، هم من سلالة خاليها.

كان نيكولاس أيضاً يحلّ في مكان خاص في قلب البنيّة، لكنه كان لديه شيء من الوهم، طيّار، طريقته أنه دائماً على عجل، عابر، كأنه يقفز دون انقطاع من فكرة لفكرة، ماينفك يقلق ألبا. وحين أعياه الابتهال لله عن طريق المائدة.وفي دخان الحشيش، عزم علي أن يذهب للقياه في منطقة أقلّ غلظة من ترابه الوطني. وقضى شهرين وهو ينكّد كلارا، يتعقبها في كل الزوايا، ويهمس في أذنها لمّا تكون نعسى، حتى أقنعها ببيع خاتم الألماس حتى تدفع له ريع الرحلة إلى بلد المهاتما غاندي. هذه المرّة، لم يدل إيستيبان تروييبا بمعارضته، لأنه قال في نفسه أن دورة صغيرة عند تلك الأُمة البعيدة من خامصي البطون والبقر التي ترتاد الكلأ تفيد ابنهُ كثيراً.

قال له أبوه بمثابة الوداع على الرصيف: «إذا لم تمت وقد لدغتك كوبرا أو مرض ما غريب، آمل جيّداً أن ستصير عند عودتك رجلاً، لأن نزواتك أجهدتني».

عاش نيكولاس سنة في حالة شحّاذ، يجوب على قدمه طرق اليوغي، على قدمه قطع الهيملايا، على قدمه وصل إلى كاتماندو، على قدمه حاذى الغانج، على قدمه دخل بيناريس. وفي نهاية هذا التجوتال، أيقن بوجود الله وتعلم كيف ينفذ في وجنتيه وجلد القصّ دبابيس القبّعات، وكيف يعيش تقريباً

دون طعام. رأوه يوماً كسواه ينزل بالبيت، دون إنذار، وحفاظ رضيع يخفي له الأجزاء الخجولة، وليس سوى الجلد على عظامه، وهيئته تائهة كأولئك الناس الذين لايبلغون إلا بالخضروات. نزل يصحبه جنديّان يشكّان بأمره، وقد عزما على حبسه، إن لم يثبت أنه ابن الشيخ تروييبا، كما لحق به موكب أطفال فرجموه ببقايا الثمار والهزء. كانت كلارا هي الوحيدة التي لم تجد صعوبة في التعرّف إليه. وهدّأ أبوه الجنديين ثم أمر نيكولاس بأن يذهب فيأخذ حماماً وأن يرتدي ثياب مسيحي حقيقي إذا كان يتمسّك بالعيش في بيته، لكنّ نيكولاس نظر إليه وكأنه لايراه وأمسك عن الجواب. لقد صار نباتياً. لايمسّ اللحم، ولا الحليب، ولا البيض، كان نظام طعامه نظام أرنب برّي قلق الوجه اتخذ قليلاً قليلاً شبه ذلك الحيوان. كان يمضغ ثم يمضع خمسين مرّة كل لقمة من طعامه الهيّن. وتحوّلت الوجبات إلى طقس لانهاية له كانت خلاله ألبا تلحس صحنها الفارغ، كما يلحس الخدم في المطبخ صحافهم وهو يجترّ احتفالياً، حتى لقد انقطع إيستيبيان تروييبا عن المجيء إلى البيت وتناول وجباته في النادي. وكان نيكولاس يؤكد أنه يستطيع المشي حافي القدمين على الجسر، لكنه كلما استعد للقيام بالتجربة، كانت كلارا تصاب بأزمة ربو، فيقلع عنها. كان يعبّر عن نفسه، بأمثال آسيوية، لاتفهم دائماً. كانت اهتماماته كلها من نوع روحي. كانت مادية الحياة البيتية تزعجه مثل عناية أخته وأمه المبالغ فيها فقد كانتا تلحّان لتغذيته وإلباسه، كما أن ألبا كانت تقتفي أثره وهي كمسحورة فقد كانت تتبعه إلى كل مكان في البيت كظلّه، تضرع إليه أن يعلّمها الوقوف على الرأس والاختراق بالدبابيس. وقدظلّ قليل اللباس حتى عندما هجم الشتاء بكل قسوته. كان يستطيع البقاء حوالي ثلاث دقائق من دون تنفّس، وكان حاضراً لإعادة هذه المأثرة كلما طلب إليه، وهو ماكان يحدث غالباً. وكان جيم يقول خسارة أن يكون الهواء مجاناً، لأنه حسب أن نيكولاس يتنفس نصف مايتنفسه الكائن العاديّ البنية، بالرغم من أنه لايبدو أن هذا يؤثر فيه أي تأثير. وقضى الشتاء وهو يغتذي بالجزر، دون أن يشكو من البرد، حبيس غرفته، يملأ بالحبر الأسود صفحات وصفحات بيديه الذبابيتين. وعندما تجلّت أوائل بشائر الربيع،

أعلن أن كتابه صار جاهزاً. وكان يعدّ ألفاً وخمسمائة صفحة، وتوصل لإقناع أبيه وأخيه بتمويل الطبع، شريطة تسديدهما من البيع. وبعد التصحيح والطبع تقلصت الألف ونصفها المكتوبة إلى حوالي ستمائة صفحة من مؤلف سميك عن أسماء الله التسعين وطريقة الوصول إلى النرفانا بالتمارين التنفسية. ولم يحصل على النجاح المرتقب وانتهت أيام العلب التي تحوي كل النسخ في القبو الذي تستخدمه ألبا حجر الزاوية لبناء ملاجئها، حتى استغلوه، بعد سنوات عديدة لإضرام محرقة خسيسة.

منذ أن خرج الكتاب من المطابع، رازه نيكولاس بحبٍّ بين يديه، واستعاد ابتسامته الماضية الصغيرة كابتسامة الضبع، وارتدى ثياباً لائقة، وأعلن أن قد حانت ساعة ردّ الحقيقة إلى مواطنيه، المسجونين في ظلمات الجهل. وذكره إيستيبان تروييبا بالمنع الذي وجهه إليه من أن يحوّل البيت إلى أكاديمية، وأنذره بأنه لن يطيق أن يضع أفكاره الوثنية في رأس ألبا وأنه لايحتمل أن يرسّخ في ذهنها خدع الفقير. وخرج نيكولاس إلى الدعوة في كافتيريا الجامعة حيث تحلّق حوله عدد مدهش من التلاميذ في جلسات التمارين الروحية والتنفسية. كان في أوقات فراغه، يتنزه على موتوسيكل، ويعلم ابنة أخته كيف تقهر الألم وبقية ضعف الجسد. كانت طريقته تقوم على تشخيص كل الأشياء التي هي أسباب المخاوف. وكانت البنية التي تغذي فيها نوعاً من الميل إلى المأتمية، تركّز تبعاً لتعليمات خالها وتتوصل إلى أن ترى بالعين، موت أمّها، كما لو كانت تحضره. كانت تراها شاحبة متجلّدة، وحبتا الكستناء مغلقتان، وهي متمددة في نعش. كانت تسمع بكاء العائلة. وتلاحظ رتل الأصحاب وهم يدخلون صامتين، فيضعون بطاقة زيارتهم على صينية ثم يخرجون محنية رؤوسهم. كانت تصلها رائحة الأزهار، وصهيل الخيل المزينة بالريش وهي مقرونة إلى عربة الموتى. كانت تعاني حتى وجع قدميها، وهي واقفة بحذاء الحداد الجديد. كانت تتخيل نفسها وحيدة، مهملة، يتيمة. وكان خالها يساعدها بالتفكير بذلك دون أن يبكي، ويسترخي، كي لاينهد لمقاومة الألم، فيمر بها هذا دون أن يقبع بداخلها. وفي مرات أخرى، كانت ألبا تقرض إصبعها بالباب وتتعلم احتمال

الحرق الكاوي دون شكوى. فإذا توصلت إلى قضاء أسبوع كامل دون بكاء، بأن تغلب كل التجارب التي يعرضها لها نيكولاس، كانت تحرز جائزة تتكون تقريباً دائماً من نزهة على الموتوسيكل على طريقة القبر المفتوح، تجربة لاتنسى، ذات مرة، تسلّلا بين قطيع بقر راجع إلى الإسطبل، وقطع طريقاً في أطراف المدينة حيث أخذ بنت أخته بمثابة جائزة. وأخذت تذكر دائما كتل البهائم الثقيلة، وبلادتها، وأذنابها الملوثة بالروث التي كانت تسوط وجهها، ورائحة الجلّة، والقرون التي تمسها، وذلك الإحساس بالفراغ في باطن المعدة، والدّوار الرائع وهياج لايصدّق، سبّبه الفضول الحادّ والرعب، مما لم تعاودها معاناته إلا في لحظات شاردة جداً من حياتها.

كان إيستيبان تروييبا يجد دائماً صعوبة في التعبير عن حاجته إلى الحنان، وبعد أن ساءت علائقه الزوجية مع كلارا وبات لاسبيل إلى حنانها، أفاض خير عواطفه على ألبا. كان للطفلة عنده من الأهمية مايفوق ماكان لأبنائه أنفسهم عنده. كانت كل صباح تدخل بالمنامة إلى غرفة جدّها، وتدخل دون أن تقرع ثم تنزلق في سريره. وكان يتظاهر بالاستيقاظ مرتجفاً، مع أنه مافعل في الحقيقة إلا انتظارها، وكان يتذمر إن لم تجيء فتزعجه، وإن رجعت إلى غرفتها وتركته ينام. وكانت ألبا تدغدغه حتى يبدو أنها غلبته، فيسمح لها بأخذ الشوكلاته التي أخفاها من أجلها. وكانت تعرف كل المخابئ، وكان جدّها يعمد إليها دائماً للغاية نفسها، فتقضي، كي لاتخيّب أمله، وقتاً طويلاً وهي تبحث بصعوبة، ثم تطلق صيحات الفرح عندما تجدها. ولم يعرف يوماً إيستيبان أن حفيدته تكره الشوكولاته وأنها ماكانت تأكلها إلّا حبّاً له. بهذا اللعب الصباحي، كان الشيخ يرضي حاجاته للإتصال الإنساني. وفي بقية النهار كان مشغولاً بالكونغرس، والنادي، والجولف، والأعمال التجارية والمؤامرات السياسية. كان يذهب مرتين في العام لأسبوعين أو ثلاثة إلى الماريات الثلاث، مع حفيدته. وكان كلاهما يرجع وقد لوحته الشمس واسترد صحته، وهو سعيد. كانوا يقطرون هناك ماء حياة بيتي يستخدمونه للاستهلاك، ولإشعال الموقد وتعقيم الجروح، وقتل الصراصير ويسمونها تفخيماً «فودكا». وقد ظل

إيستيبان ترويبا، حتى آخر أيامه، لما جعلته التسعون عاماً شبيهاً بشجرة عجوز كثيرة العقد وضعيفة، يذكر تلك اللحظات التي قضاها مع حفيدته على أنها أحسن مافي حياته، وهي سوف تحفظ أبداً في ذاكرتها تواطؤ تلك الرحلات إلى الريف، ويدها في يد جدّها، والنزهات وهي رديفته على حصانه، وأواخر النهارات في رحب الحقول، والليالي الطويلة قرب مدفأة غرفة الجلوس، في رواية حكايات العائدين والرسم.

مافعلت العلائق بين الشيخ ترويبا وبقية العائلة إلا أن تفاقمت. كانوا يجتمعون مرة في الأسبوع، كل سبت، للعشاء حول مائدة السنديان التي بقيت عند العائلة، وقد كانت من قبل ملكاً لآل ديل فاله، أو بتعبير آخر كانت ترجع إلى أبعد تاريخ وقد استخدمت في السهر على الموتى، ورقص الفلامنكو، وغيرهما من الاستعمالات التي لاتليق بها. كانوا يجلسون ألبا بين أمها وجدّتها، ووسادة على كرسيها كي يتمكن أنفها من الوصول إلى مستوى الصحن وكانت البنية تنظر بعين الحسد وهي مفتونة إلى الكبار: جدّتها تتألّق، وقد وضعت أسنانها من أجل المناسبة، وهي تتبادل الرسائل مع زوجها، عن طرق الأبناء أو الخدم؛ وجيم يعرض سوء تهذيبه بالتجشّؤ بعد كل صحن ويسوك أسنانه بإصبعه الصغير كي يزعج أباه؛ ونيكولاس، وعيناه نصف مطبقتين، يمضغ كل لقمة خمسين مرّة، وبيانكا تثرثر عن كل شيء ولاشيء كي تغذي الوهم بأنه عشاء عادي. كان ترويبا يبقى نسبيّاً صامتاً، حتى يظفر به طبعه السيء ويبدأ بالمشاحنة مع ابنه جيم من أجل مسائل الفقراء، والتصويت، والاشتراكيين والمبادئ، أو شتم نيكولاس لمحاولاته الإقلاع بالمنطاد وممارسة المعالجة بالإبر مع ألبا، أو عقاب بيانكا بأجوبته القاسية، وعدم اهتمامه، وتحذيرها، وإنذارها أنها عبثاً ضيّعت حياتها وأنها لن ترث منه شروى نقير والوحيدة التي لم يكن يهاجمها بتاتاً هي كلارا، لأنهما كانا لايكلمان بعضهما بعضاً. كانت ألبا أحياناً تفاجأ بنظرة جدها وقد حطّت على كلارا، ويبقى هكذا يتأمّلها ثم يغدو تدريجيّاً أبيض، لطيفاً، حتى يشبه عجوزاً مجهولاً. لكن هذا لم يكن كثير الوقوع، فالقاعدة كانت أن يتجاهل الزوجان أحدهما الآخر.

كان يحدث أن يفقد الشيخ تروبيبا كل ضبط نفسه، ويصيح حتى يصبح قرمزياً وعندها كان يجب أن يرمى بقدر ماء بارد على الوجه حتى يخفّ غضبه ويعاوده تنفّسه.

لقد بلغت بيانكا في تلك الفترة أوج جمالها. كانت لها هيئة عربية، كريمة، ودنفة، كانت دعوة للبوح والراحة. طويلة وثرية، مزاجها مزاج بائسة وبكّاءة توقظ عند الفحل غريزة الحامي السلفية. ولم يكن يكنّ أبوها نحوها أي حنان. فهو لم يغفر لها حبها لبيدرو جارسيا الثالث وكان في تصرّفه ما يذكّرها بأنها تعيش من إحسانه. وماكان تروبيبا يستطيع أن يفسّر لماذا يطمح لخطبة ابنته كل هذا العدد، لأن بيانكا لم تكن تتمتع بذاك الفرح المقلق، وذاك المرح الذي كان يجذبه هو نفسه إلى النساء، وكان يقول في نفسه إضافة لذلك أن أي رجل طبيعي لايمكن أن يرغب في الزواج من امرأة ثيّب، سجّلها المدني مشكوك فيه، ومعها ابنة تعيلها. أما من ناحية بيانكا، فما كان يبدو عليها العجب من الحاح الرجال. كانت شاعرة بجمالها. مع ذلك، كانت مع السادة الذين يزورونها تسلك سلوكاً متناقضاً، تشجعهم بغزلة بؤبؤيها المسلمين، وهي تمسك بهم بحكمة بعيدة.

وكانت منذ أن تلمس أن نيّة جليسها جدّية كانت تقطع العلاقة برفض متوحش وبعضهم، في وضع مادّي أرقى منها، جرّب أن يصل إلى قلب بيانكا عن طريق آخر، بإغراء ابنتها، فأغدق على إلبا هدايا ثمينة، لعبيات لها آليات تمكنها من المشيء، والبكاء، والأكل، وتظهر قابليات كثيرة أخرى هي من شؤون الإنسان وكانوا يتخمونها باللفائف بالكريما ويأخذونها للنزهة في جنينة الحيوانات حيث كانت تذرف البنية دموع العطف على الحيوانات المسكينة السجينة، وبخاصة على الفوك الذي كان يحرّك في نفسها هواجس سوداء. هذه الزيارات إلى حديقة الحيوان، ويدها في يد خاطب متلاف ومختال تركت فيها حتى آخر أيامها رعباً مقدساً من الحبس، والحواجز، والأقفاص، والسجون السريّة. بين هؤلاء العشاق كان (ملك الطبخات الجاهزة) هو الذي تقدّم بوضوح أكثر على الطريق الذي يؤدي إلى غزو بيانكا. كان إيستيبان تروبيبا

يكرهه بالرغم من ثروته الشاسعة وطبعه الهادئ الرزين، لأنه كان مختتناً، وله أنف سفردي وشعره أجعد. ولقد توصل تروييبا بوضعه الساخر العدواني إلى أن يجعله يفرّ وهو الرجل الذي نجا من معسكر اعتقال، وغلب الفقر والمنفى، قبل أن ينتصر، في معركة التجارة التي لاهوادة فيها. كان (ملك الطبخات الجاهزة) مادامت تلك الغزلية يمرّ كي يأخذ بيانكا فيدعوها للعشاء في أرقى الأماكن بسيارة صغيرة لها مقعدان فحسب ودواليب تراكتور، فيصنع ضجة عنفة تحت غطاء سيارته، الوحيد من نوعه، والذي كان يثير في طريقه صخب فضول وعلى قدر ذلك من مطّ الشفتين احتقاراً عند آل تروييبا. وكانت بيانكا دون أن تعير انتباهاً لمعارضة أبيها أو ترصّد الجيران، تأخذ مكانها في السيارة بجلال وزير أوّل وهي تلبس تايورها الأسود الوحيد وبلوزة من الحرير الأبيض تلبسهما في المناسبات الكبرى. وكانت ألبا ترسل لها قبلة، وتبقى واقفة على عتبة الباب وعطر ياسمين أمها الرقيق يطفو في أنفها وعقدة غمّ تطبق على صدرها. كان التدريب الذي أهّلها به خالها نيكولاس هو وحده الذي يمكنها من احتمال هذا الهروب الأمومي دون أن تبكي، لأنها كانت تخشى أن ينجح يوماً الغزل القائم على خدمة بيانكا بأن يقنعها بالرحيل معه ويتركها هي. محرومة إلى الأبد من الأم. لقد قررت منذ زمنٍ بعيد ألّا تكون بحاجة لأب، وأقل منه لعمّ، لكن أمها إذا فارقتها، سوف تذهب فتغطس رأسها في دلو ماء حتى تموت غرقاً، كما كانت تفعل الطبّاخة مع الصغار الذين تلدهم القطّة كل شهور أربعة.

لكن خوف ألبا أن تتركها أمها غادرها منذ اليوم الذي تعرّفت فيه على بيدرو الثالث: حدسها قال لها، أنه لما وجد هذا الرجل فلن يكون في قلب بيانكا مكانٌ لآخر. كان ذلك يوم أحد صيفي. جعلت لها فيه بيانكا جدائل بحديد محمّى كوى لها أذنيها وألبستها قفازين بيضاوين وبرنيقاً أسود. وكذلك قبعة قشّ مزخرفة بكرز اصطناعي. لما رأتها جدتها انفجرت ضاحكة، غير أن بيانكا عزّتها بنقطتين من عطرها وضعتهما على عنقها. قالت لها أمها بغموض لما أصبحت خارجاً: «سوف تتعرفين على إنسان مشهور».

وأخذت ابنتها إلى البستان الياباني حيث اشترت لها سكاكر الشعير

وكيساً من حبّ الذرة. وجلستا على مقعد في الظلّ، تمسكان يداً بيد، تحيط بهما الحمائم التي جاءت تنقر الذرة.

رأته يقترب قبل أن تدلّها عليه أمّها. كان يلبس بزّة ميكانيكي، وله ذقن ضخمة سوداء تنزل إلى نصف صدره، وشعر عوسجي، وصندل راهب فرنسيسكاني دون جوارب، يعرض ابتسامة عريضة لامعة ورائعة صنّفته على الفور في فصيلة الأشخاص الذين يستحقون أن تخربشهم على جدارية غرفة نومها العملاقة.

نظر الرجل والبنية إلى بعضهما بعضاً وتعارفا للتو كل منهما في عيني الآخر.

قالت لها أمّها: «هو ذا بيدرو الثالث، المغني. لقد سمعتِه في الراديو».

ومدّت ألبا له يدها؛ فشد عليها بيده اليسرى. عندها لاحظت أنه تنقصه عدة أصابع في اليمنى، لكنه شرح لها، أنه بالرغم من ذلك، يستطيع العزف على القيثارة، لأنه توجد دائماً طريقة لعمل ما، ولدينا الإرادة لعمله. وتنزه الثلاثة في البستان الياباني. وفي منتصف بعد الظهر، أخذوا أحد آخر الترامويات التي مازالت موجودة في المدينة، ورافقهما عند هبوط الليل حتى الشارع. وعند الإفتراق قبل كل من بيانكا وبيدرو الثالث بعضهما بعضاً على الشفتين. كانت المرّة الأولى التي ترى فيها ألبا من يفعل ذلك، لأن محيطها كله لم يكن يحوي عشّاقاً.

منذ ذلك اليوم أخذت بيانكا تخرج وحيدة في عطلة الأسبوع. كانت تقول أنها تزور ابنة عمّ بعيدة. وكان إيستيبان تروييبا يغضب ويهدد بطردها من بيته، لكن بيانكا ظلّت لاتنثني عن قرارها. كانت تترك ابنتها لعناية كلارا وتذهب في الأوتوبيس ومعها محفظة بهلوان صغيرة مزينة برسوم أزهار.

كانت تقول لابنتها وهي تستميحها عذراً في الذهاب: «أعدك بألا أتزوج وأن أعود غداً مساء».

وكانت ألبا تحب الجلوس إلى جانب الموقد ساعة القيلولة والإصغاء إلى

الأغاني الشعبية في الراديو، وبخاصة أغاني الرجل الذي تعرّفت عليه في البستان الياباني. وذات يوم، ظهر الشيخ تروييبا في غرفة الخدمة، ولما سمع ذلك الصوت بالراديو انقض بعصاه عليه حتى أحاله إلى أسلاك متشابكة وقطع متناثرة، تحت عيني حفيدته الخائفة، التي لم تستطع أن تفسّر ثورة جنون جدّها المفاجئة. وفي اليوم التالي اشترت كلارا راديو جديداً كي تستطيع ألبا الإصغاء إلى بيدرو الثالث على هواها، وتصنّع العجوز تروييبا بأنه لاينتبه لشيء.

هنا أخذت معناها حكاية ملك المآكل الجاهزة. فقد عرف بيدرو الثالث بوجوده وأصيب بأزمة غيرة لامبرر لها إذا قارن سلطته على بيانكا بغزل التاجر اليهودي الخائف. وتضرع إلى بيانكا، كما فعل مرات عديدة، لعلّها تترك بيت آل تروييبا، ووصاية أبيها المتوحشة، ولجوءها إلى المشغل الذي امتلأ منغوليين وفتيان وقحين بلا عمل، وأن تسافر معه دون رجعة كي يعيشا ذلك الحب المطلق العنان الذي خبأاه منذ بدء طفولتهما لكن بيانكا لم تعزم. كانت لاتجهل، أن رحيلها مع بيدرو الثالث، يعني طردها النهائي من وسطها، ومن المركز الذي احتلته دائماً، وأيقنت ألا حظّ لها أبداً بأن تجد مكانها بين أصدقاء بيدرو الثالث، أو أن تتكيف مع حياته المتواضعة في بعض ربضٍ عماليّ. بعد سنين من ذلك، لما وصلت ألبا إلى العمر الذي تحلّل فيه هذا المظهر من حياة أمّها، خلصت إلى نتيجة، أن هذه إن لم تفرّ مع بيدرو الثالث، فالسبب بكل بساطة أن الحبّ لم يكن له هذا الوزن، لأنها لم تجد شيئاً عند آل تروييبا، إلا وكان بوسعه نفسه أن يمنحها إياه. كانت بيانكا امرأة فقيرة جداً، وماكانت تتصرف بشيء من المال إلّا إذا أعطتها إياه كلارا أو باعت إحدى مغاراتها. كانت تربح مالايذكر فتبذره كله تقريباً على المعاينات الطبية، لأن نزوعها إلى الألم من أمراض خيالية لم ينقص بالعمل والبؤس، على العكس، لم يفعل إلّا أن تفاقم سنة بعد سنة. كانت تجتهد في ألّا تطلب شيئاً من أبيها، كي لاتمنحه فرصة لإهانتها. كانت كلارا وجيم يشتريان لها من وقت لآخر ثياباً أو يعطيانها قليلاً كي لايتركاها في العوز، لكنها عادة لم تكن تملك ثمن جورب. وكان فقرها لاينسجم مع الأرواب الموشاة والأحذية اليدوية التي يبرّج بها الشيخ

تروييبا حفيدته ألبا. كانت حياتها شاقّة. كانت تستيقظ صباحاً، شتاء وصيفاً، منذ الساعة السادسة. في الساعة تلك، كانت تشعل فرن المشغل، وهي ترتدي خراطة كتان مشمّعة، وقبقاباً من خشب، وتعدّ طاولات العمل وتعجن الغضار من أجل دروسها وقد انغمس ذراعاها حتى المرفقين في الصلصال الخشن المتجلّد. كانت دائماً، لهذا السبب، أظافرها تتكسّر، وجلدها يتفلّع، وأخذت أصابعها تتشوّه. كانت تلك هي الساعة التي تحسّ فيها أنها ملهمة، وبما أن أحداً لم يقاطعها، كانت تستطيع بدء يومها بصنع دوييّاتها القميئة المخصصة بالمغارات. ثم عليها أن تهتم بالبيت، والخدم، والمشتريات، حتى الساعة التي تبدأ فيها الدروس. كانت التلميذات من بنات العائلات الراقية اللائي لم يكن لهنّ من عمل آخر وقد انتقين مودة الأشغال اليدوية لأنها أليق من الحياكة للفقراء التي تعاطتها الدعيّات.

كانت فكرة التبرع بدروس للمنغوليين وليدة الصدفة. ذات يوم حلّت ببيت الشيخ تروييبا صديقة قديمة لكلارا، تجرّ حفيدها معها. كان يافعاً ضخماً ورخواً وجهه مدور ولطيف كبدر، وتعبير حنون لايتبدل في عينيه الصغيرتين الآسيويتين. ولقد اكتشفت ألبا بأنه مثل طفل، بالرغم من أن له خمسة عشر عاماً. رجت ألبا كلارا بأن تأخذ الطفل وتلاعبه في البستان وتسهر على ألّا يوسّخ ثيابه، أو يغرق في الحوض، أو يأكل التراب أو أن يلعب بفتحة بنطاله. وتعبت ألبا سريعاً من مراقبته، وأمام استحالة الحديث معه بأية لغة مترابطة، قادته إلى مشغل السيراميك حيث بيانكا، حيث ألبسته هذه، شريطة أن يبقى هادئا، خراطة تحميه من البقع واللطخات، ووضعت بين يديه كرة من الصلصال. وبقي الطفل هكذا أكثر من ثلاث ساعات يتسلّى، ودون أن يريل، أو يبول، أو يصدم رأسه بالجدران، وهو يقولب أشكالاً فظة من الخزف حملها بعد ذلك هدية لجدّته. كانت آنذاك السيدة الطيبة قد نسيت أنها جاءت معه، فسرّت كثيراً وهكذا ولدت فكرة أن السيراميك جيد من أجل المنغوليين. وانتهى الأمر ببيانكا إلى أن تعطي دروساً لمجموعة أطفال يجيئون إلى المشغل كل خميس بعد الظهر. كانوا يصلون بشحن صغير تحت عصا راهبتين من ذوات القبّعات

المنشّاة تتخذان مكانهما تحت عريشة البستان، وتحتسيان الشوكلاته مع كلارا، وتناقشان في فضائل القطب المتصالبة ومراتب الخطيئة، بينما تكون بيانكا وابنتها تعلمان الأطفال صنع ديدان من تراب، ودحل وأواني مختلفة الأشكال وكلاباً مهروسة. كانت الأخوات ينظمن في آخر السنة معرضاً وسوقاً خيرية ليلبين تباع فيهما هذه الأعمال الفنية المخيفة بيع صدقات. ولقد لاحظت بيانكا وألبا أن الأطفال يشتغلون أفضل عندما يحسّون أنهم محبوبون وأمارات الحب هي الطريقة الوحيدة للإتصال بهم. وتعلمتا أن تحدبا عليهم، وأن تقبلاهم، وتداعباهم حتى لقد وصل بهما الأمر معاً إلى أن تحباهم في الواقع. كانت ألبا تنتظر كل الأسبوع وصول الشاحنة الصغيرة وفيها ضعفاء العقل، فتطفر فرحاً عندما يركضون كي يقبلوها. لكن أيام الخميس كانت منهكة. كانت ألبا تنام مجهدة، والوجوه الآسيوية الحلوة لطلاب المشغل ماتني تدور في رأسها وبيانكا تتألم حتماً من الصداع. وما أن تغادر الراهبتان في رفرفة القماش النظيف مع كتيبة الزعران الصغيرة وهم يمسكون بأيدي بعضهم، حتى تضم بيانكا ابنتها بعنف إلى صدرها، فتغطيها بالقبل، وتقول لها كم وجب شكر الله لأنها طبيعية. وبسبب ذلك كبرت ألبا على فكرة أن البنية الطبيعية هي هبة من السماء. وناقشت في ذلك يوماً جدّتها:

ـ ألا ترين يا حفيدتي، أنه يوجد في أكثر العائلات مجنون أو أبله، أفادتها جدّتها وهي مستغرقة بحياكتها، لأنها بالرغم من كل تلك السنين ماكانت تعرف كيف تحوك إلا إذا نظرت إلى القطبة. «إن الناس لايلاحظونهم، لأن البشر يخبئونهم كما لو كانوا شيئاً مخجلاً. إنهم يحبسونهم في أقصى الغرف كي لايراهم الزوّار. والحق، أنه لاوجوب للخجل، لأنهم هم أيضاً من خلق الله».

أجابت ألبا: «لكن يا جدّتي، لايوجد عندنا أحد منهم».

ـ لا. بذرة الجنون هنا موزعة بين الجميع ولم تبق منها بقية كي يكون لنا أبلهنا في العائلة.

هكذا كانت تدور أحاديثها مع كلارا. ولقد كانت الجدّة عند ألبا هي

الشخصية المركزية في البيت، والحضور الأكبر في حياتها نفسها. كانت هي المحرّك الذي يطلق ويحرّك هذا الكون السحري الذي كان كالقاعدة في بيت الزاوية الكبير، حيث عاشت ألبا سنواتها السبع الأولى بحرية كاملة. ولقد تعوّدت غرابات جدّتها. وماكانت تستغرب يوماً رؤيتها تتحرك بحالة الوجد، عبر قاعة الجلوس، وهي قاعدة في كرسيّها، وقد طوت ساقيها، ودفعتها بعض قوّة لاترى. كانت تلحق بها في جولاتها، حتى المستشفيات وملاجئ الإحسان حيث كانت كلارا تجتهد في إيجاد أثر قطيعها من المحتاجين، وقد آل بها الأمر حتى إلى تعلم حياكة تلك السترات، بصوف من أربعة خيوط وصنّارات ضخمة، التي كان خالها جيم يهبها ولم يلبسها غير مرّة واحدة، وما ذلك إلا كي ترى ابتسامة جدتها الهتماء التي تصاب بالحول لمّا تستدرك قطبها. وكانت كلارا تعتمد عليها غالباً بحمل رسائلها إلى إيستيبان، وأطلق عليها لقب الحمامة الزاجلة. وكانت البنية تشارك في جلسات الجمعة حيث كانت المائدة تتقافز في رابعة النهار، دون تدخل أية خدعة، أو رافعة أو طاقة معروفة، وتحضر الأمسيات الأدبية التي يتعاقب فيها المعلّمون المكرّسون وعددٌ متغيّر من الفنانين الخجولين المجهولين الذين كانت كلارا ترعاهم بحمايتها. في تلك الفترة كان كبيراً عدد الضيوف الذين يجدون الشراب والأكل في بيت الزاوية الكبير. كانت تتناوب العيش فيه ـ أو تحضر على الأقل الاجتماعات الروحية، أو الأحاديث الثقافية أو السهرات الاجتماعية ـ تقريباً كل نخبة البلاد ومنهم الشاعر نفسه الذي عدّ، بعد عدد من السنين، أكبر شاعر في القرن، وترجم إلى كل اللغات المعروفة على الكوكب، وقد جلست ألبا على ركبتيه مرّات عديدة دون أن تشكّ أنها سوف تمشي يوماً وراء نعشه، وباقة قرنفل دامية في يدها، بين صفين من الرشاشات.

لم تكن كلارا متقدمة كثيراً بالعمر، لكنها كانت تظهر في عيني حفيدتها على شيخوخة قصوى، لأنها كانت بلا أسنان. وكانت أيضاً من غير تجاعيد وكانت إذا أبقت فمها مطبقاً، خلق عندها تعبير البراءة في وجهها وهم الشباب العظيم. كانت ترتدي جلباب كتّان خام يشبه قمصان المجانين، وكانت تلبس

في الشتاء جرابات صوف سميكة وقفّازين. وكانت أقل الحكايات نكتة تجعلها تقهقه، ولم تكن بالمقابل قادرة على فهم معنى المزاح، كانت تضحك في غير الوقت المناسب، عندما يتوقّف الجميع عنه، وتغرق في كآبة عميقة لما ترى أحدهم يقوم بدور المهرّج. وكانت تتألم بين حين وآخر من أزمات الربو. عندها كانت تدعو حفيدتها بجرس من فضة تحمله دائماً معها، فتأتي ألبا راكضة، فتهدهدها، وتعتني بها، وتوشوش لها بكلمات صغيرة كي تشد من أزرها، لأنهما تعرفان معاً بالتجربة ألا شيء يقهر الربو إلا عناق طويل لكائن غال. كانت عيناها براقتين بلون البندق، وشعرها أشيب لامع، تجمع في كعيكة غير منتظمة تفرّ منها خصل متمرّدة، ويداها ناعمتان على قدر بياضهما، وأظافرها كلوز وأصابعها طويلة من غير خواتم لاتستعملها إلا في إيماءات الحنان، وصف أوراق التنبؤ وإعادة طقم الأسنان إلى موضعه في ساعات الوجبات. وكانت ألبا تقضي يومها في اللحاق بجدتها، فتندس بخراطتها، وتدغدغها كي تروي لها الحكايات أو تحرّك الفازات بقوّة الفكر وحدها. كانت تجد فيها ملجأ أميناً عندما تقتحمها كوابيسها أو لما يغدو التدريب الذي يخضعها له خالها نيكولاس غير محتمل. وقد علمتها كلارا العناية بالطيور، والحديث مع كل امرئ بلغته، وأن تتعرّف إلى إشارات نذر الطبيعية وأن تحوك دثارات للأنف مخرّمة للفقراء.

كانت ألبا تعرف أن جدتها هي روح بيت الزاوية الكبير. أما الآخرون فلم يعرفوا إلا متأخّرين، عندما ماتت كلارا، وتعرّت الدار من زهورها، ومن الأصدقاء العابرين، والأرواح اللعوب كي تدخل باب التداعي الوسيع.

كان عمر ألبا ست سنوات لما رأت إيستيبان جارسيا للمرّة الأولى، لكنّها لم تستطع أن تنساه أبداً. ربما كانت رأته قبلها في السابق في الماريّات الثلاث في هذه أو تلك النزهة الصيفية مع جدّها، عندما كان يأخذها هذاكي تجوب الملكية، ويدلها بحركة فسيحة على كل مايضمّه النظر من مزرعة الحور إلى

البركان، وفيها بيوت القرميد الصغيرة، قائلاً لها أنه يجب أن تتعلّم حبّ هذه الأرض، لأنها يوماً ما سوف تصبح لها.

كان يقول لحفيدته: «إن ابنيّ فوضويان، وليس أحدهما أفضل من الآخر. لو ورثا الماريّات الثلاث. لهوى كل ذلك إلى الخراب كما كان في زمن أبي نفسه».

- كل هذا هو لك، يا جديّ؟

- كله من الطريق عابر أمريكا حتى قمم تلك التلال. هل ترين؟

- لكن، لأي سبب، يا جدّي؟

- كيف، لأي سبب؟ لأني مالكها، هذا الهذار!

- نعم، لكن لم أنت مالكها؟

- لأن ذلك كان في العائلة.

- ولم؟

- لأنهم اشتروها من الهنود.

- والفلاحون، الذين عاشوا دائماً هنا، لماذا ليسوا هم المالكين؟

- إن خالك جيم هو في سبيله إلى حشو جمجمتك بأفكار بولشفية! قال الشيخ ترويبا شاكياً، محتقناً من الغضب. هل تعرفين مايحدث هنا، لو لم يكن فيها ملّاك؟

- لا.

- يذهب كل شيء هدراً! لايبقى من يعطي أمراً، من يبيع المحصول، من يأخذ كل شيء على مسؤوليته، أتفهمين؟ لايبقى من يهتم بالناس. إذا مرض أحد منهم، مثلاً، أو مات تاركاً أرملة وقطيعاً من الأطفال، فإن هؤلاء يموتون جوعاً. لايبقى لكل امرئ غير قطعة أرض بائسة لاتكفي لإطعام أهله. إنهم بحاجة لمن يفكر عنهم، من يتخذ القرارات، من يساعدهم. لقد كنت أحسن مالك في المنطقة يا ألبا. أنا طبعي طبع خنزير، لكني عادل. إن مزارعيّ يعيشون

أفضل من كثير من أهل المدينة، لاينقصهم شيء، بل إذا كانت سنة جفاف، أو فيضان، أو هزة أرضية، فإني أهتم بألا يبقى أحد في عوز. وهذا مايجب أن تعملي بدورك عندما تصلين إلى العمر اللازم، ولذلك آتي بك دائماً معي إلى الماريات الثلاث، حتى تعرفي كل حجر، كل دابة، وبخاصة كل إنسان باسمه وكنيته. هل فهمت ماقلت لك؟

ـ والحق، أن صلاتها كانت قليلة جدّاً مع الفلاحين وكانت بعيدة عن أن تعرف كلاً باسمه وكنيته. وهذا ماجعلها لاتعرف الشاب الأسمر، الأخرق، المخلّع، صاحب عيني قاضم قاسيتين، الذي جاء إلى العاصمة، يوماً بعد الظهر، فطرق باب دار الزاوية الكبير. كان يرتدي بزة غامقة، ضيقة جداً على قامته. كان القماش على ركبتيه ومرفقيه وردفيه قد بلي، وصار قشرة لامعة، قال إنه يرغب بأن يتكلم مع الشيخ تروييبا وقدّم نفسه أنه أحد أبناء مزارعيه في الماريات الثلاث. في الأوقات العادية لم يكن الناس الذين من طبقته يدخلون إلّا من باب الخدمة ثم يجعلونهم ينتظرون في غرفة الخدمة ثم يؤتى بهم إلى المكتبة. لكن في ذلك اليوم أقيمت في البيت حفلة، ساهم فيها أركان الحزب المحافظ. وقد اكتسح المطبخ لواء خدم بالفراك وأعوان الطباخين جاء بهم تروييبا من النادي، وسادت فوضى وحركة لايمكن للزائر إلا أن يزعجها. وكان ذاك بعد ظهر شتائي، والمكتبة مظلمة وصامتة، تضيئها النار التي تطقطق في المدخنة فحسب. وتطفو رائحة شمع للخشب والجلد.

قالت له الخادمة بلهجة سيئة: «انتظر هنا، لكن لاتلمس شيئاً. لن يتأخر الشيخ». وتركته وحيداً.

وتحرى الشاب الغرفة بالنظر، دون أن يجرؤ على الشروع بأية حركة، وهو يجتر بضغينة أن كل مايراه كان يؤول إليه لو أنه خلق بانتساب شرعي كما شرحت له مرّات كثيرة جدته بانتشا جارسسيا قبل أن تهلك بتشنجات الحمى الحادة وتتركه يتيماً لاعلاج ليتمه، بين جمهور من الأخوة وأبناء العمومة لم يكن هو بينهم شيئاً. جدّته وحدها هي التي ميّزته من بين الكومة ولم تسمح له أن ينسى بأنه مختلف عن الآخرين، لأن ما يجري في عروقه هو دم السيّد.

فشعر بالاختناق، وفحص المكتبة. كل الجدران كانت تغطيها رفوف الأكاجو المصقول إلا من جهتي المدخنة حيث تقوم خزانتان زجاجيتان ازدحمتا بالعاج وحجارة الشرق الأقصى الكريمة. كانت الغرفة على مستويين، نزوة المعماري الوحيدة التي وافق عليها جدّه. كان هناك رواق يقوم مقام طابق ثان فوق الرفوف، يمكن الوصول إليه بدرج من حديد مطرّق حلزوني. كانت أفضل لوحات البيت توجد هنا، لأن إيستيبان تروييبا جعل من هذه الغرفة حرمه، ومكتبه، وملاذه، وكان يحب أن يرى الأشياء التي يتمسك بها كثيراً قريبة منه. كانت الرفوف ملأى بالكتب والأشياء الفنية، من الأرض حتى السقف. كان هنالك أيضاً مكتب ثقيل الخشب من طراز إسباني، ومقاعد كبيرة من جلد أسود تدير ظهورها إلى النافذة وأربعة بسط فارسية تغطي أرضية خشب السنديان وعدة لمبات للقراءة أباجوراتها من رق، وزّعت استراتيجياً: أينما جلست، يأتيك من النور مايكفيك للقراءة. في هذا المكان كان يفضّل الشيخ أن يحبك مؤامراته ويحوك دسائسه، ويمكر بأعماله التجارية، وفي ساعات العزلة الكبرى، يحبس نفسه كي يهدئ من غيظه، ويخمّر كبته وحزنه. لكن هذا كله لم يكن بوسع الفلاح الفتى إلا أن يجهله، وهو واقف على سجادته، لايعرف مايفعل بيديه اللتين رطّبهما الخجل. كانت هذه المكتبة الفخمة، الضخمة والساحقة، تتلاءم تماماً مع الصورة التي عنده عن السيّد. وارتجف من حقد ومن خوف. لم يجد نفسه من قبل يوماً في مثل هذا المكان، فهو كان يظن حتى الآن أن أفخم مكان موجود في الكون كله هو سينما سان لوكاس حيث أخذت معلمة المدرسة يوماً الصفّ كاملاً كي يحضر فيلماً لطرزان. لقد كلّفه كثيراً اتخاذ قراره، وإقناع عائلته، والقيام بالرحلة الطويلة حتى العاصمة، وحيداً ودون مال، كي يأتي ويكلّم السيّد. لم يكن بوسعه الانتظار حتى الصيف كي يقول له كل مايثقل صدره. وأحس فجأة أن أحداً يراقبه. والتفت فوجد نفسه وجهاً لوجه وبنيّة ذات جدائل وجوارب مخرّمة تتأمله من العتبة.

سألته الطفلة: «ما اسمك؟».

قال لها: «إيستيبان جارسيا».

ـ أنا، أدعى ألبا تروييبا. تذكر جيّداً اسمي.
ـ سوف أذكره.

تفحّص كل منهماالآخر مدة طويلة، ثم، وحين أحست ألبا أنها في أمان تجرأت فاقتربت، وشرحت له أنه يجب أن ينتظر، لأنّ جدها لم يرجع بعد من المجلس، وروت له أنهم في المطبخ لايعرفون أين يضعون أقدامهم بسبب الحفلة، ووعدته أنها سوف تحصل بعد لأي على بعض الحلوى كي تأتيه بها. وأحسّ إيستيبان جارسيا أنه مرتاح أكثر. واتخذ مكاناً له في أحد مقاعد الجلد الأسود، وقليلاً قليلاً، شدّ البنية وأجلسها على ركبتيه. كانت ألبا تفوح برائحة قشر الجوز يختلط عبيره برائحة الطفلة المتعرّقة الطبيعية، قرّب الشاب أنفه من رقبتها وتنشّق ذلك العرف المجهول من نظافة ورفاه، ومن دون أن يعرف السبب، امتلأت عيناه بالدموع، وأحسّ أنه يكره تلك الطفلة تقريباً كما يكره العجوز تروييبا. كان كل مايحرم منه أبداً يتجسّد فيها، ما لن يكون هو نفسه أبداً. كان يودّ لو يؤذيها، لو يدمّرها، لكنه كان يشتهي أيضاً أن يستمرّ بتنشّق عبيرها، والإصغاء إلى ثرثرتها الطفلية، وأن يجعل جلدها الناعم في متناول يده. داعب ركبتيها، تماماً على حافة الجرابات المخرّمة، كانتا رطبتين لهما حفيرات صغيرة. وثرثرت ألبا مابوسعها عن الطباخة التي تضع الجوز في است الدجاج من أجل عشاء المساء. أغلق عينيه، وبدأ يرتجف. أحاط بيد عنق البنيّة، وأحس بضفائرها تزغزغ قبضته، وبدأ يضغط بلطف، وهو يشعر أنها من الصغر بحيث يستطيع أدنى ضغط أن يكفي لخنقها. وتمنى لو يفعل، كان يود لو يحسّ بها تختلج، وتضرب برجليها على ركبتيه وتتخبّط بحثاً عن قليل من الهواء. اشتهى أن يسمعها تتأوّه وتموت بين ذراعيه، اشتهى أن يعرّيها، وأحسّ أنه فريسة هياج عنيف. وقامت يده الأخرى بغزوة تحت الروب المنشى، وصعدت على طول الفخذين الطفلين فالتقت بدانتيلا الخراطة الباتيستائم بربوتة الصوف ومطاطها. كان يلهث. وفي زاوية من مخه بقي عنده مايكفي من الفهم كي يدرك بأنه واقف الآن على حافة هوّة. توقفت البنية عن الكلام، بقيت هادئة، تنظر إليه بعينيها السوداوين الكبيرتين. وأمسك إيستيبان جارسيا بيد الطفلة وضغط بها على عضوه المتصلب.

سألها بصوت أجشّ: «هل تعرفين ماهذا؟».

أجابت: «عضوك». لأنها رأته على لوحات كتب الطبّ عند خالها جيم، وعند خالها نيكولاس حين كان يخطو عارياً لدى قيامه بتمارينه الآسيوية.

وخاف فجأة. ونهض بفظاظة وسقطت البنية على السجّادة. لقد دهش وانتابه الرعب، وارتجفت يداه، وأحس أن ساقيه من قطن، وأذنيه تحترقان. في تلك اللحظة سمع خطو الشيخ ترويبيا في الممر: بعد لحظة وقبل أن يسترد أنفاسه، دخل العجوز إلى المكتبة.

ـ لماذا كل هذا الظلام هنا؟ زأر بصوته الضخم كهزة أرضية.

وأشعل ترويبيا اللمبات فلم يعرف الفتى الذي كان يتأمله بعينين جاحظتين. ومدّ ذراعيه لحفيدته فالتجأت إليهما هنيهة قصيرة بهيئة كلب ضرب، وتخلصت منهما بعد قليل وخرجت فأغلقت الباب.

ـ من أنت يا هذا؟ رمى بهذا القول الذي لم يكن سوى حفيده.

ـ إيستيبان جارسيا. ألا تذكرني يا سيدي؟ توصل هذا إلى أن يغمغم.

تذكّر عندها ترويبيا الأزعر الماكر الذي وشى ببيدرو الثالث، لسنين خلت، والذي جمع من الأرض الأصابع المقصوصة. وفهم أنه ليس سهلاً عليه أن يطرده قبل أن يصغي إليه، بالرغم من أن القاعدة عنده أنّ مشاكل مزارعيه يحلّه الوكيل في الماريّات الثلاث.

سأله: «ماذا تريد؟».

وتردّد إيستيبان جارسيا، فلم يتوصل إلى إيجاد الكلمات التي أعدّها بدقة، خلال شهور، قبل أن يجرؤ فيطرق باب السيّد.

قال ترويبيا: «أسرع، فليس لدي كثير من الوقت».

وتوصل جارسيا إلى أن يعرض طلبه بصوت متلجلج: أنهى دروسه في كلية سان لوكاس، ويريد توصية منه لمدرسة الشرطة ومنحة من الدولة لنفقات دراسته. وألح إيستيبان قائلاً:

ـ اعذرني يا سيدي، إني أريد أن أكون شرطياً.

وتذكّر تروييبا بأنه مدين له بجائزته عن الوشاية ببيدرو الثالث جارسيا، فقرر أن تلك فرصة طيبة يصفّي فيها دينه، وبالمناسبة أن يكون أحد في خدمته في البوليس. «من يدري، ربما احتجت إليه فجأة» قال في نفسه. وجلس على مقعده الضخم، وأمسك بورقة مروّسة باسم مجلس الشيوخ ودبّج التوصية بالصيغة المعروفة وأعطاها للشاب الذي كان ينتظر، مزروعاً كوتد.

ـ خذ يا بني، أنا سعيد بأنك انتقيت هذه المهنة. إذا كان مايجذبك إليها أن تخطر بسلاح فعندك الخيار بين أن تكون في الجندرمة أو لصّاً: لكنّ الأفضل أن تكون شرطيّاً، لأنك تبقى من دون عقاب. سوف أتلفن للرائد هورتادو، فهو صديقي، كي يمنحوك منحة. إن كنت بحاجة لشيء آخر، أنبئني.

ـ ألف شكر يا سيدي.

ـ لاتشكرني، يا بني. أحبّ أن أساعد ناسي.

وأذن له بالخروج بتربيتة صداقة على كتفه.

سأله عند عتبة الباب: «لماذا سمّوك إيستيبان؟».

أجاب الآخر محمراً: «بسببك يا سيّدي».

ولم يفكر تروييبا بالأمر أكثر من ذلك. فلم يكن نادراً أن يلجأ المزارعون إلى أسماء سادتهم كي يعمّدوا بها أبناءهم، تيمناً باحترامهم.

ماتت كلارا في اليوم نفسه الذي بلغت فيه ألبا السابعة. ولم يلحظ إشارة موتها الأولى المنبئة إلاها. بدأت عندها تأخذ بعض التدابير سرّاً من أجل رحيلها. وزعت ثيابها، في أشدّ كتمان على الخدم، وكتيبة المحميين التي كانت تعيلهم دائماً، فلا تحتفظ لنفسها إلا بالضروري. نظمت أوراقها، وأخرجت من أبعد المخابئ دفاترها للملاحظات عن الحياة. وربطتها بشرائط ملوّنة، ورتبتها تبعاً للأحداث، لاحسب التسلسل التاريخي، لأن الشيء الوحيد الذي لم تسجله، هو التواريخ، وقررت في عجلة الساعة الأخيرة أنها لاتستطيع بعثرة وقتها بتدقيقها. وبينما هي تبحث عن دفاترها، أظهرت حلاها المخبأة في علب الأحذية، وأسفل جوارب قديمة، في قعر الخزائن، حيث خزنتها منذ الزمن الذي

قدمها لها فيه زوجها في أمل الحصول على حبّها، ودسّتها في جراب قديم من صوف أغلقته بدبّوس أمان، وأعطته كله لبيانكا.

ـ احفظي هذا جيّداً يا ابنتي الصغيرة. يمكن أن يفيدك يوماً في غير التنكّر.

وفاتحت بيانكا جيم بالأمر فأخذ هذا يراقبها. لاحظ أن أمه تعيش حياة عاديّة في الظاهر، لكنها تكاد لاتتغذى أبداً. كانت تأكل حليباً وبضع ملاعق من عسل. وماكانت تنام مطلقاً، تقضي الليل بالكتابة والتجوال عبر البيت. كانت كأنها تنفصل عن أشياء الدنيا، تغدو من يوم إلى يوم أخفّ، أكثر شفافية، هوائية أكثر.

قال جيم بلهجة قلقة: «واحد من الأربعة، إنها سوف تغادرنا بلا استئذان، بأن تطير منّا».

فجأة أخذت تختنق، أحست في صدرها عدو حصان محتدم وغمّ فارس ينقض بأقصى سرعته ضدّ الريح، قالت إنه الربو، لكنّ ألبا أدركت أنها تناديها من دون جرس الفضة كي تأتي لتشفيها بمداعباتها الطويلة. وصباحاً، رأت جدّتها تفتح أقفاص الطيور في حبور لايدرك.

ودبجت كلارا بطاقات صغيرة إلى كل أحبائها، وماكانوا بالأقلّين عدداً، ودستها سرّاً بعلبة تحت سريرها. وفي صباح اليوم التالي لم تنهض وعندما وصلت الخادمة بفطور الصباح، لم تسمح لها بأن تفتح الستائر. بدأت أيضاً بالاستئذان من النور قبل أن تقوم بدخولها البطيء بين الأشباح.

ولما أُنبئ جيم جاء ليراها ولم يشأ قطعاً أن يذهب قبل أن تدعه يفحصها. لم يستطع أن يجد شيئاً غير عادي في حالتها، لكنه لم يشك لحظة بأنها سوف تموت. وترك الغرفة بابتسامة عريضة وخبيثة، لكنه، حين أصبح بعيداً عن نظر أمّه اضطر إلى أن يستند على الحائط فقد خانته ساقاه. لم يقل شيئاً لأحد في البيت. واستدعى اختصاصياً كان أستاذه في كلية الطب، وفي اليوم نفسه، حضر هذا إلى بيت تروييبا. وبعد أن رأى كلارا، أيّد تشخيص جيم. فجمعا العائلة في الصالون، ودون مقدمات لامعنى لها، أخبراها أن كلارا لن تعيش

العائلة في الصالون، ودون مقدمات لامعنى لها، أخبراها أن كلارا لن تعيش أكثر من أسبوعين أو ثلاثة، وأن الشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو أن يبقوا معها، لعلّها تموت مرتاحة.

قال جيم: «أظنها قررت أن تموت موتاً طبيعياً، وليس لدي العلم من دواء أبداً لهذا المرض».

وأمسك إيستيبان ترويبا بابنه من ياقته وكاد يخنقه، وطرد الاختصاصي، من دون مجاملة، وكسر بعصاه لمبات وخزف الصالون. وأخيراً، سقط على ركبتيه وهو يستهلّ[1] مثل وليد. ودخلت في تلك اللحظة ألبا، حتى إذا رأت جدّها في وضع يرفع من قدره، اقتربت، وتميّزته بهيئة مدهوشة، فلما رأت دموعه، داعبته. وعلمت البنيّة بالخبر من دموع العجوز. لقد كانت الوحيدة في البيت التي لم تفقد هدوءها، بفضل تدريبها على احتمال الألم ومن واقعة أن جدّتها شرحت لها كثيراً سياق الموت وغمراته.

كانت كلارا تقول لها: «لايختلف موتنا، عن لحظة المجيء إلى العالم، فنحن نخشى المجهول، غير أن الخوف هو شيء داخلي فينا، ليس له علاقة بالواقع. وهكذا فالموت هو كالولادة: تبدل بسيط».

وأضافت أنها مادامت كانت تتّصل بسهولة مع أرواح العالم الآخر، فهي مقتنعة قطعاً بقدرتها أن تفعل بعد فوات أوانها مع أرواح الدنيا، حتى أنها بدل البكاء، كانت إذا دنت ساعتها، تتمنى أن تحتفظ بكل هدوئها: إن الموت عند المعنيين، ليس فراقاً، وإنما طريقة لاتحاد أقوى، ولقد فهمتها ألبا تماماً.

وبعد قليل بدا أنّ كلارا تغرق في نوم حلو، لايرى إلا جهدها في إدخال الهواء في رئتيها دالاً على أنها مازالت حية. مع ذلك ظهر أنّ الإختناق لم يقلقها، ولم تتخبط لحظةً كي تعيش. وبقيت حفيدتها طول الوقت عند رأسها. لقد اضطروا لأن يرتجلوا لها سريراً ملاصقاً للأرض، لأنها رفضت أن تترك الغرفة، ولما أرادوا إخراجها بالقوّة، أصيبت بأوّل أزمة أعصاب. و ماكانت ألبا

---

١ ـ صراخ الوليد.

تنفك عن التفكير بأن جدّتها تدرك كل شيء وأنها بحاجة لها. وقبل النهاية بقليل رجع لكلارا وعيها واستطاعت أن تتكلم بهدوء. وأول شيء لاحظته، هو يد ألبا بين يديها.

سألتها قائلة: «سوف أموت، يا حفيدتي، أليس ذلك حقّاً؟».

أجابت البنية: «هذا صحيح يا جدتي، لكنه ليس مهمّاً مادمت معك».

ـ حسن جدّاً. خذي من تحت السرير علبة بطاقات ووزعيها، لأني لن أستطيع أن أقول وداعاً لكل أحد.

وأغلقت كلارا عينيها، وأرسلت تنهدة رضىً ورحلت إلى العالم الآخر دون أن تلقي نظرة إلى الوراء. كانت العائلة مجتمعة حولها، جيم وبيانكا وقد انقبضت أساريرها من ليالي السهر، ونيكولاس يتمتم صلوات سنسكريتية، وإيستيبان وقد تقلّص فمه وقبضتاه، وغضبه وحزنه دون حدود، والصغيرة ألبا التي حافظت وحدها على صفائها. كان يقف هناك أيضاً الخدم، والأخوات مورا، وزوج من الفنانين الجائعين وقد وجدا معيشتهما في البيت خلال الشهور الأخيرة، والراهب الذي استجاب لدعوة الطباخة لكنه لم يجد مايعلمه فلم يسمح ترويبيا بأن يزعجوا الميتة باعترافات آخر دقيقة ورشّ الماء المقدس.

وانحنى جيم على الجسد، فأصغى بأذنه إلى بعض دقات قلب خافتة، لكن عبثاً.

ـ ذهبت ماما، قالها في جهشة بكاء.

الفصل العاشر

عهد العجز

لا، أنا لاأستطيع الحديث عنه، ولكني سأحاول أن أضعه أسود على أبيض. عشرون سنة مضت، زمن طويل والألم الذي كابدته فيها لايريد أن يخفّ. خلت أني لن أصل أبداً إلى العزاء منها، لكني اليوم، وقد بلغت التسعين عاماً، فهمت ماأرادت أن تقول عندما أكّدت لنا أنها لن تجد صعوبة في الاتصال بنا، نظراً لتجربتها الطويلة في هذه المسائل. حتى هنا، كنت أغدو وأروح كأني في ضياع، أبحث عنها في كل مكان. كل مساء، عندما أرقد، كنت أتخيّلها إلى جانبي، كما كانت في الزمن الذي كانت فيه كل أسنانها موجودة وكانت تحبني. كنت أطفئ النور، وأغمض عيني وأجتهد في ظلام غرفتي أن أتمثّلها، أناديها في يقظتي وكما قيل. أناديها أيضاً في نومي.

ليلة ماتت، حبست نفسي معها. بعد كل هذه السنين التي لم يوجه فيه الكلام أحدنا إلى الآخر، تقاسمنا تلك الساعات الأخيرة متمددين على طول الفرقاطة على بحر الحرير الأزرق الهادئ، كما كانت تحب أن تدعو سريرها، واستغللت ذلك كي أقول لها ما لم أستطع قوله لها حتى ذلك الوقت، كل ما صمت عنه منذ ذلك المساء الفظيع الذي ضربتها فيه. نزعت عنها قميص النوم وفحصتها بانتباه، بحثاً عن أثر مرض ما يبرّر موتها، فلم أجد ووجب علي أن أكتشف أنها ببساطة قد انتهت مهمتها على الأرض وطارت إلى عالم آخر.

وأصبحت روحها، وقد تحررت من كل الأثقال الأرضية، أكثر راحة. لم أجد أي تشوّه، أي شيء فيها مايخيف بالموت. تأملتها طويلاً، لأني منذ عدد من السنين لم يتح لي أن أنظر إليها على هواي، وفي هذه الفترة تغيّرت زوجتي كما يحدث لنا جميعاً مع العمر. بدت كما كانت دائماً جميلة. نحلت، وخلت أنها امتدّت وأن قامتها طالت، لكني فهمت بعد لأي أن هذا ليس إلا من تأثير النظر، سبّبه تقاصري أنا. من قبل، كنت أحسني عملاقاً إلى جانبها، لكني، وأنا نائم بجانبها على السرير، استطعت أن ألاحظ أننا بالطول نفسه تقريباً. كانت تعرض الشعر الأجعد المتمرد نفسه الذي كان يسحرني في فترة زواجنا وجمّله بعض خصل بيضاء، كانت تضيء وجهها النائم. كان وجهها شاحباً جداً، وعيناها محاطتين بالزرقة، وللمرّة الأولى لاحظت تجاعيد صغيرة. دقيقة جدّاً عند ملتقى الشفتين وفي الجبين. كأنها طفلة. كانت متجلّدة، لكنها لم تكن أقل، مما كانت دائماً، الرقّة التي جعلتها امرأة، واستطعت أن أكلمها بهدوء، وأن أداعبها، وأن أنام هنيهة عندما انتصر النوم على الشجن، دون أن يفسد لقاءنا حدث الموت الذي لايردّ لقد انتهينا إلى أن نتصالح.

وعند الفجر نهدت إلى تحضيرها حتى يجدها كل من يراها حسنة العرض. ألبستها جلباباً أبيض كان معلقاً في خزانتها، وعجبت حين لم أجد إلا قليلاً من الثياب، لأني تعودت فكرة المرأة التي تلبس بأناقة. ووقعت على جوارب صوفية فألبستها إياها كي لاتبرد رجلاها، لأنها برّيدة جداً. ثم مشطت شعرها وأنا أرمي إلى صنع كعيكتها، على عادتها، لكن خصلها أخذت تحت الفرشاة تتجعد في كل الجهات حتى أحاطت وجهها بهالة وخلت أنها هكذا أجمل. بحثت عن حليّها كي أضع لها بعضاً منها، لكن لم أجد منها شيئاً، وهكذا وطدّت النفس على أن أخلع خاتم الذهب الذي ألبسه منذ خطوبتنا ووضعته في إصبعها كي يحلّ محل الذي انتزعته ساعة انفصالها عني. وأصلحت الوسائد، وشددت الأغطية، وصببت لها بضع نقط من ماء الكولونيا في رقبتها، وفتحت النافذة كي يدخلها الفجر. وعندما أصبح كل شيء جاهزاً، فتحت الباب وسمحت للأولاد وحفيدتي أن يدخلوا كي يودّعوها. وجدوا

كلارا مبتسمة، جميلة ونظيفة، على صورة ما كانت عليه دائماً. أما أنا فقد قصرت عشرة سنتيمترات، وكنت أسبح في حذائي وقد ابيضّ شعري نهائياً، لكنني انقطعت عن البكاء.

قلت: «بوسعكم أن تدفنوها. واستفيدوا من دفن رأس حماتي بالمناسبة، الذي يجب أن يكون في مكان ما من القبو منذ زمن طويل»، أضفت ذلك وأنا أخرج جارّاً قدمي لئلا أفقد حذائي.

وهكذا عرفت حفيدتي أن مايوجد في علبة قبعة جلد الخنزير الصافي، التي استخدمتها كي تلعب بصلواتها السوداء، وتزين بها بيوتها الصغيرة في القبو، لم يكن سوى رأس أمّ جدّتها نيفيبا، الذي بقي هكذا طويلاً دون أن يوارى، أولاً لتجنب الفضيحة، وثانياً من أجل سبب بسيط، أنهم في فوضى هذا الكوخ، قد انتهوا إلى نسيانه. ولقد قمنا بالأمر بغاية السرية، كي لاتتناولنا الأقاويل. وبعد أن انتهى عمال المواكب الجنائزية من وضع كلارا في تابوتها وتحويل قاعة الجلوس إلى قاعة موت سجف وكريب سوداء، وشموع تقطر ومذبح مرتجل فوق البيانو، أدخل جيم ونيكولاس رأس جدتهما في النعش وقد حال إلى لعبة مصفّرة هيئتها ترتعد رعباً، لعله يرتاح قرب ابنته المفضّلة.

كانت جنازة كلارا حدثاً. وإني لأجد صعوبة في شرح من أين كان يخرج كل هؤلاء الناس الحزينين لموت زوجتي. كنت أجهل أنها تعرف كلّ هؤلاء الناس. لقد مرّت مواكب لاتنتهي كي تأتي فتشدّ على يدي، وسدّ رتل طويل من السيارات كل منافذ المقبرة، ثم جاءتنا وفود فقراء غريبة، وتلاميذ، ونقابات عمال، وراهبات، وأولاد منغوليون وغجر، ومستحضروا أرواح. وكل مزارعي الثلاث ماريّات تقريباً قاموا بالرحلة، بعضهم للمرّة الأولى في حياته، في سيارات الشحن أو القطار كي يودعوها. وفي هذا الحشد، رأيت بيدرو جارسيا الصغير، الذي لم أره منذ عدد من السنين. وأتيت نحوه كي أحيّيه، لكنه لم يجب على مبادرتي. اقترب من القبر المفتوح، خافض الرأس فرمى على نعش كلارا باقة ورد نصف ذابلة من زهور الحقل التي كانت هيئتها أزهاراً انتزعت من البستان المجاور. كان يبكي.

حضرت ألبا الاحتفالات الجنائزية وقد أعطتني يدها. ورأت النعش ينزل في الأرض التي حصلنا على امتيازها المؤقت، واستمعت إلى الخطب التي مجّدت الفضائل الوحيدة التي لم تكن تملكها جدّتها، ولما رجعنا إلى البيت، ركضت وحبست نفسها في القبو، تنتظر أن تتّصل بها روح كلارا كما وعدت. وهناك وجدتها أخيراً، تبتسم في نومها على جلد بارّاباس الذي قرضه العثّ.

في تلك الليلة لم أستطع النوم. واختلط في أفكاري حبا حياتي الوحيدان، روزا، روزا الخضراء الشعر، وكلارا النافذة العقل وهما الأختان اللتان أحببتهما كل هذا الحبّ. وعند الفجر، قررت أني إن لم أستطع أن أجعلهما لي في حياتهما، فلسوف ترافقاني في الموت على الأقلّ، حتى لقد أخذت بعض الأوراق عن المكتب وأخذت أرسم أبهى وأبذخ ضريح من مرمر إيطالي وردي برتقالي، وعليه تمثالان من المادة نفسها يمثلان روزا وكلارا بجناحي ملاكين لأنهما كانتا ملكين وملكين سوف تبقيان دائماً. وهناك بينهما الاثنتين سوف أدفن يوماً.

وتمنيت لو أني أموت في أسرع مايمكن، فالحياة بدون زوجتي باتت عندي لامعنى لها. كنت أجهل أن عليّ أن أعمل كثيراً في ذها العالم. لحسن الحظ رجعت كلارا، إلا إذا كانت لم تغادر بتاتاً. أحياناً أقول أن الشيخوخة أفقدتني صوابي، وأني لاأستطيع أن أمرّ مرور الكرام بواقعة أني دفنتها لعشرين سنة خلت. أعتقد أن الرؤى انتابتني كمجنون عجوز. لكنّ هذه الشكوك كانت تتبدّد لما أراها تمشي قريباً مني وأسمع ضحكتها على التّراس، أعرف أنها لاتتركني أبداً، أنها غفرت لي كل عنفي السابق، وأنها أقرب مني من أي وقت مضى. أنها حية دائماً إلى جانبي، كلارا، المضيئة كلارا.

لقد قلب موت كلارا حياة بيت الزاوية الكبير رأساً على عقب. وتغير الزمن. مع كلارا ذهبت الأرواح، والمدعوّون، وهذا الفرح المضيء الذي كان

يهيمن من واقعة أنها لم تكن تؤمن أن العالم وادي دموع، وإنما على العكس هو خاطر عابر من الله الكريم، من أخذه كثيراً كان آخر المعتوهين، لأن الله نفسه لايأخذه كثيراً. ولقد لاحظت ألبا هذا التدهور من الأيام الأولى. وحضرت نموّه، البطيء، لكن الذي لايردّ. تبينته قبل كل الناس بسبب الأزهار التي ذبلت في الفازات، وأشبعت الجوّ برائحة خفيفة، ومقزّزة، وبقيت فيها حتى تقوقعت، وتناثرت أوراقها، وسقطت نتفاً، لم يبق قائماً غير بعض السّوق الجافّة التي لم يفكر أحد بإخراجها منذ أمد طويل. ولم تقطف ألبا بعدُ باقات لتزيين البيت. ثم جاء دور النباتات بالموت، لأن أحداً لم يهتم بسقايتها والكلام معها كما كانت تفعل كلارا. ورحلت القطط خفية، كما أتت، أو كما ولدت في دهاليز حجرات السلالم. ولبس إيستيبان ترويبيا السواد ومرّ بليلة واحدة في نضج الفحل القوي المتفجّر صحّة إلى بداية عجز متلجلج وضامر، لم تتح له إضافة لذلك فضيلة تهدئة غضبه. ارتدى حداداً قاسياً بقية أيامه، مع أن هذا الأمر نفرته المودة فما من أحد يفعله، إلا الفقراء الذين يعلقون بالدبابيس رباطاً أسود في الذراع إشارة عن الحزن. علّق في رقبته، في طرف سلسلة من ذهب، تحت قميصه ملاصقاً الصدر، كيساً صغيراً من جلد الأيّل. كان ذاك طقم أسنان زوجته، وهو عنده له قيمة التميمة والكفّارة. كل من في العائلة أحسّوا أنهم مع كلارا، فقدوا معنى البقاء معاً: عمليّاً لم يبق عندهم مايقول بعضهم لبعض. وأدرك ترويبيا أن الشيء الوحيد الذي يمسك به في بيته هو حضور حفيدته.

وقليلاً قليلاً، على مرّ السنين التي تلت، حالت الدار خراباً. لم يعتن أحد بالبستان، لاسقاية ولاتنظيفاً وبعد لأي طواه النسيان، والطيور، والأعشاب الضارة. هذه الروضات الهندسية التي طلب رسمها ترويبيا على طراز البساتين البلاطية الفرنسية، تلك المنطقة المسحورة التي ملكت عليها كلارا، في الفوضى، والرخاء، في فيض الزهور وتشابك الفيلوداندرون[1]، كل هذا كان يهلك من جفاف ونتن وغزو أشواك. التماثيل العمياء والينابيع المزقزقة غطتها

١ ـ اسم نبات يعيش في الهواء زكي الرائحة.

الأوراق الميتة والطحالب وبراز الطيور. والمظلّات التي تحطمت وتوسخت صارت ملجأ للبهائم ومزبلةٍ للجيران، وغدا محيط البيت وهو ليس سوى سياج قرية معقّد مهمل لاتستطيع التقدم فيه إلا إذا فتحت طريقك بضرب الساطور. والكرمة العملاقة التي كانت تقلم من قبل بطموح باروقي، آلت إلى اليأس من قضيتها بأن فقدت كل هيبتها واقتحمتها الحلزونات والأمراض النباتية. وقليلاً قليلاً انفصلت، في الصالونات، السجف عن كلاباتها وأخذت تتدلّى كخراطات امرأة شرسة، واغبرت وبليت. والمفارش التي كانت تتسلّقها ألبا، وتلعب بأن تجعل لها فيها أكواخاً وملاجئ تردّت إلى جثث خرجت نوابضها وحين فقدت سجادة الجويلين في قاعة الجلوس امتيازها الجسور في أنها مشهد رعوي في فرساي، استخدمت هدفاً لسهام نيكولاس وابنة أخته، واتسخ المطبخ من دهن ومن شحّار، وازدحم بالأواني الفارغة وأكداس الصحف القديمة، وانقطع عن إنتاج أكواب الكريمة بالكاراميلا الفسيحة والقدائر[1] الماضية ذات الروائح الطيبة. وقنع أهل البيت بألا يبلعوا يومياً إلّا الحمّص والرز بالحليب، لأن أحداً منهم لم يكن يجرؤ على مقاومة كتيبة مديرات المطعم، الكثيرات الثآليل، الفظّات، الطاغيات اللائي كن يحكمن بالدور على مجموعات الطناجر التي اسودّت على نار قصورهنّ. ولقد فتحت الهزّات الأرضية، وخبط الأبواب وعصا إيستيبان تروييبا، صدوعاً في الحواجز وفلقت الأبواب، وخرجت مغالق الشبابيك من مفصّلاتها دون أن يبادر أحد لإصلاحها. وأخذت الحنفيّات تنقّط، والأنابيب تهرّب الماء، والقرميد يتفتّت، وبقع الرطوبة المخضّرة تظهر على الجدران. غرفة كلارا وحدها، المفروشة بحرير أزرق، بقيت لم تمسّ. وظل الأثاث من خشبٍ أشقر نفسه، وروبان من قطن أبيض، وقفص الكناري الفارغ، وسلة تحوي المحوكات التي لم تنته، وأوراق اللعب السحرية، والمائدة، وكدسة الدفاتر التي سجّلت فيها ملاحظاتها عن الحياة على مدى نصف قرن، تلك الدفاتر التي بعد مدّة طويلة، في عزلة المسكن القفر، وفي صمت الموتى والذين اختفوا، وضعت بينها النظام وقرأتها بخشوع كي أبني هذه القصة.

---

١ ـ جمع قدير وهو اليخنة الكثيرة التوابل.

وفقد جيم ونيكولاس القليل من الاهتمام الذي كانا يكنّانه للعائلة ولم يشفقا لحظة على أبيهما، الذي عندما توحّد، جهد عبثاً في أن يشيد معهما صداقة تملأ الفراغ الذي تركته حياة كاملة علائقها بائسة. ولئن استمرّا على اختيار السكن في البيت، فلأنهما ليس لهما مكان أكثر ملاءمة للأكل والنوم. لكنهما كانا يمران فيه كشبحين لامباليين، دون أن يتوقفا لتأمل دمار العجز. كان جيم يمارس مهنته كرسول بتلك الصلابة نفسها التي وضعها أبوه في إخراج الماريّات الثلاث من الإهمال وجمع ثروته، لكن ذلك كي ينهك نفسه في المشفى بمداواة الفقراء مجاناً خارج أوقات العمل.

كان تروييبا يتنهد قائلاً: «لست ولن تكون إلا خاسراً أبديّاً يا بني. لست على شيء من معنى الوقائع. أنت لم تدرك حتى الآن كيف يدور العالم. أنت تراهن على قيم طوباوية مابدأت وجودها بعد».

ـ عون القريب هو قيمة حقيقية يا أبي.

ـ لكن لا! إن الإحسان، شأنه شأن اشتراكيتكم، ليس سوى اختراع من الضعفاء يداهنون به القوي كي يستخدموه.

أجاب جيم: «أنا لاأؤمن بنظريتك عن الأقوياء والضعفاء».

ـ إنه مع ذلك شأن الطبيعة دائماً. إن الحياة غابة.

ـ نعم، لأن الذين يصنعون القانون هم من يفكرون مثلك، لكن الأمور لن تسير هكذا دائماً.

ـ لن تسير أبداً على نهج آخر، لأننا نحن عرق الغالبين، من أولئك الذين يتدبرون دائماً الأمر ويعرفون كيف يمارسون السلطة. أصغ إلي، يا بني، ضع نفسك في خدمة نفسك، وافتح عيادة، وسوف أعينك. لكن اقطع صلتك باللوبيات الاشتراكية! كان ايستيبان تروييبا يبشر كذلك دون أن يحصل على أية نتيجة.

لقد بدا أن نيكولاس، بعد أن اختفت أماندا من حياته، أخذ يستعيد بعض توازنه العاطفي. ولقد خلفت فيه تجاربه في الهند ميلاً إلى المغامرات الروحية.

لقد رفض المغامرات التجارية الشاذة التي أفقدته خياله في سنّي شبابه الأولى، مثل رغبته في امتلاك كل النساء اللائي يصادفنه في طريقه والتفت إلى حاجة دائمة وحارّة هي أن يلتقي بالله بأقل الطرق كاثوليكية. وأسعفه السحر نفسه الذي كان يتجلى عنه فيما خلا كي يجتذب تلاميذاً لدروس الفلامينكو، فجمع حوله عدداً ما ينى يتكاثر من المريدين. وكان أكثرهم شباباً تعبوا من حلو الحياة وظلّوا مثله يبحثون عن فلسفة تمكنهم من العيش دون أن يسهموا في الإضرابات الأرضية. وهكذا تألفت جماعة صغيرة على أهبة تلقي التعاليم القديمة التي تشبّع بها نيكولاس في الشرق الأقصى. ولقد كانوا يجتمعون خلال فترة من الزمن في الغرف البعيدة من الجزء الذي لايسكنه أحد في البيت، وتوزع عليهم ألبا الجوز وتقدم لهم النقائع، بينما يبقون هم يتربّعون للتأمل.

ولما عرف إيستيبان تروييبا أن هؤلاء المتقمّصين والرموز يروحون ويجيئون بين ظهرانيه ويتنفسون من سررهم، ويتعرّون في أوّل مناسبة، عيل صبره وطردهم بالتهديد بعصاه وبالبوليس. وفهم عندها نيكولاس، أنه، دون مال، لايستطيع أن يستمر بنشر الحقيقة، فبدأ يأخذ أجوراً متواضعة عن تعاليمه. واستطاع بفضل ذلك أن يستأجر كوخاً يؤدي فيه حلقة الرائين. ولقد سمى الحلقة «معهد الاتحاد مع العدم» م أ.م.ع تجاوباً مع المتطلبات القانونية ولضرورة إعطائها إسماً حقوقياً. لكن أباه لم يكن مستعداً للسماح له بالتصرّف على هواه، لأن أشياع نيكولاس بدؤوا يشغلون عناوين الصحف بجماجمهم المحلوقة ووزراتهم الوقحة، وملامح الغبطة، وهو يجرّون في السخرية اسم آل تروييبا. وما أن عرف أن نبيّ ال. م. أ. م. ع لم يكن سوى ابن الشيخ تروييبا حتى استغلت المسألة المعارضة كي تسخر من هذا واستخدمت جمع الابن للتبرعات الروحية سلاحاً سياسيّاً بوجه الأب. واحتمل تروييبا رابط الجأش، حتى اليوم الذي وجد فيه حفيدته ألبا بجمجمة حليقة مثل طابة البلياردو وهي تعيد دون وني المقطع المقدس: «أوم». عندها نزل سريعاً مترجلاً إلى معهد ابنه مع اثنين من الأقوياء استأجرهما لهذا الغرض فحطموا الأثاث الزهيد وكادوا يحطمون المتقمصين المسالمين، لولا أن أدرك الشيخ مرّة أخرى، أنه تجاوز الحدود، فأمرهما

بأن ينهيا الغارة وينتظراه خارجاً. ولما صار وحده مع ابنه استطاع أن يسطير على هزّة الغضب التي استولت عليه وأن يجمجم بصوت مكبوت بأنه لايستطيع صبراً على جنونه.

وأضاف وهو خارج في خبطة باب أخيرة: «لاأريد أن أراك قبل أن ينبت شعر حفيدتي».

واستجاب نيكولاس منذ اليوم التالي. بدأ بأن أخلى الأنقاض التي تركها وراءهما رجلا أبيه، ثم نظّف البيت، وهو يتنفّس إيقاعيّاً كي يطرد من ذاته كل أثر للغضب وينقّي روحه. ثم سار هو وتلاميذه وليس عليهم سوى وزراتهم، يحملون لافتات تطالب بحرية العبادة واحترام حقوق المواطن، حتى مصبّغة مجلس الشيوخ. هناك أخرجوا مزامير خشب، وأجراساً صغيرة ومفاصل معدنية كيفما اتفق فأثاروا ضجّة غريبة أوقفت المرور. وعندما احتشد جمهور كاف، أخذ نيكولاس يتعرّى عرياً كاملاً، عري الطفل ساعة الميلاد، وتمدد في منتصف الطريق، وذراعاه على شكل صليب. عندها ارتفعت أنغام جوقة من كوابح المنذرين وصياح وصفارات وقد عمّم الإنذار حتى داخل المجلس. وعلّقت الجلسة في مجلس الشيوخ التي يناقش فيها حقّ الملاكين العقاريين في إغلاق الطرق القروية بالأسلاك الشائكة، وخرج أعضاء المجلس إلى الشرفة كي يتمتعوا بهذا المشهد النادر: ابن الشيخ تروييبا ينشد مزامير آسيوية في أبسط لباس ونزل إيستيبان بخطا الهجوم عن أدراج المجلس الكبرى وأسرع إلى الشارع، وهو مستعد لذبح ابنه، لكنه لم يستطع تجاوز المصبغّة، لأنه أحسّ أن قلبه ينفجر في صدره من الغضب وأتت غلالة حمراء فشوشت نظره. وانهار.

وأخذ نيكولاس في عربة الشرطة والشيخ على سيارة صحيّة للصليب الأحمر. دامت نوبة تروييبا ثلاثة أسابيع كادت تودي به إلى العالم الآخر. ومنذ أن استطاع مغادرة الغرفة، أمسك بابنه نيكولاس بجلد رقبته، وأصعده طيارة وأرسله خارج الحدود مع الأمر بألا يظهر أمامه مادام حيّاً. وأعطاه على كل حال مايكفيه من مال للسكن وسد نفقاته زمناً لابأس به، كي يتفادى ولاشك كما بين الأمر جيم، ارتكابه حماقات تقلل من شأنه في الغربة أيضاً.

وكانت ترد إلى إيستيبان تروييبا، خلال السنين التالية أخبار نعجة العائلة الضالة، عبر المراسلة المتفرقة التي كانت تتابعها بيانكا مع نيكولاس. وهكذا عرف أنّ هذا أسس في أمريكا الشمالية أكاديمية أخرى للإتصال بالعدم، بنجاح أدى به إلى جمع تلك الثروة التي لم يجمعها من إقلاعاته بالمنطاد ولامن صناعة الساندويش. وكيما يتوّج الأمر كله، رأوه يغطس مع تلاميذه في مسبحه الخاص الورديّ الخزف، يكتنفه احترام الناس، وهو يمزج بين التبرع لله والحظ في الأعمال التجارية. لكن إيستيبان تروييبا لم يصدق، حقّاً.

وانتظر الشيخ قليلاً حتى نما قليلاً شعر حفيدته، حتى لايظن أنها أصيبت بالقرع، ثم ذهب هو نفسه فسجّلها في كلية إنكليزية للآنسات من العائلات الكريمة، لأنّه ظلّ يفكّر أن تلك أحسن طريقة للتعليم، بالرغم من النتائج المتناقضة التي حصل عليها من ابنيه. وسجّلت بيانكا موافقتها. لأنّها فهمت أن الإتصال الكوكبي في برجها الفلكي لايكفي ألبا للوصول إلى شيء في الحياة. وتعلّمت ألبا في الكلية كيف تأكل الخضروات المطبوخة بالماء والأرز المحروق، وأن تتحمّل البرد في الباحة، وأن تنشد التراتيل وترفض كلّ عبث هذا العالم، ماعدا ماكان رياضياً. علموها قراءة التوراة، واللعب بالتنس والضرب على الآلة الكاتبة. وهذا هو الشيء الوحيد الذي جنت منه بعض الفائدة من كل تلك السنوات في اللغة في اللغة الأجنبية. في عيني ألبا التي عاشت حتى الآن دون أن تسمع كلاماً عن الخطيئة ولاعن لياقة الفتيات المهذبات، والتي كانت ترى أحد خاليها يمرّ بكل الممرات يقوم بشقلبات الكاريتيكا، والثاني غارقاً تحت جبال الكتب، وجدها العنيف وهو يحطّم بضربات العصا التليفونات وأواني أزهار التّراس وأمها تختفي ومعها محفظة المشعوذ، وجدتها تجتهد بتحريك المائدة وعزف شوبان من دون أن تفتح البيانو، في عينها ماكان لروتين الكلية إلا أن يبدو غير محتمل. كانت تضجر في الدروس. في الفرص كانت تجلس في أبعد الزوايا وأقلها تحت النظر في الباحة، كي لايلاحظها أحد، وهي ترتجف من

الرغبة كي يدعوها أحد للعبة ما ولو أنها في الوقت نفسه تصلي كي لاينتبه لوجودها أحد. وكانت أمّها تحذّرها من أن تحاول شرح ما اكتشفته عن الطبيعة الإنسانية في كتب خالها جيم الطبية لرفيقاتها، أو تفاتح معلميها بأفضليات الإيسبرانتو على اللغة الإنكليزية. لكنْ رغم هذه الإنذارات لم تجد المديرة، منذ الأيام الأولى، أية صعوبة في اكتشاف غرابات تلميذتها الجديدة. ووضعتها تحت المراقبة خلال أسبوع أو أسبوعين، حتى إذا تأكدت من تشخيصها، استدعت بيانكا تروبيا إلى مكتبها وشرحت لها، بطريقة مقبولة، أن البنيّة لايضبطها جذريّاً أية قاعدة عادية من التربية البريطانية، وأوحت إليها بأن تضعها في كلية راهبات إسبانيات فلربما استطعن أن ينجحن مع خيالها الجموح ويقومن نقص الكياسة المؤسف عندها. غير أن الشيخ تروبيا ماكان بالذي يسلّم لآنسة ما كنيتها سانت جون ووضع في الميزان كل ثقل تأثيره كي لاتطرد حفيدته. كان يتمسّك بأن تتعلّم الإنكليزية بأيّ ثمن. كان قانعاً بتفوّق الإنكليزية على الإسبانية، التي يعتبرها لهجة ثانوية، خلقت من أجل الشؤون البيتية والسحر، والأهواء الجامحة والمشاريع التافهة، وأنها غير مؤهلة لعالم العلم والتقن حيث كان يقدّر انتصار ألبا. لكنه حين غلبته موجة الأزمنة الحديثة، انتهى إلى الخضوع لفكرة أن عدداً صغيراً من النساء لسن معتوهات تماماً وقال في نفسه أن ألبا، أتفه من أن تنجح نجاحاً جيداً وأنّها قادرة على تعلّم مهنة تربح منها معيشتها مثلها مثل الرجال. ووافقت بيانكا أباها على هذه النقطة، لأنها تحققت من حسابها تأثير التربية المدرسية الضار على عتبة الحياة.

ـ لاأريد أن تكوني فقيرة مثلي وأن تظلي في كنف رجل من أجل معيشتك، كانت تقول لها كل مرة تراها فيها تبكي كي لاتذهب للمدرسة.

لم تسحب إذن من الكلية واضطرت لاحتمالها عشر سنين متتاليات.

وعند ألبا كانت أمها هي الكائن الوحيد الثابت في تلك الفلك المبحرة على غير هدى التي صارت إليها دار الزاوية الكبيرة بعد موت كلارا. كانت بيانكا تكافح الانحطاط والتدهور بشراسة لبؤة لكنّه كان واضحاً أن المعركة بين التقدم والعجز خاسرة منذ البدء. كانت تتمسك بأن تحافظ على مظهر البيت

للدار الكبيرة التالفة. واستمر الشيخ تروييبا على العيش فيه، ولو أنّه انقطع عن دعوة أصدقائه وأخوانه السياسيين إليه، واستغنى عن الصالونات واكتفى باحتلال المكتبة وغرفته. وبقي أعمى أطرش عن حاجات البيت. كان، وقد استغرقته شؤون السياسة والمقاولات يسافر دائماً، ويموّل معارك انتخابية جديدة، ويشتري أراضي وجرّارات، ويربّي خيل السباق، ويضارب بأسعار الذهب، والسكّر وعجينة الورق. وماكان يلاحظ شيئاً، لاجدران بيته التي كانت تستغيث من أجل طبقة جديدة من الدهان، ولا الأثاث المخلّع، ولا المطبخ الذي حال إلى مزبلة. ولاكان يرى ستر حفيدته الرثة، ولاثياب ابنته التي عفت مودتها، ولايديها التي أبلتها بقع العمل البيتي والخزف. وماكان ليتصرّف هكذا عن بخل: وإنما ببساطة، لأن عائلته باتت لاتهمّه. كان أحياناً يخرج من شروده ويأتي ومعه هدية مبالغ فيها ورائعة لحفيدته، ماكانت إلا لتبرز التناقض بين كنز حسابه السرّي في البنك وكفاف البيت الكبير. كان يعطي بيانكا مبالغ، مختلفة لكن غير كافية دائماً، يخصصها لتسيير البناء الضخم المظلم المتآكل، الفارغ تقريباً ومرتع مجاري الهواء، الذي آلت إليه إقامتهم السالفة. وماكانت بيانكا تملك يوماً ما تواجه به كل النفقات فكانت تقاوم بالإستدانة من جيم، ومن أجل مايبقى، كانت تقرض الميزانية من طرف وتسد الثغرات من طرف آخر، ويبقى عليها في نهاية الشهر بقية حسابات لم تدفع وماتني تتضخم حتى تتخذ قراراً بالذهاب إلى حي الصاغة اليهود كي تبيع إحدى المجوهرات التي اشتُريت منذ ربع قرن مضى وأعطتها إياها كلارا في قعر جورب من صوف.

في البيت كانت بيانكا تغدو وتروح بالوزرة وقد احتذت بخفّافة[1] فيختلط أمرها مع من بقي من الخدم القليل؛ فإذا خرجت ارتدت تيّورها الأسود الأزلي، الذي كوي ألف مرّة، وقميصها الحريري الأبيض. وكانت ألبا بعد أن انقطع جدّها عن الاهتمام بها، إذ ترمّل، تلبس مما ترثه من ابنة عم بعيدة أكبر أو أصغر منها، حتى أن أروابها، تبعاً للقاعدة العامة، كانت قصيرة جدّاً وضيّقة

---

١ ـ حذاء رياضة.

حتى أن معاطفها كانت عليها مثل كبابيت العكسر. وكان يريد جيم لو يصنع شيئاً من أجلهما، لكن وجدانه كان يقول له أفضل أن يصرف مايربحه بمنح الجائعين مايأكلون من صرفه بينما ليس ضرورياً لأخته وابنة أخته.

أخذت ألبا، بعد موت جدتها، تعذبها كوابيس تستيقظ منها صائحة، مضطربة، كانت تحلم بأن أفراد عائلتها قد ماتوا جميعاً وأنها بقيت وحدها في البيت الكبير دون رفيق غير الأشباح الهزيلة المنطفئة التي تخطر على طول الممرات. واقترح جيم أن تقطن في غرفة بيانكا حيث تشعر أنّها في أمان أكثر. ومنذ اللحظة التي قاسمت ألبا أمها الغرفة أخذت تنتظر في نفاذ صبر سرّي ساعة النوم. كانت وهي متقوقعة بين الأغطية، تلاحظ بيانكا وهي منكبّة على آخر استعداداتها قبل النوم في السرير. كانت هذه تنظف وجهها بكريم الحريم، وهو دهن وردي معطر بالورد مشهور بصنع المعجزات ببشرة النساء ثم تفرش شعرها الطويل الكستنائي مائة مرّة، وقد بدأت تشوبه بعض خيوط بيضاء لايراها، أحد سواها. كانت سريعاً ماتبرد، ولذلك كانت سريعاً ما تبرد، ولذلك كانت تنام شتاء وصيفاً في تنانير من صوف تحوكها في أوقاتها الفارغة. وإذا أمطرت دفأت يديها بقفازين كي تخفّف البرد القطبي الذي عشش فيها حتى مخ العظم، من رطوبة الصلصال، وما استطاعت أن تشفيها منها كل زرقات جيم، ولاتأبير[1] نيكولا الصيني. وكانت ألبا تنظر إليها وهي تروح وتجيء عبر الغرفة، في قميص نوم المترهبات الذي يفيض عن جسمها، وشعرها الذي تحرّر من الكعيكة التي حلتها، وعليها هالة من عبير غسيل نظيف حلو وكريم الحريم، وقد استغرقت في مونولوج لارأس له ولاذنب تختلط فيه الشكاوى من أسعار الخضروات، وبيان بينابيع أمراضها العديدة، والتعب من حمل عبئ هذا البيت على كتفيها، وأحلامها الشاعرية حول بيدرو الثالث جارسيا الذي كانت تتمثله بين غيوم المغيب، أو تتذكره بين قمح الماريّات الثلاث المذهّب. وكانت بيانكا، حين ينتهي طقسها، تنزلق في سريرها وتطفئ النور. وكانت تأخذ بيد ابنتها من

---

١ ـ المعالجة بالإبر.

فوق الهوّة الضيقة التي تفصل بينهما وتروي لها حكايات من الكتب السحرية الفاتنة في صناديق جدّ الخال ماركوس، لكنّ ذاكرتها كانت من الضعف بحيث كانت تصنع حكايات جديدة، وهكذا سمعت ألبا الحديث عن أمير فاتن نام مائة سنة وأبكار تقاتل التنانين جسداً بجسد، وعن ذئب ضاع في قلب الغابة وعن بنية انتزعت أمعاءه دون سبب معروف. حتى إذا تمنت ألبا أن تسمع مرة ثانية تلك الفظائع، وقعت بيانكا في ورطة من إعادتها، لأنها نسيتها، حتى أن الصغيرة تعودت على كتابتها على الورق. ثم بدأت تسجّل أيضاً الأشياء التي كانت تظهر لها هامة، تماماً كما كانت تفعل في السابق جدّتها كلارا.

بدأت أعمال المدفن قليلةً بعد موت كلارا، لكنها امتدت إلى مايقارب السنتين بسبب التفاصيل الجديدة الباهظة التي أضفتها: مسلّات بحروف غوطية مذهّبة، وقبة من بلور صغيرة كي تدخل الشمس، وآلية حاذقة منقولة عن آلية الينابيع الرومانية، تمكن من ريّ دائم بحساب لبستانٍ صغير داخليٍّ زرعت فيه ورداً وكاميليا، الزهور المفضّلة لدى الأختين اللتين احتلتا كل المكان في قلبي. وطرح التمثالان مشكلة. فقد رفضت عدة مخططات، لأني لم أرد تماثيل ملائكية غبية، أردت شبهاً لروزا وكلارا بتقاطيعهما نفسها، بأيديهما، بالحجم الطبيعي. واستجاب لرغباتي مثّال من أوروغواي فجاء التمثالان أخيراً مطابقين لأمنيتي. وعندما بات كل شيء جاهزاً اصطدمت بعقبة لم أنتظرها: وجدتني أمام استحالة نقل روزا إلى المدفن الجديد، لأن عائلة ديل فاله عارضت. وحاولت إقناعهم باستخدام كل أنواع الحجج، وضاعفت الضغوط والهدايا، لكن عبثاً. فقد بقي إخوة زوجتي لايتزحزحون. وأظن أنهم علموا بحكاية رأس نيفيا وحقدوا علي لأنّي تركته كل هذه المدة في القبو. وأمام عنادهم، استدعيت جيم وقلت له أن يحضر نفسه لمرافقتي إلى المقبرة كي نسرق جثة روزا. لم يظهر عليه أنّه فوجئ.

وفسّرت لابني قائلاً: «عند غياب اللباقة، تبقى وسيلة القوّة».

وكما يحدث دائماً، في مثل هذه الحال، ذهبنا إليها عند حلول الليل، ورشونا الحارس، كما فعلت منذ زمن بعيد كي أبقى مع روزا الليلة الأولى التي عبرت فيها إلى هناك. ودخلنا بأدواتنا بممرّ السرو، فبحثنا عن كهف عائلة ديل فاله، وعكفنا على مهمة فتحه الحزينة. انتزعنا بعناية الشاهدة التي تحمي راحة روزا وأخرجنا من المشكاة النعش الأبيض، الذي تبيّن أنه أثقل مما انتظرنا، حتى أننا اضطررنا لدعوة الحارس كي يساعدنا. وقد وجدنا صعوبة في العمل بهذا المجال الضيق الذي يزعجنا هو والأدوات، وإذ نحن لايضيئنا غير لمبة فحم. ثم وضعنا الشاهدة على المشكاة كي لايظن أحد أنها خالية. في النهاية كنا وكأننا نسبح. ولقد احتاط جيم بأن أخذ معه قارورة من ماء الحياة فاستطعنا أن نشرب جرعة لعلها تمنحنا بعضاً من قوّة. كلانا لم يكن متطيّراً، لكن منظر مدينة الصلبان تلك، والقباب والشواهد جعلنا عصبيّين نوعاً ما. جلست على مدخل القبر كي أستعيد النفس وقلت في نفسي أني لم أعد حقّاً شاباً مادام نقل صندوق مثل هذا يصيبني بالخفقان ويجعلني أرى نقطاً لامعة في الظلام. أغلقت عيني وتذكرت روزا. ملامحها الكاملة، وجلدها الذي كحليب، وشعرها شعر جنيّة بحر أوقيانوسية، عيناها من عسل مبدعتا معارك، ويداها معقودتان على سبحة الصدف، روزا التي بقيت كل هذه السنين تنتظر أن آتي فأبحث عنها كي آخذها إلى حيث يجب أن تكون.

قلت لجيم: «سوف نرفع الغطاء يا بني. أريد أن أراها».

لم يحاول أن يردّني عن ذلك، لأنّه كان يعرف من النبرة أن قراري لايردّ. عدّلنا نور اللمبة، وحلّ بأناة براغي النحاس التي غرزها الزمن، وتوصلنا إلى رفع الغطاء، الذي يعدل في ثقله الرصاص. وعلى ضوء الفحم المبيّض، رأيت روزا الجميلة، بزهور برتقال العروس، وشعرها الأخضر، وجمالها الباقي، كما رأيته منذ سلف من السنين، وهي نائمة في تابوتها الأبيض على مائدة غرفة الطعام في بيت عمّي. ظللت أتأملها، مفتوناً، لأنّها ولاشك كانت التي هي في أحلامي نفسها وانحنيت عبر الكرة التي تحمي وجهها، وطبعت قبلة على شفتي حبيبتي الشاحبتين. في تلك اللحظة انسربت هبة ريح بين السرو، واندسّت كغدّار من

شقّ ما بالنعش الذي ظلّ حتى الآن محكم الإغلاق وفي وقت أقلّ مما يلزم لكتابة ما جرى تفتت العروس الصبية التي لما تتبدل كما بالسحر وحالت إلى غبار ناعم رماديّ. ولما رفعت رأسي وفتحت عيني، والقبلة الباردة مازالت على شفتي، كانت روزا الجميلة قد اختفت. وفي مكانها، لم يكن هناك غير رأس ميت محجراه فارغان، وبعض مزق جلد عاجي التصقت على الوجنتين، وخصل شعر متعطّنة على الجمجمة.

وأغلق جيم والحارس سريعاً الغطاء، ووضعا روزا على نقّالة، وحملاها إلى المكان الذي خصّص لها، إلى جانب كلارا في المدفن الوردي كالسومون. وقبعت جالساً على قبر في ممر السرو أتأمّل القمر.

ـ وفكرت أن فيرولا كانت على حق. هأنذا وحيد وجسدي وروحي يصغران. ولم يبق لي غير أن أنفق ككلب.

كان الشيخ تروييبا يقاتل ضدّ خصومه السياسيين الذين يتقدّمون يوماً بعد يوم على طريق اكتساح السلطة، وبينما كان قواد الحزب المحافظ يشيخون، ويضيعون وقتهم في مناقشات بيزنطية لاتنتهي، كان هو يكرّس نفسه إلى مهمّته، يجوب البلاد ويدرسها من الشمال إلى الجنوب، في نوع من المعركة الشخصية لاهدنة فيها ولانهاية لها لايهتم بوزن السنين ولا احتجاج العظام الأصمّ. كان ينتحب شيخاً كل مرّة يجدد فيها المجلس. كان هوسه أن يحيل عدماً ماكان يدعوه «بالسرطان الماركسي»، الذي كان ينمي في مكر تفرعاته بين الشعب.

اعتاد أن يقول: «تزيح حجراً، فماذا تجد؟ شيوعياً!»

وانقطع الناس عن تصديقه، حتى عند الشيوعيين أنفسهم، كانوا يسخرون قليلاً منه بسبب ثورات مزاجه الصعب، ولباسه مثل غراب في حداد، ومن عصاه البائدة، ومن تشخيصاته الرؤيوية، وبينما كان يضع تحت أنوفهم

الاحصاءات ونتائج الانتخابات الأخيرة الحقيقيّة، كان إخوانه في المذهب يقولون إنه خرف شيخ فانٍ.

كان تروييبا يصر قائلاً: «سوف تذهب ريحنا، في اليوم الذي لانستطيع فيه أن نضع أيدينا على الصناديق، قبل حساب الأصوات».

وكانوا يجيبونه: «لم نر الماركسية تربح في أية جهّة بمناسبة انتخابات شعبية. إنّهم بحاجة لثورة على الأقل، ولايحدث مثل هذا الشيء في هذه البلاد».

وكان تروييبا يلح بلهجة عاصفة: «حتى اليوم الذي ينجحون فيه».

كانوا يقولون له كي يطمئن: «هدوءاً يا صديقي. لن نسمح بذلك. ليس للماركسية أدنى حظ في أمريكا اللاتينية. ألا ترى أنها لاتأخذ في حسابها جانب الأشياء السحريّ؟ إنها شريعة ملحدة، عملية ونفعية. لن يكتب لها أي نجاح هنا».

حتى العقيد هورتادو، الذي كان يرى أعداء الوطن في كل مكان، لم يعتبر الشيوعيين خطراً. لقد برهن له مرّات عديدة أن الحزب الشيوعي مؤلف من أربعة معط الشعر وثلاثة مقصوصيه لايعنون شيئاً إحصائياً يمتثلون لتوجيهات موسكو في تعصّبٍ جديرٍ بقضية أفضل.

كان يقول له العقيد هورتادو ساخراً: «إن موسكو بعيدة جدّاً، يا إيستيبان، وليست عندها أية فكرة عما يجري في تلك البلاد. إنهم يعتبرون الشروط الخاصة ببلادنا كمية مهملة، والدليل أنهم أغبى من الوصيف الأحمر. منذ قليل، أذاعوا بياناً يدعون فيه الفلاحين، والبحّارة، والأقليّات البلدية أن يكونوا أجزاءاً من السوفييت الوطني الأوّل، وهذا تهريج من كل النواحي. ماذا يفهم الفلاحون من كلمة سوفييت! أما البحارة، فهم دائماً في البحر، ويهتمون ببيوت الهوى في أمل مرفأ أكثر من اهتمامهم بالسياسة. والسكان البلديّون! لقد بقي عندنا منهم مايبلغ مجموعه مائتين. لاأعتقد أنه قد عاش منهم أكثر من ذلك بعد مذابح القرن الماضي، أما إذا رغبوا في أن يؤلفوا سوفيتياً في أراضيهم، فلهم مايريدون!

وكان تروييبا يجيب: «ربما، لكن زيادة على الشيوعيين يوجد الإشتراكيون، والراديكاليون وكل الفئات الصغيرة! إنهم جميعاً لافرق بينهم لولا تمايزهن».

كانت كل الأحزاب السياسية في عيني الشيخ تروييبا ماركسية بالقوّة ماعدا حزبه، وماكان يستطيع التمييز بين أيديولوجية بعضهم وبعضهم الآخر. وماكان يتردد في عرض مواقفه على الجمهور كلما سنحت الفرصة، وهكذا كان يعتبره الجميع، ماعدا أنصاره، نوعاً من المعتوه بالرجعية والأوليغارشية وبخاصة المتشدّدة. ولقد اضطر الحزب المحافظ إلى كبحه كي لايقول مالاينبغي ويفرقهم جميعاً في السخف. كان الفارس المحنق الجاهز لخوض معركة في كل الساحات، في دوائر الصحافة المستديرة، في الجامعات في الأمكنة التي لايجرؤ أحد أن يظهر نفسه فيها: كان يجلس وطيداً في بزّته السوداء، ولبدته كأسد وعصاه الفضيّة. كان هدف الكاريكاتوريين، الذين من كثرة ماسخروا منه نجحوا في جعله شعبيّاً، حتى أنّه كان يأخذ في كل انتخابات مجموع الأصوات المحافظة. كان ولو أنه متعصب وعنيف وعتيق، يمثّل أكثر من أي إنسان آخر القيم العائلية، والتقليد، والنظافة، والنظام. وكل إنسان كان يعرفه في الطريق، وتخترع المزحات على حسابه، وتسري من فم لأذن النكات المنسوبة إليه. روي عنه أنه إبان أزمته القلبية، لما تعرّى ابنه على أبواب المجلس، استدعاه رئيس الجمهورية إلى مكتبه كي يقدّم له السفارة في سويسرا حيث كان بوسعه أن يمارس مهمة ملائمة لعمره، تمكنه من ترميم صحته. وروي أن الشيخ تروييبا أجاب وهو يخبط ضربة على مكتب أعلى سلطة، قلب بها العلم الوطني وتمثال أبي الوطن النصفي:

ـ لن أترك هذه البلاد إلا ميتاً! زأر. لأني ما أن أنقطع عن مراقبة الماركسيين بعيني حتى ينتزعوا من تحتك الكرسي الذي تجلس عليه!

في النقطة الأولى، أدّت به المهارة إلى وصف اليسار بـ «عدو الديموقراطية»، دون أن يشّك أنّه بعد سنوات، سيكون هذا لازمة الديكتاتورية. كان يكرّس كل وقته للمعركة السياسية، وجزءاً من ثروته الخاصة. ولقد لاحظ،

بالرغم من أنّه كان يتعاطى دون انقطاع صفقات جديدة، أن هذه الثروة تذوب منذ موت كلارا، لكنّه لم يخش يوماً؛ لقد كانت في حياته مثل نسمة تحمل الحظ، تلك واقعة لاتنكر، وكان من نظام الأشياء الطبيعي ألّا يستمر في الاستفادة منها بعد أن اختفت. وحسب، إضافةً لذلك، أن مايملكه، يكفيه أن يبقى رجلاً غنيّاً طيلة الزمن المكتوب له أن يعيشه في هذا العالم الدنيء. كان يحسّ أنه عجوز، وتمسّك بفكرة أن أيّاً من أولاده الثلاثة لايستأهل أن يرث منه، وأنه سيدع حفيدته في منجاة من العوز بفضل الماريات الثلاث، ولو أن البرية لم تعد مزدهرة كما كانت من ذي قبل. ولق غدا بفضل الطرق الجديدة والسيارة، ماكان في السابق في القطار غزوة حقيقة، هيّناً يقطع في ست ساعات من العاصمة إلى الماريّات الثلاث، غير أنه هو كان مشغولاً جدّاً لايجد دائماً الوقت من أجل القيام بالرحلة. كان يستدعي من وقت لآخر المدير فيقدّم له الحسابات، لكن هذه الزيارات كانت تتركه مع زفرات المزاج المتعكر أياماً عديدة. كان مديره رجلاً حطّمه تشاؤمه. فالأخبار التي يحملها لم تكن سوى لوائح طويلة عن أحداث مكدّرة: الفريز تجلّد، أصيب الدجاج بالورم اللساني، الكرم مريض. وهكذا تلك البرية التي كانت أصل ثروته آلت إلى أن تصبح عبئاً واضطر الشيخ ترويبيا مرات عديدة إلى نقل المال من أعمال أخرى كي يعوّم هذه الأرض التي لاتروى والتي تبدو تتآكلها الرغبة في أن تعود إلى زمن الإهمال البعيد، قبل أن يخرجها هو من الشقاء.

كان يجمجم قائلاً: «يجب أن أذهب فأنظّم الأمور. إن ماينقص هناك هو عين السيّد».

ونبّهه عدة مرات وكيله قائلاً: «إن الأشياء ليست على مايرام في الريف أيّها السيّد. الفلاحون وقحون، كل يوم يقدّمون طلبات جديدة. يظن المرء أنهم يريدون أن يعيشوا كالسادة. الأفضل هو بيع الملكيّة».

ولم يكن ترويبيا يريد أن يسمع كلاماً عن البيع. كان يعيد قائلاً: «الأرض هي التي تبقى عندما لاتملك شيئاً آخر». كما كان يفعل وهو في عمر الخامسة والعشرين لما كانت أمه وأخته تضغطان عليه مهيبتين بالأسباب نفسها. لكن

عندما ثقل العمر والنشاط السياسي، قل اهتمامه بالماريّات الثلاث وعدد من الأشياء الأخرى التي بدت له فيما خلا ذات مقام أوّل. لم يبق لها في عينه غير قيمة الرمز.

كان الوكيل على حق: في تلك السنوات، تبدّلت الأمور. هكذا كان يردّد صوت بيدرو الثالث جارسيا المخملي، الذي كان بفضل أعجوبة الراديو يصل إلى كل مناطق البلاد البعيدة. كان، وقد بلغ الثلاثين وبضع سنوات أخر يحافظ على منظر الفلاح القاسي، تمسّكاً منه بالسّمة، لأن تجربة الحياة والنجاح، لطّفا خشونته ونقّيا أفكاره. كانت له ذقن رجل الغابة وشعر متنبئ يقصّه بنفسه وهو مغمض، بموسى كانت لأبيه متقدّماً سنين عديدة على المودة التي بلغت الأوج بين المغنين الرافضين. كان يلبس بنطالاً من كتّان خشن، وخفافتين مصنوعتين يدوياً؛ وفي الشتاء كان يرتدي بونشو الصوف الخام. ذاك كان زي المعركة عنده. هكذا كان يظهر على المسرح، ويبدو في الصور التي على أكياس أسطواناته. كان دون أوهام عن التنظيمات السياسيّة، لقد انتهى إلى أن يقطر ثلاث أو أربع أفكار بدائية بنى عليها كلّ فلسفته. كان فوضويّاً. من الدجاجات والثعالب، وصل به التطور إلى أن يغنّي الصداقة، والحب، بل الثورة أيضاً. كانت موسيقاه شعبية جداً، كما كان ولاشك على فجاجة الشيخ ترويبا حتى يتجاهل وجوده. لقد منع العجوز الراديو عنده، كي يمنع حفيدته من سماع تلك الهزليات والمسلسلات التي تفقد فيها الأمهات أطفالهن فلا يسترددنهن إلا بعد عدد من السنين وكي يتجنب أن تأتي أغاني العدوّ الهدّامة فيضطرب هضمه كان يمتلك راديو حديثاً في غرفته، لكنّه لايصغي إليه إلا من أجل الأخبار. وماكان يرتاب من أن بيدرو الثالث جارسيا هو أحسن أصدقاء ابنه جيم ولامن لقائه ببيانكا كلّ مرة تترك هذه فيها البيت ومعها حقيبة المشعوذ الصغيرة، وتتلعثم بأسوأ الأعذار، وكان يعرف أيضاً أنّه في بعض أيام الأحد، يأخذ ألبا ويتسلقان الأعالي ويجلس معها في قمتهما كي يتأمّلا المدينة ويأكلا خبزاً وجبناً، قبل أن يدع نفسه ينزل وهو يتدحرج على طول المنحدرات، وهما يموتان ضحكاً كجراء صغيرة سعيدة، وأنّه كان يحدثها عن الفقراء،

والمضطهدين، والبائسين،ومواضيع أخرى كان يفضل تروييبا أن يرى حفيدته تجهلها.

كان بيدرو الثالث يرى ألبا تكبر فيتصرف بشكل يكون قريباً منها، لكنّه لم تكن له القدرة كي يعتبرها حقاً ابنته لأن بيانكا أبدت، حول هذه النقطة أنها لاتتراجع. قالت أن ألبا احتملت كثيراً من الانفعالات وأن بقاءها طفلة طبيعية تقريباً كان أعجوبة، وعلى هذا لم يكن من الضرورة إضافة سبب آخر للإضراب حول منشئها. وأفضل لها أن نستمر بالاعتقاد بالرواية الرسمية، وإضافة لذلك. لم تكن بيانكا ترغب بالمغامرة بطرح الموضوع مع جدّها، فتثير كارثة ومهما كان من أمر، فإن روح البنية الحرّة الرافضة كانت تعجب بيدرو الثالث.

كان يقول في غرور: «لو لم تكن ابنتي، لاستحقّت أن تكون كذلك».

خلال كل تلك السنين، لم يستطع بيدرو الثالث أن يتلاءم مع حياة العزوبية، بالرغم من نجاحه لدى النساء، وبخاصة المراهقات النيّرات اللواتي كان نوح قيثارته يشعلهنّ حبّاً. بعضهن كنّ يدخلن حياته غصباً. وكان بحاجة إلى نضارة تلك العلائق كان يجتهد في أن يجعلهن سعيدات إلى أجل قصير جدّاً، فما أن تمر فترة الوهم الأولى، حتى يبدأ بالابتعاد عنهن، ومايلبث أن ينتهي إلى تركهن بلطف. غالباً، وبينما تكون إحداهن في سريره، تتنهد في نومها إلى جانبه، يغلق عينيه وهو يحلم ببيانكا، بجسدها الرحب الناضج، ونهديها الثريين والنديين، وتجاعيد فمها الدقيقة، في ظلّ عينيها العربيتين، فيحس كما لو صرخة عظيمة تضغط على صدره. اجتهد أن يبقى مع نساء أخريات، ومرّ على عديد من الطرق وعديد من الأجساد وهو يريد أن يبتعد عنها، لكنّه في أكثر اللحظات حميمية، في نقطة الوحدة الدقيقة حيث يغدو التنبؤ بالموت ممكناً، كانت تظهر له بيانكا دائماً على أنّها الوحيدة الفريدة. وفي صبيحة اليوم التالي تبدأ غير محسوسة صيرورة الانفصال عن علاقته الجديدة وما أن يجد نفسه حرّاً حتى يعود إلى بيانكا، أشدّ شحوباً، وعيناه محاطتان بزرقة أكثر، وأكثر شوقاً، وأغنية لم تنشر بعد على قيثارته وأخبار ومداعبات لها لاتنضب.

أما بيانكا فقد تعودت العيش وحيدة. لقد آلت إلى أن وجدت السلام بانصرافها إلى شاغلها في البيت الكبير، ومشغل الخزف، والحيوانات التي تخترعها لمغاراتها فالكائنات الوحيدة التي تخضع فيها لقوانين البيولوجيا هي شخصيات العائلة المقدسة الضائعة بين حشد من المسوخ. لم يكن في حياتها غير رجل هو بيدرو الثالث، لأنها كان مقدّراً لها ألّا تعرف غير حبٍّ وحيد. وقوة هذا الإحساس الذي لايتغير أنقذها من تفاهة وكآبة قدرها. كانت تظلّ وفيّة له حتى في الأوقات التي يختفي فيها علىْ خطو حورية صغيرة ذات شعر قاس وعظامٍ بارزة، دون أن يقلّ حبّها له. في البدء، كانت تظن أنها سوف تموت في كل مرّة يبتعد عنها هكذا، لكنها سريعاً ما انتبهت، إلى أن غيابه لايطول إلا زمن التنهدّة وأنه يعود دون استثناء أكثر حبّا ووداً من أي زمن مضى. تلك اللقاءات النادرة مع حبيبها في فنادق المواعيد، كانت تفضّلها على روتين الحياة المشتركة، وضجر الزواج، ومرارة الشيخوخة معاً والإشتراك في العوز آخر الشهر، ونفس اليقظة الثقيل، وملل أيام الأحد وعجز العمر. كانت رومانتيكية لاشفاء لها. كان يخطر لها أحياناً أن تأخذ حقيبة المشعوذ الصغيرة ومابقي لها من مجوهرات في أسفل الجورب، كي تذهب وتعيش مع ابنتها إلى جانبه، لكنها كانت تتراجع دائماً. ربما لأنها كانت تخشى ألّا يتمكن هذا الحب العظيم، الذي قاوم كل تلك المحن، من الصمود أمام أفظعها جميعاً: المساكنة. كانت ألبا تنمو سريعاً وتشعر، أن إرجاء مطالب حبيبها بحجة انشغالها بابنتها لايمكن أن تتذرع بها دائماً كمبرّر لكنّها كانت تفضّل دائماً إرجاء قرارها لما بعد. والحق أنها إذا كانت تخشى الروتين، فقد كانت تخاف بقدر ذلك، نوع حياة بيدرو الثالث، وبيته المتواضع من ألواح الخشب والصفيح في حي الأكواخ العمّالي بين مئات البيوت الفقيرة فقر بيته، أرضها من طين، دون ماء، فيها لمبة واحدة فحسب معلقة بالسقف. ولقد ترك حي الأكواخ من أجلها وانتقل إلى شقة في المركز، وانضمّ هكذا، دون أن يريد، إلى الطبقة الوسطى التي لم يرد يوماً أن ينتسب إليها. لكن هذا لم يكن كافياً في عيني بيانكا. لقد وجدت الشقة قذرة. مظلمة وضيّقة جداً، ورأت أن البناية مشبوهة.

كانت تقول إنها لاتسمح بأن تكبر أليا هنا، أن تلعب مع الأطفال الآخرين في الشارع والأدراج وأن تداوم على المدرسة الشعبية. هكذا انقضى شباب بيانكا، ودخلت عمر النضج، مسلّمة بأن أوقات سرورها الوحيدة تلك التي كانت تذهب فيها خلسة في أحسن زينة، وقد وضعت عطرها ومن تلك الثياب الداخلية العاهرة التي كانت تغري جدّاً بيدرو الثالث ثم تخبئها وهي محمّرة خجلاً في أسفل قعر خزانتها، وتفكّر في التفسير الذي تدليه لو اكتشفها أحد. هذه المرأة العملية، العاديّة في كل مظاهر وجودها صعّدت هوى شبابها الأول حتى عاشته كمأساة. غذته بالحلم، أمثلته[1]، دافعت عنه بشراسة، نقّته بحقائقها المبتذلة، فاستطاعت أن تجعل منه حب رواية حقيقياً.

وتعلّمت أليا من جهتها، ألا تلمّح أبداً عن بيدرو الثالث جارسيا، لأنها كانت تعرف الأثر الذي يحدثه هذا الإسم في العائلة. كانت تحدس أن شيئاً خطيراً حدث بين الرجل ذي الأصابع المقصوصة الذي كان يقبّل أمها على فمها وبين جدّها نفسه، لكنهم جميعاً، بمن فيهم بيدرو الثالث كانوا يجيبون على أسئلتها بالتهرب. كانت بيانكا أحياناً تروي لها، في حميمية غرفتهما، الحكايات التي تتعلّق به أو تعلمها من أغانيه وتنصحها بألا تدندن بها في البيت. لكنها لم تقل لأليا إنه أبوها، وكان يبدو عليها هي أنها نسيت هذا الأمر كانت تذكر الماضي كرتل من عنف، وإهمال وأحزان، دون أن تتأكد أبداً أن الأشياء انقضت حقيقة كما كانت تفكّر. تركت واقعة المومياات والصور والهندي الأمرد ذي الكعبين العاليين من زي لويس الخامس عشر وهي التي دفعتها للفرار من البيت العائلي. لقد كررت أكثر من مرّة أن الكونت هلك من الحميّات في قلب الصحراء حتى صدقتها. وبعد سنين تلت. في اليوم الذي أنبأتها فيه ابنتها أنّ جثة جان دوساتييني ترتاح في ثلاجة معرض الجثث، لم تحسّ بأي سرور، لأنّها كانت تشعر من زمان طويلٍ أنّها أرملة. ولم تتأخر في تعليل كذبتها. أخرجت من الخزانة تيّورها الأسود القديم جدّاً، وسوّت وضع

١ - جعلته مثالياً.

دبابيس الشعر في كعيكتها وخرجت برفقة ألبا كي تدفن الفرنسيّ في المقبرة العامة، في حفرةٍ عامّةٍ حيث ينتهي الفقراء، لأن الشيخ تروييبا رفض أن يمنحه مكاناً في مدفنه الورديّ السوموني. ومشت الأم وابنتها وحدهما وراء النعش الأسود الذي استطاعت دفع ثمنه بفضل كرم جيم. كانتا تحسّان أنّهما سخيفتان قليلاً، في جوّ ضُحى ذاك اليوم الخانق من الصيف، وباقة زهر، ذابلة في اليد، دون دمعة على الجثة الوحيدة التي أرسلتاها إلى التراب.

لاحظت ألبا قائلة: «أرى أن أبي لم يكن له أصدقاء».

وتركت بيانكا أيضاً هذه الفرصة تمر من غير أن تكشف الحقيقة لابنتها.

بعد أن أحللت كلارا وروزا في مدفني، أحسست أني هدأت، لأني كنت أعرف أن عاجلاً أم آجلاً سوف نجتمع نحن الثلاثة إلى جانب أعزاء آخرين مثل أمّي، والنونو، حتى فيرولا، التي أرجو، أن تكون غفرت لي. لم أكن أفكّر أن أعيش طويلاً كما عشت، ولأنهن سوف ينتظرنني كل ذاك الوقت.

بقيت غرفة كلارا مقفلةً بالمفتاح. لم أشأ أن يدخلها أحد كي لايتغيّر فيها شيء كي أجد فيها روحها حاضرة كلّما رغبت في ذلك. وبدأت أغدو ضحية القلق، مرض الشيوخ. كنت أتسكّع في قلب الليل عبر البيت لعلي أجد النوم، أجرّ شحاطتي التي غدت كبيرة عليّ، وقد تدثّرت بمعطف البيت الأسقفيّ الذي أحتفظ به لأسباب عاطفية، أتذمّر من القدر كعجوز صغيرٍ نفذت كلّ وسائله. كانت الرغبة بالحياة على كل حال، ترجع لي مع بزوغ الشمس. وأظهر ثانية في ساعة الفطور، ألبس قميصاً منشّىً وثوب حدادي، وقد حلقت، واسترخيت، فأقرأ الجريدة مع حفيدتي، وأنهد إلى مساوماتي ورسائلي، ثم أخرج بقية يومي. وقد انقطعت عن تناول طعامي في البيت، حتى أيام السبت والأحد، لأنّي من دون الوسيط الذي كانت كلارا له، لم يبق لدي سبب أحتمل فيه المناقشات مع أبنائي.

صديقاي الوحيدان كانا يجتهدان لطرد الحداد من روحي، كانا يتغذيان معي، ونلعب بالجولف، ويتحدياني بالدامة. كنت أناقشهما في أعمالي، نتحدث في السياسة، وأحياناً عن العائلة. وخلال عصرٍ وجداني على مزاج أقلّ قتاماً، فدعواني إلى الكريستوف كولومبوس، أملاً بأن تصل إحدى بنات اللّذة إلى أن تعيد لي حيويّتي. ولم يكن أي منّا في عمر مثل هذه المغامرات، لكننا جرعنا كأساً أو كأسين وذهبنا.

كنت منذ سنين قليلة. من ذاك اليوم قد ذهبت إلى الكريستوف كولومبوس، لكنني نسيت تقريباً. وخلال الفترة الحديثة، اكتسب البيت بعض شهرة سياحية، وكان يجي أبناء الأرياف إلى العاصمة ولاهدف لهم إلّا زيارته، ثم الحديث عنه فيما بعد لأصدقائهم. ووصلنا إلى أمام البيت العتيق الذي ظلّ مظهره الخارجي لم يتبدّل منذ بعيد. استقبلنا بواب قادنا إلى الصالون الرئيس حيث تذكرت أني زرته قبلاً، تحت حكم القوّادة الفرنسية أو بالضبط، ذات اللكنة الفرنسية. وصبّت لنا ساقية صغيرة تلبس كتلميذة كأس خمر تقدمه من البيت. وأراد أحد صديقيَّ أن يمسك بها من خصرها، لكنّها أنبأته أنها من جهاز الخدمة وأنّه يجب علينا انتظار البنات المحترفات. وبعد لحظات ارتفعت ستارة على منظر باحات عربية قديمة: وبدا أسود ضخم، أسود حتى لكأنه أزرق، وعضلاته دهنت بالزيت، يلبس بنطالاً منتفخاً لونه كالجزر وقد شدّ عند القدم، وصداراً دون كمين وعقالاً مذهباً بلون الخبّازة، وبابوجاً عثمانياً، وتمر من أنفه حلقة من ذهب، عندما ابتسم لاحظنا أن كلّ أسناه محشوّة. قدّم نفسه على أنه مصطفى ووضع أمامنا ألبوم صور كي ننتقي من البضاعة. للمرّة الأولى منذ زمن طويل، أخذت أضحك من قلبي، لأن فكرة فهرس لبنات الهوى ظهرت لي مسلية نوعاً ما. وتصفحنا ألبوم البنات وبعضهن سمانٌ وبعض نحيلات ومنهن من شعرها طويل ومن شعرها قصير، من يلبسن كحوريات أو فارسات، كمستجدات أو محظيات، دون أن أتمكن من انتقاء واحدة أو أخرى، لأنهن تبدو عليهن جميعاً هيئة من علكتهن طرق موائد الأعراس والحفلات.

قال مصطفى بلهجة ليس أكثر منها ودّاً: «أرى أن السيّد يجد صعوبة في التقرير. إسمح لي أن أعرض عليك أحسن مافي البيت. سوف أقدّم لك أفروديت».

ودخلت أفروديت إلى الصالون، وقد تسنّم رأسها ثلاثة طوابق من شعر مجعّد، مايكاد يحجبها بعض الجوخ المزيّن بالتول، وتنساب من كتفها حتى الركبة عناقيد عنب اصطناعية. لم تكن تلك غير ترانسيتو سوتو التي مهرت نفسها بهيئة ميثولوجية لاريب فيها بالرغم من دواليها المطعون بطعمها وتولها تول المشعوذة.

قالت لي بمثابة التحية: «سعيدة بأن أراك أيها السيّد».

وجعلتني أجتاز السجف فخرجنا إلى باحة صغيرة داخلية، في قلب ذاك البناء التيهيّ. كان الكريستوف كولومبوس مؤلفاً من بيتين أو ثلاثة قديمة وصلت إستراتجياً بباحات خلفية، وممرات وعبارات أعدّت لهذا الغرض. وقادتني ترانسيتوسوتو إلى غرفة عادية لكن نظيفة، ليس فيها من الشواذ غير جدارية جنسية قلّدت تقليداً سيئاً عن جداريّات بومبيي، نقلها على الجدران رسّامٌ سيء ومغطس قديم كبير صدىء قليلاً، ماؤه جارٍ. صفرت إعجاباً.

قالت: «قمنا ببعض التغييرات في التزيين».

وخلعت ترانسيتو عناقيد عنبها وتولها ورجعت المرأة التي أذكرها، ولو أنّها أشهى وباتت غير عطوب، لكنها على الطموح نفسه بالنظرة الذي غزاني لما التقيت بها. حدثتني عن تعاونيتهم للمحترفين ذكوراً وإناثاً، فقد كانت نتائجها نادرة.. لقد أخرجوا جميعاً الكريستوف كولومبوس من الدمار الذي تكرته فيه السيدة الفرنسية المزيفة السالفة، واجتهدوا كي يجعلوا منه مكاناً راقياً، نوعاً من الأثر التاريخي الذي كان يسمع الحديث عنه، عن طريق البحارة، حتى أبعد البحار. كانت الثياب التنكرّية هي التي ساهمت أكثر من أي شيء بالنجاح، لأنّها كانت تثير خيال الزبائن الجنسي، وكذلك فهرس القحبات الذي طبعوه ووزعوه في بعض المحافظات كي يوقظوا عند الرجال شهوة الذهاب يوماً كي يتعرفوا على بيت الهوى الشهير.

ـ إنها لمشقّة أن تضطر للحركة بنتف السجف هذه وتلك العناقيد الرخيصة، يا سيد، لكن الرجال يحبّون ذلك. إنهم يتحدثون عنه فيما بينهم وذلك يجتذب الآخرين. بالنسبة لنا تسير الأمور سيراً حسناً، ولايشعر أحد أنه استغلّ. نحن شركاء. إنه بيت الهوى الوحيد في البلاد الذي عنده أسود حقيقي. الآخرون الذين يمكن أن تراهم مصبوغون صباغاً؛ أما مصطفى فإنّك لو مررت عليه ورق الزاج، بقي أسودَ. وكل شيء هنا نظيف. بوسعك حتى أن تشرب ماء المرحاض، لأننا نضع ماء جافل في أماكن لاتستطيع أن تتخيّلها والخدمات الصحيّة تأتي فتفتشنا. لاأمراض هنا.

وخلعت ترانسيتو آخر ستار وأذهلني عريها الرائع حتى لقد أحسست فجأة بتعب مميت. وشدّ الحزن على قلبي، وعضوي رخو كزهرة ذابلة وليس له من هدف بين فخذي.

وغمغمت: «آه يا ترانسيتو، أظن أني شخت عن هذا».

لكن ترانسيتو سوتو أخذت تموّج الحية الوشم حول سرّتها وهي تمغنطني بتقلّصات بطنها الحلوة، بينما تهدهدني بصوتها صوت الطائر الأبحّ وهي تذكر أرباح التعاونية وفوائد القائمة. وانتهيت رغم كل شيء إلى الضحك، وأحسست قليلاً قليلاً أن ضحكي يفعل فيّ فعل البلسم وعمدت بإصبعي إلى تتبع رسم الحية، لكنها كانت تتهرّب وهي تتلوّى، وعجبت أن هذه المرأة التي تجاوزت شبابها الأول والثاني، كان جلدها هكذا متيناً، وعضلاتها مشدودة، حتى تحرّك الزاحف كما لو كانت له حياته المستقلة. وانحنيت كي أقبّل وشمها فتبينت راضياً أنها لم تتعطّر. وصعدت رائحة بطنها الحارّة المطمئنة إلى أنفي، واجتاحتني كلّي، موقظة في دمي همّة ظننتها بردت.

ودون أن تكف ترانسيتو عن الكلام فتحت ساقيها، ففصلت عمودي فخذيها الحلوين بحركة فجائية، وكأنها تغيّر الوضع. وأخذت شفتاي تطوفان بها، تتنفسان، تدغدغان، تلحسان بقوة وحسن حتى آل بي الأمر إلى نسيان الحداد وثقل السنين، ووافتني الشهوة في احتدام الماضي ودون أن أهمل المداعبات أو القبل، تخلّصت سريعاً من ثيابي، وأنا أشدّ عليها كيائس، لاحظت

لسعادتي أن قوّة فحولتي في اللحظة التي اندسست فيها في الحيوان الدافئ الرحيم الذي أهدى نفسه إلي، يهدهدني صوت طائر أبحّ، يعانقني ذراعا إلهة، يرجحني ويدحرجني اندفاع ردفيها، حتى لأفقد معنى الأشياء واكتشاف اللذة.

وغطسنا معاً في المغطس الذي امتلأ ماء حارّاً، حتى استردت روحي جسدي وأحسستني شفيت تقريباً. وفي مدى لحظة، تركت نفسي أحلم بأن ترانسيتو هي المرأة التي كنت بحاجة إليها دائماً وأني إلى جانبها تتاح لي الرجعة إلى العهد الذي كنت فيه قادراً أن أرفع بعض فلاحة قويّة وأن أجثمها على ردف جوادي وآخذها بالقوّة حتى نبت الحراج.

«كلارا....» تمتمت دون أن أفكّر فيها، ،احسست آنئذ بدمعة تتدحرج على خدّي، وثانية، وثالثة أيضاً، وباتت بعد قليل سيلاً من الدموع، فيضاً من النحيب، دفقاً من الحنين والأحزان المخنوقة. لم تجد ترانسيتو سوتو أية صعوبة في تحديدها، لأن عندها تجربة طويلة بشجون الرجال. تركتني أبكي كل بؤس وثورات الوحدة في السنين الأخيرة، ثم أخرجتني من المغطس بعناية أمّ، وجففتني، ودلّكتني حتى جعلتني، رخواً كقشّ مبلول، وغطتني لما أطبقت عينيّ في سريرها. وطبعت قبلة على جبيني وخرجت على رأس قدميها.

ـ من تكون هذه الكلارا؟ سمعتها تجمجم وهي تدفع الباب.

الفصل الحادي عشر

اليقظة

لما ناهزت ألبا الثامنة عشرة انفصلت نهائياً عن الطفولة. وفي تمام اللحظة التي أحست فيها أنّها صارت امرأة، قامت فحبست نفسها في غرفتها القديمة، حيث يمكن أن ترى حتى ذلك الوقت الجدارية التي بدأتها منذ سنين خلت. وبحثت في أواني الرسم القديمة حتى وجدت قليلاً من الأحمر والأبيض مازالا سائلين، فموجتهما بعناية وأخذت ترسم قلباً كبيراً وردياً في آخر مكان خال على الجدران. كانت عاشقة. ثم رمت بعد ذلك الأواني والريش في علبة القمامة وجلست برهة طويلة تتأمل كل رسومها، كأنها تستعرض تاريخ أفراحها وآلامها. واستخلصت من ذلك في آخر الحساب أنها كانت سعيدة، وفي تنهدة، قالت وداعاً لسنّ الطفولة.

كثير من الأشياء تبدّل تلك السنة في حياتها. تركت الكلية، وعزمت على دراسة الفلسفة، عن ميل لها، والموسيقا كي تعاند جدّها الذي كان يرى في الفنّ مضيعة وقت ويطري بلا كلل فضائل المهن الحرّة والعلمية. وكان يحذّرها أيضاً من الحبّ والزواج، ويبدي الإلحاح البليد نفسه من أجل أن يبحث جيم عن خطيبة له كما ينبغي، لأنّه في وضع من سيبقى عازباً عتيقاً. كان يزعم أن الرجال يربحون كثيراً إذا اتخذوا زوجة لهم، وأن النساء من مثل ألبا، بالمقابل، يخسرن كل شيء في الزواج. وتبخّرت مواعظ جدّ إلبا في اليوم

الذي رأت فيه للمرّة الأولى ميجيل خلال عصرٍ ضبابي وبارد لاينسى، في كافيتريا الجامعة.

كان ميجيل طالباً شاحباً محموم العينين، يلبس بنطالاً مبتلاً، وجزمة عامل منجم، وكان في آخر سنة من الحقوق. كان قائداً يسارياً. كان يشتعل بأشد الأهواء عصياناً: البحث عن العدالة. لكن هذا لم يمنعه من أن ينتبه أن ألبا تلاحظه. رفع عينيه والتقت نظراتهما. وتأمل كل منهما الآخر مفتوناً، ومنذ تلك اللحظة، لم يريدا أن تفوتهما فرصة اللقاء في ممرات الروضة حيث يتنزهان وقد ناءا بالكتب أو وهو يجرّ فيولويسيل ألبا الثقيل. لاحظت منذ أوّل لقاء أنه يحمل على كمه إشارة صغيرة: يد مرفوعة مشدودة القبضة. وعزمت على ألّا تقول له أبداً إنها حفيدة إيستيبان تروييبا، ولأول مرة في حياتها لجأت إلى اللقب الذي تحمله على بطاقة هويتها: ساتيني. وبعد قليل فهمت أنه أفضل لها ألّا تتحدث عنه لبقية رفاقها. وبالمقابل، كان بوسعها أن تفخر بأنها صديقة بيدرو الثالث جارسيا، الشديد الشعبيّة بين الطلاب، والشاعر الذي على ركبتيه، كانت تجلس من قبل وهي طفلة، وهو الآن شهير في كل اللغات، أبياته يرويها الشباب وينقشونها على الجدران.

ميجيل كان يتحدث عن الثورة. كان يقول إن عنف النظام، يجب أن تواجهه بعنف الثورة. أما ألبا، فما كانت تكنّ أي اهتمام بالسياسة وتتمنى لو تتكلم في الحبّ فحسب. ولقد ضاقت ذرْعاً من سماع خطب جدّها، وحضور مناقشاته مع خالها جيم، واحتمال المعارك الإنتخابية. كانت مساهمتها الوحيدة في الحياة السياسية، أنها ذهبت مع رفاق دراسة آخرين فرمت حجارة على سفارة الولايات المتحدة، دون أن تكون لديها أسباب واضحة، وبناء عليه طردت من الكلية أسبوعاً وكاد جدّها يصاب من جديد بالسداد. لكن، في الجامعة، يستحيل أن تفلت من السياسة. لقد اكتشفت مثل كل الشباب الذين دخلوا إليها تلك السنة سحر الليالي البيضاء في الحانة في الحديث عن التبدّلات التي يحتاجها العالم والاستسلام لعدوى هوى الأفكار. التي تنتقل من امرئ لآخر. كانت ترجع إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل، وفمها مر، وقد

أشبعت ثيابها برائحة التبغ الحريفة، وجبينها يشتعل من أعمال البسالة الباهرة، وهي موقنة أنّه إذا جاءت اللحظة فسوف تبذل حياتها من أجل قضية عادلة. وقد اعتصمت بالجامعة حبّاً بميجيل، وليس عن قناعة أيديولوجية، مع الطلاب الذين احتلّوا الأبنية إشارة إلى دعم الشغيلة في إضرابهم. كانت تلك أيام معسكر وخطابات لاهبة، وصراخ من الشبابيك بشتائم لقوات الأمن، حتى غدوا بلا صوت. ولقد شادوا متاريس من أكياس التراب، وبلاط الباحة الرئيسة الذي انتزعوه، وسدّوا الأبواب والنوافذ كي يحيلوا البناء إلى قلعة حقيقية، لكنهم لم يتوصلوا إلّا لأن يجعلوا منه سجناً تركه على الطلاب أصعب من احتلاله على الشرطة. كانت تلك هي المرة الأولى التي تنام فيها ألبا خارج البيت، يهدهدها ميجيل بين ذراعيه بين أكوام الجرائد وعلب البيرة الفارغة، وفي تشوّش الرفاق اللاهب، وكلهم فتىً ينضح عرقاً، وعيونهم محمرة من قلة النوم والدخان، والبطن فارغ قليلاً، لكن دون ذرة من الخوف، لأن كل هذا كان يمتّ إلى اللعب، لا إلى الحرب. في اليوم الأول، لقد استغرقوا في بناء المتاريس وحشد كل دفاعاتهم الساذجة ودهن اللافتات والشتم بالهاتف حتى أنهم لم يبالوا عندما قطعت عنهم الشرطة الماء والكهرباء.

منذ البدء، ظهر أن ميجيل هو روح المعسكر المتمترس، يساعده الأستاذ جوميز، الذي بقي معهم حتى النهاية بالرغم من شلل ساقيه. ذلك المساء غنّوا كي يتشجّعوا، وعندما تعبوا من الخطابات والمناقشات والأغاني، توزعوا إلى مجموعات صغيرة كي يقضوا الليل على أحسن مايستطيعون. والأخير الذي أخذ بعض الراحة هو ميجيل، الذي ظهر وكأنه الوحيد الذي يعرف كيف يقاوم. اهتم بتموين الماء، فجلبه بعدة أوعية حتى ماكان مخزوناً في طرادات الماء، واصطنع مطعماً وأخرج لايُعرف من أين قهوة ذوّابة وبسكويت وبعض علب البيرة، وفي اليوم التالي، غدت رائحة المراحيض لاتطاق، من قلة التصريف، فنظم التنظيف وأمر بعدم استعمالها: نذهب لقضاء حاجاتنا في الباحة في مرحاض محفور عند تمثال الحجر لمؤسس الجامعة ووزع ميجيل الشباب إلى فرق ووجد لهم مايشغلهم كل النهار، بكياسة ذكية حتى أن

سلطته لم يلحظها أحد. كانت القرارات تبدو كأنها تصدر عفويّاً عن المجموعات نفسها.

ـ كأننا سوف نبقى عدة شهور هنا! قالت ألبا وقد فتنتها فكرة أنهم محاصرون.

وفي الشارع، رتبت إيستراتيجيا مصفحات البوليس، التي تحيط بالبناء القديم. وبدأ عندئذ انتظار عصبي دام عدة أيام.

وأدلى سيباستيان جوميز قائلاً: «في كل البلاد سوف يؤول المطاف بالطلاب والنقابات والمنظمات الحرفية إلى التحالف. بل ربما تكون الحكومة قد سقطت».

أجاب ميجيل: «لاأظن. لكن المهم أن نمكن للرفض وألا ندع هذا البناء إلا إذا استجيبت مطالب الشغيلة».

وأخذ المطر يهطلُ رقيقاً وهبط الليل في ساعة مبكّرة على البناء الذي حرم من النور. وأشعلوا بعض السرج المرتجلة التي صنعت في قماقم لها فتيلٌ بطيء وقليل من النفط. وقالت إلبا إنهم قطعوا عنهم الهاتف، لكنها استطاعت أن تتحقّق من أن الخط يعمل. وبيّن ميجيل أن مصلحة الشرطة في أن يتعلموا مايقولونه هم وفرض عليهم أن يراقبوا أقوالهم. ومهما كان من أمر، فقد خابرت ألبا بيتها كي تنذرهم أنها باقية إلى جانب رفاقها حتى النصر النهائي أو الموت، لكنها ما أن انتهت من جملتها حتى تبيّن لها أن الأثر كان غير ماترجو. فقد انتزع جدّها جهاز الهاتف من يدي بيانكا وقال لها، باللهجة النزقة، التي لاتعرفها حفيدته إلّا أكثر مما ينبغي، أن أمامها ساعة كي تعود ومعها تفسير مقبول عن هذه الليلة الكاملة التي قضتها خارج البيت. فأجابته ألبا أنها لاتستطيع الخروج، ولو استطاعت لما توفّرت لديها النية.

وصاح إيستيبان تروييبا قائلاً: «لكن ليس لديك ماتفعلينه هناك مع عصابة الشيوعيين هذه». غير أنّه لطّف حالاً لهجته ورجاها أن تخرج قبل هجوم الشرطة، لأنه في مكانة تسمح له بأن يعرف بأن الحكومة لن تحتملهم لانهائيّاً.

وخلص الشيخ إلى القول: «إن لم تتركوا المكان عن طيب خاطر، فإن الحرس السيار سوف يدخل بالقوّة ويطردكم بضرب الهراوات».

وانزلقت نظرة من ألبا عبر خصاص النافذة المسدودة بأكياس التراب وألواح الخشب، رأت العربات المصفّحة، مصطفة في الشارع، وصفّاً مزدوجاً من الرجال بعدّة الحرب، ارتدوا الخوذ، والأقنعة، وتسلحوا بالهراوات. فهمت أنّ جدّها لم يبالغ بشيء. ورأى الآخرون الشيء نفسه وأخذ بعضهم يرتجف. وأشار أحدهم إلى أنّه توجد قنابل جديدة، أسوأ من المسيلة للدموع، تثير إسهالاً لايقهر: قمين، من النتن والبهدلة، أن يردع أشدّ الشجعان. ظهرت الفكرة راعبة لألبا. واضطرت أن تضغط على نفسها كي لاتبكي. وأحست بوخز حادّ في بطنها فقالت إنه الخوف. وضمّها ميجيل بين ذراعيه، لكنها لم تطمئن مع ذلك. كلاهما كان مرهقاً وبدأت آثار تلك الليلة الشاقة تتردد على شكلهما ومعنوياتهما.

قال سيباستان جوميز: «لاأظنهم يجرؤون على أخذ المدخل عنوة. فالحكومة في غنى عن فتح معركة معنا».

ولاحظ صوتاً قائلاً: «لن تكون المرة الأولى التي يهاجمون فيها الطلاب».

أجاب جوميز: «لن يسمح بذلك الرأي العام. نحن في بلد ديموقراطي. هذا البلد ليس ديكتاتورية ولن يكون كذلك أبداً».

قال ميجيل: «نظنّ أن هذه الأشياء لاتقع إلّا للآخرين. حتى اليوم الذي تقع فيه على رؤوسنا».

وانقضت بقية فترة بعد الظهر دون حوادث؛ وأتى الليل فأحسّوا أنهم في طمأنينة أكثر، بالرغم من الجوع ووضع الضيق الممتد. وبقيت المصفحات أمينة على مركزها. وعلى طول الممرات، وفي قاعات الدرس، كان الشباب يلعبون الورق أو يركضون وراء بعضهم بعضاً، ويرتاحون، يتمدّدون على الأرض، يحضّرون ترسانة دفاعية مؤلفة من حجارة وعصيّ. والتعب كان يقرأ على كل الوجوه. وشعرت ألبا بمغص في أمعائها مايفتأ يشتد فقالت في نفسها إذا لم تحلّ

الأشياء في الغد، فلن يكون لها من مخرج إلا أن ترتدّ إلى الحفرة المحفورة في الباحة. في الخارج، كان الشتاء مستمرّاً؛ والمدينة، جامدة تستمر في رتابتها. ماكان يبدو أن أحداً يعلق أدنى اهتمام بهذا الإضراب الطلابي الجديد ويمر الناس من أمام العربات المصفحة دون أن يتوقفوا لقراءة اللافتات المعلقة على واجهة الجامعة. وتعوّد الجيران سريعاً على وجود الشرطة بالسلاح، ولما انقطع المطر خرج الأولاد يلعبون بالكرة في فسحة موقف السيارات المقفر بين البناء وفصائل الشرطة. في بعض الأوقات، كانت ألبا تشعر أنها موجودة على قارب شراعي في منتصف بحر رائق، دون هبة نسيم، في انتظار خالد وصامت، وهي مسمّرة خلال ساعات تسبر الأفق. ومع مضي الوقت حل محلّ رفقة أول يوم المرحة تهيّج، ومناقشات دائمة، بينما كان الوضع يغدو أكثر فأكثر إزعاجاً. وفتّش ميجيل كل البناء وسلب كل احتياطي الكافيتيريا.

قال: «عندما ينتهي كل شيء، سوف نسدّد للمدير. إنه عامل كسواه».

كان القطس بارداً. والوحيد الذي لم يشك من شيء، حتى ولا من الظمأ، هو سيباستيان جوميز. كان يبدو عليه أنه لايتعب مثل ميجيل، مع أن له ضعف عمره وهيئة مسلول. كان الأستاذ الوحيد الذي بقي مع الطلاب عندما احتلوا الأبنية. كان يروي أن شلل ساقيه ناجم عن رشقة رشاش أصابته في بوليفيا. إنه هو الإيديولوجي الذي أوقد عند تلاميذه تلك الشعلة التي رآها أكثرهم تنطفئ فيهم بعد خروجهم من الجامعة، عندما انضموا إلى هذا العالم الذي خالوا أنهم قادرون على تبديله في بداية شبابهم. كان هزيلاً ونحيلاً، أنفه أقنى وشعره مبعثر، وكانت تدفعه نار داخلية، لاتدعه أبداً يرتاح. كانت ألبا مدينة له بلقبها «الكونتيسة»: في أول يوم، جاءت جدّها فكرة خاطئة بأن يأخذها للمحاضرات بالسيارة والسائق، ولم تخطئ الأستاذ ملاحظة ذلك. ولقد جاءت صحة ذلك اللقب عرضاً بريئاً، لأنّه ماكان بوسع جوميز أن يعرف أن ألبا في المفارقة التي حصلت رغبت يومها في إظهار لقب النبالة لجان دوساتييني، وهو من الأشياء الصحيحة النادرة التي كان يمتلكها الكونت الفرنسي الذي منحها اسمه. ولم تحقد ألبا عليه من أجل هذا اللقب الساخر،

على العكس، لقد حلمت أحياناً بأن تغوي الأستاذ الشجاع. لكن سيباستان جوميز شاهد مرور كمية من الفتيات من نوع ألبا؛ كان يستطيع تمييز ذاك المزيج من الفضول والشفقة التي أثارتها العكازتان اللتان تسندان ساقيه المسكينتين اللتين ارتدتا إلى جالة خرقٍ رخوة.

انقضى النهار كاملاً دون أن يحرّك الحرس السيار عرباته المصفحة ودون أن تسلّم الحكومة بمطالب الشغيلة. وبدأت ألبا تتساءل عمّا جاءت تفعل في هذا السجن، لأنّ أوجاع بطنها كانت تغدو شيئاً فشيئاً لاتطاق وحاجتها إلى الإغتسال بماء دافق في مغطس تحوّلت عندها إلى هوس. وكلما مرّة نظرت فيها إلى الشارع ورأت الشرطة، امتلأ فمها لعاباً. واستطاعت أن تكتشف كم كان التدريب الذي ألزمها به خالها نيكولاس أقلّ نجاعة في نار العمل مما في وهم الأوجاع الخيالية. وبعد ساعتين من ذلك، أحست ألبا بين فخذيها بلزوجة دافئة، ولمست أن بنطالها ملطخ بأحمر. واجتاحها إحساس بالرعب. في الأيام الأخيرة عذّبها هذا الخوف بقدر عذاب الجوع تقريباً. كانت البقعة مرئية على بنطالها كعلم. ولم تبحث حتى عن إخفائها، تقوقعت في زاوية، وهي تحسّ أنها ضاعت. لقد علمتها جدّتها، منذ نعومة أظفارها، أن الأشياء الراجعة إلى البنية الإنسانية ليس شيء أكثر منها طبيعية ولذلك بإمكانها أن تتحدث عن الطمث مثلما تتحدث عن الشعر، لكن لما صارت في الكلية علّموها أنّ كل إفرازات الجسد، ماعدا الدموع، تصدم الحشمة، وشعر ميجيل بضيقها وخجلها، فذهب يبحث عن علبة قطن في عيادتهم المرتجلة وحصل على عدّة محارم، لكنه لاحظ، شاء أم أبى، أن ذلك لايكفي: وعند غروب الشمس كانت ألبا تبكي من خزي ومن ألم، وخافت من ضربات الكماشة في أحشائها ومن القرقرات الدامية التي لاتشبه في شيء قرقرات الشهور الماضية. اعتقدت أن شيئاً ما كان يهلك فيها. لاحظت آناديار، وهي تلميذة مثل ميجيل، تضع شارة القبضة المرفوعة أن «هذا» لايؤلم إلا النساء المثريات، وأن البروليتاريّات لايشكين أبداً منه، حتى في ساعة المخاض، لكنّها لما رأت بقعة البنطال تتحول إلى رامة حقيقية، وألبا تشحب كميّتة، ذهبت فحدّثت سيباستان جوميز. وأعلن هذا أنه غير قادر على حلّ المسألة.

ـ هذا مايحصل عندما تريد أن تشرك النساء بقضايا الرجال، قالها بصفة المزاح.

غير أن الفتاة أجابت بلهجة محنقة: «لا، إنما حين تريد أن تشرك البورجوازيين في قضايا الشعب».

وذهبت سيباستيان جوميز إلى الركن الذي وضع فيه ألبا وانزلق إلى جانبها بصعوبة بسبب عكازيه.

قالت لها: «أيتها الكونتيسة، يجب أن ترجعي إلى بيتك. بت لاتستطيعين هنا أن تساعدي بشيء؛ على العكس، أصبحت عبئاً».

وأحست ألبا بهبة عزاء تصعد فيها. كانت تموت خوفاً فكان هذا مخرجاً مشرّفاً يسمح لها بأن ترجع إلى بيتها من دون أن تبدو جبانة. وناقشت ماوسعها مع سيباستيان جوميز، كي تنقذ ماء الوجه، ثم قبلت للتوّ تقريباً أن يخرج ميجيل ومعه علم أبيض كي يفاوض الشرطة. وتبعوه جميعاً بالنظر عبر كوى الإستحكامات بينما كان يقطع فسحة الموقف المقفر، ورصّ الشرطة صفوفهم وأعطي له الأمر بالمكّبر بأن يقف في مكانه، وأن يضع علمه أرضاً، وأن يتقدّم، ويداه وراء نقرته.

قال جوميز: «يظن المرء فعلاً أنه في حرب».

بعد قليل رجع جوميز وساعد ألبا في النهوض. وأخذت بذراع ألبا الفتاة نفسها التي حاكمتها شاكية منها وخرج الثلاثة من البناء فداروا من حول الاستحكامات وأكياس التراب تضيئهم بروجيكتورات الشرطة القوية. كانت ألبا تكاد لاتقدر أن تمشي، وهي تموت خجلاً وأصاب رأسها الدوار. في منتصف الطريق، جاءت دورية للقائهم، ووجدت ألبا نفسها على بعد سنتمترات من لباس عسكري مخضّر ورأت مسدساً مسدّداً على مستوى أنفها. ورفعت عينيها فاكتشفت أمامها وجهاً نحاسياً له عينا قاضم. وعرفت حالاً مع من تتعامل: إيستيبان جارسيا.

وصاح جارسيا بلهجة ساخرة: «لكنّها حفيدة الشيخ ترويببا!».

وعلم ميجيل بهذه الصورة أنها لم تقل له كل الحقيقة. وأحسّ أنها خانته فتركها بين يدي الآخر، ودار بعقبه ورجع وقد ترك علمه الأبيض ينجرّ على الأرض، دون أن يلقي عليها نظرة وداع، إلى جانب آنا دياز التي أظهرت مثله من الدهشة والغضب.

سألها جارسيا وقد سدّد مسدّسه إلى بنطال ألبا: «ماذا أصابك؟ يبدو لي أنه طرح!».

رفعت ألبا رأسها وحدّقت إلى عينيه: «هذا لايعنيك. خذني إلى بيتي!» أمرته وهي تقلّد اللهجة المتسلّطة التي يستخدمها جدّها مع الذين لايعتبرهم من طبقته نفسها.

وانتفض جارسيا. لقد انقضى عليه زمن طويل لم يسمع فيه أمراً ينزل عليه من فم مدني وأغراه أن يأخذها إلى الثكنة فيدعها فيها تتعفّن في قعر زنزانة، تسبح في دمها، حتى تستعطفه على ركبتيها، لكنّه حفظ من ممارسة مهنته درساً أنه يوجد أناس أقوى منه بكثير، وأنّه لايستطيع التلذّذ بالعمل دون عقاب. وإضافة لذلك، فإن ذكرى ألبا بأروابها المنشّاة وهي تشرب عصير الليمون تحت فيراندا الماريّات الثلاث، بينما كان يتجرجر حافي القدمين في باحة الدجاج يشخر برغامه، كما أن الخوف الذي مازال يكابده من العجوز ترويبا، وضح أنهما أقوى من رغبته في إذلال ألبا. لم يستطع احتمال نظرة الفتاة فأحنى رأسه بشكل خفيّ. قام بنصف دورة، وعوى ببعض الكلمات فحمل شرطيّان ألبا إلى سيارة شرطة. وهكذا رجعت إلى البيت. لما رأتها بيانكا قالت في نفسها أنّ تشخيص الجدّ تحقق وأن الشرطة أعطت الأمر بالهجوم بالهراوات على الطلاب. وأخذت تزعق ولم تنقطع إلا في اللحظة التي فحص فيها جيم ألبا وطمأنها بأنها ليست جريحة، وأنها لاتعاني من شيء إلّا ويمكن شفاؤه بإبرة أو إبرتين وراحة طيبة.

وقضت ألبا يومين في السرير، تصدع فيهما الإضراب الطلابي سلميّاً ونحيّ وزير التربية عن وزارته ونقل إلى وزارة الزراعة. فعلّق على ذلك الشد- ترويبا قائلاً:

«إذا استطاع أن يكون وزير تربية وهو لايحمل شهادة التعليم الإبتدائي، فبوسعه أن يكون وزير زراعة ولو أنه لم ير بقرة في حياته على قوائمها».

أتيحت الفرصة أمام ألبا، طيلة الوقت الذي قضته في السرير، أن تتذكر كل الحوادث التي عرفت فيها إيستيبان جارسيا. ولما رجعت بعيداً جدّاً إلى الوراء بين صور طفولتها، تذكرت صبيّاً أسمر، ومكتبة جدّها في البيت الكبير، والموقد المتوهّج، الذي تضوّع فيه حطبات كبيرة من الأكاسيا عطرها، ذلك كان في فترة بعد الظهر أو في نهاية النهار، ووجدت نفسها جالسة على ركبتيه. لكن هذه الرؤيا العابرة ماكانت تفعل إلّا أن تدخل وتخرج من ذاكرتها؛ وقالت في شكّها أنها حلمت بها. إن أوّل ذكرى رقيقة تحفظها عنه هي تالية لذلك. إنها تعرف تاريخها الصحيح، لأنه عيد ميلادها الرابع عشر وقد دونته أمّها في ألبوم الورق الأسود الذي بدأته جدّتها عند ولادتها. صنعت من أجل المناسبة تجعيدة ووقفت تحت الفيراندا، وقد لبست معطفها، بانتظار أن يأتي خالها جيم كي يأخذها فيشتري لها هدية. كان الطقس بارداً جدّاً، لكنها كانت تحب البستان كثيراً في الشتاء. نفخت في أصابعها ورفعت طوق المعطف كي تحمي أذنيها. ولقد استطاعت أن ترى، من المكان الذي كانت فيه، نافذة المكتبة التي كان جدها فيها يتحدث مع رجل آخر. كان الزجاج مغشّى بالبخار، لكنها توصلت إلى أن تحدّد بزة الشرطة وتساءلت عما يمكن أن يصنع جدّها مع أحد هؤلاء في مكتبه. كان الرجل يدير ظهره إلى النافذة ويجلس بصلابة على طرف مقعده، وكتفاه راجعتان إلى الوراء، وهيئته تثير الشفقة كجندي صغير من الرصاص. وظلت ألبا تتأمله لحظة، وخطر لها أن خالها لن يتأخر عن الوصول، فصعدت في البستان إلى عريشة نصف خاسفة، وهي تضرب يداً بيدٍ كي تدفأ؛ ورفعت الأوراق الرطبة العالقة بالمقعد الحجري وجلست تنتظر. وهناك وجدها بعد قليل إيستيبان جارسيا، لما خرج من البيت واضطر أن يقطع البستان كي يصل إلى البوابة. لما رآها توقف فجأة. نظر إلى كل الجهات، وتردّد ثم اقترب:

ـ هل تذكرينني؟

ـ لا، قالت بلهجة غير موقنة.

ـ أنا إيستيبان جارسيا. التقينا في الماريّات الثلاث.

وابتسمت ألبا آليّاً. ذكرى سيئة صعدت إلى ذاكرتها. شيء في عيني الفتى، كان يوقظ قلقاً فيها، دون أن تستطيع تحديده. وكنس جارسيا الأوراق بقفا يده واتخذ مكاناً إلى جانبها تحت العريشة، قريباً حتى ليمسّ الفخذان بعضهما بعضاً.

قال وهو يتنفّس في وجهها: «هذا البستان هو غابة عذراء حقيقية».

ورفع عمرته فلاحظت أن شعره قصير جدّاً، قاس جدّاً، ممشّط بدهن الشعر. وحطّت بخفّة يد جارسيا على كتفها. وشدهت الفتاة لألفة الحركة؛ وبقيت لحظة مشلولة قبل أن ترتدّ إلى الوراء محاولة أن تتخلّص من هذه اليد التي أخذت تضمّ الكتف وتغرز أصابعها عبر قماش المعطف السميك. وأحست ألبا أنّ قلبها يخفق كآلة وصعدت الحمرة إلى وجنتيها.

ـ كبرت يا، ألبا، صرت امرأة تقريباً، همس الرجل في أذنها.

ـ بلغت الرابعة عشرة، منذ اليوم، تمتمت هي.

وحاولت ألبا أن تبعد وجهها، لكنّ الآخر أمسك به بقوّة بين يديه، وأكرهها على مواجهته. كانت قبلتها الأولى. وأحست بشيء دافئ وقاس، وشعرت بجلده خشناً ولم يحلق جيّداً وهو يخدش وجهها، ورائحة التبغ البارد والبصل النيّء، وعنقه. واستبسل لسان جارسيا في فكّ شفتيها بينما كان، بيد يهرس لها الوجنتين كي يجبرها على إرخاء الفكين. وتصوّرت هذا اللسان مثل رخوية رطبة سائلة اللعاب، وأحسّت بالغثيان يغزوها، ومعدتها ترتفع، لكنها حافظت على عينيها مفتوحتين على وسعهما. رأت نسيج البزّة الخشن، وشعرت باليدين المتوحشتين تحيطان بعنقها، وأصابعهما تبدأان بالشدّ دون أن يدع جارسيا قبلته. وظنت ألبا أنها تكاد تختنق فدفعته بعنف حتى أنها استطاعت الخلاص. وابتعد جارسيا عن المقعد وهو يبتسم ابتسامة ساخرة. كان على خديه لطعتان محمرتان ويتنفّس مثل قاطرة.

وقهقه قائلاً: «أعجبتك هديتي؟».

ورأته ألبا يبتعد بخطوات واسعة عبر البستان ويجلس كي ينتحب. وأحست أنها لوثت، وأهينت. وركضت إلى البيت ففركت فمها بالصابون وفرشت أسنانها، وكأنها انتزعت هكذا اللطخة من ذاكرتها. وعندما أتى أخيراً خالها جيم كي يأخذها، تعلقت برقبته، ودفنت وجهها في قميصه وقالت له إنها لاتريد أية هدية، لأنها قررت أن تصير راهبة. وانفجر جيم بضحكة رنانةٍ ومهيبة صعدت من أعمق أحشائه ولم تسمعها منه إلّا في مناسبات نادرة، لأن خالها كان رجلاً صامت المزاج.

وانتحبت ألبا قائلة له: أقسم لك أنها الحقيقة! إني سأنتسب إلى الرهبانية».

فأجابها جيم: «لايصوغ الإنسان نفسه من جديد هكذا. وإضافة لذلك، يجب أن تمرّي أولاً على جسدي».

لم تر ألبا بعدها إيستيبان جارسيا حتى اليوم الذي وجدت نفسها فيه قريبة منه على فسحة موقف الجامعة، لكنها لم تستطع أن تنساه لحظة. ولم تنفتح يوماً لأحد عن هذه القبلة المقرفة ولا الأحلام التي رأتها فيما بعد، والتي كان يظهر لها فيها على ملامح وحش مخضّر يهم بخنقها بقوائمه، ويقطع نفسها بأن يدخل في فمها إحدى لوامسه اللزجة.

وفهمت ألبا عند تذكّرها هذه الوقائع أن الكابوس ظلّ كامناً فيها عبر كل تلك السنين وأن جارسيا لم ينقطع عن أن يبقى تلك البهيمة المتوحشة التي تترصّدها في الظلّ كي تقفز عليها في منعطف أو آخر في حياتها. ماكانت تقدر أن تعرف آنئذ أن تلك كانت ولاشك نبوءة.

في المرة الثانية التي رآها فيها ميجيل تخطو كروح حزينةٍ في الممرات القريبة من الكافتيريا حيث تعارفا، أعلن عن خيبته وغضبه لأن ألبا حفيدة الشيخ ترويبا، وبيّن أنه من غير العدل أن يحفظ الضغينة للحفيدة من أجل أفكار

جدّها، واستأنفا نزهاتهما، وقد تحاضنا معاً. وبعد قليل من الزمن، وضح أن القبل التي لاتنتهي لم تكن كافية وأخذا يتواعدان في الغرفة التي يعيش فيها ميجيل. كانت في فندق عائلي للطلاب الفقراء، يديرها زوجان من عمر ناضج موهوبان بالتجسّس. كانا ينظران إلى ألبا بعين الحسد وعداء لايخفيانه عندما تصعد إلى غرفة ميجيل وهي ممسكة بيده، وكانت تتعذب في أن تقهر خجلها وتواجه حكم تلك النظرات التي تفسد عليها كل لذة لقائهما. ولقد كانت تفضّل حلولاً أخرى، كي تتفادهما فحسب، غير أنها ماكانت تطيق فكرة النزول معاً في فندق ما، للسبب نفسه الذي ماكانت تحبّ من أجله أن ترى ميجيل في فندق.

وكان هذا يسخر منها قائلاً: «أنت أسوأ بورجوازية عرفت».

كان في بعض الأحيان يتدبّر أمره كي يعيره أحد ما موتوره فيفرا بعض الساعات ويجريا على حافة الموت، منفرجيْ الساقين على الآلة، وآذنهما قد تجلدت، والقلب نهم. كانا يحبّان الذهاب في الشتاء إلى الشواطئ المقفرة، فيمشيان على الرمل المبلل، ويتركان آثارهما التي يأتي الماء فيلحسها، ويخيفان النوارس ويتنفسان هواء البحر في جرعات كبيرة. في الصيف، كانا يفضلان أشدّ الأحراش كثافة، حيث يستطيع اللهو دون عقاب الكشافين بناطيلهم القصيرة وعشّاق النزهات. واكتشفت ألبا بعد قليل أن أكثر الأمكنة أماناً هو بيتها نفسه. في متاهة الغرف الخلفية الملغاة، حيث لايدخل أحد، كان بوسعهما أن يتحابّا دون من يزعجهما.

قالت ألبا: «إذا سمع الخدم صوتاً ظنّوا أن الأشباح رجعت». وروت له ماضي الأرواح الزائرة المجيد والطاولات الطائرة في بيت الزاوية الكبير.

في المرّة الأولى التي أدخلته فيها من باب البستان الخلفي هي تشق طريقاً بين العلّيق وتدور حول التماثيل التي لطختها الطحالب وبراز الطيور، ارتعش الفتى وهو يكتشف البناء الكئيب. تمتم قائلاً: «أتيت إلى هنا من قبل». لكنّه لم يستطع أن يتذكر بدقّة، لأن غابة الكابوس تلك، وهذا المسكن الحزين ماكان يشبه أبداً الصورة المدهشة التي اختزنها في ذاكرته منذ طفولته الأولى.

وجرّب العاشقان الغرف المهملة واحدة بعد أخرى وانتهيا إلى أن يصنعا عشّاً لغرامياتهما السريّة في أعماق القبو. منذ سنين طويلة لم تضع ألبا فيه قدمها ووصل بها الأمر إلى أن تنسى حتى وجوده، لكنها في اللحظة التي فتحت فيها الباب وتنشقت الرائحة التي لاشبه لها، عانت من جديد جاذبية الماضي السحرية. استعملا الأشياء المهملة، الصناديق، ونسخ كتاب الخال نيكولاس، والأثاث وستائر الأزمنة البطولية كي يعدّا غرفة عرس خارقة. في الوسط أقاما سريراً مصطنعاً عليه عدة فرش غطياها بقطع من المخمل قرضه العث. وأخرجا من الحقائب كنوزاً لاتحصى. صنعا لهما أغطية من السجف الدمشقية القديمة بلون الياقوت، وفتّقا روب الدانتيلا شانتيي الباسق الذي لبسته كلارا يوم موت باراباس، كي يصنعا منه كلّة حديثة اللون: تقيهما من العناكب التي كانت تنزل من السقف على نسيجها. وأضاءا بالشمعة وماتحرّجا كثيراً من وجود القواضم الصغيرة، ومن البرد المهيمن، أو من عفن مابعد القبر، كانا في غسق القبو الخالد، يتحركان عاريين، يتحديان الرطوبة ومجاري الهواء. وكانا يشربان نبيذاً أبيض في أكواب الكريستال التي سرقتها ألبا من غرفة الطعام، ويقومان بجرد دقيق لجسديهما ولطاقات اللذة العديدة. كان يلعبان كطفلين، كانت ألبا تجد صعوبة في التعرف، في هذا الفتى العاشق الذي يضحك ويلهو في باخوسيّة لانهاية لها، إلى الثوري الظامئ للعدالة الذي يتعلّم سرّاً استعمال الأسلحة النارية والإستراتيجيات الثوريّة. كانت تخترع حيل إغراء لا تقاوم بينما يتصوّر ميجيل طرق حب جديدة ورائعة. كلاهما كان يظل ذاهلاً من قوة هواه: كأن تعويذة حكمت عليهما بظمأ لايروى. كانت تنقصهما الساعات والكلمات كي يقول بعضهما لبعض أكثر أفكارهما حميمية، وأبعد ذكرياتهما زمناً، في محاولة طموح كي يمتلك كل منهما الآخر في آخر خنادقهما. وأهملت ألبا الفيلونسيل، ماعدا العزف عارية على سرير الياقوت، وكانت تحضُر دروس الجامعة وهي متهلّسة. وترك ميجيل أيضاً أطروحته واجتماعاته السياسية، لأنهما كانا بحاجة للبقاء معاً في كل الساعات فكانا ينتهزان أدنى غفلة من سكان البيت الكبير كي ينسربا حتى القبو. وتعلمت ألبا الكذب والكتمان.

تذرعت بأنّها بحاجة للدرس ليلاً، فتركت الغرفة التي كانت تشارك فيها أمّها منذ موت جدّتها وأقامت في غرفة من الطابق الأوّل، تطلّ على البستان، كي تستطيع فتح نافذتها لميجيل وتقوده على رأس قدميها عبر البيت الغافل حتى خلوتهما المسحورة. لكنهما ماكان يلتقيان إلا ليلاً. وكانت أحياناً لهفة الحب لاتطاق حتى يغامر ميجيل بالمجيء نهاراً وهو يزحف كلص بين السياجات حتى باب القبو حيث ينتظر ألبا وقلبه معلق بخيط وحيد. كانا يقبلان بعضهما بعضاً في يأس وداع لارجعة منه قبل أن يدخلا إلى عرينهما وهما يضحكان كمتواطئين.

أحسّت ألبا، لأول مرّة في حياتها بالحاجة لأن تكون جميلة، وأسفت أنّ أيّة من نساء عائلتها الرائعات لم تورثها مفاتنها، والوحيدة التي فعلت شيئاً، هي روزا الجميلة، ولو أنها لم تمنحها غير لون الأشنات البحرية لشعرها، وذلك، لأنها ينقصها ماعداه، يجعل المرء يظن أنه من طيش حلّاق. واكتشف ميجيل ضيقها فأخذها من يدها وقادها إلى أمام المرآة البندقية الكبيرة التي كانت تزيّن زاوية غرفتهما السرّية، ونفض الغبار عن البلور المصدوع، وأشعل كل الشمعات التي عنده وزرعها حولها. تأملت نفسها في آلاف الصفيحات من المرآة المكسورة. كان لجلدها الذي أضاءته الشموع، لون أشكال الشمع غير الواقعي. أخذ ميجيل يداعبها، فرأت ملامحها تتحوّل في مشكال المرآة، وانتهت إلى أن اعترفت بأنها أجمل من في الكون كله لأنها تستطيع أن ترى نفسها بالعينين اللتين ينظر بهما إليها ميجيل.

دام أكثر من سنة هذا العهر الذي لاينتهي. وانتهى ميجيل أخيراً من أطروحته، وحصل على شهادته وأخذ يبحث عن عمل. ولما ارتوى سعار الحب الملحّ الظامئ، استطاعا العودة إلى أكثر من اعتدال وتطبيع وجودهما. وقامت بجهد كي تهتم من جديد بدروسها وعاد ميجيل إلى نشاطاته السياسية: واندفع الطلاب واضطرمت في البلاد معارك الأنصار. استأجر شقة صغيرة قريبة من مركز عمله، كانا يلتقيان بها كي يحب بعضهما بعضاً، لأنهما في السنة التي قضياها عاريين يلهوان في القبو التقط كلاهما التهاب قصبات مزمناً انتزع جزءاً

كبيراً من سحر الجنة تحت الأرضية. وساعدت ألبا في التزيين، فوزعت الأرائك البيتية والخزائن السياسية في كل مكان، ووصل بها الأمر إلى الإقتراح بأنها تستطيع أن تأتي كي تعيش إلى جانبه، لكنّ ميجيل أبدى أنه لاينثني حول هذه النقطة. شرح لها قائلاً:

«إن أزمنة سيئة قادمة إلينا، يا عزيزتي. فلا أستطيع أن أحتفظ بك، لأنني في اللحظة المواتية يجب أن ألتحق بالجيريّيا»[1].

وعدته قائلة: «أيّان تذهب، أذهبْ معك».

وأجابها ميجيل: «إن المرء لايدخل هنا عن حبّ، وإنما عن قناعة سياسية، وهي ليست عندك. وليس بوسعنا أن نبيح لأنفسنا قبول الهواة».

بدت الصيغة قاسية لألبا، ولم تدرك حقيقتها في كل مداها إلّا بعد سنين من ذلك.

وصل الشيخ تروييبا إلى عمر التقاعد، لكن هذه الفكرة لم تلامس ذهنه. كان يقرأ جريدة اليوم وهو يجمجم بين أسنانه. لقد تغيّرت الأشياء عبر السنوات الأخيرة وكان يشعر أن الأحداث سبقته: لم يتخيّل يوماً أن يعيش القدر الذي عاشه، حتى يواجهها. لقد ولد قبل أن يوجد النور الكهربائي في المدينة وكتب له أن يشاهد في التلفزيون رجلاً يخطو على القمر، لكنّ أيّاً من صروف حياته الطويلة لم يعدّه لمواجهة الثورة التي تنضج في بلاده نفسها، تحت ذقنه، والتي تدع كل الناس في حالة وجد.

كان جيم هو الوحيد الذي لايتكلم دائماً عمّا يتحرك. ولقد التزم جانب الصمت، كي يتجنب الخصام مع أبيه، ولقد اكتشف سريعاً أن عدم الكلام هو الأنسب. والمرّات النادرة التي تخلى فيها عن إيجازيّته الترابية[2] كانت عندما

١ ـ فضلنا استعمالها هكذا بدلاً من معارك الأنصار لأن الكلمة صارت عالمية.
٢ ـ نسبة إلى دير الأتراب الذي يمتنع من فيه عن الكلام.

تزوره ألبا في وجره للكتب. كانت بنت أخته تظهر في قميص النوم، وشعرها مبلل بعد الحمام وتجلس على قدم سريره كي تروي له حياتها الورديّة، لأنه كان كالمغناطيس، كما تقول، يجذب مشاكل الآخرين، والبؤس الذي لادواء له، فكان محتّماً أن يأتيه أحد ما فيحدثه عن الربيع والحبّ. لكنّ نياتها الطيبة كانت ترتدّ عدماً من حاجتها إلى مناقشة خالها في كل ما يضايقها. وماكانا يتفقان دوماً. كانا يشتركان في القراءات نفسها، لكنهما في لحظة تحليل ماقرآه، كان يتّضح لهما أن افكارهما تتناقضان كلّياً. كان جيم يسخر من آرائها السياسية، ومن أصدقائها الملتحين، ويؤنبها لأنها أحبت إرهابيّ حانة. كان الوحيد في البيت الذي يعرف بوجود ميجيل.

كان يقول لألبا: «قولي لهذا الغبي أن يأتي يوماً فيعمل معي في المشفى؛ وبعدها نرى إن ظلت عنده الرغبة بتضييع وقته بمناشير الثرثرة».

كانت تجيب خالها قائلة: «إنّه محام وليس طبيباً».

ـ لاأهمية لهذا. هناك، لاشيء ولاأحد يفيض عن الحاجة. حتى ممدّد الصحيات يفيدنا.

كان جيم مقتنعاً بأن الاشتراكيين سوف يصلون إلى النصر بعد هذا العدد من سنّي الكفاح. وكان يعزو هذا الأمر إلى أن الشعب وعى حاجاته وقوته الذاتية. وكانت ألبا تكرر صيغ ميجيل الذي كان يرى أن البرجوازية لاتقهر إلا بالكفاح المسلّح. وكان جيم ينفر من التطرّف، مهما كانت صورته، وكان يبرهن بأن عمل الأنصار لايبرّر إلا في حكم الطغيان، عندما لايوجد مخرج غير القتال بالسلاح، لكنّه زيغ في بلاد يمكن الوصول فيها إلى التغيير بالتصويت الشعبي.

كانت ألبا تجيب: «هذا لم يحدث بتاتاً يا خالي. إنهم لن يدعوا النصر لاشتراكييك!».

كانت تتمسّك بعرض وجهة نظر ميجيل: أنه لايمكن الإستمرار بانتظار أن يتقدّم التاريخ بخطى صغيرة في تطور ثقافي شاقّ وتنظيم شعبي، بينما يقوم العالم بقفزات إلى الأمام، وهم باقون بعيداً في الخلف، وأنّ أي تبدّل جذري لم

يحصل بالتهذيب ودون عنف. والتاريخ يبيّن ذلك. كانت تؤيّد مناقشاتهما ويغرق كلاهما في فصاحة مختلطة تنهكهما، ويتهم أحدهما الآخر بأنه رأس بغل حقيقي، إلى أن يرجو له بقبلة ليلة سعيدة ويبقى كما كان على الإنطباع بأن ندّه أروع الكائنات.

ومساءَ يومٍ، في ساعة العشاء، أعلن جيم أن الاشتراكيين سوف يربحون، ولكن بما أنه منذ عشرين سنة مازال يشخّص الشيء نفسه، لم يصدق أحد أقواله. وردّ عليه ترويبيا باحتقار: «لو أن أمّك مازالت في هذا العالم لقالت لك إن الناس أنفسهم سوف يربحون».

وكان جيم يعرف مايقول. لقد أخذه عن المرشّح نفسه. إنهما صديقان منذ عدد من السنين وغالباً ماكان يذهب جيم مساء كي يلعب معه بالشطرنج. إنه الاشتراكي نفسه الذي التمس رئاسة الجمهورية منذ ثمانية عشر عاماً. لقد رآه جيم أول مرة، وهو جاثم على كتفي أبيه، حين مرّ في غيمة من الدخان على أحد قطارات النصر، إبان المعركة الإنتخابية في أيام شبابه. في ذلك الزمان كان المرشح رجلاً جديداً وقويّاً، عارضاً كلب صيد، يبحّ من الخطابات الحماسيّة بين صراخ الملاّكين وهزئهم وصمت الفلاحين الغضوب. تلك كانت الفترة التي شنق فيها الإخوة سانتشيز المسؤول الإشتراكي المحلي عند تقاطع الطرق، وساط إيستيبان ترويبيا بيدرو الثالث جارسيا أمام أبيه لأنه كرّر أمام المزارعين تفسيرات التوراة الرافضة للأُب خوسيه دولسيه ماريا. ولقد ولدت صداقته مع المرشح صدفة، في ليلة أحد أرسل فيها من المشفى من أجل حالة طارئة في البيت. ووصل إلى العنوان المحدّد في سيارة إسعاف، ورنّ الجرس، فجاء المرشح نفسه كي يفتح له. ولم يجد جيم أية صعوبة للتعرّف عليه: رأى صورته مرات عديدة ولم يتغير المرشح يوماً منذ الفترة التي كان يراه فيها راكباً في القطار الإنتخابي.

ـ أدخل أيها الدكتور، كنا ننتظرك، قال له في مقام الترحيب.

وقاده حتى غرفة صانعة كانت فيها بناته يحاولن إسعاف امرأة بدا عليها

أنها في حالة اختناق: كان وجهها ضارباً إلى البنفسجي، وعيناها جاحظتان، وانتفخ لسانها انتفاخاً بشعاً وتدلّى خارج الفم.

شرح قائلاً: «شربت سمّاً».

قال جيم وهو يحضّر إبرة: «آتوني بقنينة الأوكسيجين الموجودة في سيارة الإسعاف».

وبقي هو والمرشح عند رأس المرأة، حتى عاد تنفّسها طبيعيّاً واستطاعت أن تدخل لسانها في فمها. وتحدثا في السياسة وعن لعبة الشطرنج، وهكذا بدأت صداقة متينة. قدّم جيم نفسه بكنيّة أمّه التي كان يستخدمها دائماً، دون أن يتخيّل، أن إدارة الأمن في الحزب تنقل إلى محدثه في اليوم التالي تماماً المعلومات التي لم يكن حسبها غير ابن الشيخ تروييبا، أسوأ أعدائه السياسيين. ولم يلحّ المرشح في ذلك مطلقاً، وظلّ حتى الساعة المحتومة، التي شدّ فيها كل منهما على يد الثاني للمرّة الأخيرة في هدير الحريق وفرقعة القنابل، يتساءل جيم هل يؤتى الشجاعة يوماً فيصرح له بالحقيقة.

لقد سمحت للمرشح تجربته الطويلة في الفشل ومعرفته العميقة بالشعب بأن يدرك قبل الناس جميعاً أنه هذه المرّة، سوف ينتصر. وانفتح بالأمر لجيم بعد أن دقّق له أن نقل الخبر ممنوع، كي يتقدم اليمين إلى الإنتخابات وهو واثق من نصره، ووقح، ومنقسم ولاحظ له جيم، أنهم لو صاحوا به للعالم أجمع، فلن يغامر أحد بالتصديق، حتى من الاشتراكيين أنفسهم. وعلى سبيل التأكد، أخبر أباه به.

استمر جيم يعمل أربع عشرة ساعة في اليوم، سبعة أيام على سبعة، ممسكاً عن المساهمة في الصدام السياسي. كان يرعبه المجرى العنيف لهذه المعركة الذي أخذ يستقطب القوى حول أقصى العدوين، دون أن يدع في الوسط غير جماعة مترددة متقلبة تنتظر أن ترى الغالب يلوح فتأتيه بأصواتها. لم يدع لأبيه أن يثيره فقد كان هذا ينتهز أدنى فرصة وأيان اجتمعا كي يحذّره من مناورات الشيوعية الدولية والفوضى التي يجرّ إليها الوطن في الفرضية البعيدة الإحتمال وهي خروج اليسار منتصراً. ولم يعل صبر جيم غير مرة واحدة: صباح يوم،

وجد المدينة كلها تغطيها ملصقات فظيعة ترى فيها أمّ ببطن بارز، فريسة اليأس، تحاول عبثاً أن تنتزع ابنها من جندي أحمر يسفّره باتجاه موسكو. كانت تلك معركة الرعب التي يوجهها الشيخ تروييا ومحازبوه بمساعدة خبراء أجانب مختصّين استقدموا لهذا الغرض. كان هذا كثيراً عند جيم. وقرر أنه بات من غير الممكن أن يعيش وأباه تحت السقف نفسه، فألغى عرينه، وحمل حوائجه وذهب ينام في المشفى.

تسارعت الأحداث، في الشهور السابقة للانتخابات. لم يبق شارع إلاّ وعرض سحن المرشحين، من الطائرة رميت آلاف المنشورات في الهواء سدّوا الدروب بأقذر الكلام مطبوعاً يسقط من السماء كثلج، والراديوات تجعر بالشعارات السياسية وتبودلت أبلد الرهانات بين أنصار كل معسكر. وعند حلول الليل كان الشباب يذهبون جماعات كي يهاجموا خصومهم الإيديولوجيين. ويقرع الطبل لحشد تجمعات واسعة من الغوغاء لتقدير حصة كل حزب، وكل منها كان يرى أن المدينة تزدحم حتى لتكاد تتخلّع، والناس يتكوّمون على قدر ذلك. وكانت ألبا في غاية المرح؛ لكن ميجيل برهن لها أن الإستفتاء ليس سوى تهريج، وأن المعسكر الغالب لايعنيه، إنها المحقنة نفسها وإن تغيّر الأنبوب، إن الثورة لاتصنع في قعر صناديق الإقتراع وإنما بدم الشعب. إن فكرة الثورة السلمية في نظام ديموقراطي وبملء الحرية هي تناقض في التعبير.

ـ هذا الولد أبله! صاح جيم لما نقلت له ألبا كلماته. سوف نربح ويكون عليه أن يبتلع كلماته.

استطاع جيم حتى ذلك الوقت تجنب ميجيل. وماكان يشتهي أن يتعرّف إليه. كانت تؤرقه غيرة خفية لاتعلن. لقد ساعد ألبا في المجيء إلى العالم، وأمسك بها آلاف المرات على ركبتيه، وعلمها القراءة، ودفع لها أجر الكلية، واحتفل بكل أعياد ميلادها، فكان يحسّ بنفسه وكأنه أبوها فلا يستطيع أن يتخلص من خشية أن يراها وقد غدت امرأة. ولقد لاحظ كم تغيّرت عبر السنوات الأخيرة، لكنه علّل نفسه بأسباب وجيهة، مع أن التجربة التي اكتسبها وهو يعالج الآخرين علمته بألّا شيء يجعل امرأة تتألق غير لقاء حبّ. لقد رأى

ألبا تصل، بين عشية وضحاها إلى عمر البلوغ مخلفة وراءها اشكال المراهقة الرخوة كي تتمتع بكل حبورها بجسدها الجديد جسد المرأة الوديعة المتفتّحة. كان يأمل بنوع من العنف الغبي أن شعور بنت أخته لم يكن إلا ناراً في قشّ، لكنه في الحقيقة ماكان يريد أن يوطّد نفسه على فكرة أنها بحاجة لرجل آخر أكثر منه. ولم يستطع كذلك أن يستمر في تجاهل ميجيل. وجاءته ألبا، إبان هذه المفارقات، فروت له بأن أخت الأخير مريضة.

طلبت منه قائلة: «أحبّ أن تحدّث ميجيل يا خالي. فهو يقول لك ما اختلّ عند أخته. ألا تريد أن تعمل ذلك من أجلي؟

عندما قابل جيم ميجيل في بار من الحي، لم تستطع كل ظنونه أن تدفع موجة من الودّ جعلته ينسى خصومتهما: الرجل الذي كان أمامه، يحرّك بعصبية قهوته، لم يكن ذلك المتطرّف الوقح والواثق من نفسه الذي انتظر أن يكون كذلك، بل فتىً انفعالياً مرتجفاً، وكل ما فيه يصف الأعراض التي تتألم منها أخته، يكافح كي يمسك بدموعه التي تغرق عينيه.

قال له جيم: «خذني إليها».

وأخذه ميجيل وألبا إلى الحي البوهيمي. في مركز المدينة، وعلى بعد أمتار من أبنية الزجاج والفولاذ الحديثة، انبثقت على منحدر التلة دروب متعرّجة مخصصة للرسامين، والخزفيين والنحاتين، أقاموا فيها مآويهم بعد تقسيم البيوت القديمة إلى ستوديووات ضئيلة. كانت المحترفات تطل على السماء من فرج مزججّة بينما يعيش الفنانون أنفسهم حياة أقرب إلى السوء في شبه أوجار مظلمة في جنة عظمة بائسة. في ضيّق الدروب كان الأطفال يلعبون دون خوف ولاتأنيب، ونساء جميلات جلابيبهن واسعة يحملن رضعهن على ظهورهن أو ملتصقين على خصورهن، بينما الرجال الملتحون، ناعسون، لايبالون، ينظرون إلى الحياة تمرّ وهم جالسون في زاوية درب أو على عتبات أبوابهم. توقفوا أمام بيت فرنسي الطراز زخرف كتورتة بالكريمة وإفريز ملائكة صغار. صعدوا درجاً ضيّقاً، صمّم إلى الخارج كمنفذ نجدة إذا حدث حريق، لكن تقسيمات البناء العديدة جعلت منه ممر الخروج الوحيد. والدرج، كان

مثلهم، يصعد وهو يدور حول نفسه، وقد غلّفهم برائحة ثوم نافذة وخلاصة التيربيانتين والماريجوانا. وتوقف ميجيل في آخر طابق أمام باب ضيّق مدهون بالبرتقالي وأخرج مفتاحاً وفتح. أحسّ جيم وألبا أنهما يدخلان إلى خمّ طيور. كانت الغرفة مدوّرة تماماً تتوجها قبة بيزنتية غريبة تحيط بها كوى تستطيع منها النظرة أن تطوف بسطوح المدينة وهي تشعر أنها على بعد إصبعين من النجوم. وقد صفت الحمائم أعشاشها في إطار النوافذ وساهمت ببرازها وريشها في تلوين الزجاج. كانت هنالك امرأة جالسة على كرسي قدّام الطاولة الوحيدة، في مئزر واجهته مطرزة بينتين حزين ممزق. قضى جيم عدة ثوان حتى عرفها. تمتم قائلاً:

ـ أماندا... أماندا...

أكثر من عشرين سنة مضت لم يرها خلالها، منذ الفترة التي تبيّن لهما فيها أن العواطف التي يكنّها كل منهما لنيكولاس أقوى من تلك التي يعانيها أحدهما للآخر. خلال هذا الوقت تحول، الشاب الأسمر والرياضي، ذو الشعر المبلل المدهون دائماً، الذي كان يخطر وهو يقرأ بصوت عال كتب الطب، إلى رجل منحنٍ قليلاً من عادة الإنحناء على سرر المرضى، وقد شاب شعره، وغدا وجهه رزيناً، وله نظارات سميكة إطارها معدنيّ لكنه مازال في أعماقه الكائن نفسه. ومامعرفته لأماندا إلّا لأنّه أحبّها حقّاً كثيراً. كانت تبدو أكبر من عمرها، هزيلة حتى الإخافة، كأنها هيكل عظمي تقريباً، وكان جلدها أصفر ذابلاً، ويداها مهملتان، أصابعهما ملونة بالنكوتين. عيناها منتفختان، دون بريق، محتقنتان، وقد اتّسع بؤبؤاها، وهذا ماكان يجعلها تظهر في غاية البؤس، تحت تأثير رعب لايحكى عنه. لم تنظر أية نظرة لجيم وألبا فما كانت لها عينان إلا لأخيها. وحاولت أن تقف، فتعثرت وتمايلت. واقترب أخوها كي يسندها، وهو يضمها إلى صدره.

ـ تعرفون بعضكم بعضاً؟ سأل ميجيل بلهجة مستغرب.

أجاب جيم: «نعم، منذ زمن طويل».

وقال في نفسه ألّا نفع من ذكر الماضي وأن ميجيل وألبا هما أصغر من أن

يفهما ذلك الشعور بفقدٍ لايرد الذي كان يكابده تلك اللحظة. لقد أتت شحطة ريشة فمسحت صورة الغجرية التي حفظها كل تلك السنوات في عمق قلبه، حبّه الواحد والوحيد في عزلة قدره. ساعد ميجيل في تمديد المرأة على الكنبة التي كانت تحلّ عندها محل السرير ووضع الوسادة تحت الرأس. وأغلقت أماندا ذيلي مئزرها بيديها، كانت تتخبط بضعف، وتلجلج في جمل لاذنب لها ولارأس. كانت تهزّها رجفات تشنجيّة وتلهث ككلب لايستطيع شيئاً. وتأملتها ألبا، مرعوبة، ولم تتعرف أماندا، إلا حين اضطجعت، هادئة، مطبقة العينين، على المرأة التي تبتسم في الصورة الصغيرة التي يحملها معه ميجيل دائماً في محفظة نقوده. وكلمها جيم بصوت لم تتعوده، وتوصل قليلاً قليلاً إلى تهدئتها، وداعبها بحركات صغيرة حنون وأبوية، شبيهة بتلك التي كان يخدع بها الحيوانات أحياناً، حتى ارتاحت المريضة وتركته يرفع لها كميّ مئزرها الصيني القديم. وظهر ذراعاها النحيلتين ولاحظت ألبا عليهما آلاف الندبات الصغيرة، وآثار الإبر، وبعضها أنتن وبعض تقيّح. ثم كشف جيم عن الساقين: كذلك كان فخذاها معذبين. وتطلع إليها جيم بأسى عميق، وهو يتصور الشقاء، وسنّي البؤس، والحبّ الذي أجهض، وكل الطريق الفظيع الذي قطعته هذه المرأة حتى تصل إلى هذه النقطة من اليأس التي توجد فيها. تذكّرها في أوج شبابها، يوم كانت تجعله يترنّح إذا انكفأ شعرها، وبهرج زجاجها، وضحكتها ضحكة الجلجل، والبساطة التي كانت تتبنى بها أشد الأفكار جنوناً وتلاحق الأوهام. ولعن نفسه لأنه تركها تذهب، من أجل الوقت الذي ضاع عند أحدهما ضياعه عند الآخر.

قال: «يجب أن ندخلها المشفى. إن علاجاً لدفع التسمم وحده يمكن أن ينقذها». ثم أضاف: «سوف تتألم كثيراً».

الفصل الثاني عشر

المؤامرة

طبقاً لتشخيص المرشح نجح الاشتراكيون المتحالفون مع أحزاب اليسار الأخرى في إحراز النصر بالانتخابات الرئاسية. بدأ الإقتراع دون حوادث في صبيحة مضيئة من أيلول. ولقد أعدّ الرابحون أنفسهم دائماً، وهم بطانة السلطة منذ أزمنة سحيقة، للاحتفال بنصرهم قبل أسابيع مسبقة. انعدم وجود الشرابات في الدكاكين، وثمار البحر في السوق، وضاعفت معامل الحلوى شغلها كي ترضي طلبات التورتة والجاتو. في المقامات العليا لم يهتم أحد بسماع النتائج الجزئية القادمة من الريف، والتي كانت تعطي الأفضلية لليسار، لأن كل واحد كان يعرف أن تصويت العاصمة هو الحاسم. وكان الشيخ تروييبا يتتبع سياق النتائج في مقرّ حزبه في أعظم هدوء، ومزاجٍ ممتازٍ، ويضحك صراحة عندما تثور أعصاب أحد رجاله بسبب تقدم مرشح المعارضة الذي لايمكن إخفاؤه. واستبق النجاح، فأنهى حداده الصارم فزيّن عروة سترته بوردة حمراء. وجاء من قابله من التلفزيون وسمعته البلاد جميعاً يعلن متعجرفاً: «سوف يربح الذي ربحوا دائماً أنفسهم، أعني نحن!». ثم دعا الجميع لرفع كؤوسهم من أجل «جدار الديموقراطية».

في بيت الزاوية الكبير كانت بيانكا وألبا والخدم أمام التلفزيون يرتشفون الشاي ويقضمون الخبز المحمّص وهم يسجّلون النتائج، كي يتتبعوا عن قرب

أكثر المعركة النهائية، لما رأوا الجدّ يظهر في الشاشة الصغيرة أشدّ شيباً، وعناداً، وبلادة من أي وقت آخر.

قالت أليا: «سوف يتعرض لسكتة جديدة. لأن الآخرين سوف يربحون هذه المرّة».

وبات واضحاً بعد قليل في عين الجميع أن معجزة فحسب تستطيع تبديل النتيجة التي تتراءى من ساعة لساعة. وأقفلت في بيوت السادة في أحياء العلية مغاليق النوافذ أكانت بيضاء أم زرقاء أم صفراء، وارتجت الأبواب، ونزع سكانها صور مرشحهم التي زينوا بها البلاكين. وفي الوقت نفسه خرج من مناطق الصفيح في ظاهر المدينة ومن الأحياء العمالية إلى الشوارع عائلات كاملة، وأرباب عائلات يصطحبون الشيوخ والأطفال وكلهم في ثياب الأحد، وساروا فرحين باتجاه المركز. وهم يحملون راديووات صغيرة كي يصغوا إلى آخر النتائج. وفي أحياء العلية، عاند الشباب المشتعلون مثالية، من هم أكبر منهم ممن التصقوا بهيئة جنائزية إلى تلفزيوناتهم، واندفعوا بدورهم إلى الشوارع. ومن الأرباض الصناعية خرج العمال أرتالاً منظمة، قبضاتهم مرفوعة، ينشدون ألحان المعركة الإنتخابية. والتقوا جميعاً حول المركز، وهم يهتفون كرجلٍ واحدٍ أن الشعب لن يقهر أبداً. وأخرجوا محارمهم البيضاء وجلسوا ينتظرون. وعند منتصف الليل عرف أن اليسار انتصر. وفي لمحة عين، تضخّمت الجماعات المتفرّقة، وانتفخت، وتمدّدت، وامتلأت الطرق بجمهور فرح قافزٍ، يضحك ويصيح ويقبل بعضه بعضاً. وتزوّدوا بمشاعل وتحوّل تنافر الأصوات ورقص الحي إلى عرض كرنفال مرح ومنظم أخذ يتقدّم باتجاه أحياء البورجوازية الراقية. وشوهد آنئذ منظر غير عاديّ من أبناء الشعب، الرجال في أحذية الصناعة الخشنة، والنساء وأولادهن بين أذرعتهن، والطلاب من دون سترٍ، يمشون بهدوء في تلك المنطقة الفخمة المحظورة التي لم يغامروا بأنفسهم فيها إلا نادراً.

ولقد نفذت جلبة أغانيهم، ودعسَهم، ولمعان مشاعلهم حتى داخل البيوت المغلقة والصامتة، يرتجف فيها الذين وصلوا إلى الإيمان بمعركتهم الخاصة الخائفة، ولقد اقتنعوا بأن الشعب سوف يصنع من لحمهم فطائر، أو في أفضل

الحالات سوف يجرّدهم من كل أملاكهم، ويرسلهم إلى سيبيريا. لكن اي رهطٌ هادر لم يكسر أي باب ولم يدس أي بستان منزه عن النقص. مرّ الحشد بخطوه المرح وهو يمسّ السيارات الفخمة الواقفة على طول الشوارع، وقام بدورة في الساحات والرياض، التي لم يطأها يوماً من قبل، كان يراوح أمام واجهات التجار التي تلمع وكأنها في عيد الميلاد، وتعرض فيها أشياء يجهل حتى استعمالها، ثم يتابع هادئاً سيره. عندما جاءت الصفوف الأولى فمرت أمام بيت ألبا، خرجت راكضة فاختلطت بالجموع وغنّت ملء رئتيها. دامت مسيرة الشعب الفرح، طيلة الليل. وفي القصور ظلّت مسدودة زجاجات الشمبانيا، وملّ اللانجوست صحاف الفضة، وغطّى الذباب الحلوى.

عند الفجر، وبين ضجيج الجمهور الذي بدأ يتفرّق، رأت ألبا خيال ميجيل، البارز بين الجميع، وهو يصيح ملوّحاً بعلم. شقّت طريقاً إليه وهي تناديه عبثاً من الضوضاء التي تدفعه عن سماعها. ولم يكتشفها ميجيل إلّا حين أصبحت أمامه، فأعطى العلم لأوّل قادم وأخذها بين ذراعيه فرفعها عن الأرض. كلاهما كان منهوك القوّة، كلاهما، وهما يتبادلان القبل، كان يبكي.

سخرت ألبا قائلة: «قلتِ لك يا ميجيل أننا سوف نربح بالتقاليد الكيّسة!».

أجاب: «ربما نكون ربحنا، لكننا يجب علينا الآن أن ندافع عن نصرنا»

في اليوم التالي، كل الذين قضوا ليلة بيضاء، خائفين في قعر بيوتهم اندفعوا خارجها كجرف مجنون واقتحموا البنوك طالبين أن يدفع لهم مالهم. كل من ملك شيئاً غالياً صار يفضّل منذ ذلك الوقت أن يحفظه تحت فراشه أو يرسله إلى الخارج. وفي مدة أربع وعشرين ساعة انهارت القيم العقارية إلى النصف على الأقل، وقد وصلت هيستيريا ترك البلاد قبل أن يأتي السوفيتيون ويضعون الأسلاك الشائكة على الحدود حتى لم يبق مكان على أية طائرة. أما الشعب الذي احتفل بنصره فقد التفت إلى البورجوازية فرآها تقف رتلاً وتتزاحم أمام أبواب البنوك؛ كان في المنظر مايدفعه للضحك. وفي بضع

ساعات، انقسمت البلاد إلى معسكرين لدودين، وبدأ هذا الانقسام يتدخّل في قلب كلّ عائلة.

قضى الشيخ ترويبيا الليل في مقر حزبه، لأن أنصاره أمسكوا به بالقوّة، لأنهم كانوا قانعين، بأنه إذا ما أخرج أنفه، لن يجد الجمهور صعوبة في معرفته وشنقه عالياً وسريعاً على عمود. ولقد كان ترويبيا منذهلاً أكثر منه غاضباً. ماكان يستطيع أن يصدّق ماحدث، ولو أنه نفسه، لم ينقطع منذ عدد من السنين عن الاجترار كما في طلبة[1] أن البلاد محشوّة بالماركسيين. لم يحس بالوهن، على العكس. كان قلبه قلب المصارع العجوز يخفق بإيقاع انفعال ثائر لم يكابده منذ شبابه.

ـ إن ربح الانتخابات شيء؛ أما أخذ الرئاسة فهي شيء آخر، قال إلى محازبيه المحزونين، بصوت مليء بالسرّ.

على كل حال، لم تخطر لأحد فكرة حذف الرئيس المنتخب، لأن خصومه كانوا مقتنعين بالخلاص منه بالطرق الشرعية نفسها التي مكّنته من النصر. وهذا ماكان يفكر به ترويبيا. وفي اليوم التالي، لما وضح أن ليس هناك مايخشى منه من الشعب الفرح، ترك ملجأه إلى دار ريفية في أرباض العاصمة حيث أعدّ غداء سريّ. التقى هناك برجال سياسة آخرين، وقبضة من العسكريين، وأمريكيين أرسلتهم إدارتهم السريّة سريعاً، لوضع خطة تستهدف قلب الحكومة الجديدة: عدم الاستقرار الاقتصادي، هكذا سموا التخريب الملائم.

كان بيتاً كبيراً استعماري الطراز تزنّره باحة مبلطة. عند وصول الشيخ ترويبيا، كانت توجد عدة سيّارات واقفة. واستقبل بحماس لأنه كان أحد قادة اليمين دون جدل؛ فقد تنبأ بما كان يلوح في الأفق؛ وكان قد قام بالإتصالات الضرورية قبل بضعة شهور مقدّماً. بعد الغداء ـ كولان بارد مع كريما المحامي[1]

---

١ ـ صلاة تكرر كثيراً.

٢ ـ اسم ثمرة.

وخنزير حليب على لهب الكونياك، وقشدة بالشكولاته. طردوا الخدم وأغلقوا إغلاقاً محكماً أبواب غرفة الطعام. ورسموا عندئذ خطوط إستراتيجيتهم الكبرى، ثم، رفعوا، وقوفاً كأسهم لمستقبل البلاد. كلهم، ماعدا الأجانب، كانوا على استعداد للمغامرة في المشروع بنصف ثروتهم الشخصية، أما الشيخ تروييبا فكان وحده مهيّءاً للتضحية بحياته فوق ذلك.

قال بصوتٍ ثابتٍ: «لن ندع له دقيقة راحة. يجب أن يستقيل».

ـ وإذا لم يتم ذلك أيها الشيخ، يبقى لنا هذا، أضافها الجنرال هورتادو وهو يضع سلاحه النظامي على الغطاء.

وتدخّل بإسبانية مهشمة عميل المخابرات السرّية في السفارة فقال: «إن انقلاباً عسكرياً لايفي بالغرض عندنا إطلاقاً. نحن نتمنى أن تفشل الماركسية في جلجلة عظيمة، شريطة أن تنهار من نفسها، كي ننتزع هذا النوع من الأفكار من بقية أمم القارّة. هل ترون ماأريد قوله؟ يجب أن نسوّي الأمر بالمال. مازلنا قادرين على أن نشتري بعض البرلمانيين لمنع المرشح المنتخب من التثبيت في صلاحيّاته. إن القانون يحدّد التالي: لم يحصل على الأكثرية المطلقة، فالبرلمان هو الذي يقرّر.

صاح الشيخ تروييبا قائلاً: «أخرج ذلك من رأسك، يا ميسيتيرا! لن تستطيع في هذه البلاد أن تغيّر أحداً! إن الكونغرس والقوات المسلحة مؤلفان من أناس نزيهين. والأحسن أن نخصص هذا المال لشراء وسائل الإعلام. عندها نصبح في مستوى السيطرة على الرأي، وهو الحقيقة الوحيدة التي يؤبه لها.

ـ أنت تمزح! إن أول شيء يعمله الماركسيون، هو الإنتهاء من حرية الصحافة، اعترضت عدة أصوات كأنها جوقة.

أجاب الشيخ تروييبا: «صدقوني، أيها السادة. أنا أعرف جيّداً هذه البلاد. إن أحداً لن يمسّ حرية الصحافة. على كل حال، لقد أقسم، في برنامج حكمه، أن يحترم الحرّيات الديمقراطية. سوف نأخذه بفخّه نفسه.

لم يكن الشيخ ترويبيا مخطئاً. لم يستطيعوا إفساد البرلمانيين. ووصل اليسار، ضمن الإطار الذي حدده القانون، سلمياً إلى السلطة. وعندها جدّ اليمين في تحريك وإثارة الحقد.

حين انقضت الإنتخابات، تغيّرت حياة الناس جميعاً ومن حسب أنه قادر على الاستمرار كما في السابق لم يلبث أن اكتشف أنّه كان واهماً. كان الانتقال قاسياً عند بيدرو الثالث جارسيا. لقد عاش وهو يتجنب مصائد الروتين، حرّاً وفقيراً كشاعر جوّال، لانار له ولامكان، لم يتزيّ يوماً بحذاء ملمّع، ولاربطة عنق أو ساعة، كان يستطيع أن يجد الوقت للحنان، والبساطة، والبذخ والقيلولة، لأنه ماكان لديه من يقدّم له حساباً. كان لأياً بعد لأي يلقى صعوبة في أن يجد في ذاته القلق والألم الضروريين لتأليف أغانيه الجديدة، لأنه وصل مع السنين، إلى التمتع بصفاء داخلي عظيم والثورة التي حشدت شبابه تركت مكانها إلى وداعة الرجل الذي وجد السلام مع نفسه. كان زاهداً كفرنسيسكاني. لم يسكنه أي طموح بالمال أو السلطة. بيانكا كانت اللوثة الوحيدة في هدوئه. وانقطع اهتمامه بصلاته التي لاغد لها مع صغار الغيد ووصل إلى اليقين بأن بيانكا هي المرأة الوحيدة التي تعلّق بها. وحسب حساب السنين التي أحبّها فيها بالسرّ لم يستطع أن يذكر لحظة واحدة من حياته لم تكن فيها موجودة. بعد الإنتخابات الرئاسية، ضغط عليه من أجل التعاون مع الحكومة، وتحطم من جراء ذلك توازن حياته. لم يستطع التملّص؛ شرحوا له أن أحزاب اليسار لاتمتلك مايكفي من العناصر الكفء لكل المهام التي تضطّلع بها.

قال وهو يحاول الاعتذار: «لست سوى فلّاح وليست لدي أية ثقافة».

أجيب: «لاأهمية لذلك يارفيق. أنت شعبي على الأقلّ. إذا ارتكبت هفوة، لن يحاسبك الناس عليها».

وهكذا وجد نفسه للمرّة الأولى في حياته جالساً وراء مكتب، وسكرتيرة تحت تصرّفه، ولوحة كبيرة لآباء الوطن في معركة مشهورة. من النافذة ذات القضبان في مكتبه الفخم، لم تكن نظرة بيدرو الثالث جارسيا تستطيع أن تحيط إلا بمربّع صغير من السماء. مهمته كانت بلا راتب. كان يشتغل من الساعة السابعة صباحاً حتى المساء ويؤول به الإنهاك إلى أن يحسّ بأنه غير قادر على انتزاع نغم واحد من قيثارته، وبالتالي، إلى أن يحبّ بيانكا باحتدامهما المعتاد. لما كان يتوصلان إلى تحديد موعد، بعد تذليل موانع بيانكا العادية، والجديدة التي فرضها عليه عمله الخاص، كانا يجدان نفسيهما تحت تأثير الخشية لا الرغبة. كانا يتحابّان حبّ العجزة، يقاطعهما الهاتف، يضيّق عليهما الوقت الذي صار محسوباً عليهما أكثر مما يجوز. وانقطعت بيانكا عن أن تلبس ثياباً داخلية مغرية، فقد بدا لها أن ذلك ينتسب إلى إغراء لافائدة منه يجعلهما يغرقان في السخر. وانتهيا إلى ألّا يلتقيا إلا كي يرتاح أحدهما بين ذراعي الآخر، كزوجين من الشيوخ، يتحدثان كصديقين في شؤونهما اليومية والمشاكل الخطرة التي تهز البلاد. ويوماً حسب بيدرو الثالث جارسيا أنه لم يضاجع منذ شهر. والذي ظهر له أسوأ من ذلك، أن كليهما لايعاني الرغبة في الأمر. وأصيب بهزة. قدّر أن في عمره لامبرّر له في أن يكون عنيناً؛ فعزا النقص إلى الحياة التي يعيشها، وإلى عادات العازب التي ألفها. قال في نفسه أنه إذا عاش مع بيانكا حياة عاديّة. تنتظره فيها كل يوم في ميناء المنزل، فإن الأشياء تتخذ منحىً آخر. واستحلفها أن تتزوجه دون إبطاء، متعلّلاً أنه شبع من هذا الحب على عجلٍ، وأنه لم يعد في العمر الذي يعيش فيه مثل تلك الحياة. وقدّمت له بيانكا الجواب الذي كررته له عدداً عديداً من المرّات:

ـ يجب أن أفكّر بذلك، يا حبيبي.

كانت تجلس عارية على سرير بيدرو الثالث الضيّق. تفحصها بلا شفقة فوجد أن الزمن بدأ يفعل فيها تدميراً، أنها تضخّمت واكمدّت وأن الرّثية شوّهت يديها، أن نهديها الرائعين اللذين كانا يسلبانه النوم قد بدأ يخليان مكانهما لصدر السيدة الواسع التي بلغت كمال النضج. مع ذلك، كان يجدها

دائماً جميلة كما في سنوات شبابها، عندما كانا يحبّان بعضهما بعضاً بين القصب على شاطئ نهر الماريّات الثلاث، وهذا بالدقة ماكان يحدو به للأسف من أن تعبه أقوى من هواه.

أعلن لها قائلاً: «لقد فكّرت حوالى نصف قرن! هذا يكفي! اليوم أو أبداً».

لكن بيانكا لم تتأثر، فلم تكن تلك المرة الأولى التي يضعها فيها وظهرها إلى الجدار. كان كل مرّة ينفصل عن إحدى صديقاته الصغيرات ويعود إلى جانبها، يلحّ على الزواج منها في جهد يائس كي يتشبث بالحبّ ويجعلها تغفر له. لمّا وافق على ترك حي الصفيح العمّالي الذي كان يعيش فيه سعيداً سنين عديدة، كي يقطن شقة بورجوازي صغير تلفّظ بالكلمات نفسها:

ـ أما أن تتزوجينني اليوم، أو ننقطع عن أن نرى بعضنا بعضاً.

ولم تفهم بيانكا أن قرار بيدرو الثالث، هذه المرّة، لارادّ له.

وافترقا متخاصمين. لبست ثيابها، وقد جمعت سريعاً حاجاتها المبعثرة على الأرض وضمت شعرها إلى نقرتها وثبتتها ببعض دبابيس التقطتها من فوضى السرير. وأشعل بيدرو الثالث سيكارة ولم يتركها من عينيه بينما كانت ترتدي ثيابها. وانتهت بيانكا بأن احتذت حذاءها، وأمسكت بمحفظتها، ومن العتبة أومأت له بإشارة وداع. كانت مقتنعة، بأنه في اليوم التالي، سوف يخابرها من أجل إحدى مصالحاته المسرحيّة. واستدار بيدرو الثالث إلى جهة الحائط. وتكشيرة مرّة جعلت فمه المشدود خطاً بسيطاً. خلال أكثر من سنتين لم يريا بعضهما بعضاً.

انتظرت بيانكا أن يتصل بها في الأيام التالية طبقاً للسيناريو الذي كان يتكرّر دائماً لم يخلف دائماً، حتى حين تزوّجت وعاشا سنة مفترقين. تلك المرّة هو الذي جاء يبحث عنها. في اليوم الثالث دون خبر منه، بدأت تقلق. كانت تتقلّب في فراشها، فريسة أرق لاهدنة فيه، وضاعفت كمية المهدئ، وبحثت لها عن ملجأ في أوجاع الرأس والحالات العصبية، وداخت في مشغلها وهي

تضع في الفرن وتخرج مئات المسوخ الصغار المعدّين للمغارات ملزمة نفسها بأن تنشغل، ولاتفكّر بأن شيء، لكنها لم تستطع أن تضغط أكثر على قلقها. ووصل بها الأمر إلى أن تهتف إلى الوزارة. فأجابها صوت امرأة أن الرفيق جارسيا عنده اجتماع ولايستطيع أن يزعجه أحد. في اليوم التالي، هتفت بيانكا من جديد؛ وجددت هواتفها كل بقيّة الأسبوع، حتى اقتنعت أنها لن تستطيع الاتصال به بهذه الطريقة. وقامت بجهد كي تتغلّب على الغرور الضخم الذي ورثته عن أبيها، فلبست أجمل أروابها، وحاملة جوارب قحبة، وذهبت كي تراه في شقّته. لم يدخل مفتاحها في القفل واضطرت لأن تضرب الجرس. ففتح لها عملاق ذو شاربين بعيني تلميذة.

قال لها من دون أن يدعوها للدخول: «الرفيق جارسيا ليس هنا».

فهمت عندها أنها فقدته. وتراء لها خلال ومضة مستقبلها، فرأت نفسها في صحراء شاسعة تفني نفسها بمشاغل لاذنب لها ولارأس كي تقتل وقتها، من دون هذا الرجل وهو الوحيد الذي أحبّت خلال حياتها، منفيّة عن ذينك الذراعين حيث نامت منذ أزمنة سحيقة من طفولتها الأولى. جلست على درجات الدرج وانفجرت باكية. وأغلق ذو الشارب الباب دون ضجّة.

لم تطلع أحداً على ماجرى. سألتها ألبا عمّا حلّ ببيدرو الثالث فأجابتها متهرّبة، قائلة بأن مهامّه الجديدة في قلب الحكومة تشغله كثيراً. واستمرت تعطي دروسها للفتيات اللواتي بلا عمل والأطفال المنغوليين وأخذت تعلّم أيضاً فنّ الخزف في أرباض الصفيح حيث نظمت النساء أنفسهن كي يتدربن على نشاطات جديدة ويساهمن للمرّة الأولى بحياة البلاد السياسية والاجتماعية. لقد بات التنظيم لزاماً، لأن «طريق الاشتراكية» تحولت سريعاً إلى وسائل عنف. وبينما كان أبناء الشعب يحتفلون بنصرهم ويدعون ذقونهم وشعورهم تطول، ويتنافسون بالتحية الرفاقية، ويبعثون الفولكلور المنسيّ، والفنون التطبيقية الشعبية، ويمارسون السلطة الجديدة باجتماعات عمّال لاتنتهي ولاطائل منها يتكلم فيها الناس جميعاً بالوقت نفسه دون أن يتوصلوا أبداً لأي اتفاق، كان اليمين يقوم بسلسلة أعمال استراتيجية ترمي إلى فساد الاقتصاد وضرب سلطة

الحكومة. كان يعتمد أقوى وسائل الإعلام، ويتصرّف بمصادر مالية لاحدود لها تقريباً ويستند إلى مساعدة الأمير لوكوس الذين أطلقوا أموالاً سرّية مجمّدة لصالح خطّة التخريب. وأمكن تقدير نتائجها خلال مالايزيد عن شهور قليلة. ووجد الشعب نفسه للمرّة الأولى ومعه من المال مايكفي لسدّ حاجاته الأساسية ويدفع ثمن هذا أو ذاك من الأشياء التي يشتهيها منذ أَمَد، لكنه لم يستطع لأن المخازن كانت تقريباً خالية. وبدأ اللاتموين يغدو في وضع كابوس جماعي حقيقي. كانت النساء يستيقظن مع الفجر كي يأخذن دورهن في صفوف انتظار لاتنتهي ويتوصّلن إلى شراء فروجٍ هزيلٍ أو نصف دزينة حفاظات لطفل أو ورقٍ صحيٍّ. وصار دهان الأحذية. والإبر، والقهوة سلع ترف يتبادلها الناس هدايا في رزم من ورق الزينة، بمناسبة أعياد الميلاد. وظهر القلق من الحاجة، وهزّت البلاد شائعات غامضة متناقضة تنذر الناس بأن الإنتاج سوف ينقص، فأخذ هؤلاء يشترون كل مايجدون، دون أي ضابط، لرد كل الاحتمالات. كانوا يقفون أرتالاً من غير أن يعرفوا ماذا يباع، كي لاتفوتهم فرصة شراء شيء ما فحسب، حتى ولو لم يحتاجوه. وظهر محترفو صفّ الانتظار الذين كانوا يحفظون لك دورك لقاء مبلغٍ زهيد، وباعة الملّبس الذين يستغلون التجمّعات كي يبيعوا حلواهم؛ ولن نعدّ الذين يؤجرون الأغطية للأرتال الليلية. وازدهرت السوق السوداء. وحاولت الشرطة أن تعطلها، لكنها كانت كوباء ينتشر في كل مكان لم يفد فيه أو ينهه تفتيش السيارات وتوقيف حملة الصرر المشبوهة. حتى الأطفال كانوا يتجرون في دروس المدرسة. ولقد أدى احتكار السلع والمواد الخائف إلى كثير من اللبس فكان يرى من لايدخّن وهو يدفع أي ثمن بعلبة سكائر، أو أناس من دون أطفال يختصمون حول إناء غذاء للرضع. واختفت قطع التبديل للأدوات المنزلية، والآلات، والسيّارات، وقنّن البنزين وأخذت صفوف انتظار السواقين تطول يومين كاملين، دون عدّ الليل، وهي تسدّ المدينة مثل بووا لاتتحرك وهي تشوى في الشمس. وبات الناس وليس لديهم الوقت للوقوف في الرتل من أجل كلّ شيء وأجبر موظفو المكاتب على الإنتقال على أقدامهم أو الدراجة. وامتلأت الشوارع براكبي الدرّاجات اللاهثين

على طريقة الهولانديين الغربية. كانت الأشياء سائرة على هذا النحو عندما بدأ سائقو الشاحنات إضرابهم. وخلال ثمانية أيام، بات واضحاً أن الحركة ليست حرفية، وإنما سياسية، وأنهم لايفكّرون إطلاقاً باستئناف العمل. وأراد الجيش أن يمسك بالقضية في يده، لأن الخضروات بدأت تفسد في أماكنها في الحقول والأسواق، فما يوجد شيء يباع لصاحبات البيوت، فقد اكتشف أن السواقين انتزعوا محرّكاتهم وبات مستحيلاً تحريك آلاف الشاحنات التي تعرقل الطرق مثل هياكل عظمية متحجّرة. وظهر الرئيس في التلفزيون كي يحضّ الناس على الصبر. وأنبأ البلاد أن سواقيّ الشاحنات اشترتهم الإمبريالية وأنهم سوف يطيلون إضرابهم، حتى أنه صار من الأفضل أن يزرع كل امرئ خضرته الخاصة في بستانه أو على بلكونه، بانتظار أن يوجد حلّ آخر على الأقلّ، أما الشعب الذي تعود على القلّة والذي لايأكل الفروج إلا في الميلاد والعيد الوطني، فإنه لم يتوقف عن فرح الأيام الأولى، على العكس: تنظم إن حرباً فحرب، وقد قرّر ألاّ يسمح للتخريب الاقتصادي أن يفسد عليه لذته بالنصر. واستمر يعلن على رؤوس الأشهاد ويغني في الطريق بأن الشعب المتحد كرجل واحد لن يقهر أبداً، لكن الشعار أخذ يوماً بعد يوم يبدو نشازاً وانتشر الحقد والإنقسام كقدر محتوم.

وتغير مجرى الحياة لدى الشيخ ترويبيا كما تغيّر بالنسبة للناس جميعاً. فقد أعاد له حماسه للمعركة التي التزم بها قوى الماضي وخفّف قليلاً عن عظامه المسكينة الخائرة. أخذ يشتغل كما كان في أيام أحسن قوّته. كان يقوم بعدد من رحلات التمرّد إلى الخارج ويقطع دون تعب البلاد من الشمال إلى الجنوب، بالطيارة، والسيارة، بل القطار حيث ظلّ يعيش امتياز قاطرات الدرجة الأولى كان يتحمل الصدمة في الولائم المخيفة التي يولمها له أنصاره في كل مدينة أو قرية أو ضيعة يزورها، فيتظاهر بشهية خارج من السجن بالرغم من أنّ أمعاء الشيخ الخرف لم تعد قادرة على هذا النوع من الإسراف. كان يقضي وقته في التآمر. لقد ضيّق منذ البدء توسيع الديموقراطيّة إمكانات نصب الفخاخ للحكومة، فأقلع عن فكرة إنهاكها بالطرق المسموح بها واعترف بأن الوسيلة

الوحيدة للإنتهاء منها هي اللجوء إلى الوسائل غير الشرعية. كان أول من تجرأ فتلفّظ علناً أنه، الإنقلاب العسكري وحده، هو على بعض النجاعة في تعطيل تقدم الماركسية، لأن الشعب لايتنازل أبداً عن السلطة التي صبا إليها بحرارة منذ نصف قرن، وكل تلك الزغاليل[1] لاتنجح في شيء.

ـ أقلعوا عن ريائكم واحملوا السلاح! كان يقول عندما يسمع الحديث عن التخريب.

وماكان يتكتّم على أفكاره، كان يصيح بها على رؤوس الأشهاد، ولايكتفي بذلك، كان يرى أحياناً يذهب كي يرمي قبضات من الذرة على طلاب المدرسة العسكرية وهو يصيح بهم أنهم ليسوا سوى دجاجات مبلولة. واضطر إلى أن يجد له مرافقين مهمتهما أن يتداركا ثوراته. وغالباً ماكان ينسى أنه هو الذي استأجرهما، فيحسّ أنهما يتجسّسان عليه، ويهددهما بعصاه ثم ينتهي عادة بالاختناق بنوبة تسارع في القلب. كان قانعاً بأنه خطط أحد لاغتياله فإن هذين الفدمين خزانتيْ الجليد لن يتمكنا من منعه، لكنّه كان يقول في نفسه بأن وجودهما يستطيع على الأقل ردع الاعتداء الكلامي العفوي. وفي الوقت عينه جرّب أن يضع حفيدته تحت المراقبة، قائلاً في نفسه أنها تعيش في عرين شيوعيين حيث تتعرّض كل لحظة إلى من يهينها، ومن واقع قرابتها له، لكن ألبا رفضت حتى الحديث عن ذلك: «مرافق؟ ذلك اعتراف بالذنب. أنا، ليس عندي ما أخاف منه»، زعمت له. ولم يجرؤ على الإلحاح، لأنّه شبع من النزاع مع كل أعضاء عائلته الآخرين، وكانت حفيدته على كل حال الكائن الوحيد في العالم الذي يضحكه ويفيض عليها حنانه.

خلال ذلك الوقت، أقامت بيانكا مشروع تموين عن طريق السوق السوداء وخلطائها من حي الصفيح العمّالي حيث كانت تعلّم السيراميك للنساء. كان عليها أن تمرّ بالقلق والصعوبات حتى تصل إلى إخفاء كيس سكّر مطحون أو صندوق صابون. وقد وصل بها الأمر إلى أن تظهر دهاء لم تعرف

---

١ ـ صغار الطيور.

أنها قادرة عليه في أن تخزن في إحدى غرف البيت الفارغة تشكيلة من الأشياء ليست بصراحة نافعة في بعض الأحيان، مثل برميلي صاصة الصويا اللذين اشترتهما من أناس صينيين. وسدّت نافذة الغرفة، وأقفلت الباب، وعلقت المفاتيح في حزامها فما تنفصل عنها أبداً، حتى عندما تغتسل، لأنها كانت تشك بكل الناس، بمن فيهم جيم وابنتها عينها. وكانت لديها أسباب لذلك. «أماه، بدأت تشبهين حارس السجن». كانت تقول لها ألبا. وقد أقلقها هوس الإدخار على حساب الحياة يوماً فيوماً. كانت ألبا ترتئي بأنه إذا فقد اللحم، يستطيعون التغذي بالبطاطا، وإذا نقصت الأحذية، مشوا بالخفافات، لكن بيانكا وقد أرعبتها بساطة ابنتها. كانت تتمسك بعناد، بأنه مهما حصل، لايستطيع المرء أن يتخلّى عن مستواه، فكانت تبرّر بذلك ماتقضيه من وقت في مناقشاتها كمهرّبة. والحق، أنهم لم يعيشوا كما يعيشون الآن منذ موت كلارا، فللمرّة الأولى هنالك في البيت، من جديد، من يهتم بالمشاكل البيتية ويجلب ماتغلي به القدر. كانت تصل بانتظار من الماريّات الثلاث سلال مؤونة تخفيها بيانكا. ولقد فسدت الإرسالية الأولى في مكانها كلها تقريباً، وانسرب النتن من الغرف المغلقة واجتاحت البيت وانتشرت في الحيّ كلّه. واقترح جيم على أخته أن تعطي أو تبيع أو تبادل المواد القابلة للتلف. لكن بيانكا رفضت أن تشارك في كنوزها. وفهمت ألبا أنّ أمّها نفسها، التي كانت تبدو حتّى الآن الكائن الوحيد المتوازن في العائلة، لها أيضاً نزواتها. وفتحت ثغرة في المستودع، فأخرجت منها من المؤون بالقدر الذي كانت تخزن فيه بيانكا. واعتنت بالأمر حتى لم يلحظ أحد شيئاً، وخلطت السكر، بالأرز والطحين بقصعات صغيرة، وكسرت الجبن، وبعثرت الفواكه الجافّة كي تخلّف الانطباع أن ذاك من عمل الفئران، وعلى ذلك أمضت بيانكا شهوراً أربعة حتى استيقظت شكوكها. وسجلت في ذلك الوقت جرداً بما حفظت في مستودعها ووضعت صليباً على ما كانت تخرجه للاستعمال اليومي العادي، وهي قانعة بأن تكتشف هذه السرقات. لكن ألبا كانت تنتهز أقلّ لحظة غفلة من أمّها عن تسجيل الصلبان على قائمتها، حتى اختلط الأمر على بيانكا وأدى هذا بها إلى ألّا تعرف أأخطأت في حساباتها أم

أن البيت يأكل ثلاثة أضعاف تقديراتها أو أن هذا البيت الملعون مازال حقاً تروده الأرواح الضالّة.

كان يصل نتاج سرقات ألبا إلى يدي ميجيل فيوزّعها في الأحياء الفقيرة والمعامل مع مناشيره الثورية الداعية إلى الكفاح المسلّح كي يكره الأوليغارشية على أن تعيد ما استولت عليه. لكنّ أحداً ما كان يعيرها انتباهاً. فقد اقتنع الناس بأنهم ماداموا وصلوا إلى السلطة عن طريق شرعي أو ديموقراطي فإن أحداً لايستطيع أن ينتزعها منهم، على الأقل حتى الانتخابات الرئاسية المقبلة. وباح ميجيل إلى ألبا قائلاً:

ـ «هؤلاء الأغبياء لايعرفون أن اليمين في سبيله إلى التسلّح».

وماكان بوسع ألبا إلا أن تؤمن بما يقول. ففي أوج الليل، شاهدت في بيتها تنزيل صناديق ضخمة في الباحة، وخزن الحمل بسريّة شديدة، تبعاً لأوامر ترويبا في غرفة أخرى فارغة. وفعل الجدّ مافعلت أمّها بأن أقفل الباب وحمل المفتاح برقبته في الكتفية الصغيرة من جلد الوعل التي يحفظ فيها أسنان كلارا. وأنبأت ألبا خالها جيم الذي، رجع إلى البيت، بعد أن عقد هدنة مع أبيه. وشرحت لها قائلة: «أنا شبه متأكدة بأنّها أسلحة..» ولم يكن رأس جيم متفرّغاً لهذه الأمور، فقد عاش في القمر حتى اليوم الذي اغتيل فيه، ولم يشأ أن يصدق، لكنّ ابنة أخته ألحّت بقوة حتى وافق على فتح الموضوع مع أبيه في ساعة الغداء. وبدّد جواب الجدّ الظنون التي ساورته.

ـ أفعل في بيتي مايعجبني، وأتسلّم مايرضي مزاجي من الصناديق! ولاتتدخل في شؤوني أبداً! زأر الشيخ ترويبا وهو يضرب الطاولة بقبضة جعلت الكؤوس ترقص ووضع نقطة أخيرة للحديث.

ذلك المساء، زارت ألبا خالها في عرين كتبه، وعرضت عليه أن يعمد، بشأن سلاح الجدّ، إلى الطريقة نفسها التي استخدمتها من أجل مؤن أمّها. وتبع القول العمل. فقضيا الليل بحفر ثقب في حائط الغرفة الملاصقة للترسانة، أخفياه من جهة بخزانة، ومن الأخرى بصناديق التمرّد. واستطاعا هكذا أن

يدخلا إلى الغرفة التي أغلقها الجدّ بعد أن تسلّحا بمطرقة وكمّاشة. وحددت ألبا، التي كانت لها بعض التجربة في هذا المجال، الصناديق السفلى لفتحها. فكشفا عن تجهيزات عسكرية فغرا لها الفم، لأنهما كانا يجهلان وجود أسلحة قتل متقنة إلى هذا الحدّ. وفي الأيام التالية وضعا اليد على كل مااستطاعا حمله، ووضعا الصناديق الفارغة تحت الأخريات بعد أن ملآها حصىً، حتى لايلاحظ أحدٌ شيئاً حين رفعها. كلاهما وحدهما أخرجا مسدسات حربية، ورشاشات، وبنادق وقنابل يدويّة أخفياها في عرين جيم حتى استطاعت ألبا تسييرها إلى مكان أمين في علبة الفيولونسيل. وكان يرى تروييبا الشيخ حفيدته تمرّ، وهي تجرّ وراءها علبتها الثقيلة، دون أن يشك بأن في داخلها، تترجّح الذخيرة، التي دثّرت بنتف خرق، والتي عانى كثيراً كي يمرّرها من الحدود فيخفيها عنده. وفكّرت ألبا في أن تعطي الأسلحة المصادرة إلى ميجيل، لكن خالها أقنعها أن ميجيل لم يكن أقل من جدّها ميلاً إلى الإرهاب وأن الأفضل هو التصرّف بها بطريقة لاتضرّ فيها أحداً. واستعرضا عدّة حلول، مثل رميها في النهر أو أن يصنعوا منها نار فرح، لكنهما رأيا أخيراً أن دفنها في أكياس بلاستيك هو عملي أكثر، في مكان أمين وسرّي إلى يوم يظهر أنها مفيدة لقضية أعدل. وعجب الشيخ تروييبا إذ رأى ابنه وحفيدته يعدّان رحلة إلى الجبل لأن جيم وألبا لم يمارسا أية رياضة من أيام الكلية الإنكليزية ولم يبديا أقلّ ميل لمشقّات التسلّق. وسافرا يوم سبت صباحاً في سيارة جيب استعاراها، وأخذا خيمة معسكر، وسلّة مؤون، ومحفظة ضخمة سريّة اضطرا لأن يتعاونا كي يحملاها، لأنها كانت بوزن حمار ميت. في داخلها تكدّست أسلحة الحرب التي سلبوها من الجدّ. واتجها، وقد امتلئا حماساً إلى الأعالي، وسارا طالما مكنهما الدرب، ثم تقدّما على كشح الجبل. يبحثان عن موضع هادئ بين الزرع تعذّبه الريح والبرد. وأنزلا فيه عدّتهما، ورفعا بقدر مايعرفان قيمة المعسكر، وحفرا أوجاراً دفنا فيها أكياس البلاستيك، وعلّما كل مكان بكومة صغيرة من الحجارة. وقضيا بقية العطلة في صيد سمك الترويت وشيّها على نار الشوك، وصعود المنحدرات الوعرة مثل كشافين ببنطال قصير، وتذكّر الماضي. وفي المساء، سخّنا خمراً

أحمر بالقرفة والسكر، وتدثرا بمعطفيهما، ورفعا كأسيهما، وهما يضحكان حتى الدموع، من سحنة العجوز حين يكتشف أنه سرق.

ومازحته ألبا قائلة: «لو لم تكن خالي، كنت تزوّجتك!».

- وميجيل؟

- يكون حبيبي.

لم يبد على جيم أنه وجد ذلك مضحكاً واكفهّر بقية الرحلة. وانزلقا عند حلول الليل، كل في كيس نومه الخاص، وأطفأا قنديل البرافين ومكثا صامتين. وغفت ألبا سريعاً، لكنّ جيم، بقي جاحظ العينين في الظلام، حتى الفجر. وفكر بأماندا فأسف من أنها باتت لاتستطيع إثارته، وبحث في ذاكرته عن جمرة ما من ذلك الهوى المفرط الذي كابده فيها، فلم يجد أبداً. هو نفسه غدا متوحّداً. ظلّ، للوهلة الأولى قريباً من أماندا، يهتم بعلاجها، ويراها تقريباً كل يوم. ولقد بقيت المريضة عدة أسابيع تعاني عذاب الحاجة، إلى أن استطاعت الاستغناء عن المخدرات. وأقلعت دفعة واحدة عن الدخان وأخذت تعيش حياة صحيّة منظّمة، وازداد وزنها قليلاً، وقصّت شعرها واستأنفت تزيين عينيها السوداوين الواسعتين، وتتغاوى ببهرج العقود والأساور، في محاولة محزنة تواكب فيها الصورة الشاحبة التي تحفظها عن نفسها. كانت عاشقة ببساطة. لقد مرّت من الانهيار إلى حالة غبطة دائمة، ومركز هوسها كان جيم. ولقد كرست له جهد الإرادة الضخم الذي بذلته كي تتحرر من عاداتها الكثيرة عربوناً عن حبّها. ولم يشجعها جيم يوماً، لكنّه لم يطاوعه قلبه على دفعها، ظانّاً أن وهم الحبّ يمكن أن يعينها في استرداد قوتها، ولو أنه يعرف أن الوقت تأخّر بهما كثيراً. ومنذ أن واتته الفرصة، جهد في أن يقيم بينهما بعض المسافة، متعلّلاً بأنه بات عازباً عتيقاً مضيّعاً تجاه أسباب الحبّ. كانت اللّذات العابرة في المشفى مع ممرّضة حسنة البنية والزيارات الكئيبة لبيت الهوى تكفي لإرضاء رغباته الملحّة في لحظات الحريّة التي يمنحه إياها عمله. لكنّه بالرغم عنه، وجد نفسه مقيّداً بأماندا في علاقة طمح بها شبابه قديماً دون أمل، لكنها لاتثيره الآن أبداً ولايحسّ بميل إلى صونها. وماكانت توحي له بغير شعور الرأفة، لكن تلك

على وجه الدقة كانت من أقوى الإنفعالات التي قدّر له أن يعانيها. لقد قضى حياته كلها وهو يجاور الشقاء والألم، فلم تقس روحه، وإنما صارت على العكس أكثر فأكثر تأثراً بالشفقة. وفي اليوم الذي لفّت فيه أماندا ذراعيها حول عنقه وقالت له أنها تحبّه، ضمّها آليّاً وقبلها في هوىً مصطنع لعلّها لاتلاحظ غياب الشهوة. ووجد هكذا نفسه في شرك علاقة مضنية في عمر يقدر أنه نفسه بات فيه مغلقاً، على الأهواء الصاخبة. «بتّ ولست أهلاً لهذا النوع من الأشياء»، كان يقول في نفسه بعد تلك الجلسات المنهكة التي كانت أماندا تبذل خلالها، كي تغويه، كل كنوز حذلقة العشق التي تدعهما وقد تلاشيا معاً.

ولقد جعلته علاقته مع أماندا وإلحاح ألبا كثير الاحتكاك مع ميجيل. ولم يستطع مرات عديدة أن يتجنّب لقاءه. كان يجهد ما استطاع كي لايبالي به، لكنّه انتهى إلى أن أسرته شخصية ميجيل. فقد نضج هذا، ولم يبق فيه شيء من الطائش المتحمس، لكنّه لم يبدل قيد أنملة خطّه السياسي وظلّ يفكر أنه، لايمكن قهر اليمين من دون ثورة عنيفة. ولم يكن جيم متفقاً معه، لكنّه كان يقدّره ويعجب بصلابته. وماكان يعتبره إلّا من الرجال النحس، الذين تهيمن عليهم مثالية خطرة، ونقاء عنيد، يدمغان بخاتم الشقاء كل مايلمسون، وبخاصة النساء اللائي شاء لهن سوء طالعهن أن يتعلّقن بهم. وعلى القدر نفسه، كان يمقت مواقفه الإيديولوجية، لأنه كان مقتنعاً بأن متطرّفي اليسار أمثال ميجيل يضرّون بالرئيس أكثر من متطرّفي اليمين. لكن شيئاً من هذا لم يكن يمنعه من أن يبدي له الودّ وأن ينحني أمام قوّة قناعاته، وجذله الطبيعي، ونزوعه إلى الحنان والكرم، اللذين بفضلهما كان مستعدّاً لأن يبذل حياته من أجل المثل التي يشاركه فيها جيم، دون أن تكون لديه الشجاعة للوصول بها حتى نتائجها القصوى.

وآل جيم إلى النوم، تلك الليلة، وهو كئيبٌ وقلقٌ، ومحصورٌ في كيس النوم، مصغياً بأذنه، إلى تنفّس ابنة أخته القريبة منه. وعندما فتح عينيه، كانت واقفة تسخن القهوة من أجل الفطور. كان الهواء يهب والشمس تضيء بنورها

الأسمر الذهبي قمم الجبال. وقفزت ألبا إلى عنق خالها كي تقبله، لكنه أبقى يديه في جيبيه ولم يردّ عليها ببوادر المحبة. لقد انقلب كاملاً.

كانت الماريات الثلاث إحدى أواخر الملكيات في جنوب البلاد التي صودرت بعد الإصلاح الزراعي. ولقد ألف الفلاحون الذين ولدوا على تلك الأرض وعملوا فيها جيلاً بعد جيل تعاونية واستأثروا بملكيتها: وكانوا منذ ثلاث سنوات وخمسة شهور لم يروا يوماً وجه المالك حتى لقد نسوا عواصف غضبه. ولقد أرعب المنحى الذي اتخذته الأشياء الوكيل، ولهجة اجتماعات المزارعين في المدرسة، فجمع أشياءه وانسلّ دون أن يودع أو أن ينبئ الشيخ ترويبا، لأنّه لم يكن راغباً في مواجهة غضبه، وقدّر بأنه قام بواجبه حين حذّره مراتٍ عديدةً وبعد رحيله عاشت الماريات الثلاث بعض الوقت على هواها. وباتت دون أي شخص يعطي أوامره، بل دون من يصغي فيطيع، وتذوّق الفلاحون لأول مرّة في وجودهم طعم خلفة[1] الحرية، وأن يكونوا سادة أنفسهم. وتوازعوا سواسية الحقول، وزرع كل مايحلو له إلى أن بادرتهم الحكومة بمهندس زراعي وزّع عليهم البذور ديناً، وشرح لهم طلب السوق، وصعوبات نقل المواد، ومنافع السماد ومبيدات الحشرات. وأعار الفلاحون أذناً لاهية لكلام المهندس. لأنه كانت فيه كل أوصاف غبيّ العاصمة، وكان واضحاً عليه أنه لم يحرث يوماً بيديه، ولو أنهم احتفلوا على كل حال بمجيئه ففتحوا أقبية المالك السابق المقدّسة، ونهبوا قنانيه العتيقة، وضحوا الثيران المنتجة كي يتمتعوا بأكل خصياتها مع البصل والكزبرة. ومنذ أن أدار التقنّي ظهره، أكلوا الأبقار المستوردة والدجاجات البيّاضات. وعلم إيستيبان ترويبا بأنّه فقد أرضه عندما بلّغ بأن ثمنها سوف يدفع له سندات على الدولة مقسطة على ثلاثين سنة أما القيمة فهي ما سجلّه على التصريح بالضريبة. وفقد كل سيطرة

١ ـ مايبقى في الفم من أثر دواء أو سواه.

على نفسه. وأخذ من ترسانته رشاشاً كان يجهل حتى استعماله وأعطى الأمر إلى سائقه بأن يأخذه بدفعة واحدة إلى الماريات الثلاث، ودون أن ينبئ أحداً حتى حرسه. وسار بالسيارة عدة ساعات بلا انقطاع، وقد أعماه الغضب، وليس في رأسه أية خطّة محدّدة.

وعند الوصول، اضطرا للكابح فجأة، لأنّ عارضة ضخمة كانت تسدّ عليهما المدخل. وكان أحد المزارعين يقوم بالحراسة، وقد تسلّح بسوط ثور وبندقية رديئة بلا خرطوش. ونزل تروييبا من السيارة. عند رؤية الملّاك، تعلق المسكين مهتاجاً بجرس المدرسة الذي وضعوه قريباً منه كي يعطي الإنذار، ثم رمى نفسه منبطحاً أرضاً. ومرّت الرشقة تماماً فوق جمجمته وطاشت الرصاصات فانغرزت في الأشجار المحيطة. ولم يتوقف تروييبا كي يتحقق إذا كان قد قتله. وأفضى بخفة مدهشة في عمره، إلى طريق الملكية، دون أن يدير رأسه لجهة أو أخرى، حتى أن الضربة التي لطمت نقرته، أخذته على حين غرّة وجعلته يعضّ على التراب قبل أن يدرك ماحدث له. وصحا في غرفة الطعام في بيت السيّد، وهو نائم على الطاولة، ويداه مكبلتان، ووسادة تحت رأسه. وكانت امرأة تضع له كمادات مبللة على جبينه بينما كان كل المزارعين تقريباً يقفون حوله ويتأملونه في فضول.

سألوه: «كيف تحسّ بنفسك يا رفيق؟».

ـ عصابة أبناء القحبة! أنا لست رفيق، أنّ بها العجوز وهو يحاول أن ينهض.

وتخبّط وصاح كثيراً حتى أنهم حلّوا وثاقه وساعدوه في الجلوس، لكنّه لما أراد أن يغادرهم، قضى عليه أن يتبينّ أن النوافذ سدّت من الخارج، وأن الباب مغلق بالمفتاح. وجهدوا في أن يشرحوا له أن الأمور تبدّلت، وأنه لم يعد سيّداً، لكنّه رفض أن يسمع أيّاً كان. كان الزبد على شفتيه، وقلبه يهدّد بالانفجار، يقذف الشتائم كمجنون ويهدد بالانتقام والعقاب، حتى أن الآخرين آلوا إلى القهقهة والطرب. ثم تعبوا فتركوه وحيداً مسجوناً في غرفة الطعام. وانهار إيستيبان تروييبا على كرسي، فقد أضناه الجهد الفظيع الذي أدّاه. وبعد

ساعات، أنبؤوه بأنه صار رهينة وأنهم ينوون تصويره للتلفزيون. ونهد حارساه وقبضة من الشباب المتحمسين من حزبه، لما أنبأهم السائق، إلى طريق الماريّات الثلاث كي ينقذوه، وقد تسلّحوا بالهروات، وقبضات حديد أمريكية، وسلاسل الدرجات، لكنهم وجدوا عند البوابة حرساً مضاعفاً سدّد إليهم الرشّاش الذي حمله الشيخ تروييبا معه.

- إن أحداً لن يأخذ الرفيق، الرهينة، قالها الفلاحون، ولاحقوهم بالرصاص في الهواء، كي يضيفوا وزناً إلى إنذارهم.

في تلك الأثناء وصلت شاحنة التلفزيون كي تصور الحدث والمزارعين، الذين لم يروا من قبل شيئاً مشابهاً لذلك، فتركوها تدخل ووقفوا للتصوير أمام الكاميرات بأعرض ابتساماتهم، وهم يحيطون بالسجين. ولقد شاهدت البلاد كلها، ذلك المساء عينه على شاشاتها ممثل المعارضة الرئيس محزّماً مثل سجق، يزبد غضباً، ويقيء من البذاءات ماحدا بالرقابة إلى التدخّل. ولقد رآها الرئيس نفسه فلم ترق له: فهم أنها قد تكون الصاعق الذي يفجّر برميل البارود الذي تعسكر فوقه حكومته الضعيفة التوازن. وأرسل الشرطة لتحرير الشيخ. حتى إذا نزلوا بالملكية، لم يدعهم الفلاحون يدخلون، لأن دعم الصحافة شجّعهم. وطلبوا تفويضاً من العدالة. ولقد رحل سريعاً القاضي المحليّ إلى الصيد، إذ تنبأ أنّه سيوقع نفسه في مشكلة ويظهر بدوره في التلفزيون، ويهجوه صحفيّو اليسار. واضطر الشرطة إلى الإنتظار في الناحية الثانية من بوابة الماريّات الثلاث إلى أن أبرق لهم بالتفويض من العاصمة.

ولقد علمت بيانكا وألبا بالنبأ مثل سواهما وهما تنظران إلى الجريدة المتلفزة. وانتظرت بيانكا حتى الغد، دون أن تعلق أي تعليق، لكنها حين رأت أنه قد ظهر على الشرطة أنهم غير قادرين على تحرير الجد، قررت أن الساعة جاءت لتذهب فترى فيها بيدرو الثالث جارسيا.

أمرت ألبا قائلة: إخلعي هذا البنطال القذر والبسي روباً كما ينبغي».

وحضرت الاثنتان إلى الوزارة دون أن تطلبا موعداً. وحاولت سكرتيرة أن تمسك بهما في غرفة الانتظار، لكن بيانكا دفعتها دفعة أوقفتها وتقدّمت بخطو

ثابت، وهي تجرّ ابنتها كأنّها تقطرها. لم تطرق الباب، فتحته واندفعت في مكتب بيدرو الثالث الذي لم تره منذ سنتين. وكادت ترجع على عقبيها، ظانّة أنها أخطأت. في هذا المدى من قليل الزمن، ضوى كثيراً رجل حياتها وشاخ؛ وغدت هيئته بائسة متعبة، وشعره مازال أسود لكنه أقصر ومبعثر، وشذّبت ذقنه الجميلة، وكان يلبس بزة موظف رمادية وربطة عنق حزينة من اللون نفسه. وماتعرفت عليه، إلا من نظرة عينيه السوداوين القديمة.

تمتمت قائلة: «يا إلهي، كم تغيرت!...».

أما عند بيدرو الثالث، فقد ظهرت، بالمقابل، أجمل مما في ذاكرته، كأن الفراق جعلها أكثر فتوة. في تلك اللحظة، وجد كل الوقت الذي يتوب فيه عن قراره، وأن يكتشف أنه من دون بيانكا فقد حتى ميله للمراهقات اللائي كن يجعلنه من قبل جمراً ولهباً. وبالنتيجة، كانت فرص الإحساس بالسعادة لديه قليلة، وهو جالس إلى هذا المكتب، يعمل اثنتي عشرة ساعة يومياً، بعيداً عن قيثارته وإلهام الشعب. وبالقدر الذي يمرّ الزمن فيه، كان يحس أكثر فأكثر بغياب ذلك الحب الهادئ الخالي من القصص الذي عرفه قريباً من بيانكا. ومنذ أن رآها تدخل، بهيئتها المصممة ومعها ألبا، فهم أنها لم تأت لرؤيته من أجل أسباب عاطفية، وأن الدافع كان قضية الشيخ ترويبا.

قالت له بيانكا مباغتة: «جئت أطلب إليك أن ترافقنا. ابنتك وأنا سوف نذهب كي نأتي بالعجوز من الماريات الثلاث».

وهكذا عرفت ألبا أنّ أباها لم يكن سوى بيدرو الثالث جارسيا.

أجاب وهو ينهض عن مقعده: «حسناً. فلنمر ببيتي كي نأخذ القيثارة».

وتركا الوزارة في سيارة سوداء شبيهة بشاحنة جنائزية وعليها لوحتان رسميتان. وانتظرت بيانكا وألبا في الشارع ريثما صعد إلى شقته. عندما نزل، كان استعاد بعضاً من سحره الخالي. بدّل حلّته الرمادية ببزة الميكانيكي وبنشو الماضي، واحتذى خفافةً وحمل قيثارته على ظهره. وابتسمت له بيانكا للمرّة الأولى، فانحنى وقبّلها لماماً على الفم. كانت الرحلة صامتة في المائة الأولى من

الكيلومترات، إلى أن استطاعت ألبا، بعد أن استفاقت من دهشتها، أن تصدر صوتاً خافتاً راجفاً وتسأل لمَ لم يقولوا لها من قبل أن بيدرو الثالث هو أبوها، لأنهم كانوا يجنبونها كثيراً من الكوابيس بكونت يلبس بياضاً ويموت من الحميّات في قلب الصحراء.

ـ أبٌ ميت أفضل من أب غائب، أجابت بيانكا بلهجة غريبة ولم تعد بعدها إلى الموضوع إطلاقاً.

ووصلوا إلى الماريات الثلاث عند هبوط الليل فوجدوا قدّام البّوابة جماعة صغيرة تتحدث بصداقة حول نار معسكر يشوى عليها خنزير. كانوا الشرطة والصحفيين والفلاحين وقد أخذوا يعدّلون مزاجهم على آخر زجاجات القبو الشيخيّ. وكان كلبان أو ثلاثة وبعض الأطفال يلهون على شعاع النار، ينتظرون أن ينتهي شواء الخنزير الوردي اللامع. من البدء تعرّف على بيدرو الثالث جارسيا ممثلو الصحافة الذين قابلوه مرّات عديدة، والشرطة من ألحان المغني الشعبي التي لايمكن أن تخدع، والفلاحون لأن هؤلاء شهدوا ولادته على تلك الأرض. واستقبلوه بحرارة.

سأله الفلاحون: «ما الذي أتى بك إلى هنا أيها الرفيق».

ـ أتيت أرى العجوز، أعلن لهم بيدرو الثالث مبتسماً.

قالوا له: «تستطيع الدخول، يا رفيق، لكن وحدك. والدونيا بيانكا والفتاة ألبا تقبلان طبعاً كأساً صغيرة من خمر أحمر».

وجلست الإثنتان مع الآخرين حول النار فذكرتهما رائحة اللحم المشوي العطرة أنهما خاويتا المعدة منذ الفجر. كانت بيانكا تعرف كل المزارعين، وقد علمت عدداً منهم القراءة في مدرسة الماريّات الثلاث الصغيرة، واجتهدوا جميعاً في تذكّر الماضي، والأيام التي كان يسري فيها في المنطقة قانون الأخوة سانتشيز، والتي قضى فيها بيدرو جارسيا على نازلة النمل، وماكان فيها الرئيس غير مرشح أزلي يقف في المحطة كي يخطب فيهم من قطار هزائمه.

قال أحدهم: «من كان يظن أنه سوف يصبح رئيساً يوماً ما!».

وجأر جيرانه: «وأن يوماً يأتي، على الماريات الثلاث، ويغدو صاحبها أقلّ حقّاً منا نحن في إبداء الرأي!».

وأخذوا بيدرو الثالث جارسيا مباشرة إلى المطبخ. وكان يوجد فيه أكبر المزارعين عمراً، يقومون بالحراسة على باب غرفة الطعام حيث سجنوا السيّد القديم.

ولقد انقضت سنون كثيرة لم يروا فيها بيدرو الثالث لكنهم كانوا يذكرونه جميعاً. وجلسوا حول المائدة يشربون الخمر ويستعيدون الماضي البعيد الذي لم يكن فيه بيدرو الثالث وجهاً خرافياً في ذاكرة أهل الريف، وإنما أزعر ثائر يعشق ابنة السيد. ثم أخذ بيدرو الثالث قيثارته وأسندها على فخذه، وأغلق عينيه، وأنشد بصوته المخملي لحن الدجاجات والثعالب الشهير، وردّده كل الشيوخ كجوقة.

واستغل بيدرو الثالث بعض الصمت فقال بلهجة لطيفة: «سوف آخذ السيد أيها الرفاق».

فأجابوه: «لاتفكر بذلك يا ابننا».

ـ غداً تجيء الشرطة ومعهم تفويض قضائي ويأخذونه كبطل. وأفضل أن نجبره على اتباعي وذنبه بين فخذيه».

وقضوا وقتاً طيباً في المناقشة ثم انتهوا إلى أن أخذوه إلى غرفة الطعام وتركوه وحده مع الرهينة. كانت هي المرةالأولى التي يلتقيان فيها وجهاًلوجه منذ اليوم المشؤوم الذي جعله فيه تروييبا يدفع ثمن فض بكارة ابنته بضربة بلطة. لقد حفظ بيدرو الثالث ذكرى عملاق حانق يتسلّح بسوط من جلد وعصا من فضة، يرتجف المزارعون لدى مروره، وتخور الطبيعة نفسها، وصوته الضخم الراعد، وسلطة الملاّك الريفي. ودهش حين أحسّ بحقده، الذي تجمّع منذ زمن طويل، يتلاشى لدى رؤية هذا العجوز المنحني الهزيل الذي كان ينظر إليه خائفاً. لقد آل غضب الشيخ تروييبا إلى الهبوط؛ فقد هصرت عظامه الليلة التي قضاها على كرسي، ويداه موثقتان. لقد وجد، في البدء، صعوبة في التعرّف إلى بيدرو الثالث، لأنه لم يره منذ ربع قرن، لكن لما رأى أنه تنقصه ثلاث

أصابع في اليد اليمنى، فهم أنه وصل إلى قعر الكابوس الذي غرق فيه. وتأمل كل منهما الآخر صامتاً خلال بعض ثوان لا تنتهي، وكل منهما يقول في نفسه أن الآخر يجسّد ما هو حقّاًأشنع شيء في العالم، لكن دون أن يجد أي منهما في قلبه حقد الماضي المستعر.

قال بيدرو الثالث: «جئت كي أخرجك من هنا».

واستفهم العجوز:«لأي سبب؟».

أجاب بيدرو الثالث قائلاً:«طلبت مني ألبا ذلك».

غمغم العجوز دون قناعة:«إذهب إلى الشيطان!».

ـ سوف نخرج وتأتي معي، إتفقنا؟

وعمد بيدرو الثالث إلى حلّ الوثاق الذي قيدوا به قبضتيه من جديد كي يمنعوه من الطرقه على الباب. ودار ترويبا بعينيه كي لا يرى يدالآخر الشوهاء.

قال الشيخ ترويبا:«أخرجني من هنا دون أن أرى. لا أريد أن يعرف الصحفيون».

ـ سوف أخرجك من حيث دخلت: من الباب الواسع، قال بيدرو الثالث وهو يبدأ السير.

وتبعه ترويبا خافض الرأس، وقداحمرت عيناه وللمرة الأولى في حياته، وبالقدر الذي تمتد إليه ذاكرته، يحسّ أنه مغلوب. ومرّا من المطبخ دون أن يرفع العجوز نظره وقطعا بقية البيت ثم جابا الطريق الفاصل بين بيت السيّد وبوابة الدخول، ترافقهما جماعة صغيرة من الأطفال الصاخبين وهم يتقافزون حولهما وموكب من الفلاحين الصامتين تبعهما منقبضاً. وكانت بيانكا وألبا جالستين بين الصحفيين والشرطة، تتمتعان بأصابعهما من الخنوص المشوي وتشربان جرعات كبيرة من فم قنّينة الخمر الأحمر وهي تدور من يد إلى يد. ولما اكتشفت ألبا جدّها، اضطربت كاملاً، لأنها لم تره يوماً هكذا واهناً منذ موت كلارا. وابتلعت لقمتها وأسرعت للقياه وارتمى كل منهما بين ذراعي الآخر، وتمتمت شيئاً ما في أذنه فتوصل آنئذ الشيخ ترويبا إلى استعادة وقاره، ورفع

رأسه وابتسم بكبريائه القديمة أمام أنوار الآلات الفوتوغرافية. وأخذ الصحفيون له صوراً تظهره في سيارة سوداء ذات نمرة رسمية وتساءل الرأي العام خلال عدة أسابيع عن معنى ذلك التهريج، حتى وقعت أحداث أخرى أخطر فمحت حتى ذكرى هذه المسألة.

تلك الليلة، نوى الرئيس، أن يخدع نعاسه باللعب بالشطرنج مع جيم، وعلّق على القصة بين جولتين، وهو يسبر بعينيه النافذتين، المختبئتين وراء نظارة سميكة ذات إطار أسود، بعض إمارة ضيق عند صديقه، لكن جيم استمر بصف القطع على الرقعة دون أن يضيف كلمة واحدة.

قال الرئيس: «إن العجوز تروييبا لايستهان به. إنه يستحق أن يكون في صفّنا».

قال جيم وهو يشير إلى اللعب: «إنه دورك بالبدء يا رئيس».

وساء الوضع كثيراً في الشهور التي تلت، حتى قيل أن البلاد في حرب. كانت العقول ملتهبة، وبخاصة بين نساء المعارضة اللائي كن يتظاهرن في الشارع وهن يضربن على الطناجر احتجاجاً على نقص المؤونة. كان نصف الشعب يحاول إسقاط الحكومة، بينما يدافع عنها النصف الآخر، فلا يبقى لدى أحد من الوقت كي يفكر بالعمل. ودهشت ألبا، مساءً، إذ رأت شوارع المركز مظلمة وخالية. ولم تجمع الأقذار طيلة الأسبوع كله وكانت الكلاب الضالة تعبث بين أكوام الأوساخ. وكانت الأعمدة تغطيها دعاوى مطبوعة بلّلها المطر الشتوي، وكانت شعارات المعسكرين مخطوطة في الأماكن الخالية. نصف المصابيح حطمته ضربات الحصى والأبنية لاتبدي أية نافذة مضاءة، ومامن نور غير مايصدر عن شعلة تغذيها الجرائد العتيقة والأخشاب التي تستدفئ عليها بعض جماعات الحراسة أمام الوزارات، والبنوك، والإدارات، تتناوب كي تمنع عصابات اليمين المتطرّف من الإستيلاء عليها خلال الليل. ورأت ألبا شاحنة صغيرة تقف أمام مبنى عام. ونزل منها بعض الشباب، لبسوا خوذات بيضاء، وتسلحوا بآنية تلوين وريش، وغطوا الجدران بخلفية لونها فاتح. ثم رسموا حمائم كبيرة ملونة، وفراشات، وأزهاراً دامية، ترافقها أبيات من الشعر ونداءات

للوحدة الشعبية. كانت تلك زمر من الشباب تظن أنّها تستطيع إنقاذ ثورتها بضربات النقش الوطنية وحمائم المعركة. واقتربت ألبا وأرتهم بإصبعها الكتابة في الجهة الأخرى من الشارع. كانت مرسومة بلطخ لون أحمر كبيرة، ولاتحوي غير كلمة وحيدة مكتوبة بأحرف عملاقة: جاكارتا.

سألت: «ماتعني هذه الكلمة، أيها الرفاق؟».

أجابوها: «إننا نجهل».

لم يكن أحدٌ يعرف لماذا ترسم المعارضة هذه اللفظة الآسيوية على الجدران. لم يسمع أحدٌ كلاماً عن أكوام الموتى في تلك العاصمة البعيدة. وامتطت ثانية ألبا دراجتها ودوّست باتجاه البيت. وهي منذ تقنين البنزين وإضراب النقل العام، أخرجت من القبو لعبة طفولتها القديمة من أجل التنقل. ذهبت وهي تفكّر بميجل وحدس مظلم يشدّ على عنقها.

باتت منذ بعض الوقت لاتذهب للدرس وبات لديها كثير من الفراغ. لقد اتخذ الأساتذة قراراً بوقف غير محدود للعمل واحتل الطلاب مباني الكليات. وحين تعبت من دراسة الفيلونسيل في البيت، أخذت تستغل الوقت الذي لاتنشغل فيه كي تبطر فيه مع ميجيل، وتتنزّه معه وتناقش، وتذهب إلى مشفى حي الإحسان كي تساعد عمّها وقبضة من الأطباء الممارسين الآخرين الذين ظلوا يعملون بالرغم من أوامر نقابة الأطباء بالإضراب الهادف إلى تخريب عمل الحكومة. كان ذلك عملاً جبّاراً كانت الأروقة متخمة بالمرضى الذين ينتظرون عدّة أيّام متتالية كي يحظوا بالمعالجة، وهم أشبه بقطيع يتأوّه. وفاض العمل عن المرضين. وشغل جيم حتى بات ينسى غالباً أن يأكل، حتى إذا غفا قليلاً، كان لايترك مبضعه. كان هزيلاً، ضامراً. كان يعمل ثماني عشرة ساعة متصلة، حتى إذا ترك نفسه يسقط على فراشه، لم يستطع النوم، لأنّه يفكر بالمرضى الذين ينتظرون في نقص المخدّر والإبر والقطن، وهو يقول في نفسه أنه لو ضرب نفسه بألف، لما كان كافياً، كمن يريد أن يوقف قطاراً بيديه فحسب. وكانت أماندا تعمل أيضاً في المشفى متطوعة، كي تكون قريبة من جيم وتشغل نفسها. ولقد استعادت، عبر تلك الأيام المضنية في معالجة مرضى مجهولين، تلك الشعلة التي

كانت تضيئها من الداخل في شبابها وتوهّمت إلى أجل بأنها سعيدة. كانت ترتدي قميصاً أزرق وخفّافة كاوتشوك، لكنها لما كانت تمرّ قريباً من جيم، كان يتصور أنه يسمع ضجة زجاجها الماضية. كان يحسّ أنه أقلّ عزلة وتمنى لو يحبّها حقّاً.

كان الرئيس يظهر تقريباً كلّ مساء في التلفزيون كي يشهّر بالمعركة التي لارحمة فيها التي تقودها المعارضة. كان منهكاً، ينكسر صوته أحياناً. وكانت جماعة المواجهة تروي أنّه سكران يقضي لياليه في التهتك مع خلاسيات جيء بهن في الطائرات من المدارات كي ينعشن عجز عظامه. أعلن أن سائقي الشاحنات المضربين يقبضون يومياً خمسين دولاراً من الأجنبيّ كي يستمرّوا في شلّ البلاد. وكان الجواب أنه يتلقى شرابات بجوز الهند وأسلحة سوفيتية بالحقيبة الدبلوماسية. قال إن خصومه يتآمرون مع العسكر كي يعدّوا انقلاباً، لأنهم يفضلون أن يشهدوا اغتيال الديموقراطية من أن يحكمها هو. واتهموه بأنّه يبني من تصورات هذيانّي وأنّه يسرق أعمال المتحف الوطني كي يزين بها غرفة صديقته الصغيرة. حذّر من واقعة أنّ اليمين مسلح، وأنّه قرر أن يمنح الوطن للإمبريالية وأجيب أن خزانة أطعمته متخمة بلحم الدجاج الأبيض بينما الشعب يقف في الرتل من أجل سلابة[1]. الطائر نفسه.

في اليوم الذي أتت فيه لويزا مورا تقرع جرس باب الزاوية الكبير، كان الشيخ تروييبا جالساً إلى طاولته في مكتبته يقوم بحساباته. كانت آخر من بقي في هذا العالم من الأخوات مورا، وقد غدت قامتها كقامة طفل مجنّح ضال لكنها مازالت جلّية تمتلك امتلاكاً كاملاً طاقتها الروحية التي لاتكلّ. لم يرها تروييبا منذ موت كلارا، لكنّه عرفها من صوتها الذي حافظ على جرس النّابي المسحور، وعبير بنفسج الأحراش الذي أضعفه الزمن، لكنه مازال يدرك عن بعد. عندما دخلت الغرفة، أدخلت معها حضور كلارا المجنّح الذي أخذ يطفو في الهواء أمام عيني زوجها العاشقتين الذي ضاع من نظره منذ عدة أيام.

قالت له لويزا بعد أن جلست في المقعد: «أتيت أنبئك بآلام كثيرة».

---

١ ـ مايرمى من الطائر عادة.

قال وهو يتنّهد: «آه، يا عزيزتي لويزا، ليس هذا الذي ينقصني مع ذلك...».

وأخبرته لوزيرا عمّا قرأت في الأفلاك. واضطرت لعرض المنهج العلمي الذي اعتمدته على الشيخ، كي تتغلب على تحفظاته العملية. قالت إنها قضت الشهور الأخيرة وهي تدرس فحوى برج كل عضو هام في الحكومة والمعارضة، ومن بينهم تروبيبا نفسه. وتبيّن، من مقارنة الخرائط السماوية أنّه سوف يحدث في هذه الظروف الدقيقة احتكام مشؤوم بالدم والعذاب والموت.

وقالت تلخّص حديثها: «من ناحيتي، لاشك عندي في ذلك يا إيستيبان. نحن على حافة أيام فظيعة. سوف يسقط عدد من الموتى لن نستطيع إحصاءه. سوف تكون من جهة الغالب، لكنّه نصر لن تجني منه غير الألم والعزلة.

وأحس إيستيبان تروبيبا أنّه على غير مايرام أمام هذه الساحرة المستهجنة التي جاءت تعكّر سلام مكتبته وأصابته بالشري من دوارها الفلكي، لكنه لم يؤت الشجاعة لطردها، لأن كلارا كانت ترمقه من زاويتها.

ـ لكني لم آت كي أزعجك بأحداث لاتمت إلى سلطتك، يا إيستيبان. لقد جئت كي أحدثك عن حفيدتك ألبا، فلدي رسالة لها، من قبل جدتها.

واستدعى الشيخ ألبا. التي لم ترى الفتاة لويزا مورا منذ سبع سنين. لكنّها كانت تذكرها تماماً. وقبلتها برقة عظيمة، كي لاتزعج هيكلها العظمي الضعيف العاجي، واستنشقت في نهم لفحة مليئة من العطر الذي لانظير له.

ـ جئت كي أقول لك أن تنتبهي، يا ابنتي الصغيرة، قالت لها لويزا مورا بعد أن جففت الدموع التي أسالها الانفعال. إن الموت قادم إليك. جدتك تحميك من الملأ الأعلى، لكنها أرسلتني كي أقول لك إن الأرواح الجوالة لاتستطيع شيئاً كبيراً في مرحلة الكوارث الكبرى. يحسن بك أن تسافري في رحلة، أن تذهبي إلى الناحية الأخرى من المحيط، حيث تكونين في مأمن.

وعيل صبر الشيخ تروبيبا، من المنحى الذي اتخذه الحديث، واقتنع بأنّه أمام عجوز مختلّة. بعد عشرة شهور وأحد عشر يوماً، عندما أتوه بألبا، في أوج الليل، بعد منع التجوّل، تذكر نبوءة لويزا مورا.

الفصل الثالث عشر

الرعب

بدأ الإنقلاب بمطلع شمس لامعة، غير مألوف في هذا الربيع الحييّ الذي ما كاد يتفتّح. ولقد عمل جيم طوال الليل تقريباً؛ وفي الساعة السابعة كان جسمه ما اختزن سوى ساعتي نوم. أيقظه جرس الهاتف وأتمت سكرتيرة تغير صوتها سحبه من غفلته. كانوا يكلمونه من القصر ليعلموه بضرورة حضوره بأسرع ما يمكن إلى مكتب الرفيق الرئيس، لا، لم يكن الرفيق الرئيس مريضاً، كانت تجهل ما يجري، تلقت أمراً بدعوة كل الأطباء الملحقين بالرئاسة. ولبس جيم كمروبص وأخذ سيارته، وهو يشكر السماء على مهنته التي مكنته من كوتا بنزين أسبوعية: ولولاها، لوجب عليه أن يذهب حتى المركز على الدرّاجة. وصل القصر في حوالى الساعة الثامنة ودهش إذ وجد الساحة مقفرة؛ ومفرزة عديدة من الجيش في ثياب الميدان، بخوذاتها، وأتم سلاح، تقف على باب المبنى الرسمي. وأوقف جيم سيارته على الساحة الفارغة، دون أن يعير اهتماماً بإيماءات الجنود الذين كانوا يشيرون له بالسير. نزل فأحاطوا حالاً به، والأسلحة مصوّبة إليه.

قال جيم وهو يبتسم: «ماذا يجري أيها الرفاق؟ هل نحن في حرب مع الصينيين؟».

أمره ضابط قائلاً: «سر، إنك لا تستطيع أن تركن سيارتك هنا، لقد أوقف السير!».

وأجاب جيم وهو يعرض أوراقه: «آسف، لقد دعوني من الرئاسة. وأنا طبيب».

ورافقوه حتى أبواب القصر الثقيلة حيث كانت فصيلة من الشرطة تقوم بالحراسة. تركوه يدخل. في قلب المبنى كانت تسود ضجة مركب قد غرق، والموظفون يركضون على الأدراج كجرذان أصابها دوار البحر؛ وحرس الرئيس الشخصيّ يكدّس الأثاث على النوافذ ويوزع المسدسات على جميع الجهات. وأتى الرئيس للقياه. وقد لبس خوذة قتال لاتأتلف مع بزته اللدنة ذات القصة الرياضية وحذائه الإيطالي. وفهم جيم حالاً أن شيئاً خطيراً قد حصل.

عرض له بإيجاز: «ثارت البحرية. أزفت ساعة القتال يا دكتور».

وأمسك جيم بالهاتف وطلب ألبا ليوصيها بعدم الخروج من البيت ويرجوها أن تنبه أماندا. وكانت تلك آخر الكلمات التي تبادلاها، لأن الأحداث، أطلقت إعصارها المدوّخ. وفي الساعة التالية وصلت ثلة من الوزراء والمسؤولين السياسيين وبدئت مفاوضات هاتفية مع المتمردين لتقدير ضخامة الانتفاضة ومحاولة إيجاد مخرج سلميّ. لكن في الساعة التاسعة والنصف، كان مجموع وحدات البلاد في أيدي الضبّاط المنقلبين. وبدأ في الثكنات تطهير العناصر التي ظلّت وفية للدستور. وأمر الجنرال قائد الشرطة الحرس بترك القصر، لأن قوى البوليس انضمت بدورها إلى الإنقلاب.

قال لهم الرئيس: «بوسعكم أن تذهبوا، أيها الرفاق. اتركوا سلاحكم فحسب».

بدا رجال الشرطة مرهقين وخجلين، لكن أمر الجنرال كان لايحتمل الردّ. لم يجرؤ أحد منهم أن يصمد لنظرة رئيس الدولة فتخلوا عن أسلحتهم في الباحة وخرجوا متقاطرين، خافضي الرؤوس. عند الباب دار واحد منهم على

عقبيه. وقال: «أنا باق معك، أيها الرفيق الرئيس».

بات واضحاً في حوالي منتصف الصبيحة أن شيئاً لن يسوّى بالحوار، وتوارت قليلاً أكثرية الحاضرين تقريباً. وبقي أقرب الأصدقاء وحدهم، وكذلك الحرس الشخصي. وأجبر الرئيس بناته على مغادرة المكان. فاضطروا لإخراجهن بالقوّة؛ ولقد أمكن سماعهن، من الشارع ينادينه ويصحن. وبقي في داخل البناء مايناهز الثلاثين شخصاً، تمترسوا في صالونات الطابق الأول، ومن بينهم جيم، كان يشعر أنه موجود في قلب كابوس. اتخذ مكاناً له في مقعد مخمل أحمر، وأمسك بمسدس بيده، كان يتأمله بنظرة بلهاء، كان يجهل كيف يستخدمه. وبدا له كأن الأمر يجري في بطء عظيم؛ فلما ينقض، تبعاً لساعته، غير ثلاث ساعات منذ بداية هذا الحلم البشع. وسمع صوت الرئيس وهو يتكلم على موجات البلاد. كان يودّعها:

«أتوّجه للذين سوف يقلقون كي أقول لهم أني لاأنوي التنازل: سوف أدفع حياتي ثمن وفائي للشعب. سوف أكون دائماً معكم. إني أؤمن بالشعب، وبقدره. سوف يأتي رجال آخرون، ممن يكونون اعتلوا على التجربة؛ وبأسرع مما نظن سوف تفتح عريضة طرق الإنسان الحر من أجل بناء مجتمع أفضل. عاش شعبنا! عاش العمال! تلك آخر كلماتي. وأعرف أن تضحيتي لن تبقى عبثاً».

وبدأت السماء تتلبّد. وسمع في البعيد بعض انفجارات منعزلة. الآن كان الرئيس يتحدّث هاتفيّاً مع قائد المتمردين الذي وضع طائرة حربية تحت تصرّفه كي يترك البلاد وعائلته. لكنّه لم يكن بأية حال مستعداً لأن ينفى إلى أرض بعيدة يقضي فيها بقية أيامه وهو يدور بإبهامية بين قادة آخرين أطيح بهم وتركوا بلادهم في ساعة بائع الحليب.

أجاب بصوت هادئ: «أنت تخطئون بالشخص، يا عصابة الخونة. الشعب وضعني هنا ولن أخرج إلّا ميتاً».

عندها سمع أزيز الطائرات وبدأ القصف. وانبطح جيم أرضاً مثل الآخرين، وهو مازال لايصدق مايعيشه، فقد كان مقتنعاً حتى البارحة بأنه

يقطن في بلاد لاقصص فيها، حيث العسكريون أنفسهم يحترمون القانون. الرئيس وحده ظل واقفاً، واقترب من النافذة وهو يحمل بين ذراعيه بازوكة، وأخذ يطلق في الشارع على الدبابات. وزحف جيم إليه وتشبّث بربلتيه كي يجبره على القرفصة، لكن الآخر رماه بكلمة قذرة ولم ينثن. وخلال ربع ساعة اشتعل البناء كله، وكان القصف والدخان من القوة مالايستطاع معه التنفّس. وكان جيم يجرّ نفسه على أربع بين الأثاث المحطم وأطراف السقف تتناثر حوله مثل وابل قاتل، وهو يجهد في أن ينجد الجرحى، غير أنه ماكان يستطيع أن يحمل لهم غير قليل من العزاء ويغلق عيون الذين قضوا. وتوقف إطلاق النار فجأة، فاستغلّها الرئيس كي يجمع الأحياء؛ قال لهم أن يذهبوا، أنه لايريد شهداء، وتضحيات لانفع منها، أن كلاً منهم عنده عائلة وواجبات هامة مازالت تنتظرهم. وأضاف: «سوف أطلب هدنة كي تستطيعوا الخروج». لكن أحداً منهم لم يرد أن يذهب على كل حال. بعضهم كان يرتجف، لكنهم جميعاً حافظوا في الظاهر على وقارهم. كان القصف قصيراً، لكن القصر ردّ إلى حالة الخراب، في الساعة الرابعة عشرة، التهم الحريق الصالونات القديمة التي استخدمت منذ الفترة الاستعمارية، ولم يبق حول الرئيس غير ثلة من الرجال. واندفع العسكريون في البناء واحتلوا مابقي من الطابق الأرضي. ومن فوق الضجة سمعوا ضابطاً يأمرهم بصوت هستيري أن يستسلموا وينزلوا رتلاً وأيديهم في الهواء. وصافحهم الرئيس واحداً واحداً. قال: «سوف أمشي في المؤخرة». ولم يروه بعدها حياً.

ونزل جيم مع الآخرين. على كل درجة من درج الحجر العريض كان يقف جنود. يخيّل للمرء أنهم غدوا مجانين. كانوا يضربون بأرجلهم وأعقاب البنادق أولئك الذين ينزلون الدرجات وقد امتلكهم حقدٌ خارقٌ كأنّه مضغة[1] جديدة لكنّه ازدهر فيهم على مدى بعض الساعات. بعضهم كان يطلق النار من أسلحته فوق رؤوس المغلوبين. وتلقى جيم ضربة في بطنه ثنته إلى اثنين؛

---

١ ـ بداية حمل المرأة.

وعندما استطاع أن يقف، كانت عيناه مليئتين بالدموع وقد لوث بنطاله براز طريّ. واستمرت الضربات تهوي عليهم حتى في الشارع وهناك أمروا بأن ينبطحوا أرضاً على بطونهم؛ فديسوا وأشبعوا شتائم حتى فرغ قاموس البذاءة الكاستيلاني، ثم أشير إلى دبّابة أن تقترب. وسمع المعتقلون الإسفلت يهتز من وزن الجسئية الحصين.

صاح العقيد قائلاً: «افسحوا، ولنعدم هؤلاء المجانين بالدّبابة!».

ولاحت لجيم نظرة عابرة من الأرض فخال أنه عرف الرجل، فقد ذكّره بصبيّ كان يتسلّى معه قديماً في طفولته في المارّيات الثلاث. ومرت الدبابة وهي تهقّ على بعد عشرة سنتمترات من جماجمهم بين مرح الجنود وزعيق صفارات الإطفاء. وفي الزاوية كان يسمع هدير الطيران. وبعد زمن طويل، قسم المعتقلون إلى جماعات صغيرة، حسب جريمتهم، واقتيد جيم إلى وزارة الدفاع التي تحوّلت إلى حامية. وأجبروه على أن يتقدم وهو مقنع، وكأنه في خندق، ثم جعلوه يجتاز قاعة كبيرة امتلأت رجالاً عراة حزموا كل عشرة معاً، وأيديهم مربوطة وراء ظهورهم، وقد كانوا ضحية عدد من الضربات لايستطيعون معه وقوفاً وخيوط من دم تركض على مرمر الأرض. وأُخذ جيم حتى المرجل حيث كان يوجد أشخاص آخرون صفّوا على الحائط تحت رقابة جندي شاحب يسدّد إليهم رشيشه. بقي هناك فترة طويلة بلا حراك، يجهد في أن يظلّ واقفاً كمنوّم، من دون أن يفهم حتى ذلك الوقت ما الذي كان يجري، وقد بلبله الصياح الذي كان يرتفع من الجهة الأخرى من الحائط. ولاحظ أن الجندي لايتركه من عينيه. وفجأة، خفض هذا سلاحه واقترب. تمتم يقول له وقد أعطاه سيكارة بعد أن أشعلها:

ـ «بوسعك أن تجلس وترتاح قليلاً يا دكتور. لكن حين أشير لك إنهض حالاً. أنت الذي قمت بعملية لأمّي وأنقذت حياتها».

لم يكن جيم مدخناً، لكنه تمتع بتلك السيجارة وهو يمصها جرعات بطيئة. كسرت ساعته. لكنّه حكم من الجوع والظمأ اللذين يحسّ بهما، فقدر أن الليل قد هبط. كان على إجهاد، وضيق من بنطاله الملوث، لم يبيحا له حتى

أن يتساءل عمّ سوف يحدث له. وبدأ رأسه يترجّح حين اقترب منه الجندي وهمس قائلاً له:

«إنهض يا دكتور. جاء من يبحث عنك. حظّاً سعيداً».

بعد لحظة، دخل رجلان وضعا القيد في يده وقاداه إلى ضابط مكلف باستجواب السجناء. ولقد رآه جيم مرات عدّة بين بطانة الرئيس. قال له:

«نعرف يا دكتور أنك لاعلاقة لك بكل ذلك. نرغب إليك أن تظهر في التلفزيون فحسب وتشهد بأن الرئيس كان سكران وأنّه انتحر... وأدعك بعدها ترجع إلى بيتك».

أجاب: «أعلنوا هذا أنتم. لاتعتمدوا علي، يا كومة أوباش».

أمسكوا به من ذراعه ونزلت أوّل ضربة على تجويف المعدة. ثم رفعوه ووضعوه على طاولة أحسّ عليها أنهم ينزعون عنه ثيابه. وبعد لأي أخرجوه مغمى عليه من وزارة الدفاع. وهمى المطر، فأنعشته طراوة الماء والهواء. وعاد إليه رشده لما رفعوه إلى حافلة للجيش وتركوه يسقط على المقعد الخلفي. وسبر الليل، عبر الزجاج حتى إذا سارت السيّارة، استطاع أن يرى الشوارع المقفرة، والأبنية التي ازيّنت بالأعلام. فهم أن العدوّ انتصر، وربّما فكّر بميجيل. ووقفت الحافلة في باحة ثكنة حيث أنزلوه. كان هنالك موقوفون آخرون في حالة مؤلمة كحاله. قيّدوا لهم الكعب والقبضة بسلك حديد شائك ورموهم ووجوههم إلى الأرض في الإسطبلات، يومان قضاهما جيم وأشباهه هناك، محرومين من الماء والغذاء، وهم يتعفّنون في برازهم، ودمهم وخوفهم نقلوهم بعدها في شاحنة إلى ضاحية المطار. أعدموهم في البرية الخلاء، وهم على الأرض، لأنهم لم يستطيعوا الوقوف على أرجلهم، ثم فجروا الجثث بالديناميت. وحلق في الجواء، زمناً طويلاً، صدى الإنفجار المخيف وعفونة الأجساد التي مزّقت.

في بيت الزاوية الكبير فتح الشيخ ترويبا قنينة شمبانيا فرنسية احتفالاً

بسقوط النظام الذي كافحة بضراوة، دون أن يخطر بباله أنهم كانوا في اللحظة نفسها يحرقون خصيتي ابنه جيم بسيكارة مستوردة. وغرز العجوز علماً على مدخل بيته، وما أمسك بنفسه عن الرقص بالشارع، إلّا لأنّه كان يجرجر قدمه بسبب منع التجول، ولو أن الرغبة ماكانت تنقصه، كما قال بلهجة مرحة لابنته وحفيدته. في ذلك الوقت كانت ألبا، معلقة إلى الهاتف تحاول الحصول على أنباء الذين يشغلها مصيرهم: ميجيل، وبيدرو الثالث، خالها جيم، وأماندا، وسيباستيان جوميز، وآخرون كثر.

صاح الشيخ ترويبيا وهو يرفع كوبه قائلاً: «الآن، سوف يشربون الأنخاب!».

فانتزعتها ألبا منه بحركة جافة ورمتها على الحائط فكسرتها إلى آلاف الشظايا. وبيانكا، التي لم تجرؤ إطلاقاً على معاندة أبيها، لم تخف عليه ابتسامتها.

قالت ألبا. «لا ياجدّي، إننا لانحتفل بموت الرئيس، ولابموت الآخرين جميعاً».

في بيوت الأحياء الراقية الموسرة، فتحت أيضاً القناني التي خبئت منذ ثلاثة أعوام ورفعت كأس النظام الجديد. وفوق بيوت الصفيح العمالية طارت طيلة الليل الطوّافات وهي تدوّي مثل ذبابات كبيرة جاءت من عوالم أخرى.

في ساعة متأخّرة، عند الفجر، رنّ الهاتف؛ وركضت ألبا، التي لمّا تنم، كي تجيب. وعزّها أن سمعت صوت ميجيل. قال لها:

ـ آذنت الساعة يا حبيبتي. لاتحاولي أن تجديني، ولاتنتظريني. أحبّك».

وانتحبت ألبا وهي تقول: «ميجيل، أريد أن أذهب معك!».

ـ لاتتكلّمي عنّي مع أحد. لاتحاولي أن ترى الأصدقاء. مزقي المفكرات، والأوراق، وكل مايمكن أن يكون له علاقة بي. سأحبك دائماً، تذكري ذلك، ياغرامي، قال لها ميجيل قبل أن يغلق السمّاعة.

دام منع التجول يومين. كانا عند ألبا، كالأبد. وكانت محطّات الراديو

تذيع دون انقطاع أناشيد عسكرية والتلفزيون لايظهر غير مناظر من أرض الوطن ورسوماً متحركة. وكان يظهر على الشاشة عدة مرّات في اليوم لجنة الجنرالات الأربعة تتبوأ عروشها بين الشعار والعلم كي تصدر المراسيم: إنهم أبطال الوطن الجدد. وبالرغم من أمر إطلاق النار لدى رؤية أي كان يضع أنفه خارج بيته، قطع الشيخ تروييبا الشارع كي يحتفل عند جار له. ولم تثر ضجّة الأفراح انتباه الدوريات التي تمرّ في الشارع لأنه كان الحي الذي لاتنتظر أن تلاقي فيه أية مقاومة. وأعلنت بيانكا أنها تعاني أسوأ صداع. في كل حياتها واعتزلت في غرفتها. وسمعتها ألبا تجوس في المطبخ ليلاً، وقالت في نفسها لقد تفوقت تشنجات المعدة على آلام الرأس. هي نفسها قضت يومين تدور في فراغ البيت، فريسة اليأس، وهي تنقب في عرين كتب جيم ومكتبه الخاص لعلّها تتلف كل ماتقدر أنه مريب. وبادرها شعور أنها ترتكب إثماً وأيقنت أنه سيغضب خالها عند عودته ويسحب منها ثقته أتلفت أيضاً الدفاتر التي توجد فيها أرقام هواتف الأصدقاء، وأثمن رسائل حبها، بل وصورة ميجيل نفسها. أما الخدم فكانوا لامبالين، يتثاءبون سأماً واستغلوا منع التجول كي يصنعوا فطائر محشوّة، ماعدا الطباخة التي كانت تبكي دون توقف وتغلي من نفاد صبرها للقاء زوجها الذي لمّا تستطع الإتصال به.

وعندما رفع منع الخروج بضع ساعات كي يسمح للناس بالتموين، لم تصدق بيانكا عينيها لما لاحظت أن المخازن فوق مترعة بالمواد التي نقصت خلال أعوام ثلاثة طويلة وبدت وكأنها تنبثق بسحر في الواجهات. شاهدت أكوام الفراريج الجاهزة، واستطاعت أن تشتري ماتشتهي، ماعدا أن السعر بات من يومها ثلاثة أضعاف لأنّهم أطلقوا حرية الأسعار. لاحظت أنّ كثيراً من الناس ينظرون بعين الحسد والفضول إلى الفراريج، كأنهم لم يروا مثلها يوماً، لكنّ الذين يأخذون منها نادرون، لأنّ أكثرهم لايستطيعون دفع الثمن. وبعد ثلاثة أيام، أخذت رائحة عفونة اللحم الفاسد تنتن مخازن العاصمة.

كانت دوريات الجنود تجوب الشوارع بطولها بعصبيّة، يصفق لهم عدد من الذين رغبوا في قلب الحكومة. وبعض منهم وقد أثارهم عنف تلك الأيام،

كانوا يوقفون ذوي الشعر الطويل وأصحاب الذقون من الرجال، لأنهما إشارتان تعبران عن روح متمردة، كما كانوا يعترضون في عرض الشارع النساء ذوات البنطال كي يمزقوه لهنّ بالمقصّ، لأنهم كانوا يشعرون بأنّهم موكلون بمهمة فرض، النظام، والأخلاق، والحشمة. وأوضحت السلطات الجديدة أنها غريبة عن هذه التصرّفات، وأنّها لم تأمر بتاتاً بقصّ الذقون أو البناطيل، وأنه ربّما تعلّق الأمر بشيوعيين تخفّوا كعسكريين كي يفقدوا القوات المسلحة اعتبارها، ويجعلوها مكروهة في عين الشعب، مع العلم أن لا الذقون ولا البناطيل ما كانت إطلاقاً ممنوعة، ولو أنّه يفضل بوضوح أن يحلق الرجال وأن تطلق النقرة والأذنان، وأن ترتدي النساء الخراطة.

وسرت شائعة بأنّ الرئيس مات، لكن أحداً لم يصدق الرواية الرسمية القائلة أنه أنهى حياته.

انتظرت أن تعود الحالة قليلاً إلى الوضع الطبيعي. وبعد الإعلان بثلاثة أيام ذهبت من المجلس إلى وزارة الدفاع بالسيارة، وقد عجبت ألّا يأتي من يبحث عني فيرجوني الإشتراك بالوزارة الجديدة. وكل الناس يعرفون أني كنت العدو رقم واحد للماركسيين، وأوّل من عارض الدكتاتورية الشيوعية ومن جرؤ فقال علناً أن العسكريين وحدهم يستطيعون دفع البلاد لئلا أن تقع بين مخالب اليسار. دون أن أعدّ أني أنا الذي قمت تقريباً بكل الإتصالات مع القيادة العليا، وأمنت الإتصال مع أمير لوكوس، وكفلت مشتريات السلاح باسمي وثروتي الشخصية. وليس من أحدٍ، في النهاية، جازف مثلي، ولقد فقدت السلطة السياسية، في عمري كل أهمية، لكنّي من النادرين الذين بوسعهم أن ينصحوهم، لأني منذ زمن طويل طويل أحتلّ مسؤوليات عليا وأعرف أكثر من أي شخص مايلائم البلاد. وماذا يستطيع رباعي العقداء الذين رقّوا على عجل، دون مستشارين صادقين ومستقيمين، وأكفاء؟ غير أن يخدعوا أنفسهم بأنفسهم. أو أن يمكر بهم صغار الملاعين الذين يعرفون كيف يستفيدون من الظروف كي يملؤوا جيوبهم، على مثل ماكانت الحالة. في تلك الفترة، كان كل الناس يجهلون أن الأمور تصير إلى ماصارت إليه. كنا نفكّر أن تدخّل

الجيش هو مرحلة ضروريّة على طريق عودة ديموقراطية سليمة، وعلى هذا كان يظهر لي أن التعاون مهم مع السلطات.

لما وصلت إلى وزارة الدفاع، أفزعني أن قد رأيت البناء تحوّل إلى مزبلة. كان وصفاء يرشون الأرض بماء كثير بالمماسح، ولقد رفعت بقايا رصاص عن بعض الجدران، ورأيت العسكريين يركضون في كلّ اتجاه، ورؤوسهم بين أكتافهم، وكأنهم وجدوا أنفسهم في وسط ساحة معركة، أو أنهم يتوقعون أن يروا العدوّ يسقط عليهم من السقف. وجعلوني أنتظر ثلاث ساعات قبل أن يستقبلني ضابط. في البدء، ظننت أنهم لم يعرفوني في هذه الفوضى، وأنّهم من أجل هذا السبب لم يقدموا لي إلّا قليلاً من الأحترام، لكني فهمت فيما بعد ما الأمر. استقبلني الضابط وحذاؤه موضوع على مكتبه، وهو يمضغ سندويشة، والدهن على فمه، وخدّاه لم يحلقا، وقد حلّ أزرار سترته. ولم يدع لي وقتاً أسأل فيه عن أنباء ابني جيم، أو أن أهنئه بعمل القوات المسلحة الشجاع الذي أنقذ الوطن، لأنه طلب مني مباشرة مفاتيح السيارة متعللاً بأن المجلس مقفل، وأن الإمتيازات العينية التي يستفيد منها أعضاؤه باتت لاوجود لها. ارتجفت. بات واضحاً أنهم ليس في نيتهم فتح أبواب المجلس كما كنا نأمل. وطلب منّي أو بالأحرى أمرني أن أحضر إلى الكاتدرائية، غداً صباحاً في الساعة الحادية عشرة كي أشارك في تسبيحة الشكر التي تشكر فيها البلاد الله لهذا النصر على الشيوعية.

وسألته: «هل حقّاً انتحر الرئيس؟».

ـ لقد رحل.

ـ رحل؟ إلى أين؟

ـ ذهب هدراًا وقهقه الآخر.

ونزلت إلى الشارع معتمداً ذراع سائقي، وقد ضلّ عقلي. بتنا بلا واسطة ترجعنا إلى البيت فما كان هنالك من حافلة ولاتكسي وما أنا في عمر السير على القدم. ومن حسن الحظ مرت جيب شرطة، عرفوني. والإستدلال عليّ أنا

سهل، كما تقول حفيدتي ألبا، بسبب قيافتي التي يعرفها الجميع كغراب عجوز مسعور، ولباسي الحدادي الأبديّ وعصاي الفضيّة.

قال ملازم أول: «إصعد أيها الشيخ».

وساعدونا في تسلّق السيارة. كان يبدو على الشرطة أنهم منهكون، وظهر لي واضحاً أنهم لم يغمضوا عيناً طيلة الليل. وأكدوا لي أنهم منذ ثلاثة أيام يجوبون المدينة، وقد ظلوا في حال اليقظة من شرب القهوة السوداء والحبوب.

ـ هل واجهتم مقاومة في الأحياء الفقيرة وظاهر البلدة العمّالي؟

وأجاب الملازم الأول:« قليلاً جدّاً. بقي الناس هادئين. آمل أن يعود الوضع سريعاً إلى الحال الطبيعية، أيها الشيخ. كل هذا لا يعجبنا، إنه عمل فاسد.

ـ لا تقل أشياء شبه ذلك يا صديقي. لو لم تتدخلوا لأخذ الشيوعيون السلطة وفي هذه الساعة، كنا أنت وأنا من موتى القبور بين خمسين ألفاً آخرين. أنت لا تجهل أنهم كانت لديهم خطة لإقامة ديكتاتوريتهم؟

ـ هذا ما روي لنا. هذا لا يمنع أنهم في المدينه التي أقطن أوقفوا خلقاً كثيراً. وجيراني ينظرون إلي بعين الكره، والشباب يواجهون الشيء نفسه هنا. لكن يجب إطاعة الأوامر. الوطن قبل كل شيء. أليس كذلك؟

ـ إنه كذلك. أنا أيضاً، أيها الملازم الأّول، آسف لما يجري. لكن لم يكن هنالك من مخرج آخر. الحكم كان نتناً. ما كانت البلاد تغدو لو لم تحملوا السلاح؟

مع ذلك لم أكن، في أعماقي، متأكّداً. حدست أن مجرى الأحداث لم يكن مطابقاً لخططنا وأن الوضع كان يفلت منّا؛ لكنني تلك الساعة أسكتّ قلقي، متعلّلاً أن تلك الأيّام الثلاثة كانت قليلة من أجل إعادة النظام للبلاد كلّها، وأن ذلك الضابط القذر الذي استقبلني في وزارة الدفاع يحتمل ألا يمثل غير أقلية زهيدة في قلب القوات المسلّحة، إن الأكثرية الكبرى هي على صورة

هذا الملازم الأول الرياب الضمير الذي أقلني إلى بيتي. قلت في نفسي، سوف تعود الأمور إلى النظام في وقت يسير، وعندما يهدأ توتّر الأيّام الأولى، سأجتهد للإتصال بمن هو أعلى مقاماً في التسلسل العسكري. وأسفت أني لم أتوجه مباشرة إلى الجنرال هورتادو؛ وما منعني إلا احترام الشكليات، والغرور أيضاً، وأعترف بذلك، لأن التهذيب يقضي بأن يأتي هو إلي، لاالعكس.

لم أعرف بوفاة ابني جيم إلا بعد خمسة عشر يوماً، لما غادرنا فرح النصر، وأخذ كل يعدّموتاه ومفقوديه. كان يوم أحد لما حضر جندي سّراً إلى البيت وروى لبيانكا، في المطبخ، ما الذي حضره في وزارة الدفاع وما علم عن الأجساد التي فجّرت.

قال الجندي، وعيناه اتجهتا إلى الأرض وخوذة الحرب في يده: «لقد أنقذ الدكتور ديل فاله حياة أمي. ولهذا جئت أقول لكم كيف قتلوه».

واستدعتني بيانكا كي أسمع بأذني مقالة الجندي، لكني رفضت أن أصدّقها. اعترضت بأن هذا الرجل أخطأ، أن الأمر لا يتعلق بجيم، وإنما بشخص آخر تراءى له في موضع المرجل، لأن جيم لم يكن لديه أي سبب للحضور إلى القصر الجمهوري يوم الإنقلاب. كنت مقتنعاً بأن ابني، كان يقدر أنه ملاحق، ففرّ إلى الخارج من ممر حدودي أو أنه وجد ملجأ في سفارة. ولم يظهر اسمه، على كل حال، في أية قائمة، بين الناس الذين تطاردهم السلطة، واستنتجت من ذلك أن ليس عند جيم مايخشى منه.

قضيت زمناً طويلاً، عدة شهور في الواقع، حتى فهمت أن الجندي قال الصواب. كنت أنتظر ابني وأنا فريسة ضلالات الوحدة، قابعاً في مقعد المكتبة، وعيناي مسمّرتان على عتبة الباب، أناديه بالفكر كما كنت أدعو كلارا. أناديه جدّاً وكثيراً إلى أن آل بي الأمر للنجاح برؤيته، لكنّه ظهر لي مغطّى كله بالدم الجافّ والأسمال، يجرّ شريطاً ملتفّاً على الأرضيّة الخشبية المشمّعة. هكذا عرفت أنه مات كما روى لنا الجندي. ومن هذا اليوم فحسب بدأت أتكلم عن الطغيان. لقد رأت حفيدتي ألبا قبلي بزمن كيف يلوح الدكتاتور. رأته ينفصل عن الجنرالات وبقية أهل الحرب. لقد شخصته منذ البدء، بفضل الحدس الذي

ورثته عن كلارا. إنّه رجل قاس، بسيط التعبير، يقتصد بالكلمات كفلّاح. قليلون كانوا الذين أحسّوا، نظراً لمظهره المتواضع، أنهم سيرونه، ذات يوم وقد ارتدى مشملاً امبراطوريّاً، ورفع ذراعيه كي يهيمن الصمت على الجموع التي جلبت بالشاحنات كي تحييه، وشارباه الجليلان يرتعشان من غرور، وهو يدشن نصب الأسلحة الأربعة الذي على قمته مشعل مفروض فيه أن ينير إلى الأبد مقدرات الوطن. نصب لم ترتفع منه أية شعلة، بسبب خطأ تقني أجنبّي، وإنما دخان مطبخ ضخم وكثيف ظلّ يتطاير في الهواء كعاصفة أبدية جاءت من سماوات أخرى.

بدأت بأن قلت لنفسي أني أخطأت بالمسيرة التي اتّبعت وأنّها لم تكن أفضل طريقة للنجاح ضد الماركسية. وأحسست أكثر فأكثر أني وحيدٌ؛ وأن أحداً لم يكن بحاجة إلي، وقد فقدت ولدي وبيانكا، وهوسها بالصمت، ورأسها الذي في مكان آخر دائماً، كانت تشبه في كل شيء شبحاً. حتى ألبا، كانت تبتعد يوماً فيوماً أكثر. وكنت لأراها في البيت إلّا لماماً. كانت تمسني سريعاً، بخراريطها الطويلة، المبطنة بالأقمشة القطنية، الكريهة المنظر، وشعرها الأخضر العجيب، المنقول عن شعر روزا، وهي مستغرقة في مهمّات سريّة تنفذها بالتواطؤ مع جدتها، كانت حفيدتي مشغولة جدّاً مثل كلارا في مرحلة التيفوس، لما حملت على كتفيها عبء، الألم البشري.

لم تتح الفرصة لألبا كي تنتحب لموت خالها جيم، لأن ضرورة عون المحتاجين استأثرت بها حالاً، حتى أنّها اضطرت لوضع ألمها على طرف كي تكابده فيما بعد. ولم تستطع أن ترى ميجيل إلا بعد شهرين من الإنقلاب حتى لقد أدى بها ذلك إلى الاعتقاد أنّه هو أيضاً مات. ولم تحاول أن تجده، لأنّه وجه لها، من هذه الناحية، أوامر ولاأدق منها، وفق ذلك سمعت اسمه في قائمة الذين يجب أن يتقدّموا للسلطات. فعاد إليها الأمل. «ماداموا وراءه، فإنه على قيد الحياة». هكذا عللت الأمر. كانت ترمضها فكرة أن يلقوا عليه القبض حيّاً

فتلجأ إلى جدّتها، ترجوها أن تمنع شيئاً من هذا النوع. كانت تتضرع إليها قائلة: «أفضّل ألف مرّة أن أعرف أنّه ميت، يا جدّتي». وما كانت تجهل شيئاً مما يجري في البلاد، وهذا ماكان يسبب لها التشنّجات في المعدة ليل نهار، وارتجاف اليدين؛ كانت إذا علمت بمصير هذا أو ذاك السجين غطّتْ جسمها بقع حمرٌ من الرأس إلى القدم كمصابة بالطاعون. ولم تكن تستطيع أن تكلم أحداً في كلّ هذه الشؤون، حتى ولاجدّها، والناس كانوا يفضلون ألّا يعرفوا شيئاً.

بعد ذلك الثلاثاء الفظيع تحوّل العالم تحوّلاً عنيفاً في عيني ألبا. وكيفت حسب إدراكها الأشياء كي تعيش. ووجب عليها أن تتعود فكرة أنّها لن ترى الذين أحبتهم كلّ الحبّ، خالها جيم، وميجيل، بين العديد من الآخرين وكانت تحقد على جدّها في كلّ ما حصل، لكنّها في اللحظة التالية، لما تراه محطّماً في مقعده، ينادي كلارا وابنه، في تمتمة لانهاية لها، كان يراجعها كلّ الحبّ الذي تكنّه للعجوز وتركض كي تقبلّه، وتعزّيه وتمرّر أصابعها في شعره الأبيض، كل الأشياء كانت عند ألبا مثل زجاج، رقيقة كالتنهّدات، وكانت تشعر أن رشّاش وقنابل ذلك الثلاثاء الذي لاينسى قد محت جزءاً طيّباً من الأشياء المعروفة وأنّ كلّ ماوجد طرح نتفاً، ملطّخةً بالدم. وعلى مرّ الأيام، والأسابيع والشهور، ماخلنا أن الخراب وفّره بدأت تظهر عليه بدوره أمائر التدهور. ولاحظت أن الأقرباء والأصدقاء يتجنبونها، وأنّ بعضهم يقطع الشارع كي لايحييها أو غضّ بطرفه إذا اقتربت. وقالت في نفسها إنه ربما عُمِد إلى إثارة شائعة بأ ها تساعد الفارّين.

ولقد كانت الحالة كذلك. فهي منذ الأيّام الأولى لم تنقطع عن إيواء الذين يجدون أنفسهم في خطر الموت. في البدء، كانت تلك عند ألبا ألهية كالتسليّة تقريباً تعينها في تبديل أفكارها، فلا تفكّر بميجيل. ومافتئت أن اكتشفت أنّ تلك ليس فيها شيء من اللعب. ولقد نبّه المواطنون بتعليمات بأن من واجبهم الإبلاغ عن الماركسيين وتسليم الفارّين، أو من اعتبروا خونة للوطن ويحاكمون بموجبه. لقد استطاعت ألبا، بأعجوبة، أن تستردّ سيارة جيم التي لم

يطلها القصف وبقيت مركونة أسبوعاً في المكان الذي تركها فيه، إلى أن أنبئت بالأمر، فذهبت تبحث عنها. رسمت على بابيها شمسين كبيرتين بصفرة صارخة حتى تفرّقها عن بقيّة السيارات وتسهّل مهمّتها الجديدة. ولقد وجب عليها أن تحفظ عن ظهر قلب أمكنة السفارات المضبوطة، وتبديل الشرطة الذين يقومون بالحراسة وعلو جدران السور، وانفراج بوّاباتها. كانوا يخبرونها ارتجالاً بأن هناك من يجب تهريبه، غالباً بواسطة مجهول يحاذيها في الشارع، تفترض أن ميجيل أرسله. كانت تذهب في وضح النهار إلى المكان المتّفق عليه، حتى إذا رأت من يشير لها، وقد نبّهه التويجان الأصفران المرسومان على السيارة، وقفت وقفة صغيرة كي تمكّنه من الصعود سريعاً. كانا لايتبادلان في الطريق أيّ حديث، لأنّها كانت تفضّل ألّا تعرف حتى اسمه. كانت تضطر أحياناً لقضاء النهار برفقته، بل إخفائه ليلة أو ليلتين قبل إيجاد اللحظة المناسبة لإدخاله سفارة ممكن دخولها من وراء ظهر الحرس. كانت هذه الطريقة تبدو ملائمة أكثر من المساعي لدى مطلقي الصلاحية من الديموقراطيات الأجنبية الوجلين. لم تكن تسمع يوماً ثانية عن اللاجئ، لكنّها كانت تحفظ أبداً ذكرى عرفانه الجميل الراجف، حتى إذا انتهى كل شيء، تنفّست، عزاء؛ هذه المرّة أيضاً، خرجت سالمة. أحياناً كان تقوم بالشيء نفسه عند النساء اللائي كنّ يرفضن الإنفصال عن أبنائهن ويذهب عبثاً وعدها بإرسال الأولاد بالطرق العاديّة، حتى إذا لم يجد أجبن السفراء مايعترض عليه، كانت الأمهات تمتنع عن أن تخلّفهم وراءها، حتّى لتكره في النهاية على رمي الصغار من فوق السور أو تنزلهم على طول حديد البوّابة. وبعد بعض الوقت، أحيطت كل السفارات بالأسلاك الشائكة والرشاشات وبات من غير الممكن التفكير بدخولها، لكن واجبات أخرى جاءت من جديد تشغل ألبا.

أماندا هي التي أوجدت الصلة بينها وبين الخوارنة. كانت تلتقي الصديقتان كي تتكلما بصوتٍ منخفض عن ميجيل الذي لم تره أيّة منهما، ومن أجل تذكّر جيم في حنين بلا دموع، لأنّه لايوجد دليل رسمي على موته، وكانت رغبتهما المشتركة في رؤيته أقوى من رواية الجندي. وعادت أماندا

مقهورةً إلى التدخّين، وارتجفت يداها كورق، وقرئ الضلال في نظرتها. كان بؤبؤاها يتّسعان أحياناً، وتفتر حركاتها، ولو أن ذلك لم يمنعها من الاستمرار بالعمل في المشفى. روت لألبا إنه قد حدث لها كثيراً أن تعالج أناساً جيء بهم وهم نصف موتى من الجوع.

ـ عائلات السجناء، الموتى والمفقودين ليس عندهم مايأكلون. وكذلك الذين طردوا من عملهم. صحن نقيع حبوب كل يومين أو مايكادون. الأطفال مصابون بسوء التغذية، في المدرسة يغمى عليهم على مقاعدهم.

وأضافت أنّ كأس الحليب والبسكويت التي كانت تقدّم يوميّاً للتلميذ حتّى الآن حذفت والأمّهات يهدّئن جوع صغارهن بأن يسقينهم النقوع.

وشرحت أماندا قائلاً: «الوحيدون الذين يساعدون الناس هم الخوارنة، الآخرون لايريدون أن يعرفوا الحقيقة. أقامت الكنيسة شوربات شعبية تضمن صحن غذاء يومي لمن هم أدنى من سبع سنين، ست مرّات في الأسبوع. وهذا غير كاف طبعاً. مقابل كلّ طفل له الحق يوميّاً بصحن عدس أو بطاطا، يوجد خمسة يبقون خارجاً ينظرون، لأنّه لايكفي للجميع.

وأدركت ألبا أنّها رجعت إلى الزمن الماضي، حيث كانت جدّتها تذهب إلى حيّ الإحسان فتتلافى نقص العدل بالصدقة. غير أنّ الإحسان تنظر إليه اليوم نظرة سيئة. ولقد لمست ذلك عندما دارت على أصدقائها تستجدي رزمة أرز، أو علبة حليب بودرة، في المرّة الأولى لم يجرؤوا على الرفض، ثم طردوها. في البدء، ساعدتها بيانكا. ولم تجد ألبا صعوبة في الحصول على مفتاح مستودع أمها بأن لقنتها بألا حاجة لاحتكار الطحين من أحسن نوع وفاصوليا تقهر الجوع، حين نستطيع أن نأكل سلطعون البلطيق والشكولاتة السويسريّة، حتى تمكنت من تموين مطاعم الخوارنة مدة من الزمن ظهرت لها على كلّ حال قصيرة. وفي أحد الأيام أخذت أمها إلى إحدى تلك الشوربات الشعبيّة. عند رؤية الطاولة الطويلة من خشب مسحوجٍ وقد جلس صفان من الأطفال عيونهم ضارعة تنتظر أن تصبّ لهم حصصهم، أخذت بيانكا تبكي وركضت إلى سريرها فبقيت فيه يومين تكابد صداعاً قويّاً. وكانت تمضي في نحيبها على

حظها نفسه لولا أنّ ابنتها أجبرتها على أن تلبس، وأن تنسى نفسها قليلاً وأن تبحث عن المساعدة، ولو أدّى ذلك إلى غشّ الجدّ، على الميزانيّة العائليّة. ولم يشأ الشيخ ترويبيا، مثله مثل بشر طبقته، أن يسمع كلاماً عن مثل هذه المسائل، ولقد دحض الجوع بالحسم نفسه الذي أنكر فيه السجناء والتعذيب؛ وهكذا لم تستطع ألبا أن تعتمد عليه، كما لم تستطع فيما بعد أن تعمد أكثر على أمّها، كان عليها أن تلجأ إلى وسائل أكثر وقعاً. وأخذ الجدّ لايذهب أبعد من ناديه. ولايرود المركز، ويجازف أقلّ بالاقتراب من الأرباض أو من بيوت الصفيح في ظاهر المدينة. وماكان يكلّفه شيئاً التفكير بأن الآلام التي تُحدثه عنها حفيدته ليست سوى أكاذيب ماركسيين.

صاح: «خوارنة شيوعيون، أما كان ينقص غير هذا!».

مع ذلك لما بدأت تأتي في كل ساعات النهار نساء وأطفال يتسوّلون من باب إلى باب، لم يأمر بإغلاق البوابة أو المغاليق، مثل الآخرين، وإنّما زاد في شهريّة بيانكا وطلب أن يوجد دائماً في البيت شيء ساخن كي يقدموه لهم للأكل.

وأكد قائلاً: «ليس هذا إلا مؤقتاً. سوف تسوّى هذه المعضلة، عندما يعيد العسكريون النظام إلى الفوضى التي تركت الماركسية فيها البلاد».

وأكدت الصحافة أن الشحاذين الذين يعدون في الشوارع، والذين لم يُر لهم أثرٌ منذ عديد السنين، قد أرسلتهم الشيوعية الدولية كي تفقد اللجنة الحاكمة اعتبارها، وتخرّب النظام والتقدّم. وأقيمت حواجز خصصت لإخفاء الأحياء الفقيرة عن عيون السّياح والذين لايريدون أن يروا شيئاً. وفي مدى ليلة، كما في السحر، انبثق على طول الشوارع تزيين من بساتين وكتل أزهار زرعها العاطلون عن العمل كي تخلق وهم ربيع هادئ. وصبغ كلّ شيء باللون الأبيض. فغطّى حمائم المعركة في الجدرانيات، وحذفوا نهائياً عن النظر الملصقات السياسيّة. وكانت تعاقب كلّ محاولة كتابة سياسيّة على الطريق العام برّشة رشيش حالاً. وحين ارتدّت الطرق إلى النظافة والنظام والصمت فتحت للتجارة. وبلا شيء من الزمن اختفى الشحّاذون الصغار ولاحظت ألبا

أنّ أحداً لايرى علب نفايات مبعثرة أو قططاً ضالّة. وانتهى السوق الأسود هو وقصف القصر الرئاسي في الوقت نفسه، لأن المضاربين هدّدوا بالقانون العرفّي وفصيل الإعدام. ووضعت في المخازن للبيع أشياء لاتعرف أسماؤها، وأشياء أخرى لايستطيع شراءها منذ زمن إلا أغنياء التهريب. ولم تكن المدينة يوماً على مثل هذا الجمال. ولم تحسّ البورجوازية لحظة أنّها صارت على مثل هذه الحال الحسنة: بات ممكناً دفع ثمن الويسكي دهاقاً وشراء سيارات بالتقسيط.

وذهبت النساء، في غبطة الأيّام الأولى كي يتبرعن بحليهن في الثكنات من أجل إعادة بناء الوطن، بما في ذلك خواتم الزواج يبدّلنها بحلقات نحاس عليها شعار الوطن. واضطرت بيانكا لأن تخفي جراب الصوف الذي يحوي مجوهرات كلارا كي تتفادى أن يقدّمها الشيخ تروييبا للسلطات. وشوهد ظهور طبقة، مليئة بالوقاحة. كانت سيدات شهيرات جداً، يرتدين زينات أتت من الخارج، غربيات ومتألّقات مثل حباحب، يتبخترن في أرقى أمكنة اللذة على أذرعة اقتصاديين جدد امتلؤوا عجرفة، وانبثقت طبقة من العسكريين شغلت سريعاً المراكز الهامّة. وأخذت العائلات التي كانت حتى الآن تعتبر وجود جندي فيها عاهة، تتنافس من أجل التوصيات كي تجعل أحد سلالتها في مدارس أركان الحرب وتقدّم بناتها للعسكر. وامتلأت البلاد بأناس يرتدون البزة، وآلات الحرب، والأعلام، والأناشيد والإستعراضات، لأن العسكريين لم يكونوا يجهلون إلى أية درجة يظمأ الشعب للطقوس والرموز. ومنهم الشيخ تروييبا، وهو الذي كان يكره هذه الحيل عن مبدأ، ماكان يريد قوله أحد أصدقائه في النادي عندما كان يؤكد أنّ الماركسية ليس لها أدنى حظ في التأصّل بأمريكا اللاتينيّة، لأنها لاتعنى كثيراً بجانب الأشياء السحريّة، «الخبز، والألعاب، شيء يعبد: هذا ماهم بحاجة إليه. إلى هكذا ختم الشيخ حديثه، وهو حزينٌ في داخله لنقصان الخبز».

ونظمت معركة تستهدف محو اسم الرئيس السابق الجميل عن وجه الكرة، أملاً في أن تنقطع الأمّة عن البكاء عليه، فتحوا بيته ودعوا الناس لزيارة مادعوه «بقصر الديكتاتور». كان للناس الحق في البحث في خزائنه، وأن

ينذهلوا من عدد ونوع ستره من جلد الوعل، وأن يجردوا محتوى أدراجه، وأن يقلّبوا في خزانة أكله كي يجدوا الروم الكوبيّ، وكيس السكر، المخبئين فيها. ووزّعوا صوراً، تزويرها فظّ، تظهره متنكّراً في زي باخوس. وعلى رأسه إكليل من عناقيد العنب، وهو يلهو بين بغايا ثريّات وأبولونات من الجنس نفسه في قصف لاهدنة فيه ولاحدّ له، لكن أحداً لم يؤمن بصدقها، حتى الشيخ تروييبا نفسه.. جمجم قائلاً عندما وصله النبأ: «هذه المرّة، هذا كثير، لقد جاوزوا الحدّ».

وبشحطة ريشة، قلب العسكريون التاريخ الكوني فشطبوا الوقائع، والإيديولوجيات والشخصيّات التي لايقبلها النظام. ونقّحوا الخرائط، لأنّه لم يكن هنالك من سبب لوضع الشمال في الأعلى، بعيداً هكذا عن قلب الوطن الفصيح، مع أنّه كان بالإمكان وضعه في الأسفل، حيث يفضّل أن يكون، ولوّنوا بالأزرق البروسي أجزاء واسعة من المياه الإقليمية حتى تخوم آسيا وأفريقيا، وضموا في الكتب الموجزة مناطق بعيدة، وغيّروا الحدود من دون وازع، وأكثروا حتى عيل صبر البلدان الأخوة، فأرسلت صيحات نسور إلى الأمم المتحدة وهدّدت بأن تهاجم بطيرانها المقاتل ودبابات هجومها. والرقابة، التي كانت لاتطال في البدء إلا وسائل الإعلام، امتدت بعد قليل إلى الكتب المدرسيّة، وكلمات الأغاني، وسيناريوات الأفلام والأحاديث الخاصة. كانت هناك كلمات ممنوعة بمرسوم من السلطات العسكرية، مثل «رفيق»، وأخريات يمتنع الناس عن لفظها احتياطاً، ولو أن أيّ مرسوم لم يلغها من القاموس، مثل «حريّة» و«عدالة» و«نقابة» وتساءلت ألبا من أين خرج بين يوم وغده هذا العدد الكبير من الفاشيين الذي لم يوجد لهم أثر عبر رحلة الديموقراطية في البلاد كلها، ماعدا بعض المهووسين خلال الحرب الذين كانوا، عن سعدنة، يتزيّنون بقصمان سوداء ويعرضون وقد مدّوا ذراعاً بين ضحك المارين وهزئهم، دون أن يلعبوا أيّ دورٍ هام في الحياة الوطنيّة. لم تستطع أن تفسّر أكثر من ذلك، موقف القوات المسلّحة التي انبثقت، أكثريّتها الكبرى، من الطبقات الوسطى والطبقة العاملة، والتي كانت توجد دائماً تاريخيّاً أقرب إلى اليسار منها إلى اليمين المتطرّف.

لم تكن تفهم حرب البلاد تلك على نفسها، وأن الحرب هي بالدقة رائعة الفنّ العسكريّ، وهدف كلّ تدريبهم، وتتويج حرفتهم. إنّهم لم يجعلوا كي يلمعوا في زمن السلم، وقد منحهم الإنقلاب فرصة وضع كل ماعلموهم في الثكنات موضع التطبيق: الطاعة العمياء، واستعمال السلاح، ومن بين المهارات تلك التي يتقنها الجندي شريطة أن يسكت تأنيب القلب.

وتركت ألبا دراستها مضطرة لأن كلية الفلسفة أغلقت أبوابها كعديد من تلك التي لها علاقة بالفكر. وانقطعت أيضاً عن عزف الموسيقى: في مثل تلك الأحوال، بدت الفيولونسيل عبثاً شديداً. أساتذة كثر طردوا، أو أوقفوا، أو اعتبروا مفقودين تبعاً لقائمة سوداء أعدّها البوليس السياسيّ. وذبح سيباستيان جوميز، الذي وشى به تلاميذه من أوّل موجة قمع. وطعّمت الجامعة بالجواسيس.

كانت البورجوازية العليا، ورجال الأعمال اليمينيون، من ساعدوا الانتفاضة، يميدون من فرحهم. في البدء، لما أخذوا يرون نتائج أعمالهم، خافوا قليلاً، لأنهم لم يكتب لهم أن يعيشوا أبداً في الديكتاتورية، وكانوا يجهلون كيف تكون. قالوا في أنفسهم إن غياب الديموقراطية لن يكون إلا انتقاليّاً وإنّه بوسعهم أن يعيشوا بعض الوقت من دون حرّيات شخصيّة أو جماعيّة، مادام النظام يحترم حريّة المقاولات. وقليلاً ماكان يهمهم فقدان اعتبارهم العالمي الذي وضعهم في صفّ حكومات الطغيان نفسه من جنوب القارة، فالثمن، بعينهم، قليل أمام اجتثاث الماركسيّة. وعندما قدمت رؤوس أموال أجنبية كي توظف توظيفاً تجارياً، فسّروا ذلك بديهيّاً بثبات النظام الجديد، ناسين واقعة أنّ مقابل كلّ بيزو يدخل البلاد يرحل اثنان على صورة فوائد. وعندما أوقفت الصناعات الوطنية، واحدة بعد الأخرى، نشاطاتها وأخذ التجّار يفلسون، بعد أن سحقتهم الواردات الضخمة من مواد الاستهلاك، تذرعوا بأن مواقد الطبخ البرازيلية، وأنسجة فورموزا والموتوسيكلات اليابانية هي أفضل مائة مرّة من كلّ ماصنعته البلاد حقاً. فقط في اليوم الذي وجب فيه إعادة الإمتيازات المنجمية

إلى الشركات الشمال أمريكية، بعد ثلاثة أعوام من التأميم، ارتفعت بعض الأصوات المنعزلة أنّ هذا معناه تقدمة الوطن هديّة ملفوفة بورق من حرير. لكن عندما عمدوا إلى إرجاع الأراضي التي وزّعها الإصلاح الزراعي إلى أصحابها القدماء، ارتاح كلٌّ منهم: إنه زمن السعادة من جديد. كان لديهم متسع من الوقت كي يكتشفوا أن الديكتاتوريّة وحدها تستطيع أن تعمل بكلّ الوزن الذي تمنحها إياه القوة، دون أن تقدم حساباً لأحد، كي تضمن امتيازاتهم الخاصّة، حتى أنّهم عزفوا عن الحديث في السياسة وارتضوا بألّا يقبضوا إلّا على السلطة الاقتصادية، فيما يحكم العسكريون. والمهمة الوحيدة التي اختصّ بها اليمين هي نصحهم حين إعداد التشريع الجديد. وفي مدى بعض أيام ألغيت النقابات، وأوقف أو قتل قادة العمال، وعلّقت الأحزاب السياسيّة لمدة غير محدودة، وحلت كلٌّ منظمات العمال والطلاب. وكذلك الجمعيّات المهنية المحض. كلّ تجمع بات ممنوعاً. صارت الكنيسة هي المكان الوحيد الذي يستطيع الناس الإجتماع فيه، حتى لقد غدا الذين في فترة وجيزة، على الطراز الجديد، واضطر الخوارنة والراهبات إلى ردّ واجباتهم الروحية إلى المستوى الثاني كي يتداركوا الضرورات الأرضية لهذا القطيع الضائع. وأخذت الحكومة وأرباب العمل يريان فيهم خصوم النظام الكامنين، وفكّر بعضهم بحلّ المسألة باغتيال الكردينال، لأن البابا رفض من روما أن يطرده من مركزه أو ينقله إلى ملجأ للرهبان المعتوهين.

ولقد فرح جزء كبير من الطبقات الوسطى بالانقلاب العسكريّ، لأنّه يعني العودة إلى النظام، وإلى صرامة التقاليد، والنساء بالخرّاطات والرجال بالشعر القصير، لكنّه ما لبث أن شكا من آثار ارتفاع الأسعار، والاستخدام المحدود لليد العاملة. بات الربح لايكفي للغذاء. ومامن عائلة إلا وتبكي واحداً منها دون أن يستطاع الزعم كما في البدء، أنه إذا كان موقوفاً، أو منفيّاً، أو ميتاً، فإنما هو الذي أراد ذلك لنفسه. ولم تستطيع أيضاً الاستمرار بإنكار التعذّيب.

وبينما كانت تجارة الكماليّات تزدهر، وجمعيات توظيف الأموال العجائبية، والمطاعم الغربية وشركات الإستيراد والتصدير، كان العاطلون عن

العمل يقفون رتلاً على باب المعامل، آملين أن يتاح لهم الحظ باستخدامهم بأجرٍ بخسٍ. وتدهورت اليد العاملة إلى مرتبة العبوديّة، وللمرة الأولى من عشرات السنين، استطاع أرباب العمل تسريح العمال على هواهم، دون أن يدفعوا لهم أيّ تعويض، وكبتهم عند أدنى اعتراض.

في الأشهر الأولى، كشف الشيخ تروييبا عن انتهازيّة بقيّة طبقته نفسها. كان مقتنعاً بألا غنى عن فترة من الديكتاتوريّة كي ترشُد البلاد وأنّه هو ماكان ينبغي له أن يتخلّى. ولقد كان من أوّل الفلّاحين الذين استعادوا أملاكهم. ولقد أعيدت له الماريّات الثلاث خراباً، لكن أعيدت كاملة حتى آخر سانتي آر. وقد انقضى عليه عامان إلا قليلاً وهو يجتر غضبه بانتظار تلك الساعة. ومن دون أن يفكّر بالأمر مرتين انطلق إلى البرّية ومعه نصف دزينة من الفتوات المحترفين فاستطاع أن ينتقم ماطاب له من الفلّاحين الذي تجرؤوا وتحدّوه وانتزعوا ملكه. وصلوا إلى هناك في صباح مشمس، قليلاً قبل الميلاد. ففاجأوا الملكيّة في صياح قراصنة. واندفع قطاع الطرق إلى كل مكان، فذعر كلّ الناس من صراخهم، وضرب أقدامهم وقبضاتهم، وجمعوا الحيوانات والناس في الباحة ورشوا بالبنزين، بيوت القرميد، التي كانت فخر تروييبا الماضي، وأولعوا فيها النار بكل ماتحويه. وقتلوا الحيوانات رمياً بالرصاص، وأحرقوا المحاريث، وأخمام الدجاج، والدراجات، بل وأسرّة الأطفال، في ضوضاء عارمة كادت تودي بالعجوز تروييبا فرحاً وطرد المزارعين وأنذرهم أنه إذا رآهم يرودون حول الملكية، فإنهم يلقون مصير الحيوانات نفسه. ورآهم يرحلون، وهم أفقر من أيّ وقت مضى عليهم، في كتيبة طويلة وبائسة، أخذت معها العجائز والأطفال، وماندر من كلاب نجت من الرصاص، وبعض دجاجات فرّت من الجحيم، وهم يجرّون أقدامهم على ذاك الطريق الأغبر الذي يبعدهم عن الأرض التي عاشوا فيها جيلاً بعد جيل. أمام بوّابة الماريّات الثلاث كانت تقف جماعة من المعدمين تنتظر بعيون شرهة. كانوا فلاحين آخرين دون عمل، طردوا من ملكيّات أخرى، جاءوا بتواضع أجدادهم لقرونٍ خلت يضرعون إلى السيّد أن يستخدمهم من أجل الموسم القادم.

ذلك المساء تمدّد إيستيبان تروييبا على السرير المعدني الذي كان لذويه، في بيت السيّد القديم ذاك الذي لم يضع فيه قدمه منذ زمن طويل. كان متعباً ومازالت في أنفه رائحة الحريق، وجثث الحيوانات التي وجب حرقها أيضاً كي يمنع تحللها من إنتان الجوّ لكنّه كان يعرف أنّه أهل لأن ينهض من جديد بالملكيّة كما فعل من قبل: كانت الحقول بكراً، وكذلك قواه. وبالرغم من اللذة التي جناها من انتقامه، لم يستطع أن ينام. كان يحسّ كأنّه أبٌ عاقب أبناءه بما ينوؤون به من قسوة. لقد رأى الليل بطوله، وجوه أولئك الفلاحين الذين شهد ميلادهم على أراضيه، وهم يبتعدون على طول الطريق. ولعن طبعه السيء. ولم يستطع أن يطبق عينه بقية الأسبوع، وعندما استطاع أن يجد النوم أخيراً، حلم بروزا. وقرر ألا يكلّم أحداً عمّا فعل وأقسم أن يعيد الماريّات الثلاث كما كانت من قبل، الاستثمار النموذج. وأشاع خبراً أنه مستعد لإرجاع المزارعين الذين يرغبون في العودة، مع بعض الشروط طبعاً. لكنّ أحداً منهم لم يظهر. لقد تبعثروا عبر البريّة، والتلال، وعلى طول الشاطئ، وبعض ذهب على قدميه حتى المراكز المنجميّة، وبعض حتى جزر أقصى الجنوب، وكلهم يبحث عن جني خبز العائلة في أول شغل يجده. أما السيد فقد رجع إلى المدينة قريباً، شاعراً أنه أعجز من أي وقت مضى، وروحه معذّبة.

كان الشاعر ينازع في بيته على شاطئ البحر. كان مريضاً وأخذت الأحداث الأخيرة معها رغبته في العيش زمناً أطول. هاجم العسكر مسكنه، وقلبوا عاليه سافله مجموعات حراشفه وأصدافه، وفراشاته، وزجاجاته، وتماثيله الموجودة على مقدّمة سفينة صفعها ألف مدّ وجزر، وكتبه، ولوحاته، وقصائده التي ما انتهت بعد، وهم يبحثون عن أسلحة عصيان، عن ترسانة شيوعية مخبأة هناك، وألحوا حتى أخذ قلبه، قلب الشاعر الملحمي يتلجلج. نزّحوه إلى العاصمة. مات بعد أربعة أيّام، وكانت آخر كلمات الرجل الذي كم غنّى الحياة: «سوف يعدمونهم! سوف يعدمونهم جميعاً!» لم يستطع أحد من أصدقائه أن يقترب منه في ساعة الموت، فقد كانوا جميعاً خارجين على القانون، أو فارّين، أو منفيين، أو موتى. بيته الأزرق على الرأس كان نصف

مهدّم، واحترق خشب أرضه، وحطّم زجاجه، ولايدري إن كان ذاك عمل العسكريين، كما قال الجيران، أم عمل الجيران، كما قال العسكريون، وسهر عليه فيه النادرون الذين تجرّأوا فغامروا حتى هناك، وكذلك صحفيّو القارّات الخمس الذين أسرعوا كي يتنبؤوا عن جنازته. ولقد كان الشيخ تروييبا خصمه إيديولوجياً، لكنّه استقبله في بيته مرّاتٍ عديدة، وكان يحفظ شعره عن ظهر قلبه. وحضر السهرة، يلبس سواداً صارماً، ورافقته حفيدته. ووقف كلاهما استعداداً قرب النعش الخشبيّ المتواضع، ثم رافقاه حتى المقبرة في صبيحة مكفهرّة. كانت ألبا تحمل بيدها باقة من أوائل قرنفل الموسم، حمراء كالدم. وقطع الموكب الصغير بخطى وئيدة الطريق الذي يؤدي إلى المقبرة بين صفين من الجنود صفّوا صفّاً على طول الطريق.

كان مصور التلفزيون السويدي غير بعيد عن ألبا وجدّها يصوّر فيلماً مؤجلاً، مخصصاً لوطن نوبل المتجلّد، عن مشهد الرشيشات المخيف وهي مصوّبة من جهتي الطريق إلى أوجه الناس، والنعش المغطّى بالزهور، وجماعة النساء الصامتة الصغيرة، وهنّ يتزاحمن على أبواب معرض الجثث، قيد خطوتين من المقبرة، كي يطلّعن على قائمة الموتى. عندها ارتفع نشيد جماعي ملأ الهواء بالشعارات الممنوعة، معلناً أنَّ الشعب لن يقهر أبداً، متحدّياً الأسلحة التي كانت ترتجف بين أيدي الجنود. ومرّ الموكب من أمام بناء يبنى، فترك العمال أدواتهم، ورفعوا خوذاتهم واصطفّوا على طريق الموكب، ورؤوسهم مهطعة. وكان رجل يمشي يرتدي قميصاً اهترأ عند القبضة، دون صدريّة، حذاؤه مثقوب، وهو يردّد أكثر أبيات الشاعر ثوريّة وقد غطّت وجهه الدموع. تأمّله الشيخ تروييبا الذي كان يسير قريباً منه، بهيئةٍ ذاهلةٍ.

ـ خسارة أنه كان شيوعيّاً! قالها الشيخ تروييبا لحفيدته. شاعر عظيم، وأفكار هكذا مختلطة! لو أنّه مات قبل وصول العسكريين إلى الحكم، أراهن أنّه كان يحق له مأتمٌ وطنيٌّ.

أجابت ألبا: «لقد عرف كيف يموت، كما عرف كيف يعيش، يا جدّي».

كانت تعرف أنّه مات في ساعته، لأنّه ما كان يمكن له أن يتلّقى احتراماً أكبر من هذا الموكب المتواضع من بعض الرجال وبعض النساء جاءوا يدفنونه في قبرٍ مؤقت، وهم يصيحون للمرّة الأخيرة بأبياته إلى العدالة وإلى الحريّة. وبعد ثمانٍ وأربعين ساعة صدر بلاغ في الصحافة عن اللجنة الحاكمة يرسم الحداد الوطني لذكرى الشاعر ويسمح للخواص الذين يريدون أن ينكسوا أعلامهم. وما كان يصلح هذا السماح إلا من ساعة الوفاة حتى يوم نشر البلاغ.

وكما أن ألبا لم تستطع أن تجلس كي تبكي موت خالها جيم، فهي لم تتمكن من أن تسمح لنفسها بالضياع بالتفكير بميجيل أو الأسف للشاعر. كان استغراقها بالبحث عن المؤون لشوربات الخوارنة الشعبية، لا يبيح لها الإستعلام عن الذين اختفوا، أو تعزية المعذبّين الذين يرجعون وظهورهم محطّمة وعيونهم مقلوبة. لكنّها في صمت الليل حين تتحوّل المدينة عن طبيعتها النفعيّة و سلام الأوبريت، كانت تحسّ أنّها تقتحمها الأفكار المعذّبة التي استطاعت أن تسكتها خلال النهار. في تلك الساعة، وحدها الشاحنات الملأى بالجثث والموقوفين وسيارات البوليس كانت تجوب الشوارع كذئاب رحّالةٍ تزعق بالموت في ظلمات منع التجوّل. وكانت ألبا ترتجف في سريرها. كانت تظهر لها الأشباح الممزّقة لعديدٍ من الموتى المجهولين، وكانت تسمع البيت الكبير يتنفّس كعجوز مجهدة، وكانت تمدّ أذنها فتجلّدها الأصوات الفظيعة حتّى مخّ العظم: ضربة كابحٍ في البعيد، صفقة بوّابة، طلقات نارية، دعس أبواط، صرخة صماء. ثم ينسدل الصمت العظيم الذي يمتدّ حتى الفجر، عندما تعاود المدينة الحياة وتبدو الشمس وقد تبدّد رعب الليل. لم تكن وحدها التي لاتنام في البيت. وغالباً ماكانت تجد جدّها في قميص النوم والشحاطة، أشدّ كآبة وعجزاً مما في النهار، وهو يسخّن قصعة من حساء ويجمجم بشتائم قرصان للألم الذي يطحن العظام والروح في الوقت نفسه. وكانت أمّها أيضاً تروح وتغدو في المطبخ وتخطر بين الغرف الفارغة كشبح عند دقاق نصف الليل الاثني عشرة.

وهكذا تتالت الشهور وبات واضحاً في عيون الجميع، حتى عيني الشيخ

ترويبا، أن العسكريين استولوا على السلطة كي يحتفظوا بها لا لوضع الحكومة بين يدي سياسيي اليمين الذين مهدوا للانقلاب. كانوا يؤلفون عرقاً خاصاً، كلهم إخوة فيما بينهم، يتكلمون اللغة المتميزة عن لغة المدنيين نفسها، وكل تبادل معهم كان يتحوّل إلى حوار طرشان، وكانوا يعتبرون أي افتراق خيانة حسب قوانين اصطلاحاتهم عن الشرف القاسية. وفهم توربيبا أن مشاريعهم المسيحية لا تدع أي مكان للسياسيين. ولقد استفاض، يوماً، في نقد الوضع برفقة ألبا وبيانكا، وأسف أن عمل العسكريين، كان يستهدف تلافي خطر ديكتاتورية ماركسية، فأسلم البلاد إلى ديكتاتورية أقسى، ويبدو أنه مقدر لها البقاء قرناً. واعترف الشيخ ترويبا لأول مرة في حياته أنه أخطأ. ورأتاه يبكي، وقد تقوقع في مقعده كعجوز صغير على طرف نهايته. وماكان يبكي ضياع السلطة. بل كان يبكي بلاده.

عندها ركعت بيانكا إلى جانبه، وأخذت يده واعترفت له، بأن بيدرو الثالث جارسيا يعيش، بفضلها، كناسك، مختبئاً في إحدى الغرف الملغاة التي فرشتها كلارا في زمن الأرواح. ولقد أذيعت بعد الإنقلاب قائمة أشخاص وجب أن يتقدموا للسلطات. وكان فيها اسم بيدرو الثالث جارسيا. بعض الناس ثابروا على التفكير بأنّهم يعيشون في بلاد لا يحدث فيها شيء أبداً، فذهبوا خفافاً إلى وزارة الدفاع، ودفعوا حياتهم ثمناً، أما من جهة بيدرو الثالث، فقد حدس قبل الآخرين بزمن توحّش النظام الجديد، في تلك الليلة، خلال منع التجوّل جرّ نفسه حتى بيت الزاوية الكبير وطرق نافذة بيانكا. ولما انحنت هذه على بلكونها، وقد اضطرب نظرها من الصداع، لم تتعرف عليه لأنه حلق ذقنه ولبس نظارة.

قال بيدرو الثالث: «قتلوا الرئيس».

أخفته في الغرف المهجورة. ورتبت له ملجأ مؤقتاً، دون أن تتوقع أن يجب أن تبقيه فيها عدة شهور، أن كل الوقت الذي لاحقته فيه القوات ومشطت البلاد بمشطٍ دقيق.

كانت بيانكا تقول في نفسها أنّ أحداً لن تأتيه الفكرة أن بيدرو الثالث

جارسيا موجود تحت سقف الشيخ تروييبا في اللحظة نفسها التي كان فيها هذا واقفاً استعداداً يصغي لصلاة الشكر الجليلة التي قدمت في الكاتدرائية. تلك الفترة كانت أسعد مافي حياة بيانكا.

مع ذلك،كانت الساعات عنده تنقضي في بطء كما لو كان سجيناً. كان يقضي يومه كله بين جدران أربعة، والباب مقفل بالمفتاح كي لا يخطر لأحد الدخول من أجل التنظيف، وكانت النافذة مغلقة هي ودرفتاها وستائرها. نور الشمس ماكان يدخل أبداً، لكنّه كان يستطيع اكتشافه من التغيرات الدقيقة بين خصائص المغالق. في الليل، كان يفتح النافذة على عرضها كي يهوّي الغرفة ـ وقد اضطر للإحتفاظ بدلوٍ صحي لقضاء حاجاته ـ ويتنفس جرعات كبيرة من هواء الحرية. كان يقتل الوقت بقرَاءة كتب جيم التي تاتيه بها بيانكا سرّاً، ويصغي إلى ضجة الشارع، ودمدمة الراديو في أضعف قوة له. ودبّرت له بياناكا قيثارة، جهزها تحت الأوتار بنتف غسيل كي لا يسمعه أحد وهو يؤلف خفية ألحان الأرامل والأيتام والموقوفين والمختفين. وجرّب أن ينفذ توقيتاً منهجياً يستهدف ملء أيامه: كان يقوم بالرياضة، يقرأ، يدرس الإنكليزية، ثم يقيل، ويؤلف موسيقى، ثم يقوم أيضاً بالرياضة، لكنه يبقى ساعات لاتنتهي من الفراغ قبل أن يسمع المفتاح يدور في القفل ويرى بيانكا تدخل وهي تحمل له الجرائد، وأكله وماءً نظيفاً لزينته. كانا يتحابّان في غيظ، يبتدعان أوضاعاً جديدة بقدر ماهي محرّمة يحولها الخوف والهوى إلى اندفاع مهووس للسماء السابعة. ولقد كانت بيانكا قد قنعت بالطهارة، في عمرها الآيل للغروب وبعد عذاباتها العديدة لكن انتفاضة الحب هذه منحتها شباباً ثانياً. غدَا أكثرَ حيوية لمعان جلدها، وإيقاع مشيتها وغنّة صوتها. كانت تضحك ملء شدقيها وتمشي كما في حلم. لم تكن يوماً على هذا الجمال. وأدرك ذاك أبوها نفسه ورأى فيه نتيجة السلام بعد عودة الوفرة. «تبدو بيانكا بعد أن انقطعت عن وقفة الرتل، كأنهم صاغوها من جديد».

أعلن الشيخ تروييبا، ولاحظت ذلك ألبا أيضاً. وأخذت تترصّد أمّها فقد بدت لها تصرفاتها الغريبة مشكوكاً في أمرها، مثل هوسها الجديد في أن تأخذ

أكلاً إلى غرفتها. مرّات عديدة وعدت نفسها أن ستتجسّس عليها ليلاً، لكن كانت تستسلم لتعب أعمال المساعدة العديدة، حتى إذا استبدّ بها السهاد، كانت تخاف كثيراً من المغامرة في الغرف الخالية التي تنعق فيها الأشباح.

وأخذ بيدرو الثالث يبكي، وفقد حلو مزاجه وذاك اللطف اللذين كانا يميّزانه حتى هذه الفترة. كان يتضجّر ويلعن سجنه الإرادي، ويزأر من فراغ الصبر بانتظار أخبار أصدقائه. حضور بيانكا وحده كان يتوصّل إلى تهدئته. كانت إذا دخلت الغرفة، اندفع كي يطوّقها كممسوس علّه يطرد مخاوف النهار ورتابة الأسابيع. وأخذت ترهقه فكرة أنّه خائنٌ وجبانٌ لأنه لم يشارك الكثر الآخرين مصيرهم، وأن أشرف مخرج عنده هو أن يسلّم نفسه ويواجه قدره. وكانت بيانكا تستخدم أفضل حججها في محاولة ثنيه عن ذلك، لكنه كان يبدو أنّه لا يصغي لها. وكانت تجتهد في أن تبقيه بقوة الحب المستعاد، فكانت تزقّه الطعام، وتزينه بأن تدلكه بقماش مبلّل، وترشّه بالمسحوق كطفل، وتقصّ له شعره وأظافره وتحلق له ذقنه. وأخيراً وجب عليها أيضاً أن تضيف حبوباً مهدّئة إلى غذائه ومنوّمات إلى مائه كي تطرحه في نوم عميقٍ ومضطربٍ، ينهض منه وفمه جاف، وقلبه أشدّ حزناً من قبل. وأدركت بيانكا، بعد عدة شهور، أنّها لن تستطيع الاحتفاظ به سجيناً خالداً وأقلعت عن المشروع الذي وضعته في أن تضعف عقله وتجعل منه عاشقها الأبديّ. فهمت أنّه يموت قليلاً قليلاً، لأن الحريّة عنده أهمّ من الحب وأنّه لاتوجد حبوب عجائبية تستطيع أن تجعله يغيّر مؤهلاته.

ـ ساعدني يا أبي! سألت بيانكا الشيخ ترويبا بصوت ضارع يجب أن تجعله يترك البلاد.

وذهل العجوز حتى ظلّ دون ردة فعل وفهم كم نفدت وسائله حين فتش في داخله عن حقده وغضبه فما وجدهما في أيّ مكان. وفكر في هذا العلاج الذي بادل ابنته نفسه حبّاً من نصف قرن، ولم يتوصل إلى اكتشاف أيّ مبرر لكرهه، حتى ولا البونشو الذي له، ولاذقنه ذقن الاشتراكي، ولا رأسه رأس البغل، ولادجاجاته اللعينة التي تطارد الثعالب.

ـ يالله! يجب أن نضعه في مكان أمين، لأنّهم إذا وجدوه في هذا البيت فنحن الذين سيضايقون.

هذا كلّ ماوجد الشيخ كي يقول. وارتمت بيانكا على عنقه فغطّته قبلاً، وهي تبكي مثل بنت صغيرة. وتلك أوّل مداعبة تمنحها عفويّاً إلى أبيها منذ طفولتها الأولى.

قالت ألبا: «أقدر أن أدخله إلى سفارة. لكن يجب أن ننتظر اللحظة المناسبة ويجب عليه أن يعبر حائط السور».

أجاب الشيخ ترويبا قائلاً: «لاحاجة لذلك يا حفيدتي. مازال عندي أصدقاء ذوو مكانة في البلاد».

بعد ثمانية وأربعين ساعة فتح باب غرفة بيدرو الثالث جارسيا وبدلاً من بيانكا ظهر الشيخ ترويبا على العتبة. وظنّ الفار أن ساعته الأخيرة آذنت، وبطريقة ما، لم ييئس لذلك.

قال ترويبا: «جئت أخرجك من هنا».

سأل بيدرو الثالث: «لأيّ سبب؟»

أجاب ترويبا: «إنّها بيانكا التي طلبت منّي ذلك».

فتمتم بيدرو الثالث: «إذهب إلى الشيطان!».

ـ سوف نخرج، وتأتي معي، موافق؟

وابتسم الإثنان معاً في الوقت نفسه. وفي الباحة كانت تنتظر ليموزينة سفير شمالي مفضّضة. وضعوا بيدرو الثالث في صندوق السيارة الخلفي مطويّاً مثل طرد وغطّوه بأكياس مؤونة ملأى بالخضار. وركب في السيارة كل من بيانكا وألبا والشيخ ترويبا وصديقه السفير. وأخذهم السائق إلى القاصدية الرسولية، ومرّوا في طريقهم بحاجز شرطة لم يفكر بإيقافهم. كان الحرس مزدوجاً على باب القاصدّية، لكن لما تعرّفوا على الشيخ ترويبا ورأوا لوحة السيارة المعدنية، تركوهم يدخلون بسلام. بعد أن اجتازوا البوابة، وباتو في حرم بعثة الكرسي الرسولي، أخرجوا بيدرو الثالث من تحت جبل من أوراق الملفوف،

والبندورة المهروسة. وأخذوه إلى مكتب القاصد. كان هذا ينتظره وقد ارتدى جبّته الأسقفية، وفي تصرفه جواز مرور يلمع جديداً ويسمح بإرساله إلى الخارج برفقة بيانكا التي قرّرت أن تذهب فتعيش في المنفى ذلك الحب الذي تأجّل دون انقطاع من طفولتها. ورحّب القاصد بمقدمهم. فقد كان من معجبي بيدرو الثالث، يملك كلّ أسطواناته.

وبينما كان الحبر والسفير الشمالي يتحدثان عن الوضع العالمي، كانت العائلة تقوم بالوداع. كانت بيانكا وألبا تبكيان دون عزاء. كان أول انفصال لهما. وضمّ إيستيبان ترويبا طويلاً ابنته، دون دمعة، لكن فمه تغضّن، وارتجف جميعاً، واجتهد في أن يكبح نحيبه.

قال لها: «لم أكن أباً طيباً جداً لك يا ابنتي. ألا تعتقدين أنّك تستطيعين يوماً أن تسامحي وتنسي الماضي؟

ـ أحبك من كلّ قلبي يا بابا! وانتحبت بيانكا وهي ترتمي على عنقه، وتشدّ عليه حتى تكاد تخنقه، وتغطّيه قبلاً.

والتفت العجوز ناحية بيدرو الثالث ونظر إليه مباشرة في العينين. ومدّ له يده، لكنّه لم يعرف كيف يشدّ على يد الآخر التي تنقصها عدة أصابع. وعندها فتح ذراعيه وقال الرجلان لبعضهما وداعاً وارتبط كلاهما بالآخر، بعد أن تحرّرا من الأحقاد والضغائن التي لطّخت حياتهما سنين عديدةً.

قال بيدرو الثالث بصوت مكسور: «سوف أسهر على ابنتك وأجرّب أن أجعلها سعيدة».

وتمتم العجوز: «لاأشك بذلك. إذهبا بسلام يا ابنيّ».

كان يعرف أنّه لن يراهما أبداً.

بقي الشيخ ترويبا وحده في البيت مع حفيدته وجماعة من الخدم. آه هكذا اعتقد على الأقلّ. لكن ألبا قررت أن تتبنّى فكرة أمّها وأن تستخدم

القسم المهمل في البيت كي تخبئ أناساً فيه، مدة ليلة أو ليلتين، الوقت اللازم لإيجاد بعض مكان أكثر أمناً أو وسيلة لترحيلهم من البلاد. كانت تساعد أولئك الذين يعيشون في الظلّ ويفرّون في النهار، ويختلطون في صخب المدينة لكنّهم إذا هبط الليل، اضطروا أن يختبئوا في مكان مختلف. وكانت أخطر الساعات عليهم هي ساعات منع التجوّل، عندما لايستطيع الفارّون أن يخرجوا ويقطفهم البوليس على هواه. وقالت ألبا في نفسها إن بيت جدّها هو آخر مايأتون كي يقتحموا بابه. وحولت قليلاً قليلاً الغرف الفارغة إلى متاهة من زوايا سريّة تخفي فيها محميّيها وفي أحيان عائلات كاملة. أما الشيخ ترويبيا فما كان يشغل غير المكتبة وغرفة الحمام وغرفته الخاصّة. كان يعيش هناك يحيط به أثاثه الأكاجو وخزائنه الفكتورية وسجاداته الفارسيّة. كان في هذا البناء المظلم شيء ما مقلق، حتى عند رجل لايعنى أبداً بالحدس: كأنّه يؤوي بعض غولٍ مختبئ. وماكان ترويبيا يفهم منشأ ضيقه، لأنّه كان يعرف جيّداً أن الأصوات الغريبة، التي يقول الخدم إنّهم يسمعونها تأتي بالواقع من أن كلارا تقضي عطلتها في البيت برفقة أصدقائها من الأرواح. وكثيراً ما رأى على غير انتظار زوجته تخطو عبر الصالونات في جلبابها الأبيض، وضحكة المراهقة. كان يظهر أنّه لايراها، فلا يتحرك، ويحبس حتى نفسه، حتى لاتنفر. كان إذا أغمض عينيه، متظاهراً بالنوم، استطاع أن يحسّ بحفيف أصابعها الخفيف على جبينه، ونفسها الطريّ يمرّ كنسمة، ولمس شعرها في متناول يده. وماكان لديه من سبب للظن بوجود ماهو غير عادي، ولو أنّه يجتهد في ألّا يغامر في تلك المنطقة المسحورة، التي هي مملكة زوجته، وآخر حد لغزواته كانت منطقة المطبخ المحايدة. كانت طبّاخته العجوز قد رحلت: فقد قتل زوجها خطأً إبان إطلاق للرصاص، وابنها الوحيد، الذي كان يقوم بخدمته في قرية من الجنوب، شنق على عمود، ولُفَتْ أمعاؤه على رقبته، في ثأر شعبيّ لأنّه أطاع أوامر رؤسائه. وفقدت المرأة المسكينة عقلها وتعب ترويبيا من الشعر الذي كان يجده في طعامه وكانت هي تنتزعه في نحيبها الذي لا ينتهي، مما أفقده سريعاً صبره. وتدربت ألبا بعض الوقت على الطناجر بأن لجأت إلى كتاب وصفات، لكن

رغم حسن إدراتها انتهى تروييبا إلى أن يأكل كل مساء في النادي، كي يتناول في اليوم وجبة ملائمة على الأقل. وتوصّلت إلبا من ذلك إلى حرية أوسع في تهريبها للفارين وأمن أفضل، إذ كانت تستطيع إدخال وإخراج الناس قبل منع التجوّل دون أن يشك جدها بشيء.

وظهر ميغيل مرة ثانية. كانت راجعة إلى بيتها وقت قيلولة النهار لما برز وجاء للقائها. لقد بقي ينتظرها كامناً بين عوسج البستان. صبغ شعره بلون القشّ الأصفر وارتدى بزة دقيقة الخيط، لونها أزرق. كأنه مستخدم بنك سوقي، لكن ألبا عرفته حالاً ولم تستطع أن تخنق صرخة الفرح التي صعدت من أحشائها. وقبّلا بعضهما بعضاً في منتصف البستان، تحت نظر المارّين ومن شاء أن ينظر في هذا الاتجاه، حتى عاد إليهما عقلهما، وتحققا من الخطر، وقادته ألبا إلى داخل البيت، في غرفتها الخاصة، وتركا نفسيهما يسقطان على السرير، وذراعاهما وفخذاهما متشابكان، يدعو كل منهما الآخر بألقاب سريّة صغيرة كانا يستخدمانها في فترة القبو، وتحابّا في حنق إلى أن أحسّا أن الحياة هربت منهما، وانفجرت الروح، حتى لقد اضطرا أن يبقيا بعد ذلك دون حراك، يرصدان خفقان قلبيهما الداوي، إلى أن سكنا بعد قليل، وعندها وجدت ألبا الوقت كي تفحصه ورأت أنّها كانت تلهو مع مجهول تماماً، فهو ليس له شعر فايكنج[1] فحسب وإنما دون ذقن ميجيل، كما أنّه لايحمل نظارات الأستاذ، والذي كان أكثر نحولاً مما هو. همست في أذنه: «أنت شنيع!». لقد أصبح ميجيل أحد قادة حرب الأنصار، متمماً القدر الذي خطّه لنفسه منذ كان يافعاً. ولقد استجوب كثيرٌ من الرجال والنساء لمعرفة مكانه، لكن ماكانت ألبا تحسّ أنه يثقل على وجدانها كالرحى، لم يكن في عينيه هو، غير حلقة من أهوال الحرب، ولقد كان مستعداً لأن يعاني المصير نفسه إذا جاءت الساعة التي يغطّي فيها على آخرين. وخلال ذلك الوقت كان يناضل في الخفاء، أميناً لنظريته أن عنف المتسلّطين يجب أن يقاوم بالعنف الشعبيّ. وألبا التي تخيّلته

---

١ ـ النورماندييون.

آلاف المرات سجيناً أو مذبوحاً بطريقة فظيعة، كانت تبكي من فرحها بتذوّق رائحته، وبرغلة جلده، وصوته، وحرارته، ولمس يديه اللتينْ أصبحتا خشنتين من استعمال السلاح وعادة الزحف وهي تتأوه وتلعن وتعبده وتكرهه من كثرة آلامها التي تكدّست وترغب في موتها حالاً كي لاتضطر إلى احتمال غيابه من جديد.

ـ كان معك الحق يا ميجيل، تمّ كل شيء كما قلت أنت، اعترفت ألبا بذلك وهي تنتحب على كتفه:

وحدثته عن الأسلحة التي سرقتها من جدّها وخبأتها مع خالها جيم، وعرضت عليه أن تأخذه للإتيان بها. ولكم كانت تحب أن تعطيه تلك التي لم تستطع أن تختلسها وبقيت في المخزن، لكن، بعد أيّام الإنقلاب أعطي الأمر للسكان المدنيين بأن يسلّموا كلّ مايمكن اعتباره سلاحاً، بما في ذلك مدى الكشافين وسكاكين التلاميذ. وكان الناس يضعون رزمهم الصغيرة الملفوفة بورق الجرائد في أروقة الكنائس، لأنّهم لم يتجرؤوا على المغامرة بحملها إلى الثكنات، لكن الشيخ ترويبيا يملك أسلحة حربية، لم يشعر بأيّ خوف، على اعتبار أن ماعنده كان مخصّصاً لقتل الشيوعي، كما يعرف الجميع. تلفن لصديقه الجنرال هورتادو الذي عجّل فأرسل شاحنة من الجيش لأخذها. وقاد ترويبيا الجنود حتى غرفة السلاح واستطاع أن يتبيّن، وهو أخرس من الدهشة، أن نصف الصناديق ملئت حجارة وقشّاً، ولكنّه تأكّد أنّه إذا اعترف بهذا الاختفاء، فإنه سيورط أحد أفراد عائلته، كما أنّه سيقع في مشكلة هو نفسه. وقدّم أعذاراً عمّا لم يفكّر أحد أن يسأله عنها، كما أنّ الجنود لم يكن مفروضاً فيهم أن يعرفوا كمية السلاح التي اشترى. واتجهت ظنونه إلى بيانكا وبيدرو الثالث جارسيا، لكن وجنتي حفيدته القرمزيتين أيقظتا أيضاً ظنونه. وبعد أن حمل الجنود الصناديق، ووقعوا له وثيقة، أمسك ألبا من كتفيها وهزّها كما لم يهزّها يوماً، كي يجعلها تقول إذا كانت لها علاقة بالرشيشات والبنادق الناقصة. «لاتطلب مني أن أجيبك عما لاترغب في أن تسمعه، يا جدّي».

أجابت ألبا وهي تحدّق إلى عينيه. ولم يعودا بعدها إلى الموضوع.

قال ميجيل لألبا: «جدّك تعيس. سوف يوجد من يقتله كما يستحق».

أجابت ألبا: «سوف يموت على فراشه. بلغ من الكبر عتياً».

- من يقتل بالسيف، لايموت بضربة قبعة! ربما كنت أنا الذي سوف أذبحه يوماً.

فأجابت بلهجة قاسية: «لاسمح الله يا ميجيل، لأنّك تجبرني آنئذ على أن أفعل بك الشيء نفسه».

وشرح لها ميجيل أنهما لن يستطيعا أن يرى بعضهما بعضاً قبل مدّة طويلة، وربّما لن يستطيعا أبداً. وجرب أن يبين لها الخطر في أن تكون رفيقة جيريّيرو، حتى ولو كانت في حماية اسم جدّها، لكنّها بكت كثيراً وتعلقت به في قلق حتى اضطر لأن يعدها بأن يجد الوسيلة كي يتقابلا من وقت لآخر، ولو عرضا حياتيهما للخطر. ووافق أيضاً ميجيل على الذهاب معها كي يستردّا السلاح والذخيرة المدفونين في الجبل، لأن هذا هو الذي كان بأمس الحاجة إليه في معركته المتهوّرة.

تمتمت إلبا: «آمل أن لن نجد كومة من الحديد العتيق. ولاأستطيع تذكّر المكان الصحيح، لأنّه مضى على ذلك أكثر من عام».

وبعد أسبوعين، نظمت ألبا رحلةً لأطفال الشوربة الشعبيّة في شاحنة أعارها إياها خوارنة الخورنيّة. فحملت معها السلال التي تحوي العصرونية، وكيس برتقال ضخم، وكرات وقيثارة. وفي الطريق أخذت معها رجلاً أشقر، دون أن تثير انتباه أيّ من الأطفال. وجعلت ألبا الشاحنة الثقيلة وحملها من الأطفال تسلك الطريق الجبلي نفسه الذي سارت عليه من قبل مع خالها جيم. مرتين أوقفتهم الدوريّات، واضطرت لفتح سلال النزهة، لكن فرح الأطفال المعدي ومحتوى الأكياس البريء أبعدا ظنون الجنود. واستطاعوا الوصول دون صعوبات إلى المكان الذي خبئت فيه الأسلحة. ولعب الأطفال بالقط وبلعبة

الاستحياء. ونظم ميجيل معهم مباراة كرة قدم، ثم أجلسهم في دائرة وقصّ عليهم حكايات، ثم غنّوا عالياً، حتى فقدوا أصواتهم. ورسم بعد ذلك خريطة للمكان كي يعود إليه ورفاقه عندما يحجبهم الليل بظلّه. كانت نزهة ممتعة في البريّة استطاعا خلالها أن ينسيا ساعات ضغط حالة الحرب وأن يستفيدا من الشمس الجبلية الطريّة وهما يصغيان إلى صئي الصغار، وهم يركضون بين الصخور وقد امتلأت بطونهم للمرّة الأولى منذ شهور.

قالت ألبا: «أنا خائفة يا ميجيل. ترى هل نستطيع يوماً أن نعيش حياة طبيعية؟ لماذا لانسافر إلى الخارج؟ لماذا لانفر مادام لدينا وقت؟»

وأشار ميجيل بإصبعه إلى الأطفال ففهمت ألبا.

ـ دعني إذن أذهب معك! تضرعت إليه كما فعلت ذلك من قبل مرّاتٍ كثيرةً.

ـ في الوقت الحالي، لانستطيع أن نأخذ أحداً دون تدريب. فكيف بامرأة عاشقة، قالها ميجيل وهو يبتسم. أحسن ماتفعلين أن تتابعي عملك. يجب أن نساعد هؤلاء الأطفال الصغار حتى تعود أزمنة أفضل.

ـ لكن قل لي كيف أستطيع على الأقل أن أحدّد مكانك!

أجاب ميجيل: «إذا ألقي البوليس عليك القبض، أفضل ألّا تعرفي شيئاً». ارتعدت.

خلال الشهور الأخيرة، أخذت ألبا تبيع خفية أثاث البيت. لم تجرؤ في البدء على أن تسحب غير أشياء الغرفة الملغاة والقبو، لكنّها عندما جزفت[1] كل شيء أخذت كراسي الصالون القديمة واحدة بعد الأخرى، ثم الحوامل الباروقية، والصناديق الاستعمارية، والحواجز المنقوشة، وأدوات مائدة غرفة الطعام. ولمس ذلك تروييبا لكنّه لم يفه بكلمة افترض أن حفيدته تكرّس هذا المال إلى قضية ممنوعة، تماماً كما فعلت، حسب رأيه، بالأسلحة التي سرقتها

---

١ ـ باعت شيئاً للخلاص منه.

منه، لكنّه فضّل أن يتجاهل، بصورة تمكّنه من الإستمرار في توازنه الهزيل في عالم ينهار من كلّ ناحية. أحسّ أن الأحداث سبقته. وفهم أنّ الشيء الوحيد الذي يهمه حقيقة، هو ألّا يفقد حفيدته، لأنّها آخر شيء يربطه بالحياة. ومن أجل هذا السبب أيضاً لم يقل شيئاً لما أنزلت فأخذت اللوحات واحدة بعد الأخرى والبسط القديمة كي تبيعها بسعرٍ زهيدٍ للأغنياء الجدد. كان يحسّ أنّه وصل إلى أقصى الشيخوخة، إلى أقصى التعب، دون قوّة للكفاح. أفكاره باتت غير واضحة، وتلاشت الحدود بين ماكان يظهر له حسناً، ومايحكم عليه بالسوء. وفي الليل، كان إذا سها عن نفسه فنام، كان فريسة كوابيس مليئة ببيوت قرميد محروقة. قال في نفسه إذا كانت وريثته الوحيدة التي ليس له سواها قد قرّرت أن ترمي أموالها من النوافذ، فليس بوسعه أن يمنع شيئاً، لأنه بات وإحدى قدميه في القبر، وهو مكان لايحمل إليه شيئاً غير كفنه. وأرادت ألبا أن تكلّمه، أن تقدّم له تفسيراً، لكنّ العجوز رفض أن يعير أذناً لقصّة أولئك الأطفال الجائعين الذين يتلقون صحن صدقة من نتاج بيع قطع الجوبلان والأوبيسون أو إلى العاطلين عن العمل الذين كفاهم تنينه الصينيّ الذي جاد أسبوع هدنة في الأزمة إضافي. وكان يستمر في التمسك بأنّ كل هذا ليس سوى ثرثرة بشعة من الشيوعيّة الدوليّة، أو، لو كان هنالك شيء صحيح من هذا، ولو أنه غير محتمل، فليس من اختصاص ألبا أن تحمل هذه المسؤولية على كاهلها، فهو مسؤولية الحكومة نفسها، أو الكنيسة في آخر المطاف. لكنّه في اليوم الذي وصل إلى البيت ولم ير فيه صورة كلارا معلّقة في المدخل، قدر أنّ المسألة باتت تتجاوز كل حدود اصطباره الشخصيّ وتجرأ على أن يواجه حفيدته.

صاح قائلاً: «ياللشيطان، أين صورة جدّتك؟».

ـ بعتها إلى قنصل إنكلترا، يا جدي. قال إنه سوف يعرضها في متحف في لوندرا.

أجاب بحدّة: «أمنعك بعد الآن من أخذ أي شيء من هذا البيت! بدئاً

من غدٍ سوف يكون لك حساب مفتوح في البنك من أجل مصاريفك الشخصية».

وأدرك إيستيبان تروييبا أن ألبا هي أغلى امرأة عرفها وأنّ حريماً من المحظيات ماكان ليظهر أنّه يكلف كهذه الوارثة ذات الشعر الأخضر. ولم يؤنبها لذلك، لأنّ زمن الثروة الطيّبة السعيدة عاد، وبقدر ماكان يصرف، كان يمتلك أكثر. ومنذ أن منع كلّ نشاطٍ سياسيٍّ، صار لديّه متسعٌ من الوقت لأعماله وحسب أنّه خلافاً لكلّ توقعاته، سوف يموت غنياً جداً. وكان يعهد بماله إلى شركات التوظيف الجديدة التي تعرض على المودّعين أن تزيد المال وتضاعفه بين يومٍ وآخر وبصورة لاتصدّق. واكتشف أن الثروة لاتحمل له غير سأمٍ عظيم، لأنّه لم يلاق صعوبة في جنيها دون أن يجد لذّة في صرفها، ولم تستطع هبات حفيدته الخارقة في الإسراف أن تخدش كنزه. وأعاد بناء الماريّات الثلاث وحدّثها، لكنه فقد بعد قليل كلّ اهتمام بأي مشروع كان، فقد تبيّن، أنّه بفضل النظام الاقتصادي الجديد، ليس ضرورياً أن ينهك الإنسان نفسه أو ينتج، فالمال يجرّ دون انقطاع مالاً أكثر والحسابات في البنك تنتفخ بين يومٍ وأكثر دون أن يشغل المرء نفسه بها. كما أنّه، بعد أن حسب حساباته، أنجز خطوة، ماكان يتصوّر دائماً أنّه قادرٌ عليها إذ أرسل شكاً شهريّاً إلى بيدرو جارسيا الثالث الذي كان يعيش لاجئاً في كندا مع بيانكا. كانا يحسّان هناك أنّهما في أوج التفتّح في سلام الحب الذي امتلأ. كان يؤلف أغاني ثوريّة لأجل العمال، والتلاميذ، وبخاصة، للبورجوازية الكبيرة التي أدخلتها الموضة وترجمت بنجاح عظيم للإنكليزية والفرنسية، ولو أن الدجاجات والثعالب حي حييوينات نامية، مجرّدة من البهاء الحيواني الذي يشتمل عليه نسور وذئاب تلك المنطقة المتجمّدة من الشمال. وكانت بيانكا سعيدة وصافية، تتمتّع للمرّة الأولى في حياتها بصحّة لاعيب فيها. وأقامت في بيتها فرناً كبيراً تشوي فيه دمىً بشعة تباع أحسن بيع، على أنها عمل يدوي أهلي، كما تنبّأ عن ذلك جان دوساتييني قبل ربع قرن، لما أرادا أن يصدّر منها. وكان من أثر النشاطات المختلفة، وشيكات الجد،

والمساعدات الكنديّة أن تحسنت أحوالهما، وخبأت بيانكا بعناية، في أكثر الزوايا سريّة، جورب الصوف الذي يحوي مجوهرات كلارا التي لم تمسّ. كانت تأمل ألّا تضطر لبيعها أبداً، لعل ألبا تلبسها يوماً.

كان إيستيبان ترويبيا يجهل أنّ مسكنه مراقب من الشرطة السياسية، حتى اليوم الذي أوقفوا فيه ألبا. كانا ينامان، وصدف، في هذه المرّة، أن متاهة الغرف الملغاة كانت لاتؤوي أحداً. وأيقظت ضربات عقب البندقية على الباب، الشيخ من رقاده وتنبؤاً واضحاً بنكبة. لكن ألبا كانت قد استفاقت وهي تسمع صدمات كوابح السيارات، وضجّة الخطى، والأوامر بصوت خفيض، وبدأت تلبس، لأنها لم تشكّ مطلقاً بأن ساعتها جاءت.

فهم الشيخ ترويبيا، خلال الشهور الأخيرة أنّ سلوكه المنزّه الممالئ للإنقلاب، لم يكن دائماً ضمانة له عن الإرهاب. مع ذلك لم يتخيّل يوماً أن يرى إثني عشر رجلاً مدنيّاً ينزلون بداره، بحماية منع التجوّل وهم مسلحون حتى أسنانهم، فيخرجونه دون مراعاة من سريره، ويمسكونه من ذراعه ويجرّونه حتى الصالون دون أن يسمحوا له حتى بلبس خفافته أو أن يغطّي نفسه بالشّال. ورأى آخرين يحطمون بضربة قدم باب غرفة ألبا ويندفعون فيها، وبأيديهم الرشيش، ورأى حفيدته وقد ارتدت ثيابها كاملة، شاحبة، لكن هادئة، تنتظرهم وهي منتصبة القامة، ورآهم يدفعونها خارج غرفتها، وأسلحتهم مصوّبة إليها وينزلونها إلى الصالون حيث أمروها بأن تقف إلى جانب العجوز وألّا تبدي أية إشارة. وأذعنت دون أن تفوه بكلمة، فهي معصومة من غضب جدّها عصمتها من عنف هؤلاء الرجال الذين كانوا يجوبون البيت وهم يحطّمون الأبواب، ويعيثون بأعقاب البنادق في الخزائن، يقلبون الأثاث، ويبقرون الفرش ويذرون محتواها على الصناديق، ويسبرون الجدران بضرب الأقدام، ويصيحون

بالأوامر، يبحثون عن الأنصار المختبئين، والترسانات السريّة وأية إشارة. انتزعوا الخدم من سررهم وسجنوهم في غرفة تحت رقابة أحد الرجال المسلحين، قلبوا رفوف المكتبة وتدحرجت تحف الشيخ وأشياءه الفنية في قرقعة على الأرضية. ومن عرين جيم، آلت المجلّدات إلى الباحة وهناك كدّسوها. ورشوها بالبنزين وجعلوها تلتهب في محرقةٍ خسيسةٍ ألقموها أيضاً كتب الصناديق السحريّة للجدّ ـ الخال ماركوس، والطبعة الشخصية لنيكولاس، وأعمال ماركس المجلدة بالجلد، وتوليفات الأوبرا للجدّ، فكانت أتوناً من كل الشياطين دخّن الحيّ ولو أنه في ظرفٍ عاديٍّ لجعل ثكنات الإطفائية تأتي.

ـ إعطنا كلّ مفكراتك، ودفاتر عناوينك، وشيكاتك، وكلّ الأوراق الشخصية التي في حوزتك، أمره الذي كان يبدو أنّه الآمر.

ـ أنا الشيخ تروييبا! يا إلهي، ألا تعرفني. صرخ العجوز بصوتٍ يائس. إنّك لا تستطيع أن تفعل ذلك بي أنا! إنه تجاوز للسلطة! أنا صديق الجنرال هورتادو.

وأجاب الآخر بقسوة: «أغلق فمك، أيها العجوز السافل. ولن تفتحه إلا بأذنٍ مني».

وأجبره على أن يسلّم كلّ الأوراق التي يحويها مكتبه وأدخلوا في أكياس ماظنّوه هامّاً. وبينما كانت مجموعة صغيرة تنتهي من تفتيش البيت، كانت أخرى تستمر في رمي الكتب من النافذة. وبقي في الصالون أربعة رجال: هازئين، ساخرين، مهدّدين، وضعوا أقدامهم على الأثاث، وشربوا الويسكي الإيكوسي دهاقاً وكسروا أسطوانات مجموعة الشيخ تروييبا الكلاسيكية واحدة بعد أخرى. كانت أسنان ألبا تصطك. لامن برد، وإنما من خوف، كانت تقول في نفسها أن هذه اللحظة آتية يوماً أو آخر، لكنّها، ضد كلّ منطق، كانت تحيا دائماً بأمل أن نفوذ جدّها ينجيها. وحين رأته تقوقع في مقعد هزيلاً وبائساً مثل عجوز صغير سقيم، فهمت أنّها لاتستطيع أن تعتمد على أي عون.

أمر الآمر تروبيبا وهو يدسّ له قطعة ورق تحت أنفه، قائلاً: «وقّع هنا! إنه محضر يشهد بأننا دخلنا هنا بمذكّرة، بأننا قدّمنا لك بطاقاتنا، أن كلّ شيء على الأصول، وأننا قمنا بعملنا باحترام وتهذيب، وأن ليس لديك أية شكوى تشكوها. وقّع».

وصاح العجوز غاضباً: «لن أوقع أبداً هذا!».

ودار الرجل سريعاً نصف دورة وصفع ألبا على وجهها. وأرسلتها الضربة تتدحرج أرضاً. وبقي الشيخ تروبيبا مشلولاً من الدهشة والرعب، وفهم بعدما ناهز التسعين عاماً وهو لايطيع فيها إلا نفسه، أن ساعة الحقيقة قد دقت.

ورماه الرجل بقوله: «أكنت تعرف أن حفيدتك قحبة جيريبورو؟».

وتلاشى الشيخ، فوقّع الورقة. ثم اقترب بمشقة من حفيدته وقبّلها وهو يداعب لها شعرها بحنان لم يعهده في نفسه حتى الآن.

ـ لاتزعلي، يابنيتي! سيسوى كل شيء، فهم لايستطيعون شيئاً تجاهك وهذا ليس سوى خطأ، إبقي هادئة، تمتم لها.

لكنّ الرجل فصلهما بعضاً عن بعض بقسوة وصاح بالآخرين أن أزف وقت الذهاب. وحمل مرافقان ألبا بأن أمسكا بها من ذراعيها ورفعاها تقريباً عن الأرض. آخر رؤية رأت كانت قامة جدّها المؤسية، بيضاء كالغسيل، ترتجف في قميص نومها، قدماها عاريتان، أقسم لها حتى العتبة، أنّه سيكرّس نفسه منذ الغد لتحريرها، أنّه سيكلم مباشرة الجنرال هورتادو، إنّه سيذهب مع محاميّيه كي يبحثوا عنها في أيّ مكان تكون فيه، وأنّهم سيأتون بها إلى البيت.

أصعدوها في شاحنة بين الرجل الذي صفعها وآخر كان يقود السيارة وهو يصفر. وقبل أن يضعوا عصابات الورق اللصاق على جفنيها، أتيح لها الوقت أن تتأمل مرّة أخرى الشارع المقفر والصامت، وماكان بوسعها أن تصدّق، أنّه رغم الضجّة ولهب الكتب لم يظهر أحد من الجيران كي يرى ماذا يحدث. قالت في نفسها، إنهم كانوا يوصوصون، كما فعلت هي نفسها مرّات عديدة، من خصاص الدرفات، أو من فتحة السجف، إلا إذا كانوا دفنوا

رؤوسهم تحت الوسادة كي لايعرفوا شيئاً. وتحرّكت الشاحنة، وغدت فجأة عمياء، وفقدت مفهوم المكان والزمان. وأحسّت على فخذها يداً ضخمة رطبة تعجنها، تقرصها، تصعد، تتحرّى، ونفساً مثقلاً يهمس بوجهها أنهم سوف يدفئونها، سوف ترين، يا قحبة، كيف سأدفئك، وأصواتاً أخرى وضحكاً، وفيما كانت السيارة تدور ثم ترجع ثم تدور من جديد في رحلة بدت لها من غير نهاية. كانت تجهل أين يقودونها، حتى سمعت صوت الماء وأحسّت بعجلات الشاحنة تمرّ من فوق ألواح خشب. اكتشفت عندها أين اتجاهها. وتضرّعت عندها إلى أرواح فترة المائدة السعيدة، وسكّرية جدّتها المشاءة، الأرواح القادرة على تبديل مجرى الأحداث، لكن ما يبدو أنّها تخلّت عنها، لأنّ الشاحنة تابعت طريقها. وأدركت ضربة كابح، وسمعت درفتي بوابة ثقيلتين تنفتحان وهما تصرّان، ثم تنغلقان على طريقهما. لقد دخلت ألبا إلى كابوسها، الذي قرأته لها جدّتها في برجها الفلكي نفسه يوم ولادتها، ثم لويزا مورا في لحظة تنبؤ. وساعدها الرجال بالنزول، لم يتسع لها الوقت للسير خطوتين. تلقت الضربة الأولى بين الأضلاع وسقطت على ركبتيها، وقد انقطع نفسها. وتعاون اثنان كي يرفعاها من إبطيها وجعلاها تقطع جزءاً طيباً من الطريق وهما يجرّانها. وأحست بالأرض رخوة تحت قدميها، ثم وجه أرض اسمنتية خشن. توقفوا.

سمعت من يقول: «تلك هي حفيدة الشيخ ترويبا، ياعقيد».

قال الصوت الآخر: «أعرف».

وعرفت ألبا دون تردّد صوت إيستيبان جارسيا وفهمت في تلك اللحظة أنّه لم يفعل سوى أن ينتظرها منذ ذلك اليوم البعيد، يوم أخذها على ركبتيه، وهي طفلة.

الفصل الرابع عشر

ساعة الحقيقة

كانت ألبا متقوقعة في الظلمة. انتزعوا لها بشدّة جافة الورق اللصاق الذي كان يغطي عينيها، ووضعوا مكانة عصابة مشدودة. كانت تموت خوفاً. وتذكرت التدريب الذي كان يخضعها له خالها نيكولاس كي يحميها من خطر الخوف من الخوف، وركّزت نفسيّاً كي تهيمن على ارتجاف جسدها وتبقى صمّاء على الأصوات المرعبة التي كانت تأتيها من الخارج. ودأبت على تذكّر لحظات سعادتها مع ميجيل، وهي تدعوه إلى نجدتها كي تقتل الوقت، وتستمدّ قوى تنبئ عمّا ينتظرها، وتقول لنفسها إنّه يجب أن تحتملْ هذه الساعات القليلة دون أن تدع أعصابها تخونها، إلى أن يستطيع جدّها تحريك دواليب سلطته الثقيلة ونفوذه لإخراجها من هنا. حاولت أن تستعيد في ذاكرتها تلك النزهة الخريفية مع ميجيل على طول الشاطئ، قبل أن تقلب زوبعة الأحداث العالم رأساً على عقب، في الفترة التي كان يسمّى فيها القطّ قطّاً. وقبل أن تعطى الكلمة معنىً وضدّه: عندما كانت شعباً وحرّيةً ورفيقاً لاتعني سوى ذلك: شعب وحريّة ورفيق، وماكانت مرذولة إلى درجة كلمات المرور. اجتهدت في أن تعيش تلك اللحظة، الأرض الحمراء البليلة، وعبير غابة الصنوبر الأوكاليبتوس الكثيف التي يتعطّن تحت أقدامها وبساط الإبر والأوراق الميتة، بعد الصيف الطويل الحار وحيث أشعة الشمس النحاسيّة تنسرب من بين

القمم. وألزمت نفسها بأن تذكر البرد والصمت اللذين كانا يهيمنان، وذلك الإحساس الذي كان بلا ثمن بأنّهما سيّدا الأرض، وأن عمرها عشرون سنة وأنّ الحياة كلّها أمامهما، وأنّهما يحبان بعضهما بعضاً بسلام، وأنّهما ثملان برائحة الأحراش والحب. دون ماض، دون مستقبل يسبرانه، وليس لديهما غير ثروة وحيدة وعجيبة هي ثروة اللحظة الحاضرة التي يتأمل كلٌّ منهما فيها الآخر، ويستنشقه، ويقبله، ويكتشف أحدهما الآخر في تمتمة الريح بين الأغصان، وضوضاء الأمواج القريبة وهي تتدفّق على الصخور عند قدم الجرف ثم تنفجر في رعد زبدٍ عطر، وهي وهو متعانقان تحت البونشو نفسه مثل سياميين بالجلد نفسه، يضحكان ويقسمان، أنّ ذلك سيستمر دائماً، وهما مقتنعان بأنّهما الوحيدان في الكون كلّه اللذان اكتشفا الحبّ.

لم يكن بوسع ألبا ألّا تسمع الصياح والتأوّهات التي لاتنتهي، والراديو في أعلى صوت. واختفى ميجيل والغابة والحبّ في نسيان رعبها الذي لاقرار له ووطّدت العزم على أن تجابه دون احتيال قدرها.

حسبت أن الليل كلّه وجزءاً من يوم الغد قد انقضيا لما فتح الباب للمرّة الأولى وأتى رجلان كي يخرجاها من زنزانتها. وبعد أن أشبعاها شتائم وتهديداً، قاداها إلى أمام العقيد جارسيا الذي استطاعت أن تعرفه وعيناها معصوبتان، بل حتى قبل أن تصلها نبرة صوته، من غلظته التي عوّدها إياها، أحسّت بكفيّه يضغطان على وجهها، وأصابعه الضخمة على عنقها وأذنيها.

قال لها: «سوف تقولين لي الآن أين يوجد حبيبك. ذلك يجنّبنا كلينا المزعجات».

واكتفت ألبا بأن تجيب بأثبت صوت استطاعت أن تتلفّظ به: «أبغي الذهاب إلى دورة المياه».

ـ ألاحظ أنّك لاتنوين التعاون. ياللأسف! تنهّد جارسيا. سوف يقوم رجالي بعملهم، لاأستطيع شيئاً.

وران صمت قصير حولها وبذلت جهداً أكثر من إنساني كي تتذكر غابة

الصنوبر، وحبّ ميجيل، لكن أفكارها اختلطت، وكانت تجهل إن لم تكن تحلم، من أين كانت تصدر رائحة العرق البشعة تلك، والبراز والدم والبول المختلطة وصوت المعلق على كرة القدم الذي يعلن عن نتيجة فنلندية دون أيّة علاقة معها، بين صيحات أخرى متميزة وقريبة جداً. ورمتها صفعة عنيفة أرضاً، وأوقفتها أيد قاسية على قدميها، والتقطت أصابع فظّة نهديها، هرست لها حلمتيها؛ وغمرها كلها الخوف. وكانت أصوات مجهولة تضغط عليها بالأسئلة، وكانت تسمع لفظ اسم ميجيل لكنّها كانت تجهل مايراد منها أن تقول وكانت تكتفي بترديد اللّا الكبيرة نفسها دون ونىً، بينما كانوا يوسعونها ضرباً، ويداعبونها، وينتزعون قميصها، ولو أنّها باتت غير قادرة على التفكير بشيء سوى أن تقول لا ولا ولا، وهي تحاول أن تحسب كم من الوقت تستطيع أن تقاوم قبل أن تتخلّى عنها قواها، دون أن تعرف أنّ ذلك لم يكن إلا بداية، إلى أن فقدت الوعي، عندها تركها الرجال هادئة، متمدّدة على الأرض، زمناً بدا لها قصيراً جداً.

وبعد قليلٍ سمعت من جديد صوت جارسيا، واكتشفت أن يديه هما اللتان تساعدانها في الوقوف، وترشدانها حتى الكرسي، وتسوّيان روبها وتعيدان لها قميصها.

قال: «يا إلهي، انظري في أيّة حال جعلوك. لقد أنذرتك، يا ألبا. حاولي الآن أن تستعدي رشدك، سأقدم لك فنجاناً من الشاي».

وانفجرت ألبا بالنحيب، وأنعشتها طراوة الدموع. لكنّها لم تستطع أن تتعرّف على طعمها بسبب الدم الذي كانت تبلعه في الوقت نفسه. وكان جارسيا يمسك بالفنجان ويقرّبه من شفتيها، يحيطها بالرعاية كممرّض.

ـ أترغبين بالتدخين؟

ـ أحب أن أذهب إلى دورة المياه، قالت، وكلّ مقطع يتجاوز بصعوبة شفتيها المتورّمتين.

ـ طبعاً، يا ألبا. سوف يأخذونك إلى دورة المياه، ثم بوسعك أن ترتاحي.

أنا صديقك، أفهم جيّداً وضعك. أنت عاشقة وتتمسّكين بالتالي بحمايته. أنا أعرف ألّا علاقة لك بالجيريّيا. لكنّ الشباب لايصدقونني عندما أقول لهم ذلك. وما لم تقولي لهم أين ميجيل فإنّهم لن يسّروا. والواقع، أنّهم حاصروه، وهم يعرفون أين هو، وسوف يقطفونه، لكنهم يريدون أن يتأكدوا أنّك لاعلاقة لك بالجيريّيا، فهل فهمت؟ إذا حميته، إذا رفضت أن تتكلّمي، سوف يستمرّون بالشّك بك. قولي لهم ما يريدون أن يعرفوا، وبعدها آخذك بنفسي إلى بيتك. ألا تريدين أن تقولي لهم؟

ـ أحبّ أن أذهب إلى دورة المياه، أعادت ألبا هذا القول وكأنّه قرار أغنية.

قال لها: «أرى أنّك عنيدة مثل جدّك. حسناً. سوف تستطيعين الذهاب إلى دورة المياه. ثم أمنحك مهلة صغيرة للتفكير».

وأخذوها إلى أمكنة قضاء الحاجة حيث حذفت وجود رجل إلى جانبها يمسك بها من ذراعها. ثم رافقوها حتى الزنزانة. وفي عزلة هذا المكعب الضيّق، الذي يقوم عندها بمقام السجن، حاولت أن تنظّم أفكارها، لكّنها كانت مرهقة جدّاً من ألم الضرب، ومن الظّمأ، والعصابة التي تضغط على صدغيها، ومن انفجارات الراديو الراعدة، ورعب اقتراب صوت الخطى، وعزاؤها عندما تسمعها تبتعد، والصراخ، والأوامر. وانطوت رضا بوضع الجنين، واستسلمت إلى عذاباتها الكثيرة. وبقيت كذلك عدّة ساعات، وربّما أيّاماً كاملة. مرتين جاء رجل وأخرجها من هناك وقادها إلى حيث حفرة نتنة، حيث لم تستطع أن تغسل نفسها، لأنّه لم يكن هنالك ماء. لم يمنحها غير دقيقة واحدة وجعلها تقرفص فوق الحفرة إلى جانب واحد ما أخرس مثلها، مزعوج مثلها. وما كانت تستطيع أن تكتشف هل الثاني رجل أو امرأة. في البدء بكت، آسفة أن خالها نيكولاس لم يعن بتدريبها تدريباً خاصّاً كي تحتمل هذه الإهانة التي تبدو لها أسوأ من الألم الجسدي، لكّنها انتهت إلى الخضوع لحقارتها نفسها وانقطعت عن التفكير بحاجة الاغتسال التي لاتقهر. وأعطوها أكلاً ذرة طريّة، وقطعة صغيرة من فرّوج، وقليلاً من البوظة عرفتها جميعاً من طعمها، ورائحتها، وحرارتها، دفعتها إلى معدتها سريعاً بأصابعها، وقد أرعبتها هذه الوليمة التي

لاتنتظرها في مثل هذا المكان. ولقد علمت فيما بعد أن طعام موقفي قلعة العذاب هذه المشترك يأتي من مقرّ الحكومة الجديدة، التي أقامت في مبنى مؤقت منذ أن صار قصر الرؤساء القديم كومة أنقاض.

واجتهدت في أن تحسب حساب الأيّام التي انقضت على توقيفها، لكن العزلة، والظلمة والخوف جعلت زمنها يعوّج والمكان يتصدّع، كانت تظن أنّها ترى أمامها مغائر تسكنها مسوخ، تخال أنهم خدّروها، وهذا ماكان يهرس عظامها ويمنحها أفكاراً مجنونة، كانت تعد نفسها بألّا تأكل شيئاً أو تشرب، لكن الجوع والظمأ كانا يتغلبان على قوّة قراراتها. كانت تتساءل لماذا لم يأتي جدّها كي ينتشلها من هنا. وفي ساعات صحوها، كانت تتوصّل مع ذلك إلى الإدراك أن ذلك لم يكن كابوساً، فهي لم تكن هنالك عن خطأ. ووعدت نفسها أن تنسى حتى اسم ميجيل.

في المرّة الثالثة التي أخذوا فيها ألبا إلى إيستيبان جارسيا، كانت أفضل استعداداً، لأنها استطاعت أن تسمع عبر جدار زنزانتها، مايجري في الغرفة المجاورة التي يُستجوب فيها سجناء آخرون، وأقلعت آنئذ عن أوهامها. ولم تبحث حتى عن استحضار ذكرى أحراش غراميّاتها.

قال لها جارسيا: «لقد أخذت وقتاً للتفكير يا ألبا، والآن سوف نتكلّم جدّياً وستقولين لي أين ميجيل، وهكذا نكون انتهينا أسرع».

أجابت ألبا «أريد أن أذهب إلى دورة المياه».

قال لها: «أرى أنّك تسخرين مني يا ألبا. آسف كثيراً. هنا ليس لدينا وقت نضيّعه».

لم تجب ألبا.

ـ إخلعي ثيابك! أمرها جارسيا بصوتٍ آخر تماماً.

لم تتحرّك. جرّدوها من ثيابها بوحشيّة، وانتزعوا بنطالها بالرغم من الرفس. وملأتها حقداً كهربها، ذكرى دقيقة لقبلة جارسيا في البستان، من أيام مراهقتها. وتخبّطت تجاه هذه الذكرى، وصرخت منها، وبكت، وبالت

وقاءت، إلى أن تعبوا من ضربها وسمحوا لها براحة قصيرة استغلتها لدعوى أرواح جدّتها لعلّها تساعدها في الموت. لكن أحداً لم يأت لنجدتها. ورفعتها قبضتان. وأضجعها أربعة على هيكل سريرٍ معدني متجلّدٍ، قاسٍ، مليء بالنوابض التي أثخنت ظهرها، ثم ربطوا كعبيها وقبضتيها بسيور من جلد.

سألها جارسيا قائلاً: «للمرّة الأخيرة، قولي لي يا ألبا أين ميجيل؟».

أشارت بأن لا. وقيّدوا لها رأسها بسير آخر.

قال: «عندما تصبحين مستعدة للكلام، لن تحتاجي إلّا لرفع إصبعك».

وسمعت ألبا صوتاً آخر:

ـ هأنذا أسيّر الآلة.

وأحست آنئذ بألم شنيع يمرّ في جسدها، يقتحمها كلّها حتى كأنها للأبد العظيم، لن تستطيع نسيانه، في كلّ يوم كتب لها أن تعيشه. وغرقت في السواد.

«قلت لكم أن تنتبهوا معها، ياعصابة أسافل!» قال صوت إيستيبان، الذي رأته الآن من بعيد، ثم أحسّت أنهم يرفعون لها جفنيها، لكنّها لم تر شيئاً سوى نور منتشر وأحسّت بعدها أنّهم يعطونها إبرة في الذراع ثم صحت.

وبعد قرن، استفاقت ألبا، عارية، مبللة جميعاً. لم تستطع أن تقول إن كان يغطيها العرق أو الماء أو البول، وما كانت تستطيع حراكاً، أو تذكر شيئاً، كانت تجهل أين توجد، وما كان منشأ تلك الهزّة التي جعلتها في حالة خرقة. وأحسّت بظمأ صحراوي وطلبت ماء.

قال لها صوتٌ عند رأسها: «إصبري، يارفيقة. إصبري حتى الغد. إذا ابتلعت ماء تعرّضت لتشنجات ويمكن أن تموتي».

فتحت عينيها. لم تكونا معصوبتين. كان ينحني عليها وجه مألوف بغموض، ووضعت يدان عليها غطاء.

ـ ألا تذكرينني؟ أنا آنادياز. درسنا معاً بالجامعة. ألم تعرفيني؟

وقالت ألبا لا برأسها، وأغمضت عينيها واستسلمت للوهم الحلو بأنها

ميتة. مع ذلك استيقظت بعد بضع ساعات، ولما تحركت، أحست أنّها مثخنة حتى آخر وتر من جسدها.

قالت امرأة كانت تداعب لها وجهها، وتبعد بعض الخصل المبللة التي تسقط على عينيها: «بعد قليل سوف تحسّين أنّك أفضل. لاتتحرّكي، جربي أن تسترخي. سوف أبقى بجانبك. إرتاحي».

تمتمت ألبا: «ماذا جرى؟».

قالت الأخرى بصوتٍ كئيبٍ: «عاملوك بقسوة، يا رفيقة».

ـ من أنت؟

ـ آناديياز. أنا هنا منذ أسبوع. لقد قطفوا رجلي أيضاً، لكنّه مازال حيّاً. مرة كلّ يوم، أراه يمرّ عندما يأخذونهم إلى الكنيف.

ـ آناديياز، تمتمت ألبا.

ـ نفسها. لم نكن صديقتين كثيراً في الجامعة، لكن مازال لدينا متسع كي نحسن الأمر. والحق، أنّك آخر من كنت أفكر بأن ألتقي بها هنا، يا كونتيس، قالت المرأة برقّة. لاتتكلّمي، جربي أن تنامي، وسوف يبدو لك الزمن أقلّ طولاً. وتعود إليك الذاكرة قليلاً قليلاً، ولاتقلقي. ذلك سببه الكهرباء.

لكن لم يتح النوم لألبا، فقد فتح باب الزنزانة ودخل رجل.

وأمر آناديياز قائلاً: «ضعي لها عصابتها».

ـ أتضرّع إليك.. ألا ترى كم هي ضعيفة؟ دعها تعوّض قليلاً...

ـ إفعلي ما أقول لك!

وانحنت آنا على سرير المعسكر ووضعت العصابة على عينيها. ثم نزعت الغطاء، واستعدت كي تلبسها، لكن الحارس دفعها بلطمة، وشد السجينة من قبضتيها وأوقفها في وضع جالس. وبما أنّها كانت لاتستطيع المشيء، جاء آخر يساعده في رفعها وحملها الاثنان على ذراعيهما. كانت ألبا مقتنعة بأنّها في سبيلها إلى الموت، إلّا إذا كانت ماتت من قبل. وسمعت نفسها تتقدّم على طول ممرّ، كان الصدى فيه يردّد وقع الخطى. وأحسّت بيد تحطّ على وجهها، وترفع رأسها.

ـ بوسعكم أن تسقوها ماء. نظفوها وأعطوها إبرة أخرى. وانظروا إن كان بوسعها أن تبتلع بعض القهوة وأعيدوها إلي قال جارسيا.

ـ ونلبسها ثيابها أيها العقيد.

ـ لا.

بقيت ألبا طويلاً بين يدي جارسيا، وتبيّن بعد عدة أيام أنّها عرفته، لكنّه لم يقلع مع ذلك احتياطاً عن ترك عينيها معصوبتين، حتى عندما يوجدان وحدهما. كلّ يوم كانوا يجلبون ويعيدون مساجين جدداً. وكان بوسع ألبا أن تسمع السيارات، والصياح، والبوابة التي تغلق، وكانت تحاول أن تقوم بحساب للموقوفين، لكن هذا كان شبه مستحيل. أما آناديياز فكانت تقدّر أنّه يوجد حوالي مائتين. كان جارسيا مشغولاً جداً، لكنّه لم يدع يوماً يمضي دون أن يرى فيه ألبا، ويمرّ فينة بعد فينة من العنف الذي لاحدود إلى الإفراط بالاحترام كصديق. كان يبدو أحياناً حقيقة متأثّراً، فيجعلها بنفسه تأكل شوربتها بالملعقة، لكنّه في اليوم الذي غمس لها رأسها في سطل مليء بالبراز حتى أنها أغمّي عليها من الغثيان، فهمت ألبا أنّه لم يكن مهتماً بمحاولة معرفة ملجأ ميجيل، لكن بالإنتقام من الإذلال الذي أخضعوه له منذ طفولته، والذي لايؤدّي ما يمكن أن تعترف به إلى تحويل مصيرها لأنّها سجينة العقيد جارسيا الشخصية. عندها أحسّت أنّ بوسعها أن تتجاوز دائرة رعبها الشخصية؛ وغدا خوفها نفسه أقلّ قوة واستطاعت أن تشفق على الآخرين، الذين يعلقون من أذرعتهم، والقادمين الجدد، وذاك الرجل المصفّد بالحديد الذي مرّروا شاحنة على قدميه. فعند فجر، أخرجوا كلّ الموقوفين إلى الساحة وأجبروهم على أن يحضروا وقد كان أيضاً تصفية حساب شخصي بين العقيد وسجينته. كانت تلك هي المرة الأولى التي تستطيع فيها ألبا أن تفتح عينيها خارج ظلام زنزانتها، وبدا لها سطوع الفجر الحلو، ورقاق الجليد التي تلمع بين البلاط، حيث تجمّع المطر الليلي رامات، ذات إشراق يعمى البصر. جرّوا الرجل الذي لم يبد أية مقاومة، وماكان علي أية حال يستطيع الوقوف، وتركوه يسقط وسط الساحة. كان

الحراس قد غطّوا وجوههم بأوشحة كي لاتستطاع معرفتهم في حالة فرضية بعيدة الاحتمال إذا دوّم الهواء. عندما سمع محرّك الشاحنة، أغلقت ألبا عينيها، لكنّها لم تستطع أن تسدّ أذنيها عن الخوار الذي سوف يجري صداه إلى الأبد في ذاكرتها.

كانت آناديار تساعدها على الوقوف جيّداً طيلة الوقت الذي كانتا فيه معاً. كانت من النساء اللواتي لايكسرهنّ شيء. لقد احتملت كل العنف، واغتصبوها أمام عيني رفيقها، وعذّبوهما معاً، لكنها لم تفارقها طاقتها على الإبتسام والأمل. لم تفارقها أيضاً يوم أخذوها إلى عيادة سريّة للبوليس السريّ السياسي، وضربوها حتى فقدت الطفل الذي تنتظره وأخذت تفرغ من دمها.

قالت لألبا وهي ترجع إلى زنزانتها: «لا أهمية لذلك، سوف يأتي اليوم الذي يكون لي فيه آخر».

تلك الليلة، سمعتها ألبا تبكي للمرّة الأولى، ولقد لفّت وجهها بغطائها لتخنق شجنها، اقتربت منها، ضمّتها، حضنتها، جفّفت لها دموعها، قالت لها كلمات رقيقة حفظتها في ذاكرتها، لكنّ شيئاً، هذه المرّة، لم يبد قادراً على تعزية آناديار، حتى أن ألبا اكتفت بهزّها، وهدهدتها كطفل، وهي تصبو من كلّ كيانها أن تحمل عنها، كي تخفّف عليها ثقل ذلك الألم العظيم. وفاجأهما الفجر وقد تكوّرت كلّ منهما مع الأخرى مثل حيوانين صغيرين. وأخذتا، تنتظران في النهار بفارغ الصبر اللحظة التي تمرّ بها كتيبة الرجال الطويلة باتجاه المراحيض. كانوا يمشون معصوبة عيونهم، وكان يضع كل منهم، كي يسترشدوا، يده على كتف سابقه بالصف، تحت مراقبة حرّاس مسلحين. وكان بينهم أندريس. وكانتا تستطيعان رؤيتهم من نافذة زنزانتهما الصغيرة ذات القضبان. قريبين: حتى لتستطيعان لمسهم لو تمكنتا من مدّ اليد إلى الخارج. كلّما مرّوا، كانت آنا وألبا تغنيان بقوة اليأس، وكانت ترتفع من زنزانات أخرى أصوات نساء أيضاً. عندها كان المسجونون ينفخون صدورهم، ويقوّمون أكتافهم، ويلتفتون برؤوسهم باتجاههن ويبتسم أندريس. كان قميصه ممزّقاً، ملطخاً بدمٍ جافٍ.

وأسلم أحد الحرّاس نفسه للتأثّر بهذه الجوقة من النساء. وذات مساء حمل لهن ثلاث قرنفلات في إناء ملأه ماء لعلها تزهر في نافذتهنّ. وجاء مرّة أخرى يقول لآنادياز بأنّه بحاجة إلى متطوّعة كي تغسل ثياب موقوف وتنظف له زنزانته، وقادها إلى أندريس وتركهما وحدهما بضع دقائق. ولما رجعت آنادياز كانت هيئتها قد تغيّرت، ولم تجرؤ ألبا على أن تبادرها بالحديث كي لاتشوّش سعادتها.

وذات يوم، فاجأ العقيد جارسيا نفسه يداعب ألبا كعاشق، ويكلمها عن طفولتها في الريف لما كان يراها تمرّ من بعيد، وهي تمسك بيد جدّها، في صداراتها المنشّاة جيّداً، وقد كلّلتها هالة شعرها الخضراء، بينما كان هو، حافي القدمين في الوحل، وقد أقسم لنفسه أحد الأيام أن يجعلها تدفع غالياً وقاحتها وأن ينتقم من قدره قدر ابن الزنا اللعين. ولم تكن ألبا لتصغي إليه، وهي في عريها متيّبسة وغائبة ترتجف من برد ومن قرف، بل لم تكن تسمعه، لكن هذا التهاون في حماسه لتعذيبها دوّى عند العقيد كجرس إنذار، وأمر بأن توضع ألبا في حجرة الكلب، وقرّر وهو غاضبٌ أن ينساها.

كانت حجرة الكلب زنزانة ضيقة، محكمة الإغلاق مثل سرداب بلا هواء، مظلم، ومتجلّد. كان مجموع ماعندهم منها ست، أعدّت كزنارين في حوض جافّ. كانوا يقيمون فيها فترات تزيد أو تقلّ قصراً، لأنّ أحداً لايقاوم فيها طويلاً، بضعة أيام في أقصى حد، ثم ينتابه الدوار، ويفقد كلّ مفهوم عن الأشياء، ومعنى الكلمات، وقلق الزمن الذي يمرّ، ثم تذهب روحه قليلاً قليلاً في البدء تخبّطت ألبا في وجه الجنون، وهي متقوقعة في قبرها، وقد استحال عليها الجلوس أو الإضطجاع بالرغم من قامتها النحيلة وفهمت، في وحدتها كم افتقدت آنادياز. كانت تظن أنّها تسمع وقع ضربات لاتدرك في البعيد كأنّ من يوجّه لها رسائل مشفّرة من زنزانات أخرى، لكنّها انقطعت سريعاً عن الإنتباه إليها، لأنّها توقعت أنّ كلّ شكل للإتصال هو عبثٌ، واستسلمت، وقرّرت أن تضع حدّاً مرّة واحدة لعذابها، ورفضت كلّ غذاء وماكانت تتجرع جرعة ماء لولا أن يغلبها أقصى الضعف. وجرّبت ألا تتنفّس، وألّا تتحرك

وأخذت تنتظر الموت بفارغ الصبر. وبقيت على ذلك مدة طويلة. وحين كادت تصل إلى بغيتها ظهرت لها جدّتها. لقد دعت كلارا مرّات عديدة كي تساعدها في الموت، وهي تقول في نفسها إن العجيب ليس تماماً في الموت، لأنّه لامحالة سوف يحدث، والمعجزة هي أنّك مازلت على قيد الحياة. لقد رأتها شبيهة بالصورة التي أخذتها عنها طوال طفولتها، في جلبابها الذي كان من كتّان أبيض، وقفازي الشتاء، ابتسامتها الحلوة الهتماء، واللمعان الخبيث في عينيها البندقيتين. وقدمت لها كلارا الفكرة المنقذة بأن تكتب عقليّاً، دون قلم ولاورقة، كي تشغل فكرها، وتتخلّص من غرفة الكلب، وتعيش. واقترحت عليها غير ذلك أن تؤلف شهادة يمكن لها، حين تواتي الفرصة، أن تساهم في كشف السرّ الفظيع الذي كانت في سبيلها للتعرّف عليه، حتى يحاط العالم علماً بالهول القائم، يتوازى معه عيش هادئ رصينٌ يعيشه الذين لايريدون أن يعرفوا شيئاً الذين مازالوا يستطيعون أن يعللوا النفس بوهم حياة طبيعيّة، الذين يرفضون القبول بأنّهم يطفون على حافة زورقهم فوق بحر النحيب، يستمرون بجهلهم في وجه الوضوح، الوجه الخبيء لعالمهم الهنيء، مع أنه قيد خطوات منهم، الذين لاهمّ لهم إلّا أن يعيشوا فيه، والذين فيه يموتون، «عندك خبز على الخشبة، أيضاً، توقفي عن رثاء حظّك، إشربي قليلاً من الماء وابدأي العمل»، قالت كلارا لحفيدتها قبل أن تختفي كما أتت.

وجرّبت ألبا أن تذعن لجدّتها، لكنّها ما أن بدأت تسجّل الملاحظات بالفكر حتى امتلأت حجرة الكلب بشخصيات من تاريخها، هي انبثقت وهي تفتح طريقها في الزحام، وتدوّخها بحكاياتها، برذائلها وفضائلها، تدوس بأقدامها نياتها بالتسجيل، وترمي أرضاً بشهادتها، مزعجة، ملحّة، ملحفة، وهي تسجّل بأقصى سرعة، يائسة، لأنّها كلّما كتبت صفحة جديدة، أمّحت الصفحة السالفة. وشغلها هذا النشاط. في البدء كانت تفقد بسهولة السياق وتنسى من الأحداث بقدر ماتتذكّر من جديدها. وكانت أقلّ غفلة، أو زيادة صغيرة من خوف أو ألم وتغدو قصتها كبكرة مختلطة. لكنّها بعد ذلك اخترعت لها شفرة كي تتذكّر بنظام فاستطاعت عندها أن تغوص بعيداً في

حكايتها حتى لقد انقطعت عن الأكل، والحكّ، والنخر، والتأوّه على نفسها، وتوصّلت لأن تعلو على آلامها التي لاتحصى واحداً واحداً.

وسرت شائعة أنّها في النزع. ففتح الحرّاس فتحة باب حجرة الكلب وأخرجوها دون جهد لأنّها كانت خفيفة كريشة. وقادوها مباشرة إلى العقيد جارسيا الذي اتسع الوقت لحقده أن يتجدّد، لكنّ ألبا لم تعرفه أبداً. كانت خارج سلطته.

كان منظر فندق الكريستوف كولومبس، من الخارج، عاديّاً كمدرسة ابتدائية، على مابقيت ذكراه لدي. ولم أكن قادراً على القول ماعدد السنين التي انقضت منذ المرّة الأخيرة التي أتيته فيها، وجرّبت أن أعلّل نفسي بالوهم أن سيخرج لاستقبالي مصطفى الماضي نفسه، ذلك الزنجيّ الأزرق المتبرّج كشبحٍ شرقيٍّ بصفيّ أسنانه المحشوّة، وتهذيب وزير، الزنجيّ الحقيقيّ الوحيد في البلاد، والباقون كلهم مصبوغون، كما أكدت لي ترانسيتو سوتو. لكن الأمور لم تجر كذلك. قادني بواب إلى غرفة ضيقة، ودلني على مقعد وقال لي أن أنتظر. وبعد لحظة ظهرت في مكان ومحلّ مصطفى المشهدي سيدة كئيبة الهيئة كأنّها عمة ريفيّة على مايرام وقد ارتدت بزّة زرقاء بقبّة بيضاء منشّاة، لما رأتني هكذا عجوزاً، هكذا بائساً، ارتجفت رجفةً خفيفةً. وكانت تمسك بيدها وردة حمراء.

سألتني: «هل جاء السيد وحده؟»

صحت: «طبعاً. أنا وحيد تماماً!».

مدّت لي المرأة الوردة وسألتني أية غرفة أفضل.

أجبت مرتبكاً: «لافرق عندي».

ـ الأسطبل والمعبد والألف ليلة وليلة مازالت شاغرة. أية منها تريد؟

قلت مهما حدث: «الألف ليلة وليلة».

وقادتني في رواقٍ طويل معلّم بالأنوار الخضراء والأسهم الحمراء. كنت أجرّ خطاي، معتمداً عصاي، أجد صعوبة باللحاق بها. ونفذنا إلى ساحة

صغيرة يقوم فيها معبدٌ مصغر زود بأقواس غريبة لها زجاج.

ودلتني قائلة: «وصلنا. إذا كنت تريد أن تشرب شيئاً أطلبه بالهاتف».

قلت لها: «أريد أن أكلم ترانسيتو سوتو. أتيت من أجل ذلك».

ـ آسفة. لأن السيدة لا تقابل الزبائن. الممونين فقط.

ـ يجب أن أكلمها! قولي لها إني الشيخ تروبيبا. إنها تعرفني.

أجابت المرأة وهي تصالب ذراعيها: «قلت لك إنها لا تقابل أحداً».

ورفعت عصاي وأعلنت لها أنّه إذا لم تحضر ترانسيتو سوتو بلحمها وعظمها خلال عشر دقائق جعلت الزجاج نتفاً وكل ماتحويه علبه الليل هذه، وتراجعت الدليلة، خائفة. وفتحت باب المعبد فوجدتني في داخل حمراء[1] بنيت من النثريات. كانت بضع درجات من الأزوخيلوس[2] غطتها سجاجيد فارسيّة مزيّفة، تؤدي إلى غرفة سداسية تعلوها قبّة حيث وضع فيها أحدهم كلّ ما يقدّر أنه يجب أن يدرج في حريم العربيّة دون أن تطأه أبداً قدمه: مساند دمشقية، منجرة من زجاج ملوّن، وصنج وكلّ أنواع توافه البازار. وبين الأعمدة التي ضاعفت عددها إلى مالانهاية لعبة مرايا ذكية، اكتشفت حماماً من خزف أزرق أوسع من الغرفة، له حوضٌ، أقدر أن بقرة تستطيع أن تغتسل فيه وحيث يستطيع بالتالي أن يستحم عاشقان خليعان. كل هذا لم يكن فيه شيء مشترك مع الكريستوف كولومبوس الذي عرفت. وأحسست فجأة أني في غاية التعب فتركت نفسي أسقط بصعوبة على السرير المدوّر. كانت تؤلمني عظامي العجوزة. ورفعت رأسي فنقلت لي صورتي مرآة في السقف: جسدي المسكين المحنّط، ووجه بطريق توراتي حزين حفرته تجاعيد مرّة، ومابقي من شعر أبيض. وتنهدت أقول: «كيف يمضي الزمان!».

ودخلت ترانسيتو سوتو دون أن تطرق.

---

١ ـ أي قصراء الحمراء.

٢ ـ الخزف الأزرق الذي مهر فيه عرب الأندلس.

وسلمت على عادتها وقالت: «مسرورة من رؤيتك أيها، السيد».

لقد تحوّلت إلى سيّدة من عمر محترم أنيقة القامة لها كعيكة شعر رصينة، وروب صوف أسود، وازّينت رقبتها بصفين من لؤلؤ عظيم، مهيبة وصافية، في هيئة عازفة بيانو لموسيقى منفردة، لا مديرة بيت هوى. كان صعباً علي أن أجد الصلة بين امرأة الأمس، صاحبة حية موشومة حول السرّة. وقفت كي أحييها بدوري، ولم أستطع أن أكلمها بصيغة المفرد كما في الماضي.

ـ يبدو، أنك نجحت في حياتك يا ترانسيتو، قلت لها وأنا أحسب أنها بلغت الخامسة والستين دون شك.

ـ لقد ابتسمت لي الحياة يا سيّد. أتذكر لما تعرفنا؟ قلت لك إني سوف أصبح يوماً غنية.

ـ أنا سعيد أنّك توصلت لذلك.

وجلسنا جنباً إلى جنب على السرير الدائر. وقدمت ترانسيتو كأس كونياك لكل منا وروت لي بأن تعاونية البغايا واللوطيين كانت مشروعاً هائلاً خلال عشر سنين طويلة، لكن الأيام تغيّرت واضطروا لأن يرسموا لها اتجاهاً مختلفاً، لأنه بسبب حرية العادات، والحبّ الحر، والحبوب وكل هذا الجديد، امتنع الناس عن البغايا، ماعدا البحارة والعجّز. ولاحظت قائلة: « إن البنات المحترمات يضاجعن مجاناً، هل تتخيل المزاحمة!». وشرحت لي كيف بدأت التعاونية تفلس، وكيف أن شركاءها اضطروا للعمل في خدمات أخرى ريعها أفضل، ورجع مصطفى نفسه إلى بلاده. وعندها أتتها فكرة بأن ما يحتاجه الناس هو فندق لقاءات، مكان مستحب يستطيع فيه الأزواج السريون الحبّ، وحيث لايخجل رجل من جلب صديقته للمرّة الأولى. لابنات هنا، الزبون يجلب مايحتاج. وقامت بالزخرفة بنفسها، على هوى نزوتها، حاسبة حساب أذواق وألوان الزبائن، وبفضل موهبتها بالتجارة التي أقنعتها بخلق جوّ مختلف في كل زاوية شاغرة، تحوّل الكريستوف كولومبوس إلى جنة للأرواح الفاسقة والحب السري. وهكذا أعدت ترانسيتوسوتو صالونات فرنسية أثاثها منجد، ومذاود ملأى علفاً طريّاً وعليها خيل من معجونة الكرتون تتأمل هادئة العشاق

بعيونها التي كانت من بلّور مدهون، ومغائر سابقة للتاريخ ذات هابطات وتلفونات مبطّنة بفرو الكوجر[1].

قالت ترانسيتو سوتو: «بما أنك جئت أيها السيد لغير الحبّ، تعال إلى مكتبي نتحدث، كي نترك هذه الغرفة للزبائن».

في الطريق، روت لي، أنّ البوليس السياسي جاء، بعد الإنقلاب، فاحتل الفندق مرتين، لكنهم كل مرة أخرجوا فيها الأزواج من السرير كي ينخسوهم بفوهات مسدساتهم حتى الصالون الرئيسي، تبينوا أنه يوجد جنرال أو إثنان بين الزبائن، حتى أنهم انقطعوا عن إزعاجها. وكانت لديها صلات قوية مع الإدارة الجديدة، كما كان لها على كل حال مع سابقاتها. وأسرّت لي أن الكريستوف كولومبوس كانت مشروعاً مزدهراً وأنها كل سنة كانت تجدد بعض التزيينات بأن تبادل مناظر الغرق على جزر مرجانية بولونيزية بأديرة رهبانية قاسية، ومراجيح باروقية بحوامل تعذيب، حسب الطراز الحديث، وهكذا تستطيع أن تدخل كثيراً في فندق أبعاده عادية نسبياً، بفضل لعبات مرايا حاذقة وأنوار تنجح في تضئيل المكان وتبديل الطقس، وتفرز اللانهاية، وتعلّق الزمن.

ووصلنا إلى مكتبها الذي زيّنته كبين طيّارة تدير منه تنظيمها الذي لا يصدّق في فعالية مدير مصرف، وعدّدت لي كم يوجد من قماش للغسيل، كم يصرف من الورق الصحي، كمية المشروبات المستهلكة، كم بيضة سماني - ذات الفضائل المثيرة للشهوة - يحضّرون يومياً، وكم مستخدماً يحتاجون، وإلى كم ترتفع فواتير الكهرباء، والماء والتليفون، حتى تمسك على الموج حاملة طائرات العشق الممنوع الضخمة.

- والآن ياسيد، قل لي ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك، خلصت إلى هذا القول ترانسيتو سوتو ومكنت من جلوسها في مقعدها المتحرك مقعد قائد السفينة وهي تلعب بلألئ عقدها. افترض أنك جئت كي أرد لك قطعة العملة التي أنا مدينة بها لك منذ نصف قرن؟

---

١ - الأسد الأمريكي.

وفتحت، أنا الذي ما كنت أنتظر غير سؤالها، سكري[1] الضيقين ورويت لها دفعة واحدة، من البدء حتى النهاية، دون أن أحفظ شيئاً لي. قلت لها إن إلبا هي حفيدتي الوحيدة، وأني بقيت وحدي في هذا العالم الدنيء وأن جسدي وروحي صغرا كما تنبأت بذلك فيرولا وهي تلعنني، والشيء الوحيد الذي لم أصل إليه هو أني لم أمت ككلب؛ إن هذه الفتاة ذات الشعر الأخضر هي كل ما بقي لي، الكائن الوحيد الذي له حقاً شأن عندي، وأنها لشقائها ولدت مثالية، وتلك عاهة عائليّة، إنها من أولئك الناس المقدر لهم أن يدسوا نفوسهم في أوكار الزنابير وأن يجعلوا من حولهم يتألمون، لقد حدث لها أن ساعدت فارين في اللجوء إلى السفارات، وكانت تفعل ذلك دون أن تفكر فيه، وأنا على يقين من ذلك، دون أن تدرك أن البلاد في حالة حرب، في حرب على الشيوعية العالمية أو الشعب، نحن لانعرف أبداً، لكن على كل حال في حرب، وتلك الأشياء يعاقب عليها القانون، لكن ألبا لا تدرك الواقع ولا تعرف الخطر، ولاتفعل شيئاً عن سوء نية، على العكس إنها تفعله لأن قلبها كبير هكذا، تماماً مثل جدتها التي مازالت تساعد الفقراء من وراء ظهري في غرفة البيت الملغية، كلارا البعيدة النظر، وأول من جاء كي يرى ألبا فيروي لها أنه ملاحق حصل منها على أن تغامر بجلدها كي تساعده، مع أنه رجل مجهول منها كل الجهل، ولقد قلت ذلك لها، وأنذرتها كثيراً أنه يمكن أن يُعد لها فخاً سوف ترى يوماً أن الزاعم أنه ماركسي ليس سوى عميل للبوليس السياسي، لكنها لم تصغ إلي، لم ترد لحظة أن تصغي إلي، إنها أعند مني، لكن حتى لو كان الأمر كذلك، فإن إيجاد ملجأ لشيطان بائس ليس جريمة، فليس من أمر خطير يوجب توقيفها دون الاعتبار بأنها حفيدتي، حفيدة شيخ عن الجمهورية، وعضو بارز في الحزب المحافظ، إنهم لايستطيعون أن يفعلوا ذلك بعضو من عائلتي عينها، تحت سقفي، لأنه بحق الشيطان ما يبقى للآخرين إذا كان الناس من أمثالنا يذهبون إلى السجن، وبتعبير آخر إنّ أي إنسان ليس في منجاة من شيء، ولافائدة من أن تكون عضواً في المجلس مدّة عشرين سنة ومن كلّ علاقاتي، أعرف كلّ الناس

---

١ ـ باب متحرك يحجز الماء وماشابه.

في هذه البلاد، على الأقل الناس الذين يحسب حسابهم، حتى الجنرال هورتادو الذي هو صديق شخصي، لكنّه في الحالة هذه لم يستطع أن يعينني في شيء. حتى الكاردينال لم يتمكن من أن يساعدني في معرفة مكان حفيدتي، إنّه من غير الممكن أن تختفي كما في السحر، أن يأتوا في ليلة وأن يأخذوها ولاأعرف شيئاً عنها، قضيت شهراً كاملاً أبحث عنها، إنّي أجنّ، إن هذا النوع من الأمور هو الذي يفقد اللجنة الحاكمة اعتبارها في الخارج ويعطي مبرّراً للأمم المتحدة، كي تأتي فتزعجنا بحقوق الإنسان، في البدء لم أكن أريد أن أسمع حديثاً عن ذلك، عن الموتى، والمعذّبين والمختفين، لكنّي لاأستطيع الاستمرار بالتفكير أنّ هؤلاء ثرثارون وشيوعيون مادام الأميركيون أنفسهم، وكانوا أوّل من دعموا العسكريين بأن أرسلوا طيّاريهم فقصفوا القصر الرئاسي، يقولون اليوم إنّهم صدموا بكلّ هذه المذبحة، وليس يعني هذا أنّني ضد القمع، أفهم أنّه في البدء يجب إظهار القوّة لإعادة النظام، لكنّ الكيل طفح، إنّهم يبالغون في كلّ شيء، وبقصة الأمن الداخلي التي توجب الآن محو العدوّ الإيديولوجي، سوف يزهقون كلّ الناس، إن أحداً لايوافق على ذلك، حتى ولا أنا الذي كنت أول من رمى ريش دجاج مبلول على طلاب الكليّة العسكرية، ومن مهدّ للإنقلاب قبل أن يفكر فيه المعنيّون بأمره، كنت أنا أوّل من صفّق لهم، من حضر صلاة الشكر في الكاتدرائية، وأنا من أجل هذا السبب لا أستطيع قبول أن تحدث هذه الأشياء في وطني، أن يختفي الناس، أن يخطفوا بالقوّة حفيدتي من بيتي دون أن أستطيع شيئاً، إن أحداً لم يرَ شبيهاً لهذه الأشياء عندنا، ولهذا، بالدقّة لهذا لم أستطع دفع نفسي عن المجيء للحديث معك، ياترانسيتو، لم أتخيّل يوماً منذ خمسين سنة، عندما لم تكوني غير نتفة بنت مقعدة في القنديل الأحمر، أنه يجب علي أن آتيك يوماً وأضرع لك على ركبتي كي تخدميني هذه الخدمة، بأن تعينيني في إيجاد حفيدتي، واسمحي لي بأن أسألك ذلك. فقد علمت أن لك علاقات طيبة مع الحكومة، حدثوني عنك، وأنا موقنٌ أنّ أحداً غيرك لايعرف أفضل منك الهامّين في القوات المسلّحة، أعرف أنّك مكلّفة بتنظيم حفلاتهم، وأعرف أنك تستطيعين الصعود إلى حيث لايمكن أن أرقى أبداً،

ولهذا أرجوك أن تصنعي شيئاً من أجل حفيدتي قبل أن يفوتنا الوقت، لأنّي منذ أسابيع لاأنام، لقد ركضت إلى كل المكاتب،، وكلّ الوزارات، وكلّ صلاتي القديمة، دون أن يستطع أحدٌ شيئاً من أجلي. والآن لايريدون حتى أن يستقبلونني، إنّهم يكرهونني على الإنتظار ساعات، أنا الذي قمت بخدمات لهؤلاء الناس، عن شفقة، يا ترانسيتو، إسأليني ما تريدين، أنا مازلت غنياً، نعم لقد كانت الأشياء صعبة علي في عهد الشيوعية، فقد صادروا لي أراضيّ، ولقد علمت ذلك ولاشك، فقد رأيته على تقديري في التلفزيون والصحافة، فضيحة حقيقية، لقد أكل هؤلاء الفلاحون الجهلة ثيراني المنتجة، وجعلوا مهاري تجرّ المحراث وفي أقل من عام كانت الماريات الثلاث خراباً، لكنّي اليوم غطيت الملكية بالتراكتورات وأنا الآن أعيدها من جديد إلى سابق عهدها، مثلما رممتها مرّة في شبابي، ورجعت إلى العمل وأنا عجوز، عجوز لكن ما انتهيت، بينما أولئك التعساء الذين أعطوا سندات تمليك على أراضي أنّا يذهبون وهم يهلكون جوعاً مثل كتيبة صعاليك تبحث عن بعض أعمال بائسة صغيرة كي يعيشوا، يا لهم من مساكين، لم تكن غلطتهم، لقد استسلموا لذلك الإصلاح الزراعي الشيطاني!، والحق أنّي غفرت لهم، وأحبّ لو يرجعون إلى الماريّات الثلاث، بل لقد أعلنت في الصحف أدعوهم، ربما عادوا فظهروا يوماً ولن يبقى عليّ آنئذ إلا أن أمدّ لهم يداً منجدّةً، إنّهم أطفالٌ كبارٌ، لكن، أنا لم أجيء كي أحدّثك عن هذا، يا ترانسيتو، ولا أريد أن أجعلك تضيعين وقتك، الهام أنّ وضعي جيّد، والريح تهبّ ملائمة على أعمالي، وأنا قادر على أن أعطيك ما تطلبين، أي شيء، شريطة أن تجدي حفيدتي ألبا، قبل أن يأتي مغضبٌ معتوهٌ فيبعث لي بأصابع أخرى مقطوعة أو أن تأتيه فكرة أن يرسل لي آذاناً، ويصل به الأمر إلى أن يجعلني مجنوناً أو يقتلني بالتسديد، أعذريني إذا صرت في هذه الحالة، يداي ترتجفان، أعصابي مجهدة، لاأستطيع أن أفسّر لك ما حدث، وصلتني رزمة بالبريد ليس في داخلها سوى ثلاث أصابع بشرية، مقطوعة قطعاً، مزاج مرعب يوقظ في ذكريات، لكنّ هذه الذكريات لاعلاقة لها بألبا، فما كانت قد ولدت بعد حفيدتي في تلك الفترة، لي أعداء كثيرون ولاشك، ليس مستغرباً

أن يوجد شاذ يريد أن يضايقني بإرسال أصابع بالبريد في اللحظة الدقيقة الذي وضعني فيها توقيف ألبا في اليأس، كلّ هذا من أجل إعطائي أفكاراً فظيعة، ولولا أنّني أنهكت بعد أن استنفذت كل المراجع، لما أتيت أزعجك، أنت، يا ترانسيتو، باسم صداقتنا القديمة، أرجوك، إرأفي بي، فأنا لست الآن سوى شيخ مسكين فان، إعملي معروفاً وفتشي أين حفيدتي ألبا قبل أن ينتهوا إلى إرسالها إليّ قطعاً صغيرة في البريد ـ قلت ذلك وأنا أنتحب.

إذا كانت ترانسيتو قد وصلت إلى حيث هي، فلأسباب عديدة، منها أنها عرفت كيف تسدّد ديونها، أعتقد أنّها استغلّت معرفتها بأكثر الوجوه تخفيّاً بين الرجال الموجودين في السلطة كي تردّ على طريقتها الخمسين بيزو التي أعرتها إياها. بعد ثمانٍ وأربعين ساعة، كلمتني بالهاتف.

ـ قالت لي: أنا ترانسيتو سوتو، انتهت المهمّة.

الخاتمة

مات جدّي البارحة مساء. لم يمت ككلب مثلما كان يخشى، وإنما بهدوء، بين ذراعي، ظاناً أحياناً أنّي كلارا، وفي أحيان أخرى روزا، من دون ألم، ولا قلق، واعياً وصافياً، أكثر وضوحاً من أي زمن مضى، سعيداً. هو ذا الآن ممدّد على حافة الفرقاطة، على بحر رائق، هادئاً ومبتسماً، بينما أنا أكتب على طاولة الخشب الأشقر التي كانت تخصّ جدّتي. فتحت ستائر الحرير الأزرق كي يدخل الفجر ويبهج هذه الغرفة. في القفص العتيق جدّاً قرب النافذة، يوجد كناري جديد يغنّي، وفي مركز الغرفة تماماً تنظر إلي عينا بارّاباس الزجاجيتان. قصّ لي جدي كيف أغمي على كلارا في اليوم الذي، رغب بأن يفرحها فيه، حوّل جثّة الحيوان إلى سجّادة سرير. وضحكنا من ذلك حتى الدموع وقرّرنا أن نذهب إلى القبو فنأتي ببقايا المسكين بارّاباس، الجليل في تكوينه البيولوجي الذي لايمكن تحديده، بالرغم من كلّ الزمن الذي انقضى على نفيه، ووضعناه في المكان عينه، الذي مدّه جدي فيه، من نصف قرن خلا، إجلالاً للمرأة التي هي أكثر من أحبّ في حياته.

قال: «سوف ندعه هنا حيث كان يجب أن يبقى دائماً».

رجعت إلى البيت في صبيحة شتاء مشعة في عربة تجرّها فرس نحيلة. كان الشارع، بصفّي أشجار الكستنا ذات المائة عام، وبيوته الموسرة، يؤلف زخرفة متنافرة مع تواضع العربة، لكنّها لما وقفت أمام مسكن جدّي، تناسقت ولا أحسن مع طرازه. كان بيت الزاوية الكبير أكثر حزناً وقدماً ممّا في ذاكرتي،

لامعنى له بغراباته المعماريّة، ومزاعمه أنّه من الطراز الفرنسي، وواجهته المغطاة بلبلاب سام. وماكان البستان غير تشابك عليق، وكلّ الدرفات كانت تتدلى من مفاصلها. كانت البوابة فاغرة، شأنها دائماً. قرعت الجرس، وبعد لحظة سمعت صوت بغل قديم يقترب منّي وخادمة مجهولة فتحت لي. وتفرّست فيّ دون أن تكتشف من أكون، بينما كانت تصعد إلى أنفي رائحة الخشب الرائعة وعفونة هذا البيت الذي رآني أولد. وامتلأت عيني بالدموع. ركضت إلى المكتبة، وأنا أحسّ أن جدّي في انتظاري، هناك حيث يجلس دائماً، وقد تجمّع في مقعده. وذهلت لما وجدته على كلّ هذا العجز، مسحوقاً، مرتجفاً، لم ينقذ من ماضيه غير شعره الأسدي الأبيض وعصاه الفضية الثقيلة. وبقينا فترة طويلة واحدنا بين ذراعي الآخر، وقد اتحدنا التصاقاً ونحن نتمتم جدي، ألبا، ألبا جدّي، ويقبّل بعضنا بعضاً، حتى إذا رأى يدي أخذ يبكي ويجدّف ويصفع الأثاث بضربات من عصاه كما كان يفعل من قبل، وأخذت أضحك أنا لما لمست أنّه ليس شديد العجز، ولم ينته كما ظهر لي من أوّل نظرة.

ويوماً، قال لي جدي إنّه يريد أن نترك البلد. عرضت له أنّي لاأستطيع السفر، وأنّي بعيداً عن هذه الأرض، أصير كالأشجار التي تقطع لعيد الميلاد، تلك الصنوبرات المسكينة دون جذور تدوم برهة ثم تموت.

قال لي وهو ينظر إلي ثابتاً: «أنا لم أخرف يا ألبا. إن السبب الحقيقي الذي يدفعك للرغبة في البقاء ليس سوى ميجيل، أليس كذلك؟»

انتفضت. لم أتلفظ له لحظةً بكلمة عن ميجيل. قال في حزنٍ:

«من اللحظة التي رأيته فيها، علمت أنّني لن أستطيع إخراجك من هذه البلاد».

ـ هل رأيته؟ أهو حيّ، ياجدّي؟ قلت وقد تشبثت بثيابه وأنا أهزّه.

أجاب: «كان حيّاً الأسبوع الماضي، لما التقينا في المرّة الأخيرة».

وروى لي أن خلال ليلةٍ بعد توقيفي، انطلق ميجيل في بيت الزاوية الكبير. كان على خوف كاد معه أن تنتابه السكتة، لكنّه بعد بعض الدقائق فهم

أن لهما معاً الهدف نفسه إنقاذي. وبعد ذلك، رجع ميجيل كثيراً كي يزوره، كان يسلّيه، وضافرا جهودهما كي يجدا أثري. وكان ميجيل هو الذي أتته فكرة أن يذهب فيرى ترانسيتو سوتو، ولولاه لما كان جدّي يفكر بذلك وحده بتاتاً.

ـ أصغ إلي يا سيدي. أعرف من يمسك بالسلطة في هذه البلاد. لقد تسربت جماعتي إلى كلّ مكان. وإذا كان هنالك أحدٌ يستطيع أن يساعد ألبا في هذا الوقت، فإنّه ترانسيتو سوتو، أكّد له.

وعرض جدّي قائلاً: «حين نتوصّل إلى إخراجها من مخالب البوليس السياسي يا بني، يجب أن تخرجها من هذه البلاد. سافرا معاً. أستطيع أن أحصل لكما على جوازي مرور، أما المال فلن ينقصكما أبداً».

لكن ميجيل نظر إليه كعجوز صغير ناقص العقل قليلاً واجتهد في أن يشرح له الرسالة التي ينبغي عليه إتمامها، والتي تمنعه من الفرار.

وقال جدّي وهو يضمّني بين ذراعيه: «وتعوّدت على فكرة أنّك باقية هنا، مهما كلّف ذلك. والآن حدثيني عن كلّ شيء. أريد أن أعرف كلّ شيء في أدقّ تفصيل».

رويت له حكايتي. قلت له بأن أنتنت يدي. أخذوني إلى مصحّة سريّة، حيث كانوا يرسلون السجناء الذين لامصلحة لهم معهم بتركهم يموتون. وعالجني هناك طبيب طويل القامة، أنيق الملامح، يبدو عليه أنّه يكرهني بقدر العقيد جارسيا وكان يرفض أن يعطيني مهدئات. وكان يستغل كلّ جلسة معالجة كي يعرض علي نظرياته الشخصية عن أحسن طريقة لاستئصال الشيوعية من البلاد، بقدر الإمكان، من العالم. وفيما عدا ذلك، كان يدعني في راحة، على كل حال. ولأول مرّة منذ أسابيع استفدت من أغطية نظيفة، وغذاء كاف، ونور في النهار. وكان يعنى بي روخاس، ممرض جذعه ضخم وسحنته مدوّرة، بقميص أزرق سماوي قذر دائماً، يتحلّى بطيب عميق. كان يطعمني ويسترسل في حكايات لاتنتهي عن مباريات كرة قدم ماضية تبارت فيها فرق، لم أسمع يوماً بها ويحصل لي على مهدّئات يزرقني بها سرّاً، إلى أن نجح في

الإنتهاء من نوبات دواري. في تلك المصحة، كان على روخاس أن يهتم برتل لايحصى من البائسين. وقد استطاع أن يلمس أنّ أكثرهم لم يكونوا قتلةً ولاخونةً للوطن، ومن أجل هذا السبب كان حسن الوضع مع السجناء. في غالب الأحيان كانماينتهي من رتي أحدهم حتى يأخذوه من جديد. فكان يقول كئيباً: «كأنّك تنقل رملاً إلى البحر». وعلمت أنّ بعضهم تضرع إليه كي يساعده في الموت، وأظنّ أنّه فعلها، في حالة واحدة على الأقلّ. وكانت لدى روخاس محاسبة دقيقة عن الداخلين والخارجين يستطيع دون تردّد أن يتذكّر الأسماء، والتواريخ، والمناسبات. وأقسم لي أنّه لم يسمع يوماً بذكر ميجيل، وهذا ما أعاد لي بعض الشجاعة للإستمرار في الحياة، بالرغم من أنّه كان يحدث لي أن أغرق في ظلمات هوّة الإنهيار، حتى لكنت أعود فأجترّ لحن أريد أن أموت. وروى لي ماكان من أمر أماندا. لقد أوقفوها في الوقت نفسه الذي أوقفوني فيه، عندما أتوا بها إلى روخاس، لم يكن هنالك مايمكن صنعه. وماتت دون أن تعترف عن أخيها، فوفت بالوعد الذي وعدته إياه قبل زمن طويل، يوم أخذته المرّة الأولى إلى المدرسة. والعزاء الوحيد، أن انتهى كل شيء في زمن أسرع مما رغبوا، لأنّ المخدر أضعف بنيتها كثيراً هو والبؤس اللانهائي الذي تركها فيه موت جيم. وعني بي روخاس إلى أن خفّت حرارتي وأخذت يدي تندمل، ورجع رأسي لي كلّه ونفذت حجج الإمساك بي أكثر، لكنّهم لم يرسلوني إلى مخالب إيستبان جارسيا، كما كنت أخشى. وأعتقد أنّه في تلك الفترة لعب تأثير المرأة الخيّر، ذات عقد اللؤلؤ التي ذهبنا نزورها، أنت يا جدّي وأنا، كي نشكرها لأنّها أنقذتني. جاء رجال أربعة يبحثون عني في قلب الليل. أيقظني روخاس وساعدني في ارتداء ثيابي وتمنّى لي حظّاً سعيداً. قبلته اعترافاً بجميله.

قال لي من الباب: «وداعاً يا صغيرتي! غيّري الرباط، ولاتبلّليه وإذا رجعت الحرارة فمعنى ذلك أنّه أنتن من جديد».

وأخذوني إلى زنزانة ضيّقة قضيت فيها بقيّة الليل جالسةً على كرسيّ. وفي اليوم التالي، قادوني إلى معسكر تجمّع للنساء. لن أنسى أبداً اللحظة التي

نزعوا فيها عصابة عيني ووجدتني في باحة مربّعة، مضاءة، تحيط بي نساء يغنيْن لي «نشيد الفرح». وكانت تقف بينهن صديقتي آنادياز فركضت وقبلتني. وسريعاً ما أجلسنني على فراش قشّ وشرحن لي قواعد جمعيتهنّ والمسؤوليات التي تقع عليّ.

وأمرن: «حتى شفائك، لن تغسلي ولن تخيطي، لكن يجب أن تهتمي بالأطفال».

لقد قاومت الجحيم في بعض الشجاعة، لكنني منذ اللحظة التي أحسست فيها بالحدب، علي، انهرت. كنت لدى أقل كلمة رقيقة، تداهمني أزمة دموع، وأقضي الليل وعيناي جاحظتان في السواد بين كدسة النساء اللائي كنّ يستيقظن بالدور من أجل العناية بي فما يدعنني وحيدة دائماً. كنّ يساعدنني وإذا راجعتني فعذّبتني الذكريات البشعة، أو أولجني في الرعب ظهور العقيد جارسيا، أو ألمّ بي انتحاب من أن يوقف ميجيلي. ميجيلي.

كنّ يقلن لي في إلحاح: «لاتفكّري بميجيل. يجب ألّا نفكّر بالأعزاء، ولا بالعالم من الناحية الثانية من هذه الجدران. إنّها الطريقة الوحيدة لأن نعيش».

وحصلت آنادياز على دفتر تلميذ وأهدتني إيّاه. قالت لي:

«كي تكتبي! كي نرى إذا كنت تتوصّلين إلى طرد كل هذا القيح الذي في داخل ذاتك، كي تستعيدي الثقة بنفسك وتعينينا في الخياطة».

وأريتها يدي وهززت برأسي أشير بعدم استطاعتي، لكنّها أدخلت في يدي الأخرى قلماً وقالت لي أن أكتب مثل الأعسرين. وأخذت أفعل قليلاً قليلاً. ودأبت على تنسيق الرواية التي بدأتها في حجرة الكلب. كانت رفيقاتي ينجدنني عندما يخطئني الصبر ويرتجف القلم في يدي. كنت أحياناً أرمي كلّ شيء، كي أركض حالاً فألتقط الدفتر، وأملّسه بحبّ، نادمة، لأنّي كنت أجهل متى يمكنني أن أحصل على جديد، أحياناً أخرى كنت أستيقظ كئيبة، وقد امتلأت هواجس، فأستدير ناحية الحائط، دون القدرة على أن أكلّم أحداً، لكنهنّ لم يكنّ يتركنني، كنّ يهززنني، يجبرنني على العمل أو رواية قصص

للأطفال. كنّ يغيّرن لي ضمادي بعناية ثم يضعن لي ورقي تحت أنفي.

كنّ يقلن ضاحكات أو ساخرات: «إذا أردت، رويت لك قضيتي كي تكتبيها». مع العلم أنّ كلّ الحالات متشابهة، وكان أفضل أن أكتب حكايات حبّ، لأنّها النوع الذي يعجب كلّ الناس. وكنّ يجبرنني أيضاً على أن أتغذّى، كنّ يوزّعن الحصص بروح العدالة الصارمة، لكلّ حسب حاجته، ويعطينني دائماً أكثر قليلاً، قائلات إنّي كنت كمسمار، وإن أكثر الرجال كبتاً لاينتبه إلي. وكنت أرتجف، لكنّ آناديار كانت تذكّرني بأنّي لم أكن الوحيدة التي اغتصبت، وقياساً على أشياء أخرى كثيرة، يجب أن أنسى. كانت النساء يقضين وقتهن بالغناء بصوتٍ عالٍ. وكان الشرطة يضربون على الحائط.

ـ أسددن أفواهكن يا قحبات.

ـ أسكتونا إن استطعتم أيهّا المغفّلون، ولنر إن كنتم تجرؤون!

وكن يستمررن على هواهنّ. وكانوا لايتحركون، فقد عرفوا من التجربة أنّه عبث أن تحاول منع مالايمنع.

واجتهدت في تسجيل أحداث شعبة النساء الصغيرة، إنهم أوقفوا أخت الرئيس، إنّهم ألغوا السجائر، إنّ موقوفات أخريات وصلن، وإنّ أدريانا عانت أزمة أخرى وهجمت على طفليهما كي تقتلهما، واضطررنا إلى أن ننتزعهما من يديها وجلست في زاوية وعلى كلّ من ذراعيّ صغير منهما كي أروي لهما، حتى يناما، من الحكايات السحرية التي كانت في صناديق تعازيم الخال ماركوس، وأنا أتأمل في قدر هذين الطفلين اللذّين يكبران في مكان كهذا، بين أم فقدت العقل، وأمهات أخريات مجهولات يعتنين بهنّ، لم ينسين بعد لهجة التهويدة ولا الإيماءة التي تعزّي، وكنّ يسألنني عن الطريقة التي يمكن فيها لابنيْ أدريانا أن يردّدا هذه الأغنية الحلوة وتلك المداعبة إلى أبناء وأحفاد تلك النساء اللّائي يهدهدنهما اليوم.

لم أبق إلّا أيّاماً في معسكر التجمّع. وجاءت الشرطة تبحث عنّي يوم أربعاء بعد الظهر. وأصبت بلحظة رعب لفكرة أنّهم سوف يأخذونني إلى إيستيبان جارسيا، لكنّ رفيقاتي لاحظنّ لي أنّهم يرتدون الزيّ الموحدّ وأنهم

ليسوا إذن جزءاً من البوليس السياسي، وهذا ما طمأنني قليلاً. وتركت لهنّ معطفي كي يحللن صوفه ويحكن شيئاً دافئاً لابنيْ أدريانا، وكذلك الدراهم التي كنت أحملها معي ساعة توقيفي، والتي ردّها لي العسكريّون، باستقامتهم الشديدة في كلّ ماليس مهمّاً، ودسست دفتري في بنطالي وقبلتهن جميعاً واحدة بعد الأخرى. وعندما رحلت، كان آخر شيء سمعته فرقة رفيقاتي تغنّي كي تشجّعني، وكما كنّ يفعلن تجاه كلّ الموقوفات اللائي يصلن أو يغادرن المعسكر. كنت أبكي وأنا أترك هذه الأمكنة التي كنت فيها سعيدة.

وتابعت حكايتي لجدّي وأنا أروي له أنّهم أقلّوني في شاحنة، وعيناي معصوبتان، خلال منع التجوّل. كنت أترجف ارتجافاً شديداً حتى لأسمع اصطكاك أسناني. أحد الرجال الذي كان يجلس إلى جانبي، في مؤخرة السيارة، أعطاني بونبونة، وربّت على كتفي كي يشجّعني.

قال لي هامساً: «لاتخافي يا آنسة، لن يصيبك مكروه. سوف نتركك، وبعد بضع ساعات سوف تكونين بين أهلك».

وتركوني على مزبلة عمومية قريباً من حيّ الإحسان. والذي أعطاني الحلوى نفسه ساعدني في النزول.

وشوش في أذني قائلاً: «إنتبهي، إنّه منع التجوّل. لاتتحرّكي قبل أن تطلع الشمس».

وسمعت المحرّك يدور وقلت لنفسي بأنّهم سوف يدهسونني، ويقرأ في الصحف أني مت، إذ سقطت في حادثة مرور، لكنّ السيارة ابتعدت دون أن تمسّني. وانتظرت لحظة وقد شلّني الخوف والبرد، ثم انتهيت إلى أن قرّرت نزع عصابتي كي أرى أين جنحت. ونظرت حولي. كان مكاناً قفراً، أرضاً عراء، امتلأ قذارات تعدو فيها الجرذان بين الفضلات. وكان القمر شاحباً يلمع مكنني من رؤية بيت صفيح بائس يرتسم في البعيد، مصنوع من المطيلة والأخشاب وقطع الكرتون. وفهمت أنّي يجب أن أحافظ على نصائح الحارس وأبقى في مكاني حتى تطلع الشمس. وكنت قد قضيت الليل على تلك المزبلة لو لم يظهر طفل يتخفّى بين الظلال، ويوجّه لي إشارات حذرة، وبما أنّي لم يكن

لديّ ما أضيعه، مشيت باتجاهه متعثّرة. لمّا وصلت إليه، استطعت أن أميّز وجهه الطفليّ القلق. رمى لي غطاء على كتفي، وأخذني من يدي فقادني إلى بيت الصفيح دون أن ينبس بكلمة. وتقدمنا ونحن مطأطئان، وقد تجنبنا الطريق وبعض المصابيح التي بقيت مضاءة، وأعطت الكلاب الإنذار بعوائها لكنّ أحداً لم يخرج كي يرى مايحدث. وقطعنا ساحة أرض مطروقة يتدلّى فيها غسيل مثل أعلام على سلك حديد ودخلنا في كوخ خرب، هو صورة كلّ الأكواخ التي تصادف هنا. ولمبة وحيدة تضيء داخله في حزن. وأوجعني الإملاق المطلق: كلّ الأثاث كان، طاولة صنوبر ومقعدين خشنين، وسرير ينام عليه عدة أطفال بعض على بعض. وأتت إليّ امرأة هزيلة جلدها معتم، وقد مخرت الدوالي ساقيها، واختفت عيناها في شبكة من التجاعيد الخيّرة التي لم تتوصّل إلى أن تجعلها تظهر عجوزاً. ابتسمت ولاحظت أنّها تنقصها عدّة أسنان. اقتربت وسوّت لي غطائي بحركة نزقة وخجول، دون أن تتجاسر على الوصول بجرأتها إلى تقبيلي.

قالت لي: «سأقدّم لك فنجاناً صغيراً من الشاي. لا سكّر عندي، لكنّه يفيدك أن تشربي شيئاً حاراً».

روت لي أنّهم سمعوا مرور الشاحنة، وكانوا يعرفون مايعني وجود سيارة في هذه الأمكنة البعيدة خلال منع التجوّل. وانتظروا حتى تأكّدوا من أنها ابتعدت، ثم ذهب الطفل كي يرى ما الذي تخلّص منه الآخرون. لقد توقّعوا أن يصادفوا جثة.

وشرحت لي قائلة: «إنّهم يجيئون من وقت لآخر كي يرموا معدوماً حتى يبقى الناس هادئين».

وقبعنا نتحدث بقية الليل. كانت من نساء بلدنا الصامدات العمليّات، اللائي يدع لهنّ كلّ رجل يمرّ في حياتهن طفلاً، واللائي يأتين إلى بيوتهن زيادة بمن يتخلّى عنهم الآخرون، ومن أدقع أهلهم، ومن بحاجة إلى أم أو أخت، أو خالة، من تلك النساء اللائي هن العمود المركزي لكثير من الحيوات المتبنّاة، اللائي يربين أطفالاً كي يرينهم يرحلون بدورهم واللائي ينظرون إلى رجالهنّ

يمرون دون ظلّ لعتب.

لقد بدت لي شبيهة بعديد من الأخريات اللائي عرفت في الشوربات الشعبية، وفي مشفى خالي جيم، وفي النيابة العامة حيث كنّ يذهبن كي يستعلمن عن مصير من اختفى من ذويهن، وفي معرض الجثث حيث كنّ يذهبن للتفتيش عن موتاهنّ. قلت لها إنّها جازفت كثيراً بمساعدتي، فلاحت لها باتسامة. وعلمت في تلك اللحظة أنّ أيام العقيد جارسيا وأشباهه صارت معدودة، لأنّهم لم يستطيعوا أن ينتصروا على روح تلك النساء.

وفي الصباح التالي رافقتني إلى جار من أصدقائها عنده عربة يكدن إليها حصان. وطلبت منه أن يأخذني إلى بيتي وهكذا رجعت. وفي الطريق، استطعت أن أكتشف المدينة بتناقضاتها الفظيعة، الأكواخ التي تحيط بها مخفيات - الشقاء كي توهم أنّها غير موجودة، وتجمّعات المركز الرماديّة، والأحياء الراقية ببساتينها الإنكليزية، ورروضاتها، وناطحات سحابها ذات البلّور، والورثة الشقر الذين يتنزهون على درّاجاتهم. الكلاب نفسها كانت تبدو لي أسعد. كلّ مافيها نظام وهدوء ونظافة، وذلك السلام الملائم للوجدان الذي كان بلا ذاكرة. حي كأنّه بلاد في البلاد.

أصغى إليّ جدّي وهو كئيب. عالمٌ كاملٌ ظنّه جميلاً وخيّراً آل إلى السقوط.

قال بمثابة الخاتمة: «بما أننا سوف نبقى هنا بانتظار ميجيل، يجب علينا أن ننظّم قليلاً هذا البيت».

ونهدنا إلى العمل. في البدء قضينا كلّ النهار في المكتبة، تحاصرنا فكرة أنّه يمكن أن يرجعوا كي يأخذوني إلى جارسيا، ثم قرّرنا بعد قليل أنه ليس أسوأ من أن نخاف من الخوف، كما كان يقول خالي نيكولاس، وأنّه يجب إشغال البيت كلّه وأن نبدأ العيش فيه حياة عاديّة. واستأجر جدّي شركة مختصّة رممته من القبو حتى المخزن، ومرّت الصاقلات والمنعمّات، فنظفت الزجاج، ودهنت وطهّرت، حتى جعلته قابلاً للسكن من جديد. وتغلبت نصف دزينة من البستانيين وبولدوزر على العلّيق، وجيء بخضير مقصوص مثل بساط، إختراع

أميرلوكي هائل، وفي مدّة أقلّ من أسبوع كانت لدينا بتولات بالغة، وعاد الماء للإنبثاق من السبل المزقزقة، وانتصبت من جديد شامخة، تماثيل الأولمب، بعد أن غسلت من النسيان ومن براز الحمام. وذهبنا معاً فاشترينا طيوراً من أجل الأقفاص التي بقيت فارغة منذ أحسّت جدّتي، بموتها القريب، ففتحت أبوابها. ووضعت زهوراً قطفتها طريّة في الفازات، وعلى الطاولات. ملأت أطباق الفاكهة، كما في فترة الأرواح الجميلة وأشبع الجوّ بعبيرها. ثم ذراعاً بذراع، جدّي وأنا، قمنا بدورة في البيت. نتوقف في كل مكان كي نتذكّر الماضي ونحيّي أشباح الماضي التي لاترى، والتي بقيت، بالرغم من صروف الحياة. أمينة على مراكزها.

إنّه جدّي الذي أتته فكرة أن نكتب نحن الإثنين هذه الحكاية.

قال لي: «هكذا، يا حفيدتي، إذا وجب عليك أن تذهبي يوماً من هنا، بوسعك أن تحملي جذورك معك».

وأخرجنا من الزوايا السرية والمنسيّة ألبومات العائلة القديمة، وعندي على طاولة جدتي كومة من الصور: روزا الجميلة قريباً من أرجوحة حال لونها، وأمي مع بيدرو الثالث جارسيا وعمرها أربع سنين، وهي تعطي الدجاج ذرة في باحة الماريّات الثلاث، وجدي لما كان شاباً وكان طوله متراً وثمانين، وتلك بيّنة لاترد أن لعنة فيرولا قد اكتملت حين صغر جسمه بالقدر الذي ذبلت روحه وخالاي جيم ونيكولاس، الأول صامت ومظلم، عملاق وعطوب، والآخر نحيل ولطيف، متقلّب وباسم، دون أن ننسى النونو وأبوي جدتي ديل فاله قبل أن يموتا في حادث سيارة، كلهم ماعدا النبيل جان دوساتييني الذي لايوجد عنه أيّ دليل علمي لوجوده والذي أخذت أشكّ فيه.

وأخذت أكتب بمساعدة جدّي الذي ظلّت ذاكرته سليمة حتى النهاية الأخيرة من سنّه التسعين عاماً. ولقد كتب هو نفسه عدة صفحات بيده، وعندما قدّر أنّه قال كل شيء، نام في سرير كلارا. وجلست عند رأسه أقاسمه انتظاره، ولم يتأخر الموت بالمجيء لأخذه. فاجأه في نومه، بهدوء. ربما كان

يحلم بامرأته تداعب له يده، وتطبع قبلة على جبينه، ولابد من القول، أنّها في الأيام الأخيرة لم تتركه لحظة، كانت تتبعه أنّى حلّ في البيت، وتنظر من فوق كتفه عندما يقرأ في المكتبة، وتضطجع ليلاً إلى جانبه، ورأسها المكلّل بالخصل يستند إلى كتفه. في البدء لم يكن ذلك سوى هالة خفيّة، لكنّ بالقدر الذي كان جدّي ينفصل للأبد عن ذلك الغضب الذي لاحقه طيلة حياته، كانت تظهر كما كانت في أحلى أيّامها، تضحك ملء شدقيها، فتهيّج الأرواح بطيرانها الخاطف. ولقد ساعدتنا أيضاً في صفحات كتابتنا، واستطاع إيستيبان تروييبا، بفضل وجودها أن يموت سعيداً وهو يتمتم باسمها: كلارا المضيئة كلاراي البصيرة.

في قعر حجرة الكلب، استطعت أن أكتب بالفكر بأن يوماً سوف يأتي يقف فيه أمامي العقيد جارسيا، تحت رحمتي وأني أكون خوّلت بالإنتقام لكلّ الذين يجب أن ينتقم لهم. لكنّي لست موقنة، بعد الآن، من حقدي. لقد ذاب في بضعة أسابيع، منذ أن بتّ في هذا البيت، واختفت حدوده البتّارة. أشك في أن الصدفة لم يكن لها دور فيما حصل، وأنّ هذا خضع لقدر مرسوم قبل ولادتي، وأن إيستيبان جارسيا كان عنصراً من هذا القضاء. وتلك نبذة غير متقنة، شوهاء، لكن ليست فيها أية ضربة ريشة زائدة. وفي اليوم الذي قلب فيه جدّي جدّته بانتشا جارسيا بين الأشجار على شاطئ النهر لم يزد سوى حلقة إضافيّة في سلسلة الأحداث التي وجب أن تتم. وبعد زمن كرّر حفيد المرأة المغتصبة البادرة على حفيدة الغاصب، وربما بعد أربعين سنة، قلب حفيدي حفيدته في الأعشاب العالية على حافة النهر، وهكذا دواليك خلال قرون القرون، في قصة دم لاتنتهي، وآلام، وحبّ. في قعر بيت الكلب خطرت لي فكرة أنّي كنت أنسّق أحد تلك المواضيع التي كانت كلّ قطعة فيها لها مكان محدود. وكان يبدو لي أنّ شيئاً لن يفهم منها، مالم أضع كلاً في مكانه، لكنني كنت على يقين، أني حين أتوصل إلى النهاية، أكون وجدت معنى لكلّ قطعة والالتحام بينها جميعاً. كلّ قطعة لها مبرر وجودها على ماهي عليه، ومنها العقيد جارسيا نفسه. أشعر منذ عدة لحظات أني عشت كلّ هذا، وأنّي كتبته كلمةً كلمة، لكنّي أفهم الآن أنه لست أنا، وإنّما امرأة أخرى أخذت من قبل

ملاحظات في دفاترها كي تسمح لي أن أستمدّ منها. أكتب، كتبت هي أن الذاكرة ضعيفة وأنّ مدى الحياة ليس هناك أقصر منه. وأنّ كل شيء يمضي سريعاً وأنّنا لانتوصّل إلى إدراك الصلات بين الأحداث، نحن لاقدرة لنا على قياس نتائج كل عمل، ونؤمن بوهم الزمن، بالحاضر وبالماضي وكذلك بالمستقبل، مع أنّه ربّما حدث كلّ شيء بالتناوب، كما كانت تقول الأُخوات مورا، القادرات على أن يلمحن في المكان أرواح كلّ العصور. لهذا الغرض كانت جدتي كلارا تملأ دفاترها: كي ترى الأشياء في أبعادها الحقيقيّة وتبطل أحابيل الذاكرة. وأنا التي أبحث عن حقدي فلا أجده. أحسّ أنّه ينطفئ بالقدر الذي أفسّر فيه وجود العقيد جارسيا وأشباهه، وأفهم فيه جدّي، والذي لاأنقطع فيه عن تعلّم الجديد من قراءة دفاتر كلارا، ورسائل أمي وسجلّ الماريّات الثلاث ووثائق أخرى ترتاح بعد الآن على هذه الطاولة التي هي في متناول يدي. سوف أجد صعوبةً كبرى في الانتقام لمن يجب أن ينتقم لهم، لكن انتقامي لن يكون سوى فصل جديد في الطقس الذي لايرحم. أريد أن أعتقد أن مهنتي ليست سوى الحياة، وأن دوري ليس في تخليد الحقد، وإنّما في تسويد هذه الصفحات بانتظار عودة ميجيل، في الوقت الذي أدفن فيه جدّي الذي يرتاح في هذه اللحظة إلى جانبي في هذه الغرفة، في الوقت الذي آمل فيه بمجيء أيّام أفضل، وأنا أحمل الولد الذي ينمو في بطني، بنت الإغتصاب المتكرّر أو بنت ميجيل، لكنّها قبل كل شيء بنتي أنا.

لقد ملأت جدّتي خلال خمسين عاماً بخطها دفاتر ملاحظات عن الحياة. ولقد استطاعت، بعد أن أخفتها بعض الأرواح التي كان لها دورها، أن تنجو بمعجزة من المحرقة الدنيئة، التي هلكت فيها أوراق عائلية أخرى. إنها هنا عند قدمي، مربوطة بشرائط حريريّة، مصنفة على هوى الأحداث، بالتسلسل التاريخي، كما تركتها قبل أن تحتجب. لقد كتبتها كلارا كي تسمح لي اليوم أن أحافظ على أشياء الماضي وأن أعيش بعد رعبي نفسه. الأول هو دفتر تلميذ من عشرين ورقة امتلأت بخط صبياني أنيق. إنه يبدأ هكذا: «وصل بارّاباس إلى العائلة عن طريق البحر».

الفهرس



كأنما أمسكت بسرّ الحياة في العالم الثالث بعنف تناقضاته وفداحة الفروق في موازينه. الشقاء يتطور بريشتها فينقلب إلى مقاومة والثروة تتحول إلى طاغية مستبد..

كل شيء هشّ وكل شيء عميق. جذور الحياة رائعة مدهشة، ولو أن تفسيرها صعب، وواقعها قسيئ. مدفوعة عن أن تعبّر عن ذاتها بالوقائع، مقصية عن الالتصاق بهذه الأعماق...

هل هذا هو قدرها؟... لا! لأن مصير الشعوب لايمكن إلا أن يكون جميلاً، لكن علائق الواقع بعض ببعض خطأ.. لما تنضج الشعوب كي تكون تلك الوقائع صحيحة.

غير أن الفنان يكشف عن سر الخطأ والصواب، ويرى عبر المشقّة والألم ألوان المستقبل وأنواره... حلمه أن تتحقق الألوان. لأنها مغموسة بدم الشعوب، ويضيء نور الأعماق لأنها من رؤى الشعوب تلك هي بيت الأرواح.. تجربة تشيلي خطأها وصوابها والتضحيات العظيمة: شهادة الليندي ورحيل بابلو نيروا...

والأمل الذي لاحدود له....

سامي الجندي